

العلم

في التاريخ

لابن الأثير

دار الكتب والوثائق
بيروت

الْكَامِلُ
فِي التَّجَارِيحِ

التكامل في

فالتاريخ

للامام العلامة عمده المؤرخين أبي الحسن علي بن أبي الكرم

محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد

الشيبياني المعروف بابن الاثير

الجزري الملقب بعز الدين

المتوفى سنة ٦٣٠ هـ

الجزء التاسع

عني بمراجعة أصوله والتعليق عليه

نخبة من العلماء

وتميزت لغة الطبعة بفهراس شاملة

الناشر

دار الكتاب العربي

صرب: ٥٧٦٩-١١ بيروت

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الخامسة
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

دار النايب العربي

الرملة البيضاء - ملكارت سنتر - الطابق الرابع تلفون: ٨٠٠٨٣٢ ٨٠٠٨١١ ٨٠٥٤٧٨
تلکس: ٤٠١٣٩ L.E. كتاب برفياً: الكتاب ص.ب: ٥٧٦٩ - ١١ بيروت - لبنان

الجزء التاسع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ثم دخلت سنة ست وثلاثين وخمسة ﴾

(ذكر انهزام السلطان سنجر من الأتراك الخطا وملكهم ماوراء النهر) ثم ذكر أصحاب التواريخ في هذه الحادثة أقاويل نحن نذكرها جميعها للخروج من اختلافها وعدتها فنقول في هذه السنة في المحرم وقيل في صفر انهزم السلطان سنجر من الترك الكفار وسبب ذلك أن سنجرا كان قتل ابنا الخوارزم شاه أتسز بن محمد كما ذكرناه قبل فبعث خوارزم شاه إلى الخطا وهم بماوراء النهر يطعمهم في البلاد ويروج عليهم أمرها وحثهم على قصد مملكة السلطان سنجر فساروا في ثلثمائة ألف فارس وسار اليهم سنجر في عساكره فالتقوا بماوراء النهر وافتتلوا أشد قتال وانهم سنجر وعساكره وقتل منهم مائة ألف قتيل منهم اثنا عشر ألفا كلهم صاحب عمامة وأربعة آلاف امرأة وأسرت زوجة السلطان سنجر وتم السلطان منهزما إلى ترمذ وسار منها إلى بلخ ولما انهزم سنجر قصد خوارزم شاه مدينة مرو فدخلها مراغمة للسلطان سنجر وقتل بها وقبض على أبي الفضل الكرمانى الفقيه الحنفي وعلى جماعة من الفقهاء وغيرهم من أعيان البلد ولم يزل السلطان سنجر مسعودا إلى وقتنا هذا لم تنهزم له راية ولما تمت عليه هذه السنة الهزيمة أرسل إلى السلطان مسعود وأذن له في التصرف في الري وما يجري معها على قاعدة أبيه السلطان محمد وأمره أن يكون مقبلا فيها بعساكره بحيث إن دعت حاجة استدعاه لأجل هذه الهزيمة فوصل عباس صاحب الري إلى بغداد بعساكره وخدم السلطان مسعودا خدمة عظيمة وسار السلطان إلى الري أمثالا لأمر عمه سنجر وقيل إن بلاد تركستان وهي كاشغر وبلاد بلاساغون وختن وطراز وغيرها مما يجاورها من بلاد ماوراء النهر كانت بيد الملوك الخانية الأتراك وهم مسلمون من نسل أفراسياب التركي إلا أنهم مختلفون وكان سبب إسلام جده شبق قراخاقان انه رأى في منامه كأن رجلا نزل من السماء فقال بالتركية ما عنناه أسلمت في الدنيا والآخرة فأسلم في منامه وأصبح فأظهر إسلامه فلما دلت قام مقامه ابنه موسى بن شبق ولم يزل الملك بتلك الناحية في أولاده إلى أرسلان خان بن محمد بن سليمان بن داود بغراخان بن إبراهيم الملقب بطيغاج خان بن أيلك الملقب بنصر أرسلان ابن علي بن موسى بن شبق فخرج على قدرخان فانتزع الملك منه فقتل سنجر قدرخان كما ذكرناه سنة أربع وتسعين وأربعمائة وأعاد الملك إلى أرسلان خان وثبت قدمه وخرج خوارج فاستصرخ السلطان سنجر فنصره وأعادته إلى ملكه وكان من جنده نوع من الأتراك يقال لهم القارغلية والأتراك الغزية الذين نهبوا خراسان على ما تذكره إن شاء الله وهم نوعان نوع يقال لهم أجق وأميرهم طوطى بن داديك وقوم يقال لهم برق وأميرهم يقال له قرغوت بن عبد الحميد فحسن الشريف الأشرف بن محمد بن أبي شجاع الملوى السمرقندى لولد أرسلان خان المعروف بنصرخان طالب الملك من أبيه وأطمعه فسمع محمد بن خان الخبر فقتل الابن والشريف الأشرف وجرت بين أرسلان خان وبين جنده القارغلية وحشة دعتهم إلى العصيان عليه وانتزع الملك منه فعاد

الاستعانة بالسلطان سنجر فعبّر جيحون بمساكره سنة أربع وعشرين وخمسمائة وكان بينهما مصاهرة فوصل إلى سمرقند وهرب القارغلية من بين يديه واتفق أن السلطان سنجر خرج إلى الصيد فرأى خيالة فقبض عليهم فقررهم فأقروا أن أرسلان خان وضعهم على قتله فعاد إلى سمرقند فحصر أرسلان خان بالقلمة فملكها وأخذه أسيرا وسيره إلى بلخ فمات بها وقيل بل غدر به سنجر واستضمره فملك البلد منه فأشاع عنه ذلك فلما ملك سمرقند استعمل عليها بعده قلعج طمغاج أبا المعالي الحسن بن علي بن عبد المؤمن المعروف بحسن تكين وكان من أعيان بيت الخانية إلى الآن إلا أن أرسلان خان اطرحه فلما ولي سمرقند وكان هذا حسن بن أخت سنجر لم تطل أيامه فمات عن قليل فأقام سنجر مقامه الملك محمود بن أرسلان خان محمد بن سليمان بن داود بغراخان وهو ابن الذي أخذ منه سنجر سمرقند وكان هذا محمود ابن أخت سنجر وكان قبل ذلك سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة قد وصل الأعور وهو كوخان الصيني إلى حدود كاشغر في عدد كثير لا يملهم إلا الله فاستعد له صاحب كاشغر وهو الخان أحمد بن الحسن وجمع جنوده فخرج إليه والتقوا فاقتتلوا وانهمزم الأعور الصيني وقتل كثير من أصحابه ثم إنه مات فقام مقامه كوخان الصيني وكوبلسان الصين لقب لأعظم ملوكهم وخان لقب الملوك الترك فعناه أعظم الملوك وكان يلبس لبسة ملوكهم من المقنعة والخمار وكان مانويا ولما خرج من الصين إلى تركستان انضاف إليه الأتراك الخطا وكانوا قد خرجوا قبله من الصين وهم في خدمة الخانية أصحاب تركستان وكان أرسلان خان محمد بن سليمان يسير على ستة عشر ألف خروقة ومنزلهم على الدروب التي بينه وبين الصين يمنعون أحدا من الملوك أن يتطرق إلى بلاده وكان لهم على ذلك جرايات وأقطاعات فاتفق أنه وجد عليهم في بعض السنين فمنعهم عن نسائهم لثلاثين ألفا فدوا فعظم عليهم ولم يعرفوا وجهها يتصدونه وتحيروا فاتفق أن اجتاز بهم قفل عظيم فيه الأموال الكثيرة والأمتعة النفيسة فأخذوه وأحضروا التجار وقالوا لهم إن كنتم تريدون أموالكم فعرفونا بلدا كثير المرهي فسيحا يسعنا ويسع أموالنا فاتفق رأى التجار على بلد بلاساغون فوصفوه لهم فأعادوا إليهم أموالهم وأخذوا الموكلين الذين كانوا بهم لمنعهم عن نسائهم وكتفومهم وأخذوا نسائهم وصاروا إلى بلاساغون وكان أرسلان خان يغزوهم ويكثر جهاتهم فخافوه خوفا عظيما فلما طال ذلك عليهم وخرج كوخان الصيني انضافوا إليه أيضا فعظم شأنهم وتضاعف جمعهم وملكوا بلاد تركستان وكانوا إذا ملكوا المدينة لا يغيرون على أهلها شيئا بل يأخذون من كل بيت ديناراً من أهل البلاد وغيرها من القرى وأما المزدروعات وغير ذلك فلأهلها وكل من أطاعهم من الملوك شد في وسطه شبه لوح فضة فتلك علامة من أطاعهم ثم صاروا إلى بلاد ماوراء النهر فاستقبلهم الخاقان محمود بن محمد من حدود خجندة في رمضان سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة واقتتلوا فانهزم الخاقان محمود بن محمد وعاد إلى سمرقند فعظم الخطب على أهلها واشتد الخوف والحزن وانتظروا البلاء صباحا ومساءً وكذلك أهل بخارا وغيرهما من بلاد ماوراء النهر وأرسل الخاقان محمود إلى السلطان سنجر يستمده وينهى إليه ما لقي المسلمون ويحثه على نصرتهم فجمع العساكر فاجتمع عنده ملوك خراسان صاحب سجستان والغور وملك غزنة وملك مازندران وغيرهم فاجتمع إليه أكثر من مائة ألف فارس وبقي العرض ستة أشهر وصار سنجر إلى لقاء الترك فعبروا إلى ماوراء النهر في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وخمسمائة فشكاه إليه محمود بن محمد خان من الأتراك القارغلية فقصرهم سنجر فالتجؤا إلى كوخان الصيني ومن معه من الكفان وأقام سنجر بسمرقند فكتب إليه كوخان كتابا يتضمن الشفاعة في الأتراك

القارغلية ويطلب منه أن يعفو عنهم فلم يشفعه فيهم وكتب اليه يدعوهم إلى الإسلام ويهدده إن لم يجب اليه ويتوعدده بكثرة عساكره ووصفهم وبالغ في قتالهم بأنواع السلاح حتى قال وإنهم يشقون الشعر بسهامهم فلم يرض هذا الكتاب وزير السلطان طاهر بن نخر الملك بن نظام الملك فلم يصنع اليه وسير الكتاب فلما قرىء الكتاب على كوخان أمر بتف حية الرسول وأعطاه إبرة وكلفه شق شعرة من لحيته فلم يتدر يفعل ذلك فقال كيف يشق غيرك شعرة بسهم وأنت عاجز عن شقها بإبرة واستعد كرخان للحرب وعنده جنود اترك والصين والخطا وغيرهم وقصد السلطان سنجر فالتقى العسكران وكانا كالبحرين العظيمين بموضع يقال له قتلوان وطاف بهم كوخان حتى ألجأهم إلى واد يقال له ديرغم وكان على ميمنة سنجر الأمير قجاج وعلى ديسرته ملك سجستان والأبطال وراهم فاقتتلوا خامس صفر سنة ست وثلاثين وخمسمائة وكانت الأتراك القارغلية الذين هربوا من سنجر من أشد الناس قتالا ولم يكن ذلك اليوم من عسكر السلطان سنجر أحسن قتالا من صاحب سجستان فأجلت الحرب عن هزيمة المسلمين فقتل منهم مالا يحصى من كثرتهم واشتمل وادي ديرغم على عشرة آلاف من القتلى والجرحى ومضى السلطان سنجر منهزما وأسر صاحب سجستان والأمير قجاج وزوجة السلطان سنجر وهي ابنة أرسلان خان فأطلقهم والحسام عمر بن عبد العزيز بن مازة البخاري الفقيه الحنفي المشهور ولم يكن في الإسلام وقعة أعظم من هذه ولا أكثر ممن قتل فيها بخراسان واستقرت دولة الخطا والترك الكفار بما وراء النهر وبقي كوخان إلى رجب من سنة سبع وثلاثين وخمسمائة فمات فيه وكان جميلا حسن الصورة لا يلبس إلا الحرير الصيني له هبة عظيمة على أصحابه ولم يسلط أميرا على أقطاع بل كان يعطيهم من عنده ويقول متى أخذوا الأقطاع ظلموا وكان لا يقدم أميرا على أكثر من مائة فارس حتى لا يقدر على العصيان عليه وكان ينهى أصحابه عن الظلم وينهى عن السكر ويعاقب عايبه ولا ينهى عن الزنا ولا يقبحه وملك بعده ابنة له فلم تطل مدتها حتى ماتت فملك بعدها أمها زوجة كوخان وابنه محمد وبقي ما وراء النهر بيد الخطا إلى أن أخذه منهم علاء الدين محمد خوارزم شاه سنة اثنتي عشرة وستمائة على ما نذكر إن شاء الله تعالى.

(ذكر مافله خوارزم شاه بخراسان) قد ذكرنا قبل قصد السلطان سنجر خوارزم وأخذها من خوارزم شاه أنسز وعوده اليها وقتل ولد خوارزم شاه وأنه هو الذي راسل الخطا وأطمعهم في بلاد الإسلام فلما لقيهم السلطان سنجر وعاد منهزما سار خوارزم شاه إلى خراسان فقصد سرخس في ربيع الأول من السنة فلما وصل اليها لقي الإمام أبا محمد الزيادي وكان قد جمع بين الزهد والعلم فأكرمه خوارزم شاه إكراما عظيما ورحل من هناك إلى مرو والشاهجان فقصدته الإمام أحمد الباخرزي وشفع في أهل مرو وسأل أن لا يعترض اليهم أحد من العسكر فأجابته إلى ذلك ونزل بظاهر البلد واستدعى أبا الفضل الكرمانى الفقيه وأعيان أهلها نثار عانة مرو وقتلوا بهض أهل خوارزم شاه وأخرجوا أصحابه من البلد وأغلقوا أبوابه واستعدوا للامتناع فقاتلهم خوارزم شاه ودخل مدينة مرو سابع عشر ربيع الأول من السنة وقتل كثيرا من أهلها، وعن قتل إبراهيم المروزي الفقيه الشافعي وعلى بن محمد بن أرسلان، وكان ذا فنون كثيرة من العلم وقتل الشريف على بن اسحق الموسوي وكان رأس فتنه وملقح شر وقتل كثيرا من أعيان أهلها؛ وعاد إلى خوارزم واستصحب معه تلامذة كثيرا من أهلها، ومنهم أبو الفضل الكرمانى وأبو منصور العبادى والقاضى الحسين بن محمد الأرسابندى وأبو محمد الخرقى الفيلسوف وغيرهم ثم سار في شوال من السنة إلى نيسابور فخرج إليه جماعة من فقيهاها وعلماها وزهادها وسألوه أن لا يفعل بأهل نيسابور مافعل

بأهل مرو فأجابهم إلى ذلك لكنه استقصى في البحث عن أموال أصحاب السلطان فأخذها وقطع خطبة السلطان سنجر أول ذي القعدة وخطبوا له فلما ترك الخطيب ذكر السلطان سنجر وذكر خوارزم شاه صاح الناس وثاروا وكادت الفتنة تثور والشر يهود جديدا وإنما منع الناس ذوو الرأي والعقل نظرا في العاقبة فقطعت إلى أول المحرم سنة سبع وثلاثين فأعيدت خطبة السلطان سنجر، ثم سير خوارزم شاه جيشا إلى أعمال بهق فأقوا بها يقاتلون أهلها خمسة أيام ثم سار عنها ذلك الجيش ينهبون البلاد وعماروا بخراسان أعمالا عظيمة ومنع السلطان من مقاتلة أتزر خوارزم شاه لأجل قوة الخطا بما وراء النهر ومجاورتهم وملك خوارزم شاه هذه البلاد وغيرها من خراسان .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة ملك أتابك زنكي بن آقسنقر مدينة الحديثة ونقل من كان بها من آل مهراش إلى الموصل ورتب أصحابه فيها . وفيها أيضا خطب لزنكي بمدينة آمد وصار صاحبها في طاعته وكان قبل ذلك موافقا لداود على قتال زنكي فلما رأى قوة زنكي صار معه . وفيها عزل مجاهد الدين هرروز عن شحنة بغداد ووليها قزل أمير أخور وهو من مماليك السلطان محمود وكان له بروجرد والبصرة فأضيف إليه شحنة بغداد ثم وصل السلطان إلى بغداد فرأى من تبسط العيارين وفسادهم ماساه فأعاد هرروز إلى الشحنة قتال كثير منهم ولم ينتفع الناس بذلك لأن ولد الوزير وأخاه امرأة السلطان كانا يقاسمان العيارين فلم يقدر هرروز على منعهم . وفيها تولى عبد الرحمن طغابرك حجة السلطان واستولى على المملكة وعزل الأمير تبر الطغرلي عنها وآل أمره إلى أن هشي في ركاب عبد الرحمن . وفيها توفي إبراهيم السهاوي مقدم الإسماعيلية فأخرجه ولد عباس صاحب الري في تابوته . وفيها حج كمال الدين بن طلحة صاحب المخزن وعاد . وقد لبس ثياب الصوفية وتخلي عن جميع ما كان عليه وأقام في داره مرعى الجانب محروس القاعدة . وفيها وصل السلطان إلى بغداد وكان الوزير الزينبي بدار السلطان كما ذكرنا فسأل السلطان أن يشفع فيه ليرده الخليفة إلى داره فأرسل السلطان وزيره إلى دار الخلافة وعنه الوزير شرف الدين الزينبي وشفع أن يعود إلى داره فأذن له في ذلك وأعاد أخاه إلى نقابة النقباء فلزم الوزير داره ولم يخرج منها إلا إلى الجامع . وفيها أغار عسكر أتابك زنكي من حلب على بلاد الفرنج فنهبوا وأحرقوا وظفروا بسرية الفرنج فقتلوا فيهم وأكثروا فكان عدد القتلى سبعمائة رجل . وفيها أفسد بنو خفاجة بالعراق فسير السلطان مسعود سرية إليهم من العسكر فنهبوا حلتهم وقتلوا من ظفروا به منهم وعادوا سالمين . وفيها سير رجار الفرنجي صاحب صقلية أسطولا إلى أطراف أفريقية فأخذوا سراكب سيرت دن مصر إلى الحسن صاحب أفريقية وغدر بالحسن ثم راسله الحسن وجدد الهدنة لأجل حمل الغلات من صقلية إلى أفريقية لأن الغلاء كان فيها شديدا والموت كثير . وفيها توفي أبو القاسم عبد الوهاب ابن عبد الواحد الحنبلي الدمشقي وكان عالما . وفيها توفي ضياء الدين أبو سعيد الكفرتوشي وزير أتابك زنكي وكان حسن السيرة في وزارته كريما رئيسا . وفيها توفي أبو محمد بن طائوس إمام الجامع بدمشق في المحرم وكان رجلا صالحا فاضلا . وفيها توفي أبو القاسم اسمعيل بن أحمد بن همر بن أبي الأشعث المعروف بابن السمرقندي ولد بدمشق سنة أربع وخمسين وأربعمائة وكان مكثرا من الحديث عالي الرواية .

(ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر ملك عماد الدين أتابك زنكي قلعة أشب وغيرها من الهكارية) في هذه السنة أرسل أتابك زنكي

ذكر حصر الفرنج طرابلس الغرب

جيشا إلى قلعة أشب وكانت أعظم حصون الأكراد الهكارية وأمنعها وبها أموالهم وأهلهم فحصرها وضيقوا على من بها فلكوها فأمر بإخراستها وبناء القلعة المعروفة بالهادية عوضا عنها وكانت هذه القلعة الهادية حصنا عظيما من حصونهم فخر به لكبره لأنه كبير جدا وكانوا يديجون عن حفظه فخرت الآن أشب وعمرت الهادية وإنما سميت الهادية لنسبة إلى لقبه وكان نصير الدين جقر نائبه بالموصل قد فتح أكثر القلاع الجبلية.

(ذكر حصر الفرنج طرابلس الغرب) وفي هذه السنة سارت مراكب الفرنج من صقلية إلى طرابلس الغرب فحصرها وسبب ذلك أن أهلها في أيام الأمير الحسين صاحب أفريقية لم يدخلوا أبدا في طاعته ولم يزالوا مخالفين مشاقتين له قد قدموا عليهم من بني بطر وح دشايخ يدبرون أمرهم فلما رأى ملك صقلية كذلك جهز إليهم جيشا في البحر فوصلوا إليهم تاسع ذي الحجة فنازلوا البلد وقتلوه وعلقوا الكلاب في سورته ونقبوه فلما كان الغد وصل جماعة من العرب نجدة لأهل البلد فتوى أهل طرابلس بهم فخرجوا إلى الأسطول فحملوا عليهم حملة منكرة فانهزموا هزيمة قاحشة وقتل منهم خلق كثير ولحق الباقون بالأسطول وتركوا الأسلحة والأثقال والدواب والآلات فنهبا العرب وأهل البلد ورجع الفرنج إلى صقلية فجهزوا أسلحتهم وتجهزوا إلى المغرب فوصلوا إلى جيجل فلما رأى أهل البلد هربوا إلى البراري والجبال فدخلها الفرنج وسبوا من أدركوا فيها وهدموها وأحرقوها وأخربوا القصر الذي بناه يحيى بن العزيز بن حماد للنزهة ثم عادوا .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة خرج حسن أمير الأمراء على السلطان سنجر بخراسان . وفيها توفي محمد بن دانشمند صاحب ملطية والشعر واستولى على بلاده الملك مسعود بن قلع أرسلان صاحب قونية وهو من السلجوقية . وفيها خرج من الروم عسكر كثير إلى الشام فحصروا الفرنج بأنطاكية فخرج صاحبها واجتمع بملك الروم وأصلح حاله معه وعاد إلى مدينته ومات في رمضان من هذه السنة ثم إن ملك الروم بعد أن صالح صاحب أنطاكية صار إلى طرابلس فحصرها ثم سار عنها . وفيها قبض السلطان مسعود على الأمير ترشك وهو من خواص الخليفة وعين ربي عنده وفي داره فساء ذلك الخليفة ثم أطلقه السلطان حفظا لقلب الخليفة . وفيها كان بمصر وباء عظيم فهلك منه أكثر البلاد .

(ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر صلح الشهيد السلطان مسعود وأتابك زنكي) في هذه السنة وصل السلطان مسعود إلى بغداد على عادته في كل سنة وجمع العساكر وتجهز لقصد أتابك زنكي وكان حقد عليه حقا شديدا وسبب ذلك أن أصحاب الأطراف الخارجين على السلطان مسعود كانوا يخرجون عليه على ما تقدم ذكره فكان ينسب ذلك إلى أتابك زنكي ويقول هو الذي سمى فيه وأشار به لئلا يعلم أنهم كانوا يصدرون عن رأيه فكان أتابك زنكي لاشك يفعل ذلك لئلا يبتغوا السلطان فيتمكن منه ومن غيره فلما تفرغ السلطان هذه السنة جمع العساكر ليسيروا إلى بلاده فسير أتابك يستمطيه ويستميله فأرسل إليه السلطان أبا عبد الله بن الأنباري في تقرير القواعد فاستقرت القاعدة على مائة ألف دينار بحملها إلى السلطان ليمرد عنه فحمل عشرين ألف دينار أكثرها عروض ثم تنقلت الأحوال بالسلطان إلى أن احتاج إلى مداراة أتابك وأطلق له الباقي استمالة له وحفظا لقلبه وتعود السلطان عنه كان سببه حصانة بلاده وكثرة عساكره وأمواله ومن جيد الرأي ما فعله الشهيد في هذه الحادثة

فإنه كان ولده الأكبر سيف الدين غازي لا يزال عند السلطان صفرا وحضرا بأمر والده فأرسل إليه ثانية وأرسل إليه نائبه بها نصير الدين جقر فيقول له لينعه عن الدخول إلى الموصل والوصول إليه فهرب غازي وبلغ الخبر ولده فأرسل إليه بأمره بالعودة إلى السلطان ولم يجتمع به وأرسل معه رسولا إلى السلطان يقول له إن ولدي هرب خوفا من السلطان لما رأى تغيره على وقد أعدته إلى الخدمة ولم أجمع به فإنه مملوكك والبلاد لك فخل ذلك من السلطان محلا عظيما .

(ذكر ملك أنابك بعض ديار بكر) وفي هذه السنة سار أنابك زنكي إلى ديار بكر ففتح منها عدة بلاد وحصون فمن ذلك مدينة طنزة ومن ذلك مدينة أسعرد ومدينة حيزان وحصن الدوق وحصن مطليس وحصن بانسبة وحصن ذي القرنين وغير ذلك مما لم يبلغ غيره هذه الأماكن وأخذ أيضا من بلد ماردين مما هو بيد الفرنج حملين والموزر وتل موزر وغيرها من حصون جوسلين ورتب أمور الجميع وخلي فيها من الأجناد من يحفظها وقصد مدينة آمد وحاق فصرهما وأقام بتلك الناحية مصلحا لما فتحه ومحصرا لما لم يفتحه .

(ذكر أمر العيارين ببغداد) وفي هذه السنة زاد أمر العيارين وكثر لأمنهم من الطلاب بسبب ابن الوزير وابن قاورت أخى زوجة السلطان لأنهما كان لهما نصيب من الذي يأخذه العيارون وكان النائب في شحنة بغداد مملوكا اسمه أيلدكز وكان صارما مقديما ظالما فحمله الإقدام إلى أن حضر عند السلطان فقال له السلطان إن السياسة قاصرة والناس قد هلكوا قال يا سلطان العالم إذا كان عقيد العيارين ولد وزيرك وأخا امرتك ، فأى قدرة لى على المفسدين وشرح له الحال فقال له الساعة يخرج وتكبس عليهما أين كانا وتصلبهما فإن فعلت وإلا صلبتكم فأخذ خاتمه وخرج فكبس على ابن الوزير فلم يجده فأخذ من كان عنده وكبس على ابن قاورت فأخذه وصلبه فأصبح الناس وهرب ابن الوزير وشاع الأمر ورؤى ابن قاورت مصلوبا فهرب أكثر العيارين وقبض على من أقام وكفى الناس شرهم .

(ذكر حصر سنجر خوارزم وصلحه مع خوارزم شاه) قد ذكرنا سنة اثنتين وثلاثين مسير سنجر إلى خوارزم وملكها لها وعود أتسز خوارزم شاه إليها وأخذها وما كان منه بخراسان بعد ذلك ، فلما كان في هذه السنة سار السلطان سنجر إلى خوارزم شاه فجمع خوارزم شاه عساكره وتحصن بالمدينة ولم يخرج منها لقتال لعله أنه لا يقوى لسنجر وكان القتل يجري بين الفريقين من وراء السور فاتفق في يوم من بعض الأيام أن هجم أمير من أمراء سنجر اسمه سنقر على البلد من الجانب الغربي فلم يبق غير ملكة قهراً وعنوة وكان مثقال التاجى هجم من الشرق فانهزم مثقال عن البلد وبقى سنقر وحده في البلد فقوى عليه خوارزم شاه أتسز فأخرجه من البلد وبقى سنجر وحده واشتد في حفضه ، فلما رأى السلطان قوة البلد وامتناعه هزم على العود إلى سرو ولم يتمكن من غير قاعدة تستقر بينهما فاتفق أن خوارزم شاه أرسل رسلا يبذل المال والطاعة والخدمة ويعود إلى ما كان عليه من الانقياد فأجابه إلى ذلك واصطالحا وعاد سنجر إلى سرو وأقام خوارزم شاه بخوارزم .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة سير أنابك زنكي عسكر إلى مدينة عانة من أعمال الفرات فملكوها . وفيها في المحرم توفى أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك بن أحمد الأنباطى الحافظ ببغداد وهو ولد سنة اثنتين وستين وأربعمائة . وفيها توفى أبو الفتوح محمد بن الفضل بن محمد الإسفراينى الواعظ من أهل اسفراين من خراسان وأقام مدة ببغداد يعظ وصار إلى خراسان ، فلما مات حضر الغزنوى عزاه ببغداد وبكى وأكثر فقال بعض

أصحاب أبي الفتوح للغزنوى كلما أغاظ له فيه فلما قام الغزنوى لأمه بعض تلامذته على حضور العزاء وكثرة البكاء وقال له كنت مهاجرا لهذا الرجل ، فلما مات حضرت عزاءه وأكثر البكاء وأظهرت الحزن قال كنت أبكى على نفسى كان يقال فلان وفلان ، فمن يعدم النظير أيقن بالرحيل وأنشد هذه الآيات :

ذهب المبرد وانقضت أيامه • وسينقضى بعد المبرد ثعاب
بيت من الآداب أصبح نصفه • خربا وباق نصفه فسيخرب
فتزودوا من ثعلب فبمثل ما • شرب المبرد عن قليل يشرب
أوصيكم أن تكتبوا انقاسه • إن كانت الانقاس مما يكتب

وفيها توفى الوزير شرف الدين على بن طراد الزينبي في رمضان معزولا ودفن بداره بباب الأزج ثم نقل إلى الحربية . وفيها توفى أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري النحوى المفسر و (زمخشري) إحدى قرى خوارزم .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ﴾

(ذكر فتح الرها وغيرها من البلاد الجزرية) في هذه السنة سادس جمادى الآخرة فتح أنابك عماد الدين زنكى بن آقسنقر مدينة الرها من الفرنج وفتح غيرها من حصونهم بالجزيرة أيضا وكان ضررم قد عم بلاد الجزيرة وشرم قد استطار فيها ووصلت غاراتهم إلى أدانيها وأناصيحها وبلغت آمد ونصيبين ورأس العين والرقه وكانت ملكتهم بهذه الديار من قريب ماردين إلى الفرات مثل الرها وسروج والبيرة وسن ابن عطية وحلمين والموزر والفرادى وغير ذلك وكانت هذه الأعمال مع غيرها مما هو غرب الفرات لجوسلين وكان صاحب رأى الفرنج والمقدم على عساكرهم لما هو عليه من الشجاعة والمكر وكان أنابك يعلم أنه متى قصد حضرها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها فيتعذر عليه ملكها لما عى عليه من الحصانة فاشتغل بديار بكر ليوم الفرنج أنه غير متفرغ إلى قصد بلادهم فلما رأوه أنه غير قادر على ترك الأرتقية وغيرهم من ملوك ديار بكر حيث إنه محارب لهم اطمأنوا وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات إلى بلاد الغربية فجاءت عيون أنابك إليه فأخبروه الخبر فنادى فى العسكر بالرحيل وأن لا يتخلف عن الرها أحد من غد يومه وجمع الأمرأه عنده وقال : قدموا الطعام ، وقال : لا يأكل معى على مائدتى هذه إلا من يطعن غدا معى بباب الرها فلم يتقدم إليه غير أمير واحد وصبي لا يعرف لما يعلمون من إقدامه وشجاعته ، وأن أجدا لا يقدر على مساواته فى الحرب ، فقال الأمير لذلك الصبي ما أنت فى هذا المقام ، فقال أنابك دعه فوالله إنى أرى وجهاً لا يتخلف عنى وسار والعساكر معه ووصل إلى الرها ، وكان هو أول من حمل على الفرنج وحمل ذلك الصبي وحمل فارس من خيالة الفرنج على أنابك عرضا فاعترضه ذلك الأمير فطعنه فقتله وسلم الشهيد ونازل البلد وقاتله ثمانية وعشرين يوما فزحف إليه عدة دفعات وقدم النقاين فنتقبوا سور البلد وبلج فى قتاله خوفا من اجتماع الفرنج والمسير إليه واستنقاذ البلد منه فسقطت البدنة التى نصبها النقايون وأخذ البلد عنوة وقهرا وحصر قلعتة فملكها أيضا ونهب الناس الأموال وسبوا الذرية وقتلوا الرجال فلما رأى أنابك البلد أعجبه ورأى أن تخريب مثله لا يجوز فى السياسة فأمر فتودى فى العساكر برد ما أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم وإعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم فردوا الجميع عن آخره لم يفقد منه شيء إلا الشاذ النادر الذى أخذ وفارق من أخذ العسكر فعاد البلد على حاله الأول

وجعل فيه عسكريا يحفظه وتسلم مدينة سروج وسائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات ما عدا البيرة فإنها حصينة منيعة وعلى شاطئ الفرات فسار إليها وحصرها ، وكانوا قد أكثروا ميرتها ورجالها فبقي على حصارها إلى أن رحل عنها ما ذكره إن شاء الله تعالى .

(حكي) أن بعض الحكماء بالأنساب والنواريخ قال كان صاحب جزيرة صقلية قد أرسل سرية في البحر إلى طرابلس الغرب وتلك الأعمال فهبوا وقتلوا وكان بصقلية إنسان من العلماء المسلمين وهو من أهل الصلاح وكان صاحب صقلية يكرمه ويحترمه ويرجع إلى قوله ويقدمه على من عنده من القسوس والرهبان ، وكان أهل ولايته يقولون إنه مسلم بهذا السبب ، ففى بعض الأيام كان جالسا فى منظره تشرف على البحر وإذا قد أقبل مركب لطيف وأخبره من فيه أن عسكريه دخل بلاد الإسلام وغنموا وقتلوا وظفروا وكان المسلم إلى جانبه وقد أغنى فقال له الملك يابلان أما تسمع ما يقولون . قال : لا . قال : إنهم يخبرون بكذا وكذا أين كان محمد عن تلك البلاد وأهلها ؟ فقال له كان غاب عنهم وشهد فتح الرها ، وقد فتحها المسلمون الآن . فضحك منه من كان هناك من الفرنج فقال الملك لا تضحكوا فوالله ما يقول إلا الحق ، فبعد أيام وصلت الأخبار من فرنج الشام بفتحها . وحكى لى جماعة من أهل الدين والصلاح أن إنسانا صالحا رأى الشهيد فى النوم فقال له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى بفتح الرها .

(ذكر قتل نصير الدين جقر وولاية زين الدين على كوجك قلعة الموصل) فى هذه السنة فى ذى القعدة قتل نصير الدين جقر نائب أتابك زنكى بالموصل والأعمال جميعها التى شرق الفرات وسبب قتله أن الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجى ولد السلطان محمود كان عند أتابك الشهيد . وكان يظهر للخلفاء والسلطان مسعود وأصحابه بالأطراف أن هذه البلاد لهذا الملك وأنا نائبه فيها . وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليخطب له بالسلطنة ويملك البلاد باسمه . وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة ونصير الدين يقصده كل يوم ليقوم بخدمة إن عرضت له فحسن له بعض المفسدين طلب الملك وقال له إن قتلت نصير الدين ملكت الموصل وغيرها من البلاد ولا يبقى مع أتابك زنكى فارس واحد فوقع هذا منه موقعا حسنا وظنه صدقا فلما دخل نصير الدين إليه وثب عليه من عنده من أجناد أتابك وبماليكه فقتلوه وألقوا برأسه إلى أصحابه ظنا منهم أن أصحابه يتفرقون ويخرج الملك ويملك البلد وكان الأمر خلاف ماظنوه فإن أصحابه وأصحاب أتابك الذين فى خدمته لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدار مع الملك واجتمع معهم الخلق الكثير ، وكانت دولة أتابك مملوءة بالرجال والأجناد ذوى الرأى والتجربة ، ثم دخل إليه القاضى تاج الدين يحيى بن الشهرزورى ولم يزل به يخدعه ، وكان فيما قال له لما رآه منزعا يامولانا لم تحرد من هذا الكلب : هذا وأستاذه بمالك والحمد لله الذى أراحنا منه ومن صاحبه على يدك وما الذى يقعدك فى هذه الدار قم لتصعد القلعة وتأخذ الأموال والأسلحة وتملك البلد وتجمع الجند وليس دون الموصل مانع فقام معه وأصعده القلعة فلما قاربها أراد من بها من النقيب والأجناد القتال فتقدم إليهم القاضى تاج الدين وقال لهم افتحوا الباب وتسلبوه وافعلوا به ما اردتم : ثم فتح الباب ودخل الملك والقاضى إليها ومعهما من أعان على قتل نصير الدين فسجنوا ونزل القاضى وبلغ الخبر أتابك زنكى وهو يحاصر قلعة البيرة وقد أشرف على ملكها فخاف أن تخلف البلاد الشرقية بعد قتل نصير الدين ففارق البيرة وأرسل زين الدين على بن بكتكين إلى قلعة الموصل واليا على ما كان نصير الدين يتولاه .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة قبض السلطان مسعود على وزيره البروجردى ووزر بعده المرزبان ابن عبيد الله بن نصر الأصفهاني وسلم اليه البروجردى فاستخرج امواله ومات مقبوضا . وفيها كان أتابك همدان الدين زنكى يحاصر البيرة وهي للفرنج شرق الفرات بعد ملك الرها وهي من أمنع الحصون وضيق عليها وقارب أن يفتحها فجاءه خبر قتل نصير الدين نائبه بالموصل فرحل عنها وأرسل نائبا الموصل وأقام ينتظر الخبر فخاف من بالبيرة من الفرنج أن يعود إليهم وكانوا يخافونه خوفا شديدا فأرسلوا إلى نجم الدين صاحب ماردين وحلوهما له فملكها المسلمون . وفيها خرج أسطول الفرنج من صقلية إلى ساحل أفريقية والغرب ففتحوا مدينة برشك وقتلوا أهلها وسبوا حريمهم وباعوه بصقلية على المسلمين . وفيها توفى تاشفين بن علي بن يوسف صاحب المغرب وكانت ولايته تزيد على أربع سنين . وولى بعده أخوه وضعف أمر المثلثين وقرى عبد المؤمن وقد ذكرنا ذلك سنة أربع عشرة وخمسة . وفيها في شوال ظهر كوكب عظيم له ذنب من جانب المشرق وبقى إلى نصف ذى القعدة ثم غاب . ثم طلع من جانب الغرب فقيل هو هو . وقيل بل غيره . وفيها كانت فتنة عظيمة بين الأمير هاشم بن فليته بن القاسم العلوى الحسينى أمير مكة والآمير نظر الخادم أمير الحاج فنهب أصحاب هاشم الحجاج وهم في المسجد يطوفون ويصلون ولم يرقبوا فيهم إلا ولا ذمة . وفيها في ذى الحجة توفى عبدالله أحمد بن محمد بن محمد بن عبدالله بن حمدويه أبو المعالى المروزى بمرور وسافر الكثير وسمع الحديث الكثير وبني بمرور رباطا ووقف فيه كتبا كثيرة وكان كثير الصدقة والعبادة . وتوفى محمد بن عبد الملك بن حسن بن ابراهيم بن خيرون أبو منصور المقرئ في رجب ومولده في رجب سنة أربع وخمسين وأربعمائة وهو آخر من روى عن الجوهري بالإجازة . وفي ذى الحجة منها توفى أبو منصور سعيد بن محمد بن عمر المعروف بابن الرزاز مدرس النظامية ببغداد ومولده سنة اثنتين وستين وأربعمائة وتفقه على الغزالي والشاشي ودفن في تربة الشيخ أبي إسحاق . (١)

(ثم دخلت سنة أربعين وخمسة)

(ذكر اتفاق بوزابة وعباس على منازعة السلطان) في هذه السنة سار بوزابة صاحب فارس وخوزستان وعساكره إلى قاشان ومعه الملك محمد بن السلطان محمود ووصل إليهما الملك سليمان شاه بن السلطان محمد واجتمع بوزابة والأمير عباس صاحب الري واتفقا على الخروج عن طاعة السلطان مسعود وملكا كثيرا من بلاده ووصل الخبر إليه وهو ببغداد ومعه الأمير عبدالرحمن طغايك وهو أمير حاجب حاكم في الدولة وكان ميله إليهما فسار السلطان في رمضان عن بغداد ونزل بها الأمير مهلهل ونظر وجماعة من غلمان بهروز وسار السلطان وعبدالرحمن معه فتقارب العسكران ولم يبق إلا المصاف فلحق سليمان شاه بأخيه مسعود وشرع عبدالرحمن في تقرير الصلح على القاعدة التي أرادوها وأضيف إلى عبدالرحمن ولاية أذربيجان وأرانية إلى ما بيده وصار أبو الفتح بن دارست وزير السلطان مسعود وهو وزير بوزابة فصار السلطان معهم تحت الحجر وأرسلوا بك

(١) وفيها توفى عمر بن إبراهيم بن محمد بن أحمد بن علي بن الحسين بن علي بن حمزة بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، القرشي العلوى ، أبو البركات الكوفي ، ثم البغدادي ، سمع الكثير وكتب كثيرا وأقام بدمشق مدة ، وكان له معرفة جيدة بالفقه والحديث والتفسير واللغة والأدب ، وله تصانيف في النحو ، وكان خشن العيش ، صابرا محتسبا ، توفى في شعبان من هذه السنة عن سبع وثمانين سنة رحمه الله تعالى .

أرسلان بن بلنكري المعروف بخاص بك وهو ملازم السلطان وتربيته وصار في خدمته عبدالرحمن ليحقن دمه وصار الجماعة في خدمة السلطان بالصورة لا بالماني والله أعلم.

(ذكر استيلاء علي بن ديبس بن صدقة على الحلة) في هذه السنة سار علي بن ديبس إلى الحلة هاربا فلكها وكان سبب ذلك أن السلطان لما أراد الرحيل من بغداد أشار عليه مهلهل أن يحبس علي بن ديبس بقلعة تكريت فلم ذلك فهرب في جماعة يسيرة نحو خمسة عشر فضى إلى الأزيز وجمع بني أسد وغيرهم وسار إلى الحلة وبها أخوه محمد بن ديبس فقاتله فانهزم محمد والملك علي الحلة واستهان السلطان أمره أولا فاستفحل وضم إليه جمعا من غلبانه وغلبان أبيه وأهل بيته وعساكرهم وكثر جمعهم فسار إليه دهامل فيمن معه في بغداد من العسكر وضربوا معه مصافا فكسروهم وعادوا منهزمين إلى بغداد وكان أهلها يتعصبون لعلي بن ديبس وكانوا يصيحون إذا رأوا مهلهلا وبعض أصحابه (يا علي كله) وكثر ذلك منهم بحيث امتنع مهلهل من الركوب ومد علي يده في أقطاع الأمراء بالحلة وتصرف فيها وصار شحنة بغداد ومن فيها علي وجل منه وجمع الخليفة جماعة وجعلهم على السور لحفظه وراسل عليا فأعاد بأنتي العبد المطيع مهما رسم لي فعلت فسكن الناس ووصلت الأخبار بعد ذلك أن السلطان مسعودا تفرق خصومه عنه فازداد سكون الناس لذلك.

(ذكر عدة حوادث) حج بالناس هذه السنة قايماز الأرجواني صاحب أمير الحاج نظر واحتج نظربان بركة نهب في كسرة الحلة وأن بينه وبين أمير مكة من الحروب ما لا يمكنه مع الحج. وفيها اتصل بالخليفة عن أخيه أبي طالب ما كرهه فضيق عليه واحتاط علي غيره من أقاربه. وفيها ملك الفرنج لغنم الله مدينة شنترين وماجة وماردة وأشبونة وسائر المعاقل المجاورة لها من بلاد الأندلس وكانت للمسلمين فاختلفوا فطمع العدو وأخذ هذه المدن وقوى بها قوة تمكن وتيقن ملك بلاد الإسلام بالأندلس فخبب الله ظنه وكان ما نذ كره. وفيها سار أسطول الفرنج من صقلية ففتحوا جزيرة قرقة من أفريقية فقتلوا رجالها وصبوا حريمهم فأرسل الحسن صاحب أفريقية إلى رجال ملك صقلية يذكره بالعهود التي بينهم فاعتذر بأنهم غير مطيعين له. وفي هذه السنة توفي مجاهد الدين بهروز الغياني وكان حاكما بالعراق نيفا وثلاثين سنة وبرتقش الزكوي صاحب أصفهان، وكان أيضا شحنة بالعراق وهو خادم أرمني لبعض التجار. وتوفي الأمير أيلدكر شحنة بغداد والشيخ أبو منصور موهوب بن أحمد بن الخضر الجوالقي اللغوي ومولده في ذي الحجة سنة خمس وستين وأربعمائة وأخذ اللغة عن أبي زكريا التبريزي وكان يؤم بالمتقني أمير المؤمنين وتوفي أحمد بن محمد بن الحسن بن علي بن أحمد بن سليمان أبو سعيد بن أبي الفضل الأصفهاني ومولده سنة ثلاث وستين وأربعمائة. وروى الحديث الكثير وكان هلي سيرة السلف كثير الاتباع للسنة رحمة الله عليه (١)

(١) وفيها توفي علي بن أحمد بن الحسين بن أحمد، أبو الحسن اليزدي، تفقه بأبي بكر الشاشي، وسمع الحديث وأسمعه، وكان له ولاخيه قيص واحد، إذا خرج هذا لبسه وجلس الآخر في البيت عريانا، وكذا الآخر. وفيها توفي موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر، أبو منصور الجوالقي، شيخ اللغة في زمانه، باشر مشيخة اللغة بالنظامية بعد شيخه أبي زكريا التبريزي، وكان يؤم بالمتقني، وربما قرأ الخليفة عليه شيئا من الكتب، وكان عاقلا متواضعا في ملبسه، طويل الصمت كثير الفكر، وكانت له حلقة بجامع القصر أيام الجمع، وكان فيه لكمة، وكان يجلس إلى جانبه المغربي. عبر المنامات، وكان فاضلا لكانه كان كثير النعاس في مجاسه، فقال فيهما بعض الأدباء: =

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر ملك الفرنج طرابلس الغرب ﴾ في هذه السنة ملك الفرنج لعنهم الله طرابلس الغرب وسبب ذلك أن رجلا ملك صقلية جهز أسطولا كثيرا وسيره إلى طرابلس فأحاطوا بها برا وبحرا ثالث المحرم فخرج إليهم أهلها وأنشبو القتال فدامت الحرب بينهم ثلاثة أيام . فلما كان اليوم الثالث سمع الفرنج بالمدينة ضجة عظيمة وخلت الأسوار من المقاتلة . وسبب ذلك أن أهل طرابلس كانوا قبل وصول الفرنج بأيام يسيرة قد اختلفوا فأخرج طائفة منهم بنى مطروح وقدموا عليهم رجلا من المثلثين قدم يريد الحج ومعه جماعة فولوه أمرهم فلما نازلهم الفرنج أعادت الطائفة الأخرى بنى مطروح فوقع الحرب بين الطائفتين وخلت الأسوار فانتهز الفرنج الفرصة ونصبوا السلام وطلعوا على السور واشتد القتال فلكت الفرنج المدينة عنوة وقهرا بال سيف فسفكوا دماء أهلها وسبوا نساءهم وأخذوا أموالهم وهرب من قدر على الهرب والتجأ إلى البربر والعرب فنودي بالإمان في كافة الناس . فرجع كل من فر منها وأقام الفرنج ستة أشهر حتى حصنوا سورها وحفروا خنادقها ولما عادوا أخذوا رهائن أهلها ومعهم بنو مطروح والمثلث ثم أعادوا رهائنهم وولوا عليها رجلا من مطروح وأخذوا رهائنه وحده واستقامت أمور المدينة وألزم أهل صقلية والسفن والروم بالسفر إليها فاعمرت سريعا .

﴿ ذكر حصن زنكي حصن جعبر وفنك ﴾ وفي هذه السنة سار أتابك زنكي إلى حصن جعبر وهو مطل على الفرات وكان بيد سالم بن مالك العقيلي سلمه السلطان ملكشاه إلى أبيه لما أخذ منه حلب وقد ذكرناه فحصره وسير جيشا إلى قلعة فنك وهي تجاور جزيرة ابن عمر بينهما فرسخان فحصرها أيضا وصاحبها حينئذ الأمير حسام الدين الكردي البشنوي وكان سبب ذلك أنه كان لا يريد أن يكون في وسط بلاده ما هو ملك غيره جزما واحتياطا فآزل قلعة جعبر وحصرها وقاتله من بها فلما طال عليه ذلك أرسل إلى صاحبها مع الأمير حسان المنجي لمودة كانت بينهما في معنى تسليمها وقال له تضمن عن الأقطاع الكثير والمال الجزيل فإن أجاب إلى التسليم وإلا فقل له والله لأقيم عليك إلى أن أملكها عنوة ثم لأبقى عليك ومن الذي يمنعك مني فصعد إليه حسان وأدى إليه الرسالة ووعده وبذل له ما قيل له فامتنع من التسليم فقال له حسان فهو يقول لك من يمنعك من قتالي ومن يمنعك مني فقال يمنعني منه الذي يمنعك من الأمير بلك فعاد حسان وأخبر الشهيد بامتناعه ولم يذكر له هذا فقتل أتابك بعد أيام وكانت قصة حسان مع بلك ابن أخي أيلغازي أن حسانا كان صاحب منبج فحصره بلك وضيق عليه فبينما هو كذلك في بعض الأيام يقاتله جاءه سهم لا يعرف من رماه فقتله وخاص حسان من الحصر وقد تقدم ذكره وكان هذا القول من الاتفاق الحسن ولما قتل أتابك زنكي رحل العسكر الذين كانوا يحاصرون قلعة فنك عنها وهي بيد عقاب صاحبها إلى الآن وسمعتهم يذكرون أنهم لم بها نحو ثلاثمائة سنة ولهم مقصد حسن وفيهم وفاء وعصية يأخذون بيد كل من يلتجئ إليهم ويتصددهم ولا يسأونه إلى طالبيه كانوا من كان قريبا أم غريبا .

بغداد عندي ذنبا لن يغفرا • عيوبها مكشوفة لن نسرا
كون الجواب بقى فيها مليا • لغة وكون المنزلي معبرا
ماسور للكنته يقول فصاحة • ويوم يقظته يعبر في الكرا

(ذكر قتل أتابك عماد الدين زنكي وشيء من سيرته) في هذه السنة لخمس مئتين من ربيع الآخر قتل أتابك الشهيد عماد الدين زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل والشام وهو يحاصر قلعة جعبر على ما ذكرناه قتله جماعة من عمالكة ليلا غيلة وهربوا إلى قلعة جعبر فصاحوا على من بها من أهلها من العسكر يعلمونهم بقتله وأظهروا الفرع فدخل أصحابه إليه فأدركوه وبه روق (حدثني والدي) عن بعض خواصه قال دخلت إليه في الحال وهو حي فحين رأيته ظن أني أريد قتله فأشار إليّ بأصبعه السبابة يستعطفني فوَقعت من هيبتة فقلت يامولاي من فعل هذا فلم يقدر على الكلام وفاضت نفسه رحمه الله . قال وكان حين الصورة أسمر اللون مليح العينين قد وخطه الشيب وكان قد زاد همره على ستين سنة لأنه كان لما قتل والده صغيرا كما ذكرناه قبل . لما قتل دفن بالرقعة وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته عظيم السياسة لا يقدر القوي على ظلم الضعيف وكانت البلاد قبل أن يملكها خرابا من الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنج فعمرها وامتلأت أهلا وسكانا (حكى لي والدي) قال رأيت الموصل وأكثرها خراب بحيث يقف الإنسان قريب محلة الطيالبين ويرى الجامع العتيق والعرصة ودار السلطان ليس بين ذلك همارة قط وكان الإنسان لا يقدر على المشي إلى الجامع العتيق إلا ومعه من يحميه لبعده عن همارة وهو الآن في وسط همارة وليس في هذه البقاع المذكورة كلها أرض مراح قال وحدثني أيضا أنه وصل إلى الجزيرة في الشتاء فدخل الأمير عز الدين الديبسي وهو من أكابر أمرائه ومن جملة أقطاعه مدينة دقوقا ونزل في دار إنسان يهودي فاستغاث اليهودي إلى أتابك وأنهى حاله إليه فنظر إلى الديبسي فتأخر ودخل البلد وأخرج بركة وخيامه قال فلما رأيت غلمانهم ينصبون خيامه في الوحل وقد جعلوا على الأرض تبنا يقيمهم الطين وخرج فنزلها وكانت سياسته إلى هذا الحد وكانت الموصل من أقل بلاد الله فأكهة فصارت في أيامه وما بعدها من أكثر البلاد فواكه رباحين وغير ذلك وكان أيضا شديد الغيرة ولا سيما على نساء الأجناد وكان يقول إن لم تحفظ نساء الأجناد وإلا فسدن لكثرة غيبة أزواجهن في الأسفار وكان أشجع خلق الله أما قبل أن يملك فيكفيه أنه حضر مع الأمير مودود صاحب الموصل مدينة طبرية وهي للفرنج فوصلت طعنته باب البلد وأثرت فيه وحمل أيضا على قلعة عقر الحميدية وهي على جبل عال فوصلت طعنته إلى سورها إلى أشياء . وأما بعد الملك فقد كان الأعداء محدقين ببلاده وكاهم يقصدونها ويريدون أخذها وهو لا يتنعم بحفظها حتى أنه لا ينقضى عليه عام حتى يفتح من بلادهم فقد كان الخليفة المسترشد بالله مجاوره في ناحية تكريت وقصد الموصل وحصرها ، ثم إلى جانبه من ناحية شهرزور وتلك الناحية السلطان مسعود ، ثم ابن سقمان صاحب خلط ثم داود ابن سقمان صاحب حصن كيفا ثم صاحب آمد وماردين ثم الفرنج من مجاورة ماردين إلى دمشق ثم أصحاب دمشق فهذه الولايات قد اختلطت بولايتهم من كل جهاتها فهو يقصد هذا مرة وهذا مرة ، ويأخذ من هذا ويصانع هذا إلى أن ملك من كل من يليه طرفا من بلاده وقد أتينا على أخباره في كتاب الباهر في تاريخ دولته ودولة أولاده فليطلب من هناك .

(ذكر ملك ولديه سيف الدين غازي ونور الدين محمود) لما قتل أتابك زنكي أخذ نور الدين محمود ولده خاتمه من يده وكان حاضرًا معه وسار إلى حلب فملكها وكان حينئذ يتولى ديوان زنكي ويحكم في دولته من أصحاب العمام جمال الدين محمد بن علي وهو المنفرد بالحكم ومعه أمير حاجب صلاح الدين محمد الباغسياني فاتفقا على حفظ الدولة وكان مع الشهيد أتابك الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود فركب ذلك اليوم وأجمعت

العساكر عليه وحضر عنده جمال الدين وصلاح الدين وحسنا له الاشتغال بالشرب والمغنيات والجواري وأدخلاه الرقة فبقي بها أياما لا يظهر ثم سار إلى ما كسرت فدخلها وأقام بها أياما وجمال الدين يحلف الأمراء لسيف الدين غازي بن أتابك زنكي ويديرهم إلى الموصل ثم سار من ما كسين إلى سنجار وكان سيف الدين قد وصل إلى الموصل فلما وصلوا إلى سنجار أرسل جمال الدين إلى الدزدار يقول له ليرسل إلى ولد السلطان يقول له أني مملوكك ولكن نبغي الموصل فإن ملكتها سلمت إليك سنجار فسار إلى الموصل فأخذه جمال الدين وقصد به مدينة بلد وقد بقي معه من العسكر القليل فأشار عليه بعبور دجلة فبرها إلى الشرق في نفر يسير وكان سيف الدين غازي بمدينة شهرزور وهي أقطاعه فأرسل إليه زين الدين علي نائب أبيه بالموصل يستدعيه إلى الموصل فحضر قبل وصول الملك فلما علم جمال الدين بوصول سيف الدين إلى الموصل أرسل إليه يعرفه قلة من معه فأرسل إليه بعض عسكره فقبضه وحبس في قلعة الموصل واستقر ذلك سيف الدين البلاد وبقي أخوه نور الدين بحلب وهي له وسار إليه صلاح الدين الباغديسياني مدبر أمره والقائم بدولته وحفظها وقد استقصينا شرح هذه الحادثة في التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية .

(ذكر عصيان الرها لما قتل أتابك) كان جوسلين الفرنجي الذي كان صاحب الرها في ولايته وهي تل باشر وما يجاورها فراسل أهل الرها وعامتهم من الأرمن وحملهم على العصيان والامتناع من المسلمين وتسليم البلد إليه فأجابوه إلى ذلك وواعدهم يوما يصل إليهم فيه وسار في عساكره إلى الرها وملك البلد وامتنعت القلعة عليه بمن فيها من المسلمين فقاتلهم فبلغ الخبر إلى نور الدين محمود بن زنكي وهو بحلب فسار مجدا إليها في عسكره فلما قاربها أخرج جوسلين هاربا عائدا إلى بلده ودخل نور الدين المدينة ونهبها حيثنذ وسبي أهلها وفي هذه الدفعة نهبت وخلت من أهلها ولم يبق بها منهم إلا القليل وكثير من الناس يظن أنها نهبت لما فتحها الشهيد وليس كذلك وبلغ الخبر إلى سيف الدين غازي بعصيان الرها فسير العساكر إليها فسبقه الملك نور الدين إلى البلد واستباحه وهم في الطريق فعادوا . ومن أعجب ما يحكى أن زين الدين عليا الذي كان نائب الشهيد وأولاده بقلعة الموصل جاءه هدية أرسلها إليه نور الدين من هذا الفتح وفي الجملة جارية فلما دخل إليها وخرج من عندها وقد اغتسل وقال لمن عنده تعلقون ما جرى لي في يومنا هذا قالوا لا قال لما فتحنا الرها مع الشهيد وقع في يدي من السبي جارية رائعة أعجبنى حسننا ومال قلبي إليها فلم يكن بأسرع من أن أمر الشهيد فتودي برد السبي والمال المنهوب وكان مهيبا مخرفا فرددتها وقلبي متعلق بها فلما كان الآن جاءتني هدية نور الدين وفيها عدة جوار فيها تلك الجارية فوطئتها خوفا أن تقع مثل تلك الردة .

(ذكر استيلاء عبد المؤمن على جزيرة الأندلس) في هذه السنة سير عبد المؤمن بن علي جيشا إلى جزيرة الأندلس فملكوا ما فيها من بلاد الإسلام وسبب ذلك أن عبد المؤمن لما كان يحاصر مراکش جاء إليه جماعة من أعيان الأندلس منهم أبو جعفر أحمد بن محمد بن حمد بن حمدين ومعهم مكتوب يتضمن بيعة أهل البلاد التي هم فيها لعبد المؤمن ودخولهم في زمرة أصحابه الموحدين وإقامتهم لأمره فقبل عبد المؤمن ذلك منهم وشكرهم عليه وطيب قلوبهم وطلب منهم النصرة وطلبوا منه النصرة على الفرنج فجهز جيشا كثيرا وسير معهم وعمر أسطولا وسيره في البحر فسار الأسطول إلى الأندلس وقصدوا مدينة أشيلية وصعدوا في نهرها وبها جيش من الملتزمين فحصرها برا وبحرا وملكوها عنوة وقتل فيها جماعة وأمن الناس فسكنوا واستولت العساكر على البلاد

وكان لعبد المؤمن من بها .

(ذكر قتل عبدالرحمن طغايك وعباس صاحب الري) في هذه السنة قتل السلطان مسعود أمير حاجب دولته عبدالرحمن طغايك وهو صاحب خلخال وبعض أذربيجان والحاكم في دولة السلطان وليس للسلطان معه حكم وكان سبب قتله أن السلطان لما ضيق عليه عبدالرحمن وبقي معه شبه الأسير ليس له في البلاد حكم حتى أن عبدالرحمن قصد غلاما كان للسلطان وهو بك أرسلان المعروف بابن خاص بك بن بلنكري وقد رباه السلطان وقربه فأبعده عنه وصار لا يراد وكان في خاص بك عقل وتديب وجودة قريحة وتوصل لما يزنه بعقله فجمع عبدالرحمن العساكر وخاص بك فيهم وقد استقر بينه وبين السلطان مسعود أن يقتل عبدالرحمن فاستدعى خاص بك جماعة ممن يثن بهم وتحدث معهم في ذلك فكل منهم خاف الإقدام عليه إلا رجلا اسمه زنيكي وكان جاندارا فإنه بذل من نفسه أن يبدأ بالقتل ووافق خاص بك على القيام في الأمر جماعة من الأمراء فبينما عبدالرحمن في موكبه ضربه زنيكي الجاندار بمقرعة حديد كانت في يده على رأسه فسقط إلى الأرض فأجهز عليه خاص بك وأعانته على حماية زنيكي والقائمين معه من كان وإطاه على ذلك من الأمراء وكان قتله بظاهر جنزة وبلغ الخبر إلى السلطان مسعود وهو ببغداد ومعه الأمير عباس صاحب الري وعسكره أكثر من عسكر السلطان فأذكر ذلك وامتعض منه فدأره السلطان ولطف به واستدعى الأمير البقش كون خرو وتر وهو أمير اللحف وتر الذي كان حاجبا فلما قوي بهما أحضر عباسا إليه في داره ، فلما دخل إليه منع أصحابه من الدخول معه وعدلوا به إلى حجرة وقالوا له اخلع الزردية فقال إن لي مع السلطان أيما ناء وعهودا فلكموه وخرج له غلمان أعدوا لذلك فحينئذ تشهد وخلع الزردية وألقاها وضربوه بالسيوف واحتزوا رأسه وألقوه إلى أصحابه ثم ألقوا جسده ونهب رحله وانزعج البلد لذلك وكان عباس من غلمان السلطان محمود حسن السيرة عادلا في رعيته كثير الجهاد للباطنية قتل منهم خلقا كثيرا وبني رؤوسهم متارة بالري وحصر قلعة الموت ودخل إلى قرية من قراهم فألقى فيها النار فأحرق كل من فيها من رجل وامرأة وصبي وغير ذلك وقتل بالجانب الغربي فأرسلت ابنته فحملته إلى الري فدفتته هناك وكان مقتله في ذي القعدة ومن الاتفاق العجيب أن العبادي كان يعظ يوما فحضره عباس فاسمع بعض أهل المجلس ورمى بنفسه نحو الأمير عباس فضربه أصحابه ومنعوه خوفا عليه لأنه كان شديد الاحتراس من الباطنية لا يزال لابسا الزردية . لا تفارقه الغلمان الأجلاد ، فقال له العبادي كم هذا الاحتراز والله إن قضى عليك بأمر لتحلن أنت بيدك أزرار الزردية فينفذ القضاء فيك وكان والله كما قال وقد كان السلطان استوزر ابن دارست وزير بوزابة كارها على ما تقدم ذكره فعزله الآن لأنه اختار العزل والعود إلى صاحبه بوزابة فلما عزله قرر معه أن يصلح له بوزابة ويزيل ما عنده من الاشمزاز بسبب قتل عبدالرحمن وعباس فسار الوزير وهو لا يمتقد النجاة فوصل إلى بوزابة وكان ما ذكره .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة حبس السلطان مسعود أخاه سليمان شاه بقلعة تكريت ؛ وفيها توفي لأمير جاوولي الطغري صاحب أرانية وبعض أذربيجان وكان قد تحرك للعصيان وكان موته فجأة مدقوسا فزف دما فمات . وتوفي شيخ الشيوخ صدر الدين اسماعيل بن أبي سعيد الصوفي . مات ببغداد ودفن بظاهر رباط الدوري بباب البصرة ومولده سنة أربع وستين وأربعمائة . وقام في منصبه ولده عبدالرحيم . وفيها توفي

مسعود بن بلال شحنة بغداد وسار السلطان عنها . وفيها كان بالعراق جراد كثير أحل أكثر البلاد . وفيها ورد العبادي الواعظ رسولا من السلطان سنجر إلى الخليفة ووعظ ببغداد وكان له قبول بها وحضر مجلسه السلطان مسعود فن دونه . وأما العامة فإنهم كانوا يتركون أشغالهم لحضورهم مجلسه والمساابقة إليه . وفيها بعد قتل الشهيد زنيكي بن آقنقر قصد صاحب دمشق حصن بعلبك وحصره وكان به نجم الدين أيوب بن شاذي يخاف أن أولاد زنيكي لا يمكنهم انجاده بالمعجل فصالحه وسلم القاعة إليه وأخذ منه أقطاعا ومالا وملكه عشر قرى من بلاد دمشق وانتقل أيوب إلى دمشق فسكنها وأقام بها . وفي هذه السنة في ربيع الآخر توفي عبدالله ابن علي بن أحمد المقرئ بن بنت الشيخ أبي منصور ومولده في شعبان سنة أربع وستين وأربعمائة وكان مقرئا نحويا محدثا وله تصانيف في القراءات (١)

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر قتل بوزابة ﴾ لما اتصل بالأمير بوزابة قتل عباس جمع عساكره من فارس وخوزستان وسار إلى أصفهان فحصرها وسير عسكرا آخر إلى همدان وعسكرا ثالثا إلى قلعة الماهكي من بلد اللحف فأما عسكره بالماهكي فإنه سار إليهم الأمير البقش كون خر فدفعهم عن أعماله وكانت أقطاعهم إن بوزابة سار عن أصفهان يطلب السلطان مسعودا فراسله السلطان في الصلح فلم يجب إليه وسار مجددا فالتقيا بمرج قراتكين وتصافا فاقتل العسكران فانهم منه السلطان مسعود وميسرته واقتل القلبان أشد قتال وأعظمه صبر فيه الفريقان وصار الحرب بينهما فسقط بوزابة عن فرسه بسهم أصابه وقيل بل عثر به الفرس فأخذ أسيرا وحمل إلى السلطان فقتل بين يديه وانهم أصحابه لما أخذ هو أسيرا وبلغت هزيمة العسكر السلطاني من الميمنة والميسرة إلى همدان وخراسان وقتل من الفريقين خلق كثير وكان هذا الحرب من أعظم الحروب الكائنة بين الأعاجم .

﴿ ذكر طاعة أهل قابس للفرنج وغاية المسلمين عليها ﴾ كان صاحب مدينة قابس قبل هذه السنة إنسانا اسمه رشيد فتوفي وخلف أولادا فعهد مولى له اسمه يوسف إلى ولده الصغير واسمه محمد فولاه الأمر وأخرج ولده الكبير معمرا واستولى يوسف على البلد وحكم على محمد لصغر منه وجرى منه أشياء من النعرض إلى حرم بيده والعهد على ناقله . وكان من جملتهن امرأة من بني قرة فأرسلت إلى أخوتها تشكو إليهم ما هي فيه فجاء أخوتها لاخذها فمنعها منهم وقار هذه حرمة مولاي ولم يسلبها فسار بنو قرة ومعمار بن رشيد إلى الحسن صاحب أفريقيا وشكوا إليه ما يفعل يوسف فكان به الحسن في ذلك فلم يجبه وقال لن لم يكف الحسن عني والإسلامت قابس إلى صاحب صقلية فجهز الحسن العسكر إليه فلما سمع يوسف بذلك أرسل إلى رجار الفرنجي صاحب صقلية وبذل له الطاعة وقال له أريد منك خلعة وهدايا بولاية قابس لأكون نائبا عنك كما فعلت مع مطروح أعجاب طرابلس فسير إليه رجار الخلعة والعهد فلبسها وقرى العهد بمجمع الناس فجاء حينئذ الحسن

(١) وفيها توفي شافع بن عبدالرشيد بن القاسم ، أبو عبدالله الجبلي الشافعي ، تفقه على الكيا وعلى الغزالي ، وكان يسكن الكرخ ، وله حلقة بجامع المنصور في الرواق . قال ابن الجوزي وكنت أحضر حاقته . وفيها توفي وجيه ابن طاهر بن محمد بن محمد ، أبو بكر الشحامى ، أخو زاهر ، وقد سمع الكثير من الحديث ، وكانت له معرفة به ، وكان شيخا حسن الوجه ، سريع الدمعة ، كثير الذكر ، جمع السماع إلى العمل إلى صدق اللهجة توفي ببغداد في هذه السنة .

في تجهيز العسكر إلى قابس فساروا إليها ونازلوها وحاصروها ثم أعمل البلد بيوسف لما اعتمده من طاعة الفرنج وسلموا البلد إلى عسكر الحسن وتمحصن يوسف في القصر فقاتلوه حتى فتحوه وأخذ يوسف أسيرا فتولى عذابه معمر بن رشيد وبنو قرة فقطعوا ذكره وجعلوه في فيه وعذب بأنواع العذاب وولى معمر قابس مكان أخيه وأخذ بنو قرة أختهم وهرب عيسى أخو يوسف وولد يوسف وقصدوا رجاء صاحب صقلية فاستجاروا به وشكوا إليه ما لقوا من الحسن فغضب لذلك وكان ما ذكره سنة ثلاث وأربعين وخمسة مائة من فتح المهدي إن شاء الله تعالى. وهذا الذي كان من يوسف والله أعلم.

(ذكر حادثة ينبغي أن يحتمل العاقل من مثلها) كان هذا يوسف صاحب قابس قد أرسل رسولا إلى رجاء صاحب صقلية فاجتمع هو والحسين رسول صاحب المهدي عنده فجرى بين الرسولين مناظرة فذكر رسول يوسف الحسن ونال منه وذمه ثم أنهما عادا في وقت واحد وركبا البحر كل واحد منهما في مركبه فأرسل رسول الحسن رقعة على جناح طائر يخبره بما كان من رسول يوسف فسير الحسن جماعة من أصحابه في البحر فأخذوا رسول يوسف وأحضره عند الحسن فسبه وقال ملكك الفرنج بلاد الإسلام وطولت لسانك بذمى ثم أركبه جملا وعلى رأسه جلاجل وطيف به في البلد ونودي عليه هذا جزاء من سعى أن يملك الفرنج بلاد المسلمين فلما توسط المهدي ثار به العامة فقتلوه بالحجارة .

(ذكر ملك الفرنج المرية وغيرها من الأندلس) في هذه السنة في جمادى الأولى حصر الفرنج مدينة المرية من الأندلس وضيقوا عليها برا وبحرا فملكوها عنوة وأكثروا القتل بها والنهب وملكوا أيضا مدينة شاسة وولاية جيان وكلها بالأندلس ثم استعادها المسلمون بعد ذلك منهم على ما ذكره إن شاء الله تعالى .

(ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكي عدة مواضع من بلد الفرنج) في هذه السنة دخل نور الدين محمود ابن زنكي صاحب حلب بلد الفرنج ففتح منه مدينة ارتاح بالسيف ونهبها وحصر مابوثة وبصرفوت وكفرلاثا وكان الفرنج بعد قتل والده زنكي قد طمعوا وظنوا أنهم بعده يستردون ما أخذوه فلما رأوا من نور الدين هذا الجد في أول أمره علموا أن ما أملوه بعيد وخاب ظنهم وأملهم .

(ذكر أخذ الخلة من علي بن ديبس وعوده إليها) في هذه السنة كثر فساد أصحاب علي بن ديبس بالخلة وما جاورها وكثرت الشكاوى منه فأقطع السلطان مسعود الخلة سلار كرد فسار إليها من همدان ومعه عسكر وانضاف إليه جماعة من عسكر بغداد وقصدوا الخلة فجمع على عسكره وحشد وأتقى العسكران بمطيرباذ فانهزم علي وملك سلار كرد الخلة واحتاط على أهل علي ورجعت العساكر وأقام هو بالخلة وماليكة وأصحابه وسار علي بن ديبس فلحق بالبقيش كون خن وكان بأقطاعه في اللحم متجنبا على السلطان فاستنجده فسار معه إلى واسط وانفق هو والطر نطاوى وقصدوا الخلة فاستنجدوها من سلار كرد في ذي الحجة وفارقها سلار كرد وعاد إلى بغداد .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في جمادى الأولى خطب للدين محمد بالله يوسف ابن المقتنى لأمر الله بولاية العهد . وفيها ولى عون الدين يحيى بن هبيرة كتابة ديوان الزمام ببغداد وولى زعيم الدين يحيى بن جعفر الخزن . وفيها في ربيع الأول مات أبو القاسم طاهر بن سعيد بن أبي سعيد بن أبي الخير الميهني شيخ رباط البسطامي ببغداد وفي ربيع الآخر توفيت فاطمة خاتون بنت السلطان محمد زوجة المقتنى لأمر الله وفي رجب منها مات أبو الحسن محمد بن المظفر بن علي بن المسلمية ابن رئيس الرؤساء ومولده سنة أربع وثمانين وكان (٣ - كامل - ٩)

قد تصوف وجعل داره التي في القصر رباطا للصوفية . وفيها سار سيف الدين غازي بن زنكي إلى قلعة دارا فملكها وغيرها من بلد ماردين ثم سار إلى ماردين وحصرها وخرب بلدها ونهبه وكان سبب ذلك أن أنابك زنكي لما قتل تطاول صاحب ماردين وصاحب الحصن إلى ما كان قد فتحه من بلادهما فأخذه فلما ملك سيف الدين وتمكن سار إلى ماردين وحصرها وفعل يبلدها الأفاعيل العظيمة فلما رأى صاحبها وهو حينئذ حسام الدين تمرناش ما يفعل في بلده قال كئناشكوم أنابك الشهيد وأين أيامه لقد كانت أعيادا قد حصرنا غير مرة فلم يأخذ هو ولا أحد من عسكره مخللة تبغ غير نم ولا تعدى هو وعسكره حاصل السلطان وأرى هذا ينهب البلاد ويخربها ثم راسله وصالحه وزوجه ابنة ورحل سيف الدين عنه وعاد إلى الموصل وجهزت ابنة حسام الدين وسيرت إليه فوصلت وهو مريض قد أشفى على الموت فلم يدخل بها وبقيت عنده إلى أن توفي وملك قطب الدين مودود فتزوجها على ما ذكره إن شاء الله تعالى . وفيها اشتد الغلاء بأفريقية ودامت أيامه فإن أوله كان سنة سبع وثلاثين وخمسمائة وعظم الأمر على أهل البلاد حتى أكل بعضهم بعضا وقصد أهل البوادي المدن من الجوع فأغلقها أهلها دونهم وتبعه وباء وموت كثير حتى خلت البلاد وكان أهل البيت لا يبقى منهم أحد وسار كثير منهم إلى صقلية في طلب القوت ولقوا أمرا عظيما .^(١)

*(ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة) *

(ذكر ملك الفرنج مدينة المهدي بأفريقية) قد ذكرنا سنة إحدى وأربعين وخمسمائة مسير أهل يوسف صاحب قابس إلى رجار ملك صقلية واستغاثهم به فغضب لذلك وكان بينه وبين الحسن بن علي بن يحيى بن نعيم ابن المعز بن باديس الصنهاجي صاحب أفريقية صلح وعهود إلى مدة سنتين وعلم أنه فانه فتح البلاد في هذه الشدة التي أصابهم وكانت الشدة دوام الغلاء في جميع المغرب من سنة سبع وثلاثين إلى هذه السنة وكان أشد ذلك منه سنة اثنتين وأربعين . فإن الناس فارقوا البلاد والقرى ، ودخل أكثرهم إلى مدينة صقلية وأكل الناس بعضهم بعضا وكثر الموت في الناس فاعتم رجار هذه السنة فصر الأسطول وأكثر منه فبلغ نحو مائتين وخمسين شينيا مملوأة رجالا وسلاحا وقوتا وسارا الأسطول عن صقلية ووصل إلى جزيرة قوصرة وهي ما بين المهدي وصقلية فصدفوا بها مركبا ووصل من المهدي فأخذ أهله وأحضروا بين يدي

(١) وفيها توفي أسعد بن عبدالله بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن عبد الصمد بن المهدي باقه ، أبو منصور ، سمع الحديث الكثير ، وكان خيرا صالحا متمما بحواسه وقواه ، إلى حين الوفاة . وقد جاوز المائة نحو من سبع سنين وفيها توفي أبو محمد عبدالله بن محمد بن خلف بن أحمد بن عمر اللخمي الأندلسي ، الرباطي الحافظ ، مصنف كتاب (اقتباس الأنوار والتماس الأزهار ، في أنساب الصحابة ورواة الآثار) وهو من أحسن التصانيف الكبار ، قتل شهيدا صبيحة يوم الجمعة العشرين من جمادى بالبرية . وفيها توفي نصر الله بن محمد بن عبد القوي ، أبو الفتح اللاذق المصيصي الشافعي ، تفقه بالشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي ، بصور ، وسمع بها منه ومن أبي بكر الخطيب ، وسمع ببغداد والانباء ، وكان أحد مشايخ الشام ، فقيها في الأصول والفروع ، توفي فيها وقد جاوز التسعين بأربع سنين . وفيها توفي هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة أبو السعادات ابن الشجرى النحوى ، ولد سنة خمسين وأربعمائة ، وسمع الحديث وانتهت إليه رئاسة النحاة . قال سمعت بيتا في الذم أبلغ من قول مكوبه :

وما أنا إلا المسك قد ضاع عندكم • بضيع وعند الأكثرين يضيع

جرجى مقدم الأسطول فسألهم عن حال أفريقية ووجد في المركب قنص حمام فسألهم هل أرسلوا منها خلفوا
بأنه أنهم لم يرسلوا شيئا فأمر الرجل الذي كان الحمام صحبته أن يكتب بخطه إننا لما وصلنا جزيرة قوصرة
وجدنا بها مراكب من صقلية فسألناهم عن الأسطول المخذول فذكروا أنه أفلح إلى جزائر القسطنطينية وأطلق
الحمام فوصل إلى المهديّة فسرا الأمير الحسن والناس وأراد جرجى بذلك أن يصل بغتة ثم سار وقدر وصولهم
إلى المهديّة وقت السحر ليحيط بها قبل أن يخرج أهلها فلو تم له ذلك لم يسلم منهم أحد فقدر الله تعالى أن أرسل
عليهم ريحا هائلا فلم يقدروا على السير إلا بالمقاذيف فطلع النهار ثانی صفر في هذه السنة قبل وصولهم فرآهم
الناس فلما رأى جرجى ذلك وأن الخديعة فاتته أرسل إلى الأمير الحسن يقول إنما جئت بهذا الأسطول طالبا
بشار محمد بن رشيد صاحب قابس ورده إليها وأما أنت فبيننا وبينك عهد وميثاق إلى مدة ونريد منك عسكريا
يكون معنا فجمع الحسن الناس من الفقهاء والأعيان وشاورهم فقالوا نقاتل عدونا فإن بلدنا حصين فقال أخاف
أن ينزل إلى البر ويحصرنا برا وبحرا ويحول بيننا وبين الميرة وليس عندنا ما يقوتنا شهرا فتؤخذ قهرا وأنا أرى
سلامة المسلمين من الأسر والقتل خيرا من الملك وقد طلب مني عسكريا إلى قابس فإن فعلت فما يحل لي معونة
الكفار على المسلمين وإن امتنعت يقول انتقض ما بيننا من الصلح وليس يريد إلا أن يثبطنا حتى يحول بيننا
وبين البر وليس لنا بقتاله طاقة والرأى أن نخرج بالأهل والولد وننزل عن البلد فنأراد أن يفعل كفعلا
فليأدر معنا وأمر في الحال بالرحيل وأخذ معه من حضره وما خف حمله وخرج الناس على وجوههم بأهلهم
وأولادهم وما خف من أموالهم وأثاثهم ومن الناس من اختفى عند النصارى وفي الكنائس وبقي الأسطول
في البحر تمنعه الريح من الوصول إلى المهديّة إلى ثلاثي النهار فلم يبق في البلد من عزم على الخروج أحد فوصل
الفرنج ودخلوا البلد بغير مانع ولا دافع ودخل جرجى القصر فوجده على حاله لم يأخذ الحسن منه إلا ما خف
من ذخائر الملوك وفيه جماعة من حظايه ورأى الحزائن مملوءة من الذخائر النفيسة وكل شيء غريب يقل وجود
مثله فغتم عليه وجمع سرارى الحسن من قصره وكان عدة من ملك منهم من زيرى بن مناد إلى الحسن تسعة
ملوك ومدة ولايتهم مائة سنة وثمانين سنة من إحدى وستين وثلاثمائة إلى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وكان
بعض القواد قد أرسله الحسن إلى رجار برسالة فأخذ لنفسه وأهله منه أمانا فلم يخرج معهم ولما ملك المدينة
نهبت مقدار ساعتين ونودي بالأمان خرج من كان مستخفيا وأصبح جرجى من الغد فأرسل إلى من قرب من
العرب فدخلوا إليه فأحسن إليهم وأعطاهم أموالا جزيلة وأرسل من جند المهديّة الذين تخلفوا بها جماعة
ومعهم أمان لأهل المهديّة الذين خرجوا منها ودواب يحملون عليها الأطفال والنساء وكانوا قد أشرفوا
على الهلاك من الجوع ولهم بالمهديّة خبايا وودائع فلما وصل إليهم الأمان رجعوا فلم يمض غير جمعة حتى رجع
أكثر أهل البلد وأما الحسن فإنه سار بأهله وأولاده وكانوا اثني عشر ولدا ذكرا غير الإناث وخواص خدمه
قاصدا إلى محرز بن زياد وهو بالمعلقة فلقبه في طريقه أمير من العرب يسمى حسن بن ثعلب فطلب منه
مالا انكسر له في ديوانه فلم يمكن الحسن إخراج مال لثلاثي يؤخذ فسلم إليه ولده يحيى رهينة وسار فوصل في اليوم
الثاني إلى محرز وكان الحسن قد فضله على جميع العرب وأحسن إليه روصه بكثير من المال فلقبه محرز لقاء
جميلا وتوجه لمسا حله فاقام عنده شهورا والحسن كاره للإفائة فأراد المسير إلى ديار مصر إلى الخليفة الحافظ
العلوي واشترى مركبا لنفصره فسمع جرجى الفرنجي لجهز شوانى ليأخذه فعاد الحسن عن ذلك وعزم على المسير

إلى عبدالمؤمن بالمغرب فأرسل كبار أولاد يحيى وتميما وعليما إلى يحيى بن الرزق وهو من بني حماد وهما أولاد عم يستأذنه في الوصول إليه وتجديد العهد به والمسير من عنده إلى عبدالمؤمن فأذن له يحيى فسار إليه فلما وصل لم يجتمع به يحيى وصيره إلى جزيرة بني مزغنان هو وأولاده ووكل به من يمنعهم من التصرف فبقوا كذلك إلى أن ملك عبدالمؤمن بحياة سنة سبع وأربعين فحضر عنده وقد ذكرنا حاله هناك ولما استقر جرجي المهدي سيرا أسطولا بعد أسبوع إلى مدينة سفاقس وسير أسطولا آخر إلى مدينة سوسة فأماسوسة فإن أهلها لما سمعوا خبر المهدي وكان والبياعلى بن الحسن الأمير نخرج إلى أبيه وخرج الناس لخروجه فدخلها الفرنج بلا قتال ثانی عشر صفر وأما سفاقس فإن أهلها أنام كثير من العرب فامتدوا بهم فقاتلهم الفرنج فخرج إليهم أهل البلد فأظهر الفرنج الهزيمة وتبعهم الناس حتى أبدوا عن البلد ثم عطفوا عليهم فانهم قوم إلى البلد وقوم إلى البرية وقتل منهم جماعة ودخل الفرنج البلد فملكوه بعد قتال شديد وقتل كثيرة وأسر من بقى من الرجال وسبي الحریم وذلك في الثالث والعشرين من صفر ثم نودي بالأمان فعاد أهلها إليها واقتكوا حرهم وأولادهم ورفق بهم وبأهل سوسة والمهدية وبعد ذلك وصلت كتب من رجار لجميع أهل أفريقيا بالأمان والمواعيد الحسنة ولما استقرت أحوال البلاد سار جرجي في أسطول إلى قلعة إقليبية وهي قلعة حصينة فلما وصل إليها سمعته العرب فاجتمعوا إليها ونزل إليهم الفرنج فقاتلوا فانهم الفرنج وقتل عنه خلق كثير فرجعوا خاسرين إلى المهدي وصار للفرنج من طرابلس الغرب إلى قريبتونس ومن المغرب إلى دون القيروان والله أعلم.

(ذكر حصر الفرنج دمشق ومافله سيف الدين غازي بن زنكي) في هذه السنة سار ملك الألمان من بلاده في خلق كثير وجمع عظيم من الفرنج عازما على قصد بلاد الإسلام وهو لايشك في ملكها بأيسر قتال لكثرة جموعه وتوفر أمواله وعدده فلما وصل إلى الشام قصده من به من الفرنج وخدموه وامتثلوا أمره ونهيه فأمرهم بالمسير معه إلى دمشق ليحصرها ويملكها بزعمه فساروا معه ونازلوها وحصروها وكان صاحبها مجير الدين أبق ابن محمد بن بوري بن طغتكين وليس له من الأمر شيء وإنما الحكم في البلد لمعين الدين أنز مملوك جده طغتكين وهو الذي أقام مجير الدين وكان معين الدين عاقلا عادلا خيرا حسن السيرة فجمع العساكر وحفظ البلد وأقام الفرنج يحاصرونهم ثم إنهم زحفوا سادس ربيع الأول بفارسهم وراجلهم فخرج إليهم أهل البلد والعسكر فقاتلهم وصبروا لهم وفيمن خرج للقتال الفقيه حجة الدين يوسف بن ذى باس الفندلاوى المغربى وكان شيخا كبيرا فقيها صالحا فلما رآه معين الدين وهو راجل قصده وسلم عليه وقال له يا شيخ أنت معذور لكبر سنك ونحن نقوم بالذب عن المسلمين وسأله أن يمود فلم يفعل وقال له قد بعت واشترى منى ، فوالله لا أقتله ولا استقلته يعنى قول الله تعالى ((إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة)) وتقدم فقاتل الفرنج حتى قتل عند النيرب نحو نصف فرسخ عن دمشق وقوى الفرنج وضعف المسلمون فتقدم ملك الألمان حتى نزل بالميدان الأخضر فأيقن الناس بأنه يملك البلد وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين غازي بن أتابك زنكي يدعوه إلى نصره المسلمين وكف العدو عنهم فجمع عساكره وسار إلى الشام واستصحب معه أخاه نورالدين محمود من حلب فنزلوا بمدينة حمص وأرسل إلى معين الدين يقول له قد حضرت ومعى كل من يحمل السلاح من بلادى فأريد أن يكون نوابى بمدينة دمشق لأحضر وألقى الفرنج فإن انهمزمت دخلت أنا وهسكرى البلدواحتميناه وإن ظفرنا فالبلد لكم لا أنزعكم فيه فأرسل إلى الفرنج يتهددهم إن لم يرحلوا عن البلد فكف

الفرنج عن القتال خوفا من كثرة الجراح وربما اضطروا إلى قتال سيف الدين فأبقوا على نفوسهم فقوى أهل البلد على حفظه واستراحوا من ملازمة الحرب وأرسل مهين الدين إلى الفرنج الغرباء يقول لهم إن ملك المشرق قد حضر فإن رحتم وإلا سلمت البلد إليه وحينئذ تندبون وأرسل إلى فرنج الشام يقول لهم بأى عقل تساعدون هؤلاء علينا وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية ، وأما أنا فإن رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته إلى سيف الدين وأنتم تعلمون أنه إن ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام في الشام فأجابه إلى التخلي عن ملك الألمان وبذل لهم تسليم حصن بانياس إليهم واجتمع الساحلية بملك الألمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع الأمداد إليه وإنه ربما أخذ دمشق وتضعف عن مقاومته ولم يزالوا به حتى رحل عن البلد وتسلوا قلعة بانياس وعاد الفرنج الألمانية إلى بلادهم وهي بزوراء القسطنطينية وكفى الله المؤمنين شرما . وقد ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخ دمشق أن بعض العلماء حكى له أنه رأى الفندلاوى في المنام فقال له ما فعل الله بك وأين أنت فقال غفلى وأما في جنات عدن على سرر متقابلين (ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكي حصن العزيمة) لما سار الفرنج عن دمشق رحل نور الدين إلى حصن العزيمة وهو لفرنج فلما سب ذلك أن ملك الألمان لما خرج إلى الشام كان معه ولد الفنش صاحب طليطلة وهو من أولاد أكبر ملوك الفرنج وكان جده هو الذي أخذ طرابلس الشام من المسلمين فأخذ حصن العزيمة وتملكه وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس من القمص إلى نور الدين محمود وقد اجتمع هو ومعين الدين أنز بعلبك يقول له ولعين الدين ليقصدا حصن العزيمة وبملكك وله الفنش فسارا إليه مجدين في عساكرهما وأرسل إلى سيف الدين وهو بمحص يستنجدانه فأمدهما بمسك كثير مع الأمير عز الدين أبي بكر الديبسي صاحب جزيرتا بن همر وغيرها فآذوا الحصن وحصلوه وبه ابن الفنش وامتتع به فزحف المسلمون إليه غير مرة وتقدم إليه النقبابون فنقبوا السور فاستسلم حينئذ من به من الفرنج فلما المسلمون وأخذوا كل من به من فارس وزاجل وصبي وامرأة وفيهم ابن الفنش وأخربوا الحصن وعادوا إلى سيف الدين وكان مثل ابن الفنش كما قيل (خرجت النعامه تطلب قرنين فعادت بغير أذنين)

(ذكر الخلف بين السلطان مسعود وجماعة من الأمراء ووصولهم إلى بغداد وما كان منهم بالعراق) في هذه السنة فارق السلطان مسعود جماعة من أكبر الأمراء وهم من أذربيجان أبلد كز المسعودي صاحب كنجة وأرنية وقيصرو ومن الجبل البقش كون خروتر الحاجب وهو مسعودي أيضا وطرغاي المحمودي شحنة واسط والد كين وقرقوب وابن طغايك وكان سبب ذلك ميل السلطان إلى خاص بك وإطراحه لم تغفلوا أن يفعل بهم مثل فعله بعبد الرحمن وعباس وبوزابة فقارقه وساروا نحو العراق فلما بلغوا حلوان خلف الناس بغداد وأعمال العراق وغلت الأسعار وتقدم الإمام المقتني لأمر الله بإصلاح السور وترميمه وأرسل الخليفة إليهم بالعبادي الواعظ فلم يرجعوا إلى قوله ووصلوا إلى بغداد في ربيع الآخر والملك محمد ابن السلطان محمود معهم ونزلوا بالجانب الشرقي وفارق مسعود بلال شحنة بغداد البلد خوفا من الخليفة وشار إلى تكريت وكانت له فعظم الأمر على أهل بغداد ووصل إليهم على بن ديبس صاحب الحلة فنزل بالجانب الغربي فجند الخليفة أجنادا يحنى بهم ووقع القتال بين الأمراء وبين عامة بغداد ومن بها من الصكر واقتلوا عدة دفعات في بعض الأيام انهزم الأمراء الأعاجم من عامة بغداد مكرا وخديعة وتبعهم العامة فلما أبعثوا عادوا عليهم وصار بعض المسكر من وراثهم ووضعوا السيف فقتل من العامة خلق كثير ولم يقفوا على صغير

ولا کبیر وفتکوا فیہم فأصیب أهل بغداد بمسال یمابوا بمثلہ وکثر القتلی والجرحی وأسر منهم خلق کثیر فقتل البعض وشہر البعض ودفن الناس من عرفوا ومن لم یعرف ترک طریقا بالصحراء وتفرق العسکر فی المحال الغریبة فأخذوا من أهلها الأموال الکثیرة ونهبوا بلد دجیل وغیره وأخذوا النساء والولدان ثم إن الأمراء اجتمعوا ونزلوا مقابل التاج وقبوا الأرض واعتذروا وترددت الرسل بیئهم وبین الخلیفة إلى آخر النهار وعادوا إلى خیامهم ورحلوا إلى النهروان فنهوا البلاد وأفسدوا فیها وعاد مسعود بلال شحنة بغداد من تکریت إلى بغداد ثم إن هؤلاء الأمراء تفرقوا وفارقوا العراق وتوفی الأمير قیصر بأذربيجان هذا کلہ والسلطان مسعود مقيم ببلد الجبل والرسل بیئہ وبین عمہ السلطان سنجر متصلہ وكان السلطان سنجر قد أرسل الیہ یلومه علی تقدیم خاص بک ویأمره بإبعاده ویتهدده بأنه إن لم یفعل أن یتصدده ویزیلہ عن السلطنة وهو یغالط ولا یفعل فسار السلطان سنجر إلى الری فلما علم السلطان مسعود بوصولہ سار الیہ وترضاه واستنزلہ عما فی نفسه فسکن وكان اجتماعهما سنة أربع وأربعین علی ما نذکره إن شاء الله تعالی .

(ذکر انہزام الفرنج بیغری) فی هذه السنة هزم نور الدین محمود بن زنکی الفرنج بمکان اسمه یغری من أرض الشام وكانوا قد تجمعوا لیتصدوا أعمال حلب لیغیروا علیها فعلم نور الدین فسار الیهم فی عسکره فالتقوا بیغری وافتتلوا قتالا شديدا أجلت المعركة عن انہزام الفرنج وقتل کثیر منهم وأسر جماعة من مقدمیهم ولم ینج من ذلك الجمع إلا القلیل وأرسل من الغنیمة والأسارى إلى أخیه سیف الدین وإلى الخلیفة ببغداد وإلى السلطان مسعود وغیرهم وفی هذه الوقعة یقول ابن القیسرانی فی قصیدته التي أولها :

بأبت أن الصدم مصدود ۰ أولا فلیت النوم مردود

ومنها ما هو فی ذکر نور الدین :

وکیف لایثنی علی عیشنا ال ۰ محمود والسلطان محمود

وصارم الإسلام لایثنی ۰ إلاوشلوا الکفر مقصدود

مکارم لم تک موجودة ۰ إلاونور الدین موجود

وكم له من وقعة یومها ۰ عند الملوك الکفر مشهود

(ذکر ملک الغوریة غزنة وعودم عنها) فی هذه السنة قصد سوری بن الحسین ملک الغور مدينة غزنة فلکها وسبب ذلك أن أخاه ملک الغوریة قبله محمد بن الحسین كان قد صاهر بهرام شاه مسعود بن إبراهیم صاحب غزنة وهو من بیت صبکتکین فعظم شأنه بالمصاهرة وعلت همته لجمع جموعا کثیرة وصار إلى غزنة لیلکها وقیل إنما سار الیها مظهرا للخدمة والزيارة وهو یرید المکر والغدر فعلم به بهرام شاه فأخذہ وسجنه ثم قتله فعظم قتله علی الغوریة ولم یکنهم إلاخذ بثاره ولما قتل ملک بعده أخوه سام بن الحسین فمات بالجدری وملك بعده أخوه الملك سوری بن الحسین بلاد الغور والله أعلم وقوی أمره وتمکن فی ملکہ لجمع عسکره من الفارس والراجل وصار إلى غزنة طالبا بثأر أخیه المقتول وقاصدا ملک غزنة فلما وصل الیها ملکها فی جمادی الأولى سنة ثلاث وأربعین وخمسائة وفارقها بهرام شاه إلى بلاد الهند وجمع جموعا کثیرة وعاد إلى غزنة وعلی مقدمته السلار الحسین و إبراهیم العلوی أمير هندوستان وكان عسکر غزنة الذين أقاموا مع سوری بن الحسین الغوری وخدموه قلوبهم مع بهرام شاه وإنما هم بظواهرهم مع سوری فلما التقى سوری وبهرام شاه

رجع عسكر غزنة إلى بهرام شاه وصاروا معه وصلوا إليه سوري ملك الغورية وملك بهرام شاه غزنة في المحرم سنة أربع وأربعين وصلب الملك سوري مع السيد الماهيان في المحرم أيضا من السنة وكان سوري أحد الأجواد له الكرم الغزير والمرواة العظيمة حتى إنه كان يرمي الدراهم في المقاليع إلى الفقراء لتقع بيد من تقع ومن يتفق له ثم عاود الغورية وملكوها وخربوها وقد ذكرناه سنة سبع وأربعين وذكرنا هناك ابتداء دولة الغورية لأنهم في ذلك الوقت عظم محاربتهم وفارقوا الجبال وقصدوا خراسان وعلا شأنهم وفي بعض الخلف كاذكرناه والله أعلم.

(ذكر ملك الفرنج مدنا من الأندلس) في هذه السنة ملك الفرنج بالأندلس مدينة طرطوشة وملكوا معها جميع قلاعها وحصون لاردة وأفراغة ولم يبق للمسلمين في تلك الجهات شيء إلا واستولى الفرنج على جميعه لاختلاف المسلمين بينهم وبقي بأيديهم إلى الآن .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة توفي أبو بكر المبارك بن الكامل بن أبي غالب البغدادي المعروف أبوه بالخفاف سمع الحديث الكثير وكان مفيد بغداد . وفيها غلت الأسعار بالعراق وتعدرت الأقوات بسبب العسكر الوارد وقدم أهل السواد إلى بغداد منهزمين قد أخذت أموالهم وهلكوا جوعا وعريا وكذلك أيضا كان الغلاء في أكثر بلاد خراسان وبلاد الجبل وأصفهان وديار فارس والجزيرة والشام وأما المغرب فكان أشد غلاء بسبب انقطاع الغيث ودخول العدو إليها . وفيها توفي إبراهيم بن نهبان الرقي ومولده سنة تسع وخمسين وأربعمئة وصحب الغزالي والشامي وروى الجمع بين الصحيحين للحميدي عن مصنفه . وفيها في ذي القعدة توفي الإمام أبو الفضل الكرمانى الفقيه الحنفى إمام خراسان .

(ثم دخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة)

(ذكر وفاة سيف الدين غازى بن أتابك زنكى وبعض سيرته وملك أخيه قطب الدين) في هذه السنة توفي سيف الدين غازى بن أتابك زنكى صاحب الموصل بها بمرض حاد ولما اشتد مرضه أرسل إلى بغداد واستدعى أوحده الزمان فحضر عنده فرأى شدة مرضه فعالجه فلم ينجح فيه الدواء وتوفي أواخر جمادى الآخرة وكانت ولايته ثلاث سنين وشهرا وعشرين يوما وكان حسن الصورة والشباب وكانت ولادته سنة خمسمائة ودفن بالمدرسة التي بناها بالموصل وخلف ولدا ذكرا فرباه عمه نور الدين محمود وأحسن تربيته وزوجه ابنة أخيه قطب الدين مودود فلم تطل أيامه وتوفي في عنفوان شبابه فانقرض عقب سيف الدين وكان كريما شجاعا عاقلا وكان يصنع كل يوم لعسكره طعاما كثيرا بكرة وعشية فأما الذى بكرة فيكون مائة رأس غنم جيدة وهو أول من حمل على رأسه السنجق وأمر الأجناد أن لا يركبوا إلا بالسيف فى أوساطهم واللبوس تحت أركبهم فلما فعل ذلك اقتدى به أصحاب الأطراف وبنى المدرسة الأتابكية العتيقة بالموصل وهى من أحسن المدارس ووقفها على الحنفية والشافعية وبنى رباطا للصوفية بالموصل أيضا على باب المشرعة ولم تطل أيامه ليفعل ما فى نفسه من الخير وكان عظيم الهمة ومن جملة كرمه أنه قصد شهاب الدين الخيصر يهص وامتدحه بقصيدته التي أولها :

إلام يراك المجد فى زى شاعر • وقد نحتل شوقا فروع المنابر

فوصله بألف دينار عين سوى الخلع وغيرها ولما توفي سيف الدين غازي كان أخوه قطب الدين مقبياً بالموصل فاتفق جمال الدين الوزير وزين الدين على أمير الجيش على تملكه فأحضره واستحلفوه وحلفوا له وأركبوه إلى دار السلطنة وزين الدين في ركابه وأطاعه جميع بلاد أخيه سيف الدين كالموصل والجزيرة ولما ملك تزوج الحاتون ابنة حسام الدين تمرقاش التي كان قد تزوجها أخوه سيف الدين وتوفي قبل الدخول بها وهي أم أولاد قطب الدين سيف الدين وعز الدين وغيرهما من أولاده .

(ذكر استيلاء نور الدين على سنجار) لما ملك قطب الدين مودود الموصل بعد أخيه سيف الدين غازي كان أخوه الأكبر نور الدين محمود بالشام وله حلب وحمّة فكاتبه جماعة من الأمراء وطلبوه وفيمن كاتبه المقدم عبد الملك والد شمس الدين محمد وكان حينئذ مستحفظاً لسنجار فأرسل إليه يستدعيه ليتسلم سنجار فسار جريداً في سبعمائة فارساً من أمراء دولته فوصل إلى ماكسين في نفر يسير قد سبق من أصحابه وكان يوماً شديداً المطر فلم يعرفهم الذي يحفظ الباب فأخبر الشحنة أن نفراً من التركمان المتجندين قد دخلوا البلد فلم يستقم كلامه حتى دخل نور الدين الدار على الشحنة فقام إليه وقبل يده ولحق به باقي أصحابه ثم سار إلى سنجار فوصلها وليس معه غير ركابي وسلاح دار ونزل بظاهر البلد وأرسل إلى المقدم يعلمه بوصوله فراه الرسول وقد سار إلى الموصل وترك ولده شمس الدين محمداً بالقلعة فأعلمه بمسير والده إلى الموصل وأقام من لحق أباه بالطريق فأعلمه بوصول نور الدين فعاد إلى سنجار فسلمها إليه فدخلها نور الدين وأرسل إلى نحر الدين قرا أرسلان صاحب الحصن يستدعيه إليه لمودة كانت بينهما فوصل إليه في عسكره فلما سمع أتاك قطب الدين وجمال الدين وزين الدين بالموصل بذلك جمعوا عساكرهم وساروا نحو سنجار فوصلوا إلى تل يعفر وترددت الرسل بينهم بعد أن كانوا عازمين على قصده بسنجان فقال لهم جمال الدين ليس من الرأي محاقته وقاتله فإننا نحن قد عظمتنا محله عند السلطان وما هو بصدد من الغزاة وجعلنا أنفسنا دونة وهو يظهر للفرنج تمظيماً وأنه تبعدنا ولا يزال يقول لهم إن كنتم كما يجب وإلا سلمت البلاد لصاحب الموصل وحينئذ يفعل بكم ويصنع فإذا لقيناه فإن هزمناه طمع السلطان فينا ويقول هذا الذي كانوا يعظمونه ويحتمون به أضعف منهم وقد هزموه وإن هو هزمنا طمع فيه الفرنج ويقولون إن الذين كان يحتسب بهم أضعف منه وقد هزمهم وبالجملة فهو ابن أتاك وأشار بالصلاح وسار هو إليه فاصطلع وسلم سنجان إلى أخيه قطب الدين وسلم مدينة حمص والرحبة بأرض الشام إليه وبقي الشام له وديار الجزيرة لأخيه واتفقا وعاد نور الدين إلى حلب وأخذ معه ما كان قد ادخره أبو عماد الدين أتاك فيها من الخزائن وكانت كثيرة جداً .

(ذكر وفاة الحافظ وولاية الظاهر ووزارة ابن السلار) في هذه السنة في جمادى الآخرة توفي الحافظ الدين الله عبد المجيد بن الأمير أبي القاسم بن المنتصر بالله العلوي صاحب مصر وكانت خلافته عشرين سنة إلا خمسة أشهر وصره نحو من سبع وسبعين سنة ولم يزل في جميعها محكوماً عليه يحكم عليه وزراؤه حتى أنه جعل ابنه حسنا وزيراً وولى عهده لحكم عليه واستبد بالامر دونه وقتل كثيراً من أمراء دولته وصادق كثيراً فلما رأى الحافظ ذلك سقاه سمافاً . وقد ذكرناه ولم يزل الأمر من العلويين المصريين من أبوه غير خليفة غير الحافظ والمعتمد وسيرد ذكر نسب المعتمد وولى الخلافة بعده بمصر ابنه الظاهر بأمر الله أبو منصور اسماعيل بن عبد المجيد الحافظ واستوزر ابن مصال فبقي أربعين يوماً حتى حضر الأمر فقصدته النادل بن السلار من نفر الإسكندرية ونازعه في

الوزارة وكان ابن مصل قد خرج من القاهرة في طلب بعض المفسدين من السودان فخالفه العادل بالقاهرة وصار وزيراً وسير عباس بن أبي الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي في عسكره وهو ربيب العادل إلى ابن مصل فظفر به وقتله وعاد إلى القاهرة واستقر العادل وتمكن ولم يكن للخليفة معه حكم وأما سبب وصول عباس إلى مصر فإن جده يحيى أخرج أبا الفتوح من المهديّة فلما توفي يحيى وولى بعده بلاد أفريقيا ابنه علي بن يحيى بن تميم بن يحيى صاحب أفريقيا أخرج أخاه أبا الفتوح والد عباس من أفريقيا سنة تسع وخمسمائة فسار إلى الديار المصرية ومعه زوجته بلارة ابنة القاسم بن تميم بن المعز باديس وولده عباس هذا هو صغير يرضع ونزل أبو الفتوح بالإسكندرية فأكرم وأقام بها مدة يسيرة وتوفي وتزوجت بعد امرأته بلارة بالعادل بن السلار وشب العباس وتقدم عند الظاهر حتى ولي الوزارة بعد العادل فإن العادل قتل في المحرم سنة ثمان وأربعين قيل وضع ريبه عباس من قتله فلما قتل ولي الوزارة بعده وتمكن منها وكان جلدا حازماً ومع هذا فني أيامه أخذ الفرنج عسقلان واشتد وهن الدولة بذلك وفي أيامه أخذ نور الدين محمود دمشق من مجير الدين أبق وصار الأمر بعد هذا إلى أن أخذت مصر منهم على ما ذكره بعد إن شاء الله تعالى .

(ذكر عودة جماعة من الأمراء إلى العراق) في هذه السنة في رجب عاد البقش كوزن خر والطرناي وابن ديبس ومعهم ملكشاه ابن السلطان محمود إلى العراق وراسلوا الخليفة في الخطبة لملكشاه فلم يلتفت إليهم وجمع العساكر وحصن بغداد وأرسل إلى السلطان مسعود يعرفه بالحال فوعده بالوصول إلى بغداد فلم يحضر وكان سبب ذلك ما ذكرناه من وصول عمه السلطان سنجر إلى الري في معنى خاص بك فلما وصل إلى الري سار إليه السلطان مسعود ولقيه واسترضاه فرضى عنه فلما علم البقش بمراسلة الخليفة إلى مسعود نهب النهروان وقبض على الأمير علي بن ديبس في رمضان فلما علم الطرناي بذلك هرب إلى النعمانية ووصل السلطان مسعود منتصف شوال ورحل البقش كوزن خر من النهروان وأطلق علي بن ديبس فلما وصل السلطان إلى بغداد قصدته علي وألقى بنفسه بين يديه واعتذر فرضى عنه وذكر بعض المؤرخين هذه الحادثة سنة أربع وأربعين وذكر أيضاً ثلاث وأربعين فظنهما حادثتين وأنا أظهر واحدة ولكننا تبعناه في ذلك ونهنا عليه

(ذكر قتل البرنس صاحب أنطاكية وهزيمة الفرنج) في هذه السنة غزا نور الدين محمود بن زنكي بلاد الفرنج من ناحية أنطاكية وقصد حصن حارم وهو للفرنج فحصره وخرب ريبه ونهب سواده ثم رحل إلى حصن أنب فحصره أيضاً فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وحارم وتلك الأعمال وساروا إلى نور الدين ليرحلوه عن أنب فلقبهم واقتلوا قتالا عظيماً وبأشر نور الدين القتال ذلك اليوم فانهزم الفرنج أقبح هزيمة وقتل منهم جمع كثير وأسروا مئلتهم وكان ممن قتل البرنس صاحب أنطاكية وكان عاتياً من عتاة الفرنج وعظيماً من عظمتهم ولما قتل البرنس ملك بعده ابنه بيمند وهو طفل فتزوجت أمه بيرنس آخر ليدبر البلد إلى أن بكر ابنها وأقام معها بأنطاكية ثم إن نور الدين غزاهم غزوة أخرى فاجتمعوا ولقوه فهزمهم وقتل فيهم وأسر وكان فيمن أسر البرنس اثنتان زوج أم بيمند فتمكن بيمند بأنطاكية وأكثر الشعراء مدح نور الدين وتنهته بهذا الظفر فإن قتل البرنس كان عظيماً عند الطائفتين ومن قال فيه : القيسراني الكاتب في القصيدة المشهورة التي أولها :

هذي العزائم لا ماتدعي القضب ه وذي المكارم لا ماقلت الكتب

(٤ - كامل - ٩)

وهذه المهم اللاتي متى خطبت • تعثرت خلفها الأشعار والخطب
صاغت يابن عماد الدين ذروتها • براحة الساعى دونها تعب
مازال جدك يبنى كل شامقه • حتى بنى قبلة أوناها الشهب
أغرت سيوفك بالإفرنج راجفة • فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة • أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
طهرت أرض الأعدى من دماهم • طهارة كل سيف عندها جنب

﴿ ذكر الخلف بن صاحب صقلية وملك الروم ﴾ في هذه السنة اختلف رجار الفرنجى صاحب صقلية
وملك القسطنطينية وجرى بينهما حروب كثيرة ودامت عدة سنين فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين ولولا
ذلك لملك رجار جميع بلاد أفريقية وكان القتال بينهم برا وبحرا والظفر فى جميع ذلك لصاحب صقلية حتى
إن أسطوله فى بعض السنين وصل إلى مدينة القسطنطينية ودخل فى المينا وأخذوا عدة شوانى من الروم وأسروا
جمعا منهم ورمى الفرنج طاقات قصر الملك بالثياب وكان الذى يفعل هذا بالروم والمسلمين جرجى وزير
صاحب صقلية فرض عدة أمراض منها البواسير والحصا ومات سنة ست وأربعين وخمسة فمكنت الفتنة
واستراح الناس من شره وفساده ولم يكن عند صاحب صقلية من يقوم مقامه بعده .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة زلزلت الأرض زلزلة عظيمة فقبل إن جبلا مقابل حلوان ساخ
فى الأرض . وفيها ولى أبوالمظفر يحيى بن هبيرة وزارة الخليفة المقتنى لأمر الله وكان قبل ذلك صاحب ديوان
الزمام وظهر له كفاية عظيمة عند زول العساكر بظاهر بغداد وحسن قيام فى ردم فرغب الخليفة فيه فاستوزره
يوم الأربعاء رابع ربيع الآخر سنة أربع وأربعين وكان القمر على تريع زحل فقبل له لوأخرت لبس
الخلعة لهذه التريعات فقال وأى سعادة أكبر من وزارة الخليفة ولبسها ذلك اليوم . وفيها فى المحرم توفى قاضى
القضاة على بن الحسين الزينبى وولى القضاء عماد الدين أبو الحسن على بن أحمد الدامغانى . وفيها فى المحرم
رخصت الاسعار بالعراق وكثرت الخيرات وخرج أهل السواد إلى قراهم . وفيها توفى الأمير نظر أمير الحاج
وكان قد سار بالحاج إلى الحلة فرض واشتد مرضه واستخلف على الحاج قايمماز الأرجوانى وعاد إلى بغداد
مريضا فتوفى فى ذى القعدة وكان خصيا عاقلا خيرا له معروف كثير وصدقات وافرة . وفيها توفى أحمد بن
نظام الملك الذى كان وزير السلطان محمد والمسترشد بالله . وفيها توفى على بن رافع بن خليفة الشيبانى وهو من
أعيان خراسان وله مائة وسبع سنين شمسية ومات الإمام مسعود الصوابى فى المحرم منها . وفيها توفى معين
الدين أنز نائب أبق صاحب دمشق وهو كان الحاكم والامر اليه وكان أبق صورة أمير لامعى تحتها . وفيها
توفى القاضى أحمد بن محمد بن الحسين الأرجانى أبو بكر قاضى تستر وله شعر حسن فنه قوله :

ولما بلوت الناس أطلب عندهم • أخا ثقة عند اعتراض السدائد
تطلعت فى حالى رخاء وشدة • وناديت فى الأحياء هل من مساعد
فلم أرفيا سامنى غير شامت • ولم أرفيا سرنى غير حامد
تمتعنا ياناظرى بنظرة • وأوردت ما قلبى أمر الموارد
أعبنى كفا عن فؤادى فإيه • من البنى سعى اثنين فى قتل واحد

وفيها توفي أبو عبد الله عيسى بن هبة بن عيسى البرزاز وكان ظريفا وله شعر حسن كتب إليه صديق له رقعة وزاد في خطابه فأجابته :

قد زدتنى فى الخطاب حتى ه خشيت نقصا من الزيادة
فاجعل خطابى خطاب مثلى ه ولا تغير على عادته (١)

(ثم دخلت سنة خمس وأربعين وخمسمائة)

(ذكر أخذ العرب الحجاج) فى هذه السنة رابع عشر المحرم خرج العرب زعب ومن انضم إليها على الحجاج بالغراني بين مكة والمدينة فأخذوم ولم يسلم منهم إلا القليل وكان سبب ذلك أن نظراً أمير الحجاج لما عاد من الحلة على ما ذكرناه وسار على الحجاج قايماز الأرجواني وكان حدثا غرا فسار بهم إلى مكة فلما رأى أمير مكة قايماز استصغره وطمع فى الحجاج وتلطف قايماز الحال معه إلى أن عادوا فلما سار عن مكة سمع باجتماع العرب فقال للحجاج من المصلحة أنالانمضى إلى المدينة فضج العجم وتهددوه بالشكوى منه إلى السلطان سنجر فقال لم فأعطوا العرب مالا نستكنى به شرم فامتموا من ذلك فسار بهم إلى الغراني وهو دنزل يخرج إليه من مضيق جبلين فوقفوا على قم مضيق وقتلهم قايماز ومن معه فلما رأى عجزه أخذ لنفسه أمالا وظفروا بالحجاج وغنموا أموالهم وجميع مامعهم وتفرق الناس فى البر وهلك منهم خلق كثير لا يحصون كثرة ولم يسلم إلا القليل فوصل بعضهم إلى المدينة وتحملوا منها إلى البلاد وأقام بعضهم مع العرب حتى توصل إلى البلاد ثم إن الله تعالى اقتص للحجاج من زعب فلم يزالوا فى نقص وذلة ولقد رأيت شابا منهم بالمدينة سنة ست وسبعين وخمسمائة وجرى بينى وبينه مفاوضة قلت لدهيا إننى والله كنت أميل إليك حتى سمعت أنك من زعب ففرت وخفت شرك فقال لم فقلت بسبب أخذكم الحجاج فقال لى أنا لم أدرك ذلك الوقت وكيف رأيت الله صنع بنا والله ما أفلحنا ولا نجحنا قل العدد وطمع العدو فىنا .

(ذكر فتح حصن قاميا) فى هذه السنة فتح نور الدين محمود بن الشهيد زنىكى حصن قاميا من الفرنج وهو مجاور شيزر وحماة على تل عال من أحسن القلاع وأمنعها فسار نور الدين إليه وحصره وبه الفرنج وقتلهم وضيق على من بها منهم فاجتمع من بالشام من الفرنج وساروا نحوه ليرحلوه عنهم فلم يصلوا إلا وقد ملكه

(١) وفيها توفي القاضى عياض بن موسى السبتي صاحب التصانيف المفيدة ومن شعره قوله :

الله يعلم أنى منذ لم أركم ه كطائر خانه ريش الجناحين

ولو قدرت ركبت الريح نحوكم ه فان بعدكم عنى جن حينى

وقد ترجمه بن خلدكان ترجمة حسنة . وفيها توفي عيسى بن هبة بن عيسى ، أبو عبد الله النقاش ، سمع الحديث مولده سنة سبع وخمسين وأربعمائة . قال ابن الجوزى : وكان ظريفا خفيف الروح ، له نوادر حسنة رأى الناس ، وعاشرا لا كياس ، وكان يحضر مجلسى ويكاتبنى وأكاتبه ، كتبت إليه مرة فعظمتة فى الكتاب فكتب إلى : قد زدتنى فى الخطاب حتى خشيت نقصا من الزيادة ، وله :

إذا وجد الشيخ فى نفسه ه نشاطا فذلك موت خفى

أست ترى أن ضوء السرا ه ج له لهب قبل أن ينطنى

وملأه ذخائر وسلاحا ورجالا وجميع ما يحتاج إليه فلما بلغه سير الفرنج إليه رحل عنه وقد فرغ من امر الحصن وسار إليهم يطلبهم فحين رأوا أن الحصن قد ملك وقوة عزم نور الدين على لقائهم عدلوا عن طريقه ودخلوا بلادهم وراسلوه في المهادنة وعاد سالما مظفرا ومدحه الشعراء وذكروا هذا الفتح فن ذلك قول ابن الرومي من قصيدة أولها :

أسنى الممالك ما أطلت منارها ه وجعلت مرهفة الدسار دسارها
وأحق من ملك البلاد وأهلها ه رؤف تكنف عدله أقطارها

ومنها في وصف الحصن :

أدركت نارك في البغاة وكنت يا ه مختار أمة أحمد مختارها
ضامت نجومك فوقها ولطالما ه باتت تنائمها النجوم شرارها
عارية الزمن المعير سماها ه منك المغيرة فاسترد معارها

أضمت مع الشعري العبور وأصبحت ه شعراء تستغلي الفجر شوارها (وهي طويلة)

(ذكر حصر الفرنج قرطبة ورحيلهم عنها) في هذه السنة سار السليطين وهو الأذفونش وهو ملك طليطلة وأعمالها وهو من ملوك الجلائقة نوع من الفرنج في أربعين ألف فارس إلى مدينة قرطبة فحصرها وهي في ضعف وغلاء فبلغ الخبر إلى عبد المؤمن وهو بمراكش فجهز عسكرا كثيرا وجهز مقدمهم أبازكريا يحيى بن يرموز ونفذهم إلى قرطبة فلما قربوا منها فلم يقدرُوا أن يلقوا عسكر السليطين في الوطاء وأرادوا الاجتماع بأهل قرطبة لينعروها لخطر العاقبة بعد القتال فسلكوا الجبال الوعرة والمضايق المتشعبة فساروا نحو خمسة وعشرين يوما في الوعر في مسافة أربعة أيام في السهل فوصلوا إلى الجبل الأطل على قرطبة ، فلما رأهم السليطين وتحقق أمرهم رحل عن قرطبة وكان فيها القائد أبو العجر السائب من ولد القايد بن غلبون وهو من أبطال أهل الأندلس وأمراؤها فلما رحل الفرنج خرج منها لوقته وصعد إلى ابن يرموز وقال له انزلوا عاجلا وادخلوا البلد ففعلوا وباتوا فيها فلما أصبحوا من الغد رأوا عسكر السليطين على رأس الجبل الذي كان فيه عسكر عبد المؤمن فقال لهم أبو العجر هذا الذي خفته عليكم لأنى علمت أن السليطين ما أقام إلا طالبا لكم فإن من الموضع الذي كان فيه طريق سهلة ولو لحقكم هناك نال مراده منكم ومن قرطبة فلما رأى السليطين أنهم قد فاتوه علم أنه لم يبق له طمع في قرطبة فرحل عائدا إلى بلاده وكان حصره لقرطبة ثلاثة أشهر والله أعلم .

(ذكر ملك الغورية هراة) في هذه السنة سار ملك الغور الحسن بن الحسين من بلاد الغور إلى هراة فحصرها وكان أهلها قد كاتبوه وطلبوا يسلموها إليه هربا من الأتراك لهم وزوال هيبة السلطنة عنهم فامتنع أهل هراة عليه ثلاثة أيام . ثم خرجوا إليه وسلموا البلد وأطاعوه فأحسن إليهم وأفاض عليهم النعم وغمرهم بالعدل وأظهر طاعة السلطان سنجر والقيام على الوفاء له والانقياد إليه .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة أمر علاء الدين محمود بن مسعود الغالب على أمر طريثيث إقامة الخطبة للخليفة ولبس السواد ففعل الخطيب ذلك فثار به عمه وأقاربه ومن وافقهم وقاتلوه وكسروا المنبر وقتلوا الخطيب وكان فعل علاء الدين هذا لأن أباه كان مسلما فلما تغلب الإسماعيلية على طريثيث أظهر موافقهم وأبطن اعتقاد الشريعة وكان يناظر على مذهب الشافعي وازداد تقدما بطريثيث وجرت أمورها بإرادته فلما

حضره الموت أوصى أن يغسله فقيه شافعي وأوصى إلى ابنه علاء الدين إن أمكنه أن يعيد فيها إظهار شريعة الإسلام فعمل فلما رأى من نفسه قوة فعله فلم يتم له وفيها كثر المرض بالعراق لاسيما ببغداد وكثر الموت أيضا فيها ففارقها السلطان مسعود . وفيها توفي الأمير علي بن ديبس بن صدقة صاحب الحلة بأسدأباد وانهم طبيبه محمد بن صالح بالمواطاة عليه فمات الطبيب بعده بتمريب . وفيها استوزر عبدالمؤمن صاحب بلاد المغرب أبا جعفر بن أبي أحمد الأندلسي وكان مأسورا عنده فوصف له بالعقل وجودة الكتابة فأخرجه من الحبس واستوزره وهو أول وزير كان للوحدين . وفي هذه السنة في المحرم جلس يوسف الدمشقي مدرسا في النظامية ببغداد وكان جلوسه بغير أمر الخليفة فنعم يوم الجمعة من دخول الجامع فصلى في جامع السلطان ومنع من التدريس فتقدم السلطان مسعود إلى الشيخ أبي النجيب بأن يدرس فيها فامتنع بغير أمر الخليفة فاستخرج السلطان إذن الخليفة في ذلك فدرس منتصف المحرم من السنة . وفيها توفي أبو عبد الله محمد بن علي مهرا ن الفقيه الشافعي تفتقه على الهراسي وولى قضاء نصيبين ثم ترك القضاء وتزهد فأقام بجزيرة ابن عمر ثم انتقل إلى جبل بيلد الحصن في زاوية وكان له كرامات ظاهرة . وفيها مات الحسن بن أبي القاسم بن أبي الحسن المسعري أبو المفاخر النيسابوري سمع الحديث الكثير وكان فقيها أديبا دائم الاشتغال يعظ الناس وكان مما ينشد :

مات الكرام وولوا وانقضوا ومضوا هـ ومات من بعدهم تلك الكرامات
وخلفوني في قوم ذوى سفة هـ لو أبصروا طيف ضيف في الكرى ماتوا

﴿ ثم دخلت سنة ست وأربعين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر انهزام نور الدين من جوسلين وأسر جوسلين بعد ذلك ﴾ في هذه السنة جمع نور الدين محمود عسكريه وسار إلى بلاد جوسلين الفرنجي وهي شمال حاب منها تل باشروعين تاب وإعزاز وغيرها وعزم على محاصرتها وأخذها وكان جوسلين لعنه الله فارس الفرنج غير مدافع قد جمع الشجاعة والرأى فلما علم بذلك جمع الفرنج فأكثر وسار نحو نور الدين فالتقوا واقتتلوا فانهزم المسلمون وقتل منهم وأسر جمع كثير وكان في جملة من أسر سلاح دار نور الدين فأخذه جوسلين ومعه سلاح نور الدين فسيره إلى الملك مسعود بن قلع أرسلان صاحب قونية وأقصر وقال له هذا سلاح زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما أعظم منه فلما علم نور الدين الحال عظم عليه ذلك وهمل الحيلة على جوسلين وهجر الراحة ليأخذ بثأره وأحضر جماعة من أمراء التركان وبذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين وسلبوه إليه إما قتيلا أو أسيرا لأنه علم أنه متى قصده بنفسه احتفى بجموعه وحصونه فجعل التركان عليه العيون فخرج متصيذا فلحقت به طائفة منهم وظفروا به فصانعهم على مال يؤديه إليهم فأجابوه إلى إطلاقه إذا حضر المال فأرسل في إحضاره ففضى بعضهم إلى أبي بكر بن الداية نائب نور الدين بحلب فأعلمه الحال فسير عسكريا معه فكبسوا أولئك التركان وجوسلين معهم فأخذوه أسيرا وأحضره عنده وكان أسره من أعظم الفتح لأنه كان شيطانا عاتيا شديدا على المسلمين قاسى القلب وأصيبت النصرانية كافة بأسره ولما أسر سار نور الدين إلى قلاعه فملكها وهي تل باشروعين تاب وإعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن البارة وكفر سود وكفر لاثا ودلوك ومرعش ونهر الجوز وغير ذلك من أعماله في مدة يسيرة يرد تفصيلها وكان نور الدين كلما فتح منها حصنا نقل إليه سن كل ما تحتاج إليه الحصون

خوفا من نكثة تلحق المسلمين من الفرنج فتكون بلادهم غير محتاجة إلى ما يمنعها من العدو ومدحه الشعراء فمن قال فيه: القيسراني من قصيدة في ذكر جوسلين:

كما أهدت الأقدار للقصص أسره • وأسعد قرن من حواملك الأسر
طنى وبغى عدوا على غلوائه • فأوبقه الكفران عدواه والكفر
وأمت عزاز كاسمها بك عزة • تشق على النسرين لو أنها وكر
فسر واملك الدنيا ضياء وبهجة • فبالأفق الداجي إلى ذا السنا فقر
كأن بهذا العزم لافل حده • وأقصاه بالأقصى وقد قضى الأمر
وقد أصبح البيت المقدس طاهرا • وليس سوى جارى الدماء له طهر

(ذكر حصر غرناطة والمرية من بلاد الأندلس) في هذه السنة سير عبد المؤمن جيشا كشافنا نحو عشرين ألف فارس إلى الأندلس مع أبي حفص عمر بن يحيى المقتدى وسير معهم نساءهم فكان يسرن مفردات عليهن البرانس السود ليس معهن غير الخدم ومتى قرب منهم رجل ضرب بالسياط فلما قطعوا الخليج ساروا إلى غرناطة وبها جمع من المرابطين فحصرها عمر وعسكره وضيقوا عليها فجاء اليه أحمد بن ملحان صاحب مدينة وادي آش وأهلها بجماعته ووجدوا وصار معه وأتاه إبراهيم بن همشك صهر ابن مردنيس صاحب جيان وأعجابه ووجدوا وصاروا أيضا معه فكثرت جيشه وحرصوه على المسارعة إلى ابن مردنيس ملك بلاد شرق الأندلس ليبلغته بالحصار قبل أن يتجهز فلما سمع ابن مردنيس ذلك خاف على نفسه فأرسل إلى ملك برشلونة من بلاد الفرنج يخبره ويستنجده ويستحثه على الوصول إليه فسار إليه الفرنجي في عشرة آلاف فارس وسار عسكر عبد المؤمن فوصلوا إلى حمة بلقواردة وبينها وبين مرسية التي هي مقر ابن مردنيس مرحلة فسمعوا بوصول الفرنج فرجع وحصر مدينة المرية وهي للفرنج عدة شهور فاشتد الغلاء في العسكر وعمدت الأقوات فرحلوا عنها وعادوا إلى أشبيلية فأقاموا بها.

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في ربيع الآخر توفي العبادي الواعظ واسمه المظفر بن أردشير بخوزستان وكان الخليفة المقتدى لأمر الله قد سيره في رسالة إلى الملك محمد بن السلطان محمود ليصلح بينه وبين بدر الخواتمي فتوفي هناك وجلس ولده بيغداد للعزاء وأقيم بحاجب من الديوان العزيز وكان ابنه يجلس ويمظ ويذكر والده ويبكى هو والناس كافة ونقل العبادي إلى بغداد ودفن بالشونيزي ومولده سنة إحدى وتسعين وأربعمائة وسمع الحديث من أبي بكر السروي وزاهر الشحامي وغيرهما. وفيها انفجر بئق النهر وان الذي أمه يهروز بكثرة الزيادة في تامل وإهمال أمرها حتى عظم ذلك وتضرر به الناس. وفيها سار الأمير قجق في طائفة من عسكر السلطان سنجر إلى طريثيت بخراسان وأغار على بلاد الإسماعيلية فنهب وسبي وخرب وأحرق المساكن وفعل بهم أفاعيل عظيمة وعاد سالما.

(ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة)

(ذكر ملك عبد المؤمن بجاية وملك بني حماد) في هذه السنة سار عبد المؤمن بن علي إلى بجاية وملكها وملك جميع ممالك بني حماد وكان لما أراد قصدها سار من مراکش إلى سبتة سنة ست وأربعين فأقام بها مدة يعمل الأسطول ويجمع العساكر القريبة منه وأما ما هو على طريقه إلى بجاية من البلاد فكتب إليهم ليتجهزوا

ويكونوا على الحركة أى وقت طلبهم والناس يظنون أنه يريد العبود إلى الأندلس فأرسل في قطع السابلة عن بلاد شرق المغرب برا وبحرا وسار من سبتة في صفر سنة سبع وأربعين فأسرع السير وطوى المراحل والعساكر تلقاه في طريقه فلم يشعر أهل بجاية إلا وهو في أهلها وكان ملكها يحيى بن العزيز بن حماد آخر ملوك بني حماد وكان مواما بالصيد واللهو لا ينظر في شيء من أمور مملكته قد حكم فيها بنو حمدون فلما اتصل الخبر بميمون بن حمدون جمع العسكر وسار عن بجاية نحو عبد المؤمن فلقبهم مقدمته وهى تزيد على عشرين ألف فارس فانهزم أهل بجاية من غير قتال ودخلت مقدمة عبد المؤمن بجاية قبل وصول عبد المؤمن بيومين وتفرق جميع عسكر يحيى بن العزيز وهربوا برا وبحرا ونحس يحيى بقلعة قسطنطينية الهوا وهرب أخواه الحرث وعبد الله إلى صقلية ودخل عبد المؤمن بجاية وملك جميع بلاد ابن العزيز بغير قتال ثم إن يحيى نزل إلى عبد المؤمن بالأمان فأمنه وكان يحيى قد فرح لما أخذت بلاد أفريقية من الحسن بن على بن فرحان ظهر عليه فكان يذمه ويذكر معايبه فلم تطل المدة حتى أخذت بلاده ووصل الحسن بن على إلى عبد المؤمن في جزائر بني مزغان وقد ذكرنا سنة ثلاث وأربعين سبب مصيره إليها واجتماعا عنده فأرسل عبد المؤمن يحيى بن العزيز إلى بلاد المغرب وأقام بها وأجرى عليه شيئا كثيرا ، وأما الحسن بن على فإنه أحسن إليه والزمه صحبتته وأعلى مرتبته فلزمه إلى أن فتح عبد المؤمن المهدي فجعله فيها وأمر إليها أن يقتدى برأيه ويرجع إلى قوله ولما فتح عبد المؤمن بجاية لم يتعرض إلى مال أهلها ولا غيره وسبب ذلك أن بني حمدون استامنوا وفي لهم بأمانه .

(ذكر ظفر عبد المؤمن بصنهاجة) لما ملك عبد المؤمن بجاية جمعت صنهاجة في أم لا يحصها إلا الله تعالى وتقدم عليهم رجل اسمه أبو قصبه واجتمع معهم من كتامة ولوثة وغيرها خلق كثير وقصدوا حرب عبد المؤمن فأرسل إليهم جيشا كثيرا ومقدمهم أبو سعيد يخلف وهو من الخمسين فالتقوا في عرض الجبل شرقى بجاية فانهزم أبو قصبه وقتل أكثر من معه ونهبت أموالهم وسبيت نساؤهم وذرايرهم ولما فرغوا من صنهاجة ساروا إلى قلعة بني حماد وهى من أحسن القلاع وأعلاها لا ترام على راس جبل شاهق لا يكاد الطرف يحققها لعلوها ولكن القدر إذا جاء لا يمنع منه معقل ولا جيوش فلما رأى أهلها عساكر الموحدين هربوا منها في رؤس الجبال وملك القلعة وأخذ جميع ما فيها من مال وغيره وحمل إلى عبد المؤمن فقسمه بين أصحابه .

(ذكر وفاة السلطان مسعود وملك ملكشاه محمد بن محمود) في هذه السنة أول رجب توفى السلطان مسعود ابن محمد بن ملكشاه بهمدان وكان مرضه حتى خاضة نحو أسبوع وكان مولده سنة اثنتين وخمسمائة في ذى القعدة ومات معه سعادة البيت السلجوقى فلم يبق له بعده راية يعتمد بها ولا يلتفت إليها :

فما كان قيس هلكه هلك واحد . ولكنه بنيان قوم تهلما

وكان رحمه الله حسن الأخلاق كثير المزاح والانبساط مع الناس فن ذلك أن أتاك زنى صاحب الموصل أرسل إليه القاضى كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى في رسالة فوصل إليه وأقام معه في العسكر فوقف يوما على خيمة الوزير حتى قارب أذان المغرب فعاد إلى خيمته فأذن المغرب وهو في الطريق فرأى إنسانا فقيها في خيمة فنزل إليه فصلى معه المغرب ثم سأله كمال الدين من أين هو فقال أما قاضى مدينة كذا ، فقال له كمال الدين القضاة ثلاثة : قاضيان في النار ، وهو أنا وأنت ، وقاض فى الجنة ، وهو من لم يعرف أبواب هؤلاء الظلمة ولا يرام فلما كان الغد أرسل السلطان وأحضر كمال الدين إليه فلما دخل عليه ورآه ضحك . وقال القضاة

ثلاثة ، فقال كمال الدين نعم يا مولانا فقال والله صدقت ما أصدق من لا يرانا ولا نراه ثم أمر أن تقضى حاجته وأعادته من يومه وكان كريما هفيفاعن الأموال التي للرعايا حسن السيرة فيهم من أصلح السلاطين سيرة وألينهم عريكة سهل الأخلاق لطيفا فن ذلك أنه اجتاز يوما في بعض أطراف بغداد فسمع امرأة تقول لأخرى انظري إلى السلطان فوقف وقال حتى تجيء هذه الست تنظر إلينا وله فضائل كثيرة ومناقب جمة وكان عهدا إلى ملكشاه ابن أخيه السلطان محمود فلما توفي خطب له الأمير خاص بك ورتب الأمور وقررها بين يديه وأذعن له جميع المسكر بالطاعة ولما وصل الخبر إلى بغداد بموت السلطان مسعود هرب الشحنة بها وهو مسعود بلال إلى تكريت واستظهر الخليفة المقتنى لأمر الله على داره ودور أصحاب السلطان ببغداد وأخذ كل ما لهم فيها وكل من كان عنده ودبعة لأحد منهم أحضرها بالدايون وجمع الخليفة الرجال والعساكر وأكثر التجنيد وتقدم بإرافة الخور من مساكن أصحاب السلطان ووجد في دار مسعود بلال شحنة بغداد كثير من الخمر فأربق ولم يكن الناس يظنون أنه شرب الخمر بعد الحج وقبض على المؤيد الأنوسي الشاعر وعلى الحيص يبص الشاعر ثم أطلق الحيص يبص وأعيد عليه ما أخذ منه ثم إن السلطان ملكشاه سير سار كرد في عسكر إلى الحلة فدخلها فسار إليه مسعود بلال شحنة بغداد وأظهر له الإنفاق معه فلما اجتمعا قبض عليه مسعود بلال وغرقه واستبد بالحلة فلما علم الخليفة ذلك جهز العساكر إليه مع عون الدين بن هبيرة فسار إليه فلما قاربوا الحلة عبر مسعود بلال الفرات إليهم وقاتلهم فاهزم من عسكر الخليفة ونادى أهل الحلة بشاعر الخليفة فلم يدخلها وتمت الهزيمة عليه وعلى أصحابه فعاد إلى تكريت وملك عسكر الخليفة الحلة وسير الوزير عسكرا إلى الكوفة وعسكرا إلى واسط فلكوها ثم إن عساكر السلطان وصلت إلى واسط فقارقتها عسكر الخليفة فلما سمع الخليفة ذلك تجهز بنفسه وسار عن بغداد إلى واسط فقارقتها العسكر السلطاني وملكها الخليفة وسار منها إلى الحلة ثم عاد إلى بغداد فوصلها ناسع عشر ذي القعدة وكانت غيبته خمسة وعشرين يوما ثم إن خاص بك بن بلسكري قبض على الملك ملكشاه الذي خطب له بالسلطنة بعد مسعود وأرسل إلى أخيه الملك محمد سنة ثمان وأربعين وهو بخوزستان يستدعيه وكان قصده أن يحضر عنده فيقبضه ويخطب لنفسه بالسلطنة فسار الملك محمد إليه فلما وصل أجلسه على تخت السلطنة أوائل صفر وخطب له بالسلطنة وخدمه وبالغ في خدمته وحمل له هدايا عظيمة جليلة المقدار ثم إنه دخل إلى الملك محمد ثاني يوم وصوره فقتله محمد وقتل معه زندي الجاندار وألقى برأسهما ففترقا أصحابهما ولم ينتطح فيهما عنزان وكان أيدغدي التركاني المعروف بشملة مع خاص بك قناه عن الدخول إلى الملك محمد فلم ينتبه فقتل ونجا شملة قهب جشير الملك محمد ومضى طالبا خوزستان وأخذ محمد من أموال خاص بك شيئا كثيرا واستقر محمد في السلطنة وتمكن وبقى خاص بك ملق حتى أكتته الكلاب وكان صيا تركانيا اتصل بالسلطان مسعود فتقدم على سائر الأمراء ثم كان هذا خاتمة أمره .

(ذكر الحرب بين نور الدين محمود وبين الفرنج) في هذه السنة تجمعت الفرنج وحشدت الفارس والراجل وساروا نحو نور الدين وهو ببلاد جوسلين لينمره من ملكها فوصوا إليه وهو بدوك فلما قربوا منه رجع إليهم ولقيهم وجرى المصاف بينهم عند دوك واقتلوا أشد قتال رآه الناس وصبر الفريقان ثم انهزم الفرنج وقتل منهم وأسر كثير وعاد نور الدين إلى دوك فلكها واستولى عليها وبما قيل في ذلك :

أهدت بعصرك هذا الأنيق فتوح النبي وأحصارها

فواطات يا حبذا أحدها ۰ وأسرت من بدر أبارها
 وكان مهاجرها تابعي ۰ ك وأنصار رأيك أنصارها
 لجددت إسلام صلبانها ۰ وعمر جدك عمارها
 وما يوم أنب إلا كذا ۰ ك بل طال بالنوع أشبارها
 صدمت عزيمتها صدمة ۰ أذابت مع الماء أحجارها
 وفي تل باشر باشرتهم ۰ بزحف تسور أسوارها
 وإزدالكتم دلوك فقد ۰ شددت فصدقت أخبارها

(ذكر الحرب بين سنجر والغورية) في هذه السنة كان بين السلطان سنجر وبين الغورية حرب وكانت دولتهم أول ما قد ظهرت وأول من ملك منهم رجل اسمه الحسين بن الحسن ملك جبال الغور ومدينة فيروزكوه وهي تقارب أعمال غزنة وقوى أمره وتلقب بعلاء الدين وتعرض إلى أهمال ثم جمع جيشا وقصد هراة محاصرا لها فتهب عسكره ناب وأوبة ومارباد من هراة الرود وسار إلى بلخ وحصرها فقاتله الأمير قساج ومعه جمع من الغز فغدروا به وصاروا مع الغوري فملك بلخ فلما سمع السلطان سنجر بذلك سار إليه لينعنه فثبت له علاء الدين واقتلوا فانهزم الغورية وأسر علاء الدين وقتل من الغورية خلق كثير لاسيما الرجال وأحضر السلطان سنجر علاء الدين بين يديه وقال له يا حسين لو ظفرت بي ما كنت تفعل فأخرج له قيد فضة وقال كنت أريدك بهذا وأحملك إلى فيروزكوه فخلع عليه سنجر وردة إلى فيروزكوه فبقي بها مدة ثم إنه قصد غزنة وملكها حينئذ بهرام شاه بن مسعود بن محمود بن سبكتكين فلم يثبت بها بين يدي علاء الدين بل فارقه إلى مدينة كرمان وهي مدينة بين غزنة والهند وسكانها قوم يقال لهم أبقان وليست هذه بالولاية المعروفة بكرمان فلما فارق بهرام شاه غزنة ملكها علاء الدين الغوري وأحسن السيرة في أهلها واستعمل عليهم أخاه سيف الدين وأجلسه على تخت المملكة وخطب لنفسه ولأخيه سيف الدين بعده ثم عاد علاء الدين إلى بلد الغور وأمر أخاه أن يخلع على أعيان البلد خلعا نفيسا ويصلهم بصلات سفية ففعل ذلك وأحسن إليهم فلما جاء الشتاء ووقع الثلج وعلم أهل غزنة أن الطريق قد انقطع إليهم فكاتبوا بهرام شاه الذي كان صاحبها واستدعوه إليهم فسار نحوهم في عسكره فلما قارب البلد ثار أهله على سيف الدين فأخذوه بغير قتال وكان العلويين هم الذين تولوا أسره وانهزم الذين كانوا معه فمنهم من نجا، ومنهم من أخذ، ثم إنهم سودوا وجه سيف الدين وأركبوه بقرة وأطافوا به بالبدن صلبوه وقالوا فيه أشعارا يهجونه وغنوا بها حتى النساء، فلما بلغ الخبر إلى أخيه علاء الدين الحسين قال شعرا معناه إن لم ألق غزنة في مرة واحدة فليست الحسين بن الحسين، ثم توفي بهرام شاه وملك بعده ابنه خسرو شاه وتجهز علاء الدين الحسين وسار إلى غزنة سنة خمسين وخمسمائة فلما بلغ الخبر إلى خسرو شاه سار عنها إلى لهاور وملكها علاء الدين ونهبها ثلاثة أيام وأخذ العلويين الذين أسروا أخاه فألقاهم من رؤوس الجبال وخرب المحلة التي صلب فيها وأخذ النساء اللواتي قيل عنهن أنهن كن يغنين بهجاء أخيه والغورية فأدخلهن حماما ومنعهن من الخروج حتى متن فيه وأقام بغزنة حتى أصلحها ثم عاد إلى فيروزكوه ونقل معه من أهل غزنة خلقا كثيرا وحملهم الخالي مملوءة ترابا فبنى به قلعة في فيروزكوه وهي موجودة إلى الآن وتلقب بالسلطان المعظم وحمل الجنر على عادة السلاطين السلجوقية. وقد تقدم سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة من أخبارهم وفيه مخالفة لهذا في (٥ - كامل - ٩)

بعض الأمر وكلا سمعناه ورأيناه في مصنفاتهم فلماذا ذكرنا الأمرين وأقام الحسين على ذلك مدة واستعمل
ابن أخيه وهما غياث الدين وشهاب الدين .

(ذكر ملك غياث الدين وشهاب الدين الغوريين) لما قوى أمر عمهما علاء الدين الحسين بن الحسين استعمل
العمال والأمرء على البلاد، وكان ابنا أخيه وهما غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام وشهاب الدين أبو المظفر محمد
ابن سام فيمن استعمل على بلد من بلاد الغور اسمه سنجة وكان غياث الدين يلقب حينئذ شمس الدين ويلقب
الآخر شهاب الدين فلما استعملهما أحسنا السيرة في عملهما وعدلا وبذلا الأموال فسال الناس إليهما وانتشر
ذكرهما فسعى بهما من يحددهما إلى عمهما علاء الدين وقال لهما يريدان الوثوب بك وقتلك والاستيلاء على
الملك فأرسل عمهما يستدعيهما إليه فامتنعا وكأما قد علما الخبر فلما امتنعا جهز إليهما عسكريا مع قائد يسمى
خروش الغوري فلما التقوا انهزم خروش ومن معه رأسا هو وأبقيا عليه وأحسنا إليه وخلصا عليه وأظهر اعصيان
عنهما وقطعا خطبته فتوجه إليهما علاء الدين وسارا هما أيضا إليه فالتقوا واقتلوا قتالا شديدا فانهزم علاء الدين
وأخذ أسيرا وانهزم عسكريه فنادى فيهم ابنا أخيه بالامان فاحضرا عمهما وأجلساه على التخت ووقفا في
خدمته فبكى علاء الدين وقال هذان صبيان قد فعلا ما لو قدرت عليه منهما لم أفعله وأحضر القاضي في الحال
وزوج غياث الدين بنتا له وجعله ولي عهده وبقي كذلك إلى أن مات فلما توفي ملك غياث الدين بعده وخطب
لنفسه في الغور وغزاة بالملك وبقي كذلك إلى أن ملك الغر غزاة بعمد موت علاء الدين طمعوا فيها بموته وبقيت
بأيديهم خمس عشر سنة يصبون على أهلها العذاب ويتابعون الظلم كعادتهم في كل بلدة ملكوها ولو أنهم لما
ملكوا أحسنوا السيرة في الرعايا لدام ملكهم فلم يزل الغر بغزاة هذه المدة وغياث الدين يقوى أمره ويحسن
السيرة والناس يميلون إليه ويقصدونه حبة له .

(ذكر ملك غياث الدين غزاة وما جاورها من البلاد) لما قوى أمر غياث الدين جهز جيشا كثيرا
مع أخيه شهاب الدين إلى غزاة فيه أصناف الغورية والخلج والحراسانية فساروا إليها فلقبهم الغز وقاتلهم
فانهزم الغورية وثبت شهاب الدين فيمن ثبت معه على صاحب عليهم فقتله وأخذ العلم وتركه على حاله فراجع
الغز ولم يكونوا علموا بما كان من شهاب الدين فجأوا يطلبون عليهم فكلما جاء إليه طائفة قتلهم فأتى على أكثرهم
ودخل غزاة وتسلبها وأحسن السيرة في أهلها وأفاض العدل وسار من غزاة إلى كرمان وشنوران فلكها ثم
تعدى إلى ماء السند وعمل على العبور إلى بلد الهند وقصد لها وورد بها يومئذ خسرو شاه بن بهرام شاه المقدم
ذكر والده فلما سمع خسرو شاه بذلك سار فيمن معه إلى ماء السند فمنعه من العبور فرجع عنه وقصد خرشابور
فلكها وما يليها من جبال الهند وأعمال الأبنان والله أعلم .

(ذكر ملك شهاب الدين لهاوور) لما ملك شهاب الدين جبال الهند قوى أمره وجنانه وعظمت
هيته في قلوب الناس وأحبوه لحسن سيرته فلما خرج الشتاء وأقبل الربيع من سنة تسع وسبعين وخمسة مائة سار
نحو لهاوور في جمع عظيم وحشد كثير من خراسان والغور وغيرها فعبير إلى لهاوور وحصرها وأرسل
صاحبها خسرو شاه إلى أهلها يتهددهم إن منعوه وأهلهم أنه لا يزول حتى يملك البلد وبذل خسرو شاه الامان
على نفسه وأهله وماله ومن الأقطاع ما أراد وأن يزوج ابنته بابن خسرو شاه على أن يطأ بساطه ويخطب
لأخيه فامتنع عليه وأقام شهاب الدين محاصرا له مضيقا عليه فلما رأى أهل البلد والعسكر ذلك ضعفت نيابهم

في نصره صاحبهم فخذلوه فأرسل لما رأى ذلك قاضي البلد والخطيب يطلبون له الأمان فأجابهم شهاب الدين إلى ذلك وحلف له وخرج إليه ودخل الغورية إلى المدينة وبقي كذلك شهرين مكرما عند شهاب الدين فورد رسول من غياث الدين إلى شهاب الدين بأمره بإنفاذ خسرو وشاه إليه .

(ذكر انقراض دولة سبكتكين) لما أنفذ غياث الدين إلى أخيه شهاب الدين يطلب إنفاذ خسرو وشاه إليه أمره شهاب الدين بالتهجد والمسير فقال أنا لا أعرف أخاك ولا لي حديث إلا معك ولا يمين إلا في عنقك فناه وطيب قلبه وجهزه وسيره وسير معه ولده وأصحابهما جيشا يحفظونهما فسارا كارهين فلما بلغا فرشابور خرج أهلها إليهما ليكون ويدعون لهما فزجرهم الموكلون بهما وقالوا سلطان يزور سلطانا آخر لآى شيء تبكون وضربوهم فعادوا وخرج ولد خطيبها إلى خسرو وشاه متوجعا له قال فلما دخلت عليه أعلمته رسالة أبي وقلت إنه قد اعتزل الخطابة ولا حاجة بي إلى خدمة غيركم فقال لي سلم عليه وأعطاني فرجة فوطا ومصلى من عمل الصوفية وقال هذه تذكرة أبيك عند أبي فسلها إليه وقل له در مع الدهر كيف دار وأنشد بلسان فصيح :

وليس كعهد الدار يا أم مالك . واكن أحاطت بالرقاب السلاسل

قال فانصرفت إلى أبي وعرفته الحال فبكى وقال قد أيقن الرجل بالهلاك ثم رحلوا فلما بلغوا بلد الغور لم يجتمع بهما غياث الدين بل أمر بهما فرغا إلى بعض القلاع فكان آخر العهد بهما وهو آخر ملوك آل سبكتكين وكان ابتداء دولتهم سنة ست وستين وثلثمائة فتكون مدة ولايتهم مائة سنة وثلاث عشرة سنة تقريبا وكان ملوكهم من أحسن الملوك سيرة ولاسيما جدهم محمود فإن آثاره في الجهاد معروفة وأعماله للأخرة مشهورة :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم . قوم بأبائهم أو مجدهم فعدوا

فتبارك الذي لا يزول ملكه ولا تغيره الدهور فأف لهذه الدهور وأف لهذه الدنيا الدنية تفعل هذا بأبنائها نسال الله تعالى أن يكشف عن قلوبنا حتى نراها بعين الحقيقة وأن يقبل بنا إليه وأن يشغلنا به عما سواه إنه على كل شيء قدير هكذا ذكر بعض فضلاء خراسان أن خسرو وشاه آخر ملوك آل سبكتكين وقد ذكر غيره أنه توفي في الملك وملك بعده ابنه ملكشاه وسنذكره في سنة تسع وخمسين وخمسمائة وبالجملة فابتداء دولة الغورية عندي فيها خلف لو ينكشف الحق فأصلحه إن شاء الله تعالى .

(ذكر الخطبة لغياث الدين بالسلطنة) لما استقر ملكهم بلهاوور واتسعت ملكتهم وكثرت عما كرم وأموالهم كتب غياث الدين إلى أخيه شهاب الدين بإقامة الخطبة له بالسلطنة وتلقب باللقاب السلاطين كان لقبه شمس الدين فتلقب غياث الدين والدنيا معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين ولقب أخاه بعز الدين ففعل شهاب الدين ذلك وخطب له بالسلطنة .

(ذكر ملك غياث الدين هراة وغيرها من خراسان) لما فرغ شهاب الدين من إصلاح أمر لهاوور وتقرير قواعدها سار إلى أخيه غياث الدين فلما اجتمع به استقر رأيهما على المسير إلى خراسان وقصد مدينة هراة وبما صرتها فسارا في العساكر الكثيرة إليها وكان بها جماعة من الأتراك السنجرية فنازلا البلد وحصراد وضيقا على من به فاستسلموا إليهما وأرسلوا يطلبون الأمان منهما فأجاباهم إلى ذلك وأمناهم فتسلما البلد وأخرجوا من فيه من الأمراء السنجرية واستتاب فيه غياث الدين خزنة الغورى وسار غياث الدين وأخوه

إلى فوشنج فلما تم إلى باذغيس وكالين وبيوار فلما كانا أيضا وتسلم ذلك جميعه غياث لدين وأحسن السيرة في أهل البلاد ورجع إلى فيروزكوه ورجع شهاب الدين إلى غزنة وكان ينبغي أن حراثة الغورية تذكر في السنين وإنما جمعناها ليتلو بعضها بعضا ولأن فيه ما لم يعرف تاريخه فتركناه بحاله .

(ذكر ملك شهاب الدين مدينة آجرة من بلد الهند) لما رجع شهاب الدين من خراسان إلى غزنة أقام بها حتى أراح واستراح هو وعساكره ثم سار إلى بلد الهند فحاصر مدينة آجرة وبها ملك من ملوك الهند فلم يظفر منه بطائل وكان للهندي زوجة غالبية على أمره فراسلها شهاب الدين أنه يتزوجها فأعادت الجواب أنها لا تصح له وأنها لها ابنة جميلة تزوجه إياها فأرسل إليها يجيها إلى التزويج بابتها فسقت زوجها سمات وسمت البلد إليه فلما تسلمه أخذ الصدية فأسلمت وتزوجها وحملها إلى غزنة وأجرى عليها الجرايات الوافرة ووكل بها من علمها القرآن وتشاغل عنها فتوفيت والدتها ثم توفيت هي بعد عشر سنين ولم يرها ولم يقربها فبنى لها مشهدا ودقها فيه وأهل غزنة يزورون قبرها ثم عاد إلى بلد الهند فذل له صعابها وتيسر له فتح الكثير من بلادهم ودوخ ملوكهم وبلغ منهم ما لم يبلغه أحد قبله من ملوك المسلمين .

(ذكر ظفر الهند على المسلمين) لما اشتدت نكابة شهاب الدين في بلاد الهند وإخاها في أهلها واستيلاؤه عليهم اجتمع ملوكهم وتآمروا بينهم ووبخ بعضهم بعضا فاتفق رأيهم على الاجتماع والتعاقد على حربه فجمعوا عساكرهم وحشدوا وأقبل إليهم الهنود من كل فج عميق على الصعب والذلول وجاءوا بحدم وحديدهم وكان الحاكم على جميع الملوك المجتمعين امرأة هي من أكبر ملوكهم فلما سمع باجتماعهم ومسيرهم إليه تقدم هو أيضا إليهم في عسكر عظيم من الغورية والخلج والخراسانية فالتقوا واقتتلوا فلم يكن بينهم كثير قتال حتى انهزم المسلمون وركبهم الهند يقتلون ويأسرون وأخذوا فيهم وأصاب شهاب الدين ضربة بطلت منها يده اليسرى وضربة أخرى على رأسه سقط منها إلى الأرض وحجز الليل بين الفريتين فأحس شهاب الدين بجماعة من غلمانة الأتراك في ظلمة الليل وهم يطلبونه في القتلى ويكون وقد رجع الهنود إلى ورائهم فكلهمم وهو على ما به من الجهد فجاءوا إليه مسرعين وحملوه على رؤوسهم رجالة يتناوبون حمله حتى بلغوا مدينة آجرة مع الصباح وشاع خبر سلامته في الناس فجاءوا إليه يهنئونه من أقطار البلاد فأول ما عمل أنه أخذ أمراء الغورية الذين انهزموا عنه وأسلموه فلا يخالي خيالهم شعيرا وحلف لئن لم يأكلوه ليضربن أعناقهم فأكلوه ضرورة وبلغ الخبر إلى أخيه غياث الدين فأرسل إليه يلومه على عجلته وإقدامه وأنفذ إليه جيشا عظيما .

(ذكر ظفر المسلمين بالهند) لما سلم شهاب الدين وعاد إلى آجرة وأتاه المدد من أخيه غياث الدين وعاد الهنود جددوا سلاحهم ووفروا جمعهم وأقاموا عوض من قتل منهم وسارت ملكتهم وهم معها في عدد يضيق عنه الفضاء فراسلها شهاب الدين يخدعها بأنه يتزوجها فلم تجبه إلى ذلك وقالت إما الحرب وإما أن تسلم بلاد الهند وتعود إلى غزنة فأجابها إلى العود إلى غزنة وأنه يستأذن أخاه غياث الدين فعل ذلك مكرا وخديعة وكان بين العسكرين نهر وقد حفظ الهنود المخاضات فلا يقدر أحد من المسلمين أن يجوزه وأقاموا ينتظرون ما يكون من جواب غياث الدين بزعمهم فينتهاهم كذلك إذ وصل إنسان هندي إلى شهاب الدين وأعلمه أنه يعرف مخاضا قريبا من عسكر الهنود وطلب أن يرسل معه جيشا يعبرهم المخاض ويكبسون الهنود وهم غارون آمنون يخاف شهاب الدين أن تكون خديعة ومكرا فأقام له ضمنا من أهل آجرة والمولتان فأرسل معه جيشا

كثيفاً وجعل عليهم الأمير الحسين بن خرمبل الغوري وهو الذي صار بعد صاحب هراة وكان من الشجاعة والرأى بالمنزلة المشهورة فسار الجيش مع الهندي فعبروا النهر فلم يشعر الهنود إلا وقد خالطهم المسلمون ووضعوا السيف فيهم فاشتغل الموكولون بحفظ المخاضات، فعبر شهاب الدين وباقي العساكر وأحاطوا بالهنودوا أكثروا القتل فيهم ونادوا بشعار الإسلام فلم ينبج من الهنود إلا من عجز المسلمون عن قتله وأسرته وقتلت ملكتهم وتمكن شهاب الدين بعد هذه الواقعة من بلاد الهند وأمن معرفة فسادهم والتزموا له بالأموال وسلموا إليه الرهائن وصالحوه وأقطع مملوكه قطب الدين أيبك مدينة دحلي وهي كرسى الممالك التي فتحها من الهند فأرسل عسكراً من الخلق مع محمد بن بختيار فملكوا من بلاد الهند ما وضع ما وصل إليها مسلم قبله حتى قاربوا حدود الصين من جهة المشرق وقد حدثني صديق لي من التجار بوقتتين تشبه هاتين الوقتين المذكورتين وبينهما بعض الخلاف وقد ذكرناهما سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة توفي يعقوب الكاتب ببغداد وكان يسكن بالمدرسة النظامية وحضر متولى التركات وختم على الغرفة التي كان يسكنها بالمدرسة فثار الفقهاء وضربوا المتولى وهذه عادتهم فيمن يموت بها وليس له وارث فقبض حاجب الباب على رجلين من الفقهاء وعاقبهما وحبسهما فأغلق الفقهاء المدرسة وألقوا كرسى الوعاظ في الطريق وصعدوا سطح المدرسة ليلاً واستغاثوا وتركوا الأدب وكان حينئذ مدرسهم الشيخ أبا النجيب فجاء وألقى نفسه تحت التاج يعتذر فعفى عنه . وفيها توفي حسام الدين تمر تاش صاحب ماردن وميفارقين وكانت ولايته نيفا وثلاثين سنة ، وتولى بعده ابنه نجم الدين ألبى . وفيها مات أبو الفضل محمد بن عمر ابن يوسف الأرموي الشافعي المحدث ومولده سنة تسع وخمسين وأربعمائة . وفيها توفي أبو الأسعد عبدالرحمن القشيري في شوال وهو شيخ شيوخ خراسان . وفيها في المحرم باض ديك ببغداد بيضة وباض بازي بيضتين وباضت نعامة لا ذكر معها بيضة (١)

(ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة)

(ذكر انهزام سنجر من الغز ونهبهم خراسان وما كان منهم) في هذه السنة في المحرم انهزم السلطان سنجر من الأتراك الغز وهم طائفة من الترك مسلمون كانوا بما وراء النهر فلما ملك الخطا أخرجوهم منه كما ذكرنا فقصدوا خراسان وكانوا خلباً كثيراً فأقاروا بنواحي بلخ برعون في مراعيها وكان لهم أمراء اسم أحدهم دينار والآخر بختيار والآخر طوطى والآخر أرسلان والآخر جهز والآخر محمود فأراد الأمير قجاج وهو مقطع بلخ إبعادهم فصانموره بشيء بذلوه له فداد عنهم فأقاموا على حالة حسنة لا يؤذون أحداً ويقومون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ثم إن قجاج عاودهم وأمرهم بالانتقال عن بلده فامتنعوا وانضم بعضهم إلى بعض واجتمع معهم غيرهم

(١) وفيها توفي المظفر بن أردشير أبو منصور العبادي ، الواعظ ، سجع الحديث ودخل إلى بغداد فأملى ووعظ ، وكان الناس يكتبون ما يعظ به ، فاجتمع له من ذلك مجلدات . قال ابن الجوزي . لا تكاد تجد في المجلد خمس كلمات جيدة ، وتكلم فيه وأطال الخط عليه ، واستحسن من كلامه قوله : وقد سقط مطر وهو يعظ الناس ، وقد ذهب الناس إلى تحت الجدران ، فقال لا تفروا من رشاش ماء رحمة قطر من سحب نعمة ، ولكن فروا من رشاش نار اقتدح من زناد الغضب . توفي وقد جاوز الخمسين بقليل .

من طوائف الترك فسار قجاج إليهم في عشرة آلاف فارس فجاء إليه أمراؤهم وسألوه أن يكف عنهم ويتركهم في مراعيهم ويعطونه من كل بيت مائتي درهم فلم يجبهم إلى ذلك وشدد عليهم في الانتزاع عن بلده فعادوا عنه واجتمعوا وقتلوه فانهم قجاج ونهبوا ماله ومال عسكره وأكثروا القتل في العسكر والرعايا واسترقوا النساء والأطفال وعملوا كل عزيمة وقتلوا الفقهاء وخربوا المدارس وانتهت الهزيمة بقجاج إلى مرو وبها السلطان سنجر فأعلمه الحال فراسلهم سنجر يتهددهم فأمرهم بمفارقة بلاده فاعتذروا وبذلوا بذلا كثيرا ليكف عنهم ويتركهم في مراعيهم فلم يجبهم إلى ذلك وجمع عساكره من أطراف البلاد واجتمع معه ما يزيد على مائة ألف فارس وقصدهم ووقع بينهم حرب شديدة فانهم عساكر سنجر وانهم هو أيضا وتبعهم الغز قنلا وأسرا نصار قتلى العسكر كالتلال وقتل علاء الدين قجاج وأسرا السلطان سنجر وأسرا معه جماعة من الأمراء فأما الأمراء فمضروا أعناقهم وأما السلطان سنجر فإن أمراء الغز اجتمعوا وقبلوا الأرض بين يديه وقالوا نحن عبيدك لا نخرج عن طاعتك فقد علمنا أنك لم ترد قتالنا وإنما حملت عليه فأنت السلطان ونحن العبيد فمضى على ذلك شهران أو ثلاثة ودخلوا معه إلى مرو وهي كرسى ملك خراسان وطلبها منه بختيار أقطاعا فقال السلطان هذه دار الملك ولا يجوز أن تكون أقطاعا لأحد فضحكوا منه وحنق له بختيار بغمه فلما رأى ذلك نزل عن سرير الملك ودخل خانكاه مرو وتاب عن الملك واستولى الغز على البلاد وظهر منهم من الجور ما لم يسمع بمثله وولوا على نيسابور واليا فتمط على الناس كثيرا وعسفهم وضربهم وعلق في الأسواق ثلاث غرائر وقال أريد ملء هذه ذهبا فثار عليه العامة فقتلوه ومن معه فركب الغز ودخلوا نيسابور ونهبوها نهباً مجحفا وجعلوها قاعا صفصفا وقتلوا الكبار والصغار وأحرقوها وقتلوا القضاة والعلماء في البلاد كلها فمن قتل الحسين بن محمد الأرسابندی والقاضي علي بن مسعود والشيخ محي الدين محمد بن يحيى وأكثر الشعراء في مرآة محمد بن يحيى فمن قال فيه علي بن إبراهيم الكاتب .

مضى الذي كان يحيى الدر من فيه هـ يسيل بالفضل والإفضال واديه
مضى ابن يحيى الذي قد كان صوب حيا هـ لابر شهر ومصباحا لداجيه
خلا خراسان من علم ومن ورع هـ لما نعاها إلى الآفاق ناعيه
لما أماتوه مات الدين والأسفا هـ من ذا الذي بعد محي الدين يحييه

ويتعذر وصف ماجرى منهم بتلك البلاد جميعها ولم يسلم من خراسان شيء لم تنهبه الغز غير هراة ودهستان لأنها كانت حصينة فامتنعت وقد ذكر بعض مؤرخي خراسان من أخبارهم ما فيه زيادة وضوح وقال إن هؤلاء الغز قوم انتقلوا من نواحي الثغر من أقاصي الترك إلى ما وراء الهر في أيام المهدي وأسلبوا واستنصر بهم المقنع صاحب المخاريق الشعبذة حتى تم أمره فلما سارت العساكر إليه خذله هؤلاء الغز وأسلموه وهذه عادتهم في كل دولة كانوا فيها وفعلوا مثل ذلك مع الملوك الخاقانية إلا أن الأتراك القارغلية قعوم وطردهم عن أوطانهم فدعاهم الأمير زنكي بن خليفة الشيباني المستولى على حدود طخارستان إليه وأنزلهم بلاده وكانت بينه وبين الأمير قجاج عداوة أحكمتها الأيام للمجاورة التي بينهما وكل منهما يريد أن يعلو على الآخر ويحكم عليه فتقوى بهم زنكي وساروا معه إلى بلخ لمحاربة قجاج فدكانتهم قجاج فسالوا إليه وخذلوا زنكي عند الحرب فأخذ زنكي وابنه أسيرين فقتل قجاج ابن زنكي وجعل يطعم أباه لحمه ثم قتل الأب أيضا وأقطع قجاج الغز

مواضع وأباحهم مراعى بلاده فلما قام الحسين بن الحسين الغورى وقصد بلخ خرج إليه قجاج وهساكره
ومعه الغز ففارقه الغز وانضموا إلى الغورى حتى ملك مدينة بلخ فسار السلطان سنجر إلى بلخ ففارقها الغورى
بعد قتال انهزم منه ثم دخل إلى السلطان سنجر لعجزه عن مقاومته فرده إلى غزنة وبقي الغز بنواحي طخارستان
وفي نفس قجاج منهم الغيظ العظيم لما فعلوه معه فأراد صرفهم عن بلاده فتجمعوا وانضم إليهم طوائف
من الترك وقدهوا عليهم إرسالان موقا التركي فجمع إرسالان قجاج وعسكره ولقيهم فافتتلوا يوما كاملا إلى الليل
فانهزم قجاج وعسكره وأسر هو وابنه أبو بكر فقتلوهما واستولى على نواحي بلخ وهاتوا فيها وأفسدوا بالذهب
والقتل والسلب وبلغ السلطان سنجر الخبر فجمع عساكره وسار إليهم فراسلوه يعتذرون ويتصلون
فلم يقبل عذرهم ووصل إليهم مقدمة السلطان . وفيها محمد بن أبي بكر بن قجاج المقتول والمؤيد أى أبه
في المحرم من سنة ثمان وأربعين وخمسة ووصل بعدهم السلطان سنجر فالتقاء الغز بعد أن أرسلوا يعتذرون
ويذلون الأموال والطاعة والانقياد إلى كل ما يؤمرون به فلم يقبل سنجر ذلك منهم وسار إليهم فلقوه وقاتلوه
وصبروا له ودام قتالهم فانهزم عسكر سنجر وجموعهم فتوجهوا إلى بلخ على أفبج صورة وتبعهم الغز واقتتلوا
مرة ثانية فانهزم السلطان سنجر أيضا ومضى منهزما إلى مرو في صفر من السنة فقصد الغز إليها فلما سمع العسكر
الخراسانى بقربهم منهم أجفلوا من بين أيديهم تاربين لما دخل في قلوبهم من خوفهم والرعب منهم فلما فارقها
السلطان والعسكر دخلها الغز ونهبوها ألخس نهب وأفبجه وذلك في جمادى الأولى من السنة وقتل بها كثير
من أهلها وأعيانها منهم قاضى القضاة الحسن بن محمد الأرسابندى والقاضى على بن مسعود وغيرهما من الأئمة
العلماء ولما خرج سنجر من مرو قصد بوزابة وأخذ الغز أسيرا وأجلسوه على تخت السلطنة على عادته وقاموا
بين يديه وبذلوا له الطاعة ثم عاودوا الغارة على مرو في رجب من السنة فمنعهم أهلها وقاتلوهم قتالا شديدا بذلوا فيه
جهدهم وطاقتهم ثم إنهم عجزوا فاستسلموا إليهم فنهبوا أفبج من النهب الأول لم يتركوا بها شيئا وكان قد فارق
سنجر جميع أمراء خراسان ووزيره طاهر بن نخر الملك بن نظام الملك ولم يبق عنده غير نفر يسير من خواصه
وخدمه فلما وصلوا إلى نيسابور أحضروا الملك سليمان شاه بن السلطان محمود فوصل إلى نيسابور تاسع عشر
جمادى الآخرة من السنة فاجتمعوا عليه وخطبوا له بالسلطنة وسار في هذا الشهر جماعة من العسكر السلطاني
إلى طائفة كثيرة من الغز فوقعوا بهم وقتلوا منهم كثيرا وانهزم الباقون إلى أمراءهم الغزية فاجتمعوا معهم ولما
اجتمعت العساكر على الملك سليمان شاه وساروا إلى مرو يطلبون الغز فبرز الغز إليهم فساعة رآهم العسكر
الخراسانى انهزموا وولوا هلى أدبارهم وقصدوا نيسابور وتبعهم الغز ففروا بطوس وهى معدن العلماء والزهاد
قهبوها وسبوا نساءها وقتلوا رجالها وخربوا مساجدها ومساكن أهلها ولم يسلم من جميع ولاية طوس
إلا البلد الذى فيه مشهد على بن موسى الرضا ومواضع آخر يسيرة لها أسوار وعن قتل من أعيان أهلها
إمامها محمد المارشكى ونقيب العلويين بها على الموسوى وخطيبها اسمعيل بن المحسن وشيخ شيوخها محمد بن
محمد وأفنوا من بها من الشيوخ الصالحين وساروا منها إلى نيسابور فوصلوا إليها في شوال سنة تسع وأربعين
ولم يجدوا دونها مانعا ولا مدافعا فنهبوا نهباً ذريعا وقتلوا أهلها فأكثروا حتى ظنوا أنهم لم يبقوا بها أحدا حتى
أنه أحصى في محلتين خمسة عشر ألف قتيل من الرجال دون النساء والصبيان وسبوا نساءها وأطفالها وأخذوا
أموالها وبقي القتلى في الذروب كالتلال بعضهم فوق بعض واجتمع أكثر أهلها بالجامع المنبى تحصنوا به

فحصرهم الغز فعجز أهل نيسابور من منهم فدخل الغز إليهم فقتلواهم عن آخرهم وكانوا يطلبون من الرجال المال فإذا أعطاهم أحد قتلوه وقتلوا كثيرا من أئمة العلماء والصالحين منهم محمد بن يحيى الفقيه الشافعي الذي لم يكن في زمانه مثله كان رحلة الناس من أقصى الغرب والشرق إليه ورثاء جماعة من العلماء منهم أبو الحسن علي ابن أبي القاسم البيهقي فقال :

ياسافكا دم عالم متبحر ه قد طار في أقصى الممالك صيته
بالله قل لي يا ظلوم ولا تخف ه من كان محي الدين كيف تميته

منهم الزاهد عبدالرحمن بن عبدالصمد الأكاف وأحمد بن الحسين الكاتب سبط القمشيري وأبو البركات الفراوي والإمام علي الصباغ المتكلم وأحمد بن محمد بن حامد وعبدالوهاب المقاباذي والقاضي صاعد بن عبدالملك بن صاعد والحسن بن عبدالحميد الرازي وخلق كثير من الأئمة والزهاد والصالحين وأحرقوا ما بها من خزائن الكتب ولم يسلم إلا بعضها وحصروا شارستان وهي منبجة فأحاطوا بها وقتلهم أهلها من فوق سورها وقصدوا جوين وبدلوا نفوسهم لله تعالى وأحوا بيضتهم والباقي أتى الهب والقتل عليه ثم قصدوا اسفراين فنهبوا وخربوها وقتلوا في أهلها فأكثرنا ومن قتل عبدالرشيد الأشعري وكان من أعيان دولة السلطان فتركها وأقبل على الاشتغال بالعلم وطلب الآخرة وأبو الحسن الفندورجي وكان من ذوى الفضائل لاسيما في علم الأدب ولما فرغ الغز من جوين واسفراين عادوا إلى نيسابور فنهبوا ما بقي فيها بعد الهب الأول وكان قد لحق بشهرستان كثير من أهلها فحصرهم الغز واستولوا عليها ونهبوا ما كان فيها لأهلها ولأهل نيسابور وهتكوا الحرم والأطفال وفعلوا ما لم يفعله الكفار مع المسلمين وكان العيارون أيضا ينهبون نيسابور أشد من نهب الغز ويفعلون أقبح من فعلهم ثم إن السلطان سليمان شاه ضعف وكان قبيح السيرة سيء التدبير وأن وزيره طاهر بن نخر الملك ابن نظام الملك توفي في شوال سنة ثمان وأربعين فضعف أمره واستوزر سليمان شاه بعده ابنه نظام الملك أبا علي الحسن بن طاهر وانحل أمر دولته بالكلية ففارق خراسان في صفر سنة تسع وأربعين وعاد إلى جرجان فاجتمع الأمراء وراسلوا الخان محمود بن محمد بن بغراخان وهو ابن أخت السلطان سنجر وخطبوا له على منابر خراسان واستدعوه إليهم فلكوه أمورهم وانقادوا له في شوال سنة تسع وأربعين وخمسائة وساروا معه إلى الغز وهم يحاصرون هراة وجرت بينهم حروب كان الغفر في أكثرها للغز ورحلوا في جمادى الأولى من سنة خمسين وخمسائة وسار منهم من على هراة إلى مرو وعادوا المصادرة لأهلها وسار الخان محمود بن محمد إلى نيسابور وقد غلب عليها المؤيد على ما نذكره ورأسل الغز في الصلح فاصطاحوا في رجب من سنة خمسين وخمسائة هدنة على دخل وسيرد باقي أخبارهم سنة اثنتين وخمسين .

(ذكر ملك المؤيد نيسابور وغيرها) كان للسلطان سنجر مملوك اسمه أي أبه ولقبه المؤيد فلما كانت هذه الفتنة تقدم وعلا شأنه وأطاعه كثير من الأمراء فاستولى على نيسابور وطوس ونسا وایورد وشهرستان والدامغان وأزاح الغز عن الجميع وقتل منهم خلقا كثيرا وأحسن السيرة وعدل في الرعية واستمال الناس ووفر الخراج على أهلها وبالغ في مراعاة أرباب البيوت فاستقرت البلاد له ودانت له الرعية لحسن سيرته وهظم شأنه وكثرت جموعه فرأسله خاقان محمود بن محمد في تسليم البلاد والحضور عنده فامتنع وترددت الرسل بينهم حتى استقر هل المؤيد مال يحمله إلى الملك محمود فكف عنه محمود وأقام المؤيد بالبلاد هو والسلطان محمود .

(ذكر ملك ايتاخ الري) كان ايتاخ أحد مماليك السلطان سنجر فلما كان من فتنة الغز ما ذكرناه هرب من خراسان ووصل إلى الري فاستولى عليها وأقم بها وأرسل السلطان محمد شاه بن محمود صاحب همدان وأصفهان وغيرهما يخدمه وماداه وأرضاه وأظهر له الطاعة وبقى بها إلى مات السلطان محمد فاستولى على عدة بلاد تجاور الري فلما فلقها فعظم أمره وعلا شأنه وصارت عساكره عشرة آلاف فارس فلما ملك سليمان شاه همدان هل ما ذكره حضر عنده وأطاعه لأنسه به كان أيام مقام سليمان شاه بخراسان فتقوى أمره بذلك .

(ذكر قتل ابن السلار وزير الظافر ووزارة عباس) في هذه السنة في المحرم قتل العادل بن السلار وزير الظافر بالله قتله ربيبه عباس بن أبي الفتح بن يحيى الصنهاجي أشار إليه بذلك الأمير أسامة بن منقذ ووافق عليه الخليفة الظافر بالله فأمر ولده نصرا فدخل على السلار وهو عند جدته أم عباس فقتله وولى الوزارة بعده ربيبه عباس وكان عباس قد قدم من المغرب كما ذكرناه إلى مصر وتعلم الحياطة وكان خياطا حسنا فلما تزوج ابن السلار بأمه أحبه وأحسن تربيته فجازاه بأن قتله وولى بعده وكانت الوزارة في مصر لمن ظب والخلفاء وراء الحجاب والوزراء كالمملوكين وقل أن وليها أحد بعد الأفضل إلا بحرب وقتل وما شاكل ذلك فلذلك ذكرناهم في تراجم مفردة . والله أعلم .

(ذكر الحرب بين العرب وعساكر عبدالمؤمن) في هذه السنة في صفر كانت الحرب بين عسكر عبدالمؤمن والعرب عند مدينة شطيف وسبب ذلك أن العرب وهم بنو هلال والابتج وعدى ورياح وزعب وغيرهم من العرب لما ملك عبدالمؤمن بلاد بني حماد اجتمعوا من أرض طرابلس إلى أقصى المغرب وقالوا إن جاورنا عبدالمؤمن أجلا ما من المغرب وليس الرأي إلا إلقاء الجدمعه وإخراجه من البلاد قبل أن يتمكن ويحالفوا على التعاون والتظاهر وأن لا يخون بعضهم بعضا وعزموا على لقائه بالرجال والأهل والمسال ليقاتلوه قتال الحریم واتصل الخبر بالملك رجار الفرنجي صاحب صقلية فأرسل إلى أمراء العرب وهم محرز بن زياد وجبارة بن كامل وحسن بن ثعلب وعيسى بن حسن وغيرهم يختمهم على لقاء عبدالمؤمن ويعرض عليهم أن يرسل إليهم خمسة آلاف فارس من الفرنج يقاتلون معهم على شرط أن يرسلوا إليه الرهائن فشكروه وقالوا ما بنا حاجة إلى نجاته ولانستعين بغير المسلمين وساروا في عدد لا يحصى وكان عبدالمؤمن قد رحل من بجاية إلى بلاد المغرب فلما بلغه خبرهم جهز من الموحدين ما يزيد على ثلاثين ألف فارس واستعمل عليهم عبدالله بن عمر الهنتاتي وسعد الله بن يحيى وكان العرب أضعافهم فاستجروا الموحدون وتبعهم العرب إلى أن وصلوا إلى أرض شطيف بين جبال فحمل عليهم عسكر عبد المؤمن والعرب على غير أهبة التقى الجمعان واقتلوا أشد قتال وأعظمه فانجلت المعركة عن انهزام العرب ونصرة الموحدين وترك العرب جميع ما لهم من أهل ومال وأثاث ونم فأخذ الموحدون جميع ذلك وعاد الجيش إلى عبد المؤمن بجميعه فقسم جميع الأموال على عسكره وترك النساء والأولاد تحت الاحتياط ووكل بهم من الخدم الخصيان من يخدمهم ويقوم بحوائجهم وأمر بصيانتهم فلما وصلوا معه إلى مرا كش أنزلم في المساكن الفسيحة وأجرى لهم النفقات الواسعة وأمر عبدالمؤمن ابنه محمدا أن يكتب أمراء العرب ويعلمهم أن نساءهم وأولادهم تحت الحفظ والصيانة وأنه قد بذل لهم الأمان والكرامة . فلما وصل كتاب محمد إلى العرب سارعوا إلى المسير إلى مرا كش فلما وصلوا إليها أعطاهم عبد المؤمن نساءهم وأولادهم وأحسن إليهم وأعطاهم أموالا جزيلة فاسترق قلوبهم بذلك وأقاموا عنده وكان بهم حفا واستعان بهم على ولاية ابنه محمد للمهد على

ما ذكره سنة إحدى وخمسين .

(ذكر ملك الفرنج مدينة بونة وموت راجار وملك ابنه غيلالم) في هذه السنة سار أسطول رجار ملك الفرنج بصقلية إلى مدينة بونة وكان المقدم عليهم فتاه فيلب المهدوي فحصرها واستعان بالعرب عليها فأخذها في رجب وسبي أهلها وملك ما فيها غير أنه أغضى عن جماعة من العلماء والصالحين حتى خرجوا بأهلهم وأموالهم إلى القرى فأقام بها عشرة أيام وعاد إلى المهديّة وبعض الأسرى معه وعاد إلى صقلية فقبض رجار عليه لما اعتمد من الرفق بالمسلمين في بونة وكان فيلب يقال إنه وجميع فتياه مسلمون يكتمون ذلك وشهدوا عليه أنه لا يصوم مع الملك وأنه مسلم فجمع له رجار الأساقفة والقسوس والرهبان فحكروا بأن يحرق فأحرق في رمضان وهذا أول وهن دخل على المسلمين بصقلية ولم يمهل الله رجار بعده إلا سيرا حتى مات في العشر الأول من ذي الحجة من السنة وكان مرضه الخوانيق وكان عمره قريب ثمانين سنة وكان ملكه نحو عشرين سنة ولما مات ملك بعده ابنه غيلالم وكان فاسد التدبير سيء التصوير فاستوزر مايو البرصاني فأساء التدبير فاختلفت عليه حصون من جزيرة صقلية وبلاد قلورية وتعدى الأمر إلى أفريقية على ما ذكره .

(ذكر وفاة بهرام شاه صاحب غزنة) في هذه السنة في رجب توفي السلطان بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة بها وكانت ولاية بهرام شاه ستا وثلاثين سنة وكان عادلا حسن السيرة جميل الطريقة محبا للعلماء مكرما لهم باذلالهم الأموال الكثيرة جامعا للكتب تقرا بين يديه ويفهم مضمونها ولما مات ملك ولده خسرو شاه الملك بعده .

(ذكر ملك الفرنج مدينة عسقلان) في هذه السنة ملك الفرنج بالشام مدينة عسقلان وكانت من جهة مملكة الظاهر بالله العلوي المصري وكان الفرنج كل سنة يقصدونها ويحصرونها فلا يجدون إلى ملكها سيلا وكان الوزراء بمصر لهم الحكم في البلاد والخلفاء معهم اسم لامعني تحته وكان الوزراء كل سنة يرسلون إليها من الذخائر والأسلحة والأموال والرجال من يقوم بحفظها فلما كان في هذه السنة قتل ابن السلار على ما ذكرناه واختلفت الأهواء في مصر وولى عباس الوزارة وإلى أن استقرت قاعدة اغتم الفرنج اشتغالهم عن عسقلان فاجتمعوا وحصروها فصر أهلها وقاتلهم قتالا شديدا حتى أنهم بعض الأيام قاتلوا خارج السور وردوا الفرنج إلى خيامهم مقهورين وتبعهم أهل البلد إليها فأيس حينئذ الفرنج من ملكة فينهم على عزم الرحيل إذ قد أنام الخبر أن البلد قد وقع بين أهله خلاف وقتل منهم قتلى فصبروا وكان سبب هذا الاختلاف أنهم لما عادوا عن قتال الفرنج قاهرين منصورين ادعى كل طائفة منهم أن النصر من جهتهم كانت وأنهم هم الذين ردوا الفرنج خاسرين فعظم الخصام بينهم إلى أن قتل من إحدى الطائفتين قتيل واشتد الخطب وعظم حينئذ وتفاقم الشر ووقعت الحرب بينهم فقتل بعضهم قتل فطمع الفرنج وزحفوا إليه وقاتلوا عليه فلم يجدوا من يمنعهم فلكوه .

(ذكر حصر عسكر الخليفة تكريت وعودهم عنها) في هذه السنة سير الخليفة المقتني لأمر الله عسكرا إلى تكريت ليحصرها وأرسل معهم مقدما عليهم ابن الوزير عون الدين بن هبيرة وترشك وهو من خواص الخليفة وغيرهما فخرى بين ابن الوزير وترشك منافرة أوجبت أن كتب ابن الوزير يشكو من ترشك فأمر الخليفة بالقبض على ترشك فعرف ذلك فأرسل إلى مسعود بلال صاحب تكريت فصالحه وقبض على ابن الوزير ومن معه من المقدمين وسلمهم إلى مسعود بلال فانهزم العسكر وغرق منه كثير وسار مسعود بلال وترشك

من تكريت إلى طريق خراسان قنبا وأفسدا فسار المقتفي عن بغداد لدفعهما فهدم بامق بين يديه فقصد تكريت لحضرهما أياما وجرى له مع أهلها حروب من وراء السور فقتل من العسكر جماعة بالنشاب فعماد الخليفة عنها ولم يملكها. (ذكر عدة حوادث) في هذه السنة وصلت مراكب من صقلية. فيما جمع من الفرنج فتهبوا مدينة تنيس بالديار المصرية. وفيها كان بين الكرج بأرمينية وبين صلتق صاحب أرزن الروم مصاف وحرب شديد وانهمز صلتق وأسر الكرج ثم أطلقوه. وفيها توفي أبو العباس أحمد بن أبي غالب الوراق المعروف بابن الطلاية الزاهد البغدادي بها وكان من الصالحين وله حديث ورواية وتوفي عبد الملك بن عبد الله بن أبي سهل أبو الفتح بن أبي القاسم الكروخي الهروي راوي جامع الترمذي ومولده سنة اثنتين ومن طريقته سمعناه. (١)

(ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة)

(ذكر قتل الظافر وولاية ابنه الفائز) في هذه السنة في المحرم قتل الظافر بالله أبو المنصور اسمعيل بن الحافظ لدين الله عبد المجيد العلوي صاحب مصر وكان سبب قتله أن وزيره عباسا كان له ولد اسمه نصر فأحبه الظافر وجعله من ندمائه الذين لا يقدر على فراقهم ساعة واحدة فاتفق أن قدم من الشام مؤيد الدولة الأمير أسامة بن منقذ الكنانى فى وزارة ابن السلار واتصل بعباس فحسن له قتل العادل بن السلار زوج أمه فقتله وولاه الظافر الوزارة فاستبد بالامر وتم له ذلك وعلم الأمراء والأجناد أن ذلك من فعل ابن منقذ فعزموا على قتله فخلا بعباس وقال له كيف تصبر على ما أسمع من قبيح القول قال وما ذلك قال الناس يزعمون أن الظافر يفعل بابنك نصر وكان نصر خصيصا بالظافر وكان ملازما له ليله ونهاره وكان من أجل الناس صورة وكان الظافر يتهم به فانزعج لذلك وعظم عليه وقال كيف الحيلة قال تقتله فيذهب عنا العار فذكر الحال لولده نصر فاتفقا على قتله وقيل إن الظافر أقطع نصر بن عباس قرية قلوب وهى من أعظم قرى مصر فدخل إليه مؤيد الدولة بن منقذ وهو عند أبيه عباس قال له نصر قد أقطعنى مولانا قرية قلوب فقال له مؤيد الدولة ماهى فى مهرك بكثير فعظم عليه وعلى أبيه وأنف من هذه الحال وشرع فى قتل الظافر فأمر ابنه لحضر نصر عند الظافر وقال له أشتهى أن تجيء إلى دارى لدعوة صنعتها ولا تكثر من الجمع فشئى معه فى نفر يسير من الخدم ليلا فلما دخل الدار قتله ومن معه وأفلت خويدم صغيرا اختبأ فلم يروه ودفن القتلى فى داره وأخبر أباه عباسا الخبر فبكر إلى القصر وطلب من الخدم الخسيسين بخدمة الظافر أن يطلبوا له إذنا فى الدخول عليه لأمر يريد أن يأخذ رأيه فيه فقالوا إنه ليس فى القصر فقال لا بد منه وكان غرضه أن ينسب التهمة عنه بقتله وأن يقتل كل من بالقصر ممن يخاف أن ينازعه فىمن يقيمه فى الخلافة فلما ألح عليهم عجزوا عن إحضاره فبينما هم يطلبونه حائرين دهشين لا يدرون ما الخبر إذ وصل اليهم الخويدم الصغير الذى شاهد قتله وقد هرب من دار عباس عند غفلتهم عنه وأخبرهم بقتل الظافر فخرجوا إلى عباس وقالوا له سل ولدك عنه فإنه يعرف أين هو لأنهما خرجا جميعا فلما سمع ذلك منهم قال أريد أن أعترض القصر لثلا

(١) وفيها كانت وفاة الشاعرين القرينين الشهيرين بالفردق وجرير فى الزمان الأخير: وهما أبو الحسن أحمد ابن منير الجونى بحلب، وأبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير القيسرانى الحلبى بدمشق، وعلى بن السلار الملقب بالعاذل وزير الظاهر صاحب مصر، وهو بانى المدرسة بالاسكندرية للشافعية للحافظ أبى طاهر السلفى، وقد كان العادل هذا ضد اسمه كان ظلوما غشوما حطوما، وقد ترجمه ابن خلكان.

يكون قد اغتاله أحد من أهله فاستعرض القصر فقتل أخوين للظافر وهما يوسف وجبريل وأجلس الفائز بنصر الله أبا القاسم عيسى بن الظافر بأمر الله اسمعيا ثاني يوم قتل أبوه وله من العمر خمس سنين فحمله عباس على كتفه وأجلسه على سرير الملك وبايع له الناس وأخذ عباس من القصر من الأموال والجواهر والأعلاق النفيسة ما أراد ولم يترك فيه إلا ما لا خير فيه .

(ذكر وزارة الملك الصالح بن رزيك) كان السبب في وزارة الملك الصالح بن رزيك أن عباسا لما قتل الظافر وأقام الفائز ظن أن الأمر يتم له على ما يريد فكان الحال خلاف ما اعتقده فإن الحكامة اختلفت عليه وثار به الجند والسودان وصار إذا أمر بالأمر لا يلتفت إليه ولا يسمع قوله فأرسل من القصر من النساء والخدم إلى الصالح طلائع بن رزيك يستغيثون به وأرسلوا شعورهم على الكتب وكان في منية بني خصيب واليا عليها وليست من الأهمال الجليلة وإنما كانت أقرب الأعمال إليهم وكان فيه شهامة فجمع ليقصد عباسا وسار إليه فلما سمع عباس ذلك خرج من مصر نحو الشام بما معه من الأموال التي لا تحصى كثيرة والتحف والأشياء التي لا توجد إلا هناك مما كان أخذه من القصر فلما سار وقع به الفرنج فقتلوه وأخذوا جميع ماله فقتلوا به وسار الملك الصالح فدخل القاهرة بأعلام سود وثياب سود حزنا على الظافر والشعور التي أرسلت إليه من القصر على رؤس الرماح وكان هذا من الفأل العجيب فإن الأعلام السوداء العباسية دخلتها وأزالت الأعلام العلوية بعد خمس عشرة سنة ولما دخل الصالح القاهرة خلع عليه خلع الوزارة واستقر في الأمر وأحضر الخادم الذي شاهد قتل الظافر فأراه موضع دفنه فأخرجه ونقله إلى مقابرهم بالقصر ولما قتل الفرنج عباسا أسروا ابنه فأرسل الملك الصالح إلى الفرنج وبذل لهم مالا وأخذ منهم فصار من الشام مع أصحاب الصالح فلم يكلم أحدا منهم كلمة واحدة إلى أن رأى القاهرة فأنشد :

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

وأدخل القصر فكان آخر العهد به فإنه قتل وصلب على باب زويلة واستقصى الصالح البيوت الكبار والأعيان بالديار المصرية فأمسك أهلها وأبعدهم عن ديارهم وأخذ أموالهم فمنهم من هلك ومنهم تفرق في البلاد والحجاز واليمن وغيرها فعمل ذلك خوفا منهم أن يثوروا عليه وينازعوه في الوزارة وكان ابن منقذ قد هرب مع عباس فلما قتل هرب إلى الشام :

(ذكر حصر تكريت ووقعة بكمزا) في هذه السنة أرسل الخليفة المقتدى لأمر الله رسولا إلى والي تكريت بسبب من عندهم من المأمورين وهم ابن الوزير وغيره فقبضوا على الرسول فسير الخليفة عسكرا إليهم فخرج أهل تكريت فقاتلوا العسكر ومنعوه من الدخول إلى البلد فسار الخليفة بنفسه مستهل صفر فزل على البلد فهرب أهله فدخل العسكر فشمعوا ونهبوا بعضه ونصب على القلعة ثلاثة عشرة منجنيقا فسقط من أسوارها برج وبقي المحصر كذلك إلى الخامس والعشرين من ربيع الأول وأمر الخليفة بالقتال والزحف فاشتد القتال وكثر القتل ولم يبلغ منها غرضا فرحل عائدا إلى بغداد فدخلها آخر الشهر ثم أمر الوزير هون الدين بن هبيرة بالعود إلى محاصرتها والاستعداد والاستكثار من الآلات للحصار فسار إليها سابع ربيع الآخر ونازلها وضيق عليها فوصل الخبر بأن مسعود بلال وصل إلى شهرابان ومعه البقش كون خروترشك وعسكر كثير ونهبوا البلاد فعاد الوزير إلى بغداد وكان سبب وصول هذا العسكر أنهم حثوا الملك محمد بن السلطان محمود على قصد العراق

فلم يتبها له ذلك فسير هذا العسكر وانضاف إليهم خلق كثير من التركان فخرج الخليفة إليهم فأرسل بلال مسعود إلى تكريت وأخرج منها الملك أرسلان بن السلطان طغرل بن محمود وكان مجوسا بتكريت وقال إن هذا سلطان نقاتل بين يديه بإزاء الخليفة والتقى العسكران عند بكمزا بالقرب من يعقوبا ودام بينهم المناوشة والمجاربة ثمانية عشر يوما ثم إنهم التقوا آخر رجب فاقتلوا فانهزمت ميمنة عسكر الخليفة وبعض القلب حتى بلغت الهزيمة بغداد ونهبت خزائنه وقتل خازنه فحمل الخليفة بنفسه هو وولي عهده وصاح يا آل هاشم كذب الشيطان وقرأ ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا﴾ وحمل باقي العسكر معه فانهزم مسعود والبقيش وجميع من معهم وتمت الهزيمة وظفر الخليفة بهم وغنم عسكره جميع مال التركان من دواب وغنم وغير ذلك فبيع كل كبش بدائق وكانوا قد حضروا بنسائهم وأولادهم وخركاواتهم وجميع ما لهم فأخذ جميعه ونودي من أخذ من أولاد التركان ونسائهم شيئا فليرده فردوه فأخذ البقيش كون خرا الملك أرسلان وانهزم إلى بلد اللحف وقلعة الماهكين. وفي هذه الحرب غدر بنو عوف من عسكر الخليفة ولحقوا بالعجم ومضى هندي الكردي أيضا معهم وكان الملك محمد قد أرسل عسكرا مع خاص بك بن آقسنقر نجدة لكون خر، فلما وصلوا إلى الراذان بلغهم خبر الهزيمة فعاد ورجع الخليفة إلى بغداد فدخلها أوائل شعبان فوصل الخبر أن مسعود بلال وترشك قصدا مدينة واسط قهبروا وخربوا فسير الخليفة الوزير ابن هبيرة في عسكر خاص عشر شعبان فانهزم العجم فلحقهم عسكر الخليفة ونهب منهم شيئا كثيرا وعاد إلى بغداد فلقب الوزير سلطان العراق ملك الجيوش وسير الخليفة عسكرا إلى بلد اللحف فأخذه وصار في جلته وأما الملك ألب أرسلان بن طغرل فإن البقيش أخذه معه إلى بلده فأرسل إليه الملك محمد يقول له ليحضر عنده وأرسلان معه فمات البقيش كون خر في رمضان في هذه السنة وبقي أرسلان مع ابن البقيش وحس الجاندار فحملاه إلى الجبل فخاف السلطان محمد أن يصل أرسلان إلى زوج أمه أبي بكر فيجعله ذريمة إلى قهر البلاد فلم ينفعه حذره واتصل أرسلان بأبي بكر زوج أمه فصار معه وهو أخو بهلوان بن أيلدكز لأمه وطغرل الذي قتله خوارزم شاه ولد أرسلان هذا وكان طغرل آخر السلجوقية.

(ذكر ملك نورالدين محمود مدينة دمشق) في هذه السنة في صفر ملك نورالدين محمود بن زنكي بن آقسنقر مدينة دمشق وأخذها من صاحبها مجيرالدين أنز بن محمد بن بوري بن طغديكين أتاك وكان سبب حرصه على ملكها أن الفرنج لما ملكوا في العام الماضي مدينة عسقلان لم يكن لنورالدين طريق إلى إزعاجهم عنها لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان، فلما ملك الفرنج عسقلان طمعوا في دمشق حتى أنهم استعرضوا كل من بها من مملوك وجارية من النصارى فمن أراد المقام بها تركوه ومن أراد العود إلى وطنه أخذوه قهرا شاء صاحبه أم أبي وكان لهم على أهلها كل سنة قطيعة يأخذونها منهم فكان رسلهم يدخلون البلد ويأخذونها منهم فلما رأى نورالدين ذلك خاف أن يملكها الفرنج فلا يبقى حينئذ للمسلمين بالشام مقام فأعمل الحيلة في أخذها حيث علم أنها لا تملك قوة لأن صاحبها متى رأى غلبة من يقصده راسل الفرنج واستعان بهم لئلا يملكها من يقوى بها على قتالهم فراسل مجيرالدين صاحبها واستماله وواصله بالهدايا وأظهر له المودة حتى وثق إليه فكان نورالدين يقول له في بعض الأوقات إن فلانا قد كاتبني في تسليم دمشق يعني بعض أمراء مجيرالدين فكان يبعد الذي قيل عنه ويأخذ أقطاعه فلما لم يبق عنده من الأمراء أحدا قدم أميرا يقال له عطاء بن حافظ السلمي

الخادم وكان شهما شجاعا ، وفوض إليه أمر دولته ، فكان نور الدين لا يتمكن معه من أخذ دمشق ، فقبض عليه بجير الدين ، وقتله ، فسار نور الدين حينئذ إلى دمشق ، وكان قد كاتب من بها من الأحداث واستسلم فوعدوه بالتسليم إليه ، فلما حضر نور الدين البلد أرسل بجير الدين إلى الفرنج ، يبذل لهم الأموال وتسليم قلعة بعلبك إليهم لينجدوه ويرحلوا نور الدين عنه فشرعوا في جمع فارسهم وراجلهم ليرحلوا نور الدين عن البلد فإلى أن اجتمع لهم ما يريدون تسلم نور الدين البلد فعادوا مخفي حنين وأما كيفية تسليم دمشق فإنه لما حصرها ثار الأحداث الذين راسلهم فسلموا إليه البلد من الباب الشرقي وملكه وحصر بجير الدين في القلعة وراسله في تسليمها وبذل له أقطاعا من جلته مدينة حمص فسلمها إليه وسار إلى حمص وأعطاه عوضا عنها بالس فلم يرضها وسار منها إلى العراق وأقام ببغداد وابتنى بها دارا بالقرب من النظامية وتوفي بها .

(ذكر قصد الإسماعيلية خراسان والظفر بهم) في هذه السنة في ربيع الآخر اجتمع جمع كثير من الإسماعيلية من قهستان بلغت عدتهم سبعة آلاف رجل ما بين فارس وراجل وساروا يريدون خراسان لاشتغال عساكرهم بالغز وقصدوا أهمال خواف وما يجاورها فاتتهم الأمير فرخشاه بن محمود الكاساني في جماعة من حشمه وأصحابه فعلم أن لاطاقة لهم وسار عنهم وأرسل إلى الأمير محمد بن أنز وهو من أكابر أمراء خراسان وأشجعهم يعرفه الحال وطلب منه المسير إليهم بعسكره ومن قدر عليه من الأمراء ليجمعوا عليهم ويقاتلهم فسار محمد بن أنز في جماعة من الأمراء وكثير من العسكر واجتمعوا هم وفرخشاه ودافعوا الإسماعيلية وقاتلهم وطال الحرب بينهم ثم نصر الله المسلمين وانهمز الإسماعيلية وكثير القتل فيهم وأخذهم السيف من كل مكان وهلك أعيانهم وساداتهم بعضهم قتل وبعضهم أسر ولم يسلم منهم إلا القليل الشريد وخلت قلاعهم وحصونهم من حام ومانع فلولوا اشتغال العساكر بالغز لكانوا ملكوها بغير تعب ولا مشقة وأراحوا المسلمين منهم ولكن لله أمر وهو بالغة .

(ذكر ملك نور الدين تل باشر) في هذه السنة أوالي بعدها ملك نور الدين محمود بن زنكي قلعة تل باشر وهي شمالي حلب من أمتع التلاع وسبب ملكها أن الفرنج لما رأوا ملك نور الدين دمشق خافوه وعلوا أنه يقوى عليهم ولا يقدر على الانتصاف منه لما كانوا يرون منه قبل ملكها فراسله من هذه القلعة من الفرنج وبذلوا له تسليمها فسير إليهم الأمير حسان المنبجي وهو من أكابر أمراءه وكان أقطاعه ذلك الوقت مدينة منبج وهي تقارب تل باشر وأمره أن يسير إليها ويتسلها فسار إليها وتسلمها منهم وحصنها ورفع إليها من الذخائر ما يكفيها سنين كثيرة .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة مات أستاذ دار أبو الفتوح عبدالله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء وكان له صدقات ومعروف كثير ومجالسة للفقراء ولما مات ولي الخلافة ابنه الأكبر عضد الدين أبو الفرج محمد بن عبدالله ما كان إلى أبيه وتوفي عبدالرحمن بن عبدالصمد بن أحمد بن علي أبو القاسم الأکاف النيسابوري كان زاهدا عابدا فقيها مناظرا وكان السلطان سنجر يزوره ويتبرك بدعائه وكان ربما حجه فلا يمكنه من الدخول إليه . وفيها توفي ثقة الدولة أبو الحسن علي بن محمد الزويني القزويني وكان يخدم أبا نصر محمد بن

الفرج الأبرى وزوجه ابنته شهدة الكاتبة فقربه المقتنى لأمر الله ووكله فبنى مدرسة بباب الأزج. (١)

﴿ ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة ﴾

في هذه السنة سار الخليفة المقتنى لأمر الله إلى دقوقا فحصرها وقاتل من بها ثم رحل عنها لأنه بلغه أن عسكر الموصل قد تجهزوا للسير لمنعه عنها فرحل ولم يبلغ غرضاً. وفيها استولى شملة التركاني على خوزستان وصاحبه حينئذ ملكشاه محمود بن محمد فسير الخليفة إليه عسكراً فلقبهم شملة في رجب وقتلهم فاهزم عسكر الخليفة وأسر وجوههم ثم أحسن إليهم شملة وأطلقهم وأرسل يعتذر فقبل عذره وسار إلى خوزستان فملكها وأزاح عنها ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد. وفيها سار الغزالي نيسابور فملكها بالسيف ودخلوها وقتلوا محمد بن يحيى الفقيه الشافعي ونحواً من ثلاثين ألفاً وكان السلطان سنجر له اسم السلطنة وهو معتقل لا يلتفت إليه حتى أنه أراد كثيراً من الأيام أن يركب فلم يكن له من يحمل سلاحه فشدته على وسطه وركب وكان إذا قدم إليه طعام يدخر منه ما يأكله وقتاً آخر خوفاً من انقطاعه عنه لتقصيرهم في واجبه ولأنهم ليس هذا مما يعرفونه. وفيها وثب قسوس الأرمن بمدينة آني فأخذوها من الأمير شداد وسلبوها إلى أخيه فضلون. وفيها في ذي الحجة قتل الأتراك القارغلية طمغاج خان بن محمد بما وراء النهر والقوه في الصحراء ونسبوه إلى أشياء قبيحة وكان مدة ملكه مستضعفاً غير مهيب. وفيها توفي أبو الفضل محمد بن ناصر بن علي البغدادي الحافظ الأديب وكان مشهوراً بالفضل وكان شافعيًا وصار حنبلياً مغالياً ومولده سنة سبع وستين وأربعمائة في شعبان وكان موته أيضاً في شعبان. وفيها كان بالعراق وماجاوره من البلاد زلزلة كبيرة في ذي الحجة. وفيها توفي يحيى الغساني النحوي الموصلی وكان فاضلاً خيراً وناج الدين أبو طاهر يحيى بن عبدالله بن القاسم الشهرزوري قاضي جزيرة ابن عمر.

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر عصيان الجزائر وأفريقية على ملك الفرنج بصقلية وما كان منهم ﴾ قد ذكرنا سنة ثمان وأربعين وخمسمائة موت رجار ملك صقلية وملك ولده غليالم وأنه كان فاسد التدبير فخرج عن حكمه عدة من حصون صقلية فلما كان هذه السنة قوى طمع الناس فيه فخرج من طاعته جزيرة جربة وجزيرة فرقة وأظهروا الخلاف عليه وخالف عليه أهل أفريقية فأول من أظهر الخلاف عليه عمر بن أبي الحسين الفريابي بمدينة سفاقس وكان رجار قد استعمل عليها لما فتحها أباه أبا الحسين وكان من العلماء الصالحين فأظهر العجز والضعف وقال استعمل ولدي فاستعمله وأخذ أباه رهينة إلى صقلية فلما أراد المسير إليها قال لولده عمر إنني كبير السن وقد قرب أجلي فتي أمكنتك الفرصة في الخلاف على العدو فافعل ولا تراقبهم ولا تنظر في أنني أقتل واحسب أنني قدمت فلما وجد هذه الفرصة دعا أهل المدينة إلى الخلاف وقال يطلع جماعة منكم إلى السور وجماعة يقصدون مساكن الفرنج والنصارى جميعهم ويقتلونهم كلهم فقالوا له إن سيدنا الشيخ والدك يخاف عليه قال هو أمرني بهذا وإذا

(١) وفيها توفي الرئيس مؤيد الدولة علي بن الصوفي وزير دمشق لمجير الدين، وقد ثار على الملك غير مرة، واستفحل أمره، ثم بقع الصالح بينهما كما تقدم. وفيها توفي عطاء الخادم أحد أمراء دمشق، وقد تطلب على الأمور بأمر مجير الدين، وكان ينوب على بعلبك في بعض الأحيان، وقد كان ظالماً غاشماً وهو الذي ينسب إليه مسجد عطاء خارج باب فرق والله أعلم.

قتل بالشيخ ألوف من الأعداء فامات فلم تطلع الشمس حتى قتلوا الفرنج عن آخرهم وكان ذلك أول سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ثم اتبعه يحيى بن مطروح بطرابلس وبعدهما محمد بن رشيد بقابس وسار عسكر عبد المؤمن إلى بونة فملكها وخرج جميع أفريقية عن حكم الفرنج ماعدا المهديّة وسوسة وأرسل عمر بن أبي الحسين إلى زويلة وهي مدينة بينها وبين المهديّة نحو ميدان يحرضهم على الوثوب على من معهم فيها من النصارى ففعلوا ذلك وقدم عرب البلاد إلى زويلة فأعانوا أهلها على من بالمهديّة من الفرنج وقطعوا الميرة عن المهديّة فلما اتصل الخبر بغيايم ملك صقلية أحضر أبا الحسين وعرفه ماعمل ابنه فأمره أن يكتب إليه ينهيه عن ذلك ويأمره بالعود إلى طاعته ويخوفه عاقبة فعله فقال من قدم على هذا يرجع بكتاب فأرسل ملك صقلية إليه رسولا يهدده ويأمره بترك ما ارتكبه فلم يمكنه عمر من دخول البلد يومه ذلك فلما كان الغد خرج أهل البلد جميعهم ومعهم جنازة والرسول يشاهدهم فدفنوها وعادوا وأرسل عمر إلى الرسول يقول له هذا أبى قد دفنته وقد جلست للعزاء به فاصنعوا به ما أردتم فعاد الرسول إلى غيايم فأخبره بما صنع عمر بن أبي الحسين فأخذ أباه وصلبه فلم يزل يذكر الله تعالى حتى مات وأما أهل زويلة فإنهم كثر جمعهم بالعرب وأهل سفاقس وغيرهم فحصروا المهديّة وضيقوا عليها وكانت الأوقات بالمهديّة قليلة فسير إليهم صاحب صقلية عشرين شينيا فيها الرجال والطعام والسلاح فدخلوا البلد وأرسلوا إلى العرب وبذلوا لهم مالا لينهزموا وخرجوا من الغد فاقتتلوا هم وأهل زويلة فانهزمت العرب وبقى أهل زويلة وأهل سفاقس وركبوا في البحر فنجوا وبقى أهل زويلة فحمل عليهم الفرنج فانهزموا إلى زويلة فوجدوا أبوابها مغلقة فقاتلوا تحت السور وصبروا حتى قتل أكثرهم ولم ينج إلا القليل ففرقوا ومضى بعضهم إلى عبد المؤمن فلما قتلوا هرب من سلم من الحرم والصبيان والشيوخ في البر ولم يرجوا على شيء من أموالهم ودخل الفرنج زويلة فقتلوا من وجدوا فيها من النساء والأطفال ونهبوا الأموال واستقر الفرنج بالمهديّة إلى أن أخذها منهم عبد المؤمن على ما ذكره إن شاء الله تعالى .

(ذكر القبض على سليمان شاه وحبسه بالموصل) في هذه السنة قبض زين الدين على كوجك نائب قطب الدين مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل على الملك سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملكشاه وكان سليمان شاه عند عمه السلطان سنجر قديما وقد جعله ولي عهده وخطب له على منابر خراسان فلما جرى لسنجر مع الغز ما ذكرناه وتقدم على عسكر خراسان وضعفوا عن الغز مضى إلى خوارزم شاه فزوجه ابنة أخيه أتيس ثم بلغه عنه ما كرهه فأبعده فجاء إلى أصفهان فمنعه شحتها من الدخول فمضى إلى قاشان فسير إليه محمد شاه بن أخيه محمود بن محمد عسكرا أبعده عنها فسار إلى خوزستان فمنعه ملكشاه عنها فقصد اللحف ونزل البندنجين وأرسل رسولا إلى الخليفة المقتنى يعلبه بوصوله وترددت الرسل بينهما إلى أن استقر الأمر على أن يرسل زوجته تكون رهينة فأرسلها إلى بغداد ومعها كثير من الجوارى والأتباع وقال قد أرسلت هؤلاء رهائن فإن أذن أمير المؤمنين في دخول بغداد فعلت وإلا رجعت فأكرم الخليفة زوجته ومن معها وأذن له في القدوم إليه فقدم ومعه عسكر خفيف يبلغون ثلثمائة رجل فخرج ولد الوزير ابن هبيرة لتلقيه ومعه قاضي القضاة والنقيبان ولم يترجل له ابن الوزير ودخل بغداد وعلى رأسه الشمسة وخلع عليه الخليفة وأقام ببغداد إلى أن دخل الحرم من سنة إحدى وخمسين وخمسمائة فأحضر فيه سليمان شاه إلى دار الخليفة وأحضر قاضي القضاة والشهود وأعيان العباسيين وحلف للخليفة على النصح والموافقة ولزوم الطاعة وأنه لا يتعرض

إلى العراق بحال فلما حلف خطب له ببغداد واقتب ألقاب أبيه غياث الدنيا والدين وبقى ألقابه وخلع عليه خلع السلطنة وسير معه من عسكر بغداد ثلاثة آلاف فارس وجعل الأير قويدان صاحب الحلة أمير حاجب معه وسار نحو بلاد الجبل في ربيع الأول وسار الخليفة إلى حلوان وأرسل إلى ملكشاه بن السلطان محمود أخي السلطان محمد صاحب همدان وغيرها يدعو إلى موافقته فتقدم في أنفى فارس فحلف كل منها لصاحبه وجعل ملكشاه ولي عهد سليمان شاه وقواهما الخليفة بالمال والأسلحة وغيرها فساروا واجتمعوا هم وايلدكز نصاروا في جمع كبير فلما سمع السلطان محمد خبرهم أرسل إلى قطب الدين مودود صاحب الموصل ونائباً زين الدين يطلب منهما المساعدة ويبدل لها البذول الكثيرة إن ظفر فأجاباه إلى ذلك ووافقا فتقويت نفسه وسار إلى لقاء سليمان شاه ومن اجتمع معه من عساكره ووقعت الحرب بينهم في جمادى الأولى واشتد الأولى واشتد القتال بين الفريقين فانهمز سليمان شاه ومن معه وتشتت العسكر ووصل من عسكر الخليفة وكانوا ثلاثة آلاف رجل نحو من خمسين رجلاً ولم يقتل منهم أحد وإنما أخذت خيولهم وأموالهم وتشتتوا وجاؤا متفرقين وفارق سليمان شاه ايلدكز وسار نحو بغداد على شهرزور نخرج إليه زين الدين على في جماعة من عسكر الموصل وكان بشهرزور الأمير بزاق مقطوعاً لها من جهة زين الدين وساراً فوقها على طريق سليمان شاه فأخذاه أسيراً وحمله زين الدين إلى قلعة الموصل وحبسه بها مكرماً محترماً إلى أن كان من أمره ما ذكره سنة خمس وخمسين إن شاء الله فلما قبض سليمان شاه أرسل زين الدين إلى السلطان محمود يعرفه ذلك ووعدته المعاوضة على كل ما يريد منه والمساعدة له . والله أعلم .

(ذكر حصر نور الدين قلعة حارم) في هذه السنة سار نور الدين محمود بن زنكي إلى قلعة حارم وهي للفرنج ثم لبيمند صاحب أنطاكية وهي تقارب أنطاكية من شرقها وحصرها وضيق على أهلها وهي قلعة منيعة في محور المسلمين فاجتمعت الفرنج من قرب منها ومن بعد وساروا نحوه ليرحلوه عنها وكان بالحصن شيطان من شياطينهم يعرفون عقله ويرجعون إلى رأيه فأرسل إليهم يقول إنا نقدر على حفظ القلعة وليس بنا ضعف فلا تخاطروا أتمم باللقاء فإنه إن هزمكم أخذها وغيرها والرأي مطاولته فأرسلوا إليه وصالحوه على أن يعطوه نصف أعمال حارم فاصطلحوا على ذلك ورحل عنهم فقال بعض الشعراء :

ألبست دين محمد يا نوره • عزاله فوق السها آساد
مازلت تشمله بمياد القنا • حتى تثقف عوده المياد
لم يبق مذ أرفقت عزمك دونه • عدد يراع به ولا استعداد
إن المنابر لو تطيق تكلم • حمدتك عن خطباتها الأعواد
ملق بأطراق القريجة كل كلا • طرفاه ضرب صادق وجلاد
حاموا فلما عابوا خوض الردي • حاموا فرائس كيدهم أو كادوا
ورأى البرنس وقد تبرنس ذلة • حزما لحارم والمصاد مصاد
من منكر أن ينسف السيل الربا • وأبوه ذاك العارض المداد
أو أن يعيد الشمس كاسفة السنى • نار لها ذاك الشهاب زناد
لا ينفع الآباء ما سمكوا من الـ • علياه حتى يرفع الأولاد

(وهي طوبلة)

(٧ - كامل - ٩)

﴿ ذكر وفاة خوارزم شاه أفسر وغيره من الملوك ﴾ في هذه السنة ناسع جمادى الآخرة توفي خوارزم شاه أفسر بن محمد بن أنوشتكين وكان قد أصابه فالج فتعالج منه فلم يبرأ فاستعمل أدوية شديدة الحرارة بغير أمر الأطباء فاشتد مرضه وضعفت قوته ، فتوفي وكان يقول عند الموت (ما أغنى عنه ماله ه هلك عنى سلطانيه) وكانت ولادته في رجب سنة تسعين وأربعمائة ، ولما توفي ملك بعده أرسلان فقتل نفرأ من أهمامه وسمل أخاله فمات بعد ثلاثة أيام وقيل بل قتل نفسه وأرسل إلى السلطان سنجر وكان قد هرب من أسر الغز على ما ذكره ببذل الطاعة والانقياد فكتب له منشورا بولاية خوارزم وسير الخلع له في رمضان فبقى في ولايته ساكنا آمنا وكان أفسر حسن السيرة كافا عن أموال رعيته منصفاً لهم محبوباً لهم مؤثراً للاحسان والخير إليهم وكان الرعية معه بين أمن غامر وعدل شامل ، وفي مباح عشر الشهر المذكور توفي أبو الفوارس بن محمد بن أرسلان شاه ملك كرمان وملك بعده ابنه سلجوق شاه . وفيها توفي الملك مسعود بن قلع أرسلان بن سليمان قتلش صاحب قونية وما يجاورها من بلاد الروم وملك بعده ابنه قلع أرسلان .

﴿ ذكر هرب السلطان سنجر من الغز ﴾ في هذه السنة في رمضان هرب السلطان سنجر بن ملكشاه من أسر الغز وجماعة من الأمراء الذين معه وسار إلى قلعة ترمذ واستظهر بها على الغز وكان خوارزم شاه أفسر ابن محمد بن أنوشتكين والخاقان محمود بن محمد يقصدان الغز فيقاتلانهم فيمن معهما فكانت الحرب بينهم ببجالات وغلب كل واحد من الغز والخراسانيين على ناحية من خراسان فهو يأكل دخلها لأرأس لهم بجمعهم وسار السلطان سنجر من ترمذ إلى جيحون يريد العبور إلى خراسان فانفق أن مقدم الأتراك القارغلية واسمه على بك توفي وكان أشد شئ على السلطان سنجر وعلى غيره كثير الشر والفساد وإثارة الفتن فلما توفي أقبلت القارغلية على السلطان سنجر وكذلك غيرهم من سائر الامم من أقاصى البلاد وأدانها وعاد إلى دار ملكه بمرو في رمضان فكانت مدة أسره مع الغز من سادس جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين إلى رمضان سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ﴿ ذكر البيعة لمحمد بن عبد المؤمن بولاية عهد أبيه ﴾ في هذه السنة أمر عبد المؤمن بالبيعة لولده محمد بولاية عهده وكان الشرط والقاعدة بين عبد المؤمن وبين عمر أن يلي هم الأمر بعد عبد المؤمن فلما تمكن عبد المؤمن من الملك وكثر أولاده أحب أن ينقل الملك إليهم فأحضر أمراء العرب من هلال وزغب وعدى وغيرهم إليه ووصلهم وأحسن إليهم ووضع عليهم من يقول لهم ليطلبوا من عبد المؤمن ويقولوا له نريد أن تجعل لنا ولي عهد من ولدك يرجع الناس إليه بعدك ففعلوا ذلك فلم يجبهم إكرا ما لعمر لعلو منزلته في الموحدين وقال لهم إن الأمر لأبي حفص عمر فلما علم عمر ذلك خاف على نفسه فحضر عند عبد المؤمن وأجاب إلى خلع نفسه فبينت ببيع محمد بولاية العهد وكتب إلى جميع بلاده بذلك وخطب له فيها جميعها فأخرج عبد المؤمن في ذلك اليوم من الأموال شيئا كثيرا .

﴿ ذكر استعمال عبد المؤمن أولاده على البلاد ﴾ في هذه السنة استعمل عبد المؤمن أولاده على البلاد فاستعمل ولده أبا محمد عبد الله على بجاية وأعمالها واستعمل ابنه أبا الحسن عليا على فاس وأعمالها وولى ابنه أبا سعيد سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة وكذلك غيرهم ولقد سلك في استعمالهم طريقا عجيبا وذلك أنه كان قد استعمل على البلاد شيوخ الموحدين المشهورين من أصحاب المهدي محمد بن تومرت وكان يتعذر عليه أن يعزلهم فأخذ أولادهم وتركهم عنده يشتغلون في العلوم فلما تمهروا فيها وصاروا يقندى بهم قال لأبائهم إنى أريد أن تكونوا عندى

استعين بكم على ماانا بصدده ويكون اولادكم في الاعمال لانهم علماء فقهاء فأجابوا إلى ذلك وهم فرحون مسرورون فولى اولادهم ثم وضع عليهم بعضهم من يعتمد عليه فقال إنى أرى أمرا عظيما قد فعلتموه فارقم فيه الحزم والادب فقالوا وما هو فقال اولادكم في الاعمال واولاد أمير المؤمنين ليس لهم منها شيء مع ما فيهم من العلم وحسن السياسة وإنى أخاف أن ينظر في هذا فتسقط منزلتكم عنده فعلوا صدق القائل فحضروا عند عبد المؤمن وقالوا نحب أن تستعمل على البلاد السادة اولادك فقال لا أفعل فلم يزالوا حتى فعل ذلك لهم بسؤالهم إياه .

(ذكر حصر السلطان محمد ببغداد) في هذه السنة في ذى الحجة حصر السلطان محمد ببغداد وسبب ذلك أن السلطان محمد بن محمود كان قد أرسل إلى الخليفة يطلب أن يخطب له ببغداد والعراق فامتنع الخليفة من إجابته إلى ذلك فسار من همدان في عساكر كثيرة نحو العراق ووعده أتاك قطب الدين صاحب الموصل ونائبه زين الدين على بإرسال العساكر إليه نجدة له على حصر بغداد فقدم العراق في ذى الحجة سنة إحدى وخمسين واضطرب الناس ببغداد وأرسل الخليفة يجمع العساكر فأقبل خطوب برس في عسكر واسط ورحل مهلهل إلى الحلة فأخذها واهتم الخليفة وهون الدين بن هبيرة بأمر الحصار وجمع جميع السفن وقطع الجسر وجعل الجميع تحت التاج ونودي منتصف المحرم سنة اثنتين وخمسين أن لا يقيم أحد بالجانب الغربي فأجفل الناس وأهل السواد ونقلت الاموال إلى حريم دار الخلافة وخرب الخليفة قصر عيسى والمربعة والقرية والمستجدة والنجمي ونهب أعجابه ما وجدوا وخرب أصحاب محمد شاه نهر القلائين والتوتة وشارع ابن رزق الله وباب الميدان وقطفتا وأما أهل الكرخ وأهل باب البصرة فإنهم خرجوا إلى عسكر محمد وكسبوا معهم أموالا كثيرة وعبر السلطان محمدا فوق حراقة إلى الجانب الغربي ونهبت أونا واتصل به زين الدين هناك وساروا فنزل محمد شاه عند الرملة وفرق الخليفة السلاح على الجند والعامه ونصب المنجنيقات والعرادات فلما كان في العشرين من المحرم ركب عسكر محمد شاه وزين الدين على ووقفوا عند الرقة ورموا بالنشاب إلى ناحية التاج فعبر إليهم عامة بغداد فقاتلهم ورموهم بالنفط وغيره ثم جرى بينهم عدة حروب وفي ثالث صفر عاودا القتال واشتدت الحرب وعبر كثير من أهل بغداد سباحة وفي السفن فقتلوا وكان يوما مشهودا ولم تزل الحرب بينهم كل وقت وعمل الجسر على دجلة وعبر عليه أكثر العسكر إلى الجانب الشرقي وصار القتال في الجانبين وبقى زين الدين في الجانب الغربي وأمر الخليفة فنودي كل من جرح فله خمسة دنانير فكان كلما جرح إنسان يحضر عند الوزير فيعطيه خمسة دنانير فاتفق أن بعض العامة جرح جرحا ليس بكبير فحضر إلى الوزير يطلب الدنانير فقال له الوزير ليس هذا الجرح بشيء فعاود القتال فضرب فانشقت جوفه وخرج شيء من شحمها فحمل إلى الوزير فلما رآه قال يا مولانا الوزير أيرضيك هذا فضحك منه وأضعف له ورتب له من يعالج جراحته إلى أن برى وتعدرت الأقوات في العسكر إلا أن اللحم والفواكه والخضر كثيرة وكانت الغلات ببغداد كثيرة لأن الوزير كان يفرقها في الجند عوض الدنانير يبيعونها فلم تزل الاسعار عندهم رخيصة إلا أن اللحم والفواكه والخضر قليل عندهم واشتد الحصار على أهل بغداد لانقطاع المواد عنهم وعدم المعيشة لأهلها وكان زين الدين وعسكر الموصل غير مجدين في القتال لاجل الخليفة والمسلمين ، وقيل لأن نور الدين محمود بن زنكي وهو أخو قطب الدين صاحب الموصل الأكبر أرسل إلى زين الدين يلومه على قتال الخليفة ففتر وأقصر ولم تزل الحرب

في أكثر الأيام وعمل السلطان محمد شاه أربعة عشر عاماً لم يصعد الرجال فيها إلى السور وزحفوا وقاتلوا ففتح أهل بغداد أبواب البلد وقالوا أي حاجة بكم إلى السلاطيم هذه الأبواب مفتحة فادخلوا منها فلم يقدروا على أن يقرّبوا فيها الأمر على ذلك إذ وصل الخبر إلى السلطان محمد أن أخاه ملكشاه وأيلد كز صاحب بلاد أران ومعه الملك أرسلان ابن الملك طغرل بن محمد وهو ابن امرأة أيلد كز قد دخلوا همذان واستولوا عليها وأخذوا أهل الأمراء الذين مع محمد شاه وأموالهم فلما سمع محمد شاه ذلك جد في التآل لعله يبلغ مناه فلم يقدر على شيء ورحل عنها نحو همذان في الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة اثنين وخمسين وخمسمائة وعاد زين الدين إلى الموصل وتفرق ذلك الجمع على عزم العود إذا فرغ محمد شاه من إصلاح بلاده فلم يعودوا يجتمعون وفي كثرة حروبهم لم يقتل بينهم إلا نفر يسير ، وإنما الجراح كان كثيراً ولما ساروا نهبوا يعقوبا وغيرها من طريق خراسان ولما رحل العسكر عن بغداد أصاب أهلها أمراض شديدة حادة وموت كثير للشدة التي مرت بهم ، وأما ملكشاه وأيلد كز ومن معهما فإنهم ساروا من همذان إلى الري فخرج إليهم اينانج شحتتها وقاتلهم فهزموه فأرسل الملك محمد الأمير سقمس بن قيماز الحرامي في عسكر نجدة لابنانج فسار سقمس وكان أيلد كز وملكشاه ومن معهما قد عادوا من الري يريدون محاصرة الخليفة فلقبهم سقمس وقاتلهم فهزموه ونهبوا عسكره وأثقالهم فاحتاج الملك محمد إلى الإسراع فسار فلما بلغ حلوان بلغه أن أيلد كز بالدينور وأناه رسول من نائبه اينانج أنه دخل همذان وأعاد الخطبة له فيها فقويت نفسه وهرب شملة صاحب خوزستان إلى بلاده وتفرق أكثر جمع أيلد كز وملكشاه وبقي في خمسة آلاف فارس فعادا إلى بلادهما شبه الهارب ولما دخل محمد شاه همذان أراد التجهز لقصد بلاد أيلد كز فابتدأ به مرض السل وبقي به إلى أن مات .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في ربيع الأول أطلق أبو الوليد البدر بن الوزير بن هبيرة من حبس تكريت ولما قدم بغداد خرج أخوه والموكب يتلقونه وكان يوما مشهودا وكان مقامه في الحبس يزيد على ثلاث سنين . وفيها احترقت بغداد في ربيع الآخر وأكثر الحريق بها واحترق درب فراشا ودرب الدواب ودرب اللبان وخرابة بن حرية والظفرية والخاتونية ودار الخلافة وباب الأزج وسوق السلطان وغير ذلك . وفيها في شوال قصد الإسماعيلية طبس بخراسان فأوقعوا بها وقعة عظيمة وأسروا جماعة من أعيان دولة السلطان ونهبوا أولادهم ودوابهم وقتلوا فيهم . وفيها في ذي القعدة توفي شيخ الإسلام أبو المعالي الحسن بن عميد الله بن أحمد بن محمد المعروف بابن الرزاز بنديابور وهو من أعيان الأفاضل . وفي هذه السنة توفي مرید الدين بن بيسان رئيس آمد والحاكم فيها علي صاحبها وولي ما كان إليه بعده ابنه كمال الدين أبو القاسم وتوفي أبو الحسن علي بن الحسين الغزنوي الواعظ المشهور ببغداد وكان قدم إليها سنة ست عشرة وخمسمائة وكان له قبول عظيم عند السلاطين والعامة والخلفاء إلا أن المقتدى عرض عنه بعد موت السلطان مسعود لإقبال السلطان عليه ، وكان موته في المحرم . وتوفي أبو الحسن بن النخل الفقيه الشافعي شيخ الشافعية ببغداد ، وكان يوم بالخليفة في الصلاة ، وتوفي ابن الأمد الشاعر ، وهو من أهل النيل من أعيان الشعراء في طبقة الغزي والأرجاني ، وكان عمره قد زاد على تسعين سنة . وفيها قتل مظفر بن حماد بن أبي الخير صاحب البطيحة ، قتله نفيس بن فضل بن أبي الخير في الحمام وولي بعده . وفيها توفي الواو الحلبي الشاعر المشهور . وفيها في رمضان

توفي الحكيم أبو جعفر بن محمد البخاري بأسفراين وكان عالما بعلوم الحكماء الأوائل (١)

(ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة)

(ذكر الزلازل بالشام) في هذه السنة في رجب كان بالشام زلازل كثيرة قوية خربت كثيرا من البلاد وهلك فيها ما لا يحصى كثرة نخرت منها بالمرّة حماه وشيزر وكفر طاب والمرة وأنامية وحصن وحصن الأكراد وعرة واللاذقية وطرابلس وأنطاكية وأما ما لم يكتر فيه الخراب ولكن خرب أكثره في جميع الشام وتهدمت أسوار البلاد والقلاع فقام نور الدين محمود في ذلك المقام المرضى وخاف على بلاد الإسلام من الفرنج حيث خربت الأسوار فجمع عساكره وأقام بأطراف البلاد فلم يزل كذلك حتى فرغ من أسوار البلاد وأما كثرة القتلى فيكفي أن معلما كان بالمدينة وهي مدينة حماه ذكر عنه أنه فارق المكتب لهم عرض له فجاءت الزلزلة فخربت البلد وسقط المكتب على الصبيان جميعهم قال المعلم فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له بالمكتب .

(ذكر ملك نور الدين حصن شيزر) نبتدى بذكر هذا الحصن ولمن كان قبل أن يملكه نور الدين محمود ابن زنكي فنقول: هذا الحصن قريب من حماه بينهما نصف نهار وهو على جبل عال منيع لا يسلك إليه إلا من طريق واحدة وكان لآل منقذ الكمانيين يتوارثونه من أيام صالح بن مرداس إلى أن انتهى الأمر إلى أبي المرهف نصر بن علي بن نصر بن منقذ بعد أبيه أبي الحسن علي وكان بيده إلى أن مات سنة إحدى وتسعين وأربعمائة وكان شجاعا كريما فلما حضره الموت استخلف أخاه أبا سلامة مرشد بن علي فقال والله لا وليته ولا أخرجن من الدنيا كما دخلتها وكان عالما بالقرآن وهو والد مؤيد الدولة أسامة بن منقذ فولاهما أخاه الأصغر سلطان بن علي

(١) وفيها توفي محمد بن ناصر بن محمد بن علي الحافظ ، أبو الفضل البغدادي . ولد ليلة النصف من شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة ، وسمع الكثير ، وتفرد بمشايخ ، وكان حافظا ضابطا مكثرا من السنة كثير الذكر ، سريع الدمعة . وقد تخرج به جماعة منهم أبو الفرج بن الجوزي ، سمع بقراءته مسند أحمد وغيره من الكتب الكبار ، وكان يثني عليه كثيرا ، وقد رد علي أبي سعد السمعاني في قوله : محمد بن ناصر يجب أن يقع في الناس . قال ابن الجوزي : والكلام في الناس بالجرح والتعديل ليس من هذا القبيل ، وإنما ابن السمعاني يجب أن يتعصب على أصحاب الإمام أحمد ، نعوذ بالله من سوء القصد والتعصب . توفي محمد بن ناصر ليلة الثلاثاء الثامن عشر من شعبان منها ، عن ثلاث وثمانين سنة ، وصلى عليه مرات ، ودفن بباب حرب . وفيها توفي محمود بن إسماعيل بن قادوس أبو الفتح الدمياطي كاتب الإنشاء بالديار المصرية ، وهو شيخ القاضي الفاضل ، كان يسميه ذا البلاغتين ، وذكره العماد الكاتب في الجريدة ومن شعره فيمن يكرر التكبير ويوسوس في نية الصلاة في أولها :

وفاتر النية عينها مع كثرة الرعدة والمهزة

يكبر التسعين في مرة كأنه يصلي على حمزه

وفيها توفي الشيخ أبو البيان بنا بن محمد المروف بابن الحوراني ، الفقيه الزاهد العابد الفاضل الخاشع ، قرأ القرآن وكتاب التنبية على مذهب الشافعي ، وكان حسن المعرفة باللغة ، كثير المطالعة ، وله كلام يؤثر عنه ، ورأيت له كتابا بخطه فيه النظام التي يقولها أصحابه وأتباعه بلهجة غريبة ، وقد كان من نشأته إلى أن توفي على طريقة صالحة ، وقد زاره الملك نور الدين محمود في رباطه داخل درب الحجر ، ووقف عليه شيئا ، وكانت وفاته يوم الثلاثاء ثالث ربيع الأول من هذه السنة ، ودفن بمقابر الباب الصغير ، وكان يوم جنازته يوما مشهودا ، وقد ذكرته في طبقات الشافعية رحمه الله .

واصطحبا أجمل صحبة مدة من الزمان فأولد مرشدة عدة أولاد ذكور وكبروا وسادوا منهم عز الدولة أبو الحسن على ومؤيد الدولة أسامة وغيرهما ولم يولد لأخيه سلطان ولد ذكر إلى أن كبر فجاءه أولاد ذكور فحسد أخاه على ذلك وخاف أولاد أخيه على أولاده وسعى بينهم المفسدون فغيروا كلا منهما على أخيه فكتب سلطان إلى أخيه مرشد أبيات شعر يعاتبه على أشياء بلغته عنه فأجابته بشعر في معناه رأيت إثبات ما تمس الحاجة إليه منه وهي هذه الأبيات :

ظلوم أبت في الظلم إلا تماديا ه وفي الصد والهجران إلا تغاليا
شككت هجرنا والذنب في ذاك ذنبها ه فيا عجبا من ظالم جاء شاكيا
وطاوعت الواشين فيّ وطالما ه عصيت عذولا في هواها وواشيا
ومال بها تيه الجمال إلى القلي ه وهيات أن أمسى لها الدهر قاليا
ولاناسيا ما أودعت من عهدها ه وإن هي أبدت جفوة وتناسيا
ولما أتاني من قريضك جوهر ه جمعت المعالي فيه لي والمعانیا
وكنت هجرت الشعر حيناً لأنه ه تولى برغمي حين ولي شبانيا
وأين من السنين لفظ مفرق ه إذ ارميت أدنى القول منه عصانيا
وقلت أخى يرعى بنى وأسرتي ه ويحفظ عهدي فيهم وذماليا
ويجزئهم ما لم أكلفه فعله ه لنفسى فقد أعدته من تراثيا
فالك لما أن حنى الدهر صعدي ه وثلم منى صار ما كان ماضيا
تنكرت حتى صار برك قسوة ه وقربك منى جفوة وتناسيا
وأصبحت صفر الكف بما رجوته ه أرى اليأس قد عني سبيل رجائيا
على أنى ما حلت عما عهديته ه ولا غيرت هذى السنون وداديا
فلا غرو عند الحادثات فإنى ه أراك يمى والآنم شماليا
تحل بها عذراء لوقرت بها ه نجوم السماء لم تعد دراريا
تحلت بدر من صفاتك زانها ه كما زان منظوم الآلى الغوانيا
وعش بانيا للجد ما كان واهيا ه ه شيدا من الإحسان ما كان هاويا

وكان الأمر بينهما فيه تماسك فلما توفي مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة قلب أخوه لأولاده ظهر المجن وبادأهم بما يسوهم وأخرجهم من شيزر فتفرقوا وقصد أكثرهم نور الدين وشكوا إليه ما لقوا من همهم فغاضه ذلك ولم يمكنه قصده والأخذ بثأرهم وإعادتهم إلى وطنهم لاشتغاله بجهاد الفرنج والخوفه أن يسلم شيزر إلى الفرنج ثم توفي سلطان وولى بعده أولاده فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج فاشتد حنقه عليهم وانتظر فرصة تمكنه فلما خربت القلعة هذه السنة بما ذكرناه من الزلزلة لم ينبج من بنى منقذ الذين بها أحد وسبب هلاكهم أجمعين أن صاحبها منهم كان قد ختن ولدا له وعمل دعوة للناس وأحضر جميع بنى منقذ عنده في داره وكان له فرس يحبه ولا يكاد يفارقه ؛ وإذا كان في مجاس أقيم الفرس على بابيه وكان المهر في ذلك اليوم على باب الدار فجاءت الزلزلة فقام الناس ليخرجوا من الدار فرح الفرس رجلا كان أولم فقتله وامتنع الناس من الخروج

فسقطت الدار عليهم كلهم وخربت القلعة وسقط سورها وكل بناء فيها ولم ينج منها إلا الشريد فبادر إليها بعض أمراءه وكان بالقرب منها فصعد إليها وتسلمها نور الدين منه فملكها وعمر أسوارها ودورها وأعادها جديدة (ذكر وفاة الديلمي صاحب جزيرة ابن عمر واستيلاء قطب الدين مودود على الجزيرة) كانت الجزيرة لآتابك زنكي فلما قتل سنة إحدى وأربعين أقطعها ابنه سيف الدين غازي للأمير أبي بكر الديلمي وكان من أكابر أمراء والده فبقيت بيده إلى الآن وتمكن منها وصار بحيث يتعذر على قطب الدين أخذها منه فمات في ذي الحجة سنة اثنتين وخمسين ولم يخلف ولدا فاستولى عليها ملوك له اسمه غلبك وأطاعه جندها فحصرهم مودود ثلاثة أشهر ثم تسلمها من غلبك في صفر من سنة ثلاث وخمسين وأعطاه عوضها أقطانا كثيرة.

(ذكر وفاة السلطان سنجر) في هذه السنة في ربيع الأول توفي السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان أبو الحرث أصابه قولنج ثم بعده إسهال فمات منه ومولده بسنجان من ديار الجزيرة في رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة وسكن خراسان واستوطن مدينة مرو ودخل بغداد مع أخيه السلطان محمد واجتمع معه بالخليفة المستظهر بالله فعهد إلى محمد بالسلطنة وجعل سنجر أولى عهده فلما مات محمد خوطب لسنجر بالسلطان واستقام أمره وأطاعه السلاطين وخطب له على أكثر منابر الإسلام بالسلطنة نحو أربعين سنة وكان قبلها يخاطب بالملك عشرين سنة ولم يزل أمره عاليا وجده متراقيا إلى أن أسره الغز على ما ذكرناه ثم أنه خلاص بعد مدة وجمع إليه أطرافه وكاد يعود إليه ملكه فأدركه أجله وكان مهيبا كريما رفيقا بالرعية وكانت البلاد في زمانه آمنة ولما مات دفن في قبة بناها لنفسه سماها دار الآخرة ولما وصل خبر موته إلى بغداد قطعت خطبته ولم يجلس له في الديوان للعزاء ولما حضر السلطان سنجر الموت استخلف على خراسان الملك محمود بن محمد بن بغراخان وهو ابن أخت السلطان سنجر فأقام بها خائفا من الغز فقصده جرجان يستظهر بها وعاد الغز إلى مرو وخراسان واجتمع طائفة من عساكر خراسان على أبي المؤيد فاستولى على طرف من خراسان وبقيت خراسان على هذا الاختلال إلى سنة أربع وخمسين وراسل الغز الملك محمودا على ما ذكره سنة ثلاث وخمسين وسأله أن يحضر عندهم ليلكوه عليهم فلم يثق إليهم وخافهم على نفسه فأرسل ابنه إليهم فأطاعوه مديدة ثم لحق بهم الملك محمود على ما ذكره سنة ثلاث وخمسين.

(ذكر ملك المسلمين مدينة المرية وانقراض دولة الملتمين بالأندلس) في هذه السنة انقضت دولة الملتمين بالأندلس وملك أصحاب عبد المؤمن مدينة المرية من الفرنج وسبب ذلك أن عبد المؤمن لما استعمل ابنه أباسعيد على الجزيرة الخضراء ومالقة عبر أبوسعيد البحر إلى مالقة واتخذها دارا وكاتبه ميمون بن بدر اللمتوني صاحب غرناطة أن يوحد ويسلم إليه غرناطة فقبل أبوسعيد ذلك منه وتسلم غرناطة فسار ميمون إلى مالقة بأهله وولده فتلقاها أبوسعيد وأكرمه ووجهه إلى مراکش فأقبل عليه عبد المؤمن وانقضت دولة الملتمين ولم يبق لهم إلا جزيرة ميورقة مع حمو بن غانية فلما ملك أبوسعيد غرناطة جمع الجيوش وسار إلى مدينة المرية وهي بأبدي الفرنج أخذوها من المسلمين سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة فلما نازلها وافاه الأسطول من سبته وفيه خلق كثير من المسلمين فحصروا المرية برا وبحرا وجاء الفرنج إلى حصنها فحصرهم فيها ونزل عسكره على الجبل المشرف عليها وبني أبوسعيد سورا على الجبل المذكور إلى البحر وعمل عليه خندقا فصارت المدينة والحصن الذي فيه الفرنج محصورا بهذا السور والخندق ولا يمكن من بنجدهما من أن يصل إليهما فجمع الأذفونش ملك الفرنج

بالاندلس المعروف بالسليطيين في اثني عشر ألف فارس من الفرنج ومعه محمد بن سعيد بن مردنيس في ستة آلاف فارس من المسلمين وراموا الوصول إلى المدينة ودفع المسلمين عنها فلم يطيقوا ذلك فرجع السليطيين وابن مردنيس خائبين فمات السليطيين في عوده قبل أن يصل إلى طليطلة وتمادى الحصار على المرية ثلاثة أشهر فضاقت الميرة وقلت الأقوات على الفرنج فطلبوا الأمان ليسلوا الحصن فأجابهم أبو سعيد إليه وأمنهم وتسلم الحصن ورحل الفرنج في البحر عائدين إلى بلادهم فكان ملكهم المرية مدة عشر سنين .

(ذكر غزو صاحب طبرستان الإسماعيلية) في هذه السنة جمع شاه مازندران رستم بن علي بن شهر يار عسكره وسار ولم يعلم أحدا جهة مقصده وسلك المضائق وجد السير إلى بلد الموت وهي الإسماعيلية فأغار عليها وأحرق القرى والسواد وقتل فأكثر وغنم أموالهم وسبي نسائهم واسترق أبناءهم فباعهم في السوق وعاد سالما غانما وانخذل الإسماعيلية ودخل عليهم من الوهن مالم يصابوا بمثله وخرب من بلادهم ما لا يعمر في السنين الكثيرة .

(ذكر أخذ حجاج خراسان) في هذه السنة في ربيع الأول سار حجاج خراسان فلما رحلوا عن بسطام أغار عليهم جمع من الجند الخراسانية قد قصدوا طبرستان فأخذوا من أمتعتهم وقتلوا نفرا منهم وسلم الباقون وساروا من موضعهم فبينما هم سائرون إذ طلع عليهم الإسماعيلية فقاتلهم الحجاج قتالا عظيما وصبروا صبورا عظيما فقتل أميرهم فانخذلوا وألقوا بأيديهم واستسلموا وطلبوا الأمان وألقوا أسلحتهم مستأمنين فأخذهم الإسماعيلية وقتلواهم ولم يبقوا منهم إلا شذمة يسيرة وقتل فيهم من الأئمة العلماء والزهاد والصلحاء جمع كثير وكانت مصيبة عظيمة عمّت بلاد الإسلام وخصت خراسان ولم يبق بلد إلا وفيه المأثم فلما كان الغد طاف شيخ في القتلى والجرحى ينادي : يا مسلمون ، يا حجاج ذهب الملاحدة ، وأنا رجل مسلم ، فمن أراد الماء سقيته ، فمن كلبه قتله وأجهز عليه فهلكوا أجمعين - إلا من سلم وولى هاربا - وقليل ما هم .

(ذكر الحرب بين المؤيد والامير إيثاق) قد ذكرنا تقدم الأمير أي به بملوك السلطان سنجر وتقدمه على عساكر خراسان فحسده جماعة من الأمراء منهم الأمير إيثاق وهو من الأمراء السنجرية وانحرف عنه وكان تارة يقصد خوارزمشاه وتارة مازندران وتارة يظهر الموافقة للمؤيد ويبطن المخالفة فلما كان الآن فارق مازندران ومعه عشرة آلاف فارس قد اجتمع معه كل من يريد الغارة على البلاد وكل منحرف عن المؤيد وقصد خراسان وأقام بنواحي نسا وأبيورد لا يظهر المخالفة للمؤيد بل يرأسه بالموافقة والمعاضدة له ويبطن ضدها وانتقل المؤيد من المكاتب إلى المكافحة وسار إليه جريدة فأغار عليه وأوقع به ففرق عنه جموعه ونجا بمشاشة نفسه وغنم المؤيد وعسكره كل ما لإيثاق ومضى منهزما إلى مازندران وكان ملكها رستم بينه وبين أخ له اسمه علي تنازع على الملك وقد قوى رستم فلما وصل إيثاق إلى مازندران قتل عليه وحمل رأسه إلى أخيه رستم فعظم ذلك على رستم واشتد واستشاط غضبا وقال آكل لحمي ولا أطمعه غيري ؛ ولم يزل إيثاق يتردد في خراسان بالنهب والغارة لاسيما مدينة إسفراین فإنه أكثر من قصدتها حتى خربت فرأسله السلطان محمود بن محمد والمؤيد يدعوانه إلى الموافقة فسار إليه في العساكر فلما قارباه أتاهما كثير من عسكره ففضى من بين أيديهما إلى طبرستان في صفر سنة ثلاث وخمسين فتبعاه في عساكرهما فأرسل شاه مازندران يطلب الصلح فأجاباه واصطلحوا وحمل شاه مازندران أموالا جلية وهدايا نفيسة ، وسير إيثاق ابنه رهينة ؛ فعاد عنه .

(ذكر الحرب بين المؤيد وسنقر العزبي) كان سنقر العزبي من أمراء السلطان سنجر وعن يناوي

أيضا المؤيد أي أبه فلما اشتغل المؤيد بحرب إيثاق سار سنقر من عسكر السلطان محمود بن محمد إلى هراة ودخاها وبها جماعة من الأتراك وتحصن بها فاشير عليه بأن يعتضد بالملك الحسين ملك الغورية فلم يفعل واستبد بنفسه منفردا لأنه رأى اختلاف الأمراء على السلطان محمود بن محمد فطمع وحدث نفسه بالقوة فقصدته المؤيد إلى هراة فلما وصل إليها قاتل من بها شيئا من قتال ثم إن الأتراك مالوا إلى المؤيد وأطاعوه وانقطع خبر سنقر العزيزي من ذلك الوقت ولم يعلم ما كان منه فقيل إنه سقط عن فرسه فمات وقيل بل اغتاله الأتراك فقتلوه وتقديم السلطان محمود إلى ولاية هراة في عساكره وجنوده والتحق جماعة من عسكر سنقر بالأمير إيثاق وأغاروا على طوس وقرأها فبطلت الزروع والحراث واستولى الخراب على البلاد وعمت الفتن أطراف خراسان وأصابهم العين فإبهم كانوا أيام السلطان سنجر في أرغد عيش وأمنه وهذا دأب الدنيا لا يصفو نعيمها وخيرها من كدر وشوائب وآفات وقلما يخلص شرها من خير ففسال الله أن يحسن لنا العون والعقبى بمحمد وآله .

(ذكر ملك نور الدين بعلبك) في هذه السنة ملك نور الدين محمود بعلبك وقلعتها وكانت بيد إنسان يقال له ضحاك البقاعي منسوب إلى بقاع بعلبك وكان قد ولاه إياها صاحب دمشق فلما ملك نور الدين دمشق امتنع ضحاك بها فلم يتمكن نور الدين محاصره لقربه من الفرج فتلطف الحال معه إلى الآن فللكها واستولى عليها .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة قلع الخليفة المقتدى لأمر الله باب الكعبة وعمل عوضه بابا مصفحا بالقرعة المذبة وعمل لنفسه من الباب الأول تابوتا يدفن فيه إذا مات وفيها توفي محمد بن عبد اللطيف بن محمد ابن ثابت أبو بكر الجعدي رئيس أصحاب الشافعي بأصفهان وسمع الحديث بها من أبي علي الحداد وكان صدرا مقدما عند السلاطين وكان ذا حشمة عظيمة وجاءه عريض ووقعت لموته فتنة عظيمة بأصفهان وقتل فيها خلق كثير . وفيها كان بخراسان غلاء شديد أكلت فيه سائر الدواب حتى الناس وكان بنيسابور طباخ فذبح إنسانا جلويا وطبخه وباعه في الطبخ ثم ظهر عليه أنه فعل ذلك فقتل وأسفر الغلاء وصلحت أحوال الناس . وفيها توفي القاضي أبو العباس أحمد بن بختيار بن علي الماسد أي الواسطي قاضيا وكان فقيها عالما . وفيها في ربيع الآخر توفي القاضي برهان الدين أبو القاسم منصور بن أبي سعد محمد بن أبي نصر أحمد الصاعدي قاضي نيسابور وكان من أئمة الفقهاء الحنفية (١) .

(ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة)

(ذكر الحرب بين سنقر وأرغش) في هذه السنة كان حرب شديدة بين سنقر الهمداني وأرغش

(١) وفيها توفي محمد بن المبارك بن محمد بن الخلل أبو الحسن بن أبي البقاء ، سمع الحديث وتفقه على الشافعي ، ودرس وأفتى ، وتوفي في مجرم هذه السنة ، وتوفي أخوه الشيخ أبو الحسين بن الخلل الشاعر في ذي الفعدة منها . وفيها توفي يحيى بن عيسى بن إدريس أبو البركات الأنباري الواعظ ، قرأ القرآن وسمع الحديث وتفقه ووعظ الناس على طريقة الصالحين ، وكان يبكي من أول صعوده إلى حين نزوله ، وكان زاهدا عابدا ورعا آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، ورزق أولادا صالحين سماهم بأسماء الخلفاء الأربعة ، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي . وحفظهم القرآن كلهم بنفسه ، وختم خلقا كثيرا ، وكان هو وزوجته يصومان الدهر ، ويقومان الليل ، ولا يفطران إلا بعد العشاء ، وكانت له كرامات ومنامات صالحة ، ولما مات قالت زوجته : اللهم لا تحبني بعده ، فمات بعده بخمسة عشر يوما ، وكانت من الصالحات رحمها الله تعالى .

المسترشدى وسببها أن سنقر الهمذاني كان قد نهب سواد بغداد بطريق خراسان وكثر جمعه فخرج الخليفة المقتدى لأمر الله في جمادى الأولى بنفسه يطلبه فلما وصل إلى بلد اللحف قال له الأمير خطلوبرس أنا أ كفيك هذا المهم وكان بينه وبين سنقر مودة فركب إليه وتلاقيا وجرى بينهما عتاب طويل لأجل خروجه عن طاعة الخليفة فأجاب سنقر إلى الطاعة وعاد خطلوبرس وأصلح حاله فأقطعه بلد اللحف والأمير أرغش المسترشدى فلما توجهوا إلى اللحف جرى بينهما منازعة فأراد سنقر قبض أرغش فرآه محترزا فتحاربوا وقتلا قتالا شديدا وغدر بأرغش أصحابه فعاد منهزما إلى بغداد وانفرد سنقر ببلد اللحف وخطب فيه للملك محمد فسير من بغداد عسكريا لقتاله مقدمهم خطلوبرس فجرت بينهما حرب شديدة انهزم في آخرها سنقر وقتلت رجاله ونهبت أمواله التي في العسكر وسار هو إلى قلعة الماهكي وأخذ ما كان له فيها واستخلف فيها بعض غلمانه وسار هو إلى همذان فلم يلتفت إليه الملك محمد شاه فعاد إلى قلعة الماهكي .

(ذكر الحرب بين شملة وقايماز السلطاني) في هذه السنة أيضا كان قتال بين شملة صاحب خوزستان ومعه ابن مكلية وبين قايماز السلطاني في ناحية بادرايا فجمعا عسكرهما وسارا إليه فأناه الخبر بذلك وهو يشرب فلم يجفل بذلك وركب اليهم في نحو ثلثمائة فارس وكان معجبا بنفسه فحمل عليهم واختلط بهم فأحدقوا به وقتل أشد قتال فانهزم أصحابه وأخذ هو أسيرا فقتله إنسان تركاني كان له عليه دم لأنه قتل ابنا للتركاني فقتله بابنه وأرسل برأسه إلى محمد شاه وأرسل الخليفة عسكريا ليقاتل شملة ومن معه فانزاحوا من بين أيديهم ولحقوا بالملك ملكشاه بخوزستان فهلك كثير منهم بالبرد .

(ذكر معاودة الغز الفتنه بخراسان) كان الأتراك الغزية قد أقاموا ببلخ واستوطنوها وتركوا النهب والقتل ببلاد خراسان وانفقت الكلمة بها على طاعة السلطان خاقان محمود بن محمد أرسلان وكان المتولي لأمور دولته المؤيد أي أبه وعن رأيه يصدر محمود فلما كان هذه السنة في شعبان سار الغز من بلخ إلى مرو وكان السلطان محمود بسرخس في العساكر فسار المؤيد في طائفة من العسكر اليهم فأوقع بطائفة منهم وظفر بهم ولم يزل يتبعهم إلى أن دخلوا إلى مرو أوائل رمضان وغنم من أموالهم وقتل كثيرا وعاد إلى سرخس فاتفقا هو والسلطان محمود على قصد الغز وقتالهم فجمعا العساكر وحشدا وسارا إلى الغز فالتقوا سادس شوال من هذه السنة وجرت بينهم حرب طال مداها فبقوا يقتتلون من يوم الإثنين سابع شوال إلى نصف الليل من ليلة الأربعاء الحادى عشر من الشهر تواقوا عدة وقعات متتابعة ولم يكن بينهما راحة ولا نزول إلا لما لا بد منه انهزم الغز فيها ثلاث دفعات وعادوا إلى الحرب فلما أسفر الصبح يوم الأربعاء انكشفت الحرب عن هزيمة عساكر خراسان وتفرقهم في البلاد وظفر الغز بهم وقتلوا فأكثروا فيهم وأما الجرحى والأسرى فأكثر من ذلك وعاد المؤيد ومن سلم معه إلى طوس فاستولى الغز على مرو وأحسنوا السيرة وأكرموا العلماء والأئمة مثل تاج الدين أبي سعد السمعاني وشيخ الإسلام على البلخي وغيرهما وأغاروا على سرخس وخربت القرى وجلى أهلها وقتل من أهل سرخس نحو عشرة آلاف قتيل ونهبوا طوس أيضا وقتلوا أهلها إلا القليل وعادوا إلى مرو وأما السلطان محمود بن محمد الخان والعساكر التي معه فلم يقدرُوا على المقام بخراسان من الغز فساروا إلى جرجان ينتظرون ما يكون من الغز فلما دخلت سنة أربع وخمسين وخمسائة أرسل الغز إلى السلطان يسألونه أن يحضر عندهم ليلكوه أمرهم فلم يثق بهم وخافهم على نفسه فأرسلوا يطلبون منه ابنه جلال الدين صر ليلكوه أمرهم ويصدرُوا عن أمره ونهيه في قليل الأمور وكثيرها وترددت الرسل

واحتاط السلطان محمود لولده بالعهد والمواثيق وتقرير القواعد ثم سيره من جرجان إلى خراسان فلما سمع الأمراء الغزية بقدومه ، ساروا من مرو إلى طريقه فالتقوه بنيسابور وأكرموه وعظموه ودخل نيسابور واتصلت به العساكر الغزية واجتمعوا عنده في الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، ثم إن السلطان محمود سار من جرجان إلى خراسان في الجيوش التي معه من الأمراء السنجرية وتخلف عنه المؤيد أي أبه فوصل إلى حدود نسا وأبيورد وأقطع نسا لأمير اسمه عمر بن حمزة النسوي فقام في حفظها المقام المرضي ومنع عنها أيدي المفسدين وأقام السلطان محمود بظاهر نسا حتى انسلخ جمادى الآخرة من السنة ، ولما كان الغز بنيسابور هذه السنة أرسلوا إلى طوس يدعونهم إلى الطاعة والموافقة فامتنع أهل راذكان من إجابتهم إلى ذلك واغتروا بسور بلدهم وبما عندهم من الشجاعة والقوة والعدة الوافرة والذخائر الكثيرة فقصدوا طائفة من الغز وحصروهم وملكوا البلد وقتلوا فيه ونهبوا وأكثروا ثم عادوا إلى نيسابور وساروا مع جلال الدين محمد بن السلطان محمود الخان إلى بهق وحصروا سايزوار سابع عشر جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وخمسمائة فامتنع أهلها عليهم وقام بأمرهم النقيب عماد الدين علي بن محمد بن يحيى العلوي الحسيني نقيب العلويين واجتمعوا معه ورجعوا إلى أمره ونهيه ووقفوا عند إشارته فامتنعوا على الغز وحفظوا البلد منهم وصبروا على القتال فلما رأى الغز امتناعهم عليهم وقوتهم أرسلوا إليهم يطلبون الصلح فاصطلحوا ولم يقتل من أهل سايزوار في تلك الحروب غير رجل واحد ورحل الملك جلال الدين والغز عن سايزوار في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وخمسمائة وساروا إلى نسا وأبيورد .

(ذكر أسر المؤيد وخلاصه) قد ذكرنا أن المؤيد أي أبه تخلف عن السلطان ركن الدين محمود بن محمد بجرجان فلما كان الآن سار من جرجان إلى خراسان فنزل بقرية من قرى خبوشان اسمها زانك وبها حصن فسمع الغز بوصولهم إلى زانك فساروا إليه وحصروه فيه فخرج منه هاربا فرآه واحد من الغز فأخذه فوعده بمال جزيل إن أطلقه فقال الغزي وأين المال فقال هو مودع في بعض هذه الجبال فسار هو والغزي فوصلا إلى جدار قرية فيها بساتين وعيون فقال للفارس المال ههنا وصعد الجدار ونزل من ظهره ومضى هاربا فرأى الغز قد ملأوا الأرض فدخل قرية فعرفه طحان فيها فأعلم زعيم القرية به وطلب منه مركبا فأتاه بما أراد وأعانه على الوصول إلى نيسابور فوصل إليها واجتمعت العساكر وقوى أمره وعاد إلى حاله وأحسن إلى الطحان وبالغ في الإحسان إليه .

(ذكر اجتماع السلطان محمود مع الغز وعودهم إلى نيسابور) لما عاد الغز ومعهم الملك محمد بن محمود الخان إلى نيسابور كما ذكرناه خرج والده السلطان محمود الخان وكان هناك فيمن معه من العساكر الخراسانية فاجتمع بهم واتفقت الكلمة على طاعته وأراد عمارة البلاد وحفظها فلم يقدر على ذلك فلما اجتمعوا ساروا إلى نيسابور وبها المؤيد أي أبه في شعبان فلما سمع بقرتهم منه رحل عنها إلى خواف في سادس عشرة ووصلوا إليها في الحادى والعشرين منه ونزلوا فيه وخافهم الناس خوفا عظيما فلم يفعلوا بهم شيئا وساروا عنها في السادس والعشرين منه إلى سرخس ومرو وكان بها الفقيه المؤيد بن الحسين الموفقى رئيس الشافعية وله بيت قديم وهو من أجناد الإمام أبي سهل الصعلوكى وله مصاهرة إلى بيت أبي المعالى الجوينى وهو المقدم فى البلد والمفسار إليه وله من الأتباع ما لا يحصى فاتفق أن بعض أصحابه قتل إنسانا من الشافعية اسمه أبو الفتوح

المستقاني خطأ وهذا أبو الفتوح له تعلق بنقيب العلويين بنيسابور وهو ذخر الدين أبو القاسم زيد بن الحسن الحسيني وكان هذا النقيب هو الحاكم هذه المدة بنيسابور فغضب من ذلك وأرسل إلى الفقيه المؤيد يطلب منه القتال ليقتص منه ويتهدده إن لم يفعل فامتنع المؤيد من تسليمه وقال لا مدخل لك مع أصحابنا إنما حكمك على الطائفة العلويين فجمع النقيب أصحابه ومن يتبعه وقصد الشافعية فاجتمعوا له وقتلوه فقتل منهم جماعة ثم إن النقيب أحرق سور العطارين وأحرقوا سكة معاد أيضا وسكة باغ ظاهر ودار إمام الحرمين أبي المعالي الجويني وكان الفقيه المؤيد الشافعي بها للصهر الذي بينهم وعظمت المصيبة على كافة الناس وجمع بعد ذلك المؤيد الفقيه جموعا من طوس واسفران وجوين وغيرهم وقتلوا واحدا من اتباع النقيب زيد يعرف بابن الحاجي الأشناني فأهم العلوية ومن معهم فاقتلوا ثامن عشر شوال من سنة أربع وخمسين وقامت الحرب على ساق وأحرقت المدارس والأسواق والمساجد وكثر القتل في الشافعية فالتجأ المؤيد الشافعي في شردمة إلى قلعة فرخك وقصر باع الشافعية عن القتال ثم انتقل المؤيد إلى قرية من قرى طوس وبطلت دروس الشافعية بنيسابور وخرب البلد وكثر القتل فيه .

(ذكر حصر صاحب هتلان ترمذ وعوده وموته) في هذه السنة في رجب سار الملك أبو شعاع فرخشاه وهو يزعم أنه من أولاد بهرام جور وقد تقدم ذكره أيام كسرى أبرويز إلى ترمذ وحصرها وكان سبب ذلك أنه كان في طاعة السلطان سنجر فلما خرج عليه الغز طلبه ليحضر معه حربه لم يجمع عسكره وأظهر أنه واصل فيمن عنده من العساكر إليه وأقام ينتظر ما يكون منه فان ظفر حضر وقال له سبقتني بالحرب وإن كان الظفر للغز قال لم إنما تأخرت محبة وإرادة أن تملكوا فلما انهزم سنجر وكان ما ذكرناه بقي إلى الآن فصار إلى ترمذ ليحصرها فجمع صاحبها فيروز شاه أحمد بن أبي بكر بن قجاج عسكره ولقيه لينعه فاقتلوا فانهزم فيروز شاه ومضى منهزما لا يلوي على شيء فأصابه في الطريق قولنج فمات منه .

(ذكر عود المؤيد إلى نيسابور وتخریب ما بقى منها) في هذه السنة عاد المؤيد أي أبه إلى نيسابور في عساكره ومعه الإمام المؤيد الموقفي الشافعي الذي تقدم ذكر الفتنة بينه وبين ذخر الدين نقيب العلويين وخروجه من نيسابور فلما خرج منها صار مع المؤيد وحضر مع المؤيد وحضر معه حصار نيسابور وتحصن النقيب العلوي بشارستان واشتد الخطب وطال الحرب وسفكت الدماء وهتكت الأستار وخربوا ما بقى من نيسابور من الدور وغيرها وبالغ الشافعية ومن معهم من الانتقام فخربوا المدرسة الصندالية لأصحاب أبي حنيفة وخربوا غيرها وحصروا قهندز وهذه الفتنة استأصلت نيسابور ثم رحل المؤيد أي أبه عنها إلى يبيق في شوال من سنة أربع وخمسين وخمسمائة كان ينبغي أن تكون هذه الحوادث الغزية الواقعة في سنة أربع وخمسين مذكورة في سنتها وإنما قدمناها هنا ليلو بعضها بعضها فيكون أحسن لسياقتها .

(ذكر ملك ملكشاه خوزستان) في هذه السنة ملك ملكشاه بن السلطان محمود بلد خوزستان وأخذه من شالة التركاني وسبب ذلك أن الملك محمد بن السلطان محمود لما عاد من حصار بغداد كاذكرناه مرض وبقى مريضا بهمدان ومضى أخوه ملكشاه إلى قم وقاجان وما والاها فنهبا جميعها وصادرا أهلها وجمع أموالا كثيرة فراسله أخوه محمد شاه يأمره بالكف عن ذلك ليجعله ولي عهده في الملك فلم يفعل ومضى إلى أصفهان فلما قاربها أرسل رسولا إلى ابن الخجندی وأعيان البلد في تسليم البلد إليه فامتنعوا من ذلك وقالوا لا خيك في رقابنا

يمين ولا تغدر به فحينئذ شرع ملكشاه في الفساد والمصادرة لأهل القرى فلما سمع محمد شاه الخبر سار عن همدان وعلى مقدمته كردبازوه الخادم فتفرقت جموع ملكشاه عند فرسيين فلاحق به قويدان وكان قد فارق المقتنى لأمر الله واتفق مع سنقر الهمداني فلاحق كلاهما به وحسناله قصد بغداد فسار عن بلد خوزستان إلى واسط ونزل بالجانب الشرقي وهم على غاية الضر من الجوع قهبوا القرى نهبا فاحشا ففتح بثق بتلك الناحية ففرق منهم كثير ونجا ملكشاه ومن سلم معه وساروا إلى خوزستان فنعه شملة من العبور فراسله ليمكنه من العبور إلى أخيه الملك محمد شاه فلم يجبه إلى ذلك وكاتب حينئذ الأكراد الكرا الذين هناك واستدعاهم إليه ففرحوا به ونزل إليه من تلك الجبال خلق كثير فأطاعوه فرحل ونزل على كرخانا وطلب من شملة الحرب فألان له شملة القول وقال أنا أخطب لك وأكون معك فلم يقبل منه فاضطر شملة إلى الحرب فجمع عسكره وقصده فلقبه ملكشاه ومعه سنقر الهمداني وقويدان وغيرهما من الأمراء فاقتتلوا فاهزم شملة وقتل كثير من أصحابه وصعد إلى قلعة دندرزين وملك ملكشاه البلاد وجبى الأموال الكثيرة وأظهر العدل وتوجه إلى أرض فارس .

(ذكر الحرب بين التركاني والإسماعيلية بخراسان) كان بنواحي قهستان طائفة من التركان فتزل إليهم جمع من الإسماعيلية من قلاعهم وهم ألف وسبعمائة فأوقعوا بالتركاني فلم يجحدوا الرجال وكانوا قد فارقوا بيوتهم قهبوا الأموال وأخذوا النساء والأطفال وأحرقوا ما لم يقدروا على حمله وعاد التركان فرأوا ما فعل بهم فتبعوا أثر الإسماعيلية فأدركوهم وهم يقتسمون الغنيمة فكبروا وحملوا عليهم ووضعوا فيهم السيف فقتلواهم كيف شاؤوا حتى أفنوا قتلا وأسرا ولم ينج إلا تسعة رجال لا غير .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة كثر فساد التركان أصحاب ترجم الإيوانى بالجبل فسير إليهم من بغداد عسكر مقدمهم منكبرس المسترشدى فلما قاربهم اجتمع التركان فالتقوا واقتتلوا هم ومنكبرس فانهزم التركان أقبح هزيمة وقتل بعضهم وأسر بعض وحملت الرؤس والأسارى إلى بغداد . وفيها حج الناس فلما وصلوا إلى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم وصل لهم الخبر أن العرب قد اجتمعت لتأخذهم فتركوا الطريق وسلكوا طريق خيبر فوجدوا مشقة شديدة ونجوا من العرب . وفيها توفي الشيخ نصر بن منصور بن الحسين العطار أبو القاسم الحراني ومولده بخران سنة أربع وثمانين وأربعمائة وأقام ببغداد وكثر ماله وصدقاته أيضا وكان يقرأ القرآن وهو والد ظهير الدين الذي حكم في دولة المستضى . بأمر الله على ما ذكره إن شاء الله . وفيها توفي أبو الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب السجزي ببغداد وهو سجزى الأصل هروى المثنى وكان قدم إلى بغداد سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة يريد الحج فسمع الناس بها عليه صحیح البخارى وكان على الإسناد فتأخر لذلك عن الحج فلما كان هذه السنة عزم على الحج فمات . وفيها توفي يحيى بن سلامة بن الحسن بن محمد الفضل الحصكفي الأديب بميفارقين وله شعر حسن ورسائل جيدة مشهورة وكان بتشييع ومولده بطنزة فن شعره :

وخليع بت أعفله . ويرى عدلى من العبت
قلت إن الخمر نجبة . قال حاشاها من الخبت
قلت فالأرفك تتبعها . قال طيب العيش في الرفك
قلت منها التي قال أجل . شرفت عن مخرج الحدث

وسألوها فقلت متى • قال عند الكون في الحدث (١)

(١) وليحي بن سلامة أنه مدح أهل البيت والأئمة الإثني عشر رحمهم الله .

وسائل عن حب أهل البيت • هل أقر إعلاننا أم أجد
هيات مزوج بلحمي ودي • حبهم وهو الهدى والرشد
حيدرة والحسان بعده • ثم علي وابنه محمد
وجعفر الصادق وابن جعفر • موسى ويتلوه علي السيد
أعني الرضى ثم ابنه محمد • ثم علي وابنه المسدد
والحسن الثاني ويتلوه • محمد بن الحسن المفتقد
فإنهم أئمتي وسادتي • وإن لحاني معشر وفندوا
أئمة أكرم بهم أئمة • أسماؤهم مسرودة تطرد
هم حجج الله على عباده • وهم إليه منهج ومقصد
قوم لهم فضل ومجد باذخ • يعرفه المشرك والموحد
قوم لهم في كل أرض مشهد • لا بل لهم في كل قلب مشهد
قوم منى والشعران لهم • والمروتان لهم والمسجد
قوم لهم مكة والأبطح والخ • يف وجمع والبقيع الغرقد
م ذكر بلذات مقتل الحسين بالطف عبارة إلى أن قال .

يا أهل بيت المصطفى يا • عدتي ومن علي حبهم أعتمد
أنتم إلى الله غداً وسيلتي • وكيف أخشى وبكم أعتضد
وليكم في الخلد حي خالد • والضد في نار لظى مخلد
ولست أهواكم ببعض غيركم • إنى إذا أشق بكم لا أسعد
فلا يظن رافضى أنى • وافقته أو خارجى مفسد
محمد والخلفاء بعده • أفضل خلق الله فيما أجد
هم أسسوا قواعد الدين لنا • وهم بنوا أركانه وشيدوا
ومن يخن أحمد في أصحابه • نخسه يوم المعاد أحمد
هذا اعتقادي فالزموه تفلحوا • هذا طريقي فاسلكوه تهتدوا
والشافعي مذهبي مذهبه • لأنه في قوله مؤيد
أتبعته في الأصل والفرع معا • فليتبعني الطالب المرشد
إنى بإذن الله ناج سابق • إذا ونى الظالم ثم المفسد

ومن شعره أيضا

إذا قل مالي لم تجدني جازعا • كثير الأسي معرى بعض الأنامل
ولا بطرا إن جدد الله نعمة • ولو أن ما أوتى جميع الناس لي

(ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة)

(ذكر ملك عبدالمؤمن مدينة المهديّة من الفرنج وملكه جميع أفريقيا) قد ذكرنا سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ملك الفرنج مدينة المهديّة من صاحبها الحسن بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وذكرنا أيضا سنة إحدى وخمسين ما فعله الفرنج بالمسلمين في زويلة المجاورة للمهديّة من القتل والنهب فلما قتلهم الفرنج ونهبوا أموالهم هرب منهم جماعة وقصدوا عبدالمؤمن صاحب المغرب وهو بمراكش يستجيرونه فلما وصلوا إليه ودخلوا عليه أكرمهم وأخبروه بما جرى على المسلمين وأنه ليس في ملوك الإسلام من يقصد سواد ولا يكشف هذا الكرب غيره فدمعت عيناه وأطرق. ثم رفع رأسه وقال أبشروا لأنصرنكم ولو بعد حين وأمر بإنزالهم وأطلق لهم ألفي دينار ثم أمر بعمل الروايا والقرب وما يحتاج إليه العساكر في السفر وكتب إلى جميع نوابه في الغرب وكان قد ملك إلى قريب تونس يأمرهم بحفظ جميع ما يتحصل من الغلات وأن يترك في سنبله ويخزن في مواضعه وأن يحفروا الآبار في الطرق ففعلوا جميع ما أمرهم به وجمعوا الغلات ثلاث سنين ونقلوها إلى المنازل وطبنوا عليها فصارت كأنها تلال فلما كان في صفر من هذه السنة مار عن مراكش وكان أكثر أسفاره في صفر فسار يطلب أفريقيا واجتمع من العساكر مائة ألف مقاتل ومن الاتباع والسوقة أمثالهم وبلغ من حفظه لعساكرهم كانوا يمشون بين الزروع فلا تتأذى بهم سنبله وإذا نزلوا صلوا جميعهم مع إمام واحد بتكبيرة واحدة لا يتخلف منهم أحد كأننا من كان وقدم بين يديه الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز ابن باديس الصنهاجي وكان صاحب المهديّة وأفريقية وقد ذكرنا سبب مصيره عند عبدالمؤمن فلم يزل يسير إلى أن وصل إلى مدينة تونس في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة وبها صاحبها أحمد بن خراسان وأقبل أسطوله في البحر في سبعين شينيا وطريدة وشلندي فلما نازلها أرسل إلى أهلها يدعوهم إلى طاعته فامتنعوا فقاتلهم من الغد أشد قتال فلم يبق إلا أخذها ودخول الأسطول إليها فجاءت ريح عاصف منعت الموحدين من دخول البلد فرجعوا ليليا كروا القتال ويملكوه فلما جن الليل نزل سبعة عشر رجلا من أعيان أهلها إلى عبدالمؤمن يسألونه الأمان لأهل بلدهم فأجابهم إلى الأمان لهم في أنفسهم وأهلهم وأموالهم لمبادرتهم إلى الطاعة وأما من عداهم من أهل البلد فيؤمنهم في أنفسهم وأهلهم ويقاسمهم على أموالهم وأملاكهم نصفين وأن يخرج صاحب البلد هو وأهله فاستقر ذلك وتسلم البلد وأرسل إليه من يمنع العسكر من الدخول وأرسل أمناه ليقاسموا الناس على أموالهم وأقام عليها ثلاثة أيام وعرض الإسلام على من بها من اليهود والنصارى فمن أسلم سلم ومن امتنع قتل وأقام أهل تونس بها بأجرة تؤخذ عن نصف مساكنهم وصار عبدالمؤمن منها إلى المهديّة والأسطول يحاديه في البحر فوصل إليها ثامن عشر رجب وكان حينئذ بالمهديّة أولاد ملوك الفرنج وأبطال الفرسان وقد أخلوا زويلة وبينها وبين المهديّة غاية سهم فدخل عبدالمؤمن من زويلة وامتلت بالعساكر والسوقة فصارت مدينة معمورة في ساعة ومن لم يكن له موضع من العسكر نزل بظاهرها وانضاف إليه من صنهاجة والعرب وأهل البلاد ما يخرج عن الإحصاء وأقبلوا يقاتلون المهديّة مدة أيام فلا يؤثر فيها لحصانتها وقوة سورها وضيق موضع القتال عليها لأن البحر دائر بأكثرها فكأنها كف في البحر وزندها متصل بالبر وكانت الفرنج تخرج شجعانهم إلى أطراف العسكر فتال منه ويعودون سريرا فأمر عبدالمؤمن أن يبنى

سور من غرب المدينة يمنعهم من الخروج واحاط الاسطول بها في البحر وركب عبدالمؤمن في شينى ومعه الحسن بن على الذى كان صاحبها وطاف بها في البحر فهاله مارأى من حصانتها وعلم أنها لا تفتح بقتال برأ ولا بحرا وليس لها إلا المطاولة وقال للحسن كيف نزلت عن مثل هذا الحصن فقال لقله من يوثق به وعدم القوات وحكم القدر فقال صدقت وعاد من البحر وأمر بجمع الغلات والآقوات وترك القتال فلم يمض غير قليل حتى صار في العسكر كالجبلين من الخنطة والشعير فكان من يصل إلى العسكر من بعيد يقولون متى حدثت هذه الجبال فيقال لهم هى حنطه وشعير فيتعجبون من ذلك وتمادى الحصار وفي مدته أطاع سفاقن عبدالمؤمن ومدينة طرابلس وجبال نفوسة وقصور أفريقية وما والاها وفتح مدينة قابس بالسيف وسير ابنه أبا محمد عبدالله في جيش ففتح بلادا ثم إن أهل مدينة قفصة لما رأوا تمكن عبدالمؤمن أجمعوا على المبادرة إلى طاعته وتسليم المدينة إليه فتوجه صاحبها يحيى بن تميم بن المعز ومعه جماعة من أعيانها وقصدوا عبدالمؤمن فلما أعلمه حاجبه بهم قال له عبدالمؤمن قد اشتبه عليك ليس هؤلاء أهل قفصة فقال له لم يشتبه على قال له عبدالمؤمن كيف يكون ذلك والمهدى يقول إن أصحابنا يقطعون اشجارها ويهدمون أسوارها ومع هذا فتقبل منهم وتكف عنهم (لبقضى الله أمرا كان مفعولا) فأرسل إليهم طائفة من أصحابه وهدحه شاعر منهم بقصيدة أولها :

ماهر عطيه بين البيض والأسل • مثل الخليفة عبدالمؤمن بن على

فوصله بألف دينار ولما كان فى الثانى والعشرين من شعبان من السنة جاء أسطول صاحب صقلية فى مائة وخمسين شينيا غير الطرائد وكان قد وفد من جزيرة يابسة من بلاد الأندلس وقد سبى أهلها وأسرم وحملهم معه فأرسل إليهم ملك الفرنج بأمرهم بالمجيء إلى المهدي فقدموا فى التاريخ فلما قاربوا المهدي حطوا شرعهم ليدخلوا المبنى فخرج إليهم أسطول عبدالمؤمن وركب العسكر جميعه وواقفوا على جانب البحر فاستعظم الفرنج مارأوه من كثرة العساكر ودخل الرعب قلوبهم وبقى عبدالمؤمن يمرغ وجهه على الأرض ويبكى ويدعو للمسلمين بالنصر واقتلوا فى البحر فانهزمت شوانى الفرنج وأعادوا القلوع وتبعهم المسلمون فأخذوا منهم سبع شوانى ولو كان معهم شوانى لأخذوا أكثرهم وكان أمرا مجيا وفتحوا قريبا وعاد أسطول المسلمين مظفرا منصورا وفرق فيهم عبدالمؤمن الأموال وينس أهل المهدي حينئذ من النجدة وصبروا على الحصار ستة أشهر إلى آخر شهر ذى الحجة من السنة فنزل حينئذ من فرسان الفرنج إلى عبدالمؤمن عشرة وسألوا الأمان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها ويعودوا إلى بلادهم وكان قوتهم قد نفى حتى أكلوا الخيل فعرض عليهم الإسلام ودعاهم إليه فلم يجيبوا ولم يزالوا يترددون إليه أياما بالكلام اللين فأجابهم إلى ذلك وأمنهم وأعطاهم سفنا فركبوا فيها وساروا وكان الزمان شتاء ففرق أكثرهم ولم يصل منهم إلى صقلية إلا النفر اليسير وكان صاحب صقلية قد قال إن قتل عبدالمؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين هم بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم فأهلك الله الفرنج غرقا وكان مدة ملكهم المهدي اثنتى عشرة سنة ودخل عبدالمؤمن المهدي بكرة عاشوراء من المحرم سنة خمس وخمسين وخمسمائة وسماها عبدالمؤمن سنة الأخماس وأقام بالمهدية عشرين يوما فرتب أحوالها وأصلح ما انثلم من سورها ونقل إليها الذخائر من الآقوات والرجال والعدد واستعمل عليها بعض أصحابه وجعل معه الحسن بن على الذى كان صاحبها وأمره أن يقتدى برأيه فى أفعاله وأقطع الحسن بها أقطعا وأعطاه دورا نفيسة يسكنها وكذلك فعل بأولاده ورحل من المهدي أول

صفر من السنة إلى بلاد الغرب .

(ذكر إيقاع عبدالمؤمن بالعرب) لما فرغ عبدالمؤمن من أمر المهديّة وأراد العود إلى الغرب جمع أمراء العرب من بني رباح الذين كانوا بأفريقية وقال لهم قد وجبت علينا نصرّة الإسلام فإن المشركين قد استفحل أمرهم بالأندلس واستولوا على كثير من البلاد التي كانت بأيدي المسلمين وما يقاتلهم أحد مثلكم فبكم فتحت البلاد أول الإسلام وبكم يدفع عنها العدو الآن ونريد منكم عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والشجاعة يجاهدون في سبيل الله فأجابوا بالسمع والطاعة فحلفهم على ذلك بالله تعالى وبالمصحف فحلفوا ومشوا معه إلى مضيق جبل زغوان وكان منهم إنسان يقال له يوسف بن مالك وهو من أمراءهم ورؤس القبائل فيهم فجاء إلى عبدالمؤمن بالليل وقال له سرا إن العرب قد كرهت المسير إلى الأندلس وقالوا ما غرضه إلا إخراجنا من بلادنا وأنهم لا يفون بما حلفوا عليه فقال ياخذ الله عز وجل الغادر فلما كان الليلة الثانية هربوا إلى عشارهم ودخلوا البر ولم يبق منهم إلا يوسف بن مالك فسماه عبدالمؤمن يوسف الصادق ولم يحدث عبدالمؤمن في أمرهم شيئا وسار مغربا بحث السير حتى قرب من القسطنطينية فنزل في موضع مخصب يقال له وادي النساء والفصل ربيع والكلأ مستحسن فأقام به وضبط الطرق فلا يسير من العسكر أحد البتة ودام كذلك عشرين يوما فبقى الناس في جميع البلاد لا يعرفون لهذا العسكر خبرا مع كثرة وعظمه ويقولون ما أزعجه إلا خبر وصله من الأندلس فحث لأجله في السير فعادت العرب الذين جفلوا منه من البرية إلى البلاد لما أمنوا جانبه وسكنوا البلاد التي ألفوها واستقروا في البلاد فلما علم عبدالمؤمن برجوعهم جهز إليهم ولديه أبا محمد وأبا عبدالله في ثلاثين ألف مقاتل من أعيان الموحدين وشجعانهم فجدوا السير وقطعوا المفاوز فما شعر العرب إلا والجيش قد أقبل بغتة من ورائهم من جهة الصحراء لينعموهم الدخول إليها إن راموا ذلك وكانوا قد نزلوا جنوبا من القيروان عند جبل يقال له جبل القرن وهم زهاء ثمانين ألف بيت والمشاهير من مقدمهم أبو محفوظ محرز بن زياد ومسعود بن زمام البلاط وجبارة بن كامل وغيرهم فلما أطلت عساكر عبدالمؤمن عليهم اضطربوا واختلفت كلمتهم ففر مسعود وجبارة بن كامل ومن معهما من عشارهما وثبت محرز بن زياد وأمرهم بالثبات والقتال فلم يلتفتوا إليه فثبت هو ومن معه من جمهور العرب فناجزهم الموحدون القتال في العشر الأوسط من ربيع الآخر من السنة وثبت الجمعان واشتد العراك فاتفق أن محرز بن زياد قتل ورفع رأسه على ربح فانهزمت جموع العرب عند ذلك وأسلموا البيوت والحريم والأولاد والأموال وحمل جميع ذلك إلى عبدالمؤمن وهو بذلك المنزل فأمر بحفظ النساء العربيات الصرائح وحملهنّ معه تحت الحفظ والبر والصيانة إلى بلاد الغرب وفعل معهن مثل ما فعل في حريم الأبيح ثم أقبلت إليه وغود رباح مهاجرين في طلب حريمهم كما فعل الأبيح فأجل الصنيع لهم ورد الحريم إليهم فلم يبق منهم أحد إلا صار عنده وتحت حكمه وهو يخفض لهم الجناح ويبذل فيهم الإحسان ثم إنه جهزهم إلى ثغور الأندلس على الشرط الأول وجمعت عظام العرب المقتولين في هذه المعركة عند جبل قرن فيقيت دهرًا طويلا كالتل العظيم يلوح للناظرين من مكان بعيد وبقيت أفريقية مع نواب عبدالمؤمن آمنة ساكنة لم يبق فيها من أمراء العرب خارج عن طاعته إلا مسعود البلاط بن زمام وطائفته في أطراف البلاد .

(ذكر غرق بغداد) في هذه السنة ثمان ربيع الآخر كثرت الزيادة في دجلة وخرق القورج فوق بغداد

(٩ - كامل - ٩)

وأقبل المد إلى البلد فامتلات الصحارى وخندق البلد وأفسد الماء السور ففتح فيه فتحة يوم السبت تاسع عشر الشهر فوقع بعض السور عليها فسدتها ثم فتح الماء فتحة أخرى وأهملوها ظنا أنها تنفس عن السور لتلايقع فغلب الماء وتعذر سده فغرق قراح طغر والأجمة والمختارة والمقتدية ودرب القبار وخرابة ابن جردة والرياني وقراح القاضي وبعض القطيعة وبعض باب الأزج وبعض المأمونية وقراح أبي الشحم وبعض قراح ابن رزين وبعض الظفرية ودب الماء تحت الأرض إلى أما كن فوقعت وأخذ الناس يعبرون إلى الجانب الغربي فبلغت المعبرة عدة دنانير ولم يكن يقدر عليها ثم نقص الماء وتهدم السور وبقي الماء الذى داخل السور عليها ثم نقص الماء وتهدم السور وبقي الماء الذى داخل السور يدب في المحال التي لم يركبها الماء فكثير الخراب وبقيت المحال لا تعرف وإنما تولى فأخذ الناس حدود دورهم بالتخمين وأما الجانب الغربي فغرقت فيه مقبرة أحمد بن حنبل وغيرها من المقابر وانخسفت القبور المبينة وخرج الموتى على رأس الماء وكذلك المشهد والحريية وكان أمرا عظيما.

(ذكر عود سنقر الهمذاني إلى اللحف وانهمزاه) في هذه السنة عاد سنقر الهمذاني إلى أقطاعه وهو قلعة الماهكى وبلد اللحف وكان الخليفة قد أقطعه للأمير قايماز العميدى ومعه أربعائة فارس فأرسل اليه سنقر يقول له ارحل عن بلدى فامتنع فسار اليه وجرى بينهما قتال شديد انهزم فيه العميدى ورجع إلى بغداد بأشوا حال فبرز الخليفة وسار في عساكره إلى سنقر فوصل إلى النعمانية وسير العساكر مع ترشك ورجع إلى بغداد ومضى ترشك نحو سنقر الهمذاني فتوغل سنقر في الجبال هاربا ونهب ترشك ما وجد له ولعسكره من مال وسلاح وغير ذلك وأمر وزيره بقتل من رأى من أصحابه ونزل على الماهكى وحصرها أياما ثم عاد إلى البندنجين وأرسل إلى بغداد بالبشارة وأما سنقر فإنه لجق بملكشاه فاستنجده فسير معه خمسمائة فارس فعاد ونزل على قلعة هناك وأفسد أصحابه في البلاد وأرسل ترشك إلى بغداد يطلب نجدة فجاءته فأراد سنقر أن يكبس ترشك فعرف ذلك فاحترز فعدل سنقر إلى المخادعة فأرسل رسولا إلى ترشك يطلب منه أن يصلح حاله مع الخليفة فاحتبس ترشك الرسول عنده وركب فيمن خف من أصحابه فكبس سنقر ليلا فانهزم هو وأصحابه وكثر القتل فيهم وغنم ترشك أموالهم ودوابهم وكل ما لهم ونجا سنقر جريما.

(ذكر الفتنة بين عامة استراباذ) في هذه السنة وقع في استراباذ فتنة عظيمة بين العلويين ومن يتبعهم من الشيعة وبين الشافعية ومن معهم وكان سببها أن الإمام محمد البروى وصل إلى استراباذ فعقد مجلس الوعظ وكان قاضيا أبو نصر سعد بن محمد بن اسمعيل النعيم شافعي المذهب أيضا فثار العلويون ومن يتبعهم من الشيعة بالشافعية ومن يتبعهم باستراباذ ووقعت بين الطائفتين فتنة عظيمة انتصر فيها العلويون فقتل من الشافعية جماعة وهرب القاضي ونهبت داره ودور من معه وجرى عليهم من الأمور الشنيعة ما لا حد عليه فسمع شاه مازندران الخبر فاستعظمه وأنكر على العلويين فعلهم وبالغ في الإنكار مع أنه شديد التشيع وقطع عنهم جريات كانت لهم ووضع الجبايات والمصادرات على العامة فتفرق كثير منهم وعاد القاضي إلى منصبه وسكنت الفتنة.

(ذكر وفاة الملك محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه) في هذه السنة توفي السلطان محمد بن محمود بن محمد وهو الذى حاصر بغداد طالبا السلطنة وجماد عنها فأصابه سل وطال به فمات بباب همذان وكان مولده في ربيع الاخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فلما حضر الموت أمر العساكر فركبت وأحضر أمواله وجواهره

وحظاياه ومماليكه فنظر إلى الجميع من طيارة تشرف على ماتحتها فلما رآه بكى وقال لهذه العساكر والاموال والممالك والسراري ما أرى يدفعون عنى مقدار ذرة ولا يزيدون في أجلى لحظة وأمر بالجميع فرفع بعد أن فرق منه شيئا كثيرا وكان عظيمًا كريمًا عاقلا كثير التأنى في أموره وكان له ولد صغير فسلمه إلى آقسنقر الأحديلي وقال له أنا أعلم أن الناس لا تطيع مثل هذا الطفل وهو وديعة عندك فارحل به إلى بلادك فرحل إلى مراغة فلما مات اختلفت الأمراء فطائفة طلبوا ملكشاه أخاه وطائفة طلبوا سليمان شاه وهم الأكثر وطائفة طلبوا أرسلان الذي مع أيلدكز فأما ملكشاه فإنه سار من خوزستان ومعه دكلا صاحب فارس وشملة التركاني وغيرهما فوصل إلى أصفهان فسلمها إليه ابن الخجندی وجمع له مالا أنفق عليه وأرسل إلى العصاكر بهمدان يدعوهم إلى طاعته فلم يجيبوه لعدم الاتفاق بينهم ولأن أكثرهم كان يريد سليمان شاه .

(ذكر أخذ حران من نور الدين وعودها إليه) في هذه السنة مرض نور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب مرضا شديداً أرجف بموته وكان بقلعة حلب ومعه أخوه الأصغر أميران فجمع الناس وحصر القلعة وكان شيركوه وهو أكبر أمراءه بمحص فبلغه خبر موته فسار إلى دمشق ليتغلب عليها وبها أخوه نجم الدين أيوب فأنكر عليه أيوب ذلك وقال أهلكتنا والمصلحة أن تعود إلى حلب فإن كان نور الدين حيا خدمته في هذا الوقت وإن كان قد مات فأنا في دمشق نفعل ما نريد من ملكها فعاد إلى حلب مجداً وصعد القلعة وأجلس نور الدين في شباك يراه الناس وكلهم فلما رأوه حيا تفرقوا عن أخيه أميران فسار إلى حران فملكها فلما عرف في نور الدين قصد حرار ليخلصها فهرب أخوه منه وترك أولاده بحران في القلعة فملكها نور الدين وسلمها إلى زين الدين على نائب أخيه قطب الدين صاحب الموصل ثم سار نور الدين بعد أخذ حران إلى الرقة وبها أولاد أميرك الجاندار وهو من أعيان الأمراء وقد توفى وبقي أولاده فنازلها فشفع جماعة من الأمراء فيهم فغضب من ذلك وقال هلا شفعتهم في أولاد أخي لما أخذت منهم حران وكانت الشفاعة فيهم من أحب الأشياء إلى فلم يشفعهم وأخذها منهم .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة مرض الخليفة المقتدى لأمر الله واشتد مرضه وعوفي فضربت البشائر ببغداد وفرقت الصدقات من الخليفة ومن أرباب الدولة وغلق البلد أسبوعاً وفي أعاد ترشك إلى بغداد ولم يشعر به أحد إلا وقد ألقى نفسه تحت التاج ومعه سيف وكفن وكان قد عصى على الخليفة والتحق بالعجم فعاد الآن فرضى عنه وأذن له في دخول دار الخلافة وأعطى مالا . وفيها في جمادى الأولى أرسل محمد بن أنز صاحب قوستان عسكر إلى بلد الإسماعيلية من الجبال فقتلوا كثيراً من العسكر وأسروا الأمير الذي كان مقدما عليهم اسمه قبية وهو صهر ابن أنز فبقى عندهم أسيراً عدة شهور حتى زوج ابنته من رئيس الإسماعيلية على بن الحسن وخلص من الأسر . وفيها توفى شرف الدين علي بن أبي القاسم منصور بن أبي سعد الساعدي قاضي نيسابور في شهر رمضان وكان موته بالري ودفن في مقبرة محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة رضي الله عنهما وكان القاضي حنفيًا أيضاً . (١)

(١) وفيها توفى أحمد بن معالي بن بركة الحرابي ، تفقه بأبي الخطاب الكلوزاني الحنبل ، وبرع وناظر ودرس وأقنى ، ثم صار بعد ذلك شافعيًا ، ثم عاد حنبلية ووعظ ببغداد وتوفى في هذه السنة ، وذلك أنه دخلت به راحلته في مكان ضيق فدخل قبر بوس سرجه في صدره فمات .

(ثم دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة)

(ذكر مسير سليمان شاه إلى همدان) في هذه السنة سار سليمان شاه من الموصل إلى همدان ليتولى السلطنة وقد تقدم سبب قبضه وأخذه إلى الموصل وسبب مسيره إليها أن الملك محمد بن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه لما مات أرسل أكبر الأمراء من همدان إلى أنابك قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل يطلبون منه إرسال الملك سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملكشاه إليهم ليولوه السلطنة فاستقرت القاعدة بينهم أن يكون سليمان شاه سلطانا وقطب الدين أنابك وجمال الدين وزير قطب الدين وزيراً لسليمان شاه وتحالفوا على هذا وجهز سليمان شاه بالأموال الكثيرة والبرك والدواب والآلات وغير ذلك مما يصلح للسلطين وسار معه زين الدين علي وعسكر الموصل إلى همدان فلما قاربوا بلاد الجبل أقبلت العساكر إليهم أرسلوا كل يوم يلقاه طائفة وأمير فاجتمع مع سليمان شاه عسكر نخافهم زين الدين علي نفسه لأنه رأى من تسلطهم على السلطان واطراحهم للأدب معه ما أوجب الخوف معه فعاد إلى الموصل فحين عاد عنه لم ينتظم أمره ولم يتم له ما أرادته وقبض العسكر عليه بباب همدان في شوال سنة ست وخمسين وخطبوا لأرسلان شاه بن الملك طغرل وهو الذي زوج أيلدكز بأمه وسيدكر مشروحا إن شاء الله تعالى .

(ذكر وفاة الفائز وولاية العاضد العلويين) في هذه السنة توفي الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن اسماعيل الظافر صاحب مصر وكانت خلافته ست سنين ونحو شهرين وكان له لما ولي خمس سنين كما ذكرناه . ولما مات دخل الصالح بن رزيق القصر واستدعى خادما كبيرا وقال له من ههنا يصلح للخلافة فقال ههنا جماعة وذكر أسماءهم وذكر له منهم إنسانا كبير السن فأمر بإحضاره فقال له بعض أصحابه سرا لا يكون عباس أحزم منك حيث اختار الصغير وترك الكبير واستبد بالامر فأعاد الصالح الرجل إلى موضعه وأمر حينئذ بإحضار العاضد لدين الله أبي محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ ولم يكن أبوه خليفة وكان العاضد ذلك الوقت مراهقا قارب البلوغ فبايع له بالخلافة وزوجه الصالح ابنته ونقل معها من الجهاز ما لا يسمع بمثله وعاشت بعد موت العاضد وخروج الأمر من العلويين إلى الأتراك وتزوجت .

(ذكر وفاة الخليفة المقتنى لأمر الله وشيء من سيرته) وفي هذه السنة ثاني ربيع الأول توفي أمير المؤمنين المقتنى لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله أبي العباس أحمد بن المقتدى بأمر الله رضي الله عنه بعلة التراقي وكان مولده ثاني عشر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وأربعمائة وأمه أم ولد تدعى ياعى وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يوما ووافق أباه المستظهر بالله في علة التراقي وماتا جميعا في ربيع الأول وكان حليما كريما عادلا حسن السيرة من الرجال ذوى الرأي والعقل الكثير وهو أول من استبد بالعراق منفردا عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم إلى الآن وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره وأصحابه من حين تحكم المالك على الخلفاء من عهد المستنصر إلى الآن إلا أن يكون المعتضد وكان شجاعا مقداما مباشرا للحروب بنفسه وكان يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار في جميع البلاد حتى كان لا يفوته منها شيء .

(ذكر خلافة المستنجد بالله) وفي هذه السنة بويح المستنجد بالله أمير المؤمنين واسمه يوسف وأمه أم ولد تدهى طاوس بعد موت والده ، وكان للمقتنى حظية وهى أم ولده أبي علي فلما اشتد مرض المقتنى وأيست منه

أرسلت إلى جماعة من الأمراء وبذلت لهم الإقطاعات الكثيرة والأموال الجزيلة ليساعدوها على أن يكون ولدها الأمير أبو علي خليفة فقالوا كيف الحيلة مع ولي العهد ، فقالت إذا دخل علي والده قبضت عليه وكان يدخل إلى أبيه كل يوم فقالوا لا بد لنا من أحد من أرباب الدولة فوق اختيارهم علي أبي المعالي ابن الكيا الهراسي فدعوه إلى ذلك فأجابهم علي أن يكون وزيراً فبذلوا له ما طلب فلما استقرت القاعدة بينهم وعلمت أم أبي علي أحضرت عدة من الجوارى وأعطتهن السكاكين وأمرتهن بقتل ولي العهد المستنجد بالله وكان له خصى صغير يرسله كل وقت يتعرف أخبار والده فرأى الجوارى بأيديهن السكاكين ورأى بيد أبي علي وأمه سيفين فعاد إلى المستنجد وأخبره وأرسلته هي إلى المستنجد تقول له إن والده قد حضره الموت ليحضر ويشاهده فاستدعى أستاذ دار عند الدولة وأخذته معه وجماعة من الفراشين ودخل الدار وقلبس الدرع وأخذ بيده السيف فلما دخل ثار به الجوارى فضرب واحدة منهن فخرحها وكذلك أخرى وصاح ودخل أستاذ الدار ومعه الفراشون فهرب الجوارى وأخذ أخاه أبا علي وأمه فسجنهما وأخذ الجوارى فقتل منهن وغرق منهن ودفن الله عنه فلما توفي المقتني لأمر الله جلس للبيعة فبايعه أهله وأقاربه وأولم عمه أبو طالب ثم أخوه أبو جعفر بن المقتني وكان أكبر من المستنجد ثم بايعه الوزير بن هبيرة وقاضي القضاة وأرباب الدولة والعلماء وخطب له يوم الجمعة ونثرت الدنانير والدرهم (حكى عنه) الوزير عون الدين بن هبيرة أنه قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام منذ خمس عشرة سنة وقال لي يبق أبوك في الخلافة خمس عشرة سنة فكان كما قال صلى الله عليه وسلم قال ثم رأيت قبل موت أبي المقتني بأربعة أشهر فدخل بي في باب كبير ثم ارتقى إلى رأس جبل وصلى بي ركعتين ثم ألبسني قميصاً ثم قال لي قل (اللهم اهدني فيمن هديت) وذكر دعاء القنوت ولما ولي الخلافة أقر ابن هبيرة على وزارته وأصحاب الولايات على ولاياتهم وأزال المكوس والضرائب وقبض على القاضي ابن المرخم وكان بنس الحاكم وأخذ منه مالا كثيراً وأخذت كتبه فأحرق منها في الرحبة ما كان من علوم الفلاسفة فكان منها كتاب الشفاء لابن سينا وكتاب إخوان الصفا وما يشاكلهما وقدم عضد الدين بن رئيس الرؤساء وكان أستاذ الدار ومكنه وتقدم إلى الوزير أن يقوم له وعزل قاضي القضاة أبا الحسن علي بن أحمد الدامغانى ورتب مكانه أبا جعفر عبد الواحد الثقفي وخلع عليه .

(ذكر الحرب بين عسكر خوارزمشاه والأتراك البرزية) في هذه السنة في ربيع الأول سار طائفة من عسكر خوارزمشاه إلى أجنه وهجموا على يغمرخان بن أودك ومن معه من الأتراك البرزية فأوقعوا بهم وأكثروا القتل فانهم يغمرخان وقصد السلطان محمود بن محمد الخان والأتراك الغزية الذين معه وتوسل إليهم بالقرابة وظن يغمرخان أن اختيار الدين إيثاق هو الذي هيج الخوارزمية عليه فطلب من الغز إنجازاه .

(ذكر أحوال المؤيد بخراسان هذه السنة) قد ذكرنا سنة ثلاث وخمسين عود المؤيد أي أبه إلى نيسابور وتمكنه منها وأن ذلك كان سنة أربع وخمسين وخمسة وأربعين رأى المؤيد تحمكه في نيسابور وتمكنه في دولته وكثرة جنده وعسكره أحسن السيرة في الرعية لاسيما أهل نيسابور فإنه جبرهم وبالغ في الإحسان إليهم وشرع في إصلاح أعمالها وإصلاح ولاياتها فسير طائفة من عسكره إلى ناحية اسقيل وكان بها جمع قد تمردوا وأكثروا العبث والفساد في البلاد وطال تماديهم في طغيانهم فأرسل إليهم المؤيد يدعوهم إلى ترك الشر والفساد ومعاودة الطاعة والإصلاح فلم يقبلوا ولم يرجعوا عما هم عليه فسير إليهم سرية كثيرة فقاتلهم وأذاقوهم عاقبة ما صنعوا فأكثروا القتل فيهم وخرّبوا حصنهم وسار المؤيد من نيسابور إلى بهق فوصلها رابع عشر ربيع الآخر من السنة وقصد

منها حصن خسروجرد وهو حصن منيع بناه كينخسرو الملك قبل فراغه من قتل أفراسياب وفيه رجال شجعان فامتنعوا على المؤيد فحصرهم ونصب عليهم المجانيق وجدّ في القتال فصر أهل الحصن حتى نفذ صبرهم ثم ملك المؤيد القلعة وأخرج كل من فيها ورتب فيها من يحفظها وعاد منها إلى نيسابور في الخامس والعشرين من جمادى الأولى من السنة ثم سار إلى هراة فلم يبلغ منها غرضا فعاد إلى نيسابور وقصد مدينة كندر وهي من أعمال طربيث وقد تغلب عليها رجل اسمه أحمد كان خربنده واجتمع معه جماعة من الزنود وقضاع الطريق والمفسدين فخرّبوا كثيرا من البلاد وقتلوا كثيرا من الخلق وغنموا من الأموال ما لا يحصى وعظمت المصيبة بهم على خراسان وزاد البلاد فقصدهم المؤيد فتحصنوا بالحصن الذي لهم فقتلوا أشد قتال ونصب عليهم العرادات والمنجنيقات فأذعن هذا الخربنده أحمد إلى طاهة المؤيد والانخراط في سلك أصحابه وأشياعه فقبله أحسن قبول وأحسن إليه وأنعم عليه ثم إنه عصى على المؤيد وتحصن بحصنه فأخذ المؤيد منه قهرا وغنوة وقيدته واحتاط عليه ثم قتله وأراح المسلمين منه ومن شره وفساده وقصد المؤيد في شهر رمضان ناحية يهق عازما على قتالهم لخروجهم عن طاعته فلما قاربها أتاه زاهد من أهلها ودعاه إلى العفو عنهم والحلم عن ذنوبهم ووعظه وذكره فأجاب إلى ذلك ورحل عنهم فأرسل السلطان محمود بن محمد الخان وهو مع الغزالي المؤيد بتقرير نيسابور وطوس وأعمالها عليه ورد الحكم فيها إليه فعاد إلى نيسابور رابع ذى القعدة من السنة ففرح الناس بما تقرر بينه وبين الملك محمود وبين الغز من إبقاء نيسابور عليه ليزول الخلف والفتن عن الناس.

(ذكر الحرب بين شاه مازندران ويغمر خان) لما قصد يغمر خان الغز وتوسل اليهم لينصروه على إيثاق لظنه أنه هو الذي حسن للخوارزمية قصده فأجابوه إلى ذلك وساروا معه على طريق نسا وأيوردو وصلوا إلى الأمير إيثاق فلم يجد لنفسه بهم قوة فاستنجد شاه مازندران فجاءه ومعه من الأكراد والديلم والأتراك والتركمان الذين يسكنون نواحي أيسكون جمع كثير فاقتتلوا ودامت الحرب بينهم وانهمز الأتراك الغزية والبرزية من شاه مازندران خمس مرات ويعودون وكان على ميمنة شاه مازندران الأمير إيثاق فحملت الأتراك الغزية عليه لما أيسوا من الظفر بقلب شاه مازندران فانهمز إيثاق وتبعه باقي العسكر ووصل شاه مازندران إلى سارية وقتل من عسكره أكثرهم. وحكى أن بعض التجار كفن ودفن من هؤلاء القتلى سبعة آلاف رجل وأما إيثاق فإنه قصد في هربه خوارزم وأقام بها وسار الغز من المعركة إلى دهستان وكان الحرب قريبا منها فنقبوا سورها وأوقعوا بأهلها ونهبهم أوائل سنة ست وخمسين وخمسمائة بعد أن خربوا جرجان وفرقوا أهلها في البلاد وعادوا إلى خراسان.

(ذكر وفاة خسرو شاه صاحب غزنة وملك ابنه بعده) في هذه السنة في رجب توفي السلطان خسرو شاه ابن بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة وكان عادلا حسن السيرة في رعيته محبا للخير وأهله مقربا للعلماء محسنا اليهم راجعا إلى قولهم وكان ملكه تسع سنين وملك بعده ابنه ملك شاه فلما نزل علاء الدين الحسين ملك الغور إلى غزنة لحصرها وكان الشتاء شديدا والثلج كثيرا فلم يتمكنه المقام عليها فعاد إلى بلاده في صفر سنة ست وخمسين.

(ذكر الحرب بين إيثاق وبغراتكين) في هذه السنة منتصف شعبان كان بين الأمير إيثاق والأمير بغراتكين برغش الجركاني حرب وكان إيثاق قد سار إلى بغراتكين في آخر أعمال جوين قهب وأخذ أمواله وكل ماله

وكان ذا نعمة عظيمة وأموال جسيمة فانهزم بغراتكين عنها وخلهاها فافتتحها إيثاق واستغنى بها وقويت نفسه بسببها وكثرت جموعه وقصده الناس وأما بغراتكين فإنه أرسل إلى المؤيد صاحب نيسابور وسار في جلته ومعدودا من أصحابه فتلقاه المؤيد بالقبول .

(ذكر وفاة ملكشاه بن محمود) في هذه السنة توفي ملكشاه ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بأصفهان مسموما وكان سبب ذلك أنه لما كثر جمعه بأصفهان أرسل إلى بغداد وطلب أن يقطعوا خطبة عمه سليمان شاه ويخطبوا له ويمعدوا القواعد بالعراق إلى ما كانت أولا وإلا قصدتم فوضع الوزير عون الدين بن هبيرة خصيا كان خصيصا به يقال له أغلبك الكزهر ايبني فمضى إلى بلاد العجم واشترى جارية من قاضي همدان بألف دينار وباعها من ملكشاه ، وكان قد وضعها على سمه ووعدا أمورا عظيمة على ذلك وسمته في لحم مشوي فأصبح ميتا ، وجاء الطبيب إلى دكلا وشملة فعرفهما أنه مسموم فعرفوا أن ذلك من فعل الجارية فأخذت وضربت وأقرت وهرب أغلبك ووصل إلى بغداد ، ووفى له الوزير بجميع ما استقر الحال عليه ، ولما مات أخرج أهل أصفهان أصحابه من عندهم وخطبوا لسليمان شاه واستقر ملكه بتلك البلاد وعاد شملة إلى خوزستان فأخذ ما كان ملكشاه تغلب عليه منها .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة حج أسد الدين شيركوه بن شاذي مقدم جيوش نورالدين محمود بن زنكي صاحب الشام وشيركوه هذا هو الذي ملك الديار المصرية وسيرد ذكره إن شاء الله تعالى . وفيها أرسل زين الدين علي نائب قطب الدين صاحب الموصل رسولا إلى المستنجد يعتذر مما جناه من مساعدة محمد شاه في حصار بغداد ويطلب أن يؤذن له في الحج فأرسل إليه يوسف الدمشقي مدرس النظامية وسليمان بن قتلش يطيبان قلبه عن الخليفة ويعرفانه الإذن في الحج ، فحج ودخل إلى الخليفة فأكرمه وخلع عليه . وفيها توفي قايمآز الأرجواني أمير الحاج سقط عن الفرس وهو يلعب بالأكرة فسأل مخه من مناخيره وأذنيه فمات . وفيها في ربيع الآخر توفي محمد بن يحيى بن علي بن مسلم أبو عبدالله الزبيدي من أهل زبيد مدينة باليمن مشهورة وقدم بغداد سنة تسع وأربعين وخمسمائة وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وكان نحويا وأعظما وصحبه الوزير بن هبيرة مرة وكان موته ببغداد^(١)

(١) وفيها توفي الأمير مجاهد الدين نزار بن مامين الكردي ، أحد مقدمي جيش الشام ، قبل نور الدين وبعده ، وقد ناب في مدينة صرخد ، وكان شهما شجاعا كثير البر والصدقات ، وهو واقف المدرسة المجاهدية بالقرب من الغورية جوار الخيمين ، وله أيضا المدرسة المجاهدية داخل باب الفراديس البراني ، وبها قبره . وله السبع المجاهدي داخل باب الزيادة من الجامع بمقصورة الخضر ، توفي بداره في صفر منها ، فحمل إلى الجامع وصلى عليه ثم أعيد إلى مدرسته ودفن بها داخل باب الفراديس ، وتأسف الناس عليه . وفيها توفي الشيخ عدى بن مسافر بن إسماعيل ابن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان الهكاري ، شيخ الطائفة العدوية ، أصله من البقاع غربي دمشق ، من قرية بيت نار ، ثم دخل إلى بغداد فاجتمع فيها بالشيخ عبدالقادر والشيخ حماد الدباس ، والشيخ عقيل المنبجي ، وأبي الوفا الحلواني ، وأبي النجيب السهروردي وغيرهم ، ثم انفرد عن الناس وتخلى بجمل هكار وبني له هناك زاوية واعتقده أهل تلك الناحية اعتقاداً بليغا ، حتى أن منهم من يخلو غلوا كثيرا منكراً ومنهم من يجعله لها أوشريكا ، وهذا اعتقاد فاحش يؤدي إلى الخروج من الدين جملة . مات في هذه السنة بزاوية وله سبعون سنة رحمه الله

(تم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة)

(ذكر الفتنة ببغداد) في هذه السنة في ربيع الأول خرج الوزير بن هبيرة من داره إلى الديوان والغلمان يطرقون له وأرادوا يردون باب المدرسة الكالبية بدار الخليفة فمنعهم الفقهاء وضربوهم بالآجر فشهروا أصحاب الوزير السيوف وأرادوا ضربهم فمنعهم الوزير ومضى إلى الديوان فكتب الفقهاء مطالعة يشكون أصحاب الوزير فأمر الخليفة بضرب الفقهاء وتأديبهم ونفيهم من الدار فضى أستاذ الدار وعاقبهم هناك واختفى مدرستهم الشيخ أبو طالب ثم إن الوزير أعطى كل فقير ديناراً واستحل منهم وأعادهم إلى المدينة وظهر مدرستهم .

(ذكر قتل ترشك) في هذه الأيام قصد جمع من التركمان إلى البندنجين فأمر الخليفة بتجهيز عسكر إليهم وأن يكون مقدمهم ترشك وكان في أقطاعه بلد اللحف فأرسل إليه الخليفة يستدعيه فامتنع من المجيء إلى بغداد وقال يحضر العسكر فأنا أقاتل بهم وكان عازماً على الغدر فجهز العسكر وساروا إليه وفيهم جماعة من الأمراء فلما اجتمعوا بترشك قتلوه وأرسلوا رأسه إلى بغداد وكان قتل مملوكاً للخليفة فدعا أولياء المقتول وقيل لهم إن أمير المؤمنين قد اقتص لا ييكم من قتله .

(ذكر قتل سليمان شاه والخطبة لأرسلان) في هذه السنة في ربيع الآخر قتل السلطان سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملكشاه وسبب ذلك أنه كان فيه تهور وخرق وبلغ به شرب الخمر حتى أنه شربها في رمضان نهاراً وكان يجمع المساخر ولا يلتفت إلى الأمراء فأهمل العسكر أمره وصاروا لا يحضرون بابه وكان قد رد جميع الأمور إلى شرف الدين كردباز والخادم وهو من مشايخ الخدم السلجوقية يرجع إلى دين وعقل وحسن تدبير فكان الأمراء يشكون إليه وهو يسكنهم فاتفق أنه شرب يوماً بظاهر همدان في الكشك فحضر عنده كردبازو فلامه على فعله فأمر سليمان شاه من عنده من المساخرة فعبثوا بكردبازو حتى أن بعضهم كشف له سوائه فخرج مغضباً فلما صحا سليمان أرسل إليه يعتذر فقبل عذره إلا أنه تجنب الحضور عنده فكتب سليمان إلى إينانج صاحب الري يطلب منه أن ينجده على كردبازو فوصل الرسول وإينانج مريض فأعاد الجواب يقول إذا أفقت من مرضي حضرت إليك بعسكري فبلغ الخبر كردبازو فازداد استيحاشاً فأرسل إليه سليمان يوماً يطلبه فقال إذا جاء إينانج حضرت وأحضر الأمراء واستحلفهم على طاعته وكانوا كارهين لسليمان خلفوا له فأول ما همل أن قتل المساخرة الذين لسليمان وقال إنما أفعل ذلك للملك ثم اصطالحا . وعمل كردبازو دعوة عظيمة حضرها السلطان والأمراء فلما صار السلطان سليمان شاه في داره قبض عليه كردبازو وعلى وزيره ابن القاسم محمود بن عبدالعزيز الحامدي وعلى أصحابه في شوال سنة خمس وخمسين وخمسمائة فقتل وزيره وخواصه وحبس سليمان شاه في قلعة ثم أرسل إليه من خنقه وقيل بل حبسه في دار مجد الدين العلوي رئيس همدان . وفيها قتل وقيل بل سقى سما فأتوا الله أعلم . وأرسل إلى ايلدكز صاحب أرانية وأكثر بلاد أذربيجان يستدعيه إليه ليخطب للملك أرسلان شاه الذي معه وبلغ الخبر إلى إينانج صاحب الري فسار ينهب البلاد إلى أن وصل إلى همدان فتحصن كردبازو فطلب منه إينانج أن يعطيه مصافاً فقال أنا لا أحاربك حتى يصل الأتابك الأعظم إيلدكز وسار ايلدكز

وفيها توفي عبدالواحد بن أحمد بن محمد بن حمزة ، أبو جعفر الثقي ، قاضي قضاة بغداد ، ولها بعد أبي الحسن الدامغانى في أول هذه السنة ، وكان قاضياً بالنكوة قبل ذلك ، توفي في ذي الحجة منها وقد ناهز الثمانين ، وولى بعده ابنه جعفر ، والفائز صاحب مصر ، وقباز ،

في عساكره جميعها يزيد على عشرين ألف فارس ومعه أرسلان شاه بن طغرل ابن محمد بن ملكشاه فوصل إلى همدان فلقبهم كردبازو وأنزله دار المملكة وخطب لأرسلان شاه بالسلطنة بتلك البلاد وكان ايلدكز أتاكبه والبهلوان حاجبه وهو أخوه لأمه وكان ايلدكز هذا أحد مماليك السلطان مسعود وأمراة في أول أمره فلما ملك أقطمه أران وبعض أذربيجان واتفق الحروب والاختلاف فلم يحضر عند أحد من السلاطين السلجوقية وعظم شأنه وقوى أمره وتزوج بأم الملك أرسلان شاه فولدت له أولادا منهم بهلوان محمد وقزل أرسلان عثمان وقد ذكرنا سبب انتقال أرسلان شاه إليه وبقي عنده إلى الآن فلما خطب له بهمدان أرسل ايلدكز إلى بغداد يطلب الخطبة لأرسلان شاه أيضا وأن تعاد القواعد إلى ما كانت عليه أيام السلطان مسعود فأهين رسوله وأعيد إليه على أقبح حالة وأما اينانج صاحب الري فإن ايلدكز راسله ولاطمه فاصطاحا وتحالفا على الاتفاق وتزوج بهلوان بن ايلدكز بابنة اينانج ونقلت إليه بهمدان .

(ذكر الحرب بين ابن آقسنقر وعسكر ايلدكز) لما استقر الصلح بين ايلدكز واينانج أرسل إلى ابن آقسنقر الأحمد بلي صاحب مراغة يدعو إلى الحضور في خدمة السلطان أرسلان شاه فامتنع من ذلك وقال إن كفتم عنى وإلا فعندى سلطان وكان عنده ولد محمد شاه بن محمود كما ذكرناه وكان الوزير ابن هبيرة قد كاتبه بطمعه في الخطبة لولد محمود شاه فجهز ايلدكز عسكرا مع ولده بهلوان فبلغ الخبر إلى ابن آقسنقر فأرسل إلى شاه أرمن صاحب خلاط وحالفه وصارا يدا واحدة فسير إليه أرمن عسكرا كثيرا واعتذر عن تأخره بنفسه لأنه في ثغر لا يمكنه مفارقه فقوى بهم ابن آقسنقر وكثر جمعه وسار نحو بهلوان فالتقيا على نهر اسيرود فاشتد القتال بينهم فانهزم بهلوان أقبح هزيمة ووصل هو وعسكره إلى همدان على أقبح صورة واستأمن أكثر أصحابه إلى ابن آقسنقر وعاد إلى بلده منصورا .

(ذكر الحرب بين ايلدكز واينانج) لما مات ملكشاه بن السلطان محمود كما ذكرناه أخذ طائفة من أصحابه ابنه محمودا وانصرفوا به نحو بلاد فارس فخرج عليهم صاحبها زنكي بن دكلا السلفرى فأخذه منهم وتركه في قلعة اصطخر فلما ملك ايلدكز والسلطان أرسلان شاه الذي معه البلاد وأرسل ايلدكز إلى بغداد يطلب الخطبة للسلطان كما ذكرناه شرع الوزير عون الدين أبوالمظفر يحيى بن هبيرة وزير الخليفة في إثارة أصحاب الأطراف عليه وراسل الأحمد بلي وكان ما ذكرناه وكاتب زنكي بن دكلا صاحب بلاد فارس يبذل له أن يخطب للملك الذي عنده وهو ابن ملكشاه وعلق الخطبة له بظفره بايلدكز فخطب ابن دكلا للملك الذي عنده وأنزله من القلعة وضرب الطبل على بابه خمس نوب وجمع عساكره وكاتب اينانج صاحب الري يطلب منه الموافقة وسمع ايلدكز الخبر فحشد وجمع وكثر عسكره وجموعه فكانت أربعين ألفا وسار إلى أصفهان يريد بلاد فارس وأرسل إلى زنكي بن دكلا يطلب منه الموافقة وإن يعود يخطب لأرسلان شاه فلم يفعل وقال إن الخليفة قد أقطعني بلاده وأنا سائر إليه فرحل ايلدكز وبلغه أن جيشا لأرسلان بوقا وهو أمير من أمراء زنكي وفي إقطاعه أرجان بالقرب منه فأنفذ سرية للغارة عليه فاتفق أن أرسلان بوقا على تغيير الخيل التي معه فأضعفها وأخذ عوضها من ذلك الجيش فصار في عسكره إلى الجيش فصادف العسكر الذي سيره ايلدكز لأخذ دوابه فقاتلهم وأخذهم وقتلهم وأرسل الرأس إلى صاحبه فكتب بذلك إلى بغداد وطلب المدد فوعد بذلك وكان الوزير عون الدين بن هبيرة أيضا قد كاتب الأمراء الذين مع ايلدكز يوبخهم على

(١٠ - كامل - ٩)

طاعته ويضعف رأيهم ويحرضهم على مساعدة زنكي بن دكلا واينانج . وكان اينانج قدبرز زمن الري في عشرة آلاف فارس فأرسل إليه ابن آقسنقر الاحمديلى خمسة آلاف فارس وهرب ابن البازدار صاحب قزوين وابن طغريك وغيرهما فلحقوا باينانج وهو في صحراء ساوة وأما ايلدكز فإنه استشار نصحاءه فأشاروا بقصد اينانج لأنه أم فرحل إليه ونهب زنكي سهيرم وغيرها فردّ ايلدكز إليه أديرا في عشرة آلاف فارس لحفظ البلاد فسار زنكي إليهم فلقبهم وقتلهم فانهزم عسكر ايلدكز إليه فتجلد ايلدكز وأرسل يطلب عساكر أذربيجان فجاءته مع ولده قزل أرسلان وسير زنكي بن دكلا عسكرا كثيرا إلى اينانج واعتذر عن الحضور بنفسه عنده لحوفه على بلاده من شملة صاحب خوزستان فسار ايلدكز إلى اينانج وتدانى العسكران فالتقوا تاسع شعبان وجرى بينهم حرب عظيمة أجلت عن هزيمة اينانج فانهزم أقبح هزيمة وقتلت رجاله ونهبت أمواله ودخل الري وتحصن في قلعة طبرك وحصر ايلدكز الري ، تم الصلح واقترح اينانج اقتراحات فأجابه ايلدكز إليها وأعطاه جرماذقان وغيرها وعاد ايلدكز إلى همذان وكان ينبغي أن تتأخر هذه الحادثة والتي قبلها وإنما قدمت لتتبع أخواتها .

(ذكر وفاة ملك الغور وملك ابنه محمد) في هذه السنة في ربيع الآخر توفي الملك علاء الدين الحسين بن الحسين الغورى ملك الغور بعد انصرافه عن غزنة وكان عادلا من أحسن الملوك صيرة في رعيته ولما مات ملك بعده ابنه سيف الدين محمد وأطاعه الناس وأحبوه وكان قد صار في بلادهم جماعة من دعاة الإسماعيلية وكثر أتباعهم فأخرجهم من تلك الديار جميعها ولم يبق فيها منهم أحد وراسل الملوك وهاداهم واستمال المؤيد أى به صاحب نيسابور وطلب موافقته .

(ذكر الفتنة بنيسابور وتخريبها) كان أهل العيث والفساد بنيسابور قد طمعوا في نهب الأموال وتخريب البيوت وفعل ما أرادوا فإذا نهبوا لم ينتهوا فلما كان الآن تقدم المؤيد أى به بقبض أعيان نيسابور منهم نقيب العلويين أبو القاسم زيد بن الحسن الحسيني وغيره وحبسهم في ربيع الآخر سنة ست وخمسين وقال أتم الذين أطمعتم الزنود والمفسدين حتى فعلوا هذه الفعال ولو أردتم منعهم لامتنعوا وقتل من أهل الفساد جماعة فخربت نيسابور بالنكبة ومن جملة ما خرب مسجد عقيل وكان مجمعا لأهل العلم وفيه خزائن الكتب الموقوفة وكان من أعظم منافع نيسابور وخرب أيضا من مدارس الحنفية ثمان مدارس ومن مدارس الشافعية سبع عشرة مدرسة وأحرق خمس خزائن للكتب ونهب سبع خزائن كتب وبيعت بأبخس الأثمان هذا ما أمكن إحصاؤه سوى ما لم يذكر .

(ذكر خلع السلطان محمود ونهب طوس وغيرها من خراسان) في هذه السنة في جمادى الآخرة قصد السلطان محمود بن محمد الحان وهو ابن أخت السلطان سنجر وقد ذكرنا أنه ملك خراسان بعده ففي هذه السنة حصر المؤيد صاحب نيسابور بشاذياخ وكان الغزمع السلطان محمود فدامت الحرب إلى آخر شعبان سنة ست وخمسين وخمسمائة ثم إن محمودا أظهر أنه يريد دخول الحمام فدخل إلى شهرستان آخر شعبان كالحارب من الغز وأقاموا على نيسابور إلى آخر شوال ثم عادوا راجعين فعمثوا في القرى ونهبوها ونهبوا طوس نهبافحشا وأحضروا المشهد الذى لعلى بن موسى وقتلوا كثيرا ممن فيه ونهبوه ولم يعرضوا للقبة التي فيها القبر . فلما دخل السلطان محمود إلى نيسابور أمهله المؤيد إلى أن دخل رمضان من سنة سبع وخمسين وخمسمائة وأخذه وكحله

وأعماء وأخذ ما كان معه من الاموال والجواهر والأعلاق النفيسة وكان يخفيها خوفا عليها من الغز لما كان معهم وقطع المؤيد خطبته من نيسابور وغيرها مما هو في تصرفه وخطب لنفسه بعد الخليفة المستنجد بالله وأخذ ابنه جلال الدين محمدا الذي كان قد ملكه الغز أمرهم قبل أبيه وقد ذكرنا ذلك وسمه أيضا وسجنهما ومعهما جواريهما وحشمهما وبقيتا فيها فلم تطل أيامهما ومات السلطان محمود ثم مات ابنه بعده من شدة وجده لموت أبيه والله أعلم.

(ذكر عمارة شاذياخ نيسابور) كانت شاذياخ قد بناها عبد الله بن طاهر بن الحسين لما كان أميراً على خراسان للآمون وسبب همارتها أنه رأى امرأة جميلة تقود فرساً تريد صقيه فسألها عن زوجها فأخبرته به فأحضره وقال له خدمة الخيل بالرجال أشبه . فلم تقعد أنت في دارك وترسل امرأتك مع فرسك . فبكى الرجل . وقال : له ظلمك يحملنا على ذلك ؛ فقال وكيف . قال : لأنك تنزل الجند معنا في دورنا ؛ فإن خرجت أنا وزوجتي بقي البيت فارغاً فيأخذ الجندى مالنا فيه . وإن سقيت أنا الفرس فلا آمن على زوجتي من الجندى فرأيت أن أقيم في البيت وتخدم زوجتي الفرس . فعظم الأمر عاياه وخرج من البلد لوقته . ونزل في الخيام . وأمر الجند فخرجوا من دور الناس وبني شاذياخ داراً له ولجندته وسكنها وهم معه . ثم إنها دثرت بعد ذلك فلما كان أيام السلطان ألب أرسلان ذكرت له هذه القصة فأمر بتجديدها ثم إنها تشعثت بعد ذلك فلما كان الآن وخربت نيسابور ولم يمكن حفظها والغز تطرق البلاد وتهيأ أمر المؤيد حينئذ يعمل سورها وسد ثلثه وسكناه ففعل ذلك وسكنها هو والناس معه وخربت حينئذ نيسابور كل خراب ولم يبق فيها اثنان .

(ذكر قتل الصالح بن رزيك ووزارة ابنه رزيك) في هذه السنة في شهر رمضان قتل الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك الأرمني وزير العاضد العلوي صاحب مصر وكان سبب قتله أنه تحكم في الدولة التحكم العظيم واستبد بالأمر والنهي وجباية الأموال إليه لصغر العاضد ولأنه هو الذي ولاه ووتر الناس فإنه أخرج كثيراً من أيمنهم وفرقهم في البلاد ليأمن وثوبهم عليه ثم إنه زوج ابنته من العاضد فعاداه أيضا الحرم من القصر فأرسلت عمه العاضد الأموال إلى أمراء المصريين ودعهم إلى قتله وكان أشدهم عليه في ذلك إنسان يقال له ابن الداعي فوقفوا له في دهليز القصر فلما دخل ضربوه بالسكاكين على دهش فجرحوه جراحات مهلكة إلا أنه حمل إلى داره وفيه حياة فأرسل إلى العاضد يعاتبه على الرضا بقتله مع أثره في خلافته فأقسم العاضد أنه لا يعلم بذلك ولم يرض به فقال إن كنت بريئاً فسلم عمك إلى حتى انتقم منها فأمر بأخذها فأرسل إليها فأخذها قهراً وأحضرت عنده فقتلها ووصى بالوزارة لابنه رزيك وألقب العادل فانتقل الأمر إليه بعد وفاة أبيه وللصالح أشعار حسنة بليغة تدل على فضل عزيز فنما في الافتخار :

أبي الله إلا أن يدوم لنا الدهر • ويخدمنا في ملكنا العز والنصر
علنا بأن المال تفتى أوفه • ويبقى لنا من بعده الأجر والذكر
خلطنا الندى بالبأس حتى كأننا • سحاب لديه البرق والرعد والقطر
قرانا إذا رحنا إلى الحرب مرة • قرانا ومن أضيافنا الذئب والنسر
كما أننا في السلم نبذل جودنا • ويرتع في أنعامنا العبد والحر

وكان الصالح كريما فيه أدب له شعر جيد وكان لأهل العلم عنده انفاق ويرسل إليهم العطاء الكثير بلغه أن الشيخ أبا محمد بن الذهان النحوي البغدادي المقيم بالموصل قد شرح بيتا من شعره وهو هذا:

تجنب سمعى ما يقول العواذل ه وأصبح لى شغل من الغزو شاغل
فجهز إليه هدية سنية ليرسلها إليه فقتل قبل إرسالها وبلغه أيضا أن إنسانا من أعيان الموصل قد أتى عليه بمكة فأرسل إليه كتابا يشكره ومعه هدية وكان الصالح إماميا لم يكن على مذهب العلويين المصريين ولما ولي العاضد الخلافة وركب سمع الصالح ضجة عظيمة فقال ما الخبر فقيل إنهم يفرحون بالخليفة فقال كأنى بهؤلاء الجهلة وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف هذا وما علموا أنى كنت من ساعة استعرضهم استعراض الغنم قال عمارة دخلت إلى الصالح قبل قتله بثلاثة أيام فناولنى قرطاسا فيه بيتان من شعره وهما:

نحن فى غفلة ونوم وللوه ت عيون يقظانة لاتنام
قد رحلنا إلى الحمام سنينا ه لیت شعرى متى يكون الحمام
فكان آخر عهدي به وقال عمارة أيضا ومن عجيب الاتفاق أنى أنشدت ابنه قصيدة أقول فيها:

أبوك الذى تسطو الليالى بحده ه وأنت يمين إن سطا وشمال
لرتبته العظمى وإن طال عمره ه إليك مصير واجب ومنال
تخالصك اللحظ المصون ودونها ه حجاب شريف لا انقضا وحجال
فانتقل الأمر إليه بعد ثلاثة أيام .

(ذكر الحرب بين العرب وعسكر بغداد) فى هذه السنة فى شهر رمضان اجتمعت خفاجة إلى الحلة والكوفة وطالبوا برسومهم من الطعام والتمر وغير ذلك فمنعهم أمير الحاج أرغش وهو مقطع الكوفة ووافق على منعه الأمير قيصر شحنة الحلة وهما من مماليك الخليفة فأفسدت خفاجة ونهبوا سواد الكوفة والحلة فأسرى إليهم الأمير قيصر شحنة الحلة فى مائتين وخمسين فارسا وخرج إليه أرغش فى عسكر وسلاح فانتزحت خفاجة من بين أيديهم وتبعهم العسكر إلى رحبة الشام فأرسل خفاجة يعتذرون ويقولون قد قنعنا بلبن الإبل وخبز الشعير وأنتم تمنعونا رسوما وطلبوا الصلح فلم يجبههم أرغش وقيصر وكان قد اجتمع مع خفاجة كثير من العرب فتصافوا واقتتلوا وأرسلت العرب طائفة إلى خيام العسكر ورحلوا بينهم وبينها وحمل العرب حملة منكرا فانهزم العسكر وقتل كثير منهم وقتل الأمير قيصر وأسرت جماعة أخرى وجرح أمير الحاج جراحة شديدة ودخل الرحبة فحماه شحتها وأخذ له الأمان وسيره إلى بغداد ومن نجاة مات عطشا فى البرية وكان إمام العرب يخرجون بالماء يسقين الجرحى فإذا طلبه منهم أحد من العسكر أجهز عليه وكثر النوح والبكاء ببغداد على القتلى وتجهز الوزير عون الدين بن هبيرة والعساكر معه فخرج فى طلب خفاجة فدخلوا البرية وخرجوا إلى البصرة ولما دخلوا البر عاد الوزير إلى بغداد وأرسل بنو خفاجة يعتذرون ويقولون بغى علينا وفارقنا البلاد فتمنعونا واضطرونا إلى القتال وسألوا العفو عنهم فأجيبوا إلى ذلك .

(ذكر حصر المؤيد شارستان) فى هذه السنة حصر المؤيد أى أبه مدينة شارستان قريب نيسابور وقاتله أهاما ونصب المجانيق والعرادات فصر أهلها خوفا على أنفسهم من المؤيد وكان مع المؤيد جلال الدين الموفق الفتنه يعافى فيينا هو راكب إذ وصل إليه حجر منجنيق فقتله خامس جمادى الآخرة من السنة وتعدى الحجر

منه إلى شيخ من شيوخ يهق فقتله فعظمت المصيبة بقتل جلال الدين على أهل العلم خصوصا أهل السنة والجماعة وكان في عنفوان شبابه رحمه الله لما قتل ودام الحصار إلى شعبان سنة سبع وخمسين وخمسمائة فنزل خواجه صاحبها بعدما كثرت القتل ودام الحصر وكان لهذه القلعة ثلاثة رؤساء هم أرباب النهى والأمر وهم الذين حفظوها وقاتلوا عنها أحدهم خواجه هذا والثاني داعى بن محمد بن أخى حرب العلوى والثالث الحسين بن أبى طالب العلوى الفارسى فنزلوا كلهم أيضا إلى المؤيد أى أبه فيمن معهم من أشياعهم وأتباعهم ، فأما خواجه فإنه أثبت عليه أنه قتل زوجته ظلما وعدوانا وأخذ ماله فقتل بها وملك المؤيد شارستان وصدقت له قتلها عسكره إلا أنهم لم يقتلوا امرأة ولا سبوا .

(ذكر ملك الكرج مدينة آنى) في هذه السنة في شعبان اجتمعت الكرج مع ملكهم وساروا إلى مدينة آنى من بلاد اران وملكوها وقتلوا فيها خلقا كثيرا فانتدب لهم شاه أرمن بن ابراهيم بن سجان صاحب خلاط وجمع العساكر واجتمع معه من المتطوعة خلق كثير وسار إليهم فلاقوه وقاتلوه فانهمزم المسلمون وقتل أكثرهم وأسر كثير منهم وعاد شاه أرمن مهزوما ما لم يرجع معه غير أربعائة فارس من عسكره .

(ذكر ولاية عيسى مكة حرسها الله تعالى) كان أمير مكة هذه السنة قاسم بن فليته بن قاسم بن أبى هاشم العلوى الحسينى فلما سمع بقرب الحجاج من مكة صادر المجاورين وأعيان أهل مكة وأخذ كثيرا من أموالهم وهرب من مكة خوفا من أمير الحاج أرغش وكان قد حج هذه السنة زين الدين على بن بكتكين صاحب جيش الموصل ومعه طائفة صالحة من العسكر فلما وصل أمير الحاج إلى مكة رتب مكان قاسم بن فليته عمه عيسى بن قاسم بن هاشم فبقى كذلك إلى شهر رمضان ثم إن قاسم بن فليته جمع جمعا كثيرا من العرب أطعمهم في مال له بمكة فاتبعوه فسار بهم إليها فلما سمع عمه عيسى فارقه ودخاها قاسم فأقام بها أميرا أياما ولم يكن له مال يوصله إلى العرب ثم إنه قتل قائدا كان معه حسن السيرة فتغيرت نيات أصحابه عليه وكاتبوا عمه عيسى فقدم عليهم فهرب وصعد جبل أبى قبيس فسقط عن فرسه فأخذه أصحاب عيسى وقتلوه فعظم عليه قتله فأخذه وغسله ودفنه بالمعلى عند أبيه فليته واستقر الأمر بعده لعيسى والله أعلم .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة سار عبدالمؤمن بن على إلى جبل طارق وهو على ساحل الخليج مما يلي الأندلس فعبر المجاز إليه وبني عليه مدينة حصينة وأقام بها عليه عدة شهور وعاد إلى مراكش . وفيها في المحرم ورد نيسابور جمع كثير من ترکان بلاد فارس ومعهم أغنام كثيرة للتجارة فباعوها وأخذوا الثمن ونزلوا على مرحلتين من طابس كنى وباتوا هناك فنزل اليهم الإسماعيلية وكبهم ليلا ووضعوا السيف فيهم فقتلوا وأكثروا ولم ينج منهم إلا الشريد وغنم الإسماعيلية جميع ما معهم من مال وعروض وعادوا إلى قلاعهم . وفيها كثرت الأمطار في أكثر البلاد ولاسيما خراسان فإن الأمطار توالى فيها من العشرين من المحرم إلى منتصف صفر لم تنقطع ولا رأى الناس فيها شمساً . وفيها كان بين الكرج وبين الملك صلتق بن على صاحب أرزن الروم قتال وحرب انهزم فيه صلتق وعسكره وأسر هو وكانت أخته شاه بانوار قد تزوجها شاه أرمن بن سجان بن ابراهيم بن سجان صاحب خلاط فأرسلت إلى ملك الكرج هدية جليلة المقدار وطلبت منه أن يفادها بأخيها فأطلقه فعاد إلى ملكه . وفيها قصد صاحب صيدا من الفرنج نور الدين محمود صاحب الشام ملجئا إليه فأمنه وسير معه عسكرا يمنعه من الفرنج أيضا فظفر عليهم في الطريق كمين للفرنج فقتلوا من المسلمين

جماعة وانهرم الباقون . وفيها ملك قرا أرسلان صاحب حصن كيفا قلعة شاتان وكانت لطائفة من الأكراد يقال لهم الجونية فلما ملكها خربها وأضاف ولايتها إلى حصن طالب . وفيها توفي الكمال حمزة بن علي بن طلحة صاحب المخزن كان جليل القدر أيام المسترشد بالله وولي المقتنى وبنى مدرسة لأصحاب الشافعي بالقرب من داره ثم حج وعاد وقد لبس القوط وزى الصوفية وترك الأهمال فقال بعض الشعراء فيه :

ياعضد الإسلام يامن سميت ه إلى العلاء همته الفاخره
كانت لك الدنيا فلم ترضها ه ملكا فأخلدت إلى الآخره

وبقي منقطعا في بيته عشرين سنة ولم يزل محترما يغشاه الناس كافة .

(ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة)

(ذكر فتح المؤيد طوس وغيرها) في هذه السنة في السابع والعشرين من صفر نازل المؤيد أي أبه أبا بكر جاندار بقلعة وسكرة خوى من طوس وكان قد تحصن بها وهي حصينة منيعة لا ترام فقاتله وأعانه أهل طوس على أبي بكر لسوء سيرته كانت فيهم وظاله فلما رأى أبو بكر ملازمة المؤيد ومواصلة القتال عليه خضع وذل ونزل من القلعة بالأمان في العشرين من ربيع الأول من السنة فلما نزل منها حبسه المؤيد وأمر بتقييده ثم سار منها إلى كرستان وصاحبها أبو بكر فاخر فنزل من قلعته وهي من أمنع الحصون على رأس جبل عال وصار في طاعة المؤيد ودان له ووافقه وسير جيشا في جمادى الآخرة منها إلى اسفرين فتحصن رئيسها عبدالرحمن بن محمد بن علي الحاج بالقلعة وكان أبوه كريم خراسان على الإطلاق ولكن كان عبدالرحمن هذا بنس الخلف فلما تحصن أحاط به العسكر المؤيدي واستزلوه من الحصن وحملوه مقيدا إلى شاذياخ وحبس بها وقيل في ربيع الآخر سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وملك المؤيد أيضا فهندز نيسابور واستدارت بملكه المؤيد حول نيسابور وعادت إلى ما كانت عليه قبل إلا أن أهلها انتقلوا إلى شاذياخ وخربت المدينة العتيقة وسير المؤيد جيشا إلى خواف وبها عسكر مع بعض الأمراء اسمه أرغش فكن أرغش جمعا في تلك المضائق والجبال وتقدم إلى عسكر المؤيد فقاتلهم وطلع الكمين فانهزم عسكر المؤيد وقتل منهم جمع وعاد الباقون إلى المؤيد بنيسابور وسير جيشا إلى بوشنج هراة وهي في طاعة الملك محمد بن الحسين الغوري فحصرها واشتد الحصار عليها وقام القتال والزحف فسير الملك محمد الغوري جيشا إليها لينزع عنها فلما قاربوا هراة فارقتها العسكر الذي يحصرها وعادوا عنها وصفت تلك الولاية للغورية .

(ذكر أخذ ابن مردنيش غرناطة من عبدالمؤمن وعودها إليه) في هذه السنة أرسل أهل غرناطة من بلاد الأندلس وهي لعبدالمؤمن إلى الأمير إبراهيم بن همشك صهر ابن مردنيش فاستدعوه إليهم ليسلوا إليه البلد وكان قد وحد وصار من أصحاب عبدالمؤمن وفي طاعته ومن يحرضه على قصد ابن مردنيش فلما وصل إليه رسل أهل غرناطة سار معهم إليها فدخلها وبها جمع من أصحاب عبدالمؤمن فامتنعوا بحصنها فبلغ الخبر أبا سعيد عثمان بن عبدالمؤمن وهو بمدينة مالقة فجمع الجيش الذي كان عنده وتوجه إلى غرناطة لنصرة من فيها من أصحابهم فعلم بذلك إبراهيم بن همشك فاستنجد ابن مردنيش ملك البلاد بشرق الأندلس فأرسل إليه النبي فارس من أنجاد أصحابه ومن الفرنج الذين جندهم معه فاجتمعوا بنواحي غرناطة فالتقواهم ومن بغرناطة من عسكر عبدالمؤمن قبل وصول أبي سعيد إليهم فاشتد القتال بينهم فانهزم عسكر عبدالمؤمن وقدم أبو سعيد

واقتلوا أيضا فانهزم كثير من أصحابه وثبت معه طائفة من الأعيان والفرسان المشهورين والرجال والأجناد حتى قتلوا عن آخرهم وانهزم حينئذ أبو سعيد ولحق بمالقة وسمع عبدالمؤمن الخبر وكان قد سار إلى مدينة سلا فسير في الحال ابنه أبا يعقوب يوسف في عشرين ألف مقاتل فيهم جماعة من شيوخ الموحدين فجذوا المسير فبلغ ذلك ابن مردنيش فسار بنفسه وجيشه إلى غرناطة ليعين ابن همشك فاجتمع منهم بغرناطة جمع كثير فقتل ابن مردنيش في الشريعة بظاها ونزل العسكر الذي أمر به ابن همشك أولا وهم ألفا فارس بظاها القلعة الحمراء ونزل ابن همشك بباطن القلعة الحمراء فيمن معه ووصل عسكر عبدالمؤمن إلى جبل قريب من غرناطة فأقاموا في سفحه أياما ثم سيروا سرية أربعة آلاف فارس فبيتوا العسكر الذي بظاها القلعة الحمراء وقتلوه من جهاتهم فما لحقوا يركبون فقتلوه عن آخرهم وأقبل عسكر عبدالمؤمن بجملته فزلوا بضواحي غرناطة فلم يبق ابن مردنيش وابن همشك أنهم لا طاقة لهم بهم ففروا في الليلة الثانية ولحقوا ببلادهم واستولى الموحدون على غرناطة في باقي السنة المذكورة وعاد عبدالمؤمن من مدينة سلا إلى مراکش .

(ذكر حصر نور الدين حارم) في هذه السنة جمع نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الشام العساكر بحلب وسار إلى قلعة حارم وهي للفرنج غربي حلب فحصرها وجد في قتالها فامتعت عليه بمحصاتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج ورجالهم وشجعانهم فلما علم الفرنج ذلك جمعوا فارسهم ورجالهم من سائر البلاد وحشدوا واستعدوا وساروا نحوه ليرحلوه عنها فلما قاربوه طلب منهم المصاف فلم يجيبوه إليه وراسلوه وتلطفوا الحال معه فلما رأى أنه لا يمكنه أخذ الحصن ولا يجيئون به إلى المصاف عاد إلى بلاده وعن كان معه في هذه الغزوة مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ الكناني وكان من الشجاعة في الغاية فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد شيزر وكان قد دخله في العام الماضي سائرا إلى الحج فلما دخله الآن كتب على حائطه :

لك الحمد يا مولاي كم لك منة ه عليّ وفضل لا يحيط به شكرى
نزلت بهذا المسجد العام قافلا ه من الغزو وموفور النصيب من الأجر
ومنه رحلت العيس في عامي الذي ه مضى نحو بيت الله والركن والحجر
فأديت مفروضي وأسقطت ثقل ما ه تحملت من وزر الشيبية عن ظهري

(ذكر ملك الخليفة قلعة الماهكي) في هذه السنة في رجب ملك الخليفة المستنجد بالله قلعة الماهكي وسبب ذلك أن سنقر الحمداني صاحبها صلها إلى أحد عماليكه ومضى إلى همدان فضعف هذا المملوك عن مقاومة ما حولها من التركان والأكراد فأشير عليه ببيعها من الخليفة فراسل في ذلك فاستقرت على خمسة عشر ألف دينار وسلاح وغير ذلك من الأمتعة وعدة من القرى فسلها وتسلم ما استقر له وأقام ببغداد وهذه القلعة لم تزل من أيام المقتدر بالله بأيدي التركان والأكراد إلى الآن .

(ذكر الحرب بين المسلمين والكرج) في هذه السنة في شعبان اجتمعت الكرج في خلق كثير يلبغون ثلاثين ألف مقاتل ودخلوا بلاد الإسلام وقصدوا مدينة دوين أذربيجان فلكوها ونهبوها وقتلوا من أهلها وسوادها نحو عشرة آلاف قتيل وأخذوا النساء سبايا وأسروا كثيرا وأعرروا النساء وقادوهن حفاة عراة وأخرقوا الجامع والمساجد فلما وصلوا إلى بلادهم أنكر نساء الكرج ما فعلوا بنساء المسلمين وقتل لهم قد

أحوجتم المسلمين إلى أن يفعلوا بنا مثل ما فعلتم بديناهم وكسونهم ولما بلغ الخبر إلى شمس الدين ايلدكز صاحب أذربيجان والجبل وأصفهان جمع عساكره وحشدها وانضاف إليه شاء أرمن بن سجان القطبي صاحب خلاط وابن آقسنقر صاحب مراغة وغيرها فاجتمعوا في عسكر كثير يزيدون على خمسين ألف مقاتل وساروا إلى بلاد الكرج في صفر سنة ثمان وخمسين ونهبوها وسبوا النساء والصبيان وأسروا الرجال ولقبهم الكرج واقتلوا أشد قتال صبر فيه الفريقان ودامت الحرب بينهم أكثر من شهر وكان الظفر للمسلمين فانهزم الكرج وقتل منهم كثير وأسر كذلك وكان سبب الهزيمة أن بعض الكرج حضر عند ايلدكز فأسلم على يديه وقال له تعطيني عسكرا حتى أسير بهم في طريق أعرفها وأجىء إلى الكرج من ورائهم وهم لا يشعرون فاستوثق منه وسير معه عسكرا وواعده يوما يصل فيه إلى الكرج فلما كان ذلك اليوم قاتل المسلمون الكرج فبينما هم في القتال وصل ذلك الكرجي الذي أسلم ومعه العسكر وكبروا وحملوا على الكرج من ورائهم فانهزموا وكثر القتل فيهم والأسر وغنم المسلمون من أموالهم ما لا يدخل تحت الإحصاء لكثرة فإهم كانوا متيقنين الظفر لكثرتهم فحجب الله ظهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام بلياليها وعاد المسلمون منصورين قاهرين .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة وصل الحجاج إلى منى ولم يتم الحج لأكثر الناس لصدم عن دخول مكة والطواف والسعي فمن دخل يوم النحر مكة طاف وسعى وكمل ومن تأخر عن ذلك منع دخول مكة لفتنة جرت بين أمير الحاج وأمير مكة كان سببها أن جماعة من عبيد مكة أفسدوا في الحاج بمنى ففزع عليهم بعض أصحاب أمير الحاج فقتلوا منهم جماعة ورجع من سلم إلى مكة وجمعوا جمعا وأغاروا على جمال الحاج وأخذوا منها قريبا من ألف جمل فنادى أمير الحاج في جنده فركبوا بسلاحهم ووقع القتال بينهم فقتل جماعة ونهب جماعة من الحاج وأهل مكة فرجع أمير الحاج ولم يدخل مكة ولم يقم بالزاهر غير يوم واحد وعاد كثير من الناس رجالة لقتل الجمال ولقوا شدة ومن حج هذه السنة جدتنا أم آيينا ففاتها الطواف والسعي فاستفتى لها الشيخ الإمام أبو القاسم بن البرزى فقال تدوم على ما بقى عليها من إحرامها وإن أحببت تفدى ونحل من إحرامها إلى قابل وتعود إلى مكة فتطوف وتسمى فتكمل الحجة الأولى ثم تحرم إحراما ثانيا وتعود إلى عرفات فتقف وترمي الجمار وتطوف وتسمى فتصير لها حجة ثانية فبقيت على إحرامها إلى قابل وحجت عرفات كما قال فتم حجها الأول والثاني . وفيها نزل بخراسان برد كثير عظيم المقدار أو آخر نيسان وكان أكثره بجوين ونيسابور وما والاها فأهلك الغلات ثم جاء بعده مطر كثير دام عشرة أيام . وفيها في جمادى الآخرة وقع الحريق ببغداد احترق سوق الطيورين والدور التي تليه مقابله إلى سوق الصفرة الجديد والخان الذي في الرحبة ودكاكين البزورين وغيرها . وفيها توفي الكيا الصباحي صاحب الموت مقدم الإسماعيلية وقام ابنه مقامه فأظهر التوبة وأعاد هو ومن معه الصلوات وصيام شهر رمضان وأرسلوا إلى قزوين يطلبون من يصل بهم ويعلمهم حدود الإسلام فأرسلوا إليهم . وفيها في رمضان درس شرف الدين يوسف الدمشقي في المدرسة النظامية ببغداد وكان مدرسا بمدرسة أبي حنيفة وكان موته في ذي القعدة . وفيها توفي صدقة ابن وزير الواعظ . وفيها في المحرم توفي الشيخ عدى بن مسافر الزاهد المقيم ببلد الهكارية من أعمال الموصل وهو من الشام من بلد بعلبك فانتقل إلى الموصل وتبعه أهل السواد والجبال بتلك النواحي وأطاعه

وحسنوا الظن فيه وهو مشهور جدا . (١)

(ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة)

(ذكر وزارة شاور للعاقد بمصر ثم وزارة الضرغام بعده) في هذه السنة في صفر وزير شاور للعاقد لدين الله العلوي صاحب مصر وكان ابتداء أمره ووزارته أنه كان يخدم الصالح بن رزيك ولزمه فأقبل عليه الصالح وولاه الصعيد وهو أكبر الأعمال بعد الوزارة فلما ولي الصعيد ظهرت منه كفاية عظيمة وتقدم زائد واستمال الرعية والمقدمين من العرب وغيرهم ففسر أمره على الصالح ولم يمكنه عزله فاستدام استعماله لئلا يخرج عن طاعته فلما جرح الصالح كان من جملة وصيته لولده العادل أنه لا يغير على شاور فإنني أنا أقوى منك وقد ندمت على استعماله ولم يمكني عزله فلا تغيروا ما به فيكون لكم منه ماتكرهون ، فلما توفي الصالح من جراحته وولي ابنه العادل الوزارة حسن له أهله عزل شاور واستعمل بعضهم مكانه وخوفوه منه إن أقره على عمله فأرسل إليه بالعزل فجمع جموعا كثيرة وسار إلى القاهرة بهم فهرب منه العادل بن الصالح بن رزيك فأخذ وقتل فكانت مدة وزارته ووزارة أبيه قبله تسع سنين وشهرا وأياما وصار شاور وزيرا وتلقب بأمر الجيوش وأخذ أموال بني رزيك وودائعهم وذخائرهم وأخذ منه أيضا طي والكامل ابنا شاور شيئا كثيرا وتفرق كثير منها وجحد وظهرت عليهم عند انتقال الدولة عن شاور والمصريين إلى الأتراك ثم إن الضرغام جمع جموعا كثيرة ونازع شاور في الوزارة في شهر رمضان وظهر أمره وانهمز شاور منه إلى الشام على ما نذكره سنة تسع وخمسين وخمسمائة وصار ضرغام وزيرا كان هذه السنة ثلاثة وزراء العادل بن رزيك وشاور وضرغام فلما تمكن ضرغام من الوزارة قتل كثيرا من الأمراء المصريين لتخلو له البلاد من منازع فضعفت الدولة بهذا السبب حتى خرجت البلاد من أيديهم .

(ذكر وفاة عبد المؤمن وولاية ابنه يوسف) في هذه السنة في العشرين من جمادى الآخرة توفي عبد المؤمن ابن علي صاحب بلاد المغرب وأفريقية والأندلس وكان قد سار من مرا كش إلى سلا فرض بها ومات ولما حضره الموت جمع شيوخ الموحدين من أصحابه وقال لهم قد جربت ابني محمدا فلم أراه يصلح لهذا الأمر وإنما يصلح له ابني يوسف وهو أولى بها فقدموه ووصاهم به وبايعوه ودعى بأمر المؤمنين وكنتموا موت عبد المؤمن

(١) وفيها توفيت زمرد خاتون بنت جاولي أخت الملك دقاق بن تنش لأمه ، وهي بانية الخاتونية ظاهر دمشق عند قرية صنعاء بمكان يقال له تل الثعالب ، غربي دمشق ، على جانب الشرق القبلي بصنعاء الشام ، وهي قرية معروفة قديما ، وأوقفها على الشيخ برهان الدين علي بن محمد البلخي الحنفي ، وكانت زوجة الملك بوري بن طفتكين ، فولدت له ابنه شمس الملوك إسماعيل المذكور ، وقد ملك بعد أبيه وسار سيرته ، ومالا الفرنج على المسلمين وهم بتسليم البلد والأموال إليهم فقتلوه ، وتملك أخوه وذلك بعد مراجعتها ومساعدتها ، وقد كانت قرأت القرآن ، وسمعت الحديث ، وكانت حنفية المذهب تحب العلماء والصالحين ، وقد تزوجها الأتابكي زنكي صاحب حلب طمعا في أن يأخذ بسببها دمشق فلم يظفر بذلك ، بل ذهبت إليه إلى حلب ثم عادت إلى دمشق بعد وفاته ، وقد دخلت بغداد وسارت من هناك إلى الحجاز ، وجاورت بمكة سنة ، ثم جاءت فأقامت بالمدينة النبوية حتى ماتت بها ودفنت بالبقيع في هذه السنة ، وقد كانت كثيرة البر والصدقات والصلاة والصوم ، قال السبط ولم تمت حتى قل ما يبدها ، وكانت تغربل القمح والفحم وتتقوت بأجرته ، وهذا من تمام الخير والسعادة وحسن الخاتمة رحمها الله تعالى ، والله أعلم .

(١١ - كامل - ٩)

وحمل من سلافي محفة بصورة مريض إلى أن وصل إلى مراكش وكان ابنه أبو حفص في تلك المدة حاجبا لآبيه فبقى مع أخيه على مثل حاله مع آبيه يخرج فيقول للناس أمير المؤمنين أمر بكذا ويوسف بقعد مقعد آبيه إلى أن كملت المبايعة له في جميع البلاد واستقرت قواعد الأمور له ثم أظهر موت آبيه عبدالمؤمن فكانت ولايته ثلاثة وثلاثين سنة وشهورا وكان عاقلا حازما سديد الرأي حسن السياسة للأمور كثير البذل للأموال إلا أنه كان كثير السفك لدماء المسلمين على الذنب الصغير وكان يعظم أمر الدين ويقويه ويلزم الناس في سائر بلاده بالصلاة ومن رآه وقت الصلاة غير مصل قتل . وجمع الناس بالغرب على مذهب مالك في الفروع وعلى مذهب أبي الحسن الأشعري في الأصول ، وكان الغالب على مجلسه أهل العلم والدين المرجع إليهم والكلام معهم ولهم (ذكر ملك المؤيد أعمال قومس والخطبة للسلطان أرسلان بخراسان) في هذه السنة سار المؤيد أي أبه صاحب نيسابور إلى بلاد قومس فملك بسطام ودامغان واستناب بقومس مملوكه تنكز فأقام تنكز بمدينة بسطام فجری بين تنكز وبين شاه مازندران اختلاف أدى إلى الحرب فجمع كل منهما عسكرو والتقوا أوائل ذي الحجة في هذه السنة واقتلوا فانهمز عسكر مازندران وأخذت أسلابهم وقتل منهم طائفة كبيرة ولما ملك المؤيد بلاد قومس أرسل إليه السلطان أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه خلعا نفيسة وألوية معقودة وهدية جليلة وأمره أن يهتم بإشعاع بلاد خراسان ويتولى ذلك أجمع وأن يخطب له فلبس المؤيد الخلع فخطب له في البلاد التي هي بيده وكان السبب في هذا أنابك شمس الدين أيلدكز فإنه كان هو الذي يحكم في مملكة أرسلان وليس لأرسلان غير الاسم وكان بين أيلدكز وبين المؤيد مودة ذكرناها عند قتل المؤيد فلما أطاع المؤيد السلطان أرسلان خطب له ببلاده وهي قومس ونيسابور وطوس وأعمال نيسابور جميعها ومن نسا إلى طبرستان وكان يخطب لنفسه بعد أرسلان وكانت الخطبة في جرجان ودهستان لخوارزمشاه بن أرسلان بن أنسز وبعده للأمير إيثاق وكانت الخطبة في مرو وبلخ وهرات وسرخس وهذه البلاد بيد الغزالي هرات فإنها الأميراتكين وهو مسام للغز فكانوا يخطبون للسلطان سنجر فيقولون اللهم اغفر للسلطان السعيد المبار سنجر وبعده للأمير الذي هو الحاكم في تلك البلاد .

(ذكر قتل الغز ملك الغور) في هذه السنة في رجب قتل سيف الدين محمد بن الحسين الغوري ملك الغور قتله الغز وسبب ذلك أنه جمع عساكره وحشد فأكثر وسار من جبال الغور يريد الغز وهم يبلخ واجتمعوا وتقدموا إليه فاتفق أن ملك الغور خرج من معسكره في جماعة من خاصته جريدة فسمع به أمراء الغز فساروا يطلبونه مجدين قبل أن يعود إلى معسكره فأوقعوا به فقاتلهم أشد قتال رآه الناس فقتل ومعه نفر ممن كان معه وأسر طائفة وهربت طائفة فلاحقوا بمعسكرهم وعادوا إلى بلادهم منهزمين لا يقف الأب على آبيه ولا الأخ على أخيه وتركوا كل مامعهم بحاله ونجوا بنفوسهم فكان عمر ملك الغور لما قتل نحو عشرين سنة وكان عادلا حسن السيرة فن عدله وخوفه عاقبة الظلم أنه حاصر أهل هرات فلما ملكها أراد عسكره أن يهبوها فنزل على درب المدينة وأحضر الأموال والثياب فأعطى جميع عسكره منها وقال هذا خير من أن تنهبوا أموال المسلمين وتسخطوا الله تعالى فإن الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم ولما قتل عاد الغز إلى بلخ ومرو وقد غنموا شيئا كثيرا من العسكر الغوري لأن أهله تركوه ونجوا .

(ذكر انهزام نور الدين محمود من الفرنج) في هذه السنة انهزم نور الدين محمود بن زنكي من الفرنج

تحت حصن الأكراد وهي الواقعة المعروفة بالبقية تحت حصن الأكراد محاصرا له وعازما على قصد طرابلس ومحاصرتها فبينما الناس يوما في خيامهم وسط النهار لم يرعهم إلا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه حصن الأكراد وذلك أن الفرنج اجتمعوا واتفق رأيهم على كبسة المسلمين نهارا فإنهم يكونون آمنين فركبوا من وقتهم ولم يتوقفوا حتى يجمعوا عساكرهم وساروا مجدين فلم يشعر بذلك المسلمون إلا وقد قرروا منهم فأرادوا منعهم فلم يطبقوا ذلك فأرسلوا إلى نور الدين يعرفونه الحال فرهقهم الفرنج بالحملة فلم يثبت المسلمون وعادوا يطلبون معسكر المسلمين والفرنج في ظهورهم فوصلوا معا إلى العسكر النوري فلم يتمكن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح إلا وقد خالطوهم فأكثروا القتل والأسر وكان أشدهم على المسلمين الدوقس الرومي فإنه كان قد خرج من بلاده إلى الساحل في جمع كثير من الروم فقاتلوا محتسبين في زهمهم فلم يبقوا على أحد وقصدوا خيمة نور الدين وقدر كب فيها فرسه ونجا بنفسه ولسرعته ركب الفرس والشبحة في رجله فزل إنسان كردي قطعها فنجى نور الدين وقتل الكردي فأحسن نور الدين إلى خلفيه ووقف عليهم الوقوف ونزل نور الدين على بحيرة قدس بالقرب من حمص وبينه وبين المعركة أربع فراسخ وتلاحق به من سلم من العسكر وقال له بعضهم ليس من الرأي أن تقيم ههنا فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا فتؤخذ ونحن على هذا الحال فوبخه وأسكته وقال إذا كان معي ألف فارس لقيتهم ولا أبالي بهم ووالله لأستظل بسقف حتى آخذ بثاري ونار الإسلام ثم أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والثياب والخيام والسلاح والخيل فأعطى الناس عوض ما أخذ منهم جميعه بقولهم فعاد العسكر كأن لم تصبه هزيمة وكل من قتل أعطى أقطاعه لأولاده وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة لأنها أقرب البلاد إليهم فلما بلغهم نزول نور الدين بينها وبينهم قالوا لم يفعل هذا إلا وعنده قوة يمنعنا بها ولما رأى أصحاب نور الدين كثرة خرج له بعضهم إن لك في بلادك إدرات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء فلو استعنت في هذا الوقت لكان أصلح فغضب من ذلك وقال والله إنى لأرجوا النصر إلا بأولئك فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم كيف أقطع صلوات قوم يقاتلون هني وأنا قائم على فراشي بسهام لا تخطى وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رأيت بسهام قد نصيب وقد تخطى وهؤلاء القوم لم نصيب في بيت المال كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم ثم إن الفرنج راسلوا نور الدين يطلبون منه الصلح فلم يجبهم وتركوا هند حصن الأكراد من بحميه وعادوا إلى بلادهم .

(ذكر إجلاء بني أسد من العراق) في هذه السنة أمر الخليفة المستنجد بالله بإهلاك بني أسد أهل الحلة المزيدية لما ظهر من فسادهم ولما كان في نفس الخليفة منهم من مساعدتهم السلطان محمدا لما حصر بغداد فأمر يزيد بن قاج بقتالهم وإجلائهم من البلاد وكانوا منبسطين في البطائح واللوير فلا يقدر عليهم فتوجه يزيد إليهم وجمع عساكر كثيرة من فارس وراجل وأرسل إلى ابن معروف مقدم المتفق وهو بأرض البصرة فجاء في خلق كثير وحصرهم وسكر عنهم الماء وصارهم مدة فأرسل الخليفة يعتب على يزيد ويعجزه وينسبه إلى موافقته في التشيع وكان يزيد يتشيع فجده هو وابن معروف في قتالهم والتضييق عليهم وسد مسالكهم في الماء فاستسلموا حينئذ فقتل منهم أربعة آلاف قتيل ونودي فيمن بقى من وجد بعد هذا في الحلة المزيدية فقد حل دمه ففرقوا في البلاد ولم يبق منهم بالعراق من يعرف وسلمت بطائجهم إلى ابن معروف وبلادهم .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة وقع في بغداد حريق في باب درب فراشا إلى مشرعة الصباغين من الجانبين . وفيها في رجب توفي سيد الدولة أبو عبدالله بن عبدالكريم بن إبراهيم بن عبدالكريم المعروف بابن الأنباري كاتب الإنشاء بديوان الخلافة وكان فاضلا أديبا ذا تقدم كثير عند الخلفاء والسلاطين وخدم من سنة ثلاثين وخمسمائة إلى الآن في ديوان الخلافة وعاش حتى قارب تسعين سنة وهو من الشعراء المشهورين إلا أنه كثير الهجو ومن شعره :

يا من هجرت ولا تبالي • هل ترجع دولة الوصال
هل أطمع يا عذاب قلبي • أن ينم في هواك بالي
الطرف كما عهدت باك • والجسم كما ترين بال
ما ضرك أن تعليني • في الوصل بموعد المحال
أهواك وأنت حظ غيري • يا قاتلتني فما احتيالي

وهي أكثر من هذا . (١)

(ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة)

(ذكر مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى ديار مصر وعودهم عنها) في هذه السنة في جمادى الأولى سير نور الدين محمود بن زنكي عسكرا كثيرا إلى مصر وجعل عليهم الأمير أسد الدين شيركوه بن شاذي وهو مقدم عسكره وأكبر أمراء دولته وأشجعهم وسندكر سنة أربع وستين سبب اتصاله بنور الدين وعلو شأنه عنده إن شاء الله تعالى وكان سبب إرسال هذا الجيش أن شاور وزير العاضد لدين الله العلوي صاحب مصر نازعه في الوزارة ضرغام وغلب عليها فهرب شاور منه إلى الشام ملتجئا إلى نور الدين ومستجيرا به فأكرم مشواه وأحسن إليه وأنعم عليه وكان وصوله في ربيع الأول من السنة وطلبه منه إرسال العساكر معه إلى مصر ليعود إلى منصبه ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر ويكون شيركوه مقبلا بعساكره في مصر ويتصرف هو بأمر نور الدين يقدم إلى هذا الغرض رجلا ويؤخر أخرى فتارة يحمله رغبة قصد شاور بابه وطلب الزيادة في الملك والتقوى على الفرنج وتارة يمنعه خطر الطريق وأن الفرنج فيه وتخوف أن شاور إن استقرت قاعدته ربما لا يني ثم قوى عزمه على إرسال الجيوش فتقدم بتجهيزها وإزاحة عائلها وكان هوى أسد الدين في ذلك وعنده من الشجاعة وقوة النفس مالا يبالي بمخافة فتجهز وساروا جميعا وشاور في صحبتهم في جمادى الأولى من سنة تسع وخمسين وتقدم نور الدين إلى شيركوه أن يعيد شاور إلى منصبه وينتقم له ممن نازعه فيه وسار نور الدين إلى طرف بلاد الفرنج مما يلي دمشق بعساكره لينع الفرنج من التعرض لآسد الدين

أيام عنائي قبل سود • ما أشبهن بالليالي
العذل فيك يعذلوني • عن حبك ما لم ومالي
يا ملزمني السلو عنها • الصب أنا وأنت سالي
والقول بتركها صواب • ما أحسنه لو استوى لي
طلقت تجلدي ثلاثا • والصبوة بعد في خيالي

(١) ومنها :

ومن معه فكان قسارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين ووصل أسد الدين والعساكر معه إلى مدينة بلبس فخرج إليهم ناصر الدين أخو ضرغام بعسكر المصريين ولقيهم فانهزم وعاد إلى القاهرة ووصل أسد الدين فنزل على القاهرة وأخر جمادى الآخرة فخرج ضرغام من القاهرة سلخ الشهر فقتل عند مشهد السيدة نفيسة وبقي يومين ثم حمل ودفن في القرافة وقتل أخوه فارس المسلمين وخلع على شاور مستهل رجب وأعيد إلى الوزارة وتمكن منها، وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، فغدر به شاور، وعاد عما كان قرر له لنور الدين من البلاد المصرية ولأسد الدين أيضا وأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشام فأعاد الجواب بالامتناع وطلب ما كان قد استقر بينهم فلم يجبه شاور إليه فلما رأى ذلك أرسل إلى نوابه فتسلخوا مدينة بلبس وحكم على البلاد الشرقية فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدحهم ويخوفهم من نور الدين إن ملك مصر وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن تم ملكة لها فلما أرسل شاور يطلب منهم أن يساعده على إخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه وسارعوا إلى تلبية دعوته ونصرتهم وطمعوا في تلك الديار المصرية وكان قد بذل لهم مالا على المسير إليه وتجهزوا وساروا فلما بلغ نور الدين ذلك سار بعساكره إلى أطراف بلادهم ليمتنعوا عن المسير فلم يمنعه ذلك لعلمهم أن الخطر في مقامهم إذا ملك أسد الدين مصر أشد فتركوا في بلادهم من يحفظها وسار ملك القدس في الباقيين إلى مصر وكان قد وصل إلى الساحل جمع كثير من الفرنج في البحر لزيارة البيت المقدس فاستعان بهم الفرنج الساحلية فأعانوهم فسار بعضهم معهم وأقام بعضهم في البلاد لحفظها فلما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبس فأقام بها هو وعسكره وجعلها لدهرا يتحصن به فاجتمعت العساكر المصرية والفرنج ونازلوا أسد الدين شيركوه بمدينة بلبس وحصروه بها ثلاثة أشهر وهو يمتنع بها مع أن سورها قصير جدا وليس لها خندق ولا فصل يحميها وهو يغادهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضا ولا نالوا منه شيئا فينبأهم كذلك إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج على حارم وملك نور الدين حارم ومسيره إلى بانياس على ما ذكره إن شاء الله تعالى فحينئذ سقط في أيديهم وأرادوا العودة إلى بلادهم ليحفظوها فإسلا أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها إلى المصريين فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم ما فعله نور الدين بالشام بالفرنج ولأن الأقوات والذخائر قلت عليه وخرج من بلبس في ذي الحجة فحدثني من رأى أسد الدين حين خرج من بلبس قال أخرج أصحابه بين يديه وبقي في آخرهم ويده لت من حديد يحمي ساقهم والمسلمون والفرنج ينظرون إليه قال فأتاه فرنجي من الغرباء الذين خرجوا من البحر فقال له أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك ولا يبقى لكم بقية فقال شيركوه باليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما أفعله كنت والله أضع السيف فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال وحينئذ يقصدكم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفي شجعانهم فتملك بلادهم وتملك من بقي والله لو أطاعني هؤلاء لخرجت إليكم من أول يوم ولكنهم امتنعوا فصلب على وجهه وقال كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك والآن فقد عذرتناهم ثم رجع عنه وسار شيركوه إلى الشام فوصل سالما وكان الفرنج قد وضعوا له على مضيق في الطريق رسدا لياخذوه أو ينالوا منه ظفرا فلم بهم فعاد عن ذلك الطريق فقيه يقول عمارة ;

أخذتم عن الإفرنج كل ثنية هـ وقلت لأيدى الخيل مرى على (مرى)

لئن نصبوا في البر جسرا فإنكم هـ عبرتم ببحر من حديد على الجسر

ولفظه مرى في آخر البيت الأول اسم ملك الفرنج .

(ذكر هزيمة الفرنج وفتح حارم) في هذه السنة في شهر رمضان فتح نور الدين محمود بن زنكي قلعة حارم من الفرنج وسبب ذلك أن نور الدين لما عاد منهزما من البقيعة تحت حصن الأكراد كاذكرناه قبل فرق الأموال والسلاح وغير ذلك من الآلات على ما تقدم فعاد العسكر كأنهم لم يصابوا وأخذ في الاستعداد للجهاد والأخذ بثأره واتفق مسير بعض الفرنج مع ملكهم إلى مصر كاذكرناه فأراد أن يقصد بلادهم ليعودوا عن مصر فأرسل إلى أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل وديار الجزيرة وإلى نجر الدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وإلى نجم الدين البى صاحب ماردين وغيرهم من أصحاب الأطراف يستنجدهم فأما قطب الدين فإنه جمع عسكره وسار مجدا وفي مقدمته زين الدين على أمير جيشه وأما نجر الدين صاحب الحصن فبلغني عنه أنه قال له ندماءؤه وخواصه على أى شيء عزمتم فقال على القعود فإن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة وهو يلقي نفسه في المهالك فكلهم وافقه على هذا الرأي فلما كان الغد أمر بالتجهز للغزاة فقال له أولئك (ماعداءمابدا) فارقتك أمس على حالة قراك اليوم على ضدها فقال إن نور الدين قد سلك معى طريقا إن لم أنجده خرج أهل بلادى عن طاعتي وأخرجوا البلاد عن يدي فإنه قد كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا يذكر لهم مالتى المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر ويستمد منهم الدعاء ويطلب أن يحثوا المسلمين على الغزاة فقد قدم كل واحد من أولئك ومعه أصحابه وأتباعه وهم يقرؤن كتب نور الدين ويكفون ويلعنوننى ويدعون على فلا بد من المسير إليه ثم تجهز وسار بنفسه وأما نجم الدين فإنه سير عسكرا فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فحصرها ونصب عليها المجانيق وتابع الزحف إليها فاجتمع من بقى بالساحل من الفرنج فجاؤا في حدم وحديدهم وملوكهم وفرسانهم وقسوسهم ورهبانهم وأقبلوا إليه من كل حدب ينسلون وكان المقدم عليهم البرنس يميند صاحب أنطاكية وقص صاحب طرابلس وأعمالها وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج والدوك وهو مقدم كبير من الروم وجمعوا الفارس والراجل فلما قاربوه رحل عن حارم إلى أرتاح ظمعا أن يتبعوه فيتمكن منهم ببعدهم عن بلادهم إذا لقوه فساروا فزلوا على غمر ثم علموا عجزهم عن لقائه فعادوا إلى حارم فلما عادوا تبعمهم نور الدين في أبطال المسلمين على تعبئة الحرب فلما تقاربوا اصطفوا للقتال فبدأ الفرنج بالحملة على الميمنة المسلمين وفيها عسكر حلب وصاحب الحصن فانهزم المسلمون فيها وتبعمهم الفرنج فليل كانت تلك الهزيمة من الميمنة على اتفاق ورأى دبروه وهو أن يتبعمهم الفرنج فيبعدهم عن راجلهم فيميل عليهم من بقى من المسلمين بالسيوف فإذا عاد فرسانهم لم يلقوا راجلا يلجئون إليه ولا وزيرا يعتمدون عليه ويعود المنهزمون في آثارهم فيأخذهم المسلمون من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم فكان الأمر على مادبروه فإن الفرنج لما تبعموا المنهزمين عطف عليهم زين الدين على في عسكر الموصل على راجل الفرنج فأفناهم قتلا وأسرا وعاد خيالتهم ولم يعمنوا في الطلب خوفا على راجلهم فعاد المنهزمون في آثارهم فلما وصل الفرنج رأوا راجلهم قتل وأسرى فسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ملكوا وبقوا في الوسط قد أحرق بهم المسلمون من كل جانب فاشتدت الحرب وقامت على ساق وكثر القتل في الفرنج وتمت عليهم الهزيمة فعدل حيثئذ المسلمون عن القتل إلى الأسر فأسروا ما لا يعد وفي جملة الأسرى صاحب أنطاكية والقمص صاحب طرابلس وكان شيطان الفرنج وأشددم شكبة على

المسلمين والدوك مقدم الروم وابن جوسلين وكان عدة القتلى تزيد على عشرة آلاف قتل وأشار المسلمون على نور الدين بالمسير إلى أنطاكية وتملكها لخلوها من حام يحميها ومقاتل يدب عنها فلم يفعل وقال أما المدينة فأمرها سهل وأما القلعة فتيعة وربما سلموها إلى ملك الروم لأن صاحبها ابن أخيه ومجاورة يميند أحب إلى من مجاورة صاحب قسطنطينية وبث سرايا في تلك الاعمال فنهبوا وأسروا أهلها وقتلهم ثم إنه فادى برنس يميند صاحب أنطاكية واشترى من المسلمين خلقا كثيرا فأطلقهم.

(ذكر ملك نور الدين قلعة بانياس من الفرنج أيضا) في ذي الحجة من هذه السنة فتح نور الدين محمود قلعة بانياس وهي بالقرب من دمشق وكانت بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسةائة ولما فتح حارم أذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم وأظهر أنه يريد طبرية فجعل من بقي من الفرنج مهمتهم حفظها وتقويتها فسار محمود إلى بانياس لعله بقلة من فيها من الحماة المانعين عنها ونازلها وضيق عليها وقاتلها وكان في جملة عسكره أخوه نصره الدين أمير أميران فأصابه سهم فأذهب إحدى عينيه فلما رآه نور الدين قال له لو كشف لك عن الأجر الذي أعد لك لتميت ذهاب الأخرى وجد في حصارها فسمع الفرنج فجمعوا فلم تتكامل عدتهم حتى فتحها على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرم فلك القلعة وملاها ذخائر وعدة ورجالا وشاطر الفرنج في أعمال طبرية وقرروا له على الاعمال التي لم يشاطروهم عليها مالا في كل سنة ووصل خبر ملك حارم وحصن بانياس إلى الفرنج بمصر فصالحوا شيركوه وعادوا ليدركوا بانياس فلم يصلوا إلا وقد ملكها ولما عاد منها إلى دمشق كان بيده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجواهر وكان يسمى الجبل لكبره وحسنه فسقط من يده في شعراء بانياس وهي كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان فلما أبعد عن المكان الذي ضاع فيه علم به فأعاد أصحابه في طلبه ودلهم على المكان الذي كان آخر عهده به فيه وقال أظنه هناك سقط فعادوا إليه فوجدوه فقال بعض الشعراء الشاميين أظنه ابن منير يمدحه ويهنته بهذه الغزاة ويذكر الجبل الياقوت .

إن يمتر الشكاك فيك بأنك الـ مهادى مطفي جرة الدجال
فلعودة الجبل الذي أضلته . بالأمس بين غياطل وجبال
لم يعطها إلا سليمان وقد . نبت الربا بموشك الأعجال
وحرحر لسرير ملكك إنه . كسريره عن كل حد عالي
فلو البحار السبعة استهوينه . وأمرتن قذفته في الحال

ولما فتح الحصن كان معه ولد معين الدين أنز الذي سلم بانياس إلى الفرنج فقال له للمسلمين بعد الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان فقال كيف ذلك قال لأن اليوم برد الله جلد والدك من نار جهنم .

(ذكر أخذ الأتراك غزاة من ملكشاه وعوده إليها) في هذه السنة قصد بلاد غزاة الأتراك المعروفون بغز ونهبوا وخربوها وقصدوا غزاة وبها صاحبها ملكشاه بن خسرو شاه الحمودي فعلم أنه لا طاقة له بهم فقارقتها وسارا إلى مدينة لهاور وملك الغز مدينة غزاة وكان القيم بأمرهم أميراً اسمه زنكي بن خليفة الشيباني ثم إن صاحبها ملكشاه جمع وعاد إلى غزاة فقارقتها زنكي وعاد ملكها ملكشاه ودخلها في جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وخمسةائة وتمكن في دار ملكه .

(ذكر وفاة جمال الدين الوزير وشيء من سيرته) في هذه السنة توفي جمال الدين أبو جعفر محمد بن علي بن

ابن منصور الاصفهاني وزير قطب الدين صاحب الموصل في شعبان مقبوضا وكان قد قبض عليه سنة ثمان وخمسين فبقي في الحبس نحو سنة . حكي لي إنسان صوفي يقال له أبو القاسم كان مختصا بخدمته في الحبس قال لم يزل مشغولا في محبسه بأمر آخرته وكان يقول كنت أخشى أن أنقل من الدست إلى القبر فلما اتفق أن مرض قال لي في بعض الأيام يا أبا القاسم إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرقتي قال فقلت في نفسي قد اختلط عقله فلما كان الغد أكثر السؤال عنه وإذا طائر أبيض لم أر مثله قد سقط ، فقلت جاء الطائر فاستبشر ، ثم قال جاء الحق وأقبل على الشهادة وذكر الله تعالى إلى أن توفي ، فلما توفي طار ذلك الطائر فعلمت أنه رأى شيئا في معناه ودفن بالموصل عند فتح الكرامى رحمة الله عليهما نحو سنة ، ثم نقل إلى المدينة فدفن بالقرب من حرم النبي صلى الله عليه وسلم في رباط بناه لنفسه وقال لأبي القاسم بينى وبين أسد الدين شيركوه عهد من مات منا قبل صاحبه حمله إلى المدينة فدفنه بها في التربة التي عملتها فإذا أمانت فامض إليه وذكره ، فلما توفي سار أبو القاسم إلى شيركوه في المعنى فقال له شيركوه كم تريد فقال أريد أجرة حمل يحمله وجمل يحملني وزادى فأنهره ، وقال مثل جمال الدين يحمل هكذا إلى مكة ، وأعطاه مالا صالحا ليحمل معه جماعة يحجون عن جمال الدين وجماعة يقرؤون عليه بين يدي تابوته إذا حمل وإذا نزل عن الجمل وإذا وصل إلى مدينة يدخل أولئك القراء ينادون للصلاة عليه فيصلي عليه في كل بلدة يجتاز بها وأعطاه أيضا مالا للصدقة عنه فصلى عليه في تكريت وبغداد والحلة وفيد ومكة والمدينة وكان يجمع له في كل بلد من الخلق مالا يخصصه ولما أرادوا الصلاة عليه بالحلة سعد شاب على موضع مرتفع وأنشد بأعلى صوته :

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما هـ سرى جوده فوق الركاب ونائله

يمر على الوادى فتثنى ماله هـ عايه وبالنادى فتثنى أرامله

فلم تر با كيا أكثر من ذلك اليوم فطافوا به حول الكعبة وصلوا عليه بالحرم الشريف وبين قبره وقبر النبي صلى الله عليه وسلم خمسة عشر ذراعا . وأما سيرته فكان رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم بذلا للمال رحما بالخلق متعظفا عليهم عادلا فيهم فمن أعماله الحسنة أنه جدد بناء مسجد الخيف بمنى وغرم عليه أموالا كثيرة جسيمة وبني الحجر بجانب الكعبة وزخرف الكعبة وزدها وعملها بالرخام ، ولما أراد ذلك أرسل إلى المقتنى لأمر الله هدية جليلة وطلب منه ذلك وأرسل إلى الأمير عيسى أمير مكة هدية كبيرة وخلعا سنية منها عمامة شراها بثلاثمائة دينار حتى مكنه من ذلك وعمر أيضا المسجد الذى على جبل عرفات والدرج التى يصعد فيها إليه وكان الناس يلقون شدة في صعودهم وعمل بعرفات أيضا مصانع للماء وأجرى الماء إليها من نهران في طرق معمولة تحت الأرض فخرج عليها مال كثير وكان يجرى الماء في المصانع كل سنة أيام عرفات وبني سورا على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم وعلى قيد وبني لها أيضا فصيلا وكان يخرج على باب داره كل يوم للصعاليك والفقراء مائة دينار أميرى هذا سوى الإذارات والتعهدات للأئمة والصالحين وأرباب البيوت ومن أبنيته العجيبة التى لم ير الناس مثلها الجسر الذى بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكاس قبض قبل أن يفرغ وبني عندها أيضا جسرا كذلك على النهر المعروف بالارماد وبني الربط وقصده الناس من أقطار الأرض ويكفيه أن ابن الحنجدى رئيس أصحاب الشافعى بأصفهان قصده وابن الكافى قاضى همدان فأخرج عليهما مالا عظيما وكانت صدقاته وصلاته من أفاضل خراسان إلى حدود اليمن وكان يشتري

الأسرى كل سنة بعشرة آلاف دينار هذا من الشام حسب سوى ما يشتري من الكرج . حكى لي والدي عنه قال كثيرا ما كنت أرى جمال الدين إذا قدم إليه الطعام يأخذ منه ومن الحلوى ويتركه في خبز بين يديه فكنت أبا ومن يراه يظن أنه يحمله إلى أم ولده على فانفق أنه في بعض السنين جاء إلى الجزيرة مع قطب الدين وكنت أتولى ديوانها وحمل جاريتة أم ولده إلى داري لتدخل الحمام فبقيت في الدار أياما فينبأ أنا عنده في الخيام وقد أكل الطعام فعل كما كان يفعل ثم تفرق الناس فقامت فقال أقعد فقعدت ، فلما خلا المكان قال لي قد آثرتك اليوم على نفسي فإنني في الخيام ما يمكنني أن أفعل ما كنت أفعله خذ هذا الخبز واحمله أنت في كحك في هذا المنديل وانترك الحماقة من رأسك وعد إلى بيتك فإذا رأيت في طريقك فقيرا يقع في نفسك أنه مستحق فاقعد أنت بنفسك وأطعمه هذا الطعام . قال ففعلت ذلك وكان معي جمع كثير ففرقتهم في الطريق لثلاثي برونى أفعل ذلك وبقيت في غلجاني فرأيت في موضع إنسانا أعمى وعنده أولاده وزوجته وهم من الفقر في حال شديد فزلت عن دابتي إليهم وأخرجت الطعام وأطعمتهم إياه ، وقلت للرجل تجيء غدا بكرة إلى دار فلان أعني داري ولم أعرفه نفسي فإنني أخذت لك من صدقة جمال الدين شيئا : ثم ركبت إليه العصر فلما رأني قال ما الذي فعلت في الذي قلت لك فأخذت أذكر له شيئا يتعلق بدولتهم فقال ليس عن هذا أسألك ، إنما أسألك عن الطعام الذي سلته إليك فذكرت له الحال ففرح ثم قال بقي أنك لو قلت للرجل بجيء إليك هو وأهله فتكسومهم وتعطيهم دنانير وتجري لهم كل شهر دنانير ، قال فقلت له قد قلت للرجل حتى يجيء إلى . فازداد فرحا . وفعلت بالرجل ما قال ولم يزل يصل إليه رسمة حتى قبض وله من هذا كثير فمن ذلك أنه تصدق بثيابه من على بدنه في بعض السنين التي تعذرت الأقوات فيها .

(ذكر اجلاء القارغلية من وراء النهر) كان خان خانان الصيني ملك الخطا قد فوض ولاية سمرقند وبخارا إلى الخان جغرى خان بن حسن تكين واستعمله عليهما وهو من بيت الملك قديم الأبوة فبقي فيها مدبرا لأمورها فلما كان الآن أرسل إليه ملك الخطا بإجلاء الأتراك القارغلية من أعمال بخارا وسمرقند إلى كاشغر وأن يتركوا حمل السلاح ويشغلوا بالزراعة وغيرها من الأعمال فتقدم جغرى خان إليهم بذلك فامتنعوا فالزمهم وألح عليهم بالانتقال فاجتمعوا وصارت كلمتهم واحدة فكثروا وساروا إلى بخارا فأرسل الفقيه محمد ابن عمر بن برهان الدين عبدالعزيز بن مازة رئيس بخارا إلى جغرى خان يعلمه ابن مازة يقول لهم إن الكفار ذلك ويحسه على الوصول إليهم بعساكره قبل أن يعظم سره وينهب البلاد وأرسل إليهم بالأمس لما طرقتوا هذه البلاد امتنعوا عن النهب والقتل وأنتم مسلمون غزاة يقبح بكم مدا الأيدي إلى الأموال والدماء وأنا أبذل لكم من الأموال ما ترضون به لتكفوا عن النهب والغارة فرددت الرسل بينهم في تقرير القاعدة وابن مازة يطاول بهم ويمادى الأيام إلى أن وصل جغرى خان فلم يشعر الأتراك القارغلية إلا وقد دهمهم جغرى خان في جيوشه وجموعه بغتة ووضع السيف فيهم فاهزموا وتفرقوا وكثر القتل فيهم والنهب واختفى طائفة منهم في الغياض والآجام ثم ظفروا أصحاب جغرى خان فقطعوا دابرهم ودفنوا عن بخارا ونواحيها ضررم وخات الأرض منهم .

(ذكر استيلاء سنقر على الطالقان وغرستان) في هذه السنة استولى الأمير صلاح الدين سنقر وهو من مماليك السنجارية على بلاد الطالقان وأغار على حدود غرستان وتابع الغارات عليها حتى ملكها فصار الولايتان له وبحكمه وله فيها حصون منيعة وقلاع حصينة وصالح الأمراء الغزية وحمل لهم الإتاوة كل سنة .

(ذكر قتل صاحب هراة) كان صاحب هراة ايتكين بينه وبين الغز مهادنة فلما توفي ملك الغور محمد طمع في بلادهم فغزاهم غير مرة ونهب وأغار فلما كان في شهر رمضان من هذه السنة جمع ايتكين جموعه وسار إلى بلاد الغور وساروا إلى باميان وإلى ولاية بست والرخج فقاتله صاحبها طغرل تكين برنقش العلكي من قبل الغورية فظهروا إلى باميان واستولى على بست والرخج فسلها إلى بعض أولاد ملوك الغور وأما ايتكين فإنه توغل في بلاد الغور فأناه أهلها وقانلوه وصدده وصدقوه القتال فانهزم عسكره وقتل هو في المعركة .

(ذكر ملك شاه مازنداران قوس وبسطام) قد ذكرنا استيلاء المؤيد صاحب نيسابور على قوس وبسطام وتلك البلاد وأنه استناب بهاملوكة تنكز فلما كان هذه السنة جهز شاه مازندران جيشا واستعمل عليهم أميراً له يعرف بسابق الدين القزويني فسار إلى دامغان فملكها فجمع تنكز من عنده من العساكر وسار إليه إلى دامغان فخرج إليه القزويني فوصل إلى تنكز على غرة منه فلم يشعر هو وعسكره إلا وقد كبسهم القزويني ووضع السيف فيهم ففرقوا وولوا منهزمين واستولى عسكر شاه مازندران على تلك البلاد وعاد تنكز إلى المؤيد صاحب نيسابور واشتغل بالغارة على بسطام وبلاد قوس .

(ذكر عصيان غمارة بالمغرب) لما تحقق الناس موت عبدالمؤمن سنة تسع وخمسين ثارت قبائل غمارة مع مفتاح بن عمرو وكان مقدما كبيرا وتبعوه بأجمعهم وامتنعوا في جبالهم وهي معاقل مانعة وهم أمم جمة فتجهز إليهم أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ومعه أخواه عمرو وعثمان في جيش كبير من الموحدين والعرب وتقدموا إليهم فاقتتلوا سنة إحدى وستين وخمسمائة فانهزمت غمارة وقتل منهم كثير وفيمن قتل مفتاح ابن عمرو مقدمهم وجماعة من أعيانهم ومقدميهم وملكوا بلادهم عنوة وكان هناك قبائل كثيرة يريدون الفتنة فانظروا ما يكون من غمارة فلما قتلوا ذلت تلك القبائل وانقادوا للطاعة ولم يبق متحرك لفتنة ومعصية فسكنت الدهماء في جميع المغرب .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة أغار الأمير محمد بن أنز على بلد الإسماعيلية بخراسان وأهلها غافلون فقتل منهم وغنم وأسروسي وأكثر وملا أصحابه أيديهم من ذلك . وفيها توفي أبو الفضل نصر بن خلف ملك سجستان وعمره أكثر من مائة سنة ومدة ملكه ثمانون سنة وملك بعده ابنه شمس الدين أبو الفتح أحمد بن نصر وكان أبو الفضل ملكا عادلا عفيفا عن رعيته وله آثار حسنة في نصرة السلطان سنجر في غير موقف وفيها خرج ملك الروم من القسطنطينية في عساكر لا تحصى وقصد بلاد الإسلام التي بيد قلع أرسلان وابن دانشمند فاجتمع التركان في تلك البلاد في جمع كثير فكانوا يغيرون على أطراف عسكره ليلا فإذا أصبح لا يرى أحدا وكثر القتل في الروم حتى بلغت عدة القتلى عشرات ألوف فعاد إلى القسطنطينية ولما عاد ملك المسلمون منه عدة حصون . وفيها توفي الإمام عمر الخوارزمي خطيب بلخ ومفتيها بها والقاضي أبو بكر المحمودي صاحب التصانيف والأشعار وله مقامات بالفارسية على نمط مقامات الحريري بالعربية .

(ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة)

(ذكر وفاة شاه مازندران وملك ابنه بعده) في هذه السنة ثامن ربيع الأول توفي شاه مازندران رستم ابن علي بن شهر يار بن قارن ولما توفي كتم ابنه علاء الدين الحسن موته أياما حتى استولى على سائر الحصون

والبلاد ثم أظهره فلما ظهر خبر وفاته أظهر إيثاق صاحب جرجان ودهستان المنازعة لولده في الملك ولم يبرح حق أيه عليه فإنه لم يزل يذب عنه ويحميه إذا التجأ إليه ولكن الملك عقيم ولم يحصل من منازعته على شيء غير سوء السمعة وقبح الاحدوثة .

(ذكر حصر عسكر المؤيد نسا ورحيلهم عنها) كان المؤيد قد سير جيشا إلى مدينة نسا فحصروها إلى جمادى الأولى في هذه السنة فسير خوارزمشاه بن أرسلان بن أتسر جيشا إلى نسا فلما قاربوها رحل عنها عسكر المؤيد وعادوا إلى نيسابور وأخر جمادى الأولى وسار عسكر المؤيد إلى عسكر خوارزم لأنهم توجهوا إلى نيسابور فتقدم العسكر المؤيدي ليردوهم عنها فلما سمع العسكر الخوارزمي بهم عاد عنهم وصار صاحب نسا في طاعة خوارزمشاه والخطبة له فيها وسار عسكر خوارزم إلى دهستان فالتجأ صاحبها الأمير إيثاق إلى المؤيد صاحب نيسابور بعد تمكن الوحشة بينهما فقبله المؤيد أحسن قبول وسير إليه جيشا كثيفا فأقاموا عنده حتى دفع الضرر عن نفسه وبلده من جهة طبرستان وأما دهستان فإن عسكر خوارزم غلبوا عليها وصار لهم فيها شحنة .

(ذكر استيلاء المؤيد على هراة) قد ذكرنا قتل صاحب هراة سنة تسع وخمسين فلما قتل تجهز الأمراء الغزية وساروا إلى هراة وحصروها وقد تولى أمرها إنسان يلقب أثير الدين وكان له ميل إلى الغز وهو يحاربهم ظاهرا ويراسلهم باطنا فهلك لهذا السبب خلق كثير من أهل هراة فاجتمع إليها أهلها فقتلوه وقام مقامه أبو الفتوح بن علي بن فضل الله الطغراني فأرسل أهلها إلى المؤيد أي به صاحب نيسابور بالطاعة والانقياد إليه فسير إليهم مملوكه سيف الدين تنكز في جيش وسير جيشا آخر أغاروا على سرخس ومرو فأخذوا دواب الغز وعادوا سالمين فلما سمع الغز بذلك رحلوا عن هراة إلى مرو .

(ذكر الحرب بين قلع أرسلان وبين ابن الدانשמند) في هذه السنة كانت الفتنة بين الملك قلع أرسلان ابن مسعود بن قلع أرسلان صاحب قونية وما يجاورها من بلد الروم وجرى بينهما حرب شديدة وسببها أن قلع أرسلان تزوج ابنة الملك صلتق ملطية وما يجاورها من بلد الروم وجرى بينهما حرب شديدة وسببها أن قلع أرسلان تزوج ابنة الملك صلتق ابن علي بن أبي القاسم فسيرت الزوجة إلى قلع أرسلان مع جهاز كثير لا يعلم قدره وأغار ياغي صاحب ملطية عليه وأخذ العروس وهامعها وأراد أن يزوجهها بابن أخيه ذي النون بن محمد بن دانشمند فأمرها بالردة عن الإسلام فزوجها من ابن أخيه فجمع قلع أرسلان عسكره وسار إلى ابن دانشمند فالتقيا واقتتلا فانهم قلع أرسلان والتجأ إلى ملك الروم واستنصره فأرسل إليه جيشا كثيرا فمات ياغي أرسلان بن دانشمند في تلك الأيام وملك قلع أرسلان بعض بلاده واصطاح هو والملك ابراهيم بن محمد بن دانشمند لأنه ملك البلاد بعد عمه ياغي أرسلان واستولى ذو النون بن محمد بن دانشمند على مدينة قيسارية وملك شاهان شاه بن مسعود أخو قلع أرسلان على مدينة انكورية واستقرت القواعد بينهم وانفقوا .

(ذكر الفتنة بين نور الدين وقلع أرسلان) في هذه السنة كانت وحشة متأكدة بين نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام وبين قلع أرسلان بن مسعود بن قلع أرسلان صاحب الروم أدت إلى الحرب والتضاغن فلما بلغ خبرها إلى مصر كتب الصالح بن رزبك وزير صاحب مصر إلى قلع أرسلان ينهاه عن ذلك ويأمره بموافقة وكتب فيه شعرا :

نقول ولكن أين من يتفهم • ويعلم وجه الرأي والرأي مبهم

وما كل من قاس الأمور وساسها • يوفق للأمر الذي هو أحزم
وما أحد في الملك يبقى مخلدا • وما أحد مما قضى الله يسلم
أمن بعد مذاق العدا طعم حربكم • بفهم وكانت وهي صاب وعلقم
رجعتم إلى حكم التنافس بينكم • وفيكم من الشحنة نار تضرم
أما عندكم من يتقى الله وحده • أما في رعاياكم من الناس مسلم
تعالوا لعل الله ينصر دينه • إذا ما نصرنا الدين نحن وأنتم
وننهض نحو الكافرين بعزيمة • بأمثالها تحوى البلاد وتقسم

وهي أطول من هذا هكذا ذكر بعض العلماء هذه الحادثة وأن الصالح أرسل بهذا الشعر فإن كان الشعر للصالح
فينبغي أن تكون الحادثة قبل هذا التاريخ ويحتمل أن يكون هذا التنافس كان أيام الصالح فكتب الآيات
ثم امتد إلى الآن .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في صفر وقع بأصفهان فتنة عظيمة بين صدر الدين عبد اللطيف بن
النجندي وغيره من أصحاب المذاهب بسبب التعصب للمذاهب فدام القتال بين الطائفتين ثمانية أيام متتابعة
قتل فيها خلق كثير واحترق وهدم كثير من الدور والأسواق ثم افترقوا على أقبح صورة وفيها بنى الإسماعيلية
قلعة بالقرب من قزوين فقيل لشمس الدين ايلدكز عنها فلم يكن له إنكار لهذه الحال خوفا من شرم وغائلتهم
فتقدموا بعد ذلك إلى قزوين فحاصروها وقتلهم أهلها أشد قتال رآه الناس . وحكى لي بعض أصدقائنا بل
مشايخنا من الأئمة الفضلاء قال كنت بقزوين اشتغل بالعلم وكان بها إنسان يقود جمعا كبيرا وكان موصوفا
بالشجاعة وله عصابة حمراء إذا قاتل عصب بها رأسه قال فكنت أحبه وأشتهى الجلوس معه قال فبينما أنا
عنده يوما وإذا هو يقول كأي بالملاحدة وقد قصدوا البلد غدا نخرجنا اليهم وقتلناهم فكنت أول الناس
وأنا متعصب بهذه العصابة فقائلناهم فلم يقتل غيري ثم ترجع الملاحدة ويرجع أهل البلد قال فوالله لما كان الغد
إذ قد وقع الصوت بوصول الملاحدة فخرج الناس قال فذكرت قول الرجل فخرجت والله وليس لي همة إلا أني
أنظر هل يصح ما قال أم لا قال فلم يكن إلا قليل حتى عاد الناس وهو محمول على أيديهم قتيلا بعصابتة الحمراء
وذكروا أنه لم يقتل بينهم غيره فبقيت متعجبا من قوله كيف صح ولم يتغير منه شيء ومن أين له هذا اليقين ،
ولما حكى لي هذه الحكاية لم أسأله عن تاريخها وإنما كان في هذه المدة في تلك البلاد فلماذا أثبتها هذه السنة
على الظن والتخمين . وفيها قبض المؤيد أي أبه صاحب نيسابور على وزيره ضياء الملك محمد بن أبي طالب سعد
ابن أبي القاسم محمود الرازي وحبسه واستوزر بعده نصير الدين أبا بكر محمد بن أبي نصر محمد المستوفى وهو من
أعيان الدولة السنجرية . وفي هذه السنة وردت الأخبار أن الناس حجوا سنة تسع وخمسين ولقوا شدة وانقطع منهم
خلق كثير في فيدوا الثعالبية وواقصة وغيرها وهلك كثير ولم يمض الحجاج إلى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم
لهذه الأسباب واشدة الغلاء فيها وعدم ما يقتات ووقع الوباء في البادية وهلك منهم عالم لا يحصون وهلك
مواشيهم وكانت الأسعار بمكة غالية . وفيها في صفر قبض المستنجد بالله على الأمير توبة بن العقيلي وكان قد قرب
منه قريبا عظيما بحيث يخلو معه وأحبه المستنجد محبة كثيرة فحسده الوزير ابن هبيرة فوضع كتبنا من العجم
قوم وأمرهم أن يتعرضوا فيؤخذوا ففعلوا ذلك وأخذوا وأحضروا عند الخليفة فأظهروا الكتب

بعد الامتناع الشديد فلما وقف الخليفة عليها خرج إلى نهر الملك يتصيد وكانت حبل توبة على الفرات فحضر عنده فأمر بالقبض عليه فقبض وأدخل بغداد ليلا وحبس فكان آخر الدهد به فلم يمنح الوزير بعده بالحياة بل مات بعد ثلاثة أشهر وكان توبة من أكل العرب مروءة وعقلا وسخاء وإجازة واجتمع فيه من خلال السكال ما تفرق في الناس . وفيها في ربيع الأول توفي الشهاب محمود بن عبد العزيز الحامدي الهروي وزير السلطان أرسلان ووزير أتابك شمس الدين أيلدكز . وفيها توفي عون الدين الوزير ابن هبيرة واسمه يحيى بن محمد بن المظفر وزير الخليفة وكان موته في جمادى الأولى ومولده سنة تسعين وأربعمائة ودفن بالمدرسة التي بناها للحنابلة بباب البصرة وكان حنبلي المذهب ديناً خيراً عالماً يسمع حديث النبي صلى الله عليه وسلم وله فيه التصانيف الحسنة وكان ذا رأى شديد وناق على المقتنى نفاقاً عظيماً حتى إن المقتنى كان يقول لم يوزر لبني العباس مثله . ولما مات قبض على أولاده وأهله . وتوفي بهذه السنة محمد بن سعيد البغدادي بالموصل وله شعر حسن فمن قوله :

أفدى الذي وكفى حبه ه بطول إعلالي وأمراضى

ولست أدري بعد ذا كله ه أساخط مولاي أم راضى

وفيها توفي الشيخ الإمام أبو القاسم عمر بن عكرمة بن البرزى الشافعي تفقه على الفقيه الكيا الهراسي وكان واحد عصره في الفقه تأتبه الفتاوى من العراق وخراسان وسائر البلاد وهو من جزيرة ابن عمر (١)

(١) وفيها توفي ابن التليذ الطيب الحاذق الماهر ، اسمه هبة الله بن صاعد توفي عن خمس وتسعين سنة ، وكان موسماً عليه في الدنيا ، وله عند الناس وجاهة كبيرة ، وقد توفي قبضه الله على دينه ، ودفن بالبصرة العتيقة ، لارحمه الله إن كان مات نصرانياً ، فإنه كان يزعم أنه مسلم ، ثم مات على دينه وفيها توفي الوزير ابن هبيرة يحيى بن محمد بن هبيرة ، أبو المظفر الوزير للخلافة عون الدين ، مصنف كتاب الإفصاح ، وقد قرأ القرآن وسمع الحديث ، وكانت له معرفة جيدة بالنحو واللغة والعروض ، وتفقه على مذهب الإمام أحمد ، وصنف كتاباً جيدة مفيدة ، من ذلك الإفصاح في مجلدات ، شرح فيه الحديث وتكلم على مذاهب العلماء ، وكان على مذهب السلف في الاعتقاد وقد كان فقيراً لآمال له ، ثم تعرض للخدمة إلى أن وزد للمقتنى ثم لابنه المستنجد ، وكان من خيار الوزراء وأحسنهم سيرة ، وأبعدهم عن الظلم ، وكان لا يلبس الحرير ، وكان المقتنى يقول ما وزر لبني العباس مثله ، وكذلك ابنه المستنجد ، وكان المستنجد معجباً به ، قال مرجان الخادم سمعت أمير المؤمنين المستنجد يشد لابن هبيرة وهو بين يديه من شعره .

صفت نعمتان خصتاك وعمتا ه فذكرهما حتى القيامة يذكر

وجودك والانيا إليك فقيرة ه وجودك والمعروف في الناس ينكر

فلو رام يا يحيى مكانك جعفر ه ويحيى لكفا عنه يحيى وجعفر

ولم أر من ينوى لك السوء يا أبا ه المظفر إلا كنت أنت المظفر

وقد كان يبالغ في إقامة الدولة العباسية ؛ وحسم مادة الملوك السلجوقية عنهم بكل ممكن ؛ حتى استقرت الخلافة في العراق كله ؛ ليس للملوك معهم حكم بالسكية والله الحمد . وكان يعقد في داره للعلماء مجلساً للمناظرة يبحثون فيه وينظرون عنده ؛ يستفيد منهم ويستفيدون منه ؛ فانفق يوماً ما أنه كانهم رجلاً من الفقهاء كلبه فيها بشاعة قال له : يا حمار ثم ندم فقال : أريد أن تقول لي كما قلت لك ؛ فامتنع ذلك الرجل ؛ فصالحه على مائتي دينار . مات فجأة ؛ ويقال إنه سمع طبيب فسم ذلك الطبيب بعد ستة أشهر ؛ وكان الطبيب يقول سممته فسممت . مات يوم الأحد الثاني عشر من =

﴿ ثم دخلت سنة احدى وستين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر فتح المنيطرة من الفرنج ﴾ في هذه السنة فتح نور الدين محمود بن زنكي حصن المنيطرة من الشام وكان بيد الفرنج ولم يحشد له ولا جمع عساكره وإنما سار إليه جريدة على غرة منهم وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا فسار إليه جريدة وانتهز الفرصة وحصره وجد في قتاله فأخذه عنوة وقهرا وقتل من بها وسبي وغنم غنيمة كثيرة فإن الذين به كانوا آمنين فأخذتهم خيل الله بغتة وهم لا يشعرون ولم يجتمع الفرنج لدفعه إلا وقدملكه ولو علموا أنه جريدة في قلة من العساكر لاسرعوا إليه وإنما ظنوه أنه في جمع كثير فلما ملكه تفرقوا وأيسوا من رده ﴿ ذكر قتل خطلوبرس مقطع واسط ﴾ في هذه السنة قتل خطلوبرس مقطع واسط قتله ابن أخي شملة صاحب خوزستان وسبب ذلك أن ابن شنكا وهو ابن أخي شملة كان قد صاهر منكبرس مقطع البصرة فاتفق أن المستنجد بالله قتل منكبرس سنة تسع وخمسين وخمسمائة فلما قتل قصد ابن شنكا البصرة ونهب قراها فأرسل من بغداد إلى كشتكين صاحب البصرة بمحاربة ابن شنكا فقال أنا عامل لست بصاحب جيش يعني أنه ضامن لا يقدر على إقامة عسكر فطمع ابن شنكا وأصعد إلى واسط ونهب سوادها فجمع خطلوبرس مقطعا جمعا وخرج إلى قتاله وكاتب ابن شنكا الأمراء الذين مع خطلوبرس فاستمالهم ثم قاتلهم فانهزم عسكره فقتله وأخذ ابن شنكا علم خطلوبرس فنصبه فلما رآه أصحابه ظنوه باقيا فجعلوا يعودون إليه وكل من رجع أخذه ابن شنكا فقتله أو أسره .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ في هذه السنة خرج الكرج في جمع كثير وأغاروا على بلدان حتى بلغوا كنجة فقتلوا وأسروا وسبوا كثيرا ونهبوا ما لا يحصى . وفيها توفي الحسن بن العباس بن رستم أبو عبد الله الأصفهاني الرستمي الشيخ الصالح وهو مشهور بروى عن أحمد بن خلف وغيره . وفيها في ربيع الآخر توفي الشيخ عبد القادر ابن أبي صالح أبو محمد الجيلي المقيم ببغداد ومولده سنة سبعين وأربعمائة وكان من الصلاح على حال وهو حنبلي المذهب ومدرسته ورباطه مشهوران ببغداد .^(١)

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر عود أسد الدين شيركوه ﴾ قد ذكرنا سنة تسع وخمسين وخمسمائة مسير أسد الدين شيركوه إلى مصر وما كان منه وقفوله إلى الشام فلما وصل إلى الشام أقام على حاله في خدمة نور الدين إلى الآن وكان بعد

= جمادى الأولى من هذه السنة ؛ عن إحدى وستين سنة ؛ وغسله ابن الجوزي ، وحضر جنازته خلق كثير وجم غفير جدا ؛ وغلقت الأسواق ؛ وتباكى الناس عليه ؛ ودفن بالمدرسة التي أنشأها يباب البصرة رحمه الله . وقد رثاه الشعراء بمراني كثيرة .

(١) وفيها توفي عبد العزيز بن الحسن بن الحباب الأغلبي السعدي القاضي ، أبو المعالي البصري ، المعروف بابن الجليس ، لأنه كان يجالس صاحب مصر ، وقد ذكره العماد في الجريدة ، وقال : كان له فضل مشهور وشعر مأثور فن ذلك قوله :

ومن عجب أن السيوف لديهم • تحيض دماء والسيوف ذكور
وأعجب من ذا أنها في أكفهم • تأجج نارا والأكف بحور

عوده منها لا يزال يتحدث بها ويقصدها وكان عنده من الحرص على ذلك كثير فلما كان هذه السنة بجهز وسار في ربيع الآخر في جيش قوى وسير معه نور الدين جماعة من الأمراء فبلغت عدتهم ألفي فارس وكان كارها لذلك ولكن لما رأى جد أسد الدين في المسير لم يمكنه إلا أن يسير معه جمعا خوفا من حادث يتجدد عليهم فيضعف الإسلام فلما اجتمع معه عسكره سار إلى مصر على البر وترك بلاد الفرنج على يمينه فوصل الديار المصرية فقصد اطيح وعب النبل عندها إلى الجانب الغربي ونزل بالجيزة مقابل مصر وتصرف في البلاد الغربية وحكم عليها وأقام نيفا وخمسين يوما وكان شاور لما بلغه بجىء أسد الدين اليهم قد أرسل إلى الفرنج يستنجدهم فأتوه على الصعب والذلول طمعا في ملكها وخوفا أن يملكها أسد الدين فلا يبقى لهم في بلادهم مقام معه ومع نور الدين فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي وكان أسد الدين وعساكره قد ساروا إلى الصعيد فبلغ مكانا يعرف بالباين وسارت العساكر المصرية والفرنج وراهه فأدركوه بها في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة وكان أرسل إلى المصريين والفرنج جواسيس فعادوا إليه وأخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجددهم في طلبه فعزم على قتالهم إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن القتال في هذا المقام الخطر الذي عطبتهم فيه أقرب من سلامتهم لقلته عددهم وبعدهم عن أوطانهم وبلادهم وخطر الطريق فاستشارهم فكلهم أشاروا عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام وقالوا له إن نحن انهزمنا وهو الذي يغلب على الظن فإلى أين نلتجىء وبمن نحتسئ وكل من في هذه الديار من جندي وعامى وفلاح عدو لنا فقام أمير من عمالك نور الدين يقال له شرف الدين برغش صاحب شقيف وكان شجاعا وقال من يخاف القتال والأمر فلا يخدم الملوك بل يكون في بيته مع امرأته والله لئن عدنا إلى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نغدر فيه ليأخذن مالنا من أقطاع وجامكية وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه إلى يومنا هذا ويقولون تأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم وتسلمون مثل مصر إلى الكفار والحق بيده ، فقال أسد الدين هذا الرأي وبه أعمل وقال ابن أخيه صلاح الدين مثله وكثر الموافقون لهم واجتمعت الكلمة على القتال فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبته وجعل الأثقال في القلب يتكثرت بها ولأهله لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فبينما أهل البلاد وجعل صلاح الدين في القلب وقال له ولئن معه إن المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب ظنا منهم أني فيه فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا قدامهم بين أيديهم فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم واختار هو من شجعان عسكره جمعا يثق بهم ويعرف صبرهم في الحرب ووقف بهم في المينة فلما تقابل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره وحملوا على القلب فقاتلهم من به قتالا يسيرا وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين ومعهم الفرنج فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلف من الذين حملوا من المسلمين والفرنج الفارس والراجل فهزمهم ووضع السيف فيهم فأنخن وأكثرت القتل والأسر فلما عاد الفرنج من أثر المسلمين رأوا عسكرهم مهزوما والأرض منهم قفرا فانهزموا أيضا وكان هذا من أعجب ما يورخ أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل .

(ذكر ملك أسد الدين الإسكندرية وعوده إلى الشام) لما انهزم المصريون والفرنج من أسد الدين بالباين سار إلى ثغر الإسكندرية وجبى مافي القرى على طريقه من الأموال ووصل إلى الإسكندرية فقتلها بمساعدة من أهلها سلوها إليه فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد إلى الصعيد فلكه وجبى أمواله وأقام به حتى

صام رمضان ؛ وأما المصريين والفرنج فإنهم عادوا واجتمعوا على القاهرة وأصلحوا حال عساكرهم وجمعوا وساروا إلى الإسكندرية فحصروا صلاح الدين بها واشتد الحصار وقل الطعام على من بها فصر أهلها على ذلك وسار أسد الدين من الصعيد إليهم وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركان فوصل رسل الفرنج والمصريين يطلبون الصلح وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد فأجاب إلى ذلك وشرط على الفرنج أن لا يقيموا بالبلاد ولا يملكوا منها قرية واحدة فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا وعادوا إلى الشام وتسلم المصريون الإسكندرية في نصف شوال ووصل شيركوه إلى دمشق ثامن عشر ذي القعدة وأما الفرنج فإنهم استقر بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من إنقاذ عسكر إليهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار هذا كله استقر مع شاور فإن العاضد لم يكن له معه حكم لأنه قد حجر عليه وحجبه عن الأمور كلها وعاد الفرنج إلى بلادهم بالساحل الشامي وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم وكان الكامل شجاع بن شاور قد أرسل إلى نور الدين مع بعض الأمراء ينهى محبته وولاه ويسأله الدخول في طاعته وضمن على نفسه أنه يفعل هذا وبذل ما لا يحمله كل سنة فأجاب به إلى ذلك وحمل إليه مالا جزيلاً فبقى الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر سنة أربع وستين وخمسائة فكان ما ذكره هناك إن شاء الله تعالى .

(ذكر ملك نور الدين صافيثا وعريمة) في هذه السنة جمع نور الدين العساكر فسار إليه أخوه قطب الدين من الموصل وغيره فاجتمعوا على حمص فدخل نور الدين بالعساكر بلاد الفرنج فاجتازوا على حصن الأكراد فاغاروا ونهبوا وقصدوا عرقة فنازلوها وحصروها وأخذوها وخربوها وسارت عساكر المسلمين في بلادهم يمينا وشمالا تغير وتخرّب البلاد وفتحوا العريمة وصافيثا وعادا إلى حمص فصاموا بها رمضان ثم ساروا إلى بانياس وقصدوا حصن هوزين وهو للفرنج أيضا من أمنع حصونهم ومعاقلهم فانهمز الفرنج عنه وأحرقوه فوصل نور الدين من الغد فهدم سورته جميعه واراد الدخول إلى بيروت فتجدد في العسكر خلف أوجب التفرق فعاد قطب الدين إلى الموصل وأعطاه نور الدين مدينة الرقة على الفرات وكانت له فأخذها في طريقه وعاد إلى الموصل .

(ذكر قصد ابن شنكا البصرة) في هذه السنة عاود ابن شنكا فقصد البصرة ونهب بلدها وخربه من الجهة الشرقية وسار إلى مطاراً فخرج إليه كهشكين صاحب البصرة وواقعه فاجتمع بشرف الدين أبي جعفر ابن البلدي الناظر فيها ومعهما مقطعهما أرغش واتصلت الاخبار بأن ابن شنكا واصل إلى واسط فخاف الناس منه خوفا شديدا فلم يصل إليها .

(ذكر قصد شملة العراق) في هذه السنة وصل شملة صاحب خوزستان إلى قلعة الماهكي من أعمال بغداد وأرسل إلى الخليفة المستنجد بالله يطلب شيئا من البلاد ويشتط في الطلب فسير الخليفة أكثر عساكره إليه لينعموه وأرسل إليه يوسف الدمشقي بلومه ويحذره عاقبة فعله فاعتذر بأن ايلدكز والسلطان أرسلان نشاء أقطعا الملك الذي عنده وهو ولد ملكشاه البصرة وواسط وعرض التوقيع بذلك وقال أنا أقتع بثلك ذلك فعاد الدمشقي بذلك فأمر الخليفة بلعنه وأنه من الخوارج وجمعت العساكر وسيرت إلى أرغش المسترشدي وكان بالنعمانية هو وشرف الدين أبو جعفر بن البلدي ناظر واسط مقابل شملة ثم إن شملة أرسل

قلج ابن أخيه في طائفة من العسكر لقتال طائفة من الأكراد فركب أرغش في بعض العسكر الذي عنده وصار إلى قلج فخاربه فأسر قلج وبعض أصحابه وسيرهم إلى بغداد وبلغ شملة وطلب الصلح فلم تقع الإجابة إليه ثم إن أرغش سقط عن فرسه بعد الواقعة فمات وبقي شملة مقبلاً مقابل عسكر الخليفة فلما علم أنه لا قدرة له عليهم رحل وعاد إلى بلاده وكانت مدة سفره أربعة أشهر .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة عصى غازي بن حسان المنبجي على نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام وكان نور الدين قد أقطعه مدينة منبج فامتنع عليه فيها فسير إليه عسكراً فحصره وأخذوها منه وأقطعها نور الدين أخاه قطب الدين ينال بن حسان وكان عادلاً خيراً محسناً إلى الرعية جميل السيرة فبقي فيها إلى أن أخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة وفيها توفي نخر الدين أرسلان ابن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا وأكثر ديار بكر ولما اشتد مرضه أرسل إلى نور الدين محمود صاحب الشام يقول له بيتنا صحبة في جهاد الكفار أريد أن ترعى بها ولدي ثم توفي وملك بعده ولده محمد فقام نور الدين الشامي بنصرته والذب عنه بحيث إن أخاه قطب الدين مودوداً صاحب الموصل أراد قصد بلاده فأرسل إليه أخوه نور الدين يمنعه ويقول له إن قصدته أوتعرضت إلى بلاده منعتك قهراً فامتنع من قصده . وفيها توفي أبو المعالي محمد بن الحسين بن حمدون الكاتب ببغداد وكان على ديوان الزمام فقبض عليه فمات محبوساً . وفيها توفي قماج المسترشدی ولد الأمير يزدن وهو من أكابر الأمراء ببغداد (١) .

(ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة)

(ذكر فراق زين الدين الموصل وتحكم قطب الدين في البلاد) في هذه السنة فارق زين الدين علي بن بكتكين النائب عن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل خدمة صاحبه بالموصل وسار إلى إربل وكان هو الحاكم في الدولة وأكثر البلاد بيده منها إربل وفيه بيته وأولاده وخزائنه ومنها شهرزور وجميع القلاع التي معها وجميع بلد الهكارية وقلاعه منه العمادية وغيرها وبلد الحميدية وتكريت وسنجار وحران وقلعة الموصل هو بها وكان قد أصابه طرش وعمى أيضاً فلما عزم على مفارقة الموصل إلى بيته بإربل سلم جميع ما كان بيده من البلاد إلى قطب الدين مودود وبقي معه إربل حسب وكان شجاعاً عاقلاً حسن السيرة سليم القلب ميمون النقيبة لم ينهزم من حرب قط وكان كريماً كثير العطاء للجند وغيرهم مدحه الحبيص يبص بقصيدة فلما أراد أن ينشد قال أنا لا أعرف ما يقول ولكني أعلم أنه يريد شيئاً فأمر له بخمسمائة دينار وفرس وخلعة بمجموع ذلك ألف دينار ولم يزل بإربل إلى أن مات بها بهذه السنة ولما فارق زين الدين قلعة الموصل سلمها قطب الدين إلى نخر الدين عبدالمسيح وحكمه في البلاد فعمر القلعة وكانت خراباً لأن زين الدين كان قليل الالتفات إلى العمارة وسار عبدالمسيح سيرة سديدة وسياسة عظيمة وهو خصي أبيض من ممالك زنكي أتاك عماد الدين . (ذكر الحرب بين البهلوان وصاحب مراغة) في هذه السنة أرسل آقسنقر الأحمدبلي صاحب مراغة إلى

(١) وفيها توفي الرشيد الصدي في كان يجلس بين يدي العبادي على الكرسي ، كانت له شية وسمت ووقار . وكان يدمن حضور الساعات ، ويرقص ، فانفق أنه مات وهو يرقص في بعض الساعات .

بغداد يسأل أن يخطب للملك الذي هو عنده وهو ولد السلطان محمد شاه ويذلل أنه لا يظأ أرض العراق ولا يطلب شيئاً غير ذلك وبذل ما لا يحمله إذا أجيب إلى ما التمسه فأجيب بتطيب قلبه وبلغ الخبر ايلد كز صاحب البلاد فسامه ذلك وجهاز عسكرياً كثيراً وكثيلاً وجعل المقدم عليهم ابنه البهلوان وسيرهم إلى آقسنقر فوَقعت بينهم حرب أجلت عن هزيمة آقسنقر وتحصنه بمراغة ونازله البهلوان وحصره وضيق عليه ثم ترددت الرسل بينهم فاصطلحوا وعاد البهلوان إلى أبيه بهمدان .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة استوزر الخليفة المستنجد بالله شرف الدين أباجعفر أحمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن البلدي وكان ناظراً بواسط أبان في ولايتها عن كفاية عظيمة فأحضره الخليفة واستوزره وكان عضد الدين أبو الفرج بن رئيس الرؤساء قد تحمك تحكما عظيماً فتقدم الخليفة إلى ابن البلدي بكف يده وأيدى أهله وأصحابه ففعل ذلك ووكل بتاج الدين أخى أستاذ الدار وطالبه بحساب نهر الملك لأنه كان يتولاه من أيام المقتنى وكذلك فعل بغيره فحصل بذلك أموالاً كثيرة وخافه أستاذ الدار على نفسه فحمل ما لا كثيراً . وفي هذه السنة توفي عبد الكريم بن محمد بن منصور أبو سعيد بن أبي المظفر السمعاني المروزي الفقيه الشافعي وكان مكثراً من سماع الحديث سافر في طلبه وسمع منه ما لم يسمعه غيره ورحل إلى ماوراء النهر وخراسان دفعات ودخل إلى بلد الجبل وأصفهان والعراق والموصل والجزيرة والشام وغير ذلك من البلاد وله التصانيف المشهورة منها ذيل تاريخ بغداد وتاريخ مدينة مرو وكتاب النسب وغير ذلك أحسن فيها ماشاء وقد جمع مشيخته فزادت عدتهم على أربعة آلاف شيخ وقد ذكره أبو الفرج بن الجوزي فقطعه فن جملة قوله فيه إنه كان يأخذ الشيخ ببغداد ويعبر به إلى فوق نهر عيسى فيقول حدثني فلان بما وراء النهر وهذا بارد جداً فإن الرجل سافر إلى ماوراء النهر حقا وسمع في عامة بلاده من عامة شيوخه فأى حاجة به إلى هذا التدليس البارد وإنما ذنبه عند ابن الجوزي أنه شافعي وله أسوة بغيره فإن ابن الجوزي لم يبق على أحد إلا مكسرى الحنابلة . وفيها توفي قاضي القضاة أبو البركات جعفر بن عبد الواحد الثقفي في جمادى الآخرة . وفيها توفي يوسف الدمشقي مدرس النظامية بخوزستان وكان قد سار رسولا إلى شملة . وفيها توفي الشيخ أبو النجيب الشهرزوري الصوفي الفقيه وكان من الصالحين المشهورين ودفن ببغداد . (١)

(ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة)

(ذكر ملك نور الدين قلعة جعبر) في هذه السنة ملك نور الدين محمود بن زنكي قلعة جعبر أخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي وكانت بيده ويد آباءه من قبله من أيام السلطان ملكشاه وقد تقدم ذكر ذلك وهي من أمنع القلاع وأحصنها مطلة على الفرات من الجانب الشرقي وأما سيد ملكها

(١) وفيها توفي محمد بن عبد الحميد بن أبي الحسين أبو الفتح الوازي ، المعروف بالعلاء العالم وهو من أهل سمرقند وكان من الفحول في المناظرة ، وله طريقة في الخلاف والجدل ، يقال لها التعليقة العالمية . قال ابن الجوزي وقد قدم بغداد وحضر مجلسي ، وقال أبو سعد السمعاني : كان يدمن شرب الخمر . قال وكان يقول ليس في الدنيا أطيب من كتاب المناظرة وباطية من خمر أشرب منها . قال ابن الجوزي : ثم بلغني عنه أنه أقطع عن شرب الخمر والمناظرة وأقبل على النسك والخير .

فإن صاحبها نزل منها يتصيد فاخذه بنو كلاب وحملوه إلى نور الدين في رجب سنة ثلاث وستين فاعتقله وأحسن إليه ورغبه في الإقطاع والمال ليسم إليه القلعة فلم يفعل فعدل إلى الشدة والعنف وتهده فلم يفعل فسير إليها نور الدين عسكرا مقدما الأمير نجر الدين مسعود بن علي الزعفراني فحصرها مدة فلم يظفر منها بشيء فأمدم بمسكر آخر وجعل على الجميع الأمير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الداية وهو رضيع نور الدين وأبى أمراته فحصرها أيضا فلم ير له فيها مطمعا فسلك مع صاحبها طريق اللين وأشار عليه أن يأخذ من نور الدين العوض ولا يخاطر في حفظها بنفسه فقبل قوله وسلبها فأخذ عوضا عنها سروج وأعمالها والملاحة التي بين بلد حلب وباب بزاعة وعشرين ألف دينار معجلة وهذا إقطاع عظيم جدا إلا أنه لاحصن فيه وهذا آخر أمر بي مالك بالقلعة ولكل أمر أمد ولكل ولاية نهاية بلغني أنه قيل لصاحبها أيما أحب إليك وأحسن مقاما سروج والشام أم القلعة فقال هذه أكثر مالا وأما العز فقارقاته بالقلعة .

(ذكر ملك أسد الدين مصر وقتل شاور) في هذه السنة في ربيع الأول سار أسد الدين شيركوه بن شاذي إلى ديار مصر فملكها ومعه العساكر النورية وسبب ذلك ما ذكرناه من تمكن الفرنج من البلاد المصرية وأنهم جعلوا لهم في القاهرة شحنة وتسلبوا أبوابها وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم وحكموا على المسلمين حكما جائرا وركبهم بالأذى العظيم فلما رأوا ذلك وأن البلاد ليس فيها من يردم أرسلوا إلى ملك الفرنج بالشام وهو مري ولم يكن للفرنج مذ ظهر بالشام مثله شجاعة ومكرا ودهاء يستدعونه لملكها وأعلوه خلوها من موانع وهو تروا أمرها عليه فلم يجبهم فاجتمع إليه فرسان الفرنج وذو الرأي منهم وأشاروا عليه بقصدها وتملكها فقال لهم الرأي عندي أننا نقصدها ولا طمة لنا فيها وأموالها تساق اليان تقوى بها على نور الدين وإن نحن قصدناها لتملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحها لا يسلمونها اليان ويقاتلوننا ونهاو يحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين ولئن صار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام فلم يقبلوا قوله وقالوا له إنها لا مانع فيها ولا حامى وإلى أن يتجهز عسكر نور الدين ويسير إليها نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة فسار معهم على كره وشرها يتجهزون ويظهرون أنهم يريدون تصد مدينة حمص فلما سمع نور الدين شرع أيضا يجمع عساكره وأمرهم بالقدوم عليه وجد الفرنج في السير إلى مصر فقدموها ونازلوا مدينة بليس وملكوها قهرا مستهل صفر ونهبوها وقتلوا فيها وأسروا وكان جماعة من أعيان المصريين قد كاتبوا الفرنج ووعدوهم النصره عداوة منهم لشاور بن الخياط وابن فرجلة فقوى جنان الفرنج وساروا من بليس إلى مصر فزلوا على القاهرة عاشر صفر وحصروها بخفاف الناس منهم أن يفعلوا بهم كما فعلوا بأهل بليس فحملهم الخوف منهم على الامتناع فحفظوا البلد وقتلوا دونه وبدلوا جهدهم في حفظه فلو أن الفرنج أحسنوا السيرة في بليس ملكوا مصر والقاهرة ولكن الله تعالى حسن لهم ذلك أي ما فعلوا (ليقتضى الله أمرا كان مفعولا) وأمر شاور بإحراق مدينة مصر تاسع صفر وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة وأن ينهب البلد فانتقلوا وبقوا على الطرق ونهبت المدينة وافتقر أهلها وذهبت أموالهم ونعمتهم قبل نزول الفرنج عليهم بيوم خروفا أن يملكها الفرنج فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوما وأرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج وأرسل في الكتب شعور النساء وقال هذه شعور نسائي من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج فشرع في تسيير الجيوش وأما الفرنج

فإنهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيّقوا على أهلها وشاوور هو المتولى للأمر والعساكر والقتال فضاق به الأمر وضعف عن ردهم فأخلد إلى أعمال الحيلة فأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له مودة ومحبة له قديما وأن هواه معه لخوفه من نور الدين والعاقد وإنما المسلمون لا يوافقونه على التسليم إليه ويشير بالصلح وأخذ مال لثلاث يتسلم البلاد نور الدين فأجابه إلى ذلك على أن يعطوه ألف ألف دينار مصرية بمجل البض ويمهل بالبعض فاستقرت القاعدة على ذلك ورأى الفرنج أن البلاد قد امتنعت عليه وربما سلمت إلى نور الدين فأجابوا كارهين وقالوا نأخذ المال فنتقوى به ونعاود البلاد بقوة لا نبالي معها بنور الدين (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) فعجل لهم شاوور مائة ألف دينار وسألم الرحيل عنه ليجمع لهم المال فرحلوا قريبا وجعل شاوور يجمع لهم المال من أهل القاهرة ومصر فلم يتحصل له إلا قدر لا يبلغ خمسة آلاف دينار وصيه أن أهل مصر كانوا قد احترقت دورهم وما فيها وما سلم نهب وهم لا يقدرّون على الأقوات فضلا عن الأقساط وأما أهل القاهرة فالأغلب على أهلها الجند وعلمانهم فلهمنا تعذرت عليهم الأموال وهم في خلال هذا يرسلون نور الدين بما الناس فيه وبذلوا له ثلث بلاد مصر وأن يكون أسد الدين مقيما عندهم في عسكر وإقطاعهم من البلاد المصرية أيضا خارجا عن الثلث الذي لهم وكان نور الدين لما وصله كتب العاقد بحلب أرسل إلى أسد الدين يستدعيه إليه فخرج القاصد في طلبه فلقبه على باب حلب وقد قدمها من حمص وكانت أقطاعه وكان سبب وصوله أن كتب المصريين وصله أيضا في المعنى فسار أيضا إلى نور الدين واجتمع به وعجب نور الدين من حضوره في الحال وسره ذلك وتغافل به وأمر بالتجهيز إلى مصر وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والأسلحة وغير ذلك وحكمه في العسكر والخزائن واختار من العسكر ألفي فارس وأخذ المال وجمع ستة آلاف فارس وسار هو ونور الدين إلى باب دمشق فوصلها سلخ صفر ورحل إلى رأس الماء وأعطى نور الدين كل فارس من مع أسد الدين عشرين دينارا معونة غير محسوبة من جامكته وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الأمراء منهم مملوكه عز الدين جرديك وغرس الدين قليج وشرف الدين برغش وعين الدولة الباروقى وقطب الدين ينال بن حسان المنبجى وصلاح الدين يوسف بن أيوب أخى شيركوه على كره منه (وعسى أن تكررنا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهب بيته وكره صلاح الدين المسير وفيه سعاده وملكه وسيرد ذلك عند موت شيركوه إن شاء الله تعالى وسار أسد الدين شيركوه من رأس الماء مجدا منتصف ربيع الأول فلما قارب مصر رحل الفرنج إلى بلادهم بخفي حنين خائبين بما أملوا وسمع نور الدين بعودهم فسره ذلك وأمر بضرب البشائر في البلاد وبث رسله في الآفاق مبشرين بذلك فإنه كان فتحا جديدا لمصر وحفظا لبلاد الشام وغيرها فأما أسد الدين فإنه وصل إلى القاهرة سابع جمادى الآخرة ودخل إليها واجتمع بالعاقد لدين الله وخلع عليه وعاد إلى خيامه بالخلعة العاضدية وفرح به أهل مصر وأجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة والإقامات الوافرة ولم يمكن شاوور المنع عن ذلك لأنه رأى العساكر كثيرة مع شيركوه وهوى العاقد معهم فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه وشرع يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل لنور الدين من المال وإقطاع الجند وإفراد ثلث البلاد لنور الدين وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه (وما يعدم الشيطان إلا غرورا) ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة يدعو إليها أسد الدين والأمراء الذين معه ويقبض عليهم يستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم

البلاد من الفرنج فنهاه ابنه الكامل وقال له والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن شيركوه فقال له أبوه والله لئن لم تفعل هذا لنقتلن جميعا فقال صدقت ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج فإنه ليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارسا واحدا ويملكون البلاد فترك ما كان عزم عليه ولما رأى العسكر النورى مطل شاور خافوا شره فاتفق صلاح الدين يوسف بن أيوب وعز الدين جرديك وغيرهم على قتل شاور فهاجم أسد الدين فسكنوا وهم على ذلك العزم من قتله فاتفق أن شاور قصد عسكر أسد الدين على عادته فلم يجده في الخيام كان قد مضى يزور قبر الشافعي رضي الله تعالى عنه فلقبه صلاح الدين يوسف وجرديك في جمع من العسكر وخدموه وأعلموه بأن شيركوه في زيارة قبر الإمام الشافعي فقال نمضي إليه فساروا جميعا فساير صلاح الدين وجرديك والقوه إلى الأرض عن فرسه فهرب أصحابه عنه فأخذ أسيرا فلم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين فتوكلوا بحفظه وسيروا أعلموا أسد الدين فحضر ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه وسمع الخليفة العاضد صاحب مصر الخبر فأرسل إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور وتابع الرسل بذلك فقتل وأرسل رأسه إلى العاضد في السابع عشر من ربيع الآخرة ودخل أسد الدين القاهرة فرأى من اجتماع الخلق ما خافهم على نفسه فقال لهم أمير المؤمنين يعني العاضد يأمركم بنهب دار شاور فتفرق الناس عنه إليها فتهبوا وقصد هو قصر العاضد فخلع عليه خلع الوزارة ولقب الملك المنصور أمير الجيوش وسار بالخلع إلى دار الوزارة وهي التي كان فيها شاور فلم ير فيها ما يقعد عليه واستقر في الأمر وغلب عليه ولم يبق له مانع ولا منازع واستعمل على الأعمال من يثق إليه من أصحابه وأقطع البلاد لعساكره وأما الكامل بن شاور فإنه لما قتل أبوه دخل القصر هو وإخوته معتصمين به فكان آخر العهد بهم فكان شيركوه يتأسف عليه كيف عدم لأنه بلغه ما كان منه مع أبيه في منعه من قتل شيركوه وكان يقول وددت أنه بقي لأحسن إليه جزاء الصنيعة.

(ذكر وفاة أسد الدين شيركوه) لما ثبت قدم أسد الدين وظن أنه لم يبق له منازع أتاه أجله (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة) فتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام؛ وأما ابتداء أمره وسبب اتصاله بنور الدين فإنه كان هو وأخوه نجم الدين أيوب ابنا شاذي من بلدوين من أذربيجان وأصلهما من الأكراد الزوادية وهذا القبيل هم أشرف الأكراد فقدا العراق وخدموا مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد فرأى من نجم الدين عقلا وافرًا وحسن سيرة وكان أكبر من شيركوه فجعله مستحفظًا للقعة تكريت وهي له فسار إليها ومعه أخوه شيركوه فلما انهزم أتاك الشهد زنكي بن آقسنقر بالعراق من قراجا الساقى على ما ذكرناه سنة ست وعشرين وخمسمائة وصل منهزمًا إلى تكريت فخدمه نجم الدين وأقام له السفن فعبر دجلة هناك وتبعه أصحابه فأحسن أيوب صحبتهم وسيرهم ثم إن شيركوه قتل إنسانًا بتكريت لملاحاة جرت بينهما فأخرجهما بهروز من القلعة فسار إلى الشهد زنكي فأحسن إليهما وعرف لما خدمتهما وأقطعهما أقطاعًا حسنا فلما ملك قلعة بعلبك جعل أيوب مستحفظًا بها فلما قتل الشهد حصر عسكر دمشق بعلبك وهو بها فضاقت عليه الأمر وكان سيف الدين غازي بن زنكي مشغولًا عنه بإصلاح البلاد فاضطر إلى تسليمها إليهم فسلها على أقطاع ذكره فأجيب إلى ذلك وصار من أكبر الأجراء بدمشق

واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بنور الدين محمود بعد قتل زنكي وكان يخدمه في أيام والده فقربه وقدمه ورأى منه شجاعة يمجز غيره عنها فزاده حتى صار له حصص والرحبة وغيرهما وجعله مقدم عسكره فلما أراد نور الدين ملك دمشق أمره فراسل أخاه أيوب وهو بها وطلب منه المساعدة على فتحها فأجاب إلى ذلك على ما يراد منه على أقطاع ذكره له ولأخيه وقرى يتملكانها فأعطاهما ما طلبا وفتح دمشق على ما ذكرناه ووفى لها وصارا أعظم أمراء دولته فلما أراد أن يرسل العساكر إلى مصر لم ير لهذا الأمر العظيم والمقام الخطر غيره فأرسله ففعل ما ذكرناه أولا وآخرا والله أعلم.

(ذكر ملك صلاح الدين مصر) لما توفي أسد الدين شيركوه كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب ابن شاذي قد سار معه على كره منه الهسيثه حكي لي عنه بعض أصدقائنا ممن كان قريبا إليه خصيصا به قال لما وردت كتب العاضد على نور الدين يستغيث به من الفرنج ويطلب إرسال العساكر أحضرتني وأعلمني الحال وقال تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه ليحضر وتحتة أنت على الإسراع فما يحتمل الأمر التأخير ففعلت وخرجنا من حلب فما كنا على ميل من حلب حتى لقيناه قادمنا في هذا المعنى فأمره نور الدين بالمسير فلما قال له نور الدين ذلك التفت عني إلى فقال لي تجهز يا يوسف فقلت والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها فلقد قاسيت بالإسكندرية وغيرها مالا أنساه أبدا فقال لنور الدين لا بد من مسيره معي فتأمر به فأمرني نور الدين وأنا استقبل وانقضى المجلس وتجهز أسد الدين ولم يبق غير المسير قال نور الدين لا بد من مسيرك مع عمك فشكوت إليه الضائقة وعدم البرك فأعطاني ما تجهزت به فكأنما أساق إلى الموت فسرت معه وملكها ثم توفي فلكني الله تعالى مالا كنت أطمع في بعضه وأما كيفية ولايته فإن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة العاضدية بعده منهم عين الدولة الباروقى وقطب الدين ينال وسيف الدين المشطوب الهكاري وشهاب الدين محمود الحارمى وهو خال صلاح الدين وكل واحد من هؤلاء يخطبها وقد جمع أصحابه ليغالب عليها فأرسل العاضد إلى صلاح الدين أحضره عنده وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه وكان الذى حمله على ذلك أن أصحابه قالوا له ليس فى الجماعة أضعف ولا أصغر سنا من يوسف والرأى أن يولى فإنه لا يخرج من تحت حكمنا ثم نضع على العساكر من يستميلهم لنا فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد ثم نأخذ يوسف أو نخرجه فلما خلع عليه لقب الملك الناصر ولم يطمعه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه وكان الفقيه عيسى الهكاري معه فسعى مع المشطوب حتى أماله إليه وقال له إن هذا الأمر لا يصل اليك مع عين الدولة والحارمى وغيرهما ثم قصد الحارمى وقال هذا صلاح الدين هو ابن أختك وعزه وملكه لك وقد استقام له الأمر فلا تكن أول من يسعى فى إخراجة عنه ولا يصل اليك فإلى إليه أيضا ثم فعل مثل هذا بالباقيين وكلهم أطاع غير عين الدولة الباروقى فإنه قال أنا لا أخدم يوسف وعاد إلى نور الدين بالشام ومعه غيره من الأمراء وثبت قدم صلاح الدين ومع هذا فهو نائب عن نور الدين وكان نور الدين يكتبه بالأمير الأسفهلار ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيما عن أن يكتب اسمه وكان لا يفرد به بكتاب بل يكتب الأمير الأسفهلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الأموال فالوا إليه وأحبوه وضعف أمر العاضد ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته وأهله فأرسلهم إليه

وشرط عليهم طاعته والقيام بأمره ومساعدته وكلهم فعل ذلك وأخذ إقطاعات الأمراء المصريين فأعطاهما أهله والأمراء الذين معه وزادهم فازدادوا له حبا وطاعة قد اعتبرت التواريخ فرأيت كثيرا من التواريخ الإسلامية التي يمكن ضبطها ورأيت كثيرا ممن ابتدئ الملك تنتقل الدولة عن صلبه إلى بعض أهله وأقاربه منهم أول الإسلام معاوية بن أبي سفيان أول من ملك من أهل بيته فنتقل الملك من أعقابه إلى بني مروان من بني عمه ثم من بعده السفاح أول من ملك من بني العباس انتقل الملك من أعقابه إلى أخيه المنصور ثم السامانية أول من استبد منهم نصر بن أحمد فانتقل الملك عنه إلى أخيه اسمعيل بن أحمد وأعقابه ثم يعقوب الصفار وهو أول من ملك من أهل بيته فانتقل الملك إلى أخيه عمرو وأعقابه ثم عماد الدولة بن بويه أول من ملك من أهله انتقل الملك عنه إلى أخويه ركن الدولة وعز الدولة ثم خلع في أعقاب ركن الدولة ومعز الدولة ثم خلع في أعقاب ركن الدولة ثم الدولة السلجوقية أول من ملك منهم طغرل بك انتقل الملك إلى أولاد أخيه داود ثم هذا شيركوه كما ذكرناه انتقل الملك إلى أعقاب أخيه أيوب ثم إن صلاح الدين لما أنشأ الدولة وعظمتها وصار كأنه أول لها نقل الملك إلى أعقاب أخيه العادل ولم يبق بيد أعقابه غير حلب وهذه أعظم الدول الإسلامية ولولا خوف التطويل لذكرنا أكثر من هذا والذي أظنه السبب في ذلك أن الذي يكون أول دولة يكثر ويأخذ الملك وقلوب من كان فيه متعلقة به فلهذا يحرمه الله أعقابه ومن يفعل ذلك من أجلهم عقوبة له .

(ذكر وقعة السودان بمصر) في هذه السنة في أوائل ذي القعدة قتل مؤتمن الخلافة وهو خصي كان بقصر انعاقد إليه الحكم فيه والتقدم على جميع من يحويه فاتفق هو وجماعة من المصريين على مكانة الفرنج واستدعائهم إلى البلاد والتقوى بهم على صلاح الدين ومن معه وسيروا الكتب مع إنسان يثقون إليه وأقاموا ينتظرون جوابه وسار ذلك إلى القاعد إلى البئر البيضاء فلقية إنسان تركاني فرأى معه نعلين جديدين فأخذهما منه وقال في نفسه لو كانا مما يلبسه هذا الرجل لكانا خلقين فإنه رث الهيئة وارتاب به وبهما فأتى به صلاح الدين ففتقهما فرأى الكتاب فيهما فقراه وسكت عليه وكان مقصود مؤتمن الخلافة أن يتحرك الفرنج إلى الديار المصرية فإذا وصلوا إليها خرج صلاح الدين في العساكر إلى قتالهم فيثور مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على متخلفيهم فيقتلونهم ثم يخرجون بأجمعهم يتبعون صلاح الدين فيأتونه من وراء ظهره والفرنج من بين يديه فلا يبقى لهم بقية فلما قرأ الكتاب سأل عن كاتبه فقيل رجل يهودى فأحضر فأمر بضربه وتقريره فابتدأ وأسلم وأخبره الخبر وأخفى صلاح الدين الحال وأن مؤتمن الخلافة استشعر فلأزم القصر ولم يخرج منه خوفا وإذا خرج لم يبعد من صلاح الدين وصلاح الدين لا يظهر له شيئا من الطلب لئلا ينكر ذلك فلما طال الأمر خرج من القصر إلى قرية له تعرف بالخرقانية للنزاهة فلما علم به صلاح الدين أرسل إليه جماعة فأخذوه وقتلوه وأتوا برأسه وعزل جميع الخدم الذين يتولون أمر قصر الخلافة واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش وهو خصي أبيض وكان لا يجرى في القصر صغير ولا كبير إلا بأمره فغضب السودان لقتل مؤتمن الخلافة للجنسية ولأنه كان يتعصب لهم فحشدوا وجمعوا فزادت عدتهم على خمسين ألفا وقصدوا حرب الأجناد الصلاحية فاجتمع العسكر أيضا وقاتلهم بين القصرين وكثر القتل في الفريقين فأرسل صلاح الدين إلى محلاتهم المعروفة بالمنصورة فأحرقها على أموالهم وأولادهم فلما أتاهم الخبر بذلك ولوا منهزمين فركبهم السيف وأخذت عليهم أفواه السكك فطلبوا الأمان بعد أن كثر فيهم القتل فأجيبوا إلى ذلك فأخرجوا من مصر إلا الجيزة فغير

اليهم شمس الدولة أخو صلاح الدين الأكبر في طائفة من العسكر فأبادهم بالسيف ولم يبق منهم إلا القليل الشريد وكفى الله تعالى شرهم والله أعلم .

(ذكر ملك شملة فارس وإخراجه عنها) في هذه السنة ملك شملة صاحب خوزستان بلاد فارس وأخرج عنها وسبب ذلك أن زنكي بن دكلا صاحبها أساء السيرة مع عسكره فأرسلوا إلى شملة بخوزستان وحسنوا له قصد فارس فجمع عساكره وتجهز وسار إليها فخرج إليه زنكي بن دكلا ووقعت بينهم حرب خامر فيها أصحاب زنكي عليه فانهزم في شردمة من عسكره ونجا بنفسه وقصد الأكراد الشوانكار والتجأ إليهم فأجاره صاحبها وأحسن ضيافته ونزل شملة ببلاد فارس فملكها فأساء السيرة إلى أهلها ونهب ابن أخيه ابن شنكا البلاد فتغيرت بواطن أهلها عليه واجتمع إلى زنكي بعض العسكر الذين خامروا عليه لما رأوا من سوء سيرة شملة واستعاد زنكي بلاده ورجع إلى ملكه وعاد شملة إلى بلاد خوزستان .

(ذكر ملك ايلدكز الري) في هذه السنة ملك ايلدكز مدينة الري والبلاد التي كانت بيد اينانج وسبب ذلك أن ايلدكز كان قد استقر الأمر بينه وبين اينانج على مال يؤديه إلى ايلدكز فمنعه سنتين فأرسل ايلدكز يطلب المال فاعتذر بكثرة غلبانه وحاشيته فتجهز ايلدكز وقصد الري فالتقاء اينانج وحاربه حربا عظيما فانهزم اينانج ومضى منهزما فتحصن بقلعة طبرك فحصره ايلدكز فيها وراسل سرا جماعة من مماليكه فأطمعهم في الإقطاعات والاموال والإحسان العظيم ليقتلوا اينانج فقتلوه وكانوا جماعة كثيرة وسلموا البلد إلى ايلدكز فرتب فيه صهر بن علي باغ وعاد إلى همدان ولم يف للغلبان الذين قتلوا اينانج وسلموا البلد إليه بما وعدم وقال مثل هؤلاء ينبغي أن لا يستخدموا وأبعدم عنه فتفرقوا في البلاد فسار بعضهم وهو الذي تولى قتله إلى خوارزمشاه فصلبه خوارزمشاه نكالا بما فعل بصاحبه .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة رؤى في دار الخليفة رجل غريب في الطريق التي يركب فيه وفي يده سكين صغيرة وفي يده الأخرى سكين كبيرة فأخذه وقرروه فقال أنا من حلب فحبس وعوقب البواب ولم يعلم من أين دخل . وفيها قبض ابن البلدي وزير الخليفة على الحسين بن محمد المعروف بابن السبئي وعلى أخيه الأصغر وكانا ابني عمه عضد الدين أستاذ الدار وكان الأصغر عامل البيمارستان فقطعت يده ورجله قيل كان عنده صنج يقبض بها ويحمل إلى الديوان بالصنج الصحيحة وقيل غير ذلك وحمل إلى البيمارستان فمات به وكان شاعرا فن شعره وهو محبوس هذه الآيات :

سلام على أهلي وصحبي وجلاسي • ومن في فؤادي ذكرهم راسب راسي
أعاج فيكم كل م ولا أرى • لدا هومي غير رؤيتكم آسي
لقد أبدت الأيام لي كل شدة • تشيب لها إلا كباد فضلا عن الراس
فيا ابنة عبدا لله صبرا على الذي • لقيت فهذا الحكم من مالك الناس
فلو أبصرت عينك ذلي بكيت لي • بدمع سوى بالمدامع رجاس
أقول لقلبي والهجوم تنوشه • وقد حدثته النفس بالضر والياس
فلو هم طيف من خيالي بزوركم • لماعه دون المغالقي حراسي
وما حذري إلا على النفس لا على • سواها لأنني حلف قسر وإفلاس

وفيهما توفي المعمر بن عبدالواحد بن رجار أبو أحمد الأصفهاني الحافظ يروي عن أصحاب أبي نعيم وكان موته بالبادية ذاهبا إلى الحج في ذي القعدة . وفي رجب منها توفي الشيخ أبو محمد الفارقي المتكلم على الناس وكان أحد الزهاد له كرامات كثيرة . وكان يتكلم على الحاطر وكلامه مجموع مشهور . وفيها مات جعيف الرقاص من ندماء دار الخلافة . وفي شوال منها توفي القاضي أبو الحسن علي بن يحيى القرشي الدمشقي . وفي ذي الحجة توفي نجم الدين ابن محمد بن علي بن القاسم الشهرزوري قاضي الموصل وولي ابنه حجة الدين عبدالقاهر القضاء (١)

﴿ ثم دخلت سنة خمس وستين خمسمائة ﴾

(ذكر حصر الفرنج دمياط) في هذه السنة في صفر نزل الفرنج على مدينة دمياط من الديار المصرية وحصروها وكان الفرنج بالشام لما ملك أسد الدين شيركوه مصر قد خافوه وأيقنوا بالهلاك وكاتبوا الفرنج الذين بصقلية والاندلس وغيرها يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك الأتراك مصر وأنهم خائفون على البيت المقدس منهم فأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضونهم على الحركة فأمدوهم بالأموال والرجال والسلاح واتعدوا للنزول على دمياط ظنا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهر يملكون به الديار المصرية (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا) فإلى أن دخلوا كان أسد الدين قد مات وملك صلاح الدين فاجتمعوا عليها وحصروها وضيقوا على من بها فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل وحشر فيها كل من عنده وأمدم بالأموال والسلاح والذخائر وأرسل إلى نور الدين يشكو مام فيه من المخافة ويقول إني إن تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج وإن سرت إليها خلفي المصريون في أهلها بالشر وخرجوا عن طاعتي وساروا في أترى والفرنج أمامى فلا يبقى لنا باقية فسير نور الدين العساكر إليه أرسالا يتلو بعضها بعضها ثم سار هو بنفسه إلى بلاد الفرنج الشامية فنهبا وأغار عليها واستباحها فوصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه قبل لخلو البلاد من مانع فلما رأى الفرنج تنابع العساكر إلى مصر ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وتخريبها رجعوا خائبين لم يظفروا بشيء ووجدوا بلادهم خرابا وأهلها بين قتل وأسير فكأوا موضع المثل (خرجت النعامة تطلب قرنين رجعت بلا أذنين) وكانت مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما أخرج فيها صلاح الدين

(١) وفيها توفي سعد الله بن نصر بن سعيد الدجاجي أبو الحسن الواعظ الحنبلي ، ولد سنة ثمانين وأربعمائة ، وسمع الحديث وتفقه ووعظ ، وكان لطيف الوعظ ، وقد أتى عليه ابن الجوزي في ذلك ، وذكر أنه سئل مرة عن أجاديث الصفات فنهى عن التعرض لذلك وأنشد :

أبي الغائب الغضبان يا نفس أن ترضى • وأنت الذي صيرت طاعته فرضا

فلا تهجرى من لا تطيقين هجره • وإن هم بالهجران خديك والأرضا

وذكر ابن الجوزي عنه أنه قال : خفت مرة من الخليفة فهتف بي هاتف في المنام وقال لي اكتب

ادفع بصبرك حادث الأيام • وترج لطف الواحد العلام

لا تياسن وإن تضايق ككربها • ورمك ريب صروفها بسهام

فله تعالى بين ذلك فرجة • تخني على الأفهام والأوهام

كم من نجما من بين أطراف القنا • وفريسة سلت من الضرغام

توفي في شعبان عن أربع وثمانين سنة ، ودفن عند رباط الزوري ثم نقل إلى مقبرة الإمام أحمد .

(١٤ - الكامل - ٩)

أموالا لا تحصى حكى أنه قال ما رأيت أكرم من العاضد أرسل إلى مرة لمقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها .

(ذكر حصر نور الدين الكرك) في هذه السنة في جمادى الآخرة سار نور الدين إلى بلد الفرنج فحصر الكرك وهو من أمنع المعاقل على طرف البر وكان سبب ذلك أن صلاح الدين أرسل إلى نور الدين يطلب أن يرسل إليه والده نجم الدين أيوب فجهزه نور الدين وسيره وسير معه عسكريا واجتمع معه من التجار خلق كثير وانضاف إليهم من كان له مع صلاح الدين أنس وصحبة نخاف نور الدين عليهم من الفرنج فسار في مسالكه إلى الكرك فحصره وضيق عليه ونصب عليه المنجنيقات فأناه الخبر أن الفرنج قد جمعوا له وساروا إليه وقد جعلوا في مقدمتهم إليه ابن هنقرى وقريب بن الرقيق وهما فارسا الفرنج في وقتها فرحل نور الدين نحو هذين المقدمين ليلقاها ومن معها قبل أن يلتحق بهما باقي الفرنج فلما قاربهما رجعا القهقرى واجتمعا بباقي الفرنج وسلك نور الدين وسط بلادهم ينهب ويحرق ما على طريقه من القرى إلى أن وصل إلى بلاد الإسلام فزل على عشترا وأقام ينظر حركة الفرنج ليلقاهم فلم يبرحوا من مكانهم فأقام هو حتى أتاهم خبر الزلزلة الحادثة فرحل وأما نجم الدين أيوب فإنه وصل إلى مصر سالما هو ومن معه وخرج العاضد الخليفة التقاه إكراما له .

(ذكر غزوة لسرية نورية) كان شهاب الدين الياس بن ايلغازى بن أرتق صاحب قلعة البيرة قد سار في عسكره وهو في مائتي فارس إلى نور الدين وهو بعشترا فلما وصل إلى قرية اللبوة وهي من عمل بعلبك ركب متصيذا فصادف ثلثمائة فارس من الفرنج قد ساروا للإغارة على بلاد الإسلام سابع عشر شوال فوقع بعضهم على بعض واقتلوا واشتد القتال وصبر الفريقان لاسيما المسلمون فإن ألف فارس لا يصبرون لحملة ثلثمائة فارس أفرنجية وكثر القتلى بين الطائفتين فانهزم الفرنج وعمهم القتل والأسر فلم يفلت منهم إلا من لا يعتد به وسار شهاب الدين برؤس القتلى وبالأسرى إلى نور الدين فركب نور الدين والعسكر فلقوهم فرأى نور الدين في الرؤس رأس مقدم الاسبتار صاحب حصن الأكراد وكان من الشجاعة بمحل كبير وكان شجاعا في حلق المسلمين .

(ذكر الزلزلة وما فعلته بالشام) في هذه السنة أيضا ثنى عشر شوال كانت زلازل عظيمة متتابعة هائلة لم ير الناس مثلها وعمت أكثر البلاد من الشام والجزيرة والموصل والعراق وغيرها من البلاد وأشدّها كان بالشام فخرجت كثيرا من دمشق وبعلبك وحمص وحمّاه وشيزر وبعرين وحلب وغيرها وتهدمت أسوارها وقلاعها وسقطت الدور على أهلها وهلك منهم ما يخرج عن الحد فلما أتاه الخبر سار إلى بعلبك ليعمر ما تهدم من سورها وقلعتها فلما وصلها أتاه خبر باقي البلاد وخراب أسوارها وقلاعها وخلوها من أهلها فجعل بعلبك من يعمرها ويحفظها وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك ثم إلى حمّاه ثم إلى بعرين وكان شديد الخذر على سائر البلاد من الفرنج ثم أتى مدينة حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد فإنما كانت قد أتت عليها وبلغ الرعب من نجاكل مبلغ وكانوا لا يقدرّون يأوون مساكنهم خوفا من الزلزلة فأقام بظاهرها وبأشرف عمارتها بنفسه فلم يزل كذلك حتى أحكم أسوار البلاد وجوامعها وأما بلاد الفرنج فإن الزلازل أيضا عملت بها كالكلك فاشتغلوا بعمارة بلادهم خوفا من نور الدين عليها فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده خوفا من الآخر .

(ذكر وفاة قطب الدين مودود بن زنكي وملك ابنه سيف الدين غازي) في هذه السنة في ذي الحجة مات

قطب الدين مودود بن زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل بالموصل وكان مرضه حى حادة ولما اشتد مرضه وصى بالملك بعده لابنه الاكبر هماد الدين زنكى وعدل عنه إلى ابنه الآخر سيف الدين غازى وإنما صرف الملك عن ابنه الاكبر هماد الدين زنكى بن مودود لأن القيم بأمر دولته والمقدم فيها كان خادما له يقال له فخر الدين عبد المسيح وكان يكره عماد الدين لأنه كان طوع عمه نور الدين لكثرة مقامه عنده ولأنه زوج ابنته وكان نور الدين يبغض عبد المسيح فاتفق فخر الدين وخاتون ابنة حسام الدين تمرش بن ايلغازى وهى والدة سيف الدين على صرف الملك عن عماد الدين إلى سيف الدين فدخل عماد الدين إلى عمه نور الدين مستصرا به ليعينه على أخذ الملك لنفسه وتوفى قطب الدين وعمره نحو أربعين سنة وكان ملكه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفا وكان فخر الدين هو المدبر للأمر والحاكم فى الدولة وكان قطب الدين من أحسن الملوك سيرة وأعفهم عن أموال رعيته محسنا إليهم كثير الإنعام عليهم محبوبا إلى كبيرهم وصغيرهم عطوفا على شريفهم ووضعهم كريم الأخلاق حسن الصحبة لهم فكان القائل أراد به بقوله

خلق كما المزن طيب مذاقة • والروضة الغناء طيب نسيم
كالسيف لكن فيه حلم واسع • عن جنى والسيف غير حليم
كالغيث إلا أن وابل جوده • أبدا وجود الغيث غير مقيم
كالدهر إلا أنه ذو رحمة • والدهر قاسى القلب غير رحيم

وكان مريع الانفعال للخير بطيئا عن الشرجم المناب قليل المعايير رحمه الله ورضى عنه وعن جميع المسلمين بمته وكرمه أنه جواد كريم .

(ذكر حالة ينبغي للبلوك أن يحترزوا من مثلها) حدثنى والذى رحمه الله قال كنت أتولى جزيرة ابن عمر لقطب الدين كما علمت فلما كان قبل موته ييسر أنا كتاب من الديوان بالموصل يأمرهم بمساحة جميع بساتين العقيمة وهذه العقيمة هى قرية تحاذى الجزيرة منها دجلة ولها بساتين كثيرة بعضها يسمح فيؤخذ منه على كل جريب شىء معلوم وبعضها عليه خراج وبعضها مطلق عن الجميع قال وكان لى فيها ملك كثير فكنت أقول إن المصلحة أن لا يغير على الناس شىء وما أقول هذا لأجل ملكى فإننى أنا أمسح ملكى وإنما أريد أن يدوم السعاه من الناس للدولة فجاءنى كتاب النائب يقول لا بد من المساحة قال فأظهرت الأمر وكان بها قوم صالحون لى بهم أنس وبيننا مودة فجاءنى الناس كلهم وأولئك معهم يطلبون المراجعة فأعلمتهم أنى راجعت وما أوجب إلى ذلك فجاءنى منهم رجلان أعرف صلاحهما وطلبا منى المعاودة ومخاطبة ثانية ففعلت فأصروا على المراجعة ففرقتما الحال قال فما مضى إلا عدة أيام وإذ قد جاءنى الرجلان فلما رأيتهما ظننت أنهما جا آيطلبان المعاودة فمجت منهما وأخذت أعتذر إليهما فقالا ماجتنا إليك فى هذا وإنما جتتنا نعرفك أن حاجتنا قضيت قال فظننت أنهما قد أرسلتا إلى الموصل إلى من يشفع لهما فقلت من الذى غاطب فى هذا بالموصل فقالا إن حاجتنا قد قضيت من السماء ولكافة أهل العقيمة قال فظننت أن هذا مما قد حدثنا به نفوسهما ثم قاما عنى فلم يمض غير عشرة أيام وإذ اتقد جاءنا كتاب من الموصل يأمرهم بإطلاق المساجين والمحبوسين والمكوس ويأمرهم بالصدقة ويقال إن السلطان يعنى قطب الدين مريض يعنى على حالة شديدة ثم بعد يومين أو ثلاثة جاءنا الكتاب بوفاته فمجت من قولها واعتقدته كرامة لها فصار والذى بعد ذلك يكتر إكرامهما واحترامهما ويزورهما .

(ذكر الحرب بين عساكر ابن عبدالمؤمن وابن مردنيس) كان محمد بن سعيد بن مردنيس ملك شرق الأندلس قد اتفق هو والفرنج وامتنع على عبدالمؤمن وابنه بعده فاستفحل أمره لاسيما بعد وفاة عبدالمؤمن فلما كان هذه السنة جهز إليه يوسف بن عبدالمؤمن فجاسوا بلاده وخربوها وأخذوا مدينتين من بلاده وأخافوا عساكره وجنوده وأقاموا ببلاده مدة ينتقلون فيها ويجنون أموالها .

(ذكر وفاة صاحب كرمان والخلف بين أولاده) في هذه السنة توفي الملك طغرل بن قاورت صاحب كرمان واختلف أولاده بهرام شاه وأرسلان شاه وهو الأكبر وجرى بينهما قتال اهزم فيه بهرام شاه إلى خراسان فدخل على المؤيد صاحب نيسابور واستنجده فأجده بعساكر صار بها إلى كرمان فجرى بين الأخوين حرب ظفر فيها بهرام شاه وهرب أرسلان شاه فقصده أصفهان مستجيرا بإيلدكز فأنفذ معه عسكرا واستنفذوا البلاد من بهرام شاه وسلموها إلى أخيه أرسلان شاه فعاد بهرام شاه إلى نيسابور مستجيرا بالمؤيد صاحبها فأقام عنده فاتفق أن أخاه أرسلان شاه مات فسار إلى كرمان فلما كان في طريقها بغير منازع .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة كثرت الأذية من عبدالملك بن عطاء وتطرق إلى بلاد حلوان ونهب وأفسد وأخذ من الحجاج فأنفذ إليه من بغداد عسكر فزالوه في قلاعه وضايقوه ونهبوا أمواله وأموال أهله حتى أذعن بالطاعة ولا يعاود أذى الحجاج ولا غيرهم فعاد عنهم العسكر وفيها توفي مجد الدين أبو بكر بن الداية وهو رضيع نورالدين وكان أعظم الأمراء منزلة عنده وله في أقطاعه حلب وحارم وقلعة جعبر فلما توفي رد نورالدين ما كان له إلى أخيه شمس الدين علي بن الداية . وفيها في شعبان توفي أحمد بن صالح بن شافع أبو الفضل الجيلي وهو من مشهورى المحدثين (الجيلي) بالجيم والياء تحتهما نقطتان .

(ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة)

(ذكر وفاة المستنجد بالله) في هذه السنة تاسع ربيع الآخر توفي المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتدي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله وقد تقدم باقي النسب في غير موضع وأمه أم ولد اسمها طاوس وقيل نرجس رومية ومولده مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة وكان أسمر تام القامة طويل اللحية وكان سبب موته أنه مرض واشتد مرضه وكان قد خافه أستاذ الدار عضد الدين أبو الفرج بن رئيس الرؤساء وقطب الدين قايماز المقتفوى وهو حينئذ أكبر أمير ببغداد فلما اشتد مرض الخليفة اتفقا ووضعوا الطبيب على أن يصف له ما يؤذيه فوصف له دخول الحمام فامتنع لضعفه ثم إنه دخل وأغلق عليه بابه فمات وهكذا سمعت من غير واحد ممن يعلم الحال وقيل إن الخليفة كتب إلى وزيره مع طبيبه ابن صفية بأمره بالقبض على أستاذ الدار وقطب الدين وصلبهما فاجتمع ابن صفية بأستاذ الدار وأعطاه خط الخليفة فقال له تعود وتقول إنني أوصلت الخط إلى الوزير ففعل ذلك وحضر أستاذ الدار قطب الدين ويزدن أخاه تنامش وعرض الخط عليهم فاتفقوا على قتل الخليفة فدخل إليه يزدن وقايماز الحميدي فحملاه إلى الحمام وهو يستغيث والقياه وأغلقا الباب عليه وهو يصبح إلى أن مات رحمه الله وكان وزيره أبا جعفر بن البلدي وبينه وبين أستاذ الدار وبين قطب الدين عداوة مستحكمة لأن المستنجد بالله كان يأمره بأشياء تتعلق بهما فيفعلها فكانا يظنان أنه هو الذي يسمي بهما فلما مرض المستنجد وأرجف بموته ركب الوزير ومعه الأمراء والأجناد وغيرهما بالعدد فلم يتحقق عنده خبر موته فأرسل

إليه عضد الدين يقول إن أمير المؤمنين قد خف ما به من المرض وأقبلت العافية تخاف الوزير أن يدخل دار الخلافة بالجند فرمى أنكر عليه ذلك فعاد إلى داره وتفرق الناس عنه وكان عضد الدين وقطب الدين قد استعدا للهرب لما ركب الوزير خوفا منه إن دخل الدار أن يأخذهما فلما عاد أغلق أستاذ الدار أبواب الدار وأظهروا وفاة المستنجد وأحضر هو وقطب الدين ابنه أبا محمد الحسن وبايعاه بالخلافة ولقباه المستضيء بأمر الله وشرطا عليه شروطا أن يكون عضد الدين وزيراً وابنه كمال الدين أستاذ الدار وقطب الدين أمير العسكر فأجابهم إلى ذلك ولم يتول الخلافة من اسمه الحسن إلا الحسن بن علي بن أبي طالب والمستضيء بأمر الله واتفقا في الكنية والكرم فبايعه أهل بيته البيعة الخاصة يوم توفي أبوه وبايعه الناس من الغد في التاج بيعة عامة وأظهر من العدل أضعاف ما عمل أبوه وفرق أموالا جليلة المقدار وعلم الوزير ابن البلدي فسقط في يده وقرع سنه ندما على ما فرط في عوده حيث لا ينفعه وأتاه من يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضيء فمضى إلى دار الخلافة فلما دخلها صرف إلى موضع قتل وقطع قطعا وألقى في دجلة رحمه الله وأخذ جميع ما في داره فرأيا فيها خطوط المستنجد بالله يأمره فيها بالقبض عليهما وخط الوزير قد راجعه في ذلك وصرفه عنه فلما وقفا عليها عرفا برأته مما كانا يظنا فيه فندما حيث فرط في قتله وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية عادلا فيهم كثير الرفق بهم وأطلق كثيرا من المكوس ولم يترك بالعراق منها شيئا وكان شديدا على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس (بلغني) أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس فأطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضري إنسا ما آخر مثله لا كف شره عن الناس ولم يطلقه وردا كثيرا من الأموال على أصحابها أيضا وقبض على القاضي ابن المرخم وأخذ منه مالا كثيرا فأعاده على أصحابه أيضا وكان ابن المرخم ظلما جائرا في أحكامه .

(ذكر ملك نور الدين الموصل وإقرار سيف الدين عليها) لما بلغ نور الدين محمودا وفاة أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل وملك ولده سيف الدين غازي الموصل والبلاد التي كانت لأبيه بعد وفاته وقام نحر الدين عبد المسيح بالامر معه وتحكمه عليه وكان يبغض نحر الدين لما يبلغه عنه من خسرنة سياسته فقال أنا أولى بتدبير أولاد أخي وملكهم وسار عند انقضاء العزاء جريدة في قلة من العسكر وعبر الفرات عند قلعة جدير مستهل المحرم من هذه السنة وقصد الرقة فحصرها وأخذها ثم سار إلى الخابور فملكه جميعه وملك نصيبين وأقام بها فجمع العساكر فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا وكثر جمعه وكان قد ترك أكثر عساكره بالشام لحفظ ثغوره فلما اجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحصرها ونصب المنجنيقات وملكها وسلمها إلى عماد الدين ابن أخيه قطب الدين وكان قد جاءته كتب الأمراء الذين بالموصل سرا يبذلون له الطاعة ويحثونه على الوصول إليهم فسان إلى الموصل فأتى مدينة بلد وعبر دجلة عندها مخاضة إلى الجانب الشرقي وسار فنزل شرقي الموصل على حصن نينوى ودجلة بينه وبين الموصل ومن العجب أن يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة وكان سيف الدين غازي قد سير عز الدين مسعود بن قطب الدين إلى أتاك شمس الدين أيلدكز صاحب همذان وبلد الجبل وأذربيجان وأصفهان والري وتلك الأعمال يستنجده على همه نور الدين فأرسل أيلدكز رسولا إلى نور الدين ينهيه عن التمرض إلى الموصل ويقول له إن هذه البلاد للسلطان فلا تقصدها فلم يلتفت إليه وقال للرسول قل لصاحبك أنا أصليح لأولاد أخي منك فلم تدخل نفسك بيننا وعند الفراغ من

إصلاح بلادهم يكون الحديث معك على باب همدان فإنك قد ملكت هذه المملكة العظيمة وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها وقد بليت أنا ولي مثل ربع بلادك بالفرنج وهم أشجع العالم فأخذت معظم بلادهم وأسرت ملوكهم ولا يحمل لي السكوت عنك فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت وإزالة الظلم عن المسلمين فأقام نور الدين على الموصل، فعزم من بها من الأمراء، على مجاهرة فخر الدين عبد المسيح بالخصيان، وتسليم البلد إلى نور الدين، فعلم ذلك، فأرسل إلى نور الدين في تسليم البلد إليه؛ على أن يقره بيد سيف الدين، ويطلب لنفسه الأمان ولما له، فأجابته إلى ذلك، وشرط أن يخر الدين يأخذه معه إلى الشام، ويعطيه عنده إقطاعا يرضيه فتسلم البلد ثالث عشر جمادى الأولى من هذه السنة ودخل القلعة من باب السر لأنه لما بلغه خصيان عبد المسيح عليه حلف أن لا يدخلها إلا من أحسن موضع فيها ولما ملكها أطلق ما بها من المكوس وغيرها من أبواب المظالم وكذلك فعل بنصيين وسنجار والخابور وهكذا كان جميع بلاده من الشام ومصر ووصله وهو على الموصل يحاصرها خلعة من الخليفة المستضيء بأمر الله فلبسها ولما ملك الموصل خلعه على سيف الدين ابن أخيه وأمره وهو بالموصل بعمارة الجامع النوري وركب هو بنفسه إلى موضعه فرآه وصعد منارة مسجد أبي حاضر فأشرف منها على موضع الجامع فأمر أن يضاف إلى الأرض التي شاهدها ما يجاورها من الدور والخوانيت وأن لا يؤخذ منها شيء بغير اختيار أصحابه وولى الشيخ محمد الملا همارته وكان من الصالحين الأخيار فاشترى الأملاك من أصحابها بأوفر الأثمان وعمره فخرج عليه أموال كثيرة وفرغ من عمارته سنة ثمان وستين وخمسمائة وأمانور الدين فإنه عاد إلى الشام واستناب في قلعة الموصل خصيا كان له اسمه كستكين ولقبه سعد الدين وأمر سيف الدين أن لا ينفرد عنه بقليل من الأمور ولا بكثير وحكمه وأقطع مدينة سنجان لعهاد الدين ابن أخيه قطب الدين فلما فعل ذلك قال كمال الدين بن الشهرزوري هذا طريق إلى أذى يحصل بيت أتاك لأن عماد الدين كبير لا يرى طاعة سيف الدين وسيف الدين هو الملك لا يرى الإغضاء لعهاد الدين فيحصل الخلف ويطمع الأعداء فكان كذلك على ما نذكره سنة سبعين وخمسمائة وكان مقام نور الدين بالموصل أربعة وعشرين يوما واستصحب معه فخر الدين عبد المسيح وغير اسمه فسماه عبدا لله وأقطعه إقطاعا كبيرا.

(ذكر غزو صلاح الدين بلاد الفرنج وفتح أيلة) وفي هذه السنة سار صلاح الدين أيضا عن مصر إلى بلاد الفرنج فأغار على أعمال عسقلان والرمة وهجم على ربح غزة فنهبه وأناه ملك الفرنج في قلة من العسكر مسرعين لرده عن البلاد فقاتلهم وهزمهم وأفلت ملك الفرنج بعد أن أشرف أن يؤخذ أسيرا وعاد إلى مصر وعمل مراكب مفصلة وحملها قطعا على الجمال في البر وقصد أيلة فجمع قطع المراكب وألقاها في البحر وحصر أيلة برا وبحرا وفتحها في العشر الأول من ربيع الآخر واستباح أهلها وما فيها وعاد إلى مصر .

(ذكر ما اعتمده صلاح الدين بمصر هذه السنة) كان بمصر دار للشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها من يريد حبسه فهدمها صلاح الدين وبنها مدرسة للشافعية وأزال ما كان فيها من الظلم وبنى دار العدل مدرسة للشافعية أيضا وعزل قضاة المصريين وكانوا شيعة وأقام قاضيا شافعيًا في مصر فاستناب القضاة الشافعية في جميع البلاد في العشرين من جمادى الآخرة .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة اشترى تقي الدين عمران أخى صلاح الدين منازل العز بمصر وبنها مدرسة للشافعية . وفيها أغار شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين على الأعراب الذين بالصعيد وكانوا قد

أفسدوا في البلاد ومدوا أيديهم فكفروا عما كانوا يفعلونه . وفيها مات القاضي ابن الخلال من أعيان الكتاب المصريين وفضلاتهم وكان صاحب ديوان الإنشاء بها . وفيها وقع حريق ببغداد في درب المطبخ وفي خرابة ابن جرادة . وفيها توفي الأمير نصر بن المستظهر بالله عم المستنجد بالله وحموه وهو آخر من مات من أولاد المستظهر بالله وكان موته في ذي القعدة ودفن في التراب بالرصافة . وفيها جعل ظهير الدين أبو بكر نصر بن العطار صاحب المخزن ببغداد ولقب ظهير الدين . وفيها حج بالناس الأمير طاشتكين المستنجدى وكان نعم الأمير رحمه الله . (١)

(ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة)

(ذكر إقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية) في هذه السنة في ثاني جمعة من المحرم قطعت خطبة العضد لدين الله أبي محمد الإمام عبدالله بن يوسف بن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد بن أبي القاسم محمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن علي بن الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور بن العزيز بالله أبي منصور بن نزار بن المعز لدين الله أبي تميم معد بن المنصور بالله أبي الظاهر لإسماعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن المهدي بالله أبي محمد عميد الله وهو أول العلويين من هذا البيت الذين خطب لهم بالخلافة وخوطفوا بأمره المؤمنين وكان سبب الخطبة العباسية بمصر أن صلاح الدين يوسف ابن أيوب لما ثبت قدمه بمصر وأزال المخالفين له وضعف أمر الخليفة بها العاضد وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين ونائبه قراقوش وهو خصي كان من أعيان الأمراء الأسدية كلهم يرجعون إليه فكتب إليه نور الدين محمود بن زنكي يأمره بقطع الخطبة العاضدية وإقامة الخطبة المستنصية فامتنع صلاح الدين واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليهم لميلهم إلى العلويين وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم ويريد بقاءهم خوفاً من نور الدين فإنه كان يخافه أن يدخل إلى الديار المصرية يأخذها منه فكان يريد يكون العاضد معه حتى إن قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر عليه فلما اعتذر إلى نور الدين بذلك لم يقبل عذره وألح عليه بقطع خطبته وألزمه إلزاماً لافسحة له في مخالفته وكان على الحقيقة نائب نور الدين واتفق أن العاضد مرض هذا الوقت مرضاً شديداً فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار أمراءه فمنهم من أشار به ولم يفكر في المصريين ومنهم من خافه إلا أنه ما يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين وكان قد دخل إلى مصر إنسان أعجمي يعرف بالأمير العالم رأيته أنا بالموصل فلما رأى ما هم فيه من الإحجام وأن أحداً لا يتجاسر بخطب للعباسي قال أنا أبتدىء بالخطبة له فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستنصية ففعلوا ذلك فلم ينتطح فيها عنزان وكتب بذلك إلى سائر بلاد مصر ففعلوا وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله وأصحابه بقطع الخطبة وقالوا إن عوفي فهو يعلم وإن توفي فلا ينبغي أن نفعجه بمثل هذه الحادثة قبل موته فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة ، ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة

(١) وفيها توفي طاهر بن محمد بن طاهر أبو زرعة المقدسي الأصل ، نرازي المولد ، الهمداني الدار ، ولد سنة إحدى وثمانين وأربعمائة وأسمه والده الحافظ محمد بن طاهر الكثير ، وما كان يرويه مسند الشافعي ، توفي بهمدان يوم الأربعاء سابع ربيع الآخر ، وقد قارب التسعين .

وعلى جميع ما فيه لحفظه بهاء الدين قراقوش الذي كان قد رتبته قبل موت العاضد فحمل الجميع إلى صلاح الدين وكان من كثرته يخرج عن الإحصاء وفيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلو الدنيا عن مثله ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهما أو سبعة عشر مثقالا أنا لا أشك فإني رأيتته ووزنته واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذي طوله أربع أصابع في عرض عقد كبير ووجد فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد وقد احتاطوا بالحفظ فلما رأوه ظنوه عمل لأجل اللعاب فيه فسخروا من العاضد فأخذته إنسان فضرب به فصرط فتضاحكوا منه ثم آخر كذلك وكان كل من ضرب به صرط فألقاه أحدهم فكسره فإذا الطبل لأجل قولنج فندموا على كسره لما قيل لهم ذلك وكان فيه من الكتب النفيسة المدومة المثل ما لا يعد فباع جميع ما فيه ونقل أهل العاضد إلى موضع من القصر ووكل بهم من يحفظهم وأخرج جميع من فيه من أمة وعبد فباع البعض وأعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه (كان لم يكن بالأمس) فسبحان الحى الدائم الذى لا يزول ملكه ولا تغيره الدهور ولا يقرب النقص جماء ولما اشتد مرض العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة فلم يمض إليه فلما توفى علم صدقه فدم على تخلفه عنه وكان يصفه كثيرا بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه وانقياده وكان في نسبه تسع خطب لهم بالخلافة وهم الحافظ والمستنصر والظاهر والحاكم والعزیز والمعز والمنصور والقائم والمهدى ومنهم من لم يخطب له بالخلافة أبوه يوسف بن الحافظ وجد أبيه وهو الأمير أبو القاسم محمد بن المستنصر وبقي من خطب له بالخلافة وليس من آباءه المستعلي والأمير والظافر والفائز وجميع من خطب له منهم بالخلافة أربعة عشر خليفة منهم بأفريقية المهدى والقائم والمنصور والمعز إلى أن سار إلى مصر ومنهم بمصر المعز المذكور وهو أول من خرج إليها من أفريقية والعزیز والظاهر والمستنصر والمستعلي والأمير والحافظ والظافر والفائز والعاضد وجميع مدة ملكهم من حين ظهر المهدى بسجلماسة في ذى الحجة من سنة تسع وتسعين ومائتين إلى أن توفى العاضد مائتان واثنان وسبعون سنة وشهر تقريبا وهذا دأب الدنيا لم تعط إلا واستردت ولم تحل إلا وتمرت ولم تصف إلا وتكدت بل صفوها لا يخلو من الكدر وكدرها قد يخلو من الصفو نسأل الله تعالى أن يقبل قلوبنا إليه ويرينا الدنيا حقيقة ويزهدنا فيها ويرغبنا في الآخرة إنه سميع الدعاء قريب من الإجابة ولما وصلت البشارة إلى بغداد بذلك ضربت البشائر بها عدة أيام وزينت بغداد وظهر من الفرح والجدل ما لا حد عليه وسيرت الخلع مع عماد الدين صندل وهو من خواص الخدم المقتفوية والمقدمين في الدولة لنور الدين وصلاح الدين فسار صندل إلى نور الدين وألبسه الخلعة وسير الخلعة التي لصلاح الدين وللخطباء بالديار المصرية والأعلام السود ثم إن هذا صندلا صار أستاذ دار الخليفة المستضى بأمر الله ببغداد وكان يدرى الفقه على مذهب الشافعي وسمع الحديث ورواه ويعرف أشياء حسنة وفيه دين وله معروف كثير وهو من محاسن بغداد.

(ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطنا) في هذه السنة جرت أمور أوجبت أن تأثر نور الدين من صلاح الدين ولم يظهر ذلك وكان سببه أن صلاح الدين يوسف بن أيوب صار عن مصر في صفر من هذه السنة إلى بلاد الفرنج غازيا ونازل حصن الشوبك وبينه وبين الكرك يوم وحصره وضيق على من به من الفرنج وأدام القتال وطلبوا الأمان واستمهلوه عشرة أيام فأجابهم إلى ذلك فلما سمع نور الدين بما فعله صلاح الدين صار عن دمشق قاصدا بلاد الفرنج أيضا ليدخل إليه من جهة أخرى فقبل لصلاح الدين إن دخل نور الدين

بلاد الفرنج وهم على هذه الحال أنت من جانب ونور الدين من جانب ملكها ومتى زال الفرنج عن الطريق وأخذ ملكهم لم يبق بديار مصر مقام مع نور الدين وإن جاء نور الدين إليك وأنت ههنا فلا بد لك من الاجتماع به وحينئذ يكون هو المنحكم فيك بما شاء إن شاء تركك أو لا فقد لا تقدر على الامتناع عليه والمصلحة الرجوع إلى مصر فرحل عن الشوبك عائداً إلى مصر ولم يأخذه من الفرنج وكتب إلى نور الدين يعتذر باختلال البلاد المصرية لأمور بلغته عن بعض شيعته العلويين وإنهم عازمون على الوثوب بها فإيه يخاف عليها من البعد عنها أن يقوم أهلها على من تخلف بها فيخرجونهم وتعود ممتعة وأطال الاعتذار فلم يقبلها نور الدين منه وتغير عليه وعزم على قصد مصر وإخراجه عنها وظهر ذلك فسمع صلاح الدين الخبر فجمع أهله وفيهم أبوه بجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارثي ومعهم سائر الأمراء وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين وحركته إليه واستشارهم فلم يجبه أحد بكلمة واحدة فقام تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين فقال إذا جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد ووافقنا غيره من أهلهم فشتهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه وشم تقي الدين وأقعدته وقال لصلاح الدين أما أبوك وهذا خالك شهاب الدين ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى والله لورأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم نمكث إلا أن نقتل بين يديه ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلناه فإذا كنا نحن هكذا فما ظنك بغيرنا وكل من تراه عندك من الأمراء لورأى نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم وهذه البلاد له ونحن ممالئكم ونوابه فيها فإن أراد سمعنا وأطعنا والرأي أن تكتب كتاباً مع نجاب تقول فيه بلغني أنك تريد الحركة لاجل البلاد فأى حاجة إلى هذا يرسل المولى نجاباً يضع في رقبي منديلاً ويأخذني إليك وما ههنا من يمتنع وقام الأمراء وغيرهم وتفرقوا على هذا فلما خلى به أيوب قال له بأى عقل فعلت هذا أما تعلم أن نور الدين إذا سمع عزمنا على منعه ومحاربتنا جعلنا أم الوجوه إليه وحينئذ لا تقوى عليه وأما الآن إذا بلغه ماجرى وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا والأقدار تعمل عملها والله لو أراد نور الدين قسبة من قصب السكر لفاتك أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل ففعل صلاح الدين ما أشار به فترك نور الدين قصده واشتغل بغيره فكان الأمر كما ظنه أيوب فتوفي نور الدين ولم يقصده وملك صلاح الدين البلاد وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها.

(ذكر غزوة إلى الفرنج بالشام) وفي هذه السنة خرج مركبان من مصر إلى الشام فأرسلا بمدينة لاذقية فأخذهما الفرنج وهما مملوآنان من الأمتعة والتجارة وكان بينهما وبين نور الدين هدنة فنكسوا وغدروا فأرسل نور الدين إليهم في المعنى وإعادة ما أخذوه من أموال التجار فغالطوه واحتجوا بأمور منها أن المركبين كما قد انكسرا ودخلهما الماء وكان الشرط أن كل مركب ينكسر ويدخله الماء يأخذونه فلم يقبل مخالطهم وجمع العساكر وبث السرايا في بلادهم بعضها نحو أنطاكية وبعضها نحو طرابلس وحصر هو حصن عرقة وخرب ربهض وأرسل طائفة من العسكر إلى حصن صافيتا وعريمة فأخذهما عنوة ونهب وخرب وغنم المسلمون غنائم كثيرة وعادوا إليه وهو بعرة فسار في العساكر جميعها إلى أن قارب طرابلس بنهب ويخرب ويحرق ويقتل وأما الذين ساروا إلى أنطاكية ففعلوا في ولايتها مثل ما فعل في ولاية طرابلس فراجع الفرنج وبذلوا جميع ما أخذوه من المركبين وتجديد الهدنة معهم فأجابهم إلى ذلك وأعادوا ما أخذوا وهم صاغرون وقد خربت بلادهم وغنمت أموالهم.

(ذكر وفاة ابن مردنیش وملك يوسف بن عبد المؤمن بلاده) في هذه السنة توفي الأمير محمد بن سعد بن مردنیش صاحب البلاد بشرق الأندلس وهي مرسية وبلنسية وغيرهما ووصى أولاده أن يقصدوا بعد موته الأمير أبي يعقوب وكان قد اجتاز إلى الأندلس في مائة ألف مقاتل قبل موت ابن مردنیش فحين رآهم يوسف فرح بهم وسره قدرهم عليه وتسلم بلادهم وتزوج أختهم وأكرمهم وعظم أمرهم ووصلهم بالأموال الجزيلة وأقاموا معه.

(ذكر عبور الخطا جيحون والحرب بينهم وبين خوارزمشاه) في هذه السنة عبر الخطا نهر جيحون يريدون خوارزم فسمع صاحبها خوارزمشاه ايل أرسلان بن أتسز فجمع عساكره وسار إلى أمرية ليقاتلهم ويصدمهم فمضى وأقام بها وسير بعض جيشه مع أمير كبير اليهم فلقبهم فافتتلوا قتالا شديدا فانهزم الخوارزميون وأسر مقدمهم ورجع به الخطا إلى ماوراء النهر وعاد خوارزمشاه إلى خوارزم مريضا.

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة اتخذ نور الدين بالشام الحمام الهوادي وهي التي يقال لها المناسيب وهي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها وجعلها في جميع بلاده وسبب ذلك أنه لما اتسعت بلاده وطالت مملكته وعرضت أكنافها وتباعدت أوائلها عن أواخرها ثم إنها جاورت بلاد الفرنج وكانوا ربما نزلوا حصنا من ثغوره فإلى أن يصل الخبر ويصل اليهم قد بلغوا غرضهم منه أمر بالحمام ليصل الخبر إليه في يومه وأجرى الجرايات على المرتبين لحفظها وإقامتها فحصل منها الراحة العظيمة والنفع الكبير للسلمين. وفيها هزل الخليفة المستضيء بأمر الله وزيره عضد الدين أبا الفرج بن رئيس الرؤساء لأن قطب الدين قايمارزومه بعزله فلم يتمكن مخالفته. وفيها مات أبو محمد عبدالله بن أحمد الخشاب اللغوي وكان قويا بالعربية وسمع الحديث وفيها مات البوري الفقيه الشافعي تفقه على محمد بن يحيى وقدم بغداد ووعظ وكان يذم الخنابلة وكثرت أتباعه فأصابه إسهال فمات هو وجماعة من أصحابه فقيل إن الخنابلة أعدوا له حلواء فأكل منها فمات وكل من أكل منها وفيها مات القرطبي أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام الأزدي الأندلسي وكان إماما في القراءة والنحو وغيره من العلوم زاهدا عابدا انتفع به الناس في كثير من البلاد ولاسيما أهل الموصل فإنه أقام بها. وفيها توفي رحمه الله. (۱)

(ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة)

(ذكر وفاة خوارزمشاه ايل أرسلان وملك ولده سلطان شاه وبعده ولده الآخر تكش وقتل المؤيد وملك ابنه) في هذه السنة توفي خوارزمشاه ايل أرسلان بن أتسز بن محمد بن أنوشتكين قد عاد من قتال الخطا مريضا فتوفي وملك بعده سلطان شاه محمود ودبرت والدته المملكة والعساكر وكان ابنه الأكبر علاء الدين تكش مقبلا في الجند قد أقطعه أبوه إياها فلما بلغه موت أبيه وتولية أخيه الصغير أنف من ذلك وقصد ملك الخطا واستمده على أخيه وأطمعه في الأموال وذخائر خوارزم فسير معه جيشا كثيرا مقدمهم قرما فساروا حتى قاربوا خوارزم فخرج سلطان شاه وأمه إلى المؤيد وأهدى له هدية جليلة المقدار ووعده أموال خوارزم

(۱) وفيها توفي ناصر بن الجوني الصوفي كان يمشى في طلب الحديث حافيا؛ توفي ببغداد. قال أبو شامة: وفيها توفي نصر الله بن عبدالله أبو الفتح الإسكندري المعروف بابن قلافس الشاعر بميذاب، توفي عن خمس وأربعين سنة.

وذخائرهما فاغتر بقوله وجمع جيوشه وسار معه حتى بلغ سوبرلي بليدة على عشرين فرسخا من خوارزم وكان تكش قد عسكر بالقرب منها فتقدم إليهم فلما تراءى الجمعان انهزم عسكر المؤيد وكسر المؤيد وأخذ أسيرا وجيء به إلى خوارزمشاه تكش فأمر بقتله فقتل بين يديه صبرا وهرب سلطانشاه وأخذ إلى دهستان فقصد خوارزمشاه تكش فافتح المدينة عنوة فهرب سلطانشاه وأخذت أمه فقتلها تكش وعاد إلى خوارزم ولما عاد المنهزمون إلى نيسابور ملكوا صفانشاه أبا بكر بن المؤيد واتصل به سلطانشاه ثم سار من هناك إلى غياث الدين ملك الغورية فأكرمه وعظمه وأحسن ضيافته وأما علاء الدين تكش فإنه لما ثبت قدمه بخوارزم اتصلت به رسل الخطا بالاقتراحات والتحكيم كعادتهم فأخذته حمية الملك والدين وقتل أحد أقارب الملك وكان قد ورد إليه ومعه جماعة أرسله ملكهم في مطالبة خوارزمشاه بالمال فأمر خوارزمشاه أعيان خوارزم فقتل كل واحد منهم رجلا من الخطا فلم يسلم منهم أحد ونبذوا إلى ملك الخطا عهده وبلغ ذلك سلطانشاه فسار إلى ملك الخطا واغتم الفرصة بهذه الحال واستنجد على أخيه علاء الدين تكش وزعم له أن أهل خوارزم معه يريدونه ويختارون ملكه عليهم ولو رأوه لسلبوا البلد إليه فسير معه جيشا كثيرا من الخطا مع قرما أيضا فوصلوا إلى خوارزم فحصرها فأمر خوارزمشاه علاء الدين بإجراء هاء جيحون عليهم فكدوا يفرقون فرحلوا ولم يبلغوا منها غرضا ولحقهم الندم حيث لم ينفعهم ولا مواء سلطانشاه وعنفة فقال لقرما لو أرسلت معي جيشا إلى مرو فاستخلصتها من يد دينار الغزي وكان قد استولى عليها من حين كانت فتنة الغز إلى الآن فسير معه جيشا فنزل على سرخس على غرة من أهلها وهجم على الغز فقتل مقتلة عظيمة فلم يتركوا بها أحدا منهم وألقى دينار ملكهم نفسه في خندق القلعة فأخرج منه ودخل القلعة وتحصن بها وسار سلطانشاه إلى مرو فلحقها وعاد الخطا إلى ما وراء النهر وجعل سلطانشاه دأبه قتال الغز والقتل فيهم والنهب منهم فلما عجز دينار عن مقاومته أرسل إلى نيسابور إلى طغان شاه بن المؤيد يقول له ليرسل إليه من يسلم إليه قلعة سرخس فأرسل إليه جيشا مع أمير اسمه قراقوش فسلم إليه دينار القلعة ولحق بطغان شاه فقصد سلطان شاه سرخس وحصر قلعتها وبلغ ذلك طغان شاه فجمع جيوشه وقصد سرخس فلما التقى هو وسلطان شاه قرطغان شاه إلى نيسابور وذلك سنة ست وسبعين وخمسمائة فأخلى قراقوش قلعة سرخس ولحق بصاحبه وملكها سلطان شاه ثم أخذ طوس والزام وضيق الأمر على طغان شاه بعلوهمته وقلة قرارة وحرصه على طلب الملك وكان طغان شاه يحب الدعة ومماقرة الخمر فلم يزل الحال كذلك إلى أن مات طغان شاه سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة في المحرم وملك ابنه سنجر شاه فغلب عليه مملوك جده المؤيد اسمه منكلي تكين فتفرق الأمراء أنفة من تحكمه واتصل أكثرهم بسلطان شاه وسار الملك دينار إلى كرمان ومعه الغز فلحقها وأما منكلي تكين فإنه أساء السيرة في الرعية وأخذ أموالهم وقتل بعض الأمراء فسمع خوارزمشاه بذلك فسار إليه فحصره بنيسابور في ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة فحصرها شهرين فلم يظفر بها وعاد إلى خوارزم ثم رجع سنة ثلاث وثمانين إلى نيسابور فحصرها وطلب إرمانه الأمان فأمهم فسلموا البلد إليه فقتل منكلي تكين وأخذ سنجر شاه وأكرمه وأنزله بخوارزم وأحسن إليه فأرسل إلى نيسابور يستميل أهلها ليعود إليهم فسمع به خوارزمشاه فأخذ سنجر شاه فسلمه وكان قد تزوج بأمه وزوجه بابنته فماتت فزوجه بأخته وبقى عنده إلى أن مات سنة خمس وتسعين وخمسمائة ذكر هذا أبو الحسن بن أبي القاسم البيهقي في كتاب مسارب التجارب وقد ذكر غيره

من العلماء بالتواريخ هذه الحوادث مخالفة لهذا في بعض الأمور مع تقديم وتأخير ونحن نورد ما نوردنا فقال إن
تلكش خوارزمشاه بن أرسلان أخرج أخاه سلطان شاه من خوارزم وكان قد ملكها بعد موت أبيه فجاء
إلى مرو فملكها وأزاح الغز عنها فخرجوا أياما ثم عادوا عليه فأخرجوه منها وانتهبوا خزائنه وقتلوا أكثر رجاله
فعبث إلى الخطا فاستنجدهم وضمن لهم مالا وجاء بجيش عظيم فأخرج الغز عن مرو وسرخس وناسا وأبيورد
وملكها ورد الخطا فلما أبعثوا كاتب غياث الدين الغوري يطلب منه أن ينزل عن هراة وبوشنج
وبادغيس وما والاها ويتوعدده إن هو لم ينزل عن ذلك فأجابه غياث الدين يطلب منه إقامة الخطبة له
بمرو وسرخس وما ملكه من بلاد خراسان فلما سمع الرسالة سار عن مرو وشن الغارات على بادغيس
وبيوار وما والاها وحصر بوشنج ونهب الرماثيق وصادر الرعايا فلما سمع غياث الدين ذلك لم يرض لنفسه
أن يسير هو بل سير ملك سجستان وكاتب ابن أخته بهاء الدين سام صاحب باميان باللاحق به لأن أخاه شهاب
الدين كان بالهند والزمان شتاء فجاء بهاء الدين ابن أخت غياث الدين وملك سجستان ومن معهما من العساكر
ووافق ذلك وصول سلطان شاه إلى هراة فلما علم بوصولهم عاد إلى مرو من غير أن يقاتلها وأحرق كل مامر
به من البلاد ونهب وأقام بمرو إلى الربيع وأعاد مراسلة غياث الدين في المعنى فأرسل إلى أخيه شهاب الدين
يعرفه الحال فنادى في عساكره الرحيل لساعته وعاد إلى خراسان واجتمع هو وأخوه غياث الدين وملك
سجستان وغيرهم من العساكر وقصدوا سلطان شاه فلما علم ذلك جمع عساكره واجتمع عليه من الغز والمفسدين
وقطاع الطريق ومر عنده طمع خلق كثير فنزل غياث الدين ومن معه في الطالقان ونزل سلطان شاه
بمرو الروذ وتقدم عسكر الغورية إليه وتواعدوا بالصفاء وبقوا كذلك شهرين والرسل تتردد بين غياث الدين
وبين سلطان شاه وشهاب الدين يطلب من أخيه غياث الدين الإذن في الحرب فلا يتركه وتقرر الأمر على أن
يسلم غياث الدين إلى سلطان شاه بوشنج وبادغيس وقلاع بيوار وكره ذلك شهاب الدين وبهاء الدين صاحب
باميان إلا أنهما لم يخالفا غياث الدين وفي آخر الأمر حضر رسول سلطان شاه عند غياث الدين وحضر الأمراء
ليكتب العهد فقال الرسول إن سلطان شاه يطلب أن يحضر شهاب الدين وبهاء الدين هذا الأمر فأرسل غياث
الدين إليهما فأعادا الجواب إننا بما ليكك ومهما تفعله لا يمكننا مخالفتك فبينما الناس مجتمعون في تحرير الأمر
وإذ قد أقبل مجد الدين العلوي الهروي إليه وكان خصيصا بغياث الدين بحيث يفعل في ملكه ما يختار فلا
يخالف فجاء العلوي ويده في يد ألب غازي ابن أخت غياث الدين وقد كتبوا الكتاب وقد حضر غياث الدين أخاه
شهاب الدين وبهاء الدين سام ملك الباميان فجاء العلوي كأنه يسارر غياث الدين ووقف في وسط الحلقة وقال
للسول يافلان تقول لسلطان شاه قد تم لك الصلح من جانب السلطان الأعظم ومن شهاب الدين وبهاء الدين
ويقول لك العلوي خصمك أنا ومولانا ألب غازي بيننا وبينك السيف ثم صرخ صرخة ومزق ثيابه وحشى
التراب على رأسه وأقبل على غياث الدين وقال له هذا واحد طرده أخوه وأخرجه فريدا وحيدا لم تترك له
ما ملكناه بأسيا فإنا من الغز والآتراك والسنجرية فإذا سمع هذا هنا يحيى أخوه يطلب منازعته والهند وجميع
ما بيدك فترك غياث الدين رأسه ولم يفه بكلمة فقال ملك سجستان للعلوي أترك الأمر ينصلح فلما لم يتكلم
غياث الدين بمنع العلوي قال شهاب الدين لجأوشيته نادوا في العسكر بالتجهز للحرب والتقدم إلى مرو الروذ
وقام وأنشد العلوي بيتا من الشعر عجميا معناه إن الموت تحت السيوف أسهل من الرضا بالدنية فرجع الرسول

إلى سلطان شاه وأعلمه الحال فرتب عساكره للمصاف والتقى الفريقان واقتتلوا فصبروا للحرب فانهمز سلطان شاه وعسكره وأخذ أكثر أصحابه أسارى فأطلقهم غياث الدين ودخل سلطان شاه مرو في عشرين فارسا ولحق به من أصحابه نحو ألف وخمسمائة فارس ولما سمع خوارزمشاه تكش بما جرى لأخيه سار من خوارزم في ألفي فارس وأرسل إلى جيحون ثلاثة آلاف فارس يقطعون الطريق على أخيه إن أراد الخطأ وجد في السير ليقبض على أخيه قبل أن يقوى فأتت الأخبار سلطان شاه بذلك فلم يقدر على عبور جيحون إلى الخطأ فسار إلى غياث الدين وكتب إليه يعلمه قصده إليه فكتب إلى هراة وغيرها من بلاده يا كرامه واحترامه وحمل الإقامة إليه ففعل به ذلك وقدم على غياث الدين والتقاء وأكرمه وأنزله معه في داره وأنزل أصحاب سلطان شاه كل إنسان منهم عند من هو في طبقة فأنزل الوزير عند وزيره والعارض عند عارضه وكذلك غيره وأقام عنده حتى انسلخ الشتاء فأرسل علاء الدين بن خوارزمشاه إلى غياث الدين يذكره ما صنعه أخوه سلطان شاه من تخريب بلاده وجمع العساكر عليه ويشير بالقبض عليه وورده إليه فأنزل الرسول وإذ قد أتى كتاب نائبه بهراة يخبره أن كتاب خوارزمشاه جاءه يتهدده فأجابته أنه لا يظهر لخوارزمشاه أنه أعلمه بالحال وأحضر الرسول وقال له يقول لعلاء الدين أما قولك إن السلطان شاه أخرب البلاد وأراد ملكها فلعمري أنه ملك وابن ملك وله همة عالية وإذا أراد الملك فثله أرادته وللأمور مدبر يوصلها إلى مستحقها وقد التجأ إلى وينبغي أن تنزاح عن بلاده وتعطيه نصيبه مما خلف أبوه ومن الأملاك التي خلف والأموال وأحلف لكايمينا على المودة والمصافاة وتخطب لي بخوارزم وتزوج أخى شهاب الدين بأختك فلما سمع خوارزمشاه الرسالة امتعض لذلك وكتب إلى غياث الدين كتابا يتهدده بقصد بلاد فجهاز غياث الدين العساكر مع ابن أخت ألب غازی وصاحب سجستان وسيرهما مع سلطان شاه إلى خوارزم وكتب إلى المؤيد صاحب نيسابور يستنجده وكان قد صار بينهم مصاهرة زوج المؤيد ابنة طعان شاه بابنة غياث الدين فجمع المؤيد عساكره وأقام بظاهر نيسابور على طريق خوارزم وكان خوارزمشاه قد سار عن خوارزم إلى لقاء عسكر الغورية الذين مع أخيه سلطان شاه وقد نزلوا بطرف الرمل فبينما هو في مسيره أتاه خبر المؤيد أنه قد جمع عساكره وأنه على قصد خوارزم إذا فارقتها فوقع في قلبه وعاد إلى خوارزم فأخذ أمواله وذخائره وعبر جيحون إلى الخطأ وأخلى خوارزم فوقع بها خبط عظيم فحضر جماعة من أعيانها عند ألب غازی وسألوه إرسال أمير معهم يضبط البلد يخاف أن تكون مكيدة فلم يفعل فبينما هم على ذلك توفي سلطان شاه سلخ رمضان سنة تسع وثمانين وخمسمائة فكتب ألب غازی إلى غياث الدين يعلمه الخبر فكتب إليه يأمره بالعود إليه فرجع ومعه أصحاب سلطان شاه فأمر غياث الدين بأن يستخدموا وأقطع الأجناد الإقطاعات الجيدة وكلهم قابل إحسانه بكفران وسنذكر باقي أخبارهم ولما سمع خوارزمشاه تكش بوفاة أخيه عاد إلى خوارزم وأرسل إلى سرخس ومرو شعناء فجهز إليهم أمير هراة عمر المرغنى جيشا فأخرجهم وقال حتى نستأذن السلطان غياث الدين وأرسل خوارزمشاه رسولا إلى غياث الدين يطلب الصلح والمصاهرة وسير مع رسوله جماعة من فقهاء خراسان والعلويين ومعهم وجيه الدين محمود بن محمود وهو الذي جعل غياث الدين شافعيًا وكان له عنده منزلة كبيرة فوعظوه وخوفوه الله تعالى وأعلموه أن خوارزمشاه يرأسهم يتهددهم بأنه يجي بالأتراك الخطأ ويستبيح حريمهم وأموالهم وقالوا له إما أن تحضر أنت بنفسك وتجعل مرو دار ملكك

حتى ينقطع طمع الكافرين ويأمن أهلها ، وإما أن تصالح خوارزمشاه فأجاب إلى الصلح وترك معارضة البلاد فلما سمع من بخراسان من الغز بذلك طمعوا في البلاد فعاودوا النهب والإحراق والتخريب فسمع خوارزمشاه فجمع عساكره وحضر بخراسان ودخل مرو وسرخس ونسا وأبيورد وغيرها وأصلح البلاد وتطرق إلى طوس وهي للمؤيد صاحب نيسابور فجمع المؤيد جيوشه وسار إليه فلما سمع خوارزمشاه بمسيره إليه عاد إلى خوارزم فلما وصل إلى الرمل أقام بطرفه فلما سمع المؤيد بعودة خوارزمشاه طمع فيه وتبعه فلما سمع خوارزمشاه بذلك أرسل إلى المناهل التي في البرية فألقى فيها الجيف والتراب بحيث لا يمكن الانتفاع بها فلما توسط المؤيد البرية طلب الماء فلم يجده . فجاء خوارزمشاه إليه وهو على تلك الحال ، ومعه الماء على الجمال ، فأحاط به فأما عسكره فاستسلموا بأسرهم وجيء بالمؤيد أسيرا إلى خوارزمشاه فأمر بضرب عنقه فقال له ياخذك هذا فعال الناس فلم يلتفت إليه وقتله وحمل رأسه إلى خوارزم فلما قتل ملك نيسابور ملك ما كان له ابنه طغان شاه فلما كان من قابل جمع خوارزمشاه عساكره وسار إلى نيسابور فحاصرها وقاتلها فتبعه طغان شاه وأخذه وزوجه أخته وحمله معه إلى خوارزم وملك نيسابور وما كان لطفان شاه وقوى أمره هذا الذي ذكره في هذه الرواية مخالف لما تقدم ولو أمكن الجمع بين الروايتين لفعلت فإن أحدهما قد قدم ما أخره الآخر فلهذا أوردنا جميع ما قالاه ولبعد البلاد عنا لم نعلم أي القولين أصح لنذكره ونترك الآخر وإنما أوردتها في موضع واحد لأن أيام سلطان شاه لم تطل له ولأعقابه حتى تتفرق على السنين فلهذا أوردتها متتابعة .

(ذكر غارة الفرنج على بلد حوران وغارة المسلمين على بلد الفرنج) في هذه السنة في ربيع الأول اجتمعت الفرنج وساروا إلى بلد حوران من أعمال دمشق للغارة عليه وبلغ الخبر إلى نور الدين وكان قد برز ونزل هو وعسكره بالكسوة فسار إليهم مجدا وقدم بجموعه عليهم فلما علموا بقربه منهم دخلوا إلى السواد وهو من أعمال دمشق أيضا ولحقهم المسلمون فتحفظوا من ساقتهم ونالوا منهم وسار نور الدين نزل في عشترا وسير منها سرية إلى أعمال طبرية فشنتوا الغارات عليها فنهبوا وسبوا وأحرقوا وخربوا فسمع الفرنج ذلك فرحلوا إليهم لينعوا عن بلادهم فلما وصلوا كان قد فرغ المسلمون من نههم وغنيمتهم وعادوا وعبروا النهر وأدركهم الفرنج فوقف مقابلهم شجعان المسلمين وحماتهم فقاتلهم فاشتد القتال وصبر الفريقان الفرنج يرومون أن يلحقوا الغنيمة فيردوها والمسلمون يريدون أن يمنعهم عنها لينجوها من قد سار معها فلما طال القتال بينهم وأبعدت الغنيمة وسلمت مع المسلمين عاد الفرنج ولم يقدرُوا أن يستردوا منها شيئا .

(ذكر مسير شمس الدولة إلى بلد النوبة) في هذه السنة في جمادى الأولى سار شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر من مصر إلى بلد النوبة فوصل إلى أول بلادهم ليتغلب عليه ويملكه وكان سبب ذلك أن صلاح الدين وأهله كانوا يعلمون أن نور الدين كان على عزم الدخول إلى مصر فاستقر الرأي بينهم أنهم يتملكون إما بلاد النوبة أو بلاد اليمن حتى إذا وصل إليهم نور الدين لقوه وصدوه عن البلاد فإن قروا على منعه أقاموا بمصر وإن عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التي قد افتتحوها فجهز شمس الدولة وسار إلى أسوان ومنها إلى بلد النوبة فنازل قلعة اسمها ابزيم فحاصرها وقايله أهلها فلم يكن لهم بقتال العسكر الإسلامي قوة لأنهم ليس لهم جنة تقيهم السهام وغيرها من آلة الحرب فسلبوها فلكها وأقام بها ولم ير البلاد دخلا يرغب فيه وتحتل المشقة لأجله وقوتهم الذرة فلما رأى عدم الحاصل وقشف العيش مع مباشرة الحبيب

ومعاناة التعب والمشقة تركها وعاد إلى مصر بما غنم وكان عامة غنيمتهم العبيد والجواري .

(ذكر ظفر مليح بن ليون بالروم) في هذه السنة في جمادى الأولى هزم مليح بن ليون الأرمني صاحب بلاد الدروب المجاورة لحلب عسكر الروم من القسطنطينية وسبب ذلك أن نور الدين كان قد استخدم مليحا المذكور وأقطعه إقطاعا سنيا وكان ملازم الخدمة لنور الدين ومشاهدا لحروبه مع الفرنج ومباشرا لها وكان هذا من جيد الرأي وصائبه فإن نور الدين لما قيل له في معنى استخدامه وإعطائه الإقطاع في بلاد الشام قال أستعين به على قتال أهل ملته وأريح طائفة من عسكرى تكون بإزائه لمنعه من الغارة على البلاد المجاورة له وكان مليح أيضا يتقوى بنور الدين على من يجاوره من الأرمن والروم وكانت مدينة أذنة والمصيصة وطرسوس بيد ملك الروم صاحب القسطنطينية فأخذها مليح منهم لأنها تجاور بلاده فسير إليه ملك الروم جيشا كثيفا وجعل عليهم بعض أعيان البطارقة من أقاربه فلقبهم مليح ومعه طائفة من عسكر نور الدين فقاتلهم وصدقهم القتال وصارهم فانهزمت الروم وكثر فيهم القتل والأسر وقويت شوكة مليح وانقطع أمل الروم من تلك البلاد وأرسل مليح إلى نور الدين كثيرا من غنائمهم ومن الأسرى ثلاثين رجلا من مشهورينهم وأعيانهم فسير نور الدين بعض ذلك إلى الخليفة المستضيء بأمر الله وكتب يعتمد بهذا الفتح لأن بعض جنده فعلوه .

(ذكر وفاة ايلدكز) في هذه السنة توفي أتابك شمس الدين ايلدكز بهمدان وملك بعده ابنه محمد البهلوان ولم يختلف عليه أحد وكان ايلدكز هذا يملوكا للكمال السميرمي وزير السلطان محمود فلما قتل الكمال كما ذكرناه سار ايلدكز إلى السلطان محمود فلما ولي السلطان مسعود السلطنة ولاه أرانية فمضى إليها ولم يعد يحضر عند السلطان مسعود ولا غيره ثم ملك أكثر أذربيجان وبلاد الجبل وهمدان وغيرها وأصفهان والرى وما والاها من البلاد وخطب السلطنة لابن امرأته أرسلان نشاه بن طغرل وكان عسكره خمسين ألف فارس سوى الاتباع واتسع ملكه من باب تفليس إلى مكران ولم يكن للسلطان أرسلان معه حكم إنما كان له جراية تصل إليه وبلغ من تحمكه عليه أنه شرب ليلة فوهب ما في خزائنه وكان كثيرا فلما سمع ايلدكز بذلك استعاده جميعا وقال له متى أخرجت المال في غير وجهه أخذته أيضا من غير وجهه وظلمت الرعية وكان ايلدكز عاقلا حسن السيرة يجلس بنفسه للرعية ويسمع شكواهم وينصف بعضهم بن بعض .

(ذكر وصول الترك إلى إفريقية وملكهم طرابلس وغيرها) في هذه السنة سار طائفة من الترك من ديار مصر مع قراقوش يملوك تقي الدين عمر بن أخى صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى جبال نفوسة واجتمع به مسعود بن زمام المعروف بمسعود البلاط وهو من أعيان الأمراء هناك وكان خارجا عن طاعة عبد المؤمن فاتفقا وكثر جمعهما ونزلا على طرابلس الغرب فحاصراها وضيقا على أهلها ثم فتحت فاستولى عليها قراقوش وأسكن أهله قصرها وملك كثيرا من بلاد إفريقية ما خلا المهديّة وسفاس وقفصة وتونس وما والاها من القرى والمواضع وصار مع قراقوش عسكر كثير لحكم على تلك البلاد بمساعدة العرب بما جبلت عليه من التخريب والنهب والإفساد بقطع الأشجار والتمار وغير ذلك فجمع بها أموالا عظيمة وجعلها بمدينة قابس وقويت نفسه وحدثه بالاستيلاء على جميع إفريقية لبعده أبي يعقوب بن عبد المؤمن صاحبها وكان ما سذكره إن شاء الله .

(ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالاندلس) في هذه السنة جمع أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

عساكره وسار من إشبيلية إلى الغزو فقصد بلاد الفرنج ونزل على مدينة رندى وهى بالقرب من طليطلة شرقاً منها وحصرها واجتمعت الفرنج على ابن الفنش ملك طليطلة في جمع كثير فلم يقدموا على لقاء المسلمين فاتفق أن الغلاء اشتد على المسلمين وعدمت الأقوات عندهم وهم في جمع كثير فاضطروا إلى مفارقة بلاد الفرنج فعادوا إلى إشبيلية وأقام يعقوب بها إلى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة وهو على ذلك يجهز العساكر ويسيرها إلى غزو بلاد الفرنج في كل وقت فكان له فيها عدة وقائع وغزوات ظهر فيها للعرب من الشجاعة ما لا يوصف وصار الفارس من العرب يبرز بين الصفيين ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج فلا يبرز إليه أحد ثم عاد أبو يعقوب إلى مراکش .

(ذكر نهب نهاوند) في هذه السنة نهب عسكر شملة نهاوند وسبب ذلك أن شملة كان أيام أيلدكز لا يزال يطلب منه نهاوند لكونها مجاورة ببلاده ويبدل فيها الأموال فلا يجيبه إلى ذلك فلما مات أيلدكز وملك بعده ولده محمد البهلوان وسار إلى أذربيجان لإصلاحها نفذ شملة بن أخيه بن شنكا لاخذ نهاوند وبلغ أهل البلد الخبر فتحصنوا وحصرهم وقتلهم وقتلوه وأخشوا في سبه فلما علم أنه لا طاقة له بهم رجع إلى تستر وهى قرية منها وأرسل أهل نهاوند إلى البهلوان يطلبون منه نجدة فتأخرت عنهم فلما اطمانوا خرج ابن شنكا من تستر في خمسمائة فارس وسار يوماً ولبلة فقطع أربعين فرسخاً حتى وصل إلى نهاوند وضرب البوق وأظهر أنه من أصحاب البهلوان لأنه جاءهم من ناحية ففتح أهل البلد له الأبواب فدخله فلما توسط قبض على القاضي والرؤساء وصلبهم ونهب البلد وقطع أنف الوالى وأطلقه وتوجه نحو ماسيزان قاصداً للعراق .

(ذكر قصد نور الدين بلاد قلع أرسلان) في هذه السنة سار نور الدين محمود بن زنكى إلى ملكة عز الدين قلع أرسلان بن مسعود بن قلع أرسلان وهى ملطية وسيواس واقصرا وغيرها ملازماً على حربها وأخذ ببلاده منه وكان سبب ذلك أن ذا النون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس قصد قلع أرسلان وأخذ ببلاده وأخرجه عنها طريداً فريداً فصار إلى نور الدين مستجيراً به وملتجئاً إليه فأكرم نزله وأحسن إليه وحمل له ما يليق أن يحمل إلى الملوك ووعدته النصر والسعى في رد ملكه إليه ثم إنه أرسل إلى قلع أرسلان يتشفع في إعادة ملكه فلم يجبه إلى ذلك فسار نور الدين إليه فابتدأ بكبسون وبهنسى ومرعش ومرزبان فلما بينهما وكان ملكه لمرعش أوائل ذى القعدة والباقي بعدها فلما ملكها سير طائفة من عسكره إلى سيواس فلكوها وكان قلع أرسلان لما سار نور الدين إلى بلاده قد سار من طرفها التي تلى الشام إلى وسطها ورأسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح فتوقف نور الدين عن قصد رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب فأتاه عن الفرنج ما أزعجه فأجابه إلى الصلح وشرط عليه أن ينجده بعساكر إلى الغزاة وقال له أنت مجاور الروم ولا تغزوم ويديك قطعة كبيرة من من بلاد الإسلام ولا بد من الغزاة معي فأجابه إلى ذلك وتبقى سيواس على حالها بيد نواب نور الدين وهى لدى النون فبقى العسكر في خدمة ذى النون إلى أن مات نور الدين فلما مات رحل عسكره عنها وعاد قلع أرسلان وملكها وهى بيد أولاده إلى الآن سنة نيف وعشرين وستمائة ولما كان نور الدين في هذه السفارة جاءه رسول كمال الدين أبي الفضل محمد بن عبد الله الشهرزورى من بغداد ومعه منشور من الخليفة بالموصل والجزيرة وباربل وخلاط والشام وبلاد قلع أرسلان وديار مصر .

(ذكر رحيل صلاح الدين من مصر إلى الكرك وعوده عنها) في هذه السنة في شوال رحل صلاح الدين

يوسف بن أيوب من مصر بعساكرها جميعها إلى بلاد الفرنج يريد حصر الكرك والاجتماع مع نور الدين عليه والاتفاق على قصد بلاد الفرنج من جهتين كل واحد منهما في جهة بعسكره وسبب ذلك أن نور الدين لما أنكر على صلاح الدين عوده من بلاد الفرنج في العام الماضي وأراد نور الدين قصد مصر وأخذها منه أرسل يمتذر ويعد من نفسه بالحركة على ما يقرره نور الدين فاستقرت القاعدة بينهما أن صلاح الدين يخرج من مصر ويسير نور الدين من دمشق فأيهما سبق صاحبه يقيم إلى أن يصل الآخر إليه وتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما فيه فسار صلاح الدين عن مصر لأن طريقه أبعد وأشق ووصل إلى الكرك وحصره وأما نور الدين فإنه لما وصل إليه كتاب صلاح الدين برحيله من مصر فرق الأموال وحصل الأزواد وما يحتاج إليه وسار إلى الكرك فوصل إلى الرقيم وبينه وبين الكرك مرحلتان فلما سمع صلاح الدين بقربه خافه هو وجميع أهله وانفق رأيهم على العود إلى مصر وترك الاجتماع بنور الدين لأنهم علموا أنه إن اجتمعما كان عزله على نور الدين سهلا فلما عاد أرسل الفقيه عيسى إلى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنه كان قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على ديار مصر وأنه مريض شديد المرض ويخاف أن يحدث حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم وأرسل معه من التحف والهدايا ما يجمل عن الوصف فجاء الرسول إلى نور الدين وأهله ذلك فعظم عليه وعلم المراد من العود إلا أنه لم يظهر للرسول تأثرا بل قال له حفظ مصر أم عندنا من غيرها وسار صلاح الدين إلى مصر فوجد أباه قد قضى نحبه ولحق بربه وكلمة تقول لقائلها دعنى وكان سبب موت نجم الدين أنه ركب يوما فرسا بمصر فنفر به الفرس نفرة كبيرة شديدة فسقط عنه فحمل إلى قصره وقيدا وبقي أياما ومات في السابع والعشرين من ذي الحجة وكان خيرا عاقلا حسن السيرة كريما جوادا كثير الإحسان إلى الفقراء والصوفية والمجالسة لهم وقد تقدم من ذكره وابتداء أمره وأمر أخيه شيركوه مالا حاجة إلى إعادته .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة زادت دجلة زيادة كثيرة أشرفت بها بغداد على الفرق في شعبان وسدوا أبواب الدزوب ووصل الماء إلى قبة أحمد بن حنبل ووصل إلى النظامية ورباط شيخ الشيوخ واشتغل الناس بالعمل في القورج ثم القورج ثم نقص وكفى الناس شره وفيها وقعت النار ببغداد من درب بهروز إلى باب جامع القصر ومن الجانب الآخر من حجر النحاس إلى دار أم الخليفة . وفيها أغار بنو حزن من خفاجة على سواد العراق وسبب ذلك أن الحماية كانت لهم لسواد العراق فلما تمكن يزدن من البلاد وتسلم الحلة أخذها منهم وجعلها لبني كعب من خفاجة وأغار بنو حزن على السواد فسار يزدن في عسكر ومعه الغضبان الخفاجي وهو من بني كعب لقتال بني حزن فبينما هم سائرون ليلا رمى بعض الجند الغضبان بسهم فقتله لفساده وكان في السواد فلما قتل عاد العسكر إلى بغداد وأعيدت خفارة السواد إلى بني حزن . وفيها خرج ترجم الإيوانى في جمع من الزركان في حياة أيلدكز وتطرق أعمال همذان ونهب الدينور واستباح الحرم وسمع أيلدكز الخبر وهو بتقجوان فسار مجدا فيمن خف من عسكره فقصدته فهرب ترجم إلى أن قارب بغداد وتبعه أيلدكز فظن الخليفة أنها حيلة ليصل إلى بغداد فجأة فشرع في جمع العساكر وعمل السور فأرسل إلى أيلدكز الخلع والألقاب الكبيرة فاعتذر أنه لم يقصد إلا كف الأمير يزدن وهو من أكابر أمراء بغداد وكان يتشيع فوقع بسببه فتنة بين السنة والشيعة بواسطة لأن الشيعة جاسوا له للزماء وأظهر السنة الثماتة به فال الأمر إلى القتال فقتل بينهم جماعة ولما مات أقطع أخوه تماش ما كان لأخيه وهي مدينة واسط ولقب علاء الدين . وفيها أرسل نور الدين (١٦ - الكامل - ٩)

محمود بن زنكي رسولا إلى الخليفة وكان الرسول القاضي كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبدالله الشهرزوري قاضي بلاده جميعها مع الوقوف والديوان وحمله رسالة مضمونها الخدمة للديوان وما هو عليه من جهاد الكفار وفتح بلادهم ويطلب تقليدا بما بيده من البلاد مصر والشام والجزيرة والموصل وبما في طاعته كدبار بكر وما يجاور ذلك كخلاط وبلاد قنج أرسلان وأن يعطى من الأقطاع بسواد العراق ما كان لأبيه زنكي وهو صريفين ودر ب هرون والنمس أرضا على شاطئ دجلة بينها مدرسة للشافعية ويوقف عليها صريفين ودر ب هرون فأكرم كمال الدين إكراما لم يكرمه رسول قبله وأجيب إلى ما التمس فمات نور الدين قبل الشروع في بناء المدرسة رحمه الله

﴿ ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر ملك شمس الدولة زيد وغيرها من بلاد اليمن ﴾ قد ذكرنا قبل أن صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر وأهله كانوا يخافون من نور الدين محمود أن يدخل إلى مصر فيأخذها منهم فشرعوا في تحصيل ملكة يقصدونها ويتملكونها تكون عدة لهم إن أخرجهم نور الدين من مصر ساروا إليها وأقاموا بها فسيروا شمس الدولة تورانشاه بن أيوب وهو أخو صلاح الدين الأكبر إلى بلد النوبة فكان ما ذكرناه فلما عاد إلى مصر استأذنوا نور الدين في أن يسير إلى اليمن لقصد عبد النبي صاحب زيد لأجل قطع الخطبة العباسية فأذن في ذلك وكان بمصر شاعر اسمه عمارة من أهل اليمن فكان يحسن لشمس الدولة قصد اليمن ويصف البلاد له ويعظم ذلك في عينه فزاده قوله رغبة فيها فشرع يتجهز ويعد الأزواد والروايا والسلاح وغيره من الآلات وجند الأجناد فجمع وحشد وسار عن مصر مستهل رجب فوصل إلى مكة أعزها الله تعالى ومنها إلى زيد وفيها صاحبها المتغلب عليها المعروف بعبد النبي فلما قرب منها رآه أهلها فاستقل من معه فقال لهم عبد النبي كأنكم بهؤلاء وقد حى عليهم الحر فهل كوا إلا أكلة رام فخرج إليهم بعسكره فقاتلهم شمس الدولة ومن معه فلم يثبت أهل زيد وانهمزوا ووصل المصريون إلى سور زيد فلم يجدوا عليه من يمنعهم فصبوا السلام وصعدوا السور فلكوا البلد عنوة ونهبوه وأكثروا النهب وأخذوا عبد النبي أسيرا وزوجته المدعوة بالحرة وكانت امرأة سالحة كثيرة الصدقة لاسيما إذا حجت فإن فقراء الحاج كانوا يجدون عندها صدقة دارة وخيرا كثيرا ومعروفا عظيما فلما أسر شمس الدولة عبد النبي وسلم شمس الدولة عبد النبي إلى بعض أمراءه يقال له سيف الدولة مبارك بن كامل من بني منقذ أصحاب شيزر وأمره أن يستخرج منه الأموال فأعطاه منها شيئا كثيرا . ثم إنه دلم على قبر كان قد صنعه لوالده وبنى عليه بنية عظيمة وله هناك دفائن كثيرة فأعلمهم بها فاستخرجت الأموال من هناك وكانت جليلة المقدار وأما الحرة فإنها أيضا كانت تدلم على ودائع لها فأخذ منها مالا كثيرا ، ولما ملكوا زيدوا استقرار الأمر لهم بها ودانت أهلها وأقيمت فيها الخطبة العباسية أصلحوا حالها وساروا إلى عدن وهي على البحر ولها مرسى عظيم وهي فرضة الهند والزنج والحبشة وهمان وكرمان وكيش وفارس وغير ذلك وهي من جهة البر من أمنع البلاد وأحصنها وصاحبها إنسان اسمه ياسر فلما أقام بها ولم يخرج عنها لعادوا خائبين وإنما حمله جهله وانقضاء مدته على الخروج إليهم ومباشرة قتالهم فسار إليهم وقاتلهم فانهزم ياسر ومن معه وسبقهم بعض عسكر شمس الدولة فدخلوا البلد قبل أهله فلكوه وأخذوا صاحبها ياسرا أسيرا وأرادوا نهب البلد فنعهم شمس الدولة

وقال ماجتنا لنخرب البلاد وإنما جئنا لنملكها ونعمرها ونتنفع بدخلها فلم ينهب أحد منها شيئاً فبقيت على حالها وثبت ملكه واستقر أمره ولما مضى إلى عدن كان معه عبد النبي صاحب زيد مأسورا فلما دخل إلى عدن قال سبحان الله كنت قد علمت أني أدخل إلى عدن في موكب كبير فأنا أنتظر ذلك وأسر به ولم أكن أعلم أنني أدخلها على هذا الحال ولما فرغ شمس الدولة من أمر عدن عاد إلى زيد وحصر ماني الجبل من الحصون فلك قلعة تعز وهي من أحسن القلاع وبها تكون خزائن صاحب زيد وملك أيضا قلعة النعكر والجند وغيرها من المعاقل والحصون واستناب بعدن عز الدين عثمان بن الزنجبيلي وبزيد سيف الدولة مبارك بن منقذ وجعل في كل قلعة نائبا من أصحابه وألقى ملكهم باليمن جرانه ودام وأحسن شمس الدولة إلى أهل البلاد واستصنى طاعتهم بالعدل والإحسان وعادت زيد إلى أحسن أحوالها من العمارة والأمن بمدخراتها (ذكر قتل جماعة من المصريين أردوا الوثوب بصلاح الدين) في هذه السنة ثاني رمضان صلب صلاح الدين يوسف ابن أيوب جماعة ممن أرادوا الوثوب به بمصر من أصحاب الخلفاء العلويين وسبب ذلك أن جماعة من الشيعة منهم عمارة بن أبي الحسن اليمني الشاعر وعبد الصمد الكاتب والقاضي العويرس وداعي الدعاة وغيرهم من جند المصريين ورجالهم السودان وحاشية القصر وافقهم جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية ومن ساحل الشام إلى ديار مصر على شيء بذلوه لهم من المال والبلاد فإذا قصدوا البلاد فإن خرج صلاح الدين بنفسه إليهم نارواهم في القاهرة ومصر وأعادوا الدولة العلوية وعاد من معه من العسكريين وافقهم عنه فلا يبقى له مقام مقابل الفرنج وإن كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر إليهم ناروا به وأخذوه أخذا باليد لعدم الناصر له وقال لهم عمارة وأنا قد أبعدت أخاه إلى اليمن خوفا أن يسد مسده وتجتمع الكلمة عليه بعده وأرسلوا إلى الفرنج وصقلية والساحل في ذلك وتقررت القاعدة بينهم ولم يبق إلا رحيل الفرنج وكان من لطف الله بالمسلمين أن الجماعة المصريين أدخلوا معهم زين الدين علي بن نجما الواعظ والقاضي المعروف بابن نجمة ورتبوا الخليفة والوزير والحاجب والداعي والقضاة، إلا أن بني رزيك قالوا يكون الوزير منا وبني شاور والقاضي قالوا يكون الوزير منا فلما علم ابن نجما الحال حضر عنده صلاح الدين وأعلمه حقيقة الأمر فأمره بملازمتهم ومخالطتهم ومواطنتهم على ما يريدون يفعلونه وتعريفه ما يتجدد أولا بأول ففعل ذلك وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه ثم وصل رسول من ملك الفرنج بالساحل بهدية ورسالة وهو في الظاهر إليه والباطن إلى أولئك الجماعة وكان يرسل إليهم بعض النصارى وتأتيهم رسالهم فأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الحال فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق إليه من النصارى وداخله فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته فقبض حينئذ على المقدمين في هذه الحادثة منهم عمارة وعبد الصمد الكاتب والعويرس وغيرهم وصلبهم وقيل في كشف أمرهم أن عبد الصمد المذكور كان إذا لقي القاضي الفاضل الصلاحي يخدمه ويتقرب إليه بجهده وطاقته فلقبه يوما فلم يلتفت إليه فقال القاضي الفاضل ما هذا إلا لسبب وخاف أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين فأحضر علي بن نجما الواعظ وأخبره الحال وقال أريد تكشف لي الأمر فسعى في كشفه فلم ير له من جانب صلاح الدين شيئا فعدل إلى الجانب الآخر فكشف الحال وحضر عند القاضي الفاضل وأعلمه فقال تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنبأ الحال إليه فحضر عند صلاح الدين وهو في الجامع فذكر له الحال فقام وأخذ الجماعة وقرروا فأقروا فأمر بصلبهم وكان عمارة بينه وبين الفاضل عداوة من أيام العاضد

وقبلها فلما أراد صلبه قام القاضي الفاضل وخاطب صلاح الدين في إطلاقه وظن عمارة أنه يحرض على هلاكه فقال لصلاح الدين يا مولانا لا تسمع منه في حقي فغضب الفاضل وخرج وقال صلاح الدين لعمارة إنه كان يشفع فيك فندم ثم أخرج عمارة ليصلب فطلب أن يمر به على مجلس الفاضل فاجتازوا به عليه فأغلق بابه ولم يجتمع به فقال عمارة :

عبد الرحيم قد احتجب • إن الخلاص هو العجب

ثم صلب هو والجماعة ونودي في أجناد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتهما إلى أقاصي الصعيد واحتيط على من بالقصر من سلالة المعاضد وغيره من أهله وأما الذين نافقوا على صلاح الدين من جنده فلم يعرض لهم ولا أعلمهم أنه علم بحالهم ؛ وأما الفرنج فإن فرنج صقلية قصدوا الإسكندرية على ما ذكره إن شاء الله تعالى لأنهم لم يتصل بهم ظهور الخبر عند صلاح الدين وأما فرنج الساحل الشامى فإنهم لم يتحركوا لعلهم بحقيقة الحال وكان عمارة شاعرا مفلقا فن شعره :

لو أن قلبي يوم كاظمة معى • لملكته وكظمت فيض الأدمع
قلب كفاك من الصباية أنه • لبي نداء الطاعنين ومادعى
ما القلب أول غادر فالومه • هى شيمة الأيام مذ خلقت معى
ومن الظنون الفاسدات توهمى • بعد اليقين بقاءه فى أضلعى

وله أيضا :

لى فى هوى الرشا العذرى أعذار • لم يبق لى مذ أقر الدمع إنكار
لى فى القدود وفى لثم الحدود وفى • ضم النهود لبانات وأوطار
هذا اختيارى فوافق إن رضيت به • أو لا فدعى وما أهوى وأختار

وله ديوان شعر مشهور فى غاية الحسن والرقه والملاحة .

(ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله) فى هذه السنة توفى نور الدين محمود بن زنكى بن آقسنقر صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر يوم الأربعاء حادى عشر شوال بعلة الخوانيق ودفن بقلعة دمشق ونقل منها إلى المدرسة التى أنشأها بدمشق عند سوق الخواصين . ومن عجيب الإنفاق أنه ركب ثانى شوال وإلى جانبه بعض الأمراء الأخيار فقال له الأمير سبجان من يعلم هل يجتمع هنا فى العام المقبل أم لا فقال نور الدين لا تقل هكذا بل سبجان من يعلم هل يجتمع بعد شهر أم لا . فمات نور الدين رحمه الله بعد أحد عشر يوما ومات الأمير قبل الحول فأخذ كل منهما بما قاله وكان قد شرع يتجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين يوسف ابن أيوب فإنه رأى منه فتورا فى غزو الفرنج من ناحيته وكان يعلم أنه إنما يمنع صلاح الدين من الغز والخوف منه ومن الاجتماع به . فإنه يؤثر كون الفرنج فى الطريق ليمتنع بهم على نور الدين فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر للغزاة وكان عزمه أن يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل والشام ويسير هو بعساكره إلى مصر فبينما هو يتجهز لذلك أتاه أمر الله الذى لا مرد له • حكى لى طبيب كان يخدم نور الدين وهو من حذاق الأطباء : قال استدعاني نور الدين فى مرضه الذى توفى فيه مع غيرى من

الاطباء فدخلنا إليه وهو في بيت صغير بقلعة دمشق وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته وكان يخلو فيه للتعب فابتدأ به المرض فلم ينتقل عنه فلما دخلنا ورأينا ما به قلت له كان ينبغي أن لا تؤخر إحضارنا إلى أن يشتد بك المرض الآن وينبغي أن تعجل الانتقال من هذا الموضع إلى مكان فسيح مضى فله أثر في هذا المرض وشرعنا في علاجه وأشرنا بالقصد فقال ابن ستين لا يقتصد وامتنع منه فعالجناه بغيره فلم ينجع فيه الدواء وعظم الداء ومات رحمه الله ورضى عنه وكان أسمر طويل القامة ليس له لحية إلا في حنكه وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلو العينين وكان قد اتسع ملكه جدا وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن لما دخلها شمس الدولة بن أيوب وملكها وكان مولده سنة إحدى عشرة وخمسمائة وطبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وهر بن عبدالعزیز أحسن من سيرته ولا أكثر تحريا منه للعدل وقد أتينا على كثير من ذلك في كتاب الباهر من أخبار دولتهم ولندكر ههنا نبذة لعل يقف عليها من له حكم فيقتدى به فمن ذلك زهده وعبادته وعلمه فإنه كان لا يأكل ولا يابس ولا يتصرف إلا في الذي يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة فأعطاها ثلاث دكاكين في حمص كانت له يحصل له منها في السنة نحو العشرين دينار فلما استقلتها قال ليس لي إلا هذا وجميع ما يدي أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونهم فيه ولا أخوض نار جهنم لأجلك وكان يصلي كثيرا بالليل وله أوراد حسنة وكان كما قيل :

جمع الشجاعة والخشوع لربه • ما أحسن المحراب في المحراب

وكان عارفاً بالفقهاء على مذهب أبي حنيفة ليس عنده فيه تعصب وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر وأما عدله فإنه لم يترك في بلاده على سعتها مكسا ولا عسرا بل أطلقها جميعا في مصر والشام والجزيرة والموصل وكان يعظم الشريعة ويقف عند أحكامها وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم فضى معه إليه وأرسل إلى القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري يقول قد جئت محاميا فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم وظهر الحق له فوهبه الخصم الذي أحضره وقال أردت أن أترك له ما يدعيه إنما خفت أن يكون الباعث لي على ذلك الكبر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة فحضرت ثم وهبته ما يدعيه وبني دار العدل في بلاده وكان يجلس هو والقاضي فيها ينصف المظلوم ولو أنه يهودي من الظالم ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده وأما شجاعته فإنها النهاية وكان في الحرب يأخذ قوسين وتركشين ليقاتل بها فقال له القطب النساوي الفقيه بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام فإن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف فقال نور الدين ومن محمود حتى يقال له هذا من قبلي من حفظ البلاد والإسلام ذلك الله الذي لا إله إلا هو وأما ما فعله من المصالح فإنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها فنما دمشق وحمص وحمات وحلب وشيزر وبعلبسك وغيرها وبني المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية وبني الجامع النوري بالموصل وبني البيمارستانات والخانات في الطرق وبني الخانكاهات في جميع البلاد وأوقف على الجميع الوقوف الكثيرة سمعت أن حاصل وقفه كل شهر تسعة آلاف دينار صوري وكان يكرم العلماء وأهل الدين ويعظمهم ويقوم إليهم ويجلسهم معه وينبسط معهم ولا يرد لهم قولا ويكاتبهم بخط يده وكان وقورا

مهيا مع تواضعه ، وبالجملة لحسناته كثيرة ومناقبه غزيرة لا يحتملها هذا الكتاب (١)
 (ذكر ملك ولده الملك الصالح) لما توفي نورالدين قام ابنه الملك الصالح إسماعيل بالملك بعده وكان عمره إحدى عشرة سنة وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق وأقام بها وأطاعه الناس بالشام وصلاح الدين بمصر وخطب له بها وضرب السكة باسمه وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن عبدالملك المعروف بابن المقدم وصار مدبر دولته فقال له كمال الدين صاحب مصر هو من أصحاب نورالدين والمصلحة أن نشاوره في الذي نفعه ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا وهو أقوى منا لأنه قد انفرد اليوم بملك مصر فلم يوافق هذا القول أغراضهم وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجهم فلم يرض غير قليل حتى وردت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يعزيه ويهتبه بالملك وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لأبيه فلما سار سيف الدين غازي صاحب الموصل وملك البلاد الجزرية على ما ذكره فأرسل صلاح الدين أيضا إلى الملك الصالح يعتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده وأخذها ليحضر في خدمته

(١) وكان فقيرا على مذهب أبي حنيفة ، وسمع الحديث وأسمعه ، وكان كثير الصلاة بالليل من وقت السحر إلى أن يركب :

جمع الشجاعة والخشوع لديه • ما أحسن الشجعان في المحراب

وكذلك كانت زوجته عصمت الدين خاتون بنت الأنايك معين الدين تكثر القيام في الليل فنامت ذات ليلة عن ردها فأصبحت وهي غضبي ، فسألها نورالدين عن أمرها فذكرت نومها الذي فوت عليها وردها فأمر نور الدين عند ذلك بضرب طبلخانة في القلعة وقت السحر لتوقظ النائم ذلك الوقت لقيام الليل ، وأعطى الضارب على الطبلخانة أجرا جزيلا ، وجراية كثيرة .

فألبس الله هاتيك العظام وإن • بلين تحت الثرى عفوا وغفرانا

سقى ثرى أودعوه رحمة ملأت • مشوى قبورهم روحا وريحانا

ومات في يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال من هذه السنة قبض إلى رحمة الله تعالى عن ثمان وخمسين سنة ، مكث منها في الملك ثمان وعشرين سنة رحمه الله ، وصلى عليه بجامع القلعة بدمشق ، ثم حول إلى تربيته التي أنشأها للحنفية بين باب الخواصين ، وباب الخيميين على الدرب ؛ وقبره بها يزار ، ويحلق بشباكها ؛ ويطيب ويتبرك به كل مار ، فيقول قبر نورالدين الشهيد (لما حصل له في حلقه من الخوانيق) وكذا كان يقال لابنه الشهيد ويلقب بالقسيم ، وكانت الفرنج تقول له (القسيم بن القسيم) وقدرناه الشعراء بمرات كثيرة قد أوردوا أبو شامة ، وما أحسن ما قاله العماد :

عجبت من الموت لما أتى • إلى ملك في سجايا ملك

وكيف ثرى الفلك المستد • يرفى الأرض وسط فلك

وقال حسان الشاعر الملقب بالعرقلة في مدرسة نورالدين لما دفن بها رحمه الله تعالى :

ومدرسة ستدرس كل شيء • وتبقى في حمى علم ونسك

تضوع ذكرها شرقا وغربا • بنورالدين محمود بن زنكي

يقول وقوله حق وصدق • بغير كناية وبغير شك

دمشق في المدائن بيت ملكي • وهذي في المدارس بنت ملكي

ويكشف سيف الدين وكتب إلى كمال الدين والأمراء يقول لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامى أوثق إليه مثل ثقته إلى لاسم إليه مصر التي هي أعظم ممالكة وولايانه ولولم يعجل عليه الموت لم يمهده إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دونى وسوف أصل إلى خدمته وأجازى إنعام والده بخدمة يظهر أثرها وأجازى كلا منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده وتمسك ابن المقدم وجماعة الأمراء بالملك الصالح ولم يرسلوه إلى حلب خوفاً أن يغلب عليهم شمس الدين على بن الداية فإنه كان أكبر الأمراء النورية وإنما منعه من الاتصال به والقيام بخدمته مرض لحقه وكان هو وإخوته بحلب وأمراها إليهم وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده ولما عجز عن الحركة أرسل إلى الملك الصالح يدعوه إلى حلب لتمتع به البلاد الجزرية من سيف الدين ابن عمه قطب الدين فلم يتمكن الأمراء الذين معه من الانتقال إلى حلب لما ذكرنا.

(ذكر ملك سيف الدين البلاد الجزرية) كان نور الدين قبل أن يمرض قد أرسل إلى البلاد الشرقية الموصل وديار الجزيرة وغيرها يستدعى العساكر منها لحجة الغزاة والمراد غيرها وقد تقدم ذكره فسار سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل في عساكره وعلى مقدمته الخادم سعد الدين كمشتكين الذى كان قد جعله نور الدين بقلعة الموصل مع سيف الدين فلما كانوا ببعض الطريق وصلت الأخبار بوفاة نور الدين فأما سعد الدين فإنه كان في المقدمة فهرب جريده وأما سيف الدين فأخذ كل ما كان له من برك وغيره وعاد إلى نصيبين فلما أرسل الشحنة إلى الخابور فاستولوا عليه وأقطعوه وسار هو إلى حران فحصرها عدة أيام وبها مملوك لنور الدين يقال له قايماز الحرائى فامتنع بها وأطاع بعد ذلك على أن تكون حران له ونزل إلى خدمة سيف الدين فقبض عليه وأخذ حران منه وسار إلى الرها فحصرها وملكها وكان بها خادم خصى أسود لنور الدين فسلها وطلب عوضها قلعة الزعفران من أعمال جزيرة ابن عمر فأعطيا ثم أخذت منه ثم صار إلى أن يستعطي ما يقوم به وبقوته وسير سيف الدين إلى الرقة فملكها وكذلك سروج واستكمل جميع بلاد الجزيرة سوى قلعة جعبر فإنها كانت منيعة وسوى رأس عين فإنها كانت لقطب الدين صاحب ماردين وهو ابن خال سيف الدين فلم يتعرض إليها وكان شمس الدين على بن الداية وهو أكبر الأمراء النورية بحلب مع عساكرها فلم يقدر على العبور إلى سيف الدين لينه من أخذ البلاد لفالج كان به فأرسل إلى دمشق يطلب الملك الصالح فلم يرسل إليه لما ذكرناه ولما ملك سيف الدين الجزيرة قال له نخر الدين عبد المسيح وكان قد وصل إليه من سيواس بعد موت نور الدين وهو الذى أقر له الملك بعد أبيه فظن أن سيف الدين يرعى له ذلك فلم يجن ثمرة ما غرس وكان عنده كبعض الأمراء قال له الراى أن تعبر إلى الشام فليس به مانع فقال له أكبر أمرائه وهو أمير يقال له عز الدين محمود المعروف بزلفندار قد ملكت أكثر ما كان لأبيك والمصلحة أن تعود فرجع إلى قوله وعاد إلى الموصل (ليقتضى الله أمرا كان مفعولا).

(ذكر حصر الفرنج بانياس وعودهم عنها) لما مات نور الدين محمود صاحب الشام اجتمعت الفرنج وساروا إلى قلعة بانياس من أعمال دمشق فحصرها فجمع شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم العسكر عنده بدمشق فخرج عنها فراسلهم ولاطفهم ثم أغلظ لهم في القول وقال لهم إن أنتم صالحتمونا وعدتم عن بانياس فنحن على ما كنا عليه وإلا فرسل إلى سيف الدين صاحب الموصل ونعله ونصالحه ونستجده ونرسل إلى

صلاح الدين بمصر فاستنجده ونقصد بلادكم من جهاتها كلها ولا تقومون لنا وأنتم تعلمون أن صلاح الدين كان يخاف أن يجتمع بنور الدين والآل فقد زال ذلك الخوف وإذا طلبناه إلى بلادكم فلا يمتنع فعلموا صدقه فصالحوه على شيء من المال أخذوه وأسرى أطلقوا لهم كانوا عند المسلمين وتقررت الهدنة فلما سمع صلاح الدين بذلك أنكره واستعظمه وكتب إلى الملك الصالح والأمراء الذين معه يقبح لهم ما فعلوه ويبدل من نفسه قصد بلاد الفرنج ومقارعتهم وإزعاجهم عن قصد شيء من بلاد الملك الصالح وكان قصده أن يصير له طريق إلى بلاد الشام لينتقلك البلاد والأمراء الشاميون إنما صالحوا الفرنج خوفا منه ومن سيف الدين غازي صاحب الموصل فإنه كان قد أخذ البلاد الجزرية وخافوا منه أن يعبر إلى الشام فرأوا صلح الفرنج أصلح من أن يجيء هذا من الغرب وهذا من الشرق وهم مشغولون عن ردكم .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في المحرم وقع الحريق ليلا ببغداد فاحترق أكثر الظفرية ومواضع غيرها ودام الحريق إلى بكرة وطفئت النار . وفيها في شعبان بنى ابن شنكا وهو ابن أخي شملة صاحب خوزستان قلعة بالقرب من الماهكي ليتقوى بها على الاستيلاء على تلك الأعمال فسير إليه الخليفة العساكر من بغداد لمنعه فالتقوا فحمل بنفسه على الميمنة فهزمها واقتتل الناس قتالا عظيما وأسر ابن أخي شملة وحمل رأسه إلى بغداد فعلق باب النوبي وهدمت القلعة . وفيها في رمضان وكان الزمان ربيعا توالى الأمطار في ديار بكر والجزيرة والموصل فدامت أربعين يوما مارأينا الشمس فيها غير مرتين كل مرة مقدار لحظة وخربت المساكن وغيرها وكثر الهدم ومات تحته كثير من الناس وزادت دجلة زيادة عظيمة وكان أكثرها ببغداد فإنها زادت على كل زيادة تقدمت منذ بنيت ببغداد بذراع وكسر وخاف الناس الغرق وفارقوا البلد وأقاموا على شاطئ دجلة خوفا من انفتاح القورج وغيره وكانوا كلما انفتح موضع يادروا بسده ونبع الماء في البلايع وخرب كثيرا من الدور ودخل الماء إلى البهارستان العضدي ودخلت السفن من الشبايك التي له فإنها كانت قد تقلعت فن الله تعالى على الناس بنقص الماء بعد أن أشرفوا على الغرق . وفيها في جمادى الأولى كانت الفتنة ببغداد بين قطب الدين قايماز والخليفة وسبها أن الخليفة أمر بإعادة عضد الدين بن رئيس الرؤساء إلى الوزارة فنع منه قطب الدين وأغلق باب النوبي وباب العمامة وبقيت دار الخليفة كالمحصرة فأجاب الخليفة إلى ترك وزارته ، فقال قطب الدين لا أفنع إلا بإخراج عضد الدين من بغداد فأمر بالخروج منها فالتجأ إلى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل فأخذه إلى رباطه وأجاره ونقله إلى دار الوزير بقطفنا فأقام بها ثم عاد إلى بيته في جمادى الآخرة . وفيها سقط الأمير أبو العباس أحمد بن الخليفة وهو الذي صار خليفة من قبة عالية إلى أرض التاج ومعه غلام له اسمه نجاح فألقى نفسه بعده وسلم ابن الخليفة ونجا فقبل لنجاح لم ألقيت نفسك فقال ما كنت أريد البقاء بعد مولاي فرعى له الأمير أبو العباس ذلك فلما صار خليفة جعله شرايبا وصارت الدولة جميعها بحكمه ولقيه الملك الرحيم عز الدين وبالغ في الإحسان إليه والتقديم له وخدمه جميع الأمراء بالعراق والوزراء وغيرهم . وفيها في رمضان وقع ببغداد برد كبار مارأى الناس مثله فهدم الدور وقتل جماعة من الناس وكثيرا من المراسي فوزنت بردة منها فكانت سبعة أرطال وكان عامته كالنارنج يكسر الأغصان هكذا ذكره أبو الفرج بن الجوزي في تاريخه والعهد عليه . وفيها كانت وقعة عظيمة بين المؤيد صاحب نيسابور وبين شاه مازندران قتل فيها كثير من الطائفتين فانهزم شاه مازندران ودخل المؤيد بلد الديلم وخربها وفنك

وفتك بأهلها وعاد عنها . وفيها وقعت وقعة كبيرة بين أهل باب البصرة وأهل باب الكرخ وسبها أن الماء لما زاد سكر أهل باب الكرخ سكرارد الماء عنهم ففرق مسجد فيه شجرة فانقلعت فصاح أهل الكرخ انقلعت الشجرة لمن الله العشرة فقامت الفتنة فتقدم الخليفة إلى هلاء الدين تنامش فقال على أهل باب البصرة لأنه كان شيعيا وأراد دخول المحلة فنعه أهلها وأغلقوا الأبواب ووقفوا على السور وأراد إحراق الأبواب فبلغ ذلك الخليفة فأنكره أشد إنكاراً وأمر بإعادة تنامش فعاد ودامت الفتنة أسبوعاً ثم انفصل الحال من غير توسط سلطان . وفيها عبر ملك الروم خليج القسطنطينية وقصد بلاد قلعج أرسلان فخرى بينهما حرب استظهر فيها المسلمون فلما رأى ملك الروم عجزه عاد إلى بلده وقد قتل من عسكره وأسر جماعة كثيرة وفيها في جمادى الأولى مات أحمد بن علي بن المعمر بن محمد بن عبدالله أبو عبدالله العلوي الحسيني نقيب العلويين ببغداد وكان يلقب الظاهر وسمع الحديث الكثير ورواه وكان حسنة أهل بغداد . وفيها توفي الحافظ أبو العلاء الحسن بن أحمد بن محمد العطار الهمداني سافر الكثير في طلب الحديث وقراءة القرآن واللغة وكان من أعيان المحدثين وكان له قبول عظيم ببلده عند العامة والخاصة . (١)

(ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة)

(ذكر وصول أسطول صقلية إلى مدينة الإسكندرية وانهازم منها) في هذه السنة ظفر أهل الإسكندرية وعسكر مصر بأسطول الفرنج من صقلية وكان سبب ذلك ما ذكرناه من إرسال أهل مصر إلى ملك الفرنج بساحل الشام وإلى صاحب صقلية ليقتصدوا ديار مصر ايشوروا بصلاح الدين ويخرجوه من مصر فجهز صاحب صقلية أسطولاً كثيراً عدته مائتي شيني تحمل الرجال وستة وثلاثين طريدة تحمل الخيل وستة مراكب كبارا تحمل آلة الحرب وأربعين مركبا تحمل الأزواد وفيها من الراحل خمسون ألفاً ومن الفرسان ألف وخمسمائة منها خمسمائة تركبلى وكان المقدم عليهم ابن عم صاحب صقلية وسيره إلى الإسكندرية من ديار مصر فوصلوا إليها في السادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستين على حين غفلة من أهلها وطمأنينة فخرج أهل الإسكندرية بسلاحهم وعدتهم لينعومهم من النزول وأبعدوا عن البلد فمنعهم الوالى عليهم من ذلك وأمرهم بملازمة السور ونزل الفرنج إلى البر مما يلي البحر والمنارة وتقدموا إلى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات وقاتلوا أشد قتالاً وصبر لهم أهل البلد ولم يكن عندهم من العسكر إلا القليل ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ماراعهم وسيرت الكتب بالحال إلى صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو عنهم ودام القتال

(١) وفيها توفي الأهوازي : خازن كتب مشهد أبي حنيفة ببغداد ، توفي فجأة في ربيع الأول من هذه السنة . وفيها توفي الخضر بن نصر على بن نصر الإربلي المقيمه الشافعي ، أول من درس بأربل في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وكان فاضلاً ديناً ، انتفع به الناس ، وكان قد اشتغل على الكيا الهراسي وغيره ببغداد ، وقدم دمشق فأرخه ابن عساكر في هذه السنة ، وترجمه ابن خلكار في الوفيات ، وقال قبره يزار ، وقد زرته غير مرة ، ورأيت الناس ينتابون قبره ويتبركون به ، وهذا الذي قاله ابن خلكار بما ينكره أهل العلم عليه وعلى أمثاله ممن يعظم القبور . وفيها هلك ملك الفرنج مري لعنه الله ؛ وأظنه ملك عسقلان ونحوها من البلاد ، وقد كان قارب أن يملك الديار المصرية لولا فضل الله ورحمته بعباده المؤمنين .

أول يوم إلى آخر النهار ثم عاود الفرنج القتال اليوم الثاني وجدوا ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات إلى قريب السور ووصل ذلك اليوم من العساكر الإسلامية كل من كان في أقطاعه وهو قريب من الإسكندرية فقويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القتال والصبر فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب وهم غارون وكثر الصياح من كل الجهات فارتاع الفرنج واشتد القتال فوصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها وصبروا للقتال فأنزل الله نصره عليهم وظهرت أماراته ولم يزل القتال إلى آخر النهار ودخل أهل البلد إليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تبشير الظفر وقوتهم وفشل الفرنج وقتور حربهم وكثرة القتل والجراح في رجالهم وأما صلاح الدين فإنه لما وصله الخبر سار بعساكره وسير مملوكاه ومعه ثلاثة جنائب ليجد السير عليها إلى الإسكندرية يبشر بوصوله وسير طائفة من العسكر إلى دمياط خوفا عليها واحتياطاً لها فسار ذلك المملوك فوصل الإسكندرية من يومه وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال فنادى في البلد بمجيء صلاح الدين والعساكر مسرعين فلما سمع الناس ذلك عاودوا إلى القتال وقد زال ما بهم من تعب وألم الجراح وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين في عساكره فسقط في أيديهم وزادوا تعباً وقتورا فهاجم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا إلى خيامهم فغنموها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة وكثر القتل في رجالة الفرنج فهرب كثير منهم إلى البحر وقربوا شوانيمهم إلى الساحل ليركبوا فيها فلم بعضهم وركب وغرق بعضهم وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض شوانى الفرنج ففرقت نخاف الباقون من ذلك فولوا هاربين واحتسب ثلثائة من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون إلى بكرة ودام القتال إلى أن أضحى النهار فغلبهم أهل البلد وقهروهم فصاروا بين قتل وأسير وكفى الله المسلمين شرهم .

(ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر) وفي أول هذه السنة خالف الكنز بصعيد مصر واجتمع إليه من رعية البلاد والسودان والعرب وغيرهم خلق كثير وكان هناك أمير من الصلاحية في أقطاعه وهو أخو الأمير أبي الهيجاء السمين فقتله الكنز فعظم قتله على أخيه وهو من أكبر الأمراء وأشجعهم فسار إلى قتال الكنز وسير معه صلاح الدين جماعة من الأمراء وكثيراً من العسكر ووصلوا إلى مدينة طود فاحتمت عليهم فقاتلوا من بها وظفروا بهم وقتلوا منهم كثيراً وذلوا بعد العز وقهروا واستكانوا ثم سار العسكر بعد فراغهم من طود إلى الكنز وهو في طغيانه يعمه فقاتلوه فقتل هو ومن معه من الأعراب وغيرهم وأمنت بعده البلاد واطمأن أهلها .

(ذكر ملك صلاح الدين دمشق) في هذه السنة سلخ ربيع الأول ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب مدينة دمشق وسبب ذلك أن نور الدين لمسامات وملك ابنه الملك الصالح بعده كان بدمشق وكان سعد الدين كشتكين قد هرب من سيف الدين غازي إلى حلب كما ذكرناه فأقام بها عند شمس الدين علي بن الداية فلما استولى سيف الدين على البلاد الجزرية خاف ابن الداية أن يغير إلى حلب فيملكها فأرسل سعد الدين إلى دمشق ليحضر الملك الصالح ومعه العساكر إلى حلب فلما قارب دمشق سير إليه شمس الدين محمد بن المقدم عسكراً فنبوه وعاد منهزماً إلى حلب فأخلف عليه ابن الداية عوض ما أخذ منه ثم إن الأمراء الذين بدمشق نظروا في المصلحة فعملوا أن يسيره إلى حلب أصلح الدولة من مقامه بدمشق فأرسلوا إلى ابن الداية يطلبون إرسال سعد الدين

ليأخذ الملك الصالح لجهزه وسيره (وعلى نفسها براقش تجني) فسار إلى دمشق في المحرم من هذه السنة وأخذ الملك الصالح وعاد إلى حلب فلما وصلوا إليها قبض سعد الدين على شمس الدين بن الداية وإخوته وعلى رئيس بن الخشاب رئيس حلب ومقدم الأحداث بها ولولا مرض شمس الدين بن الداية لم يتمكن من ذلك واستبد سعد الدين بتربية الملك الصالح فخاف ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق وقالوا إن استقر أمر حلب أخذ الملك الصالح وسار به إلينا وفعل مثل ما فعل بحلب وكاتبوا سيف الدين غازي صاحب الموصل ليعبر الفرات إليهم ليسلوا إليه دمشق فلم يفعل وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق فيمنع عنها ويقصده ابن عمه وعسكر حلب من وراء ظهره فهلك أشار عليه بهذا زلفندار عز الدين والجبان بقدر البعيد من الشر قريبا يرى الجبن حزما كما قال :

يرى الجبناء أن الجبن حزم ه وتلك طبيعة الرجل الجبان

فلما أشار عليه بهذا الرأي زلفندار قبله وامتنع من قصد دمشق وراسل سعد الدين والملك الصالح وصالحهما على ماخذه من البلاد فلما امتنع عن العبور إلى دمشق عظم حزمهم وقالوا حيث صالحهم سيف الدين لم يبق لهم مانع عن المسير إلينا فكاتبوا حينئذ صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر واستدعوه لملكوه عليهم وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين بن المقدم (ومن أشبه أباه فاضلم) وقد ذكرنا مخامرة أبيه في تسليم خنجار سنة أربع وأربعين وخمسمائة فلما وصلت الرسل إلى صلاح الدين بذلك لم يلبث وسار جريدة في سبعمائة فارس والفرنج في طريقه فلم يبال بهم فلما وطئ أرض الشام قصد بصرى وكان بها حينئذ صاحبها وهو من جملة من كاتبه فخرج ولقيه فلما رأى قلة من معه خاف على نفسه واجتمع بالقاضي الفاضل وقال ما أرى معكم عسكريا وهذا بلد عظيم لا يقصد بمثل هذا العسكر ولو منعكم من به ساعة من النهار أخذكم أهل السواد قال كان معكم مال سهل الأمر فقالوا هنا مال كثير يكون خمسين ألف دينار فضرب صاحب بصرى على رأسه وقال هلكتم وأهلكتمونا وجميع ما كان معهم عشرة آلاف دينار، ثم سار صلاح الدين إلى دمشق فخرج كل من بها من العسكر إليه فلقوه وخدموه ودخل البلد ونزل في دار والده المعروفة بدار العفيقي وكانت القلعة بيد خادم اسمه ربحان فأحضر صلاح الدين كمال الدين بن الشهرزوري وهو قاضي البلد والحاكم في جميع أموره من الديوان والوقف وغير ذلك وأرسله إلى ربحان ليسلم القلعة إليه وقال أنا بملوك الملك الصالح وما جئت إلا لأنصره وأخدمه وأعيد البلاد التي أخذت منه إليه وكان يخطب له في بلاده كلها فصعد كمال الدين إلى ربحان ولم يزل معه حتى سلم القلعة فصعد صلاح الدين إليها وأخذ ما فيها من الأموال وأخرجها واتسع بها وثبت قدمه وقويت نفسه وهو مع هذا يظهر طاعة الملك الصالح ويخاطبه بالملوك والخطبة والسكة باسمه .

(ذكر ملك صلاح الدين مدينتي حمص و حماة) لما استقر ملك صلاح الدين لدمشق وقرر أمرها استخلف بها أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب وسار إلى مدينة حمص مستهل جمادى الأولى وكانت حمص و حماة و قلعة بعين و سلمية وتل خالد والرها من بلد الجزيرة في أقطاع الأمير شرف الدين مسعود الزعفراني فلما مات نور الدين لم يمكنه المقام بها لسوء سيرته في أهلها ولم يكن له في قلاع هذه البلاد حكم وإنما ولادة لنور الدين وكان بقلعة حمص وال يحفظها فلما نزل صلاح الدين على حمص حادى عشر الشهر المذكور راسل من فيها بالتسليم فامتنعوا فقاتلهم من الغد فلك البلد وأمن أهله وامتنعت عليه القلعة وبقيت ممتنعة إلى أن عاد من حلب على ما ذكره

إن شاء الله وترك بمدينة حمص من يحفظها ويمنع من بالقلعة من التصرف وأن تصعد اليهم مسيرة وصار إلى مدينة حماة وهو في جميع أحواله لا يظهر إلا طاعة الملك الصالح بن نور الدين وأنه إنما خرج لحفظ بلاده عليه من الفرنج واستعادة ما أخذه سيف الدين غازي صاحب الموصل من البلاد الجزرية فلما وصل إلى حماة ملك المدينة مستهل جمادى الآخرة وكان بقاعها الأمير عز الدين جورديك وهو من المماليك النورية فامتنع من التسليم إلى صلاح الدين فأرسل إليه صلاح الدين يعرفه ما هو عليه من طاعة الملك الصالح وإنما يريد حفظ بلاده عليه فاستحلفه جورديك على ذلك وسيره إلى حاب في اجتماع الكلمة على طاعة الملك الصالح وفي إطلاق شمس الدين علي وحسن وعثمان أولاد الداية من السجن فسار جورديك إلى حلب واستخلف بقلعة حماة أخاه ليحفظها فلما وصل جورديك إلى حلب قبض عليه كتمتكن وسجنه فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة إلى صلاح الدين فلما كها.

(ذكر حصر صلاح الدين حلب وعوده عنها وملك قلعة حمص وبعابك) لما ملك صلاح الدين حماة سار إلى حلب فحصرها ثالث جمادى الآخرة فقاتله أهلها وركب الملك الصالح وهو صبي وعمره اثنا عشر سنة وجمع أهل حلب وقال لهم قد عرفتم إحسان أبي اليكم ومحبتة لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدي إليه يأخذ بلدي ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق وقال من هذا كثيرا وبكى فأبكى الناس فبذلوا له الأموال والأنفس وانفقوا على القتال دونه والمنع عن بلده وجدوا في القتال وفيهم شجاعة قد ألفوا الحرب واعتادوها حيث كان الفرنج بالقرب منهم فكانوا يخرجون ويقاثلون صلاح الدين عند جبل حوشن فلا يقدر على القرب من البلد وأرسل سعد الدين إلى سنان مقدم الإسماعيلية وبذل له أموالا كثيرة ليقتلوا صلاح الدين فأرسلوا جماعة منهم إلى عسكره فلما وصلوا رآهم أمير اسمه خمارتكن صاحب قلعة بوقيس فعرفهم لأنه جارهم في البلاد كثير الاجتماع بهم والقتال لهم فلما رآهم قال لهم ما الذي أقدمكم وفي أي شيء جئتم فجرحوه جراحات مثنخة وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله فقتل دونه وقاتل الباقون من الإسماعيلية فقتلوا جماعة ثم قتلوا وبقي صلاح الدين محاصرا لحلب إلى سلخ جمادى الآخرة ورحل عنها مستهل رجب وسبب رحيله أن القوم من الصنجيلي صاحب طرابلس كان قد أسره نور الدين على حارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة وبقي في الحبس إلى هذه السنة فأطلقه سعد الدين بمائة ألف وخمسين ألف دينار صورية وألف أسير فلما وصل إلى بلده اجتمع الفرنج عليه يهتونه بالسلامة وكان عظيمًا فيهم من أعيان شياطينهم فاتفق أن مري ملك الفرنج لعنه الله مات أول هذه السنة وكان أعظم ملوكهم شجاعة وأجودهم رأيا ومكرا ومكيدة فلما توفي خلف ابنا مجذوما عاجزا عن تدبير الملك فملكه الفرنج صورة لامعنى تحتها وتولى القمص ريمند تدبير الملك الحل والعقد عن أمره يصدرن فأرسل إليه من حلب يطلبون منه أن يقصد بعض البلاد التي بيد صلاح الدين ليرحل عنهم فسار إلى حمص ونازلها سابع رجب فلما تجهز لقصدها سمع صلاح الدين الخبر فرحل عن حلب فوصل إلى حماة ثامن رجب بعد نزول الفرنج على حمص بيوم ثم رحل إلى الرستن فلما سمع الفرنج بقربه رحلوا عن حمص ووصل صلاح الدين إليها فحصر القلعة إلى أن ملكها في الحادى والعشرين من شعبان من السنة فصار أكثر الشام بيده ولما ملك حمص سار منها إلى بعلبك وبها خادم اسمه يمن وهو وال عليها من أيام نور الدين فحصرها صلاح الدين فأرسل يمن يطلب الأمان له ولين عنده فأمهم صلاح الدين وتسلم القلعة رابع عشر رمضان من السنة المذكورة .

(ذكر حصر سيف الدين أخاه عماد الدين بسنجار) لما ملك صلاح الدين دمشق وحمص وحماة كتب الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين إلى ابن عمه سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود يستنجده على صلاح الدين ويطلب أن يعبر إليه ليتصدوا صلاح الدين ويأخذوا البلاد منه فجمع سيف الدين عساكره وكاتب أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار وأمره أن ينزل إليه بعساكره ليجتمعوا على المسير إلى الشام فامتنع من ذلك وكان صلاح الدين قد كاتب عماد الدين وأطعمه في الملك لأنه هو الكبير فحمله الطمع على الامتناع على أخيه فلما رأى سيف الدين امتناعه جهز أخاه عز الدين مسعودا في عسكر كثير هو معظم عسكره وسيره إلى الشام وجعل المقدم على العسكر أكبر أمير معه يقال له عز الدين محمود ويلقب أيضا زلفندار وجعله المدبر للأمر وسار سيف الدين إلى سنجار فحصرها في شهر رمضان وقائلها وجد في القتال وامتنع عماد الدين بها وجد في حفظها والذب عنها فدام الحصار عليها فبينما هو يحاصرها أتاه الخبر بانهزام عسكره الذي مع أخيه عز الدين مسعود من صلاح الدين فراسل حينئذ أخاه عماد الدين وصالحه على ما بيده ورحل إلى الموصل وثبت قدم صلاح الدين بعد هذه الهزيمة وخافه الناس وترددت الرسل بينه وبين سيف الدين غازي في الصلح فلم يستقر حال (ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين وحصره مدينة حلب) في هذه السنة سار عسكر سيف الدين مع أخيه عز الدين زلفندار إلى حلب واجتمع معهما عساكر حلب وساروا كلهم إلى صلاح الدين ليحاربوه فأرسل صلاح الدين إلى سيف الدين يبذل تسليم حمص وحماة وأن يقرب يده مدينة دمشق وهو فيها نائب الملك الصالح فلم يجب إلى ذلك وقال لا بد من تسليم جميع ما أخذ من بلاد الشام والعود إلى مصر وكان صلاح الدين يجمع عساكره ويتجهز للحرب فلما امتنع سيف الدين من إجابته إلى ما بذل سار في عساكره إلى عز الدين مسعود وزلفندار فالتقوا تاسع عشر رمضان بالقرب من مدينة حماة بموضع يقال له قرون حماة وكان زلفندار جاهلا بالحروب والقتال غير عالم بتدبيرها مع جبن فيه إلا أنه قد رزق سعادة وقبولاً من سيف الدين فلما التقى الجمعان لم يثبت العسكر السيفي وانهمزوا لايلوي أخ علي أخيه وثبت عز الدين أخو سيف الدين بعد انهزام أصحابه فلما رأى صلاح الدين ثباته قال إما أن هذا أشجع الناس أو أنه لا يعرف الحرب وأمر أصحابه بالحملة عليه فحملوا فأزالوه عن موقفه وتمت الهزيمة وتبعهم صلاح الدين وعسكره حتى جازوا معسكرهم وغنموا منهم غنائم كثيرة وآلة وسلاحاً عظيماً ودواب فارهة وعادوا بعد طول البيكار مستريحين وعاد المهزومون إلى حلب وتبعهم صلاح الدين فنازلهم بها محاصراً لها ومقاتلاً وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه عن السكة في بلاده ودام محاصراً لهم فلما طال الأمر عليهم راسلوه في الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها فأجابهم إلى ذلك وانتظم الصلح ورحل عن حلب في العشر الأول من شوال ووصل إلى حماة ووصلت إليه بها خلع الخليفة مع رسوله .

(ذكر ملك صلاح الدين قلعة بعين) في هذه السنة في العشر الآخر من شوال ملك صلاح الدين قلعة بعين من الشام وكان صاحبها نحر الدين مسعود بن الزعفراني وهو من أكابر الأمراء النورية فلما رأى قوة صلاح الدين نزل منها واتصل بصلاح الدين وظن أن صلاح الدين يكرمه ويشاركه في ملكه ولا ينفرد عنه بأمر مثل ما كان مع نور الدين فلم ير من ذلك شيئاً ففارقه ولم يكن بقي له من أقطاعه التي كانت له في الأيام النورية غير بعين ونائبه بها فلما صالح صلاح الدين الملك الصالح بحلب عاد إلى حماة وسار منها إلى بعين وهي قرية منها

فحصرها ونصب عليها المنجنيقات وأدام قتالها فسلها واليها بالأمان فلما ملكها عاد إلى حماة فأقطعها خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي وأقطع حمص ناصر الدين ابن عمه شيركوه وصار منها إلى دمشق فدخلها أواخر شوال من السنة .

(ذكر ملك البهلوان مدينة تبريز) في هذه السنة ملك البهلوان بن ايلدكز مدينة تبريز وهي من جملة بلاد آقسنقر الاحمديلي وسبب ذلك أن البهلوان سار إلى مراغة وحصرها وكان ابن آقسنقر الاحمديلي قد مات ووصى بالملك لابنه فلك الدين فقصد البهلوان ونزل على قلعة رويندز وحصرها فامتنعت عليه فتركها وحصر مراغة وسير أخاه قزل أرسلان في جيش إلى مدينة تبريز فحصرها أيضا وكان البهلوان يقاتل أهل مراغة فظفروا بطائفة من عسكره فخلع عليهم صدر الدين قاضي مراغة وأطلقهم فحسن ذلك عند البهلوان وشرع القاضي في الصلح على أن يسلموا تبريز إلى البهلوان فأجيب إلى ذلك واستقرت القاعدة عليه وحلف كل واحد منهما لصاحبه وتسلم البهلوان تبريز وأعطاهما أخاه قزل أرسلان ورحل عن مراغة بعسكره .

(ذكر وفاة شملة) في هذه السنة مات شملة التركي صاحب خوزستان وكان قد كثرت ولايته وعظم شأنه وبني عدة حصون وبقي كذلك زيادة على عشرين سنة وكان سبب موته أنه قصد بعض التركان فعملوا بذلك فاستعانوا بشمس الدين البهلوان بن ايلدكز صاحب عراق العجم فسير إليهم جيشا فاقتلوا فأصاب شملة سهم ثم أخذ أسيرا وولده وابن أخيه وتوفي بعد يومين وهو من التركان الاقشيرية ولما مات ملك ابنه بعده .

(ذكر هرب قطب الدين قايماز من بغداد) في هذه السنة في شوال سير علاء الدين تماش وهو من أكابر الأمراء ببغداد وكان قطب الدين قايماز زوج أخته عسكرا إلى العراق فنهبوا أهله وبالغوا في أذاهم فجاء منهم جماعة إلى بغداد واستغاثوا فلم يغاثوا لضعف الخليفة مع قايماز وتماش وتحكما عليه فقصدوا جامع القصر واستغاثوا فيه ومنعوا الخطيب وفانت الصلاة أكثر الناس فأنكر الخليفة ماجرى فلم يلتفت قطب الدين وتماش إلى ما فعل واحترروه فلا جرم لم يمهلهم الله تعالى لاحتقارهم الدعاء وازدراءهم أهله فلما كان خامس ذي القعدة قصد قطب الدين قايماز أذى ظهير الدين بن العطار وكان صاحب الخزن وهو خاص الخليفة وله به عناية تامة فلم يراع الخليفة في صاحبه فأرسل إليه يستدعيه ليحضر عنده فهرب فأحرق قطب الدين داره وحالف الأمراء على المساعدة والمظاهرة له وجمعهم وقصد دار الخليفة لعله أن ابن العطار فيها فلما علم الخليفة ذلك ورأى الغلبة صعد إلى سطح داره وظهر للعامة وأمر خادما فصاح واستغاث وقال للعامة مال قطب الدين لكم ودمه لي فقصد الخلق كلهم دار قطب الدين للنهب فلم يتمكنه المقام لضيق الشوارع وغلبة العامة فهرب من داره من باب فتحه في ظهرها لكثرة الخلق على بابها وخرج من بغداد ونهبت داره وأخذ منها من الأموال ما لا يعد ولا يحصى فرؤى فيها من التمتع ما ليس لاحد مثله فمن جملة ذلك أن بيت الطهارة الذي كان له فيه سلسلة ذهب من السقف إلى محاذي وجه القاعدة على الخلا وفي أسفلها كرة كبيرة ذهب مخزومة محشوة بالمسك والعنبر ليشمها إذا تعد فتشبت إنسان وقطعها ودخل بعض الصعاليك فأخذ عدة أكياس مملوءة دنانير وكان الأقوياء قد وقفوا على الباب يأخذون ما يخرج به الناس فلما أخذ ذلك الصعلوك الأكياس قصد المطبخ فأخذ منه قدرا مملوءة طيخا وألقى الأكياس فيها وحملها على رأسه والناس يضحكون منه فيقول أنا أريد شيئا أطعمه عيالي اليوم فتجا بما معه فاستغنى بعد ذلك فظهر المال ولم يبق من نعمة قطب الدين في ساعة واحدة قليل ولا كثير ولما خرج من

البلد تبعه تماش وجماعة من الأمراء فهبت دورهم أيضا وأخذت أموالهم وأحرق أكثرها وسار قطب الدين إلى الحلة ومعه الأمراء فسير للخليفة إليه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ فلم يزل به يخدعه حتى سار عن الحلة إلى الموصل على البر فلحقه ومن معه عطش عظيم فهلك أكثرهم من شدة الحر والعطش ومات قطب الدين قبل وصوله إلى الموصل فحمل ودفن بظاهر باب العبادي وقبره مشهور هناك وهذا عاقبة عصيان الخليفة وكفران الإحسان والظلم وسوء التدبير فإنه ظلم أهل العراق وكفر إحسان الخليفة الذي كان قد غمره ولو أقام بالحلة وجمع العساكر وعاود بغداد لاستولى على الأمور كلها كما كان فإن عامة بغداد كانوا يريدونه وكان قوى بالإحسان على البلاد فأطاعوه ولما مات في ذي الحجة وصل علاء الدين تماش إلى الموصل فأقام مديدة ثم أمره الخليفة بالقدوم إلى بغداد فعاد إليها وبقي بها إلى أن مات بغير إقطاع وكان هذا آخر أمرهم ولما أقام قطب الدين بالحلة امتنع الحاج من السفر فتأخروا إلى أن رحل عنها فدخلوا من الكوفة في ثمانية عشر يوما وهذا ما لم يسمع بمثله وفات كثيرا منهم الحج ولما هرب قطب الدين خلع الخليفة على عضد الدين الوزير وأعيد إلى الوزارة. قال بعض الشعراء في قطب الدين وتماش هذه الأبيات :

إن كنت معتبرا بملك زائل • وحوادث عنقية الإدلاج
فدع العجائب والتواريخ الأولى • وانظر إلى قياز وابن قماج
عطف الزمان عليهما فسقاها • من كأسه صرفا بغير مزاج
فتبدلوا بعد القصور وظلها • ونعيمها بمهامه وفجاج
فليحذر الباقون من أمثالها • نكبات دهر خائن مزعاج

وكان قطب الدين كريما طلق الوجه مجبا للعدل والإحسان كثير البذل للمال والذي كان جرى منه إنما كان يحمله عليه تماش ولم يكن بإرادته .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة مات زعيم الدين صاحب الخزن واسمه يحيى بن عبدالله بن محمد بن المعمر بن جعفر أبو الفضل وحج بالناس عدة سنين واليه الحكم في الطريق وتاب عن الوزارة وتنقل في هذه الأعمال أكثر من عشرين سنة وكان يحفظ القرآن . (١)

(ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة)

(ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين) في هذه السنة عاشر شوال كان المصاف بين سيف الدين

(١) وفيها ظهر رجل من قرية مشغرا من معاملة دمشق وكان مغربيا فادعى النبوة ، وأظهر شيئا من المخاريق والمحايل والشعبذة والابواب النارجية ، فافتتن به طوائف من الهمج والعوام ، فتطلبه السلطان فهرب إلى معاملة حلب . فألف عليه كل مقطوع الذنب ، وأضل خلقا من الفلاحين ، وزوج امرأة أحبها ، وكانت من أهل البطائح فعلمها أن ادعت النبوة ، فأشبهها قصة مسيلة وسجاح . وفيها هرب وزير الخليفة ونهبت داره . وفيها درس أبو الفرج ابن الجوزي بمدرسة أنشئت للحنابلة فحضر عنده قاضي القضاة أبو الحسن بن الدامغانى والفقهاء والكبراء ، وكان يوما مشهودا وخلعت عليه خلعة سنية . وفيها توفي روح بن أحمد أبو طالب الحدثنى قاضي القضاة ببغداد في بعض الأحيان . كان انه في أرض الحجاز ، فلما بلغه موت أبيه مرض بعده فوات بعد أيام ، وكان ينبذ بالرفض .

غازي بن مودود وبين صلاح الدين يوسف بن أيوب بتل السلطان على مرحلة من حلب على طريق حماه وانهم سيف الدين وسبب ذلك أنه لما انهزم أخوه عز الدين مسعود من صلاح الدين في العام الماضي وصلاح سيف الدين أخاه عماد الدين صاحب سنجار عاد إلى الموصل وجمع عساكره وفرق فيهم الأموال واستنجد صاحب حصن كيفا وصاحب مardin وغيرهما فاجتمعت معه عساكره كثيرة بلغت عدتهم ستة آلاف فارس فسار إلى نصيبين في ربيع الأول من هذه السنة وأقام بها فأطال المقام حتى انقضى الشتاء وهو مقیم فضجر العسكر ونفدت نفقاتهم وصار العود إلى بيوتهم مع الهزيمة أوجب اليهم من الظفر لما يتوقعونه إن ظفروا من طول المقام بالشام بعد هذه المدة ثم سار إلى حلب فنزل إليه سعد الدين كمشتكين الخادم مدبر دولة الملك الصالح ومعه عساكر حلب وكان صلاح الدين في قلعة من العساكر لأنه كان صالح الفرج في المحرم من هذه السنة على ما ذكره إن شاء الله وقد سير عساكر إلى مصر فأرسل يستدعيها فلو عاجلوه لبلغوا غرضهم منه لكنهم تريشوا وتأخروا عنه فجاءته عساكره فسار من دمشق إلى ناحية حلب ليلقي سيف الدين فالتقى العسكران بتل السلطان وكان سيف الدين قد سبقه فلما وصل صلاح الدين كان وصوله العصر وقد تعب هو وأصحابه وعطشوا فألقوا نفوسهم إلى الأرض ليس فيهم حركة فأشار على سيف الدين جماعة بقتالهم وهم على هذا الحال فقال زلفندار ما بنا هذه الحاجة إلى قتال هذا الخارجي في هذه الساعة غدا بكرة نأخذهم كلهم فترك القتال إلى الغد فلما أصبحوا اصطهوا للقتال فجعل زلفندار وهو المدبر للعسكر السيفي أعلامهم في وهدة من الأرض لا يراها إلا من هو بالقرب منها فلما لم يرها الناس ظنوا أن السلطان قد انهزم فلم يثبتوا وانهم لم يلواخ على أخيه ولم يقتل بين الفريقين مع كثرتهم غير رجل واحد ووصل سيف الدين إلى حلب وترك بها أخاه عز الدين مسعودا في جمع من العسكر ولم يتم هو وعبر الفرات وسار إلى الموصل وهو لا يصدق أنه ينجو وظن أن صلاح الدين يعبر الفرات ويقصده بالموصل فاستشار وزيره جلال الدين ومجاهد الدين قايماز في مفارقة الموصل والاعتصام بقلعة عقرا الحميدية فقال له مجاهد الدين رأيت إن ملكك الموصل عليك أنتقدر أن تمتنع ببعض أبراج الفصيل فقال لا فقال برج في الفصيل خير من العقر وما زال الملوك ينهزمون ويعاودون الحرب واتفق هو والوزير على شد أزره وتقوية قلبه وثبت ثم أعرض عن زلفندار وعمره واستعمل مكانه على إمارة الجيوش مجاهد الدين قايماز على ما ذكره إن شاء الله وقد ذكر العماد الكاتب في كتاب البرق الشامي في تاريخ الدولة الصلاحية أن سيف الدين كان عسكره في هذه الواقعة عشرين ألف فارس ولم يكن كذلك إنما كان على التحقيق يزيدون على ستة آلاف فارس أقل من خمسمائة فإني وقفت على جريدة العرض وترتيب العسكر المصاف ميمنة وميسرة وقلبا وجاليشية وغير ذلك وكان المتولى لذلك والكاتب له أخى مجد الدين أبالسعادات المبارك بن محمد بن عبدالكريم رحمه الله وإنما قصد العماد أن يعظم أمر صاحبه بأنه هزم بستة آلاف عشرين ألفا والحق أحق أن يتبع ثم ياليت شعري كم هي الموصل وأعمالها إلى الفرات حتى يكون لها وفيها عشرون ألف فارس .

(ذكر ما ملكه صلاح الدين بعد الكسرة من بلاد الصالح بن نور الدين) لما انهزم سيف الدين وعسكره ووصلوا إلى حلب عاد سيف الدين إلى الموصل كما ذكرناه وترك بحلب أخاه عز الدين مسعودا في طائفة من العسكر نجدة للملك الصالح وأما صلاح الدين فإنه لما استولى على أنفال العسكر الموصلية هو وعسكره وغنموها واتسعوا بها وقروا سار إلى بزاعة فحصرها وقاتله من بالقلعة ثم تسلبها وجعل فيها من يحفظها وسار إلى مدينة

منبج فحصرها آخر شوال وبها صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي وكان شديد العداوة لصلاح الدين والتخريب عليه والإطعام فيه والظعن فيه فصلاح الدين حنق عليه متمدد له فأما المدينة فملكها ولم تمتنع عليه وبقى القلعة وبها صاحبها قد جمع إليها الرجال والسلاح والذخائر فحصره صلاح الدين وضيق عليه وزحف إلى القلعة فوصل النقبون إلى السور فقبوها وملكوها عنوة وغنم العسكر الصلاحي كل ما فيها وأخذ صاحبها أسيرا فأخذ صلاح الدين كل ماله وأصبح فقيرا لا يملك نقيرا ثم أطلقه صلاح الدين فسار إلى الموصل فأقطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة ولما فرغ صلاح الدين من منبج سار إلى قلعة إعزاز فنازلها ثالث ذي القعدة من السنة وهي من أحصن القلاع وأمنها فنازلها وحصرها وأحاط بها وضيق على من فيها ونصب عليها المنجنيقات وقتل عليها كثير من العسكر فبينما صلاح الدين يوما في خيمة لبعض أمرائه يقال له جاولي وهو مقدم الطائفة الأسدية إذ وثب عليه باطنى فضربه بسكين في رأسه فجرحه فلولا أن المغفر الزرد تحت القلنسوة لقتله فأمسك صلاح الدين يد الباطنى بيده إلا أنه لا يقدر على منعه من الضرب بالكلمة إنما يضرب ضربا ضعيفا فبقى الباطنى يضربه في رقبته بالسكين وكان عليه كراغند فكانت الضربات تقع في زيق الكراغند فتقطعه والزردية تمنعها من الوصول إلى رقبته لبعده أجله فجاء أمير من أمرائه اسمه يازكش فأمسك السكين بكفه فجرحه الباطنى ولم يطلقها من يده إلى أن قتل الباطنى وجاء آخر من الإسماعيلية فقتل أيضا وثالث فقتل وركب صلاح الدين إلى خيمته كالمذعور لا يصدق بنجاته ثم اعتبر جنده فمن أنكره أبعدته ومن عرفه أقره على خدمته ولازم حصار إعزاز ثمانية وثلاثين يوما كل يوم أشد قتالا مما قبله وكثرت النقوب فيها فأذعن من بها وسلموا القلعة إليه فتسلها حادى عشر ذي الحجة .

(ذكر حصر صلاح الدين مدينة حلب والصلح عليها) لما ملك صلاح الدين قلعة إعزاز رحل إلى حلب فنازلها منتصف ذي الحجة وحصرها وبها الملك الصالح ومن معه من العساكر وقد قام العامة في حفظ البلد القيام المرضى بحيث أنهم منعوا صلاح الدين من القرب من البلد لأنه كان إذا تقدم للقتال خسر هو وأصحابه وكثر الجراح فيهم والقتل وكانوا يخرجون ويقاتلونهم ظاهر البلد فترك القتال وأخذ للمطاولة وانقضت سنة إحدى وسبعين ودخلت سنة اثنتين وسبعين وهو محاصر لها ثم ترددت الرسل بينهم في الصلح في العشرين من المحرم فوقعت الإجابة إليه من الجانبين لأن أهل حلب خافوا من طول الحصار فإنهم ربما ضجروا وضعفوا وصلاح الدين رأى أنه لا يقدر على الدنو من البلد ولا على قتال من به فأجاب أيضا وتقررت القاعدة في الصلح للجميع للملك الصالح ولسيف الدين صاحب الموصل ولصاحب الحصن ولصاحب ماردين وتحالفوا واستقرت القاعدة أن يكونوا كلهم عوناً على الناكث الغادر فلما انفصل الأمر رحل عن حلب بعد أن عاد قلعة إعزاز إلى الملك الصالح فإنه أخرج إلى صلاح الدين اختاله صغيرة طفلة فأكرمها صلاح الدين وحمل لها شيئا كثيرا وقال لها ما تريدن قالت أريد قلعة إعزاز وكانوا قد علموها ذلك فسلها إليهم ورحل إلى بلد الإسماعيلية .

(ذكر الفتنة بمكة وعزل أميرها وإقامة غيره) في هذه السنة في ذي الحجة كان بمكة حرب شديدة بين أمير الحاج طاشتكين وبين الأمير مكث بن عيسى أمير مكة وكان الخليفة قد أمر أمير الحاج بعزل مكث وإقامة أخيه داود مقامه وسبب ذلك أنه كان قد بنى قلعة على جبل أبي قبيس فلما سار الحاج عن عرفات لم يبيتوا بالمزدلفة وإنما اجتازوا بها فلم يرموا الجمار وإنما بعضهم رمى بعضها وهو سائر ونزلوا الأبطح فخرج إليهم ناس من أهل (١٨ - الكامل - ٩)

مكة فخار بوم و قتل من الفريقين جماعة وصاح الناس الغزاة إلى مكة فهجموا عليها فهرب أمير مكة مكر فصد إلى القلعة التي بناها على جبل أبي قبيس فحصروه بها ففارقها وسار عن مكة وولى أخوه داود الإمارة ونهب كثيرا من الحاج وأخذوا من أموال التجارة المقيمين بها شيئا كثيرا وأحرقوا دورا كثيرة ومن أعجب ما جرى فيها أن إنسانا زرقا ضرب دار بقارورة نطق فأحرقها وكانت لايتام فأحرق ما فيها ثم أخذ قارورة أخرى ليضرب بها مكابا آخر فاتاه حجر فأصاب القارورة فكسرها فاحترق هو بها فبقي ثلاثة أيام يعذب بالحريق ثم مات .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في شهر رمضان انكسفت الشمس جميعها وأظلمت الأرض حتى بقي الوقت كأنه ليل مظلم وظهرت الكواكب وكان ذلك ضحوة النهار يوم الجمعة التاسع والعشرين منه وكنت حينئذ صبيا بظاهر جزيرة ابن عمر مع شيخ لنا من العلماء أقرأ عليه الحساب فلما رأيت ذلك خفت خوفا شديدا وتمسكت به فقوى قلبي وكان عالما بالنجوم أيضا وقال لي الآن ترى هذا جميعه انصرف فانصرف سريعا ، وفيها ولى الخليفة المستضيء بأمر الله حجة الباب أبا طالب نصر بن علي الناقد وكان يلقب في صغره قنبرا فصاروا يصيحون به ذلك إذا ركب فأمر الخليفة أن يركب معه جماعة من الأتراك ويمنعون الناس من ذلك فامتنعوا فلما كان قبل العيد خلع عليه ليركب في الموكب فاشترى جماعة من أهل بغداد من القنابر شيئا كثيرا وهزموا على إرسالها في الموكب إذا رأوا ابن الناقد فأنهى ذلك إلى الخليفة وقيل له يصير الموكب ضحكة فعزله وولى ابن المعوج وفيها في ذى الحجة يوم العيد وقعت فتنة ببغداد بين العامة وبين الأتراك بسبب أخذ جمال النحر فقتل بينهم جماعة ونهب شيء كثير من الأموال ففرق الخليفة أموالا جلية فيمن نهب ماله . وفيها زلزلت بلاد العجم من جهة العراق إلى ماوراء الرى وهلك فيها خلق كثير وتهدمت دور كثيرة وأكثر ذلك كان بالرى وقزوين . وفيها في ربيع الآخر استوزر سيف الدين خازى صاحب الموصل جلال الدين أبا الحسن ابن جمال الدين محمد بن علي وكان جمال الدين وزير البيت الأتابكي وقد تقدمت أخباره وهو المشهور بالجود والإفضال ولما ولى جلال الدين الوزارة ظهرت منه كفاية عظيمة ومعرفة تامة بقوانين الوزارة وله مكاتبات وعهود حسنة مدونة مشهورة وكان جوادا فاضلا خيرا وكان عمره لما ولى الوزارة خمسا وعشرين سنة . وفيها في ذى الحجة استناب سيف الدين أيضا عنه بقلعة الموصل مجاهد الدين قايماز وفوض إليه الأمور وكان قبل ذلك إليه الأمر بمدينة إربل وأهلها وكان رحمه الله من صالحى الأمراء وأرباب المعروف بنى كثيرا من الجوامع والخانات في الطرق والقناطر على الأنهار والربط وغير ذلك من أبواب البر وكان دائم الصدقة كثير الإحسان عادل السيرة رحمه الله . وفيها قبض الخليفة على سنجر المقتفوى أستاذ الدار ورتب مكاه أبا الفضل هبة الله بن علي بن هبة الله بن الصامت . وفيها في رمضان قدم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب الذى ملك اليمن إلى دمشق ولما سمع أن أخاه صلاح الدين ملكها حن إلى الوطن والأتراك ففارق اليمن وسار إلى الشام وأرسل من الطريق إلى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله وكتب في الكتاب شعرا من قول ابن المنجم المصرى :

وإلى صلاح الدين أشكو أنى • من بعده مضى الجوانح مولع
جزعا لبعده الدار منه ولم أكن • لولا هواه لبعده دار أجزع
فلأركب البسه من هزائى • ويخبى ركب الغرام ويوضع

ولا قطعن من النهار هو اجرا . قلب النار بحرما يتقطع
ولامرین الليل لايسرى به . طيف الخيال ولا البروق اللع
واقدمن اليه قلبي مخبرا . انى بجسمى من قريب أتبع
حتى أشاهد منه أسعد طلعة . من أفقها صبح السعادة يطلع

وفي هذه السنة في المحرم برز صلاح الدين من دمشق وقد عظم شأنه بمملكته من بلاد الشام وبكسره عسكر
الموصل فخافه الفرنج وغيرهم وعزم على دخول بلدهم ونهبه والإغارة عليه فأرسلوا إليه يطلبون الهدنة معه
فأجابهم إليها وصالحهم فأمر العساكر المصرية بالعود إلى مصر والاستراحة إلى أن يهأود طلبهم وشرط عليهم
أنه متى أرسل يستدعيهم لا يتأخرون فصاروا إليها وأقاموا بها إلى أن استدعاهم للحرب مع سيف الدين على
ما ذكرناه . وفيها مات أبو الحسن علي بن هساكر البطائحي المقرئ وكان قد سمع الحديث الكثير ورواه وكان
نحويا جيدا وفي ذى الحجة منها توفي أبو سعد محمد بن سعيد بن محمد بن الرزاز سمع الحديث ورواه وله شعر
جيد فن ذلك أنه كتب إليه بعض أصدقائه مكاتبة وضمنها شعرا فأجابه .

يامن أياديه تغنى من يعددها . وليس يحصى مداها من لها يصف
عجزت عن شكرها أوليت من كرم . وصرت عبدا ولى في ذلك الشرف
أهديت منظوم شعر كله درر . فكل ناظم عقد عنده يقف
إذا أتيت بيت منه كان لنا . قصر ودور المعاني فوقه شرف
وإن أتيت أنا بيتا يناقضه . أتيت لكن بيت سقفه يكف
ما كنت منه ولا من أهله أبدا . وإنما حين أدنو منه أقتطف

(ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة)

(ذكر نهب صلاح الدين بلد الإسماعيلية) لما رحل صلاح الدين من حلب على ما ذكرناه قبل قصد بلاد
الإسماعيلية في المحرم ليقاتلهم بما فعلوه من الوثوب عليه وإرادة قتله فنهب بلدهم وخربه وأحرقه وحصر قلعة
مصيات وهي أعظم حصونهم وأحصن قلاعهم فنصب عليها المنجنيقات وضيق على من بها ولم يزل كذلك
فأرسل سنان مقدم الإسماعيلية إلى شهاب الدين الحارمي صاحب حماة وهو خال صلاح الدين يسأله أن يدخل
بينهم ويصلح الحال ويشفع فيهم ويقول له إن لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين فشفع فيهم وسأل
الصفح عنهم فأجابه إلى ذلك وصالحهم ورحل عنهم وكان عسكره قد ملوا من طول البيكار وقد امتلأت أيديهم
من غنائم عسكر الموصل ونهب بلد الإسماعيلية فطلبوا العود إلى بلادهم للاستراحة فأذن لهم وسار هو إلى مصر
مع عسكرها لأنه كان قد طال عهده عنها ولم يمكنه المضى إليها فيما تقدم خوفا على بلاد الشام فلما انهزم سيف الدين
وحصر هو حلب وملك بلادها واصطلحوا أمن على البلاد فسار إلى مصر وأمر ببناء سور على مصر والقاهرة
التي على جبل المقطم دوره تسعة وعشرين ألف ذراع وثلاثمائة ذراع بالذراع الهاشمي ؛ ولم يزل العمل فيه إلى
أن مات صلاح الدين .

(ذكر ظفر للمسلمين بالفرنج وللفرنج بالمسلمين) كان شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم صاحب

بعلبك فأتاه خبر أن جمعا من الفرنج قد قصدوا البقاع من أعمال بعلبك وأغاروا عليها فسار إليهم وكن لهم في الشعراء والغياض وأوقع بهم وقتل فيهم وأكثر وأسر نحو مائتي رجل منهم وسيرهم إلى صلاح الدين وكان شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين وهو الذي ملك البين قد وصل إلى دمشق كما ذكرناه وهو فيها فسمع أن طائفة من الفرنج قد خرجوا من بلادهم إلى أعمال دمشق فسار إليهم ولقيهم عند عين الجر في تلك المروج فلم يثبت لهم وانهم عنهم فظفروا بجمع من أصحابه فأسروهم منهم سيف الدين أبو بكر بن السلار وهو من أعيان الجند الدمشقيين واجتروا الفرنج بعدها وانبطوا في تلك الولاية وجبروا الكسر الذي ناله منهم ابن المقدم

(ذكر عصيان صاحب شهرزور على سيف الدين وهو دة إلى طاعته) في هذه السنة عصى شهاب الدين محمد بن يزان صاحب شهرزور على سيف الدين غازي وكان في طاعته وتحت حكمه وكان سبب ذلك أن مجاهد الدين قايماز كان متوليا مدينة إربل وكان بينه وبين ابن يزان عداوة محكمة فلما استتاب سيف الدين مجاهد الدين بالموصل ، خاف ابن يزان أن يناله منه أذى ، فأظهر الامتناع من النزول إلى الخدمة فأرسل إليه جلال الدين وزير سيف الدين كتابا يأمره بمعاودة الطاعة ويحذره عاقبة المخالفة وهو من أحسن الكتب وأبلغها في هذا المعنى ولولا خوف التطويل لذكرته فيطلب من مكاتباته فلما وصل إليه الكتاب والرسول بادر إلى حضور الخدمة بالموصل وزال الخلف .

(ذكر فرج بعد شدة يتعلق بالتاريخ) بالقرب من جزيرة ابن عمر حصن منيع من أمنع المعامل اسمه فك وهو على رأس جبل عال وهو للأكراد البشنوية له بأيديهم نحو ثلاثمائة سنة وكان صاحبه هذه السنة أميرا منهم اسمه إبراهيم وله أخ اسمه عيسى قد أخرج منه وهو لا يزال يسعى في أخذه من أخيه إبراهيم فأطاعه بعض بطانة إبراهيم وفتح باب السر ليلا وأصعد منه إلى رأس القلعة نيفا وعشرين رجلا فقبضوا على إبراهيم ومن عنده ولم يكن عنده إلا نفر من خواصه وهذه قلة على صخرة كبيرة مرتفعة عن سائر القلعة ارتفاعا كثيرا وبها يسكن الأمير وأهله وخواصه وباقي الجند في القلعة تحت القلة فلما قبضوا إبراهيم جعلوه في خزانة وضربه بعضهم بسيف في يده على عاتقه فلم يصنع شيئا فلما جعل في الخزانة وكل به رجلين وصعد الباقون إلى سطح القلة ولا يشكون أن القلعة لهم لا مانع عنها ووصل من الغد بكرة الأمير عيسى ليتسلم القلعة وبينهما دجلة وكانت امرأة الأمير إبراهيم في خزانة أخرى وفيها شباك حديد ثقيل يشرف إلى القلعة فجذبه بيدها فانقلع وجند زوجها في القلعة لا يقدر على شيء فلما قلعت الشباك أرادت أن تدلى جبلا ترفع به الرجال إليها فلم يكن عندها غير ثياب خام فوصلت بعضها ببعض ودلتها إلى القلعة وشدت طرفها عندها في عود فأصعدت إليها عشرة رجال ولم يكن يراهم الذين على السطح ورأى الأمير عيسى وهو على جانب دجلة الرجال يصعدون فصاح هو ومن معه إلى أولئك الذين على السطح ليحذروا وكان كلما صاحوا صاح أهل القلعة لتختلف الأصوات فلا يفهم الذين على السطح فينزلون ويمنعون من ذلك فلما اجتمع عندها عشرة رجال أرسلت مع خادم عندها إلى زوجها قدح شراب وأمرته أن يقرب منه كأنه يسقيه الشراب ويعرفه الحال ففعل ذلك وجلس بين يديه ليسقيه وعرفه الحال فقال ازدادوا من الرجال فأصعدت عشرين رجلا وخرجوا من عندها فد إبراهيم يده إلى الرجلين الموكلين به فأخذ شعورهما وأمر الخادم بقتلهما وكان عنده فقتلهما بسلاحهما فخرج واجتمع بأصحابه وأرادوا فتح القلعة ليصعد إليه أصحابه من القلة فلم يجد المفاتيح وكانت مع أولئك الرجال الذين على السطح فاضطروا إلى الصعود إلى سطح القلعة ليأخذوا أصحاب عيسى فعلموا الحال فجاءوا ووقفوا على رأس المعرق

فلم يقدر أحد يفعل فأخذ بعض أصحاب إبراهيم ترسا وجعله على رأسه وحصل في الدرجة وصعد وقاتل القوم على رأس المرق حتى صعد أصحابه فقتلوا الجماعة وبقى منهم رجل ألقى نفسه من السطح فنزل إلى أسفل الجبل فتقطع فلما رأى عيسى ماحل بأصحابه عاد خائبا بما أمه واستقر الأمير إبراهيم في قلعة على حاله .

(ذكر نهب البندنجين) في هذه السنة وصل الملك الذي بخوزستان عند شملة وهو ابن ملكشاه بن محمود إلى البندنجين فخر بها ونهبها وقتل في الناس وسى حريمهم وفعل كل قبيح ووصل الخبر إلى بغداد فخرج الوزير عضد الدين وعرض العسكر ووصل عسكر الحلة وواسط مع طاشتكين أمير الحاج وغرغلي وساروا نحو العدو فلما سمع بوصولهم فارق مكانه وعاد وكان معه من التركان جمع كثير فقتلهم عسكر بغداد ورجعوا من غير أمر بالعود فأنكر عليهم ذلك وأمروا بالعود إلى موافقهم فعادوا لأوائل شهر رمضان وقد رجع الملك فنهب من البندنجين ما كان سلم في الأول ووقعت بينهم وبين الملك وقعة ثم افترقوا ففضى الملك وفارق ولاية العراق

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في جمادى الأولى أقيمت الصلاة في الجامع الذي بناه نجر الدولة ابن المطلب بقصر المأمون غربى بغداد وفيها أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التي على قبر الشافعى رضى الله عنه بمصر وعمل بالقاهرة ببارستان ووقف عليهما الوقوف العظيمة الكبيرة وفيها رأيت بالموصل خروفين بيطن واحد ورأسين ورقبتين وظفرين وثمانى قوائم كأنهما خروفان بيطن واحد وجه أحدهما إلى وجه الآخر وهذا من العجائب . وفيها انقض كوكب أضاءت له الأرض إضاءة كثيرة وسمع له صوت عظيم وبقى أثره في السماء مقدار ساعة وذهب . وفيها توفى تاج الدين أبو على الحسن بن عبد الله المظفر بن رئيس الرؤساء أخو الوزير عضد الدين وزير الخليفة . وفيها فى المحرم توفى القاضى كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى قاضى دمشق وجميع الشام واليه الوقوف بها والديوان وكان جوادا فاضلا رئيسا ذا عقل ومعرفة فى تدبير الدول رحمه الله ورضى عنه (١) .

(ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة)

(ذكر انهزام صلاح الدين بالرملة) فى هذه السنة فى جمادى الأولى سار صلاح الدين يوسف بن أيوب من مصر إلى ساحل الشام لقصد غزاة بلاد الفرنج وجمع معه عساكره وجنوده فلم يزالوا يجدون السير حتى وصلوا إلى عسقلان فى الرابع والعشرين منه فنهبوا وأسروا وقتلوا وأحرقوا وتفرقوا فى تلك الأعمال مغيرين فلما رأوا أن الفرنج لم يظهر لهم عسكر ولا اجتمع لهم من يحمى البلاد من المسلمين طمعوا وانبططوا وساحوا فى الأرض آمنين وصل صلاح الدين إلى الرملة عازما على أن يقصد بعض حصونهم ليحصره فوصل إلى نهر فزدم الناس للعبور فلم يرعهم إلا والفرنج قد أشرفت عليهم بأطبائها وأبطالها وكان مع صلاح الدين بعض

(١) وفيها توفى على بن عساكر بن المرحب بن العوام أبو الحسن البطائعى المقرئ اللغوى ، سمع الحديث وأسمعه وكان حسن المعرفة بالنحو واللغة ، ووقف كتبه بمسجد ابن جرارة ببغداد ، توفى فى شعبان وقد نيف على الثمانين . وفيها توفى الخطيب شمس الدين بن الوزير أبو الضياء خطيب الديار المصرية ، وابن وزيرها ، كان أول من خطب بديار مصر للخليفة المستضىء بأمر الله العباسى ، بأمر الملك صلاح الدين ، ثم حظى عنده حتى جعله سفيرا بينه وبين الملوك والخلفاء وكان رئيسا مطاعا كريما ممدحا ، يقرأ عليه الشعراء والادباء . ثم جعل الناصر مكانه الشهرزورى المتقدم بمرسوم السلطان ، وصارت وظيفة مقررة .

مسكر لأن أكثرهم تفرقوا في طلب الغنيمة فلما رآهم وقف لهم فيمن معه وتقدم بين يديه محمد بن أخي صلاح الدين فباشر القتال بنفسه بين يدي عمه فقتل من أصحابه جماعة وكذلك من الفرنج وكان لتقى الدين ولد اسمه أحمد وهو من أحسن الشباب أول ما تكاملت لحيته فأمره أبوه بالجملة عليهم فحمل عليهم وقائلهم وعاد سالما قد أثر فيهم أثرا كثيرا فأمره بالعودة إليهم ثانية فحمل عليهم فقتل شهيدا ومضى حميدا رحمه الله ورضى عنه وكان أشد الناس قتالا ذلك اليوم الفقيه عيسى رحمه الله وتمت الهزيمة على المسلمين وحمل بهض الفرنج على صلاح الدين فقاربه حتى كان يصل إليه فقتل الفرنجي بين يديه وتكاثر الفرنج عليه ففضى منهزما يسير قليلا ويقف ليلحقه العسكر إلى أن دخل الليل فسلك البرية إلى أن مضى في نفر يسير إلى مصر ولقوا في طريقهم مشقة شديدة وقل عليهم القوت والماء وهلك كثير من دواب العسكر جوعا وعطشا وسرعة سير وأما العسكر الذي كانوا دخلوا بلاد الفرنج في الغارة فإن أكثرهم ذهب ما بين قتيل وأسير وكان من جملة من أسر الفقيه عيسى الهكاري وهو من أعيان الأسدية وكان جمع العلم والدين والشجاعة وأسر أيضا أخوه الظهير وكاكا قد سارا منهزمين فضلا الطريق فأخذا ومعهما جماعة من أصحابهما وبقوا سنين في الأسر فانتدى صلاح الدين الفقيه عيسى بستين ألف دينار وجماعة كثيرة من الأسرى ووصل صلاح الدين إلى القاهرة نصف جمادى الآخرة ورأيت كتابا كتبه صلاح الدين بخط يده إلى أخيه شمس الدولة تورانشاه وهو بدمشق يذكر الواقعة وفي أوله :

ذكرتك والخطي يخطر بيننا • وقد نهلت منا المثقفة السمر

ويقول فيه لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما أنجانا الله سبحانه منه إلا الأمر يريد سبحانه :

• وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر •

(ذكر حصر الفرنج مدينة حماة) في هذه السنة في جمادى الأولى حصر الفرنج أيضا مدينة حماة وسبب ذلك أنه وصل من البحر إلى الساحل الشامي كند كبير من الفرنج من أكبر طراغيتهم فرأى صلاح الدين بمصر قد عاد منهزما فاغتم خلو البلاد لأن شمس الدولة بن أيوب كان بدمشق ينوب عن صلاح الدين وليس عنده كثير من العسكر وكان أيضا كثير الانهماك في اللذات مائلا إلى الراحة فجمع ذلك الكند الفرنجي من لشام من الفرنج وفرق فيهم الأموال وصار إلى مدينة حماة فحصرها وبها صاحبها شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين وهو مريض شديد المرض وكان طائفة من العسكر الصلاحي بالقرب منها فدخلوا إليها وأغاروا من بها وقاتل الفرنج على البلد قتالا شديدا وهجموا بعض الأيام على طرف منه وكادوا يملكون البلد قهرا وقسرا فاجتمع أهل البلد مع العسكر إلى تلك الناحية واشتد القتال وعظم الخطب على الفريقين واستقتل المسلمون وحاموا عن الأنفس والأهل والمال فأخرجوا الفرنج من البلد إلى ظاهره ودام القتال ظاهر البلد ليلا ونهارا وقويت نفوس المسلمين حين أخرجوهم من البلد وطمعوا فيهم وأكثروا فيهم القتل فرحل الفرنج حينئذ خائبين وكفى الله المسلمين شرهم فساروا إلى حارم فحصرها وكان مقامهم على حماة أربعة أيام ولما رحل الفرنج عن حماة مات صاحبها شهاب الدين الحارمي وكان له ابن من أحسن الناس شبابا مات قبله بثلاثة أيام .

(ذكر قتل كمشتكين وحصر الفرنج حارم) في هذه السنة قبض الملك الصالح بن نور الدين على سعد الدين كمشتكين وكان المتولى لأمر دولته والحاكم فيها وسبب قبضه أنه كان يجلب إنسانا من أعيان أهلها يقال له

أبو صالح بن العجمي وكان مقدما عند نور الدين محمود فلما مات نور الدين تقدم أيضا في دولة ولده الملك الصالح وصار بمنزلة الوزير الكبير المتمكن لكثرة أتباعه بحلب وصار كل من كان يحسد كمشكين انضم إلى صالح وقوا جنانه وكثروا سواده وكان عنده إقدام وجراءة فصار واحد الدولة بحلب ومن يصدر الجماعة عن رأيه وأمره فبينما هو في بعض الأيام في الجامع وثب به الباطنية فقتلوه ومضى شهيدا وتمكن بعده سعد الدين وقوى حاله فلما قتل أحال الجماعة قتله على سعد الدين وقالوا هو وضع الباطنية عليه حتى قتلوه وذكروا ذلك للملك الصالح ونسبوه إلى العجز وأنه ليس له حكم وأن سعد الدين قد تحكم عليه واحتقره واستصغره وقتل وزيره ولم يزالوا به حتى قبض عليه وكانت قلعة حارم لسعد الدين قد أقطعه إياها الملك الصالح فامتنع من بها بعد قبضه وتحصنوا فيها فسير سعد الدين إليها تحت الاستظهار ليأمر أصحابه بتسليمها إلى الملك الصالح فأمرهم بذلك فامتنعوا فعذب كمشكين وأصحابه يرونه ولا يرحمونه فمات في العذاب وأصر أصحابه على الامتناع والعصيان فلما رأى الفرنج ذلك ساروا إلى حارم من حماة في جمادى الأولى على ما ذكره ظنا منهم أنهم لا ناصر لهم وأن الملك الصالح صبي قليل العسكر وصلاح الدين بمصر فاغتنموا هذه الفرصة ونازلوها وأطالوا المقام عليها مدة أربعة أشهر ونصبوا عليها المنجنيقات والسلاط فلما يزالوا كذلك إلى أن بذل لهم الملك الصالح مالا وقال لهم إن صلاح الدين واصل إلى الشام وربما يسلم القلعة من بها إليه فأجابوه حينئذ إلى الرحيل عنها فلما رحلوا عنها سير إليها الملك الصالح جيشا فحصرها وقد بلغ الجهد منهم بحصار الفرنج وصاروا كأنهم طلائع وكان قد قتل من أهلها وجرح كثير فسلموا القلعة إلى الملك الصالح فاستناب بها بمالوكا كان لأبيه اسمه سرخك .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في المحرم خطب للسلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه المقيم عند أيلدكز بهمدان وكان أبوه أرسلان قد توفي وفيها سابع شوال هبت ببغداد ريح عظيمة فزلزت الأرض واشتد الأمر على الناس حتى ظنوا أن القيامة قد قامت فبقي ذلك ساعة ثم انجلت وقد وقع كثير من الدور ومات فيها جماعة كثيرة . وفيها رابع ذي القعدة قتل عضد الدين أبو الفرج محمد بن عبدالله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء أبي القاسم بن المسلمة وزير الخليفة وكان قد عزم على الحج فعبّر دجلة ليسير وعبر معه أرباب المناصب وهو في موكب عظيم وتقدم إلى أصحابه أن لا يمنعوا عنه أحدا فلما وصل إلى باب قطيبا لقيه كهل فقال أنا مظلوم وتقدم ليسمع الوزير كلامه فضربه بسكين في خاصرته فصاح الوزير قتلتني ووقع من الدابة وسقطت همامته فغطى رأسه بكفه وضرب الباطني بسيف وعاد إلى الوزير فضربه وأقبل حاجب الباب ابن المعوج لينصر الوزير فضربه الباطني بسكين وقيل بل ضربه رقيق كان للباطني تم قتل الباطني ورفيقه وكان لها رفيق ثالث فصاح ويده سكين فقتل ولم يعمل شيئا وأحرقوا ثلاثتهم وحمل الوزير إلى دار له هناك وحمل حاجب الباب مجروحا إلى بيته فمات هو والوزير وحمل الوزير فدفن عند أبيه بمقبرة الرباط عند جامع المنصور وكان الوزير قد رأى في المنام أنه معانق عثمان بن عفان وحكى عنه والده أنه اغتسل قبل خروجه وقال هذا غسل الإسلام وأنا مقتول بلا شك وكان مولده في جمادى الأولى سنة أربع عشرة وخمسة وكان أبوه أستاذ دار المقتنى لأمر الله فلما مات ولي هو مكانه كذلك إلى أن مات المقتنى فأقره المستنجد على ذلك ورفع قدره فلما ولي المستنجد استوزره وكان حافظا للقرآن سمع الحديث وله معروف كثير وكانت داره مجمعا للعلماء وختمت أعماله بالشهادة وهو على قصد الحج . وفيها كانت فتنة ببغداد وسببها أنه حضر قوم من

مسلى المدائن إلى بغداد فشكوا من يهودها وقالوا لنا مسجد تؤذن فيه ونصلي وهو مجاور الكنيسة فقال لنا اليهود قد آذيتونا بكثرة الأذان فقال المؤذن ما نبالي بذلك فاختموا وكانت فتنة استظهر فيها اليهود فجاء المسلمون يشكون منهم فأمر ابن العطار وهو صاحب المخزن بحبسهم ثم أخرجوا فقصدوا جامع القصر واستغاثوا قبل صلاة الجمعة تخفف الخطيب الخطبة والصلاة فعادوا يستغيثون فأناهم جماعة من الجند ومنعهم فلما رأى العامة ما فعل بهم غضبوا انصرة للإسلام فاستغاثوا وقالوا أشياء قبيحة وقلعوا طوابيق الجامع ورجعوا الجند فهربوا ثم قصد المامة دكاكين المخلطين لأن أكثرهم يهود فتهربوا وأراد حاجب الباب منعهم فرجموه فهرب منهم وانقلب البلد وخربوا الكنيسة التي عند دار البساسيري وأحرقوا النوراة وأمر الخليفة أن تنقض الكنيسة التي بالمدائن وتجعل مسجدا ونصب بالرحبة أخشاب ليصلب عليها قوم من المفسدين فظنها العامة نصبت تخويفا لهم لأجل ما فعلوا فعلقوا عليها في الليل جرذاميته وأخرج جماعة من الحبس لصوص فصلبوا عليها . وفيها في شعبان قبض سيف الدين غازي صاحب الموصل على وزيره جلال الدين علي بن جمال الدين لغير جرم ولا عجز ولا لتقصير بل لعجز سيف الدين فإن جلال الدين كان بينه وبين مجاهد الدين قايماز مشاحنة فقال مجاهد الدين لسيف الدين لا بد من قبض الوزير فقبض عليه كارها لذلك ثم شفع فيه ابن رئيس آمد لصهورة بينهما فأخرج ومار إلى آمد فرض بها وعاد إلى دنيسرفات سنة خمس وسبعين وعمره سبع وعشرون سنة وحمل إلى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم فدفن عند والده في الرباط الذي بناه بها وكان رحمه الله من محاسن الدنيا جمع كرما وعلما ودينا وعفة وحسن سيرة واستحلفه سيف الدين أنه لا يمضي إلى صلاح الدين لأنه خاف أن يمضي إليه للمودة التي كانت بين جمال الدين وبين نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه فبلغني أن صلاح الدين طلبه فلم يقصده لليمين . وفيها اجتمع الفرنج طائفة منهم وقصدوا أعمال حمص فتهبوا وغنموا وأسروا وسبوا فسار ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص وسبقهم ووقف على طريقهم وكمن لهم فلما وصلوا إليه خرج إليهم هو والكمين ووضعوا السيف فيهم فقتلوا أكثرهم وأسر جماعة من مقدميهم ومن سلم منهم لم يفلت إلا وهو مشخن بالجراح واسترد منهم جميع ما غنموا فرده على أصحابه . وفيها في ربيع الآخر توفي صدقة بن الحسين الحداد الذي ذيل تاريخ لزاغوني ببغداد . وفيها في جمادى الأولى توفي محمد بن أحمد بن عبد الجبار الفقيه الحنفي المعروف بالمشطب ببغداد^(١)

﴿ ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة ﴾

(ذكر قصد الفرنج مدينة حماة أيضا) في هذه السنة في ربيع الأول سار جمع كثير من الفرنج بالشام إلى

(١) وفيها توفي محمد بن أسعد بن محمد أبو منصور العطار، المعروف بحفدة، سمع الكثير وتفقه وناظر وأفنى ودرس، وقدم بغداد فمات بها . وفيها توفي محمود بن نقش شهاب الدين الحارمي خال السلطان صلاح الدين، كان من خيار الأمراء وشجعانهم، أقطعه ابن أخته حماه، وقد حاصره الفرنج وهو مريض فأخذوا حماه وقتلوا بعض أهلها، ثم تناخى أهلها فردوم خائبين . وفيها توفيت فاطمة بنت نصر العطار كانت من سادات النساء، وهي من سلالة أخت صاحب المخزن، كانت من العابدات المتورعات المخدرات، يقال إنها لم تخرج من منزلها سوى ثلاث مرات، وقد أتى عليها الخليفة وغيره والله أعلم .

مدينة حماة وكثر جمعهم من الفرسان والرجال طمعا في النهب والغارة فشنوا الغارة ونهبوا وخرّبوا القرى وأحرقوا وأسروا وقتلوا فلما سمع العسكر المقيم بحماة ساروا إليهم وهم قليل متوكلين على الله تعالى فالتقوا واقتتلوا وصدق المسلمون القتال فنصرهم الله تعالى وانهمزم الفرنج وكثر القتل والأسر فيهم واستردوا ما غنموه من السواد وكان صلاح الدين قد عاد من مصر إلى الشام في شوال من السنة المتقدمة وهو نازل بظاهر حمص فحملت الرؤس والأسرى والأصلاب إليه فأمر بقتل الأسرى فقتلوا .

(ذكر عصيان ابن المقدم على صلاح الدين وحصر بعلبك وأخذ البلد منه) في هذه السنة عصى شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم على صلاح الدين بعلبك وكانت له قد سلمها إليه صلاح الدين لما فتحها جزاء له حيث سلم إليه ابن المقدم دمشق على ما سبق ذكره فلم تزل بيده إلى الآن فطلب شمس الدولة محمد بن أيوب أخو صلاح الدين منه بعلبك وألح عليه في طلبها لأن تربته ومنشأه كان بها وكان يحبها ويختارها على غيرها من البلاد وكان الأكبر فلم يمكن صلاح الدين مخالفته فأمر شمس الدين بتسليمها إلى أخيه ليعوضه عنها فلم يجب إلى ذلك وذكره اليهود التي له وما اعتمده معه من تسليم البلاد إليه فلم يصح إليه وألح في أخذها وسار ابن المقدم إليها واعتصم بها فوجه إليه صلاح الدين عسكرا وحصره بها مدة ثم رحل عنها من غير أن يأخذها وترك عليه عسكرا يحصره فلما طال عليه الحصار أرسل إلى صلاح الدين يطلب العوض عنها ليسلمها إليه فعوضه عنها وسلمها فأقطعها صلاح الدين أخاه شمس الدولة .

(ذكر الغلاء والوباء العام) في هذه السنة انقطعت الأمطار بالسكينة في سائر البلاد الشامية والجزيرة والعراقية والديار البكرية والموصل وبلاد الجبل وخلاط وغير ذلك واشتد الغلاء وكان عاما في سائر البلاد فبيعت الفرارة الحنطة بدمشق وهي أربعة عشر مكوكا بالموصل بعشرين دينارا صورية عتق وكان الشعير بالموصل كل ثلاث مكاكي بدينار أميرى وفي سائر البلاد ما يناسب ذلك واستسقى الناس في أقطار الأرض فلم يسقوا وتعذرت الأقوات وأكلت الناس الميتة وما ناسبها ودام كذلك إلى آخر سنة خمس وسبعين ثم تبعه بعد ذلك وباء شديد عام أيضا كثر فيه الموت وكان مرض الناس شيئا واحداً وهو السرسام وكان الناس لا يلحقون يدفنون الموتى إلا أن بعض البلاد كان أشد من البعض ثم إن الله تعالى رحم العباد والبلاد والدواب وأرسل الأمطار وأرخص الأسعار ومن عجيب ما رأيت أنى قصدت رجلا من العلماء الصالحين الجزيرة لأسمع عليه شيئا من حديث النبي صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان سنة خمس وسبعين والناس في أشد ما كانوا غلاء وقنوطا من الأمطار وقد توسط الربيع ولم تجيء قطرة واحدة من المطر فبينما أنا جالس ومعى جماعة تنتظر الشيخ وإذا قد أقبل إنسان تركاني قد أثر عليه الجوع وكأنه قد أخرج من قبر فيكي وشكى الجوع فأرسلت من يشتري له خبزا فتأخر إحضاره لعدمه وهويكي ويتمرغ على الأرض ويشكو الجوع فلم يبق فينا إلا من بكي رحمة له وللناس فتغيبت السماء وجاءت نقط من المطر متفرقة فضج الناس واستغاثوا ثم جاء الخبز فأكل التركاني بعضه وأخذ الباقي ومضى واشتد المطر ودام المطر من تلك الليلة .

(ذكر غارات الفرنج على بلاد المسلمين) في هذه السنة في ذي القعدة اجتمع الفرنج وساروا إلى بلد دمشق مع ملكهم فأغاروا على أعمالها فنهبوا وأسروا وقتلوا وسبوا فأرسل صلاح الدين فرخشا ولد أخيه في جمع من العسكر إليهم وأمره أنه إذا قاربهم يرسل إليه يخبره على جناح طائر ليسير إليه وتقدم إليه أن يأمر (١٩ - الكامل - ٩)

اهل البلاد بالانتزاع من بين يدي الفرنج فسار فرخشاه في عسكره يطلبهم فلم يشعر إلا والفرنج قد خالطوه فاضطر إلى القتال فاقتلوا أشد قتال رآه الناس وألقى فرخشاه نفسه عليهم وغشى الحرب ولم يكلها إلى سواه فاهزم الفرنج ونصر المسلمون عليهم وقتل من مقدميهم جماعة ومنهم هنفري وما أدراك ما هنفري كان يضرب به المثل في الشجاعة والرأى في الحرب وكان بلاء صبه الله على المسلمين فأراح الله من شره وقتل غيره من أضرابه ولم يبلغ عسكر فرخشاه ألف فارس . وفيها أيضا أغار البرنس صاحب أنطاكية ولاذقية على حشيرة المسلمين بشيزر وأخذه وأغار صاحب طرابلس على جمع كثير من التركمان فأجحف بأموالهم وكان صلاح الدين على بانياس على ما ذكره إن شاء الله فسير ولد أخيه تقي الدين عمر إلى حماة وابن عمه ناصر الدين محمد ابن شيركوه إلى حمص وأمرهما بحفظ البلاد وحيطة أطرافها من العدو ودمرهم الله تعالى .

(ذكر عدة حوادث) ليلة النصف من ربيع الآخر انكسف القمر نحو ثلث الليل الأخير وغاب منكسفا . وفيها أيضا في التاسع والعشرين انكسفت الشمس وقت العصر فغربت منكسفة . وفي هذه السنة في شعبان توفي الحيص بيص الشاعر واسمه سعد بن محمد بن سعد أبو الفوارس وكان قد سمع الحديث ومدح الخلفاء والسلاطين والأكابرة وشعره مشهور فنه قوله :

كلما أوسعت حلمي جاهلا ه أوسع الفحش له فحش المقال
وإذا شاردة فهت بها ه سبقت مر النعamy والشمال
لا تلمني في شقائي بالعلا ه رغد العيش لربات الحجال
سيف عز زانه رونقه ه فهو بالطبع غنى عن مقال^(١)

(١) ومن شعر الحيص بيص الجيد :

سلامة المرء ساعة عجب ه وكل شيء له حنقه سبب
يفر والحادثات تطلبه ه يفر منها ونحوها الهرب
وكيف يبقى على قلبه ه مسلما من حياته العطب

ومن شعره أيضا :

لا تلبس الدهر على غرة ه فاموت الحى من بد
ولا يخادعك طول البقاء ه فتحسب التطويل من خلد
يقرب ما كان آخرأ ه ما أقرب المهد من اللحد

وإنما قيل له الحيص بيص لانه رأى الناس في حركة واختلاط . وفيها توفي محمد بن نسيم أبو عبدالله الخياط ، عتيق الرئيس أبي الفضل بن عبسون ، سمع الحديث وقارب الثمانين ، سقط من درجة فات . قال : أنشدنى مولى الدين يعنى ابن علام الحكيم بن عبسون .

للقارىء المحزون أجدر بالتقى ه من راهب في ديره متقوس
ومراقب الافلاك كانت نفسه ه بعبادة الرحمن أحرى الأنفس
والماسح الارضين وهى فسيحة ه أولى بمسح في أكف اللمس
أولى بخشية ربه من جاهل ه بمثلث ومرربع وخمس

وفي المحرم ماتت شهدة بنت أحمد بن عمر بن الإبري وسمعت الحديث من السراج وطراد وغيرهما وعمرت هي قاربت مائة سنة وسمع عليها خلق كثير الحديث لعلو إسنادها .

(ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة)

(ذكر تخريب الحصن الذي بناه الفرنج عند مخاضة الأحزان) كان الفرنج قد بنوا حصنا منيعا يقارب بانياس عند بيت يعقوب عليه السلام بمكان يعرف بمخاضة الأحزان فلما سمع صلاح الدين بذلك سار من دمشق إلى بانياس وأقام بها وبث الغارات على بلاد الفرنج ثم سار إلى الحصن وحصره ليخبره ثم يعود إليه عند اجتماع العساكر فلما نازل الحصن قاتل من به من الفرنج ثم عاد عنه فلما دخلت سنة خمس وسبعين لم يفارق بانياس بل أقام بها وخيله تغير على بلاد العدو وأرسل جماعة من عسكره مع جالبي الميرة فلم تشعر إلا والفرنج مع ملكهم قد خرجوا عليهم فأرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه الخبر فسار في العساكر مجدا حتى وافاهم وهم في القتال فقاتل الفرنج قتالا شديدا وحملوا على المسلمين عدة حملات كادوا يزيلونهم عن مواقعهم ثم أنزل الله نصره على المسلمين وهزم المشركين وقتل منهم مقتلة كثيرة ونجا ملكهم فريدا وأسر منهم كثير منهم ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس وهو أعظم الفرنج محلا بعد الملك وأسروا أيضا أخاه صاحب جبيل وصاحب طبرية ومقدم الداوية ومقدم الاستبارية وصاحب جينين وغيرهم من مشاهير فرسانهم وطواغيتهم فأما ابن بيرزان فإنه فدى نفسه بمائة ألف وخمسين ألف دينار صورية وإطلاق ألف أسير من المسلمين وكان أكثر العمل في هذا اليوم لعزالدين فرخشاه ابن أخي صلاح الدين وحكى عنه قال ذكرت في تلك الحال بيتي المتنبى وهما :

فإن تكن الدولات قسما فإنها • لمن يرد الموت الزوام تؤل

ومن هون الدنيا على النفس ساعة • ولليض في هام الحكمة صليل

فهان الموت في عيني فألقيت نفسي إليه وكان ذلك سبب الظفر ثم عاد صلاح الدين إلى بانياس من موضع المعركة وتجهز للدخول إلى ذلك الحصن ومحاصرتة فسار إليه في ربيع الأول وأحاط به وقوى طمعه بالهزيمة المذكورة في فتحه وبث العساكر في بلد الفرنج للإغارة ففعلوا ذلك وجمعوا من الأخشاب والزرحون شيئا كثيرا ليحمله متارس المنجنيقات فقال له جاولي الأسدى وهو مقدم الأسدية ومن أكبر الأمراء الرأى أننا نجربهم بالزحف أول مرة ونذوق قتال من به وننظر الحال معهم فإن استضعفناهم وإلا فنصب المنجنيقات ما يفوت فقبل رأيه وأمر فتودى بالزحف إليه والجد في قتاله فزحفوا واشتد القتال وعظم الأمر فصعد إنسان من العامة بقميص خلق في باشورة الحصن وقاتل على السور لما علاه وتبعه غيره من أضرابه ولحق بهم الجند فلكوا الباشورة فصعد الفرنج حينئذ منها إلى أسوار الحصن ليحموا نفوسهم وحصنهم إلى أن يأتيهم المدد وكان الفرنج قد جمعوا بطبرية فألح المسلمون في قتال الحصن خوفا من وصول الفرنج إليهم وإزاحتهم عنه وأدركهم الليل فأمر صلاح الدين بالمبيت بالباشورة إلى الغد ففعلوا فلما كان الغد أصبحوا نقبوا الحصن وعمقوا النقب وأشعلوا النيران فيه وانتظروا سقوط السور فلم يسقط لعرضه فإنه كان تسعة أذرع بالنجاري يكون الذراع ذراعا ونصفا فانتظروه يومين فلم يسقط فأمر صلاح الدين بإطفاء النار التي في النقب فحمل الماء

وألقي عليها فطفئت وعاد النقبون فنقبوا وخرقوا السور والقوا فيه النار فسقط يوم الخميس لست بقين من ربيع الأول ودخل المسلمون الحصن عنوة وأسروا كل من فيه وأطلقوا من كان به من أسارى المسلمين وقتل صلاح الدين كثيرا من أسرى الفرنج وأدخل الباقين إلى دمشق فسجنوا وأقام صلاح الدين بمكاه حتى هدم الحصن وعفي أثره وألحقه بالأرض وكان قد بذل الفرنج ستين ألف دينار مصرية ليهدموه بغير قتال فلم يفعلوا ظنا منهم أنه إذا بقي بناؤه تمكنوا به من كثير من بلاد الإسلام وأما الفرنج فاجتمعوا بطبرية ليحرموا الحصن فلما أتاهم الخبر بأخذه فت في أعضادهم فتفرقوا إلى بلادهم وأكثر الشعراء فيه فن ذلك قول صديقنا النشوبين نفاذة رحمه الله :

هلاك الفرنج أتى عاجلا ه وقد آن تكسير صلبانها
ولولم يكن قد دنا حنقها ه لما عمرت بيت أحزانها

وقول علي بن محمد الساعاتي الدمشقي :

أتسكن أوطان النبيين عصبة ه تمين لدى أيمانها وهي تحلف

نصحتكم والنصح للدين واجب ه ذروا بيت يعقوب فقد جاء بوصف

(ذكر الحرب بين عسكر صلاح الدين وعسكر قلع أرسلان) في هذه السنة كان الحرب بين عسكر صلاح الدين يوسف بن أيوب ومقدمهم ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب وبين عسكر الملك قلع أرسلان بن مسعود بن قلع أرسلان صاحب بلاد قونية وأقصرا وسبها أن نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر رحمه الله كان قد أخذ قديما من قلع أرسلان حصن رعبان وكان بيد شمس الدين بن المقدم إلى الآن فطمع فيه قلع أرسلان بسبب أن الملك الصالح بحلب بينه وبين صلاح الدين فأرسل إليه من يحضره فاجتمع عليه جمع كثير يقال كانوا عشرين ألف فأرسل إليهم صلاح الدين تقي الدين في ألف فارس فواقهم وقاتلهم وهزمهم وأصلح حال تلك الولاية وعاد إلى صلاح الدين ولم يحضر معه تخريب حصن الأحزان فكان يفتخر ويقول هزمت بألف مقاتل عشرين ألفا .

(ذكر وفاة المستضيء بأمر الله وخلافه الناصر لدين الله) في هذه السنة في ثاني ذي القعدة توفي الإمام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد رضي الله عنه وأمه أم ولد أرمنية تدعى غضة وكانت خلافته نحو تسع سنين وسبعة أشهر وكان مولده سنة ست وثلاثين وخمسة و كان عادلا حسن السيرة في الرعية كثير البذل للأموال غير مبالغ في أخذ ما جرت العادة بأخذه وكان الناس معه في أمن عام وإحسان شامل وطمانينة وسكون لم يروا مثله وكان حليما قليل المعاقبة على الذنوب محبا للعفو والصفح عن المذنبين فعاش حميدا ومات سعيدا رضي الله عنه فلقد كانت أيامه كما قيل :

كأن أيامه من حسن سيرته ه مواسم الحج والأعياد والجمع

ووزراؤه عضد الدين أبو الفرج بن رئيس الرؤساء إلى أن قتل في ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسة و لما قتل حكم في الدولة ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر المعروف بابن العطار وكان خيرا حسن السيرة كثير العطاء وتمكن تمكننا كثيرا فلما مات المستضيء قام ظهير الدين بن العطار في أخذ البيعة لولده الناصر لدين الله أمير المؤمنين فلما تمت البيعة صار الحاكم في الدولة أستاذ الدار مجد الدين أبا الفضل بن الصاحب وفي سابع

ذى القعدة قبض على ابن المطار ظهير الدين ووكل عليه في داره ثم نقل إلى التاج وقيد ووكل به وطلبت ودائمه وأمواله وفي ليلة الأربعاء ثامن عشر ذى القعدة أخرج مينا على رأس حمال سرا فغمز به بعض الناس فثار به العامة فألقوه عن رأس الحمال وكشفوا سواته وشدوا في ذكره حبلا وسحبوه في البلد وكانوا وضعوا يديه مغرفة يعني أنها قلم وقد غمسوها في العذرة ويقولون وقع لنا يامولانا إلى غير هذا من الأفعال الشنيعة ثم خلاص من أيديهم ودفن هذا فملهم به مع حسن سيرته فيهم وكفه عن أموالهم وأعراضهم وسيرت الرسل إلى الآفاق لأخذ البيعة فسير صدر الدين شيخ الشيوخ إلى البهلوان صاحب همدان وأصفهان والرى وغيرها فامتنع من البيعة فراجع صدر الدين وأغلظ له في القول حتى إنه قال لعسكره في حضرته ما لهذا عليكم طاعة ما لم يبايع أمير المؤمنين بل يجب عليكم أن تخلعوه من الإمارة وتقاتلوه فاضطر إلى البيعة والخطة وأرسل رضى الدين القزوينى مدرس النظامية إلى الموصل لأخذ البيعة فبايع صاحبها وخطب للخليفة الناصر لدين الله في الستة .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة هبت ريح سوداء مظلمة بالديار الحزبية والعراق وغيرها وعمت أكثر البلاد من الظهر إلى أن مضى من الليل ربه وبقيت الدنيا مظلمة لا يكاد الإنسان يبصر صاحبه وكنت حينئذ بالموصل فصلينا العصر والمغرب والعشاء الآخرة على الظن والتخمين وأقبل الناس على التضرع والتوبة والاستغفار وظنوا أن القيامة قد قامت فلما مضى مقدار ثلث الليل زال ذلك الظلام والعتمة التي غطت السماء فنظرنا فرأينا النجوم فعلمنا مقدار ما مضى من الليل لأن الظلام لم يزد بدخول الليل وكان كل من يصل من جهة من الجهات يخبر بمثل ذلك . وفيها في ذى القعدة نزل شمس الدولة أخو صلاح الدين عن بعلبك وطاب عوضا عنها الإسكندرية فأجاب صلاح الدين إلى ذلك وأقطع بعلبك لعز الدين فرخشاه ابن أخيه فسار إليها وجمع أصحابه وأغار على بلاد الفرنج حتى وصل إلى قلعة صفد وهي مطلة على طبرية فسبي وأسر وغنم وخرج وفعل في الفرنج أفاعيل عظيمة وأما شمس الدولة فإنه سار إلى مصر وأقام بالإسكندرية وإذا أراد الله أن يقبض رجلا بأرض جعل له إليها حاجة فإنه أقام بها إلى أن مات بها . وفيها قارب الجامع الذي بناه مجاهد الدين قايماس بظاهر الموصل من جهة باب الجسر الفراغ وأقيمت فيه الصلوات الخمس والجمعة وهو من أحسن الجوامع . وفيها توفي أحمد بن عبد الرحمن الصوفي شيخ رباط الزوزنى وسمع الحديث وكان يصوم الدهر وعبد الحق بن عبد الخالق بن يوسف سمع الحديث ورواه وهو من بيت الحديث والفاضل عمر بن علي بن الخضر أبو الحسن الدمشقي سمع الحديث ورواه وولى قضاء الحرير وعلي بن أحمد الزبيدي سمع الحديث الكثير وله وقف كتب كثيرة ببغداد وكان زاهدا خيرا صالحا ومحمد بن علي بن حمزة بن الأقساسي نقيب العلويين بالكوفة وكان ينشد كثيرا :

رب قوم في خلافتهم ه غرر قد صيروا غررا ستر المال القبيح لهم ه سترى إن زال ما سترنا
ومحمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن سيد الدولة الأنباري كاتب الإنشاء بعد أبيه وأبو الفتح نصر
ابن عبد الرحمن الدامغانى الفقيه كان مناظرا حسن المناظرة كثير العبادة ودفن عند قبر أبي حنيفة . (١)

(١) وفيها توفي إبراهيم بن علي أبو إسحاق الفقيه الشافعي ، المعروف بابن الفراء الأموى ثم البغدادي ، كان فاضلا مناظرا فصيحاً بليغاً شاعراً ، توفي عن أربع وسبعين سنة وصلى عليه أبو الحسن القزوينى مدرس النظامية .
وفيها توفي المبارك بن علي بن الحسين أبو محمد بن الطباخ البغدادي ، نزيل مكة ومجاورها ، وحافظ الحديث بها والمشار إليه بالعلم فيها كان يوم جنازته يوما مشهودا .

(ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة)

(ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل وولاية أخيه عز الدين بعده) في هذه السنة ثالث صفر توفي سيف الدين غازي بن مودود بن زنديكي صاحب الموصل وديار الجزيرة وكان مرضه السل وطال به ثم أدركه في آخره برسام ومات ومن عجيب ما يحكى أن الناس خرجوا سنة خمس وسبعين يستسقون لانقطاع الغيث وشدة الغلاء وخرج سيف الدين في موكبه فثار به الناس وقصدوه بالاستغاثة وطلبوا منه أن يأمر بالمنع من بيع الخمر فأجابهم إلى ذلك فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخمارين وخربوا أبوابها ودخلوها ونهبوها وأراقوا ما بها من خمر وكسروا الظروف وعملوا ما لا يحل فاستغاث أصحاب الدور إلى نواب السلطان وخصوا بالشكوى رجلا من الصالحين يقال له أبو الفرج الدقاق ولم يكن في الذي فعله العامة من النهب وما لا يجوز فعله إنما هو أراق الخمر ونهى العامة عن الذي يفعلونه فلم يسمعوا منه فلما شكى الخارون منه أحضر بالقلعة وضرب على رأسه فسقطت عمامته فلما أطلق لينزل من القلعة نزل مكشوف الرأس فأرادوا تغطيته بعمامة فلم يفعل وقال والله لا غطيت رأسي حتى ينتقم الله لي من ظلمي فلم يمض غير أيام حتى توفي الزردار الذي تولى أذاه ثم بعقبه مرض سيف الدين واستمر إلى أن مات وهمره حينئذ نحو ثلاثين سنة وكانت ولايته عشر سنين وثلاثة أشهر وكان حسن الصورة مليح الشباب تام القامة أبيض اللون وكان عاقلا وقورا قليل الالتفات إذا ركب وإذا جلس عفيفا لم يذكر عنه ما ينافي العفة وكان غيورا شديد الغيرة لا يدخل دوره غير الخدم الصغار فإذا كبر أحدهم منعه وكان لا يجب سفك الدماء ولا أخذ الاموات على شح فيه وجبن ولما اشتد مرضه أراد أن يعهد بالملك لابنه معز الدين سنجر شاه وكان عمره حينئذ اثني عشر سنة تخاف على الدولة من ذلك لأن صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد تمكن بالشام وقوى أمره وامتنع أخوه عز الدين مسعود بن مودود من الإذعان لذلك والإجابة إليه فأشار الأمراء الأكابر ومجاهد الدين قايماز بأن يجعل الملك بعد في عز الدين أخيه لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل وقوة النفس وأن يعطى ابنه بعض البلاد ويكون مرجعهما إلى عز الدين عمهما والمتولى لأمرهما مجاهد الدين قايماز ففعل ذلك وجعل الملك في أخيه وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه وقلعة عقر الحميدية لولده الصغير ناصر الدين كسك فلما توفي سيف الدين ملك بعده الموصل والبلاد أخوه عز الدين وكان المدير للدولة مجاهد الدين وهو الحاكم في الجميع واستقرت الأمور ولم يختلف اثنان .

(ذكر مسير صلاح الدين لحرب قلع أرسلان) في هذه السنة سار صلاح الدين يوسف بن أيوب من الشام إلى بلاد قلع أرسلان بن مسعود بن قلع أرسلان وهي ملطية وسنواس وما بينهما وقونية ليحاربه وسبب ذلك أن نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا وغيره من ديار بكر كان قد تزوج ابنة قلع أرسلان المذكور وبقيت عنده مدة ثم إنه أحب مغنية فتزوجها ومال إليها وحكمت في بلاده وخزائنه وأعرض عن ابنة قلع أرسلان وتركها نسيا منسيا فبلغ أباهما الخبر فعزم على نور الدين وأخذ بلاده فأرسل نور الدين إلى صلاح الدين يستجير به ويسأله كف يد قلع أرسلان عنه فأرسل صلاح الدين إلى قلع أرسلان في المعنى فأعاد الجواب إنني كنت قد سلمت إلى نور الدين عدة حصون تجاور بلاده لما تزوج ابنتي فحيث آل

الأمر معه إلى ما يعلمه فأنا أريد أن يعيد إلى ما أخذه مني وترددت الرسل بينهما فلم يستقر حال فيهما فهادن صلاح الدين الفرنج وسار في عساكره وكان الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين محمود بها فتركها ذات اليسار وسار على تل باشر إلى رعبان فأناه بها نور الدين محمد وأقام عنده فلما سمع قلعج أرسلان بقربه منه أرسل إليه أكبر أمير عنده ويقول له إن هذا الرجل فعل مع ابنتي كذا ولا بد من قصد بلاده وتعريفه محل نفسه فلما وصل الرسول واجتمع بصلاح الدين وأدى الرسالة امتعض صلاح الدين لذلك واغتاض وقال للرسول قل لصاحبك والله الذي لا إله إلا هو لئن لم يرجع لأسيرن إلى ملطية وبيني وبينها يومان ولا أنزل عن فرسي إلا في البلد ثم أقصد جميع بلاده وأخذها منه فرأى الرسول أمرا شديدا فقام من عنده وكان قد رأى العسكر وما هو عليه من القوة والتجمل وكثرة السلاح والدواب وغير ذلك ليس عنده ما يقاربه فعلم أنه إن قصدتم أخذ بلادهم فأرسل إليه من الغد يطلب أن يجتمع به فأحضره فقال له أريد أن أقول شيئا من عندي ليس رسالة عن صاحبي وأحب أن تنصفتي فقال له قل يا مولانا ما هو قبيح بمثلك وأنت أعظم السلاطين وأكبرهم شأنا أن تسمع الناس عنك إناك صالحت الفرنج وتركت الغزو ومصالح المملكة وأعرضت عن كل ما فيه صلاح لك ولرعيك والمسلمين عامة وجمعت العساكر من أطراف البلاد البعيدة والقريبة وسرت وخسرت أنت وعساكرك الأموال العظيمة لأجل قبة مغنية ما يكون عذرك عند الله تعالى ثم عند الخليفة وملوك الإسلام وكافة العالم وأحسب أن أحدا ما يواجهك بهذا أما يعلمون أن الأمر كذا ثم أحسب أن قلعج أرسلان مات وهذه ابنته قد أرسلتني إليك تستجيرك وتسألك أن تنصفها من زوجها فإن فعلت فهو الظن بك أن لا تردّها فقال والله الحق بيدك وإن الأمر لكما تقول ولكن هذا الرجل دخل على واستجار بي ويقبح بي تركه لكنك أنت اجتمع به وأصلح الحال بينكم على ما يحبون وأنا أعينكم عليه وأقبح فعله ووعد من نفسه بكل جميل فاجتمع الرسول بصاحب الحصن وتردد القول بينهم فاستقر أن صاحب الحصن يخرج المغنية عنه بعد سنة ، وإن كان لا يفعل ينزل صلاح الدين عن نصرته ويكون هو وقلعج أرسلان عليه واصطالحوا على ذلك وعاد صلاح الدين عنه إلى الشام وعاد نور الدين إلى بلاده فلما انقضت المدة أخرج نور الدين المغنية عنه فتوجهت إلى بغداد وأقامت بها إلى أن ماتت .

(ذكر قصد صلاح الدين بلد بن ليون الأرمني) وفيها قصد صلاح الدين بلد بن ليون الأرمني بعد فراغه من أمر قلعج أرسلان وسبب ذلك أن ابن ليون الأرمني كان قد استمال قوما من التركمان وبذل لهم الأموال فأمرهم أن يرعوا مواشيهم في بلاده وهي بلاد حصينة كلها حصون منيعة والدخول إليها صعب لأنها مضائق وجبال وعرة ثم غدر بهم وسبي حريمهم وأخذ أموالهم وأسر رجالهم بعد أن قتل منهم من حان أجله ونزل صلاح الدين على النهر الأسود وبث الغارات على بلاده فخاف ابن ليون على حصن له على رأس جبل أن يؤخذ فخر به وأحرقه فسمع صلاح الدين بذلك فأمرع السير إليه فأدركه قبل أن ينقل ما فيه من ذخائر وأقوات فغنمها وانتفع المسلمون بما غنموه فأرسل ابن ليون يبذل إطلاق من عنده من الأسرى والسبي وإعادة أموالهم على أن يعودوا عن بلاده فأجاب صلاح الدين إلى ذلك واستقر الحال وأطلق الأسرى وأعيدت أموالهم وعاد صلاح الدين عنه في جمادى الآخرة .

(ذكر ملك يوسف بن عبد المؤمن مدينة قفصة بعد خلاف صاحبها عليه) في هذه السنة مار أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن إلى أفريقية وملك قفصة وكان سبب ذلك أن صاحبها على بن المعز بن المعتز لما رأى

دخول الترك إلى أفريقية واستيلائهم على بعضها وانقياد العرب إليهم طمع أيضا في الاستبداد والانفراد عن يوسف وكان في طاعته فأظهر ما في نفسه وخالعه وأظهر العصيان ووافقه أهل قفصة فقتلوا كل من كان عندهم من الموحدين أصحاب أبي يعقوب وكان ذلك في شوال سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة فأرسل وإلى بجاية إلى يوسف ابن عبد المؤمن يخبره باضطراب أمور البلاد واجتماع كثير من العرب إلى قراقوش الركي الذي دخل إلى أفريقية وقد تقدم ذكر ذلك وما جرى في قفصة من قتل الموحدين ومساعدة أهل قفصة صاحبهم على ذلك فشرع في سد الثغور التي يخافها بعد مسيره فلما فرغ من جميع ذلك تجهز العسكر وسار إلى أفريقية سنة خمس وسبعين ونزل على مدينة قفصة وحصرها ثلاث أشهر وهي بلد حصينة وأهلها أنجاد وقطع شجرها فلما اشتا الأمر على صاحبها وأهلها خرج منها مستخفيا لم يشعر به أحد من أهل قفصة ولا من عسكره وسار إلى خيمة يوسف وعرف حاجبه أنه قد حضر إلى أمير المؤمنين يوسف فدخل الحاجب وأعلم يوسف بوصول صاحب قفصة إلى باب خيمته فعجب منه كيف أقدم على الحضور عنده بغير عهد وأمر بإدخاله عليه فدخل وقبل يده وقال قد حضرت أطلب عفو أمير المؤمنين عني وعن أهل بلدي وأن يفعل ما هو أهله واعتذر فرق له يوسف فعفا عنه وعن أهل البلد وتسلم المدينة أول سنة ست وسبعين وسير على بن المعز صاحبها إلى بلاد المغرب فكان فيها مكرما عزيزا وأقطعه ولاية كبيرة ورتب يوسف لقفصة طائفة من أصحابه الموحدين وحضر مسعود بن زمام أمير العرب عند يوسف أيضا فعفا عنه وسيره إلى مراکش وسار يوسف إلى المهدي فأتاه بها رسول ملك الفرنج صاحب صقلية يلتمس منه الصلح فهادنه عشر سنين وكانت بلاد أفريقية مجدبة فتعذر على العسكر القوت وعلف الدواب فسار إلى المغرب مسرعا والله أعلم .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة توفى شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر بالإسكندرية وكان قد أخذها من أخيه إقطاعا فأقام بها فتوفى وكان له أكثر بلاد اليمن ونوابه هناك يحملون إليه الأموال من زبيد وعدن وما بينهما من البلاد والمعاقل وكان أجود الناس وأسخام كفا يخرج كل ما يحمل إليه من أموال اليمن ودخل الإسكندرية وحكمه في بلاد أخيه صلاح الدين وأمواله نافذ ومع هذا فلما مات كان عليه نحو مائتي ألف دينار مصرية دين فوفاهما أخوه صلاح الدين عنه لما دخل إلى مصر فإنه لما بلغه خبر وفاته سار إلى مصر في شعبان من السنة واستخاض بالشام عز الدين فرخشاه ابن أخيه شاهنشاه وكان عاقلا حازما شجاعا . وفيها توفى أبو طاهر أحمد بن محمد بن سلفه الأصفهاني بالإسكندرية وكان حافظ الحديث وعالما به سافر في طلب الكثير وتوفى أيضا في الحرم على بن عبد الرحيم المعروف بابن المصارع اللغوي ببغداد وسمع الحديث وكان من أصحاب ابن الجواليقي .

(ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة)

(ذكر غزاة إلى بلاد الكرك من الشام) في هذه السنة سار فرخشاه نائب صلاح الدين بدمشق إلى أعمال كرك ونهبها وسبب ذلك أن البرنس أرناط صاحب الكرك كان من شياطين الفرنج ومردتهم وأشدم هداوة للمسلمين فتجهز وجمع عسكره ومن أمكنه الجمع وعزم على المسير في البر إلى تيماء ومنها إلى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم للاستيلاء على تلك النواحي الشريفة فسمع عز الدين فرخشاه ذلك لجمع العساكر الدمشقية

وسار إلى بلده ونهبه وخربه وعاد إلى طرف بلادهم وأقام بها لينع البرنس من المسلمين فامتنع من مقصده فلما طال مقام كل واحد منهما في مقابلة الآخر علم البرنس أن المسلمين لا يعودون حتى تفرق جمعه وانقطع طمعه من الحركة فعاد فرخشاء إلى دمشق وكفى الله المؤمنين من الكفار .

(ذكر تلبس ينبغي أن يحتاط من مثله) كان سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ الكنانى ينوب عن شمس الدولة أخى صلاح الدين باليمن وتحكم في الأموال والبلاد بعد أن فارقتها شمس الدولة كما ذكرنا وكان هواه بالشام لأنه وطنه فأرسل إلى شمس الدولة يطلب الإذن في الحجى إليه فأذن له في الحجى فاستتاب بزويد أخاه حطان بن كامل بن منقذ الكنانى وعاد إلى شمس الدولة وكان معه بمصر فمات شمس الدولة وبقي مع صلاح الدين فقيل عنه أنه أخذ أموال اليمن وادخرها وسعى به أعداؤه فلم يعارضه صلاح الدين فلما كان هذه السنة وصلاح الدين بمصر اصطنع سيف الدولة طعاما وعمل دعوة كبيرة ودعا إليها أعيان الدولة الصلاحية بقرية تسمى العدوية وأرسل أصحابه يتجهزون من البلد ويشترى ما يحتاجون إليه من الأطعمة وغيرها فقيل لصلاح الدين إن ابن منقذ يريد الحرب وأصحابه يتزودون له ومتى دخل اليمن أخرجه عن طاعتك فأرسل صلاح الدين فأخذه والناس عنده وحبسه فلما سمع صلاح الدين جلبة الحال علم أن الحيلة تمت لأعدائه في قبضه فخفف ما كان عنده وسهل أمره وصانعه على ثمانين ألف دينار مصرية سوى ما لحقها من الحمل لإخوة صلاح الدين وأصحابه وأطلقه وأعادته إلى منزله وكان أديبا شاعرا .

(ذكر إرسال صلاح الدين العساكر إلى اليمن) في هذه السنة سير صلاح الدين جماعة من أمرائه منهم صارم الدين قتلغ أبه والى مصر إلى اليمن للاختلاف الواقع بها بين نواب أخيه شمس الدولة وهم عز الدين عثمان بن الزنجبيل والى عدن وحطان بن منقذ والى زويد وغيرهما فإيه لما بلغهم وفاة صاحبهم اختلفوا وجرت بين عز الدين عثمان وبين حطان حرب وكل واحد منهما يروم أن يغلب الآخر على ما يديه واشتد الأمر فخاف صلاح الدين أن يطمع أهل البلاد فأرسل هؤلاء الأمراء إليها واستولى قتلغ أبه على زويد وأزال حطان عنها ثم مات قتلغ أبه فعاد حطان إلى إمارة زويد وأطاعه الناس لجوده وشجاعته .

(ذكر وفاة الملك الصالح وملك ابن عمه عز الدين مسعود مدينة حلب) في هذه السنة في رجب توفي الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب بها وعمره نحو تسع عشرة سنة ولما اشتد مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر للنداوى فقال لا أفعل حتى أستفتى الفقهاء فاستفتى فأنفاه فقيه من مدرسى الحنفية بجواز ذلك فقال له أرايت إن قدر الله تعالى بقرب الأجل أيؤخره شرب الخمر فقال له الفقيه لا فقال والله لا لقيت الله سبحانه وقد استعملت ما حرمه على ولم يشربه فلما أيس من نفسه أحضر الأمراء وسائر الأجناد ووصاهم بتسليم البلد إلى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنى واستحلفهم على ذلك فقال له بعضهم إن عماد الدين بن عمك أيضا وهو زوج أختك وكان والدك يحبه وبوثره وهو تولى تربيته وليس له غير سنجار فلو أعطيته البلد لكان أصلح وعز الدين له من البلاد من الفرات إلى همدان ولا حاجة به إلى بلدك فقال له إن هذا لم يغيب عنى ولكن قد هلمتم أن صلاح الدين قد تغلب على عامة بلاد الشام سوى ما ييدى ومتى سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها وإن ملكها صلاح الدين لم يبق لأهلنا معه مقام وإن سلمتها إلى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره وبلادها فاستحسنوا قوله وعجزوا من جودة فطنته مع شدة مرضه وصغر سنه ثم مات وكان حليما كريما عفيف اليد والفرج واللسان ملازما

للدين لا يعرف له شيء مما يتعاطاه الملوك والشباب من شرب خمر أو غيره حسن السيرة في رعيته عادلا فيهم ولما قضى نجه أرسل الأمراء إلى أتابك عز الدين يستدعونه إلى حلب فسار هو ومجاهد الدين قايماز إلى الفرات وأرسل احضر الأمراء عنده من حلب فحضروا وساروا جميعا إلى حلب ودخلها في العشرين من شعبان وكان صلاح الدين حينئذ بمصر ولولا ذلك لزاحمهم عليها وقائلهم فلما اجتاز في طريقه إليها من الفرات كان تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين بمدينة منبج فسار عنها داربا إلى حماة وثار أهل حماة ونادوا بشعار عز الدين فأشار عسكر حلب على عز الدين بقصد دمشق وأطعموه فيها وفي غيرها من بلاد الشام وأعلموه بحبة أهلها له ولأهل بيته فلم يفعل وقال بيننا يمين فلا تغدر به وأقام بحلب عدة شهور ثم سار عنها إلى الرقة .

(ذكر تسليم حلب إلى عماد الدين وأخذ سنجار عوضا عنها) لما دخل عز الدين إلى الرقة جاءته رسل أخيه عماد الدين صاحب سنجار يطلب أن يسلم إليه حلب ويأخذ عوضا عنها مدينة سنجار فلم يجبه إلى ذلك ولج عماد الدين في ذلك وقال إن سلمت إليّ حلب وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين فأشار حينئذ جماعة من الأمراء بتسليمها إليه وكان أشدهم في ذلك مجاهد الدين قايماز فلم يمكن عز الدين مخالفته لتكته في الدولة وكثرة عساكره وبلاده وإنما حمل مجاهد الدين على ذلك خوفا من عز الدين لأنه عظم في نفسه وكثر معه العسكر وكان الأمراء الحلبيون لا يلتفتون إلى مجاهد الدين ويسلمون معه من الأدب ما يفعله عسكر الموصل فاستقر الأمر على تسليم حلب إلى عماد الدين وأخذ سنجار عوضا عنها فسار عماد الدين فتسلها وسلم سنجار إلى أخيه وعاد إلى الموصل وكان صلاح الدين بمصر قد بلغه خبر ملك عز الدين حلب فعظم الأمر عليه وخاف أن يسير منها إلى دمشق وغيرها ويملك الجميع وأيس من حلب فلما بلغه ملك عماد الدين لها برز من مصر من يومه وسار إلى الشام وكان من الوهن على دولة عز الدين ما ذكره إن شاء الله تعالى .

(ذكر حصر صاحب ماردين قلعة البيرة ومسير صاحبها مع صلاح الدين) كانت قلعة البيرة وهي مطلة على الفرات من أرض الجزيرة لشهاب الدين الأرتقي وهو ابن عم قطب الدين ايلغازي بن ألبى بن تمرناش بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين وكان في طاعة نور الدين محمود بن زنگي صاحب الشام فمات شهاب الدين وملك القلعة بعده ولده وصار في طاعة عز الدين مسعود صاحب الموصل فلما كان هذه السنة أرسل صاحب ماردين إلى عز الدين يطلب منه أن يأذن له في حصر البيرة وأخذها فأذن له في ذلك فسار في عسكره إلى قلعة سميساط وهي له ونزل بها وسير العسكر إلى البيرة فحصرها فلم يظفر منها بطائل إلا أنهم لازموا الحصار فأرسل صاحبها إلى صلاح الدين وقد خرج من ديار مصر على ما ذكره يطلب منه أن ينجده ويرحل العسكر المارداني عنه ويكون هو في خدمته كما كان أبوه في خدمة نور الدين فأجابته إلى ذلك وأرسل رسولا إلى صاحب ماردين يشفع فيه ويطلب أن يرحل عسكره عنه فلم يقبل شفاعته واشتغل صلاح الدين بما ذكره من الفرنج فلما رأى صاحب ماردين طول مقام عسكره على البيرة ولم يبلغوا منها غرضاً أمرهم بالرحيل عنها وعاد إلى ماردين فسار صاحبها إلى صلاح الدين وكان معه حتى عبر معه الفرات على ما ذكره إن شاء الله تعالى .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة كثرت المنكرات ببغداد فأقام حاجب الباب جماعة لإراقة الخمر وأخذ المفسدات فبينما امرأة منهن في موضع هلت بمجيء أصحاب حاجب الباب فاضطجعت وأظهرت أمها مريضه وارتفع أنينها فرأوها على تلك الحال فتركوها وانصرفوا فاجتهدت بعدهم أن تقوم فلم تقدر وحميت

تصبح الكرب الكرب إلى أن ماتت وهذا من أعجب ما يحكى . وفيها في عاشر ذي الحجة توفي الأمير همام الدين
تر صاحب قلعة تكريت بالمزدلفة كان قد استخاف الأمير عيسى بن أخى مودود وحج فتوفى ودفن بالمعلي
مقبرة مكة . وفيها في شعبان توفي عبدالرحمن بن محمد بن أبي سعيد أبو البركات النحوى المعروف بابن الأنبارى
بيغداد وله تصانيف حسنة فى النحو وكان فقيها صالحا . وفيها توفي إبراهيم بن محمد بن مهراڻ الفقيه الشافعى
بجزيرة ابن همر وكان فاضلا كثير الورع .

(ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة)

(ذكر مسير صلاح الدين إلى الشام وإغارته على الفرنج) فى هذه السنة خامس المحرم سار صلاح الدين
عن مصر إلى الشام ومن عجيب ما يحكى من التطير أنه لما برز من القاهرة أقام بخيمته حتى تجتمع العساكر
والناس عنده وأعيان دولته والعلماء وأرباب الآداب فمن بين مودع له وسائر معه وكل منهم يقول شيئا
فى الوداع والفرار وما هم بصدده من السفر وفى الحاضرين معلم لبعض أولاده فأخرج رأسه من بين
الحاضرين وأنشد :

تمتع من شميم عرار نجد • فما بعد العشية من عرار

فانقبض صلاح الدين بعد انبساطه وتطير وتنكد المجلس على الحاضرين فلم يعد إليها إلى أن مات مع طول
المدة ثم سار عن مصر وتبعه من التجار وأهل البلاد ومن كان قصد مصر من الشام بسبب الغلاء بالشام وغيره
عالم كثير فلما سار جعل طريقه على أيلة فسمع أن الفرنج قد جمعوا له ليحاربوه ويصدوه عن المسير فلما قارب
بلادهم سير الضعفاء والأثقال مع أخيه تاج الملوك بورى إلى دمشق وبقى هو فى العساكر المقاتلة لا غير فشن
الغارات بأطراف بلادهم وأكثر ذلك ببلد الكرك والشوبك فلم يخرج إليه منهم أحد ولا أقدم على الدنو منه
ثم سار فأتى دمشق فوصلها حادى عشر صفر من السنة .

(ذكر ملك المسلمين شقيقا من الفرنج) فى هذه السنة أيضا فى صفر فتح المسلمين بالشام شقيقا من
الفرنج يعرف بحبس جلدك وهو من أعمال طبرية مطل على السواد وسبب فتحه أن الفرنج لما بلغهم مسير
صلاح الدين من مصر إلى الشام جمعوا له وحشدوا الفارس والراجل واجتمعوا بالكرك بالقرب من الطريق
لعلهم ينتهزون فرصة أو يظفرون بنصرة وربما عاقوا المسلمين عن المسير بأن يقفوا على بعض المضائق فلما
فعلوا ذلك خلت بلادهم من ناحية الشام فسمع فرخشاہ الخبر فجمع من عنده من عساكر الشام ثم قصد
بلاد الفرنج وأغار عليها ونهب دبورية وما يجاورها من القرى وأسر الرجال وقتل وأكثر وسبى النساء وغنم
الأموال وفتح منهم الشقيف وكان على المسلمين منه أذى شديد ففرح المسلمون بفتح فرح عظيم وأرسل إلى
صلاح الدين بالبشارة فلقبه فى الطريق ففت ذلك فى عضد الفرنج وانكسرت شوكتهم .

(ذكر إرسال سيف الإسلام إلى اليمن وتغلبه عليه) فى هذه السنة سير صلاح الدين أخاه سيف الإسلام
طفدكين إلى بلاد اليمن وأمره بتملكها وقطع الفتن بها وفوض إليه أمرها وكان بها حطان بن منقذ كما ذكرناه
قبيل وكتب عز الدين عثمان الزنجبيلى متولى عدن إلى صلاح الدين يعرفه باختلال البلاد ويشير بإرسال بعض
أهله إليها لأن حطان كان قوى عليه فخافه عثمان فجهز صلاح الدين أخاه سيف الإسلام وسيره إلى بلاد اليمن

فوصل إلى زبيد فخافه حطان بن منقذ واستشعر منه وتحصن في بدض القلاع فلم يزل به سيف الإسلام يؤمنه ويهدى إليه ويتلطفه حتى نزل إليه فأحسن صحبته وعمل معه ما لم يكن يتوقعه من الإحسان فلم يثق حطان به وطلب منه دستورا ليقصد الشام فامتنع من إجابته إظهارا للرغبة في كونه عنده فلم يزل حطان يراجعه حتى أذن له فأخرج أثقاله وأمواله ودوابه وأهله وأصحابه وكل ماله وسير الجميع بين يديه فلما كان الغد دخل إلى سيف الإسلام ليودعه فقبض عليه واسترجع جميع ماله فأخذه عن آخره لم يسلم منه قليل ولا كثير ثم سجنه في بعض القلاع وكان آخر العهد به فقيل إنه قتله وكان في جملة ما أخذ منه من الأموال الذهب العين في سبعين غلافا زردية مملوءة ذهباً عينا وأما عز الدين عثمان الزنجبيلي فإنه لما سمع ماجرى على حطان خاف فسار نحو الشام خائفا يترقب وسير معظم أمواله في البحر فصادفهم مراكب فيها أصحاب سيف الإسلام فأخذوا كل مال عز الدين ولم يبق له إلا ما صحبه في الطريق وصفت زبيد وعدن وما معهما من البلاد لسيف الإسلام.

(ذكر إغارة صلاح الدين على الغور وغيره من بلاد الفرنج وأعمالها) لما وصل صلاح الدين إلى دمشق كما ذكرناه أقام أياما يريح ويستريح هو وجنده ثم سار إلى بلاد الفرنج في ربيع الأول فقصده طبرية فنزل بالقرب منها وخيم في الأقحوانة من الأردن وجاءت الفرنج بجموعها فنزلت بطبرية فسير صلاح الدين فرخشاه ابن أخيه إلى بيسان فدخلها قهراً وغنم ما فيها وقتل وسبي وجحفت الغور غارة شعواء فعم أهلها قتلاً وأسرا وجاءت العرب فأغارت على جينين واللجون وتلك الولاية حتى قاربوا مرج عكا وسار الفرنج من طبرية فنزلوا تحت جبل كوكب فتقدم صلاح الدين إليهم وأرسل العصا كعليهم يرمونهم بالنشاب فلم يبرحوا ولم يتحركوا لقتال فأمر ابن أخيه تقي الدين عمر وعز الدين فرخشاه فحملا على الفرنج فيمن معهما فقاتلوا قتالاً شديداً ثم إن الفرنج انحازوا على حاميتهم فنزلوا غفر بلا فلما رأى صلاح الدين ما قد أئتمن فيهم وفي بلادهم عاد عنهم إلى دمشق (ذكر حصر بيروت) ثم إنه سار عن دمشق إلى بيروت فنهب بلدها وكان قد أمر الأسطول المصري بالمجيء في البحر إليها فساروا ونزلوها وأغاروا عليها وعلى بلدها وسار صلاح الدين فوافهم ونهب ما لم يصل الأسطول إليه وحصرها عدة أيام وكان عازماً على ملازمتها إلى أن يفتحها فاتاه الخبر وهو عليها أن البحر قد ألقى بسطة للفرنج فيها جمع عظيم منهم إلى دمياط كانوا قد خرجوا لزيارة البيت المقدس فأسروا من بها بعد أن غرق منهم كثير فكان هذة الأسرى ألفاً وستمائة وستا وسبعين أسيراً فضربت بذلك البشائر.

(ذكر عبور صلاح الدين الفرات وملكه ديار الجزيرة) في هذه السنة عبر صلاح الدين الفرات إلى الديار الجزيرة وملكها وسبب ذلك أن مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على بن بكتكين وهو مقطع حران كان قد أقطعها إياها عز الدين أتابك المدينة والقلعة تقوية واعتماداً أرسل إلى صلاح الدين وهو يحاصر بيروت يعلمه أنه معه محب لدولته ووعده النصر له إذا عبر الفرات ويطمعه في البلاد ويحثه على الوصول فسار صلاح الدين عن بيروت ورسل مظفر الدين تترى إليه يحثه على المجيء فجد صلاح الدين في السير مظهراً أنه يريد حصر حلب تسترا للحال فلما قارب الفرات سار إليه مظفر الدين فعبر الفرات واجتمع به فقصده البيرة وهي قلعة منيعة على الفرات من الجانب الجزرى وكان صاحبها قد سار مع صلاح الدين وفي طاعته وقد ذكرنا سبب ذلك قبل فعبر هو وعسكره الفرات على الجسر الذي عند البيرة وكان عز الدين صاحب الموصل ومجاهد الدين لما بلغهما وصول صلاح الدين إلى الشام قد جمعا العسكر وسارا إلى نصيبين ليكونا على أهبة واجتماع لتلا يتعرض

صلاح الدين إلى حلب ثم تقدما إلى دار قزلا عندهما لجأهما امر لم يكن في الحساب فلما بلغهما عبور صلاح الدين الفرات عادا إلى الموصل وأرسلا إلى الرها عسكريا يحميا ويمنعها فلما سمع صلاح الدين ذلك قوى طمعه في البلاد ولما عبر صلاح الدين الفرات كاتب الملوك أصحاب الأطراف ووعدهم وبذل لهم البذول على نصرته فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن إلى ما طلب منه لفائدة استقرت بينهما لما كان نور الدين عنده بالشام فإنه استقر الحال أن صلاح الدين يحصر آمد ويملكها ويسلمها إليه وسار صلاح الدين إلى مدينة الرها فحصرها في جمادى الأولى وقاتلها أشد قتال فحدثى بعض من كان بها من الجنود أنه عد في غلاف ربح أربعة عشر خرقة وقد خرقتة السهام ووالى الزحف عليها وكان بها حينئذ مقطوع وهو الأمير نجر الدين مسعود الزعفراني فحيث رأى شدة القتال أذعن إلى التسليم وطلب الأمان وسلم البلد وصار في خدمة صلاح الدين فلما ملك المدينة زحف إلى القلعة فسلمها إليه الدزدار الذي بها على مال أخذه فلما ملكها سلمها إلى مظفر الدين مع حران ثم سار عنها على حران إلى الرقة فلما وصل إليها كان بها مقطوعا قطب الدين ينال بن حسان المنبجي فسار عنها إلى عز الدين أنابك وملكها صلاح الدين وسار إلى الخابور قرقيسيا وما كسين وعرابان فملك جميع ذلك فلما استولى على الخابور جميعه سار إلى نصيبين فملك المدينة لوقتها وبقيت القلعة فحصرها عدة أيام فملكها أيضا وأقام بها ليصلح شأنها ثم أقطعها أميرا كان معه يقال له أبو الهيجاء السمين وسار عنها ومعه نور الدين صاحب الحصن وأتاه الخبر أن الفرنج قصدوا دمشق ونهبوا القرى ووصلوا إلى داريا وأرادوا تخريب جامعها فأرسل النائب بدمشق إليهم جماعة من النصارى يقول لهم إن أخرجتم الجامع جددنا عمارته وأخرجنا كل بيعة لكم في بلادنا ولا يمكن أحدا من عمارتها فتركوه ولما وصل الخبر إلى صلاح الدين بذلك أشار عليه من يتعصب لعز الدين بالعود فقال يخربون قرى وتملك عوضها بلادا ونعود نعمارها ونقوى على قصد بلادهم ولم يرجع فكان كما قال .

(ذكر حصر صلاح الدين الموصل) لما ملك صلاح الدين نصيبين جمع أمراءه وأرباب المشورة عنده واستشارهم بأى البلاد يبدأ وأبها يقصد بالموصل أم بسنجار أم بجزيرة ابن عمر فاختلفت آراؤهم فقال له مظفر الدين كوكبرى ابن زين الدين لا ينبغي أن يبدأ بغير الموصل فإنها في أيدينا لا مانع لها فإن عز الدين ومجاهد الدين متى سما بمسيرنا إليهم انزكاهم وسار عنها إلى بعض القلاع الجبلية ووافقهم ناصر الدين محمد بن عمه شيركوه وكان قد بذل لصلاح الدين مالا كثيرا ليقطعه الموصل إذا ملكها وقد أجابه صلاح الدين إلى ذلك فأشار بهذا الرأي لهواه فسار صلاح الدين إلى الموصل وكان عز الدين صاحبها ومجاهد الدين نائبه قد جمعا بالموصل العساكر الكثيرة ما بين فارس وراجل وأظهرا من السلاح وآلات الحصار ما حارت له الأبصار وبذلا الأموال الكثيرة وأخرج مجاهد الدين من ماله كثيرا واصطلى الأمور بنفسه فأحسن تدبيرها وشحنوا ما بقي بأيديهم من البلاد كالجزيرة وسنجار والموصل وإربل وغيرها من البلاد بالرجال والسلاح والأموال وسار صلاح الدين حتى قارب الموصل وترك عسكره واتفرده هو ومظفر الدين وابن عمه ناصر الدين بن شيركوه ومعهم نفر من أعيان دولته وقربوا من البلد فلما قربوا ورآه وحققه رأى ما هاله وملا صدوره وصدور أصحابه فإنه رأى بلدا عظيما كبيرا ورأى السور والفصيل قد ملأ من الرجال وليس فيها شرافة إلا وعليها رجل يقاتل سوى من عليه من عامة البلد المتفرجين فلما رأى ذلك علم أنه لا يقدر على أخذه وأنه يعود خائبا فقال لناصر الدين ابن عمه إذا رجعتنا إلى

المعسكر فأحل ما بذلت من المال فتحن معك على القول فقال قد رجعت عما بذلت من المال فإن هذا البلد لا يرام فقال له ولما ظفر الدين غرر تمانى وأطمع تمانى في غير مطمع ولو قصدت غيره قبله لكان أسهل أخذا بالاسم والهيئة التي حصلت لنا ومتى نازلناه وعدنا منه ينكسر ناموسنا ويفل حدنا وشوكتنا ثم رجع إلى معسكره وصبح البلد وكان نزوله عليه في رجب فنازله وضايقه ونزل محاذى باب كندة وأنزل صاحب الحصن يباب الحسر وأنزل أخاه تاج الملوك عند الباب العهادى وأنشب القتال فلم يظفر وخرج إليه يوما بعض العامة فنالوا منه ولم يمكن عز الدين ومجاهد الدين أحدا من المعسكر بل ألزموا الأسوار ثم إن تقي الدين أشار على عمه صلاح الدين بنصب منجنيق فقال مثل هذا البلد لا ينصب عليه منجنيق ومتى نصبناه أخذوه ولو خربنا برجا ربدنه من يقدر على الدخول للبلد وفيه هذا الخلق الكثير فألح تقي الدين وقال نجر بهم به فنصب منجنيقا فنصب عليه من البلد تسعة منجنيقات وخرج جماعة من العامة فأخذوه وجرى عنده قتال كثير فأخذ بعض العامة لالكة من رجليه فيها المسامير الكثيرة ورى بها أمير يقال له جاولى الأسدى مقدم الأسدية وكبيرهم فأصاب صدره فوجد لذلك ألما شديدا وأخذ اللالكة وعاد عن القتال إلى صلاح الدين وقال قد قاتلنا أهل الموصل بحماقات ما رأينا بعد مثلها وألقى اللالكة وحلف أنه لا يعود يقاتل عليها أنفة حيث ضرب بهذه ثم إن صلاح الدين رحل من قرب البلد ونزل متأخرا خوفا من البيات فإنه لقربه كان لا يأمن ذلك وكان سبيه أيضا أن مجاهد الدين أخرج في بعض الليالي جماعة من باب السر الذى للقلعة ومعهم المشاعل فكان أحدهم يخرج من الباب وينزل إلى دجلة مما يلي عين الكبريت ويعطفه المشعل فرأى المعسكر الناس يخرجون فلم يشكروا في الكيسة فحملهم ذلك على الرحيل والتأخر ليتعذر البيات على أهل الموصل وكان صدر الدين شيخ الشيوخ رحمه الله قد وصل إليه قبل نزوله على الموصل ومعه بشير الخادم وهو من خواص الخليفة الناصر لدين الله في الصالح فأقاما معه على الموصل وترددت الرسل إلى عز الدين ومجاهد الدين في الصالح فطلب عز الدين إعادة البلاد التي أخذت منهم فأجاب صلاح الدين إلى ذلك بشرط أن تسلم إليه حلب فامتنع عز الدين ومجاهد الدين ثم نزل عن ذلك وأجاب إلى تسليم البلاد بشرط أن يتركوا أنجاد صاحب حلب عليه فلم يجيبوا إلى ذلك أيضا وقال عز الدين هو أخى وله العهود والمواثيق ولا يسعنى أن أنكثها ووصلت أيضا رسل قزل أرسلان صاحب أذربيجان ورسول شاه أرمن صاحب خلاط في الممنى فلم ينتظم أمر ولا تم صالح فلما رأى صلاح الدين أنه لا ينال من الموصل غرضا ولا يحصل على غير العناء والتعب وأن من بسنجان من العساكر الموصلية يقطعون طريق من يقصدونه من عساكره وأصحابه صار من الموصل إليها .

(ذكر ملكة مدينة سنجان) لما سار صلاح الدين عن الموصل إلى سنجان سير مجاهد الدين إليها عسكريا قوة لها ونجدة فسمع بهم صلاح الدين فنتعهم من الوصول إليها وأوقع بهم وأخذ سلاحهم ودوابهم وسار إليها ونازلها وكان بها شرف الدين أمير أميران هندوا أخو عز الدين صاحب الموصل في عسكر معه فحصر البلد وضايقه وألح في قتاله فكاتبه بعض أمراء الأكراد الذين به من الزرزارية وخامر معه وأشار بقصده من الناحية التي هو بها ليدل إليه البلد فطره صلاح الدين ليلا فسلم إليه ناحيته فلك الباشورة لا غير فلما سمع شرف الدين الخبر استكان وخضع وطلب الأمان فأمن ولو قاتل على تلك الناحية أخرج العسكر الصلاحى عنها ولو امتنع بالقلعة لحفظها ومنعها ولكنه عجز فلما طلب الأمان أجابه صلاح الدين إليه فأمنه وملك البلد

وسار شرف الدين ومن معه إلى الموصل واستقر جميع مملكته صلاح الدين بملك سنجان فإنه كان قصد أن يسترده المواصله إذا فارقه لأنه لم يكن فيه حصن غير الرها لا غير فلما ملك سنجان صارت على الجميع كالسور واستناب بها سعد الدين بن معين الدين أنز وكان من أكابر الأمراء وأحسنهم صورة ومعنى .

(ذكر عود صلاح الدين إلى حران) لما ملك صلاح الدين سنجان وقرر قواعدها سار إلى نصيبين فلقبه أهلها شاكين من أبي الهيجاء السمين بدين من ظلمه متأسفين على دولة عز الدين وعدله فيهم فلما سمع ذلك أنكر على أبي الهيجاء ظلمه وعزله عنهم وأخذه معه وسار إلى حران وفرق عساكره ليستريحوا وبقي جريدة في خواصه وثقات أصحابه وكان وصوله إليها أوائل ذي القعدة من السنة .

(ذكر اجتماع عز الدين وشاه أرمن) في هذه السنة في ذي الحجة اجتمع أنابك عز الدين صاحب الموصل وشاه أرمن صاحب خلاط على قتال صلاح الدين وسبب ذلك أن أرسل عز الدين تردت إلى شاه أرمن يستنجد ويستصره على صلاح الدين فأرسل شاه أرمن إلى صلاح الدين عدة رسل في الشفاعة إليه بالكف عن الموصل وما يتعلق بعز الدين فلم يجبه إلى ذلك وغالطه فأرسل إليه أخيراً بملوكه سيف الدين بكتمر الذي ملك خلاط بعد شاه أرمن فأناه وهو يحاصر سنجان يطلب إليه أن يتركها ويرحل عنها وقال له إن رحل عنها وإلا فتهده بقصده ومحاربتة فأبلغه بكتمر الشفاعة فسوفه في الجواب رجاء أن يفتحها فلما رأى بكتمر ذلك أبلغه الرسالة بالتهديد وفارقه غضبان ولم يقبل منه خلعة ولا صلة وأخبر صاحبه الخبر وخوفه عاقبة الإهمال والتواني عن صلاح الدين فسار شاه أرمن من خلاط وكان مخبياً بظاهرها وسار إلى ماردين وصاحبها حينئذ قطب الدين بن نجم الدين الهمداني وهو ابن أخت شاه أرمن وابن خال عز الدين وحموه لأن عز الدين قد زوج ابنة قطب الدين وحضر مع شاه أرمن دولة شاه صاحب بدليس وأرزن وسار أنابك عز الدين من الموصل في عسكره جريدة من الأثقال وكان صلاح الدين قد ملك سنجان وسار عنها إلى حران وفرق عساكره فلما سمع باجتماعهم سير إلى تقي الدين ابن أخيه وهو بحماة يستدعيه فوصل إليه مسرعاً وأشار عليه بالرحيل وحذره منه آخرون وكان هوى صلاح الدين في الرحيل فرحل إلى رأس عين فلما سمعوا برحيله تفرقوا فعاد شاه أرمن إلى خلاط واعتذر بأنني أجمع العساكر وأعود ورجع عز الدين إلى الموصل وأقام قطب الدين بماردين وسار صلاح الدين فنزل بجوزم تحت ماردين عدة أيام .

(ذكر الظفر بالفرنجة في بحر عيذاب) في هذه السنة عمل البرنس صاحب الكرك أسطولاً وفرغ منه بالكرك ولم يبق إلا جمع قطعه بعضها إلى بعض وحملها إلى بحر أيلة وجمعها في أسرع وقت وفرغ منها وشحنها بالمقاتلة ومسيرها فساروا في البحر وافترقوا فرقتين فرقة قامت على حصن أيلة يحصرونه ويمنعون أهله من ورود الماء فنال أهله شدة شديدة وضيق عليهم ، وأما الفرقة الثانية فإتهم ساروا نحو عيذاب وأفسدوا في السواحل ونهبوا وأخذوا ما وجدوا من المراكب الإسلامية ومن فيها من التجار وبغثوا الناس في بلادهم على حين غفلة منهم فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجياً لا تاجراً ولا محارباً وكان بمصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب ينوب عن أخيه صلاح الدين فعمر أسطولاً وسيره وفيه جمع كثير من المسلمين ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو متولى الأسطول بديار مصر وكان مظفراً فيه شجاعاً كريماً فسار لؤلؤ بجدا في طلبهم فابتدأ بالذين على أيلة فانقض عليهم انقضاض العقاب على صيده ، فقاتلهم ، فقتل بعضهم ، وأسر الباقى ؛ وسار من وقته بعد

الظفر بقص أثر الذين قصدوا هيداب فلم يبرهم وكانوا قد أغاروا على ما وجدوه بها وقتلوا من لقوه عندها وساروا إلى غير ذلك المرسى ليفعلوا كما فعلوا فيه وكانوا عازمين على الدخول إلى الحجاز مكة والمدينة حرسهما الله تعالى وأخذ الحاج ومنهم عن البيت الحرام والدخول بعد ذلك إلى اليمن فلما وصل أوائل إلى عيذاب ولم يرمهم سار يفتقروا أثرهم فبلغ رابع وساحل الجوزاء وغيرهما فأدركهم بساحل الجوزاء فأوقع بهم هناك فلما رأوا العطب وشاهدوا الهلاك خرجوا إلى البر واعتصموا ببعض تلك الشعاب فنزل أوائل من مرآكبه إليهم وقتلهم أشد قتال وأخذ خيلا من الأعراب الذين هناك فركبها وقتلهم فرسانا ورجاله فظفر بهم وقتل أكثرهم وأخذ الباقين أسرى وأرسل بعضهم إلى منى لينجروا بها عقوبة لمن رام إغاثة حرم الله تعالى وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم وعاد بالباقيين إلى مصر فقتلوا جميعهم .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في جمادى الأولى توفي عز الدين فرخشاه ابن أخى صلاح الدين وكان ينوب عنه بدمشق ، وهو ثقة من أهله وكان اعتماده عليه أكثر من جميع أهله وأمرائه ، وكان شجاعا كريما فاضلا عالما بالأدب وغيره ، وله شعر جيد من بين أشعار الملوك ، وكان ابتداء مرضه أنه خرج من دمشق إلى غزو الفرنج ، فمرض وعاد مريضا ، فمات ، ووصل خبر موته إلى صلاح الدين وقد عبر الفرات إلى الديار الجزرية فأعاد شمس الدين محمد بن المقدم إلى دمشق ليكون مقبدا على عسكرها وفيها مات نجر الدولة أبو المظفر بن الحسن بن هبة الله بن المطلب كان أبوه وزير الخليفة وأخوه أستاذ الدار فتصوف هو من زمن الصبا وبني مدرسة ورباطا ببغداد عند عقد المصطنع وبني جامعا بالجانب الغربي منها وفيها توفي الأمير أبو منصور هاشم ولد المستضيء بأمر الله ودفن عند أبيه . وفيها توفي أبو العباس أحمد بن علي بن الرفاعي من سواد واسط وكان صالحا ذا قبول عظيم عند الناس وله من التلامذة ما لا يحصى (١)

(١) قال ابن خلكان : ولاتباعه أحوال عجيبة من أكل الحيات وهي حية ، والدخول في النار في التناير وهي تضطرم ، ويلعبون بها وهي تشتعل ، ويقال لهم في بلادهم يركبون الأسود . وذكر ابن خلكان أنه قال وليس للشيخ أحمد عقب ، وإنما النسل لأخيه وذريته يتوارثون المشيخة بذلك البلاد . وقال : ومن شعره على ما قيل :

إذا جن ليلى هام قلبي بذكركم • أنوح كما نوح الحمام المطوق
وفوق سحاب يطر لهم والاسى • ونحتي بحار بالاسى تندفق
سلوا أم عمرو كيف بات أسيرها • تفك الأسارى دونه وهو موثق
فلا هو مقتول ففي القتل راحة • ولا هو ممنون عليه فيطلق

ومن شعره قوله :

أغار عليها من أبيها وأمها • ومن كل من يدنو إليها وينظر
وأحمد للمرأة أيضا بكنها • إذا نظرت مثل الذي أنا أنظر

قال : ولم يزل على تلك الحال إلى أن توفي يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأولى من هذه السنة . وفيها توفي خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال أبو القاسم القرطبي الحافظ المحدث المؤرخ ، صاحب التصانيف ، له كتاب الصلة جعله ذبيلا على تاريخ أبي الوليد بن الفرضي ، وله كتاب المستفيين بالله ، وله مجلدة في تعيين الأسماء المهمة على طريق الخطيب ، وله أسماء من روى الموطأ على حروف المعجم ، بلغوا ثلاثة وسبعين رجلا ، مات في رمضان عن أربع وثمانين سنة .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر ملك صلاح الدين آمد وتسليمها إلى صاحب الحصن ﴾ قد ذكرنا نزول صلاح الدين بجوزم تحت ماردين فلم ير لطمعه وجهها وسار عنها إلى آمد على طريق البارعية وكان نور الدين محمد بن قرا أرسلان يطالبه في كل وقت بقصدها وأخذها وتسليمها إليه على ما استقرت القاعدة بينهما فوصل إلى آمد سابع عشر ذي الحجة من سنة ثمان وسبعين موافق لها وأقام يحاصرها وكان المتولى لأمرها والحاكم فيها بهاء الدين بن نيسان وكان صاحبها وليس له من الأمر شيء مع ابن نيسان فلما نازلها صلاح الدين أساء ابن نيسان التدبير ولم يعط الناس من الذخائر شيئاً ولا فرق فيهم ديناراً واحداً ولا فوتاً وقال لأهل البلد قاتلوا عن نفوسكم فقال له بعض أصحابه ليس العدو بكافر حتى يقاتلوا عن نفوسهم فلم يفعل شيئاً وقتلهم صلاح الدين ونصب المنجنقات وزحف إليها وهي الغاية في الحصانة والمنعة بها وبسورها يضرب المثل وابن نيسان هلى حاله من الشج بالمال وتصرفه تصرف من ولت سماعته وأدبرت دوانه فلما رأى الناس ذلك منه تهاونوا بالقتال وجنحوا إلى السلامة وكانت أيام ابن نيسان قد طالت وثقلت على أهل البلد لسوء سيرته وصنيعه وتضييقه عليهم في مكاسبهم فالناس كارهون لها محبون لانقراضها وأمر صلاح الدين أن يكتب على السهام إلى أهل البلد يعدم الخير والإحسان إن أطاعوه ويهددهم إن قاتلوه فزادهم ذلك تقاعداً وتحاذلاً وأحبوا ملكه وتركوا القتال فوصل النقبون إلى السور فنقبوه وعلقوه فلما رأى الجند وأهل البلد ذلك طمعوا في ابن نيسان واشتطوا في المطالب فحين صارت الحال لذلك أخرج ابن نيسان نسائه إلى القاضى الفاضل وزير صلاح الدين يسأله أن يأخذ له الأمان ولأهله وماله وأن يؤخره ثلاثة أيام حتى ينقل ماله بالبلاد من الأموال والذخائر فسعى له الفاضل في ذلك فأجابه صلاح الدين إليه فسلم البلد في المشر الأول من المحرم هذه السنة وأخرج خيمته إلى ظاهر البلد ورام نقل ماله فتعذر ذلك عليه لزوال حكمه عن أصحابه واطراحهم أمره ونهيه فأرسل إلى صلاح الدين يعرفه الحال ويسأله مساعدته على ذلك فأمر له بالدواب والرجال فنقل البعض وسرق البعض وانقضت الأيام الثلاث قبل الفراغ فمنع من الباقي وكانت أبراج المدينة بملاوة من أنواع الذخائر فتركها بحالها ولو أخرج البعض منها لحفظ البلد وسائر نعمه وأمواله لكن إذا أراد الله أمراً هياً أسبابه فلما تسلمها صلاح الدين سلمها لصاحب الحصن نور الدين فقيل له قبل تسليمها إن هذه المدينة فيها من الذخائر ما يزيد على ألف ألف دينار فلو أخذت ذلك وأعطيتك جنديك وسلمت البلد إليه فارغاً لكان راضياً فإنه لا يطمع في غيره فامتنع من ذلك وقال ما كنت لأعطيه الأصل وأبخل بالفرع فلما تسلم نور الدين البلد اصطنع دعوة عظيمة ودعا إليها صلاح الدين وأمرائه ولم يكن دخل البلد وقدم له ولأصحابه من التحف والهدايا أشياء كثيرة .

﴿ ذكر ملك صلاح الدين تل خالد وعينتاب من أعمال الشام ﴾ لما فرغ صلاح الدين من أمر آمد سار إلى الشام وقصد تل خالد وهو أعمال حلب فحصرها ورمماها بالمنجنيق فنزل أهلها وطلبوا الأمان فأمنهم وتسلموا في المحرم أيضاً ثم سار منها إلى عينتاب فحصرها وبها ناصر الدين محمد وهو أخو الشيخ اسمعيل الذي كان خازن نور الدين محمود بن زنكي وصاحبه وكان قد سلمها إليه نور الدين فبقيت معه إلى الآن فلما نازله صلاح الدين أرسل إليه يطلب أن يقر الحصن بيده وينزل إلى خدمته ويكون تحت حكمه وطاعته فأجابه صلاح الدين إلى

(٢١ - الكامل - ٩)

ذلك وحلف له عليه فنزل إليه وصار في خدمته وكان أيضا في المحرم من هذه السنة .

(ذكر وقعتين مع الفرنج في البحر والشام) في هذه السنة في العاشر من المحرم سار أسطول المسلمين من مصر في البحر فلقوا بطسة فيها نحو ثمانمائة من الفرنج بالسلاح التام ومعهم الأموال والسلاح إلى فرنج الساحل فقاتلهم وصبر الفريقان وكان الظفر للمسلمين وأخذوا الفرنج أسرى فقتلوا بعضهم وأبقوا بعضهم أسرى وغنموا مامعهم وعادوا إلى مصر سالمين . وفيها أيضا سارت عصابة كبيرة من الفرنج من نواحي الداروم إلى نواحي مصر ليغيروا وينهبوا فسمع بهم المسلمون فخرجوا إليهم على طريق صدر واية فانتزع الفرنج من بين أيديهم فنزلوا بماء يقال له العسيلة وسبقوا المسلمين إليه فأتاهم المسلمون وهم عطاش قد أشرفوا على الهلاك فأرأوا الفرنج قد ملكوا الماء فأنشأ الله سبحانه وتعالى بلطفه سحابة عظيمة فطروا منها حتى رووا وكان الزمان قيظا والحر شديد في بر مهلك ؛ فلما رأوا ذلك قويت نفوسهم ووثقوا بنصر الله لهم وقاتلوا الفرنج فنصرهم الله عليهم فقتلهم ولم يسل منهم إلا الشريد الفريد وغنم المسلمون مامعهم من سلاح ودواب وعادوا منصورين قاهرين بفضل الله تعالى .

(ذكر ملك صلاح الدين حلب) وفي هذه السنة سار صلاح الدين من عيتاب إلى حلب فنزل عليها في المحرم أيضا في الميدان الأخضر وأقام به عدة أيام ثم انتقل إلى جبل جوشن فنزل بأعلاه وأظهر أنه يريد أن يبني مساكن له ولأصحابه وعساكره وأقام عليها أياما والقتال بين العسكرين كل يوم وكان صاحب حلب عماد الدين زنكي ابن مودود بن زنكي ومعه العسكر النورى وهم مجدون في القتال فلما رأى كثرة الخرج كأنه شح بالمال فحضر يوما عنده بعض أجناده وطلبوا منه شيئا فاعتذر بقلة المال عنده فقال له بعضهم من يريد أن يحفظ مثل حلب يخرج الأموال ولوباع حلى نساته فما ل حينئذ إلى تسليم حلب وأخذ العوض منها وأرسل مع الأمير طان الياروقى وكان يميل إلى صلاح الدين أنه يسل حلب ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقه وسروج وجرت العين على ذلك وباعها بأوكس الأثمان أعطى حصنا مثل حلب وأخذ عوضها قرى ومزارع فنزل عنها ثامن عشر صفر وتسلبها صلاح الدين فعجب الناس كلهم من ذلك وقبحوا ما أتى حتى إن بعض عامة حلب أحضر إجانة وماء ويناداه أنت لا يصلح لك الملك وإنما يصلح لك أن تغسل الثياب وأسموه المكروه واستقر ملك صلاح الدين بملكها وكان مزلا ثابت قدمه بتسليمها وكان على شفا جرف هار وإذا أراد الله أمرا فلا مرد له وسار عماد الدين إلى البلاد التي أعطاها وتسلبها وأخذ صلاح الدين حلب واستقر الحال بينهما أن عماد الدين يحصر في خدمة صلاح الدين بنفسه وعسكره إذا استدعاه لا يحتج بحجة ومن الاتفاقات العجيبة أن محي الدين بن الزكى قاضى دمشق مدح صلاح الدين بقصيدة منها :

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة على ما نذكره إن شاء الله تعالى وما كتبه القاضى الفاضل في المعنى عن صلاح الدين فأعطيناه عن حلب كذا وكذا وهو صرف على الحقيقة أعطيناه الدرهم ونزلنا عن القرى وأحرزنا العواصم وكتب أيضا أعطيناه مالم يخرج عن اليد يعني أنه متى شاء أخذه لعدم حصانته وكان في جملة من قتل على حلب تاج الملوك بورى أخو صلاح الدين الأصغر وكان فارسا شجاعا كرما حلما جامعا لخصال الخير ومحاسن الأخلاق طعن في ركبته فانفكت فمات منها بعد أن استقر الصلح بين

عماد الدين وصلاح الدين علي تسليم حلب قبل أن يدخلها صلاح الدين فلما استقر منه الصالح حضر صلاح الدين عند أخيه يعوده وقال له هذه حلب قد أخذناها وهي لك فقال ذلك لو كان وأنا حتى ووالله لقد أخذتها غالبية حيث تفقد مثل فبكي صلاح الدين وأبكي ولما خرج عماد الدين إلى صلاح الدين وقد عمل له دعوة واحتفل فيها فبينما هم في سرور إذ جاء إنسان فأسر إلى صلاح الدين بموت أخيه فلم يظهر هلعاً ولا جزعاً وأمر بتجهيزه سرا ولم يعلم عماد الدين ومن معه في الدعوة واحتمل الحزن وحده لئلا يتأكد ما هم فيه وكان هذا من الصبر الجميل .

(ذكر فتح صلاح الدين حارم) لما ملك صلاح الدين حلب كان بقلعة حارم وهي من أعمال حلب بعض المماليك النورية واسمه سرخك وولاه عليها الملك الصالح عماد الدين فامتنع من تسليمها إلى صلاح الدين فراسله صلاح الدين في التسليم وقال له اطلب من الإقطاع ما أرد . ووعده بالإحسان فاشتط في الطلب وترددت الرسل بينهم فراسل الفرنج ليحتسب بهم فسمع من معه من الأجناد أنه يرسل الفرنج يخافوا أن يسلبها إليهم فوثبوا عليه وقبضوه وحبسوه وراسلوا صلاح الدين يطلبون منه الأمان والإنعام فأجابهم إلى ما طلبوا وسلوا إليه الحصن فرتب به دزدارا بعض خواصه وأما باقى قلاع حلب فإن صلاح الدين أقر عينتاب بيد صاحبها كما تقدم وأقطع تل خالد لأمير يقال له داروم الباروق وهو صاحب تل باشر وأما قلعة إعرزاز فإن عماد الدين اسمعيل كان قد خربها فأقطعها صلاح الدين لأمير يقال له سليمان بن جندر فعمرها وأقام صلاح الدين بحلب إلى أن فرغ من تقرير قواعدها وأحوالها وديوانها وأقطع أعمالها وأرسل منها فجمع العساكر من جميع بلاده .

(ذكر القبض على مجاهد الدين وما حصل من الضرر بذلك) في هذه السنة في جمادى الأولى قبض عز الدين مسعود صاحب الموصل على نائبه مجاهد الدين قايماز وكان إليه الحكم في جميع البلاد واتباع في ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه ولم ينظر في مضرة صاحبه وكان الذي أشار بذلك عز الدين محمود زلفندار وشرف الدين أحمد بن أبي الخير الذي كان أبوه صاحب الغراف وهما من أكابر الأمراء فلما أراد القبض عليه لم يقدم على ذلك لثقة مجاهد الدين فأظهر أنه مريض وانقطع عن الركوب عدة أيام فدخل إليه مجاهد الدين وحده وكان خصياً له يمتنع من الدخول على النساء فلما دخل عليه قبض عليه وركب لوقته إلى القلعة فاحتوى على الأموال التي لمجاهد الدين وخزائنه وولى زلفندار قلعة الموصل بعد مجاهد الدين وجعل ابن صاحب الغراف أمير حاجب وحكهما في دولته وكان تحت حكم مجاهد الدين حينئذ إربل وأعمالها ومعه فيها زين الدين علي وهو صبي صغير ليس له من الحكم شيء والحكم والعسكر إلى مجاهد الدين وتحت حكمه أيضاً جزيرة ابن عمر وهي لمعز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود وهو أيضاً صبي والحكم والنواب والعسكر لمجاهد الدين ويده أيضاً شهرزور وعمالها ونوابه فيها ودقوقا ونائبه فيها وقلعة عقر الحميدية ونائبه فيها ولم يبق لمعز الدين مسعود بعد أن أخذ صلاح الدين البلاد الجزيرية سوى الموصل وقلعتها بيد مجاهد الدين وهو على الحقيقة الملك واسمه عز الدين فلما قبض عليه امتنع صاحب إربل عن طاعة عز الدين واستبد وكذلك أيضاً صاحب جزيرة ابن عمر وأرسل الخليفة إلى دقوقا فحصرها وأخذها ولم يحصل لمعز الدين مسعود غير شهرزور والعقر وصارت إربل والجزيرة أضرب على صاحب الموصل وأرسل صاحبها إلى صلاح الدين بالطاعة له والكون في خدمته وكان الخليفة الناصر لدين الله قد أرسل صدر الدين شيخ

الشيوخ ومعه بشير الخادم الخاص إلى صلاح الدين في الصلح مع عز الدين صاحب الموصل وسير عز الدين معه القاضي محي الدين أبا حامد بن الشهرزوري في المعنى فأجاب صلاح الدين إلى ذلك وقال ليس لكم مع الجزيرة وإربل حديث فامتنع محي الدين عن ذلك وقال هما لنا فلم يجب صلاح الدين إلى الصلح إلا بأن تكون إربل والجزيرة معه فلم يتم أمره وقوى طمع صلاح الدين في الموصل بقبض مجاهد الدين فلما رأى صاحب الموصل الضرر بقبض مجاهد الدين قبض على شرف الدين أحمد بن صاحب الغراف وزلفندار عقوبة لهما ثم أخرج مجاهد الدين على ما ذكره إن شاء الله .

(ذكر غزو بيسان) لما فرغ صلاح الدين من أمر حلب جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي وهو صبي وجعل معه الأمير سيف الدين يازكج وكان أكبر الأمراء الأسيديّة وسار إلى دمشق وتجهز للغزو ومعه عساكر الشام والجزيرة وديار بكر وسار إلى بلد الفرنج فعبر نهر الأردن تاسع جمادى الآخرة من السنة فرأى أهل تلك النواحي قد فارقوها خوفاً فقصد بيسان فأحرقها وخرّبها وأغار على ما هناك فاجتمع الفرنج وجاءوا إلى قبائله فحين رأوا كثرة عساكره لم يقدهوا عليه فأقام عليهم وقد استندوا إلى جبل هناك وخندقوا عليهم فأحاط بهم وعساكر الإسلام ترهيمهم بالسهم وتناوشهم القتال فلم يخرجوا وأقاموا كذلك خمسة أيام وعاد المسلمون عنهم سابع عشر الشهر لعزل الفرنج يطعمون ويخرجون فيستدرجونهم ليلغوا منهم غرضاً فلما رأى الفرنج ذلك لم يطعموا أنفسهم في غير السلامة وأغار المسلمون على تلك الأعمال يمينا وشمالاً ووصلوا فيها إلى ما لم يكونوا يطعمون في الوصول إليه والإقدام عليه فلما كثرت الغنائم معهم رأوا العود إلى بلادهم بما غنموا مع الظفر أولى فعدوا إلى بلادهم على عزم الغزو .

(ذكر غزو الكرك وملك العادل حلب) لما عاد صلاح الدين والمسلمون من غزوة بيسان تجهزوا لغزو الكرك فسار إليه في العساكر وكتب إلى أخيه العادل أبي بكر بن أيوب وهو نائبه بمصر يأمره بالخروج بجميع العساكر إلى الكرك وكان العادل قد أرسل إلى صلاح الدين يطلب منه مدينة حلب وقلعتها فأجابه إلى ذلك وأمره أن يخرج معه بأهله وماله فوصل صلاح الدين إلى الكرك في رجب ووافاه أخوه العادل في العسكر المصري وكثر جمعه وتمكن من حصره وصعد معه المسلمون إلى ربضه وملكه وحصر الحصن من الربض وتحكم عليه في القتال ونصب عليه سبع منجنيقات لانزال ترمي بالحجارة ليلاً ونهاراً وكان صلاح الدين يظن أن الفرنج لا يمكنونه من حصر الكرك وأنهم يبذلون جهدهم في رده عنه فلم يستصحب معه من آلات الحصار ما يكفي لمثل ذلك الحصن العظيم والمعقل المنيع فرحل عنه منتصف شعبان وسير تقي الدين ابن أخيه إلى مصر نائباً عنه ليتولى ما كان أخوه العادل يتولاه واستصحب أخاه العادل معه إلى دمشق وأعطاه مدينة حلب وقلعتها وأعمالها ومدينة منبج وما يتعلق بها وسيره إليها في شهر رمضان من السنة وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة فتح الرباط الذي بنته أم الخليفة بالمأمونية . وفيها في ذي الحجة توفي مكرم بن بختيال أبو الخير الزاهد ببغداد روى الحديث وكان كثير البسكاه . وفي جمادى الآخرة توفي محمد بن بختيار بن عبد الله أبو عبد المولد الشاعر ويعرف بالأبله فن جملة شعره :

أراق دمعي لابل أراق دمي ظلما بظلم من ريقه الشميم

ذو قامة كالقضيب ناضرة وناظر من سقاه سقنى
حصلت من وعده على أصدق الوعد ومن وصله على التهم

(ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة)

(ذكر إطلاق مجاهد الدين من الحبس وانضمام العجم) في هذه السنة في المحرم أطلق أتابك عز الدين صاحب الموصل مجاهد الدين قايماز من الحبس بشفاعة شمس الدين البهلوان صاحب همذان وبلاد الجبل وسيره إلى البهلوان وأخيه قزل يستنجدهما على صلاح الدين فسار إلى قزل أولا وهو صاحب أذربيجان فلم يمكنه من المضي إلى البهلوان وقال مهما نختاره أنا أفعله وجهاز معه عسكريا كثيرا نحو ثلاثة آلاف فارس وساروا نحو إربل ليحصروها فلما قاربوها أفسدوا في البلاد وخربوها ونهبوا وسبوا وأخذوا النساء قهرا ولم يقدر مجاهد الدين على منعهم فسان إليهم زين الدين يوسف صاحب إربل في عسكره فلقبهم وهم متفرقون في القرى ينهبون ويحرقون فانتز الفرصة فيهم بفرقتهم فيهم وألقى بنفسه وعسكره على أول من لقيه منهم فهزمهم وتمت الهزيمة على الجميع وغنم الإربليون أموالهم ودوابهم وسلاحهم وعاد العجم إلى بلادهم منهزمين وعاد صاحب إربل إلى بلده مظفرا غائما وعاد مجاهد الدين إلى الموصل فكان يحكى أنى مازلت أنتظر العقوبة من الله تعالى على سوء أفعال العجم فإني رأيت منهم ما لا كنت أظنه يفعلوه مسلم بمسلم وكنت أنهام فلا يسمعون حتى كان من الهزيمة ما كان .

(ذكر وفاة يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه يعقوب) في هذه السنة سار أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن إلى بلاد الأندلس وجاز البحر إليها في جمع عظيم من عساكر المغرب فإنه جمع وحشد الفارس والراجل فلما عبر الخليج قصد غربي البلاد فحصر مدينة شنترين وهي للفرنج شهرا فأصابه بها مرض فمات منه في ربيع الأول وحمل في تابوت إلى مدينة اشبيلية من الأندلس وكانت مدة ملكه اثنتين وعشرين سنة وشهرا ومات عن غير وصية بالملك لأحد من أولاده فاتفق رأى قواد الموحدين وأولاد عبد المؤمن على تملك ولد أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فملكوه من الوقت الذي مات فيه أبوه لتلا يكونوا بغير ملك يجمع كلمتهم لقربهم من العدو فقام في ذلك أحسن قيام وأقام راية الجهاد وأحسن السيرة في الناس وكان دينامقيا للحدود في الخاص والعام فاستقامت له الدولة وانقادت إليه بأسرها مع سعة أقطارها ورتب ثغور الأندلس وشحنها بالرجال ورتب المقاتلة في سائر بلادها وأصلح أحوالها وعاد إلى مراکش وكان أبوه يوسف حسن السيرة وكان طريقه ألين من طريق أبيه مع الناس يحب العباد ويقربهم ويشاورهم وهم أهل خدمته وخاصته وأحبه الناس ومالوا إليه وأطاعه من البلاد ما امتنع على أبيه وسلك في جباية الأموال ما كان أبوه يأخذه ولم يتعد إلى غيره واستقامت له البلاد بحسن فعله مع أهلها ولم يزل كذلك إلى أن توفي رحمه الله تعالى .

(ذكر غزو صلاح الدين الكرك) في هذه السنة في ربيع الآخر سار صلاح الدين من دمشق يريد الغزو وجمع عساكره فأتته من كل ناحية ومن أتابه نور الدين محمد بن فرا أرسلان صاحب الحصن وكتب إلى مصر ليحضر عسكرها عنده على الكرك فنازل الكرك وحصره وضيق على من به وأمر بنصب المنجنيقات على ربه واشتد القتال فلك المسلمون الربيض وبقى الحصن وهو والربيض على سطح جبل واحد إلا أن

بينهما خندقا عظيما عمقه نحو ستين ذراعا فأمر صلاح الدين بإلقاء الأحجار والتراب فيه ليطمه فلم يقدر أحد على الدنونه لكثرة الرمي عليهم بالسهم من الجرخ والقوس والأحجار من المنجنيقات فأمر أن يبنى بالأخشاب واللبن ما يمكن الرجال يمشون تحت السقائف وبلقون في الخندق ما يطمه ومنجنيقات المسلمين مع ذلك ترى الحصن ليلا ونهارا وأرسل من فيه من الفرنج إلى ملكهم وفرسانهم يستمدونهم ويعرفونهم عجزهم وضعفهم عن حفظ الحصن فاجتمعت الفرنج عن آخرها وساروا إلى نجدتهم عجلا فلما بلغ الخبر بمسيرهم إلى صلاح الدين رحل عن الكرك إلى طريقهم ليلقاهم ويصافقهم ويدود بعد أن يهزمهم إلى الكرك فقرب منهم وخيم ونزل ولم يمكنه الدنو منهم لحشونة الأرض وصعوبة المسلك إليهم وضيقة فأقام أياما ينتظر خروجهم من ذلك المكان ليتمكن منهم فلم يبرحوا منه خوفا على نفوسهم فلما رأى ذلك رحل عنهم عدة فراسخ وجعل يذاهمهم من يملئه بمسيرهم فساروا ليلا إلى الكرك فلما علم صلاح الدين ذلك علم أنه لا يتمكن حينئذ ولا يبلغ غرضه فسار إلى مدينة نابلس ونهب كل ما على طريقه من البلاد فلما وصل إلى نابلس أحرقها وخربها وقتل فيها وأسروسي فأكثر وسار عنها إلى سبسطية وبها مشهد زكريا عليه السلام وبها كنيسة وبها جماعة أسرى من المسلمين فاستنقذهم ورحل إلى جنين فنهبا وخربها وعاد إلى دمشق ونهب ما على طريقه وخربه وبث سرايا في طريقه يمينا وشمالا يغنمون ويخربون ووصل إلى دمشق .

(ذكر ملك المثلثين بجاية وهودها إلى أولاد عبد المؤمن) في هذه السنة في شعبان خرج علي بن اسحق المعروف بابن غانية وهو من أعيان المثلثين الذين كانوا ملوك المغرب وهو حينئذ صاحب جزيرة ميورقة إلى بجاية فلما سبب ذلك أنه لما سمع بوفاة يوسف بن عبد المؤمن عمر أسطوله فكان عشرين قطعة وسار في جموعه فأرسي في ساحل بجاية وخرجت خيله ورجاله من الشواني فكأوا نحو مائتي فارس من المثلثين وأربعة آلاف راجل فدخل مدينة بجاية بغير قتال لأنه اتفق أن واليها سارعها قبل ذلك بأيام إلى مراكش ولم يترك فيها جيشا ولا ممانعا لعدم عدو يحفظها منه فجاء المثلث ولم يكن في حسابهم أنه يحدث نفسه بذلك فأرسي بها ووافق جماعته من بقايا دولة بني حماد وصاروا معه فكثرت جمعهم وقويت نفسه فسمع خبره والي بجاية فعاد من طريقه ومعه من الموحدين ثلثمائة فارس فجمع من العرب والقبائل الذين في تلك الجهات نحو ألف فارس فسمع بهم وبقرتهم منه فخرج إليهم وقد صار معه قدر ألف فارس وتوافقوا ساعة فانضاف جميع الجموع التي كانت مع والي بجاية إلى المثلث فانهزم حينئذ والي بجاية ومن معه من الموحدين وساروا إلى مراكش وعاد المثلث إلى بجاية فجمع جيشه وخرج إلى أعمال بجاية فأطاعه جميعها إلا قسطنطينية الهوى فخصرها إلى أن جاء جيش من الموحدين من مراكش في صفر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة إلى بجاية في البر والبحر وكان بها يحيى وهداه أخوه علي بن اسحق المثلث فخرج منها هاربا ولحقا بأخيها فرحل عن القسطنطينية وسار إلى أفريقية وكان سبب إرسال الجيش من مراكش أن والي بجاية وصل إلى يعقوب بن يوسف صاحب المغرب وعرفه ماجرى ببجاية واستيلاء المثلثين عليها وخوفه عاقبة التواني فجهز العساكر في البر عشرين ألف فارس وجهاز الأسطول في البحر في خلق كثير واستمادوها .

(ذكر وفاة صاحب مارددين وملك ولده) في هذه السنة مات قطب الدين أيلغازي بن نجم الدين بن أبي ابن تمرناش بن أيلغازي بن أرتق صاحب مارددين وملك بعده ابنه حسام الدين بولق أرسلان وهو طفل

وقام بتربيته وتديير مملكته نظام الدين البقش بموك آيه وكان شاه أرمن صاحب خلاط خال قطب الدين لحكم في دولته وهو رتب البقش مع ولده وكان البقش دينا خيرا عادلا حسن السيرة سليما فأحسن تربية الولد وتزوج أمه فلما كبر الولد لم يمكنه النظام من مملكته لخبط وهوج كان فيه وكان لنظام الدين هذا بموك اسمه لؤلؤ قد تحكم في دولته وحكم فيها فكان يحمل النظام على ما يفعله مع الولد ولم يزل الأمر كذلك إلى أن مات الولد وله أخ أصغر منه لقبه قطب الدين فرتبه النظام في الملك وليس له منه إلا الاسم والحكم إلى النظام ولؤلؤ فبقي كذلك إلى سنة إحدى وستمائة فرض النظام البقش فأناه قطب الدين بعوده فلما خرج من عنده خرج معه لؤلؤ وضربه قطب الدين بسكين معه فقتله ثم دخل إلى النظام ويده السكين فقتله أيضا وخرج وحده رمعه غلام له وألقى الرأسين إلى الأجناد وكانوا كلهم قد أنشأهم النظام ولؤلؤ فأذعنوا له بالطاعة فلما تمكن أخرج من أراد وترك من أراد واستولى على قلعة ماردين وأعمالها وقلعة البارعية وصور وهو إلى الآن حاكم فيها ، حازم في أفعاله .

(ذكر عدة حوادث) وفي هذه السنة توفي صدر الدين شيخ الشيوخ عبدالرحمن بن شيخ الشيوخ إسماعيل ابن شيخ الشيوخ أبي سعيد أحمد في شعبان وكان قد صار في ديوان الخلافة رسولا إلى صلاح الدين معه شهاب الدين بشير الخادم في معنى الصلح بينه وبين عز الدين صاحب الموصل فوصل دمشق وصلاح الدين يحضر الكرك فأقام إلى أن عاد فلم يستقر في الصلح أمر ومرضوا وطلبا العودة إلى العراق فأشار عليهما صلاح الدين بالمقام إلى أن يصطلحا فلم يفعلوا وسارا في الحرفات بشير بالسحنة ومات صدر الدين بالرحبة ودفن بمشهد البوق وكان واحد زمانه قد جمع بين رياضة الدين والدنيا وكان ملجأ لكل خائف صالحا كريما حلما وله مناقب كثيرة ولم يستعمل في مرضه هذا دواء توكل على الله تعالى وفيها توفي عبداللطيف بن محمد بن عبداللطيف الخجندی الفقيه الشافعي رئيس أصفهان وكان موته بباب همدان وقد عاد من الحج وله شعر فنه :

بالحي دار سقاها مدمعي • ياسقني الله الحي من مربع
ليت شعري والاماني ضلة • هل إلى وادي الغضى من مرجع
أذنت علوة للواشي بنا • ما على علوة لولم تسمع
أوتحرت رشدا فيما وشى • أوغفت عني فما قلبي معي

رحمه الله ورضى عنه وأرضاه .

(ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وخمسمائة)

(ذكر حصر صلاح الدين الموصل ورحيله عنها لوفاة شاه أرمن) في هذه السنة حصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب الموصل مرة ثانية وكان مسيره من دمشق في ذي القعدة من السنة الماضية فوصل إلى حلب وأقام بها إلى أن خرجت السنة وصار منها فعبير إلى أرض الجزيرة فلما وصل حران قبض على مظفر الدين كوكبرى ابن زين الدين الذي كان سبب ملكة الديار الجزرية وسبب قبضه عليه أن مظفر الدين كان يرأس صلاح الدين كل وقت ويشير عليه بقصد الموصل ويحسن له ذلك ويقوى طمعه حتى إنه بذل له إذا سار إليها خمسين ألف دينار فلما وصل صلاح الدين إلى حران لم يف له بما بذل من المال وأنكر ذلك فقبض عليه ووكل به ثم أطلقه وأعاد إليه مدينتي حران والرها وكان قد أخذها منه وإنما أطلقه لأنه خاف انحراف

الناس عنه بالبلاد الجزرية لأهم كلهم علموا بما اعتمده مظفر الدين معه من تمليك البلاد فأطلقه وسار صلاح الدين عن حران في ربيع الأول فحضر عنده عساكر الحصن ودارا ومعز الدين سنجر شاه صاحب الجزيرة وهو ابن أخى عز الدين صاحب الموصل وكان قد فارق طاعة عمه بعد قبض مجاهد الدين وسار مع صلاح الدين إلى الموصل فلما وصلوا إلى مدينة بلد سير أتاك عز الدين والدته إلى صلاح الدين ومعها ابنة عمه نور الدين محمود بن زنكي وغيرهما من النساء وجماعة من أعيان الدولة يطلبون منه المصالحة وبذلوا له الموافقة والانجاء بالعساكر ليعود عنهم وإنما أرسلهن لأنه وكل من عنده ظنوا أنهم إذا طلبن منه الشام أجابن إلى ذلك لاسيما ومعهم ابنة مخدومه وولي نعمته نور الدين ولما وصلن إليه أنزلن وأحضر أصحابه واستشارهم فيما يفعله ويقولون فإشارا أكثرهم بأجابتهن إلى ما طلبن منه؛ وقال له الفقيه عيسى وعلى بن أحمد المشطوب؛ وهما من بلد الهكارية من أعمال الموصل، مثل الموصل لا يترك لامرأة؛ فإن عز الدين ما أرسلهن إلا وقد عجز عن حفظ البلد ووافق ذلك هواه فأعادهن خائبات واعتذر بأعذار غير مقبولة ولم يكن إرسالهن عن ضعف ووهن وإنما أرسلهن طلبا لدفع الشر بالتي هي أحسن فلما عدن رحل صلاح الدين إلى الموصل وهو كالمتيقن أنه يملك البلد وكان الأمر بخلاف ذلك فلما قارب البلد نزل على فرسخين منه وامتد عسكره في تلك الصحراء بنواحي الحلة المراقية وكان يجري بين العسكر مناوشات بظاهر الباب العهادي وكنت إذ ذاك بالموصل وبذل العامة نفوسهم غيظا وحنقا لرده النساء فرأى صلاح الدين مالم يكن يحسبه فندم على رده النساء ندامة الكسبي حيث فاته الذكر وملك البلد وعاد على الذين أشاروا بردهن باللوم والنوبيخ وجاءته كتب القاضي الفاضل وغيره ممن ليس له هوى في الموصل يفبحون فعله وينكرونه وأنا، وهو على الموصل زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب إربل فأنزله ومعه أخوه مظفر كوكبرى وغيرهما من الأمراء بالجانب الشرقي من الموصل وسير من المنزلة على بن أحمد المشطوب الهكاري إلى قلعة الجزيرة من بلد الهكارية فحصرها واجتمع عليه من الأكراد والهكارية كثير وبقى هناك إلى أن رحل صلاح الدين عن الموصل وكان عامة الموصل يعبرون دجلة فيقاتلون من الجانب الشرقي من العسكر ويعودون ولما كان صلاح الدين يحاصر الموصل بلغ أتاك عز الدين صاحبها أن نائبه بالقلعة يكتبه فتمعه من الصعود إلى القلعة وعاد يقتدى برأى مجاهد الدين وكان قد أخرجه كما ذكرناه ويصدر عن رأيه وضبط الأمور وأصلح ما كان فسد من الأحوال حتى آل الأمر إلى الصلح على ما ذكره إن شاء الله. وحضر عند صلاح الدين إنسان بغدادى أقام بالموصل ثم خرج إلى صلاح الدين فأشار عليه بقطع دجلة عن الموصل إلى ناحية نينوى وقال إن دجلة إذا نقلت عن الموصل عطش أهلها فلكناها بغير قتال فظن صلاح الدين أن قوله صدق فعزم على ذلك حتى علم أنه لا يمكن قطعه بالسكبية فإن المدة تطول والتعب يكثر ولا فائدة وراه وقبحه عنده أصحابه فأعرض عنه وأقام بمكاه من أول ربيع الآخر إلى أن قارب آخره ثم رحل عنها إلى ميفارقين وكان سبب ذلك أن شاه أرمن صاحب خلاط، توفي بها تاسع ربيع الآخر فوصل الخبر بوفاة في العشرين منه فعزم على الرحيل إليها وتملكها حيث إن شاه أرمن لم يخلف ولدا ولا أحدا من أهل بيته يملك بلاده بعده وإنما قد استولى عليها مملوك له اسمه بكتمر ولقبه سيف الدين فاستشار صلاح الدين أمراءه ووزراءه فاختلوا فأما من هواه بالموصل فيشير بالمقام وملازمة الحصار لها وأما من يكره أذى البيت الأتابكي فإنه أشار بالرحيل وقال إن ولاية خلاط أكبر وأعظم وهي سائبة لاحفاظ لها وهذه لها سلطان

يحفظها ويذب عنها وإذا ملكنا تلك سهل أمر هذه وغيرها فتردد في أمره فاتفق أنه جاءه كتب جماعة من أعيان خلاط من أهلها وأمرائها يستدعونه لیسلموا اليه البلد فسار عن الموصل وكانت مكاتبة من كاتبه خديعة ومكرا فإن شمس الدين البهلوان بن ايلدكز صاحب أذربيجان وهمذان وتلك المملكة قد تصدم ليأخذ البلاد منهم وكان قبل ذلك قد زوج شاه أرمن على كبر سنه ببناته ليجعل ذلك طريقا إلى ملك خلاط وأعمالها فلما بلغهم مسيره اليهم كاتبوا صلاح الدين يستدعونه اليهم لیسلموا البلد اليه ليدفعوا به البهلوان ويدفعوه بالبهلوان وتبقى البلد بأيديهم فسار صلاح الدين وسير في مقدمته ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ومظفر الدين بن زين الدين وغيرهما فساروا إلى خلاط ونزلوا بطوانة بالقرب من خلاط وسار صلاح الدين إلى ميا فارقين وأما البهلوان فإنه سار إلى خلاط ونزل قريبا منها وترددت رسل أهل خلاط بينهم وبينه وبين صلاح الدين ثم انهم أصلحوا أمرهم مع البهلوان وصاروا من حزبه وخطبوا له .

(ذكر وفاة نور الدين صاحب الحصن) في هذه السنة توفي نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن وآمد لما كان صلاح الدين على الموصل وخلف ابنين فلك الأكبر منهما واسمه سقمان ولقبه قطب الدين وتولى تدبير الأمور وزيره القوام بن سباق الأسعردى وكان عماد الدين بن قرا أرسلان قد سيره أخوه نور الدين في عسكرة إلى صلاح الدين وهو يحاضر الموصل وهو معه فلما بلغه خبر وفاة أخيه سار لملك البلاد بعده لصغر أولاده فتعذر عليه ذلك فسار إلى خرت برت فملكها وهي بيد أولاده إلى سنة عشرين وستائة ولما حضر صلاح الدين ميا فارقين حضر عنده ولد نور الدين فأقره على ملك أبيه ومن جملة آمد وكانوا خافوا أن يأخذها منهم فلم يفعل وردم إلى بلادهم وشرط عليهم أن يراجعوه فيما يفعلونه ويصدرون عن أمره ونهيه ورتب معه أميرا لقبه صلاح الدين من أصحاب أبيه .

(ذكر ملك صلاح الدين ميا فارقين) لما سار صلاح الدين إلى خلاط جعل طريقه على ميا فارقين مطمع ملكها حيث كان صاحبه قطب الدين صاحب ماردین قد توفي كاذرنا وملك بعده ابنه وهو طفل وكان حكمها إلى شاه أرمن وعسكره فيها فلما توفي طمع في أخذها فلما نازلها رآها مشحونة بالرجال وبها زوجة قطب الدين المتوفى ومعها بنات لها منه وهي أخت نور الدين محمد صاحب الحصن فأقام صلاح الدين عليها يحصرها من أول جمادى الأولى وكان المقدم على أجنادها أمير اسمه برنقش ولقبه أسد الدين وكان شجاعا شهما يحفظ البلد فأحسن اليه واشتد القتال عليه ونصب المنجنيقات والعرادات فلم يصل صلاح الدين إلى ما يريد منها فلما رأى ذلك عدل من القوة والحرب إلى إهمال الحيلة فراسل امرأة قطب الدين المقيمة بالبلد يقول لها إن أسد الدين برنقش قد مال الينا في تسليم البلد ونحن نرعى حق أخيك نور الدين فيك بعد وفاته ونريد أن يكون لك في هذا الأمر نصيب وأما أزواج بناتك لأولادى وتكون ميا فارقين وغيرها لك وبمحكك ووضع من أرسل إلى الأسد يعرفه أن الخاتون قد مالت للمقاربة والانقياد إلى السلطان وأن من بخلاط قد كاتبوه لیسلموا اليه خلف نفسك واتفق أن رسولا وصله من خلاط يبذلون له الطاعة وقالوا له من الاستدعاء اليهم ما كانوا يقولونه فأمر صلاح الدين الرسول فدخل إلى ميا فارقين وقال للأسد أنت ممن تقا تل وأما قد جئت في تسليم خلاط إلى صلاح الدين فبسط في يده وصنعت قوته وأرسل يقترح أقطاعا ومالا فأجيب إلى ذلك وسلم البلد صلح جمادى الأولى وعقد النكاح لبعض أولاده على بعض بنات خاتون وأقر بيدها طعة متاخ لتكون فيها هي وبناتها .

(٢٢ - الكامل - ٩)

(ذكر عود صلاح الدين إلى بلد الموصل والصلح بينه وبين أنابك عز الدين) لما فرغ صلاح الدين من أمر ميافارقين وأحكم قواعدها وقرر أقطاعاتها وولاياتها أجمع على العود إلى الموصل فسار نحوها وجعل طريقه على نصيبين فوصل إلى كفر زمار والزمان شتاء فنزلها في عساكره وهزم على المقام بها وإقطاع جميع بلاد الموصل وأخذ غلاتها ودخلها وإضعاف الموصل بذلك إذ علم أنه لا يمكنه التغلب عليها وكان نزوله في شعبان وأقام بها شعبان ورمضان وترددت الرسل بينه وبين عز الدين صاحب الموصل وصار مجاهد الدين يرسل ويتقرب وكان قوله مقبولا عند سائر الملوك لما علموا من صحته فبينما الرسل تتردد في الصلح إذ مرض صلاح الدين وسار من كفر زمار وعاد إلى حران فلحقه الرسل بالإجابة إلى ما طلب فتقرر الصلح وحلف على ذلك وكانت القاعدة أن يسلم إليه عز الدين شهرزور وأعمالها وولاية القرابلي وجميع ما وراء الزاب من أعمال وأن يخطب له على منابر بلاده ويضرب اسمه على السكة فلما حلف أرسل رسله خلف عز الدين له وتسلم البلاد التي استقرت القاعدة على تسليمها ووصل صلاح الدين إلى حران فأقام بها مريضا وأمنت الدنيا وسكنت الدهماء وانحسرت مادة الفتن وكان ذلك بتوصل مجاهد الدين قايمار رحمه الله وأما صلاح الدين فإنه طال مرضه بمران وكان عنده من أهله أخوه الملك العادل وله حينئذ حلب وولده الملك العزيز عثمان واشتد مرضه حتى أيسوا من عاقبته خلف الناس لأولاده وجعل لكل منهم شياً من البلاد معلوما وجعل أخاه العادل وصياً على الجميع ثم إنه هوفى وعاد إلى دمشق في المحرم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ولما كان مريضا بمران كان عنده ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه وله من الإقطاع حمص والرحبة فسار من عنده إلى حمص فاجتاز بحلب وأحضر جماعة من الدمشقيين وواعدهم على تسليم البلد إليه إذا مات صلاح الدين وأقام بحمص ينتظر موته ليسير إلى دمشق فيملكها فعوفى وبلغه الخبر على جهته فلم يمض غير قليل حتى مات ابن شيركوه ليلة عيد الأضحى فإنه شرب الخمر وأكثر منه فأصبح ميتا فذكروا والعهد عليهم أن صلاح الدين وضع إنسانا يقال له الناصح بن العميد وهو من دمشق فحضر عنده وناداه وسقاه سما فلما أصبحوا من الغد لم يروا الناصح فسألوا عنه فقيل إنه سار من ليلته إلى صلاح الدين فكان هذا مما قوى الظن فلما توفي أعطى أقطاعه لولده شيركوه وعمره اثنتا عشرة سنة وخلف ناصر الدين من الأموال والخيل والآلات شياً كثيراً فحضر صلاح الدين في حمص واستعرض تركته وأخذ أكثرها ولم يترك إلا ما لا خير فيه وبلغنى أن شيركوه بن ناصر الدين حضر عند صلاح الدين بعد موت أبيه بسنة فقال له إلى أين بلغت من القرآن فقال إلى قوله تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً) فعجب صلاح الدين والحاضرون من ذكائه.

(ذكر الفتنة بين التركان والأكراد بديار الجزيرة والموصل) في هذه السنة ابتدأت الفتنة بين التركان والأكراد بديار الجزيرة والموصل وديار بكر وخلاط والشام وشهرزور وأذربيجان وقتل فيها من الخلق ما لا يحصى ودامت عدة سنين وتقطعت الطرق ونهبت الأموال وأريققت الدماء وكان سببها أن امرأة من التركان تزوجت بإنسان تركي واجتازوا في طريقهم بقلعة من الزوزان الأكراد فجاء أهلها وطلبوا من التركان وليمة العرس فامتنعوا من ذلك وجرى بينهم كلام صاروا منه إلى القتال فنزل صاحب تلك القلعة فأخذ الزوج فقتله فهاجرت الفتنة وقام التركان على ساق وقتلوا جمعا كثيرا من الأكراد ونار الأكراد نقتلوا من

التركان أيضا كذلك وتفانم الشر ودام ثم إن مجاهد الدين قايماز رحمه الله جمع عنده جمعا من رؤساء الأكراد والتركان وأصلح بينهم وأعطاهم الخلع والأياب وغيرها وأخرج عليهم مالا جما فانقطعت الفتنة وكفى الله شرها وعادوا إلى ما كانوا عليه من الطمأنينة والأمان.

(ذكر ملك الملثمين والعرب أفريقية وعودها إلى الموحدين) قد ذكرنا سنة ثمانين ملك علي بن إسحاق الملثم بجاية وإرسال يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن العساكر واستعادتها فسار إلى أفريقية فلما وصل إليها اجتمع سليم ورياح ومن هناك من العرب وانضاف إليهم الترك الذين كانوا قد دخلوا من مصر مع شرف الدين قراقوش وقد تقدم ذكر وصوله إليها ودخل أيضا من أتراك مصر مملوك لتقى الدين ابن أخي صلاح الدين اسمه بوزابه فكثير جمعهم وقويت شوكتهم فلما اجتمعوا بلغت عدتهم مبلغا كثيرا وكلهم كاره لدولة الموحدين واتبعوا جميعهم علي بن إسحاق الملثم لأنه من بيت المملكة والرياسة القديمة وانقادوا إليه ولقبوه بأمير المسلمين وقصدوا بلاد أفريقية فلكوها جميعها شرقا وغربا إلا مدينتي تونس والمهدية فإن الموحدين أقاموا بها وحفظوها على خوف وضيق وشدة وانضاف إلى المفسد الملثم كل مفسد في تلك الأرض ومن يريد الفتنة والنهب والفساد والشر فخرّبوا البلاد والحصون والقري وهتكوا الحرم وقطعوا الأشجار وكان الوالي على أفريقية حينئذ عبد الواحد بن عبد الله الهنتاتي وهو بمدينة تونس فأرسل إلى ملك المغرب يعقوب وهو بمراكش يعلمه الحال وقصد الملثم جزيرة بائرا وهي بقرب تونس تشتمل على قرى كثيرة فنازلها وأحاط بها فطلب أهلها منه الأمان فأمنهم فلما دخلها العسكر نهبوا جميع ما فيها من الأموال والدواب والغلات وسلبوا الناس حتى ثيابهم وامتدت الأيدي إلى النساء والصبيان وتركوهم هلكتي فقصدوا مدينة تونس فأما الأقوياء فكانوا يخدمون ويمملون ما يقوم بقوتهم وأما الضعفاء فكانوا يستهطرون ويسألون الناس ودخل عليهم فصل الشتاء فأهلكهم البرد ووقع فيهم الوباء فأحصى الموتى منهم فكانوا اثني عشر ألفا هذا من وضع واحد فالظان بالباقي ولما استولى الملثم على أفريقية قطع خطبة أولاد عبد المؤمن وخطب للإمام الناصر لدين الله الخليفة العباسي وأرسل إليه يطلب الخلع والأعلام السود وقصد في سنة اثنتين وثمانين مدينة قفصة لحصرها فأخرج أهلها الموحدين من عساكر ولد عبد المؤمن وسلبوها إلى الملثم فرتب فيها جندا من الملثمين والأتراك وحصنها بالرجال مع حصاتها في البناء وأما يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فإنه لما وصله الخبر اختار من عساكره عشرين ألف فارس من الموحدين وقصد قلة العسكر لقلة القوت في البلاد ولما جرى فيها من التخريب والأذى وسار في صفر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة فوصل إلى مدينة تونس وأرسل ستة آلاف فارس مع ابن أخيه فساروا إلى علي بن إسحاق الملثم ليقاتلوه وكان بقفصة فوافوه وكان مع الموحدين جماعة من الأتراك فغامروا عليهم فانهزم الموحدون وقتل جماعة من مقدميهم وكان ذلك في ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين فلما بلغ يعقوب الخبر أقام بمدينة تونس إلى نصف رجب من السنة ثم خرج فيمن معه من العساكر يطلب الملثم والأتراك فوصل إليهم فالتقوا بالقرب من مدينة قابس واقتتلوا فانهزم الملثم ومن معه فأكثر الموحدون القتل حتى كادوا يفتنونهم فلم ينج منهم إلا القليل فقصدوا البر ورجع يعقوب من يومه إلى قابس ففتحها وأخذ منها أهل قراقوش وأولاده وحملهم إلى مراكش وتوجه إلى مدينة قفصة لحصرها ثلاثة أشهر وقطع أشجارها وخرب ما حولها فأرسل إليه الترك الذين فيها يطلبون الأمان لأنفسهم ولأهل البلد فأجابهم إلى ذلك وخرج

الاتراك منها سالمين وسير الاتراك إلى الثغور لما رأى من شجاعتهم ونكايتهم في العدو وتسلم يعقوب البلد وقتل من فيه من الماشمين وهدم أسواره وترك المدينة مثل قرية وظهر ما أنذر به المهدي بن تومرت فإنه قال إنها تخرب أسوارها وتقطع أشجارها وقد تقدم ذكر ذلك فلما فرغ يعقوب من أمر قمصة واستقامت أفريقية عاد إلى مراکش وكان وصوله إليها سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة فارق الرضى أبو الخير اسمعيل القزويني الفقيه الشافعي بغداد وكان مدرس النظامية بها وعاد إلى قزوين ودرس فيها بعده الشيخ أبو طالب المبارك صاحب ابن الخل وكان من العلماء الصالحين . وفيها كان بين أهل الكرخ ببغداد وبين أهل باب البصرة فتنة عظيمة جرح فيها كثير منهم وقتل ثم أصلح النقيب الظاهر بينهم . وفيها توفي الفقيه مذهب الدين عبد الله بن أسعد المرصلي وكان عالماً بمذهب الشافعي وله نظم ونثر أجاد فيه وكان من محاسن الدنيا وكانت وفاته بمصر

(ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة)

(ذكر نقل العادل من حلب والملك العزيز إلى مصر وإخراج الأفضل من مصر إلى دمشق وإقطاعه إياها) في هذه السنة أخرج صلاح الدين ولده الأفضل عليّ من مصر إلى دمشق وأقطعها له وأخذ حلب من أخيه

(١) وفيها توفي الحافظ الكبير أبو موسى المدني محمد بن عمر بن محمد الأصهباني الحافظ الموسوي المدني ، أحد حفاظ الدنيا الرحالين الجوالين له مصنفات عديدة ، وشرح أحاديث كثيرة رحمه الله .
وفيها توفي السهيلي أبو القاسم أبو زيد عبدالرحمن بن الخطيب أبي محمد عبدالله بن الخطيب أبي عمر أحمد بن أبي الحسن أصبغ بن حسين بن سعدون بن رضوان بن فتوح - هو الداخل إلى الأندلس - الخثعمي السهيلي ، حكى القاضي ابن خلكان أنه أملى عليه نسبة كذلك ، قال والسهيلي نسبة إلى قرية بالقرب من مالقة اسمها سهيل ، لأنه لا يرى سهيل النجم في شيء من تلك البلاد إلا منها من رأس جبل شاهق عندها ، وهي من قرى المغرب ، ولد السهيلي سنة ثمان وخمسمائة ، وقرأ القراءات واشتغل وحصل حتى برع وساد أهل زمانه بقوة القريحة وجودة الذهن وحسن التصنيف ، وذلك من فضل الله تعالى ورحمته ، وكان ضريراً مع ذلك ، له (الروض الأنف) يذكر فيه نكتاً حسنة على السيرة لم يسبق إلى شيء منها أو إلى أكثرها ، وله كتاب (الأعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام) وكتاب (نتائج الفكر) ومسألة في الفرائض بديعة ، ومسألة في سرّ كون الدجال أعور ، وأشياء فريدة كثيرة بديعة مفيدة ، وله أشعار حسنة ، وكان عفيفاً فقيراً ، وقد حصل له مال كثير في آخر عمره من صاحب مراکش ، مات يوم الخميس السادس والعشرين من شعبان من هذه السنة ، وله قصيدة كان يدعو الله بها ويرتجى الإجابة فيها وهي :

يامن يرى مافي الضمير ويسمع • أنت المصد لكل ما يتوقع
يامن يرجى للشدائد كلها • يامن إليه المشتكى والمفزع
يامن خزائن رزقه في قول كن • امنن فان الخير عندك أجمع
مالي سوى فقري إليك وسيلة • فبالافتقار إليك فقري أدفع
مالي سوى قرعى لبابك حيلة • فلتن رددت فأى باب أقرع ؟
ومن الذي أرجو وأهتف باسمه • إن كان فضلك عن فقيرك يمنع ؟
حاشا لمجدك أن تقنط عاصيا • الفضل أجزل والمواهب أوسع

العادل وسيره مع ولده العزيز عثمان إلى مصر وجعله نائبا عنه واستدعى تقي الدين منها وسبب ذلك أنه كان قد استناب تقي الدين بمصر كما ذكرناه وجعل معه ولده الأكبر الأفاضل على فأرسل تقي الدين يشكو من الأفاضل ويذكر أنه قد عجز عن جباية الخراج معه لأن كان حليما كريما إذا أراد تقي الدين معاينة أحد منعه فأحضر ولده الأفاضل؛ وقال لتقي الدين لا تحتج في الخراج وغيره بحجة وتغير عايه بذلك وظن أنه يريد إخراج ولده الأفاضل لينفرد بمصر حتى يملكها إذا مات صلاح الدين فلما قوى هذا الخاطر عنده أحضر أخاه العادل من حلب وسيره إلى مصر ومعه ولده العزيز عثمان واستدعى تقي الدين إلى الشام فامتنع من الحضور وجمع الأجناد والعساكر ليسير إلى المغرب إلى مملوكة قراقوش وكان قد استولى على جبال نفوسة وورقة وغيرها وقد كتب إليه يرغب في تلك البلاد فتجهز للسفر إليه واستصحب معه أنجاد العسكر وأكثر منهم فلما سمع ذلك صلاح الدين ساءه وعلم أنه إن أرسل إليه يمنعه لم يجبه فأرسل إليه يقول له أريد أن تحضر عندي لأودعك وأوصيك بما تفعله فلما حضر عنده منعه وزاد في إقطاعه فصار إقطاعه حماة ومنبج والمعرة وكفر طاب وميافارقين وجبل جور بجميع أعمالها وكان تقي الدين قد سير في مقدمته مملوكة بوزابة فاتصل بقراقوش وكان منهم ما ذكرناه سنة إحدى وثمانين وخمسمائة وقد بلغني من خير بأحوال صلاح الدين أنه إنما حمله على أخذ حلب من العادل وإعادة تقي الدين إلى الشام أن صلاح الدين لما مرض بحران على ما ذكرناه أرجف بمصر أنه قد مات فجري من تقي الدين حركات من يريد أن يستبدل بالملك فلما عوفي صلاح الدين بلغه ذلك فأرسل الفقيه عيسى الهكاري وكان كبير القدر عنده مطاعا في الجند إلى مصر وأمره بإخراج تقي الدين والمقام بمصر فسار مجدا فلم يشعر تقي الدين إلا وقد دخل الفقيه عيسى إلى داره بالقاهرة وأرسل إليه يأمره الخروج منها فطلب أن يمهل إلى أن يتجهز فلم يفعل وقال تقيم خارج المدينة وتجهز فخرج وأظهر أنه يريد الدخول إلى الغرب فقال له اذهب حيث شئت فلما سمع صلاح الدين الخبر أرسل إليه يطالبه فسار إلى الشام فأحسن إليه ولم يظهر له شيئا مما كان لأنه كان حليما كريما صبورا رحمه الله وأما أخذ حلب من العادل فإن السبب فيه أنه كان من جملة جندها أمير كبير اسمه سليمان بن جندر بينه وبين صلاح الدين صحبة قديمة قبل الملك وكان صلاح الدين يعتمد عليه وكان عاقلا ذامرا ودهاءا فاتفق أن الملك العادل لما كان بحلب لم يفعل معه ما كان يظنه وقدم غيره عليه فتأثر بذلك فلما مرض صلاح الدين وعوفي سار إلى الشام فسايره يوما سليمان بن جندر فجري حديث مرضه فقال له سليمان بأي رأي كنت تظن أنك نمضي إلى الصيد فلا يخالفونك بالله ما تستحي يكون الطائر أهدى منك إلى المصلحة قال وكيف ذلك وهو يضحك قال إذا أراد الطائر أن يعمل عشا لفراخه قصد أعلى الشجرة ليحمي فراخه وأنت سللت الحصون إلى أهلك وجعلت أولادك على الأرض هذه حلب بيد أخيك وحماة بيد تقي الدين وحمص بيد ابن شيركوه وابنك العزيز مع تقي الدين بمصر يخرجهم أي وقت أراد وهذا ابنك الآخر مع أخيك في خيمة يفعل به ما أراد فقال له صدقت واكتم هذا الأمر ثم أخذ حلب من أخيه وأخرج تقي الدين من مصر ثم أعطى أخاه العادل حران والرها وميافارقين ليخرجه من الشام ومصر لتبقى لأولاده فلم ينفعه ما فعل لما أراد الله تعالى نقل الملك عن أولاده على ما ذكره .

(ذكر وفاة البهلوان وملك أخيه قزل) في هذه السنة في أولها توفي البهلوان محمد بن ايلدكز صاحب بلد الجبل والري وأصفهان وأذربيجان وأرانية وغيرها من البلاد وكان عادلا حسن السيرة عاقلا حليما ذا سياسة

حسنة للملك وكانت تلك البلاد في أيامه آمنة والربايا مطمئنة فلما مات جرى بأصفهان بين الشافعية والحنفية من الحروب والقتل والإحراق والنهب ما يجمل عن الوصف وكان قاضي البلد رأس الحنفية وابن الخجندی رأس الشافعية وكان بمدينة الري أيضا فتنة عظيمة بين السنية والشيعة وتفرق أهلها وقتل منهم وخربت المدينة وغيرها من البلاد ولما مات البهلوان ملك أخوه قزل أرسلان واسمه عثمان وكان السلطان طغرل بن أرسلان ابن طغرل بن محمد بن ملكشاه مع البهلوان والحطبة له في البلاد بالسلطنة وليس له من الأمر شيء وإنما البلاد والأمراء والأموال بحكم البهلوان فلما مات البهلوان خرج طغرل عن حكم قزل ولحق به جماعة من الأمراء والجند فاستولى على بعض البلاد وجرت بينه وبين قزل حروب نذكرها إن شاء الله تعالى .

(ذكر اختلاف الفرنج بالشام وانحياز القمص صاحب طرابلس إلى صلاح الدين) كان القمص صاحب طرابلس واسمه ريمند بن ريمند الصنجيلي قد تزوج بالقومصة صاحبة طبرية وانتقل إليها وأقام عندها بطبرية ومات ملك الفرنج بالشام وكان مجذوما وأوصى بالملك إلى ابن أخت له وكان صغيرا فكفله القمص وقام بسياسة الملك وتدييره لأنه لم يكن للفرنج ذلك الوقت أكبر منه شأنًا ولا أشجع ولا أجود رأيًا منه فطمع في الملك بسبب هذا الصغير فاتفق أن الصغير توفي فانتقل الملك إلى أمه فبطل ما كان القمص يحدث نفسه به ثم إن هذه الملكة هويت رجلا من الفرنج الذي قدموا الشام اسمه كي فتزوجته ونقلت الملك إليه وجعل التاج على رأسه وأحضرت البطرك والقسوس والرهبان والاسبتارية والدواية والبارونية وأعلنت أنها قدردت الملك إليه وأشهدتهم عليها بذلك فأطاعوه ودانوا له فعظم ذلك على القمص وسقط في يديه وطولب بحساب ماجبي من الأموال مدة ولاية الصبي فادعى أنه أنفقه عليه وزاده ذلك نفورا وجاهر بالمشاققة والمباينة وراسل صلاح الدين واتمى إليه واعتضد به وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعدوه النصر والسعي له في كل ما يريد وضمن له أنه يجعله ملكا مستقلا للفرنج قاطبة وكان عنده جماعة من فرسان القمص فأطلقهم فحل ذلك عنده أعظم محل وأظهر طاعة صلاح الدين ووافق على ما فعل جماعة من الفرنج فاختلفت كلتهم وتفرق شملهم وكان ذلك من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم واستنقاذ البيت المقدس منهم على ما ذكره إن شاء الله وسير صلاح الدين سرايا من ناحية طبرية فشنت العارات على بلاد الفرنج وخرجت سالمة غائمة فوهن الفرنج بذلك وضعفوا ونحروا المسلمون عليهم وطمعوا فيهم .

(ذكر غدر البرنس أرناط) كان البرنس أرناط صاحب الكرك من أعظم الفرنج وأجسبهم وأشدهم عداوة للمسلمين وأعظمهم ضررا عليهم فلما رأى صلاح الدين ذلك منه قصد بالحصار مرة بعد مرة وبالغارة على بلاده كرهة بعد أخرى فذل وخضع وطلب الصلح من صلاح الدين فأجاب به إلى ذلك وهادنه وتحالفوا وترددت القوافل من الشام إلى مصر ومن مصر إلى الشام فلما كان هذه السنة اجتاز به قافلة عظيمة غزيرة الأموال كثيرة الرجال ومعها جماعة سالحة من الجند فغدر اللاميين بهم وأخذهم عن آخرهم وغنم أموالهم ودرابهم وسلاحهم وأودع السجن من أسر منهم فأرسل إليه صلاح الدين يلومه ويقبح فعله وغدره ويتوعدده إن لم تطلق الأسرى والأموال فلم يجب إلى ذلك وأصر على الامتناع فنذر صلاح الدين نذرا أن يقتله إن ظفر به فكان ما ذكره إن شاء الله تعالى .

(ذكر عدة حوادث) كان المنجمون قديما وحديثا قد حكموا أن هذه السنة التاسع والعشرين من جمادى

الأخرة تجتمع الكواكب الخمسة في برج الميزان ويحدث بافترانها رياح شديدة فلم يكن لذلك صحة ولم يهب من الرياح شيء البتة حتى إن الغلال الحنطة والشعير تأخر نجازها لهدم الهواء الذي يذرى به الفلاحون فأكذب الله أحدوثة المنجمين وأخراهم . وفيها توفي عبد الله بن برى بن عبد الجبار بن برى النحوى المصرى وكان إماما في النحو رحمه الله تعالى (١) .

(ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة)

اتفق أول هذه السنة يوم السبت وهو يوم النوروز السلطاني ورابع عشر أدار سنة ألف وأربعمائة وثمان وتسعين اسكندرية وكان القمر والشمس في الحمل واتفق أول سنة العرب وأول سنة الفرس التي جددوها أخيرا وأول سنة الروم والشمس والقمر في أول البروج وهذا يبعد وقوع مثله .

(ذكر حصر صلاح الدين الكرك) في هذه السنة كتب صلاح الدين إلى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة وإربل وغيرها من بلاد الشرق وإلى مصر وسائر بلاد الشام يدعوهم إلى الجهاد ويحثهم عليه ويأمرهم بالتجهز له بغاية الإمكان ثم خرج من دمشق أواخر المحرم في عسكرها وحلقها الخاص فسار إلى رأس الماء وتلاحقت به العساكر الشامية فلما اجتمعوا جعل عليهم ولده الملك الأفضل على ليجمع إليه من يرد إليه منها وسار هو إلى بصرى جريدة وكان سبب مسيره وقصده إليها أنه أتته الأخبار أن البرنس أرناط صاحب الكرك يريد أن يقصد الحجاج ليأخذهم من طريقهم وأظهر أنه إذا فرغ من أخذ الحجاج يرجع إلى طريق العسكر المصرى يصدمهم من الوصول إلى صلاح الدين فسار إلى بصرى لينزع البرنس أرناط من طلب الحجاج ويلزم بلده خوفا عليه ؛ وكان من الحجاج جماعة من أقاربه منهم محمد بن لاجين وهو ابن أخت صلاح الدين وغيره فلما سمع أرناط بقرب صلاح الدين من بلده لم يفارقه وانقطع عما طمع فيه فوصل

(١) قال العماد الكاتب : وأجمع المنجمون على خراب العالم في شعبان ، لأن الكواكب الستة تجتمع فيه في الميزان ، فيكون طوفان الريح في سائر البلدان ، وذكر أن ناسا من الجهلة تأهبوا لذلك بحفر مغارات في الجبال ومدخلات وأسراب في الأرض خوفا من ذلك ، قال : فلما كانت تلك الليلة التي أشاروا إليها وأجمعوا عليها لم ير أيلة مثلها في سكونها وركودها وهدوئها ، وقد ذكر ذلك غير واحد من الناس في سائر أقطار الأرض ، وقد نظم الشعراء في تكذيب المنجمين في هذه الواقعة وغريبها أشعاراً كثيرة حسنة منها :

مزق التقويم والزيج فقد بان الخطأ • إنما للتقويم والزيج هباء وهو
قلت للسبعة أبرام ومنع وعطا • ومتى ينزلن في الميزان يستولى الهواء
ويثور الرمل حتى يمتلئ منه الصفا • ويمم الأرض رجف وخراب وبلى
ويصير القاع كالف وكالطود العدا • وحكمت فاني الحاكم إلا ما يشا
مأني الشرع ولا جاءت بهذا الأنبيا • فبقينم ضحكة يضحك منها العلما
حسبكم خزيا وعارا ما يقول الشعرا • ما أطمعكم في الحكم إلا الأمر
لبت إذالم يحسنوا في الدين طغاما أسا • فعلى اصطرلاب بطليموس والزيج العفا
وعليه الخزي ما جادت على الأرض السما

الحجاج سالمين فلما وصلوا وفرغ سره من جهتهم سار إلى الكرك وبث سراياه من هناك على ولاية الكرك والشوبك وغيرهما فمبوا وخربوا وأحرقوا والبرنس محصور لا يقدر على المنع عن بلده وسائر الفرنج قد لزموا طرق بلادهم خوفا من العسكر الذي مع ولده الأفاضل فتمكن من الحصر والنهب والحريق والتخريب هذا فعل صلاح الدين .

(ذكر الغارة على بلد عكا) أرسل صلاح الدين إلى ولده الأفاضل يأمره أن يرسل قطعة سالحة من الجيش إلى بلد عكا يهبونه ويخربونه فسير مظهر الدين كوكبرى بن زين الدين صاحب حران والرها وأضاف إليه قايماز النجمي ودلدرم الباقوني وهما من أكابر الأمراء وغيرهما فساروا ليلا وصبحوا صفورية أواخر صفر فخرج إليهم الفرنج في جمع من الداوية والاستبارية وغيرهما فالتقوا هناك وجرت بينهم حرب تشيب لها المارق السود ثم أنزل الله تعالى نصره على المسلمين فانهزم الفرنج وقتل منهم جماعة وأسرا الباقون وفيمن قتل مقدم الاستبارية وكان من فرسان الفرنج المشهورين وله الحكايات العظيمة في المسلمين ونهب المسلمون ماجاورهم من البلاد وغنموا وسبوا وعادوا سالمين وكان عودهم على طبرية وبها القمص فلم ينكر ذلك فكان فتحا كثيرا فإن الداوية والاستبارية هم جرة الفرنج وسيرت البشار إلى البلاد بذلك .

(ذكر عود صلاح الدين إلى عسكره ودخوله إلى الفرنج) لما أتت صلاح الدين البشارة بهزيمة الاستبارية والداوية وقتل من قتل منهم وأسروا من أسر منهم عاد عن الكرك إلى العسكر الذي مع ولده الملك الأفاضل وقد تلاحقت سائر الأمراء والعساكر واجتمع بهم وساروا جميعا وعرض العسكر فبلغت عدتهم اثني عشر ألف فارس بمن له الأقطاع والجا مكية سوى المتطوعه فعدى عسكره قلبا وجناحين وميمنة وميسرة وجاليشية وساقه وعرف كل منهم موضعه وموقفه وأمره بملازمته وسار على تعبئة فنزل بالأقحوانة بقرب طبرية وكان القمص قد انتمى إلى صلاح الدين كما ذكرنا وكتبه متصلة إليه يعده النصره ويمنيه المعاودة (وما يعدم الشيطان إلا غرورا) فلما رأى الفرنج العساكر الإسلامية وتصميم العزم على قصد بلادهم أرسلوا إلى القمص البطرك والقسوس والرهبان وكثيرا من الفرسان فأنكروا عليه انتهاء إلى صلاح الدين وقالوا له لاشك أسلمت وإلا لم تصبر على فعل المسلمين أمس بالفرنج يقتلون الداوية والاستبارية ويأسرونهم ويحتازون بهم عليك وأنت لا تسكر ذلك ولا تمتنع عنه ووافقهم على ذلك من عنده من عسكر طبرية وطرابلس وتهده البطرك أنه يجرمه ويفسخ عليه نكاح زوجته إلى غير ذلك من التهديد فلما رأى القمص شدة الأمر عليه خاف واعتذر وتنصل وناب فقبلوا عذره وغفروا زلته وطلبوا منه الموافقة على المسلمين والموازرة على حفظ بلادهم فأجابهم إلى المصالحة والانضمام إليهم والاجتماع بهم وسار معهم إلى ملك الفرنج واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم ولم تغن عنهم من الله شيئا وجمعوا فارسهم وراجلهم ثم ساروا من عكا إلى صفورية وهم يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى قد ملئت قلوبهم رعبا .

(ذكر فتح صلاح الدين طبرية) لما اجتمع الفرنج وساروا إلى صفورية جمع صلاح الدين أمراءه واستشارهم فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء وان يصفد الفرنج بشن الغارات وإخراب الولايات مرة بعد مرة فقال له بعض أمرائه الرأي عندي أننا نجوس بلادهم ونهب ونخرب ونحرق ونسبي فإن وقف أحد من عسكر الفرنج بين أيدينا لقبناه فإن الناس بالمشرق بلغنونا ويقولون ترك قتال الكفار وأقبل يريد قتال

المسلمين والرأى أن نعمل فعلا نعدر فيه ونسكف الأاسنة عنا فقال صلاح الدين الرأى عندى أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار فإن الأمور لا تجري بحكم الإنسان ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجذب بالجهاد ثم رحل من الأقحوانة اليوم الخامس من نزوله بها وهو يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر فسار حتى خلف طبرية وراء ظهره وصعد جبلها وتقدم حتى قارب الفرنج فلم يرمهم أحدا ولا فارقوا خيامهم فنزل وأمر العسكر بالنزول فلما جنه الليل جعل في مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال ونزل جريدة إلى طبرية وقتلها ونقب بعض أبراجها وأخذ المدينة عنوة في ليلة ولجأ من بها إلى القلعة التي لها فاستعوا بها وفيها صاحبها ومعها أولادها فهب المدينة وأحرقها فلما سمع الفرنج بنزول صلاح الدين إلى طبرية وملكة المدينة وأخذ ما فيها وإحراقها وإحراق ما تخلف مما لا يحمل اجتمعوا للشورة فأشار بعضهم بالتقدم إلى المسلمين وقتلهم ومنعهم عن طبرية فقال القمص إن طبرية لى ولزوجتى وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل وبقي القلعة وفيها زوجتى وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتى ومالنا بها ويعود فوالله لقد رأيت عساكر الإسلام قديما وحديثا مارأيت مثل هذا العسكر الذى مع صلاح الدين كثرة وقوة وإذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها فأتى فاقها وعاد عنها أخذناها وإن أقام بها لا يقدر على المقام بها إلا بجمع عساكره ولا يقدر على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهلهم فيضطر إلى تركها ونفك من أسرنا فقال له برنس أرناط صاحب الكرك قد أطلت في التخويف من المسلمين ولا شك أنك تريد تميل اليهم وإلا ما كنت تقول هذا وأما قولك إنهم كثيرون فإن النار لا يضرها كثرة الحطب فقال أما واحد منكم إن تقدمتم تقدمت وإن تأخرتم تأخرت وسترون ما يكون فقوى عزمهم على التقدم إلى المسلمين وقتلهم فرحلوا من معسكرهم الذى لزموه وقربوا من عساكر الإسلام فلما سمع صلاح الدين بذلك عاد عن طبرية إلى عسكره وكان قريبا منه وإنما كان قصده بمحاصرة طبرية أن يفارق الفرنج مكانهم ليتمكن من قتالهم وكان المسلمون قد نزلوا على الماء والزمان فيظ شديد الحر فوجد الفرنج العطش ولم يتمكنوا من الوصول إلى ذلك الماء من المسلمين وكانوا قد أفنوا ما هناك من ماء الصهاريج ولم يتمكنوا من الرجوع خوفا من المسلمين فبقوا على حالهم إلى الغد وهو يوم السبت وقد أخذ العطش منهم وأما المسلمون فإنهم طمعوا فيهم وكانوا من قبل يخافونهم فباتوا يحرض بعضهم بعضا وقد وجدوا ربح النصر والظفر وكلما رأوا حال الفرنج خلاف عادتهم مماركهم من الخذلان زاد طمعهم وجراتهم فأكثروا التكبير والتليل طول ليلتهم ورتب السلطان تلك الليلة الجاليشية وفرق فيهم النشاب .

(ذكر انهزام الفرنج بحطين) أصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر فركبوا وتقدموا إلى الفرنج فركب الفرنج ودنا بعضهم من بعض إلا أن الفرنج قد اشتد بهم العطش وانخذلوا فاقتلوا واشتد القتال وصبر الفريقان ورى جاليشية المسلمين من النشاب ما كان كالجراد المتشر فقتلوا من خيول الفرنج كثيرا هذا القتال بينهم والفرنج قد جمعوا نفوسهم براجلهم وهم يقاتلون سائرين نحو طبرية لعلمهم بردون الماء فلما علم صلاح الدين مقصدهم صدمهم عن مرادهم ووقف بالعسكر في وجوههم وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم ويأمرهم بما يصلحهم وينهاهم عما يضرهم والناس يأتمرون لقوله ويقفون عنده نهبه لحمل بلوك من ممالكة الصبيان حملة منكرة على صف الفرنج فقاتل قتالا عجب منه الناس ثم تكاثر الفرنج عليه فقتلوه حين قتل حمل المسلمون حملة منكرة ضعضعوا الكفار وقتلوا منهم كثيرا

(٢٣ - الكامل - ٩)

فلما رأى القمص شدة الأمر علم أنهم لا طاقة لهم بالمسلمين فانفق هو وجماعة وحملوا على من يليهم وكان المقدم من المسلمين في تلك الناحية تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين فلما رأى حملة الفرنج حملة مكروب علم أنه لا سبب إلا الوقوف في وجوههم فأمر أصحابه أن يفتحوا لهم طريقا يخرجون منه وكان بعض المتطوعة قد اتقى في تلك الأرض مارا وكان الحشيش كثيرا فاحترق وكانت الريح فحملت حر النار والدخان إليهم فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال فلما انهزم القمص سقط في أيديهم وكادوا يستسلمون ثم علموا أنهم لا ينجيهم من الموت إلا بالإقدام عليه فحملوا حملات متداركة كادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم عن موافقهم لولا لطف الله بهم إلا أن الفرنج لا يحملون حملة فيرجعون إلا وقد قتل منهم فوهنوا لذلك وهنا عظيما فأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها فارتفع من بقى من الفرنج إلى تل بناحية حطين وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم به فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات ومنعهم عما أرادوا ولم يتمكنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم لا غير وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم الذي يسمونه صليب الصليبوت ويذكرون أن فيه قطعة من الخشب التي صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك هذا والقتل والأمر يعملان في فرسانهم ورجالهم فيبقى الملك على التل في مقدار مائة وخمسين فارسا من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين فحكى لي عن الملك الأفضل ولد صلاح الدين قال كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف وهو أول مصاف شاهده فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من يازاتهم من المسلمين حتى ألحقهم بوالدي قال فنظرت إليه وقد علته كتابة واربدلونه وأمسك بلحيته وتقدم وهو يصيح كذب الشيطان قال فعاد المسلمون على الفرنج فرجعوا فصعدوا إلى التل فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي هزمناهم فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ألحقوا المسلمين بوالدي وفعل مثل ما فعل أولا وعطف المسلمون عليهم فألحقهم بالتل فصحت أنا أيضا هزمناهم فالتفت والدي إلى وقال اسكت ما هزمهم حتى تسقط تلك الخيمة قال فهو يقول لي وإذا الخيمة قد سقطت فنزل السلطان وسجد شكرا لله تعالى فسكى من فرحه وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشا وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات بماء فيه فلم يجدوا إلى الخلاص طريقا فنزلوا عن دوابهم وجاسوا على الأرض فصعد المسلمون إليهم فألقوا خيمة الملك وأسروهم عن بكرة أبيهم وفيهم الملك وأخوه والبرنس وأرباط صاحب الكرك ولم يكن في الفرنج أشد منه عداوة للمسلمين وأسروا أيضا صاحب جبيل وابن هنفري ومقدم الداوية وكان من أعظم الفرنج شأنا وأسروا أيضا جماعة من الداوية وجماعة من الإبتارية وكثر القتل والأسر فيهم فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحدا ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحدا وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل وهو سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن بمثل هذه الواقعة فلما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين في خيمته وأحضر ملك الفرنج عنده وبرنس صاحب الكرك وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهلكه العطش فسقاه ماء مثلوجا فشرب وأعطى فضله برنس صاحب الكرك فشرب فقال صلاح الدين إن هذا الملعون لم يشرب الماء يا ذئب فينال أمانى ثم كلم البرنس وقرعه بذنوبه وعدد عليه هوراته وقام إليه بنفسه فضرب رقبة وقال كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به لإحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة والثانية لما أخذ القفل غدرا فلما قتله وسحب وأخرج ارتعدت

فرائص الملك فسكن جأشه وأمنه ، وأما القمص صاحب طرابلس فإنه لما نجا من المعركة كما ذكرناه وصل إلى صور ثم قصد طرابلس ولم يلبث إلا أياما قلائل حتى مات غيظا وحنقا مما جرى على الفرنج خاصة وعلى دين النصرانية عامة .

(ذكر عود صلاح الدين إلى طبرية وملك قلعها مع المدينة) لما فرغ صلاح الدين من هزيمة الفرنج أقام بمرضه باقى يومه وأصبح يوم الأحد عاد إلى طبرية ونازلها فأرسلت صاحبها تطلب الأمان لها ولأولادها وأصحابها ومالها فأجابها إلى ذلك فخرجت بالجميع فوفى لها فسارت آمنة ثم أمر بالملك وجماعة من أعيان الأسرى فأرسلوا إلى دمشق وأمر بمن أسر من الداوية والاستتارية أن يجمعوا ليقتلهم ثم علم أن من عنده أسير لا يسمح به لما يرجو من فدائه فبذل في كل أسير من هذين الصنفين خمسين ديناراً مصرية فأحضر عنده في الحال مائتا أسير فأمر بهم فضربت أعناقهم وإنما خص هؤلاء بالقتل لأنهم أشد شوكة من جميع الفرنج فأراح الناس من شرهم وكتب إلى نائبه بدمشق ليقتل من دخل البلد منهم سواء كان له أولغيره ففعل ذلك ولقد اجتزت بموضع الوقعة بعدها بنحو سنة فرأيت الأرض دلاى من عظامهم تبين على البعد منها المجتمع بعضه على بعض ومنها المنترق هذا سوى ماجحفته السيول وأخذته السباع في تلك الآكام والوهاد .

(ذكر فتح مدينة عكا) لما فرغ صلاح الدين من طبرية سار عنها يوم الثلاثاء ووصل إلى عكا يوم الأربعاء وقد صعد أهلها على سورها يظهرون الامتناع والحفظ فدجب هو والناس من ذلك لأنهم علموا أن هسا كرم من فارس وراجل بين قتيل وأسير وأنهم لم يعلم ذلك إلا القليل إلا أنه نزل يومه وركب يوم الخميس وقد صم على الزحف إلى البلد وقتاله فبينما هو ينظر من أين يزحف ويقا تل إذ خرج كثير من أهلها يضرعون ويطلبون الأمان فأجابهم إلى ذلك وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وخيرهم بين الإقامة والظعن فاخترأوا الرحيل خوفا من المسلمين وساروا عنها متفرقين وحملوا ما أمكنهم حمله من أموالهم وتركوا الباقي دلى حاله ودخل المسلمون إليها يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى وصلوا بها الجنة في جامع كان المسلمين قديما ثم جعله الفرنج بيعة ثم جعله صلاح الدين جامعا . وهذه الجمعة أول جمعة أقيمت بالساحل الشامى بعد أن ملكه الفرنج وسلم البلد إلى والده الأفضل وأعطى جميع ما كان فيه للداوية من أقطاع وضياع وغير ذلك للفقهاء عيسى وغنم المسلمون ما بقى مما لم يطق الفرنج حمله وكان من كثرته يعجز الإحصاء عنه فرأوا فيها من الذهب والجوهر والسقلاط والبندق والشكر والسلاح وغير ذلك من أنواع الأمتعة كثيرا فأبها كانت مقصدا للنجار الفرنج والروم وغيرهم من أقصى البلاد وأدناها وكان كثير منها قد خزنه التجار وسافروا عنه لكساده فلم يكن له من ينقله ففرق صلاح الدين وابنه الأفضل ذلك جميعه على أصحابها وأكثر ذلك فعله الأفضل لأنه كان مقيما بالبلد وكانت شيمته في الكرم معروفة وأقام صلاح الدين بمكا عدة أيام لإصلاح حالها وتقرير قواعدها .

(ذكر فتح مجدل يابا) لما هزم صلاح الدين الفرنج أرسل إلى أخيه العادل بمصر يبشره بذلك ويأمره بالمسير إلى بلادالفرنج من جهة مصر بمن بقى عنده من العسكر ومحاصرة ما يابه منها فسارع إلى ذلك وسار عن مصر فنازل حصن مجدل يابا وحصره وغنم ما فيه ورد كتابه بذلك إلى صلاح الدين وكانت بشارة كبيرة .

(ذكر فتح عدة حصون) فى مدة مقام صلاح الدين بمكا تفرق عسكره إلى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعلبا والشقيف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لمكا فلكرها ونهبها وأسر وأرجاها وسبها

نساءها وأطفالها وقدموا من ذلك بما سد الفضاء وسيرتقى الدين فنزل على تبين ليقطع الميرة عنها ومن صور وسير حسام الدين عمر بن لاجين في عسكر إلى نابلس فدخلها وحصر قلعتها واستنزل من فيها بالأمان وتسلم القلعة وأقام أهل البلد به وأقرهم على أهلاكهم وأموالهم .

(ذكر فتح يافا) لما خرج العادل من مصر وفتح مجدل يابا كباد كرنا سار إلى مدينة يافا وهي على الساحل فحصرها وملكها عنوة ونهبها وأسر الرجال وسبي الحريرم وجرى على أهلها ما لم يجر على أحد من أهل تلك البلاد وكان عندي جارية من أهلها وأنا بحلب ومعها طفل عمره نحو سنة فسقط من يدها فانسلك وجهه فبكت عليه كثيرا فسكنتها وأعلتها أنه ليس بولدها ما يوجب البكاء فقالت ماله أبكي لها أبكي لما جرى علينا كان لي ستة إخوة كلهم هلكتوا جميعهم وزوج وأختان لا أعلم ما كان منهم هذا من امرأة واحدة والباقي بالنسبة ورأيت بحلب امرأة فرنجية قد جاءت مع سيدها إلى باب فطرقة سيدها فخرج صاحب البيت فكلّمهم ثم أخرج امرأة فرنجية فحين رأتها الأخرى صاحتا واعتقتا وهما يصرخان ويكيان وسقطتا إلى الأرض ثم قعدتا يتحدثان وإذا هما أختان وكان لهما عدة من الأهل ليس لهما علم بأحد منهم .

(ذكر فتح تبين وصيدا وجبيل وبيروت) فأما تبين فقد ذكرنا انفاذ صلاح الدين تقي الدين ابن أخيه إلى تبين فلما وصلها نازلها وأقام عليها فرأى حصرها لا يتم إلا بوصول عمه صلاح الدين إليه فأرسل إليه يملبه الحال ويحثه على الوصول إليه فرحل ثامن جمادى الأولى ونزل عليه حادى عشرة فحصرها وضايقها وقتلها بالزحف وهي من القلاع المنبوعة على جبل فلما ضاق عليهم الأمر واشتد الحصر أطلقوا من عندهم من أسرى المسلمين وهم يزيدون على مائة رجل فلما دخلوا العسكر أحضرهم صلاح الدين وكسام وأعطاهم نفقة وسيرهم إلى أهلهم وبقى الفرنج كذلك خمسة أيام ثم أرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم على أنفسهم فسلموها إليه ووفى لهم وسيرهم إلى ما منهم وأما صيدا فإن صلاح الدين لما فرغ من تبين رحل عنها إلى صيدا فاجتاز في طريقه بصرف فند فأخذها صفوا عفوا بغير قتال وسار عنها إلى صيدا وهي من مدن الساحل المعروفة فلما سمع صاحبها بمسيره نحوه سار عنها وتركها فارغة من مانع ومدافع فلما وصلها صلاح الدين تسلمها ساعة وصوله وكان ملكها لتسع بقين من جمادى الأولى وأما بيروت فهي من أحسن مدن الساحل وأزهرها وأطيبها فلما فتح صلاح الدين صيدا سار عنها من يومه نحو بيروت ووصل إليها من الغد فرأى أهلها قد صعّدوا على سورها وأظهروا القوة والجلد والعدد وقتلوا على سورها قتالا شديدا واغتروا بحصانة البلد وظنوا أنهم قادرون على حفظه وزحف المسلمين إليهم مرة بعد مرة فبينما الفرنج يقاتلون إذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وغلبة زائدة فأناهم من أخبرهم أن البلد قد دخله المسلمون من الناحية الأخرى نهرا وغاية فأرسلوا ينظرون ما الخبر وإذا ليس له صحت فأرادوا تسكين من به فلم يمكنهم ذلك لكثرة ما اجتمع فيه من الـواد فلما خافوا على أنفسهم من الاختلاف الواقع أرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وتسلمها في التاسع والعشرين من جمادى الأولى من السنة فكان مدة حصرها ثمانية أيام وأما جبيل فإن صاحبها كان من جملة الأسرى الذين سيروا إلى دمشق مع ملكهم فتحدث مع نائب صلاح الدين بدمشق في تسليم جديد على شرط إطلاقه فعرف صلاح الدين بذلك فأحضره مقيدا عنده تحت الاستظهار والاحتياط وكان العسكر حينئذ على بيروت فلم حصنه وأطلق أسرى المسلمين الذين به وأطلقه صلاح الدين كما شرط له وكان هذا صاحب جبيل من أعيان

الفرنج وأصحاب الرأي والمكر والشر. به يضرب المثل بينهم وكان للمسلمين منه عدو أزرق وكان إطلاقه من الأسباب الموهنة للمسلمين على ما يأتي بيانه .

(ذكر خروج المراكيش إلى صور) لما انهزم الفمص صاحب طرابلس من حطين إلى مدينة صور فأقام بها وهي أعظم بلاد الشام حصانة وأشد امتناعا على من رآها فلما رأى السلطان قد ملك تبنين وصيدا وبيروت خاف أن يقصد صلاح الدين صور وهي فارغة من يقاتل فيها ويحميها ويمنعها فلا يقوى على حفظها وتركها وسار إلى مدينة طرابلس فبقيت صور شاغرة لا مانع لها ولا عاصم من المسلمين فلو بدأ بها صلاح الدين قبل تبنين وغيرها لأخذها بغير مشقة لكنه استعظمها لخصائتها فأراد أن يفرغ باله مما يجاورها من نواحيها ليسهل أخذها فكان ذلك سبب حفظها (وكان أمر الله قدرا مقدورا) واتفق أن إنسانا من الفرنج الذين داخل البحر يقال له المراكيش لعنه الله خرج في البحر بمال كثير للزيارة والتجارة ولم يشعر بما كان من الفرنج فأرسي بعكا وقد رآه ما رأى من ترك عوائد الفرنج عند وصول المراكب من الفرح وضرب الأجراس وغير ذلك وما رأى أيضا من زى أهل البلد فوقف ولم يدر ما الخبر وكانت الريح قد ركبت فأرسل الملك الأفضل إليه بهض أصحابه في سفينة يبصر من هو ومن يريد فأتاه الفاصد فسأله المراكيش عن الأخبار لما أنكره فأخبره بكسرة الفرنج وأخذ عكا وغيرها وأعلمه أن صور بيد الفرنج وعسقلان وغيرها وحكى الأمر له على وجهه فلم يمكنه الحركة لعدم الريح فرد الرسول يطلب الأمان ليدخل البلد بما معه من متاع ومال فأجيب إلى ذلك فردده مرارا كل مرة يطلب شيئا لم يطلبه في المرة الأولى وهو يفعل ذلك انتظارا لهبوب الهواء ليسير به فينها هو في مراجعاته إذ هبت الريح فسار نحو صور وسير الملك الأفضل الشواني في طلبه فلم يدركوه فأتى صور وقد اجتمع بها من الفرنج خلق كثير لأن صلاح الدين كان كلما فتح مدينة من عكا وبيروت وغيرها بما ذكرنا أعطى أهلها الأمان فساروا كلهم إلى صور وكثرا لجمعها إلا أنهم ليس لهم رأس يجمعهم ولا مقدم يقاتل بهم وليسوا أهل حرب وهم عازمون على مراسلة صلاح الدين وتسليم البلد إليه فأنام المراكيش وهم على ذلك العزم فردم عنه وقوى نفوسهم وضمن لهم حفظ المدينة وبذل ما معه من الأموال وشرط عليهم أن تكون المدينة وأهلها له دون غيره فأجابوه إلى ذلك فأخذ أيمانهم عليه وأقام عندهم ودبر أحوالهم وكان من شياطين الإنس حسن التدبير والحفظ وله شجاعة عظيمة وشرع في تحصينها فجدد حفر خنادقها وعمل أسوارها وزاد في حصانها واتفق من بها على الحفظ والقتال دونها .

(ذكر فتح عسقلان وما يجاورها) لما ملك صلاح الدين بيروت وجبيل وغيرها كان أمر عسقلان والقدس أهم عنده لأسباب منها أنهما على طريق مصر يقطع بينهما وبين الشام وكان يختار أن تتصل الولايات له ليسهل خروج العسكر منها ودخولهم إليها ولما في فتح القدس من الذكر الجميل والصيد العظيم إلى غير ذلك من الأغراض فسار عن بيروت نحو عسقلان واجتمع بأخيه العادل ومن معه من عساكر مصر ونازلوها يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة وكان صلاح الدين قد أحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية إليه من دمشق وقال لها إن سلتما البلاد إلى فلان الأمان فأرسلنا إلى من بعسقلان من الفرنج يأمرانهم بتسليم البلد فلم يسمعوا أمرهما وردوا عليهما أقبج رد وجههما بما يسوءهما فلما رأى السلطان ذلك جد في قتال المدينة ونصب المنجنيقات عليها مرة أخرى وتقدم النقبون إلى السور فنالوا من باشورته شيئا هذا وملكهم بكرر المراسلات

إليهم بالنسليم ويشير عليهم ويعدم أنه إذا أطلق من الأسر أضرمت البلاد على المسلمين نارا واستنجد بالفرنح من البحر وأجاب الخيل والرجل من أقاصى بلاد الفرنج وأدانيتها وهم لا يجيبون إلى ما يقول ولا يسمعون ما يشير به ولما رأوا أنهم كل يوم يزدادون ضعفا ووهنا وإذا قتل منهم الرجل لا يجدون له عوضا ولا لهم نجدة يفتظرونها راسلوا صلاح الدين في تسليم البلد على شروط اقترحوها فأجابهم صلاح الدين إليها وكانوا قتلوا في الحصار أميرا كبيرا من المهرانية فخافوا عند مفارقة البلد أن عشيرته يقتلون منهم بثاره فاحتاطوا فيما اشترطوا لأنفسهم فأجيبوا إلى ذلك جميعه وسلموا المدينة ساخ جمادى الآخرة من السنة وكانت مدة الحصار أربعة عشر يوما وسيرهم صلاح الدين ونساءهم وأموالهم وأولادهم إلى بيت المقدس ووفى لهم بالأمان .

(ذكر فتح البلاد والحصون المجاورة لعسقلان) لما فتح صلاح الدين عسقلان أقام بظاهاها وبث السرايا في أطراف البلاد المجاورة لها ففتحوها الرملة والداروم وغزة ومشهد إبراهيم الخليل عليه السلام وتبنين وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وكل ما كان للداوية .

(ذكر فتح البيت المقدس) لما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان وما يجاورها من البلاد على ما تقدم وكان قد أرسل إلى مصر أخرج الأسطول الذي بها في جمع من المقاتلة ومقدمهم حسام الدين لؤي الحاجب وهو معروف بالشجاعة والشهامة ويمن النقيبة فأقاموا في البحر يقطعون الطريق على الفرنج كلها رأوا لهم مركبا غنموه وشانيا أخذوه فحين وصل الأسطول وخلا سره من تلك الناحية سار عن عسقلان إلى البيت المقدس وكان به البطرك المعظم عندهم وهو أعظم شأنا من ملائكتهم وبه أيضا باليان بن بيرزان صاحب الرملة وكانت مرتبة عندهم تقارب مرتبة الملك وبه أيضا من خلص من فرسانهم من حطين وقد جمعوا وحشدوا واجتمع أهل تلك النواحي عسقلان وغيرها فاجتمع به كثير من الخاق كلهم يرى الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون البيت المقدس ويأخذوه منهم ويرى أن بذل نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه من حفظه وحصونه تلك الأيام بما وجدوا إليه سيلا وصعدوا على سوره بحدهم وحديدتهم مجتمعين على حفظه والذب عنه بجهدهم وطاقاتهم مظهرين العزم على المناضلة دونه بحسب استطاعتهم ونصبوا المنجنيقات لينعوا من يريد الدنو منه والنزول عليه ولما قرب صلاح الدين منه تقدم أمير في جماعة عن أصحابه غير محتاط ولا حذر فلقبه جمع من الفرنج قد خرجوا من القدس ليكونوا يزكوا فقاتلوه وقاتلهم فقتلوه وقاتلوا جماعة ممن معه فأهم المسلمين قتله وفجعوا بفقده وساروا حتى نزلوا على القدس منتصف رجب فلما نزلوا عليه رأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالم وسمعوا لأهله من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتله لأنه في غاية الحصانة والامتناع فلم يجد عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال نحو باب همود أو كنيسة صهيون فانتقل إلى هذه الناحية في العشرين من رجب ونزلها ونصب تلك الليلة المنجنيقات فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات ورموا بها وقوتلوا أشد قتال رآه أحد من الناس كل واحد من الفريقين يرى ذلك دينا وحتما واجبا فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطان بل كانوا يمتنعون ولا يمتنعون ويزجرون ولا يتزجرون وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون إلى ظاهر البلد يقاتلون وبارزون ، فيقتل من الفريقين ، ومن استشهد من المسلمين الأمير عز الدين عيسى ابن مالك ، وهو من أكابر الأمراء ، وكان أبوه صاحب قلعة جعبر ، وكان يصطلي القتال بنفسه كل يوم قتل

إلى رحمة الله تعالى وكان محبوباً إلى الخاص والعام فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك وأخذ من قلوبهم
خملوا حملة رجل واحد فأزالوا الفرنج عن مواقيهم فأدخلوهم بلدهم ووصل المسلمون إلى الخندق فجأزوه
والتصقوا إلى السور فنقبوه وزحف الرماة يحمونهم والمنجنيقات توالى الرمي لتكشف الفرنج عن الأسوار
ليتمكن المسلمون من النقب فلما نقبوه حشوه بما جرت به العادة فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين وتحكم
المنجنيقات بالرمي المتدارك وتمسك النقباب من النقب وأنهم قد أشرفوا على الهلاك اجتمع مقدموهم يتشاورون
فيما يأتون ويذرون فاتفق رأيهم على طلب الأمان وتسليم البيت المقدس إلى صلاح الدين فأرسلوا جماعة
من كبارهم وأعيانهم في طلب الأمان فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من إجابتهم وقال لا أفعل بكم إلا كما
فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها، فلما رجع الرسل
خائبين محرومين أرسل باليان بن بيرزان وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في هذا الأمر وتحريره
فأجيب إلى ذلك وحضر عنده ورجب في الأمان وسأل فيه فلم يجبه إلى ذلك واستعطفه فلم يعطف عليه واسترحمه
فلم يرحمه فلما أيس من ذلك قال له أيها السلطان اعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم إلا الله تعالى
ولمّا يفترون عن القتال رجاء الأمان ظننا منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم وهم يكرهون الموت ويرغبون
في الحياة فإذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتل أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغتمون
منها ديناراً واحداً ولا درهماً ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة وإدا فرغنا من ذلك أخرجنا الصخرة والمسجد
الأقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة
ولا حيواناً إلا قتلناه ثم خرجنا إليكم كلنا قاتلنا كم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل
حتى يقتل أمثاله ونموت أعضاء أو نظير كراماً فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان
وأن لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدري عاقبة الأمر فيه عن أى شيء تنجلي ونحسب أنهم أسارى بأيدينا
فنبعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنج فاستقر أن يؤخذ
من الرجل عشرة دنانير يستوى فيه الغنى والفقير ويزن الطفل من الذكور والبنات دنانيرين وتزن المرأة خمسة
دنانير فمن أدى ذلك إلى أربعين يوماً فقد نجا ومن انقضت الأربعون يوماً عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكاً
فبذل باليان بن بيرزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار فأجيب إلى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين
من رجب وكان يوماً مشهوداً ورفعت الأعلام الإسلامية على أسواره ورتب صلاح الدين على أبواب البلد
في كل باب أمينا من الأمراء ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه أمانة واقتسم
الأمناء الأموال وتفرقت أيدي سبا ولو أدت فيه الأمانة لمأ الخزائن وعم الناس فإنه كان فيه على الضبط ستون
ألف رجل ما بين فارس وراجل سوى من يتبعهم من النساء والولدان ولا يعجب السامع من ذلك فإن البلد
كبير واجتمع إليه من تلك النواحي من عسقلان وغيرها والداروم والرملة وغزة وغيرها من القرى بحيث
امتلات الطرق والكنايس وكان الإنسان لا يقدر أن يمشى ومن الدليل على كثرة الخلق أن أكثرهم وزن
ما استقر من القطيعة وأطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر ألف رجل وزن عنهم ثلاثين ألف دينار وبقي
بعد هذا جميعه من لم يكن معه ما يعطى وأخذ أسيراته عشرين ألف آدمى ما بين رجل وامرأة وصبي هذا بالضبط
واليقين ثم إن جماعة من الأمراء ادعى كل واحد منهم أن جماعة من رعيه إقطاعه مقيمون بالبيت المقدس

فيطلقهم ويأخذهم قطيعتهم وكان جماعة من الأمراء يلبسون الفرنج زي الجند المسلمين ويخرجونهم ويأخذون منهم قطيعة قرروها واستوهب جماعة من صلاح الدين عددا من الفرنج فوهمهم لهم فأخذوا قطيعتهم وبالجملة فلم يصل إلى خزائنه إلا القليل وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم وقد ترهبت وأقامت به ومعها من الحشم والعبيد والجواري خاق كثير ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم فطلبت الأمان لنفسها ومن معها فأمنها وسيرها وكذلك أيضا أطلق ملكة القدس التي كان زوجها الذي أسره صلاح الدين قد ملك الفرنج بسببها ونيابة عنها كان يقوم بالملك وأطلق مالها وحشمها واستأذنته في المصير إلى زوجها وكان حينئذ محبوسا بقلعة نابلس فأذن لها فأتته وأقامت عنده وأتته أيضا امرأة للبرنس أرناط صاحب الكرك وهو الذي قتله صلاح الدين بيده يوم المصافى بحطين فشفت في ولد لها مأسور فقال لها صلاح الدين إن سلبت الكرك أطلقتك فسارت إلى الكرك فلم يسمع منها الفرنج ولم يلموه فلم يطلق ولدها ولكنه أطلق مالها ومن تبعها وخرج البطر ك الكبير الذي للفرنج ومعهم من أموال البيع منها الصخرة والأقصى وقمامة وغيرها مالا يعلمه إلا الله تعالى وكان له من المال مثل ذلك فلم يعرض له صلاح الدين فقبل له ليأخذ مامعه يقوى به المسلمين فقال لا أغدره ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير وسير الجميع ومعهم من محبيهم إلى مدينة صور وكان هلى رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهب فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تساق جماعة منهم إلى أعلى القبة ليقلعوا الصليب حين صعدوا صاح الناس كلهم صوتا واحدا من البلد ومن ظاهره المسلمون والفرنج أما المسلمون فكبروا فرحا وأما الفرنج فصاحوا تفجعا وتوجعا فسمع الناس صيحة كادت الأرض أن تميد بهم لعظمتها وشدتها فلما ملك البلد وفارقه الكفار أمر صلاح الدين إعادة الأبنية إلى حالها القديم فإن الداوية بنوا غربي الأقصى أبنية ليسكنوها وعملوا فيها ما يحتاجون إليه من هري ومستراح وغير ذلك وأدخلوا بعض الأقصى في أبنيتهم فأعيد إلى الأول وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقدار والأنجاس ففعل ذلك أجمع ولما كان الجمعة الأخرى رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة ومعهم صلاح الدين وصلى في قبة الصخرة وكان الخطيب والإمام محي الدين بن الزكي قاضي دمشق^(١). ثم رتب فيه صلاح الدين خطيبا وإماما برسم الصلوات الخمس وأمر أن يعمل له منبر فقبل له إن

(١) ولما أذن المؤذنون للصلاة قبل الزوال كادت القلوب تطير من الفرح في ذلك الحال، ولم يكن عين خطيب فبرز من السلطان المرسوم الصلاحي وهو في قبة الصخرة أن يكون القاضي محي الدين بن الزكي اليوم خطيبا، فلبس الخامة السوداء وخطب للناس خطبة سنوية فصيحة بليغة، ذكر فيها شرف البيت المقدس، وما ورد فيه من الفضائل والترغيبات، وما فيه من الدلائل والامارات. وقد أورد الشيخ أبو شامة الخطبة في الروضتين بطولها وكان أول ما قال (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين).

ثم أورد تميميدات القرآن كلها، ثم قال: الحمد لله معز الإسلام بنصره، وهذل الشرك بقهره، ومصرف الامور بأمره، ومزيد النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدر الايام دولا بعدله، وجهل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاض على العباد من طله وهطله، الذي أظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خبايقته فلا ينازع، والأمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحده على إظهاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه ونصرة أنصاره، ومطهر بيت المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر أجهاره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحمد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد،

نور الدين محموداً كان قد عمل بحلب منبراً أمر الصانع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه وقال هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس فعمله النجارون في عدة سنين لم يعمل في الإسلام مثله فأمر بإحضاره فحمل من حلب ونصب بالقدس وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده رحمه الله ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة تقدم بعمارة المسجد الأقصى واستنفاد الوسع في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه فأحضروا من الرخام الذي لا يوجد ومن الفص المذهب القسطنطيني وغير ذلك مما يحتاجون إليه قد ادخر على طول السنين فشرعوا في عمارته ومحو ما كان في تلك الأبنية من الصور وكان الفرنج، فرشوا الرخام فوق الصخرة، وغيبوها فأمر بكشفها، وكان سبب تغطيتها بالفرش أن القيسيين باعوا كثيراً منها للفرنج، الواردين إليهم من داخل البحر للزيارة، يشترونه بوزنه ذهباً رجاء بركتها، وكان أحدهم إذا دخل إلى بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة ويجعل في مذبحها تخاف بعض ملوكهم أن تفتى فأمر بها بفرش فوقها حفظاً لها فلما كشفت نقل إليها صلاح الدين المصاحف الحسنة والربعات الجيدة ورتب القراء وأدر عليهم الوظائف الكثيرة فعاد الإسلام هناك غصناً طرياً وهذه المكرمة من فتح البيت المقدس لم يفعلها بعد

— ولم يكن له كفواً أحد، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه، وأرضى به ربه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رافع الشكر وداحض الشرك، ورافض الإفك، الذي أسرى به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى، وعرج به منه إلى السموات العلى، إلى سدة المتهى عندها جنة المأوى، ما زاغ البصر وما طغى، صلى الله عليه وسلم وعلى خليفته الصديق السابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصليان، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النورين جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب منزلزل الشرك، ومكسر الأصنام، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

ثم ذكر الموعظة وهي مشتملة على تغييط الحاضرين بما يسره الله على أيديهم من فتح بيت المقدس، الذي من شأنه كذا وكذا، فذكر فضائله وآثره، وأنه أول القبليين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بهد المسجدين إلا إليه، ولا تعقد الخناصر بعد المواطنين إلا عليه، وإليه أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام، وصلى فيه بالأنبياء والرسل الكرام، ومنه كان المعراج إلى السموات، ثم عاد إليه ثم سار منه إلى المسجد الحرام على البراق، وهو أرض المحشر والمنشر يوم التلاق، وهو مقر الأنبياء ومقصد الأولياء، وقد أسس على التقوى من أول يوم.

ويقال إن أول من أسسه يعقوب عليه السلام بعد أن بنى الخليل المسجد الحرام بأربعين سنة، كما جاء في الصحيحين، ثم جدد بناءه سليمان بن داود عليهما السلام، ثبت فيه الحديث بالمسند والسنن، وصحيح ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وغيرهم، وسأل سليمان عليه السلام الله عند فراغه منه خلافاً ثلاثاً: حكماً يصادف حكمه؛ وملكاً لا يفتنى لأحد من بعده، وأنه لا يأتي أحد هذا المسجد لا ينهزه إلا الصلاة فيه إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. ثم ذكر تمام الخطبتين، ثم دعا للخليفة الناصر العباسي، ثم دعا للسلطان الناصر صلاح الدين. وبعد الصلاة جلس الشيخ زين الدين أبو الحسن بن علي نجا المدمري على كرسي الوعظ بإذن السلطان، فوعظ الناس، واستمر القاضي ابن الزكي يخطب بالناس في أيام الجمع أربع جمعات، ثم قرر السلطان للقدس خطيباً مستقراً، وأرسل إلى حلب فاستحضر المنبر الذي كان الملك العادل نور الدين الشهيد قد استعمله لبيت المقدس، وقد كان يؤمل أن يكون فتحه على يديه، فما كان إلا على يدي بعض أتباعه صلاح الدين بعد وفاته.

عمر بن الخطاب رضى الله عنه غير صلاح الدين رحمه الله وكفاه ذلك نفرا وشرفا وأما الفرنج من أهله فإنهم أقاموا وشرعوا في بيع مالا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وأموالهم ومالا يطبقون حمله وباعوا ذلك بأرخص الثمن فاشتراه التجار من أهل العسكر واشتراه النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الفرنج فإنهم طلبوا من صلاح الدين أن يمكنهم من المقام في مساكنهم ويأخذ منهم الجزية فأجابهم إلى ذلك فاستقروا فاشتروا حينئذ من أموال الفرنج وترك الفرنج أيضا أشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها من الأسيرة والصناديق والبنيات وغير ذلك وتركوا أيضا من الرخام الذى لا يوجد مثله من الأساطين والألواح والفص وغيره شيئا كثيرا ثم ساروا

(ذكر رحيل صلاح الدين إلى صور ومحاصرتها) لما فتح صلاح الدين البيت المقدس أقام بظاهره إلى الخامس والعشرين من شعبان يرتب أمور البلد وأحواله وتقدم بعمل الربط والمدارس فجعل دار الاستبارة مدرسة للشافعية وهى فى غاية ما يكون من الحسن فلما فرغ من أمر البلد سار إلى مدينة صور وكانت قد اجتمع فيها من الفرنج عالم كثير وقد صار المراكيش صاحبها والحاكم فيها وقد ساسهم أحسن سياسة وبالغ فى تحصين البلد ووصل صلاح الدين إلى عكا وأقام بها أياما فلما سمع المراكيش بوصوله إليها جد فى عمل سور صور وخنادقها وتعميقها ووصلها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر فصارت المدينة كالجزيرة فى وسط الماء لا يمكن الوصول إليها ولا الدنو منها ثم رحل صلاح الدين من عكا فوصل إلى صور تاسع شهر رمضان فنزل على نهر قريب البلد بحيث يراه حتى اجتمع الناس وتلاحقوا وسار فى الثانى والعشرين من رمضان فنزل على تل يقارب سور البلد بحيث يرى القتال وقسم القتال على العسكر كل جمع منهم له وقت معلوم يقاتلون منه بحيث أن يتصل القتال على أهل البلد على أن الموضع الذى يقاتلون منه قريب المسافة يكفيه الجماعة اليسيرة من أهل البلد لحفظه وعليه الخنادق التى قد وصلت من البحر إلى البحر فلا يكاد الطير يطير عليها فإن المدينة كالكف فى البحر والساعد متصل بالبر والبحر من جانبي الساعد والقتال إنما هو فى الساعد فزحف المسلمون مرة بالمنجنقات والعرادات والجروح والديابات وكان أهل صلاح الدين يتناوبون القتال مثل ولده الأفضل وولده الظاهر غازى وأخيه العادل بن أيوب وابن أخيه تقي الدين وكذلك سائر الأمراء وكان للفرنج شوانى وحرقات يركبون فيها فى البحر ويقفون من جانبي الموضع الذى يقاتل المسلمون منه أهل البلد فيرمون المسلمين من جانبهم بالخروج ويقاتلونهم وكان ذلك يعظم عليهم لأن أهل البلد يقاتلونهم من بين أيديهم وأصحاب الشوانى يقاتلونهم من جانبهم فكانت سهامهم تنفذ من أحد الجانبين إلى الجانب الآخر لضيق الموضع فكثرت الجراحات فى المسلمين والقتل ولم يتمكنوا من الدنو إلى البلد فأرسل صلاح الدين إلى الشوانى التى جاءت من مصر وهى عشر قطع وكانت بعكا فأحضرها برجالها ومقاتلتها وعدتها وكانت فى البحر تمنع شوانى أهل صور من الخروج إلى قتال المسلمين فتمكن المسلمون حينئذ من القرب من البلد ومن قتاله فقاتلوه برا وبحرا وضايقوا حتى كادوا يظفرون فجاءت الأقدار بما لم يكن فى الحساب وذلك أن خمس قطع من شوانى المسلمين باتت فى بعض تلك الليالى مقابل مينا صور لينعوا من الخروج منه والدخول إليه فباتوا ليلتهم يحرصون وكان مقدمهم عبدالسلام المغربى الموصوف بالحذق فى صناعته وشجاعته فلما كان وقت السحر أمنوا فناموا فما شعروا إلا بشوانى الفرنج قد نازلتهم وضايقتهم فأوقعت بهم فقتلوا من أرادوا قتله وأخذوا الباقين بمراكبهم وأدخلهم مينا صور والمسلمون فى البر ينظرون إليهم ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشوانى فى البحر

فمنهم من سبح فنجاً ومنهم من غرق . وتقدم السلطان إلى الشوانى الباقية بالمير إلى بيروت لعدم ارتفاعه بها لقلتها فسارت فتبعها شوانى الفرنج فحين رأى من فى شوانى المسلمين الفرنج مجدين فى طلبهم ألقوا نفوسهم فى شوانيمهم إلى البر فنجوا وتركوها فأخذها صلاح الدين ونقضها وعاد إلى مقاتلة صور فى البر وكان ذلك قليل الجدوى لضيق المجال وفى بعض الأيام خرج الفرنج فقاتلوا المسلمين من وراء خنادقهم فاشتد القتال بين الفريقين ودام إلى آخر النهار وكان خروجهم قبل العصر وأسر منهم فارس كبير مشهور بعد أن كثر القتال والقتل عليه من الفريقين لما سقط فلما أسر قتل وبقوا كذلك عدة أيام .

(ذكر الرحيل عن صور إلى عكا وتفريق العساكر) لما رأى صلاح الدين أن أمر صور يطول رحل عنها وهذه كانت عادته متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه ومن حصاره فرحل عنه وكان هذه السنة لم يطل مقامه على مدينة بل فتح الجميع فى الأيام القريبة كما ذكرناه بغير تعب ولا مشقة فلما رأى هو وأصحابه شدة أمر صور ملوها وطلبوا الانتقال عنها ولم يكن لأحد ذنب فى أمرها غير صلاح الدين فإنه هو جهز إليها جنود الفرنج وأمدّها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك كما سبق ذكره كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور فصار فيها فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم لحفظوا المدينة وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم بالنصرة وأمرهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها ويلجئون إليها فزادهم ذلك حرصاً على حفظها والذب عنها وسنذكر إن شاء الله ما صار إليه الأمر بعد ذلك ليعلم أن الملك لا ينبغي أن يترك الحزم وإن ساعدته الأقدار فلأن يعجز حازماً خير له من أن يظفر مفرطاً مضياً للحزم وأعد له عند الناس ولما أراد الرحيل استشار أمراءه فاختلّفوا لجماعة يقولون رأى أن يرحل فقد جرح الرجال وقتلوا وملوا وفيت النفقات وهذا الشتاء قد حضر والشوط بطين فترج ونسريح فى هذا البرد فإذا جاء الربيع اجتمعنا وعاردناها وغيرها وكان هذا قول الأغنياء منهم وكأهم خافوا أن السلطان يقترض منهم ما ينفقه فى العسكر إذا أقام لخلو الخزائن وبيوت الأموال من الدرهم والدينار فإنه كان يخرج كل ما حمل إليه منها وقالت الطائفة الأخرى رأى أن نصابر البلد ونضايقه فهو الذى يعتمدون عليه من حصونهم ومتى أخذناه منهم انقطع طمع من داخل البحر من هذا الجانب وأخذنا باقى البلاد صفوا فبقى صلاح الدين متردداً بين الرحيل والإقامة فلما رأى من يرى الرحيل إقامته أخل بما ردد إليه من المحاربة والرمى بالمنجنيق واعتذروا بجراح رجالهم وأنهم قد أرسلوا بعضهم ليحضروا نفقاتهم والعلوفات لدوابهم والأقوات لهم إلى ذلك من الأعداء فصاروا مقيمين بغير قتال فاضطر إلى الرحيل فرحل عنها آخر شوال وكان أول كانون الأول إلى عكا فأذن العساكر جميعها بالعود إلى أوطانهم والاستراحة فى الشتاء والعود فى الربيع فعادت عساكر الشرق والموصل وغيرها وعساكر الشام وعساكر مصر وبقى حلقة الخاص مقيماً بمكا فنزل بقلعتها ورد أمر البلد إلى عز الدين جورديك وهو من أكابر المماليك النورية جمع الديانة والشجاعة وحسن السيرة .

(ذكر فتح هونين) لما فتح صلاح الدين تبين امتنع من بهونين من تسليمها وهى من أحصن القلاع وأمنع فلم ير التمريج عليها ولا الاشتغال بمحاصرتها بل سير إليها جماعة من العسكر والأمراء لخصروها ومنعوا من حمل الميرة إليها واشتغل بما تقدم ذكره من فتح عسقلان والبيت المقدس وغير ذلك فلما كان يحاصر مدينة صور أرسل من فيها يطلبون الأمان فأمهم فسلوا ونزلوا منها فوفى لهم بأمانهم .

(ذكر حصر صفد وكوكب والكرك) لما سار صلاح الدين إلى عسقلان جعل على قلعة كوكب وهي مطلة على الأردن من يحصرها ويحفظ الطريق للبيجنازيين لئلا ينزل من به من الفرنج بقطعونه وسير طائفة أخرى من العسكر أيضا إلى قلعة صفد فحصرها وهي مطلة على مدينة طبرية وكان حصن كوكب للاسبتار وحصن صفد للداوية وهما قريبان من حطين موضع المصاف فلجأ إليهما جمع ممن سلم من الداوية والاسبتار فحصرهما فلما حصرهما المسلمون استراح الناس من شر من فيهما واتصلت الطرق حتى كان يسير فيها المنفرد فلا يخاف وكان مقدم الجماعة الذين يحصرون قلعة كوكب أميراً يقال له سيف الدين وهو أخو جاولي الأسدى وكان شهياً يرجع إلى دين وعبادة فأقام عليه إلى آخر شوال وكان أصحابه يحرسون نوباً مرتبة فلما كان آخر ليلة من شوال غفل الذين كانت نوبتهم في الحراسة وكان قد صلى وردده من الليل إلى السحر وكانت ليلة كثيرة الرهد والبرق والريح والمطر فلم يشعر المسلمون وهم نازلون إلا والفرنج قد خالطوهم بالسيوف ووضعوا السلاح فيهم فقتلوهم أجمعين وأخذوا ما كان عندهم من طعام وسلاح وغيره وعادوا إلى قلعتهم ففوقوا بذلك قوة عظيمة أمكنهم أن يحفظوا قلعتهم إلى أن أخذت أواخر سنة أربع وثمانين على ما سنذكره إن شاء الله وأتى الخبر إلى صلاح الدين بذلك عند رحيله عن صور فعظم ذلك عليه مضافاً إلى ما ناله من أخذ شوانيه ومن فيها ورحيله عن صور ثم رتب على حصن كوكب الأمير قايمآز النجمي في جماعة أخرى من الأجناد فحصرها (ذكر الفتنة بعرفات وقتل ابن المقدم) في هذه السنة يوم عرفة قتل شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم بعرفات وهو أكبر الأمراء الصلاحية وقد تقدم من ذكره ما فيه كفاية وسبب قتله أنه لما فتح المسلمون البيت المقدس طلب إذنا من صلاح الدين ليحج ويحرم من القدس ويجمع في سنته بين الجهاد والحج وزيارة الخليل عليه السلام ومن بالشام من مشاهد الأنبياء وبين زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وعليهم أجمعين فأذن له وكان قد اجتمع تلك السنة من الحجاج بالشام الخلق العظيم من البلاد والعراق والموصل وديار الجزيرة وخراسان وبلاد الروم ومصر وغيرها ليجمعوا بين زيارة بيت المقدس ومكة فجعل ابن المقدم أميراً عليهم فساروا حتى وصلوا إلى عرفات سالمين ووقفوا في تلك المشاعر وأدوا الواجب والسنة فلما كان عشية عرفة تجهز هو وأصحابه ليسيروا من عرفات فأمر بضرب كؤوساته التي هي أمانة الرحيل فضربها أصحابه فأرسل إليه أمير الحاج العراقي وهو مجير الدين طاشتكين ينهيه عن الإفاضة من عرفات قبله ويأمره بكف أصحابه عن ضرب كؤوساته فأرسل إليه يقول إني ليس لي معك تعلق أنت أمير الحاج العراقي وأما أمير الحاج الشامي وكل منا يفعل ما يراه ويختاره وسار ولم يقف ولم يسمع قوله فلما رأى طاشتكين إصراره على مخالفته ركب في أصحابه وأجناده وتبعه من غوغاء الحاج العراقي وبطاطيهم وطاعتهم العالم الكثير والجسم الغفير وقصدوا حاج الشام مهولين عليهم فلما قربوا منهم خرج الأمر من الضبط وعجزوا عن تلافيه فهجم طاعة العراق على حاج الشام وقتلوا فيهم وقتلوا جماعة ونهبت أموالهم وسببت جماعة من نساءهم إلا أنهن رددن عليهم وجرح ابن المقدم عدة جروح وكان يكف أصحابه عن القتال ولو أذن لهم لانتصف منهم وزاد لكنه رافق الله تعالى وحرمة المكان واليوم فلما أنحن بالجراحات أخذ طاشتكين إلى خيمته وأنزله عنده ليرضه ويستدرك الفارط في حقه وساروا تلك الليلة من عرفات فلما كان الغد مات بمنى ودفن بمقبرة المعلى ورزق الشهادة بعد الجهاد وشهود فتح البيت المقدس رحمه الله تعالى .

(ذكر قوة السلطان طغرل على قزل) في هذه السنة قوى أمر السلطان طغرل وكثر جمعه وملك كثيرا من البلاد فأرسل قزل إلى الخليفة يستنجده ويخوفه من طغرل ويبدل من نفسه الطاعة والنصرف على ما يختارونه وأرسل طغرل رسولا إلى بغداد يقول أريد أن يتقدم الديوان بعمارة دار السلطنة لأسكنها إذا وصلت فأكرم رسول قزل ووعد بالنجدة وردد رسول السلطان طغرل بغير جواب وأمر الخليفة بنقض دار السلطنة فهدمت إلى الأرض وعفي أثرها

(ذكر ملك شرسى من الهند وانهازم المسلمين بعدها) في آخر هذه السنة سار شهاب الدين الغورى ملك غزنة إلى بلاد الهند وقصد بلاد أجير وتعرف بولاية السواك واسم ملكهم كولة وكان شجاعا شهما فلما دخل المسلمون بلاده ملكوا مدينة تبرندة وهى حصن منيع عامر وملكوا شرسى وملكوا كوة رام فلما سمع ملكهم جمع العساكر فآكثروا وسار إلى المسلمين فالتقوا وقاتل الحرب على ساق وكان مع الهند أربعة عشر فيلا فلما اشتدت الحرب انهزمت ميمنة المسلمين وديسرتهم فقال لشهاب الدين بعض خواصه قد انكسرت الميمنة والميسرة فانج بنفسك لايهلك المسلمون فأخذ شهاب الدين الرمح وحمل على الهنود فوصل إلى الفيلة فطمن فيلا منها في كتفه وجرح الفيل لا يندمل فلما وصل شهاب الدين إلى الفيلة زرقة بعض الهنود بحربة فوقعت الحربة في ساعده فنفذت الحربة من الجانب الآخر فوقع حينئذ إلى الأرض فقاتل عليه أصحابه ليخلصوه وحرصت الهنود على أخذه وكان عنده حرب لم يسمع بمثله وأخذ أصحابه فركبوه فرسه وعادوا به منهزمين فلم يتبعهم الهنود فلما أبعدها عن موضع الوقعة بمقدار فرسخ أغشى على شهاب الدين من كثرة خروج الدم فحمله الرجال على أكتافهم في حفة اليد أربعة وعشرين فرسخا فلما وصل إلى لهاور أخذ الأمراء الغورية وهم الذين انهزموا ولم يثبتوا وعلق على كل واحد منهم عقيق شعير وقال أنتم دواب ما أنتم أمراء وسار إلى غزنة وأمر بعضهم فشى إليها ماشيا فلما وصل إلى غزنة أقام بها ليستريح الناس وبذكر ما فعله بملك الهند الذى هزمه سنة ثمان وثمانين إن شاء الله تعالى .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في ربيع الأول قتل مجد الدين أبو الفضل بن الصاحب وهو أستاذ دار الخليفة أمر الخليفة بقتله وكان متحكما في الدولة ليس للخليفة معه حكم وكان هو القيم بالبيعة له وظهر له أموال عظيمة أخذ جميعها وكان حسن السيرة عفيفا عن الأموال وكان الذى سعى به إنسان من أصحابه وصنائه يقال له عبيد الله بن يونس فسعى به إلى الخليفة وقبح آثاره فقبض عليه وقتله . وفيها في ربيع الآخر وقع حريق في الحظائر ببغداد احترقت أحطاب كثيرة وسببه أن فقيها بالمدرسة النظامية كان يطبخ طعاما يأكله فغفل عن النار والطبخ فعلقت النار واتصلت فاحترقت جميعها واحترق درب السلسلة وغيره مما يجاوره . وفيها في شوال استوزر الخليفة الناصر لدين الله أبا المظفر عبيد الله بن يونس ولقبه جلال الدين ومشى أرباب الدولة في ركابه حتى قاضى القضاة وكان ابن يونس من شهوده وكان يمشى ويقول لعن الله طول العمر . وفيها في المحرم توفى عبد المغيث بن زهير الحرى ببغداد وكان من أعيان الحنابلة قد سمع الحديث الكثير وصنف كتابا في فضائل يزيد بن معاوية أتى فيه بالعجائب وقدرد عليه أبو الفرج بن الجوزى وكان بينهما عداوة . وفيها توفى قاضى القضاة أبو الحسن بن الدامغانى وولى القضاة للمقتنى بعد موت الزينبي ثم للمستنجد بالله ثم عزل ثم أعيد إلى المستنضى بأمر الله . وفيها توفى على بن خطاب بن ظفر الشيخ الصالح من جزيرة ابن عمرو وكان من الأولياء

أرباب الكرامات وصحبه أنامدة فلم أر مثله حسن خلق وسمت وكرم وعبادة رحمه الله . وفيها ولدت امرأة من سواد بغداد بنتا لها أسنان . وفيها توفي نصر بن قتيان بن مطر أبو الفتح بن المنى الفقيه الحنبلي لم يكن لهم مثله رحمه الله تعالى .

(ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة)

(ذكر حصر صلاح الدين كوكب) في هذه السنة في المحرم انحسر الشتاء فسار صلاح الدين من عكا فيمن تخلف عنده من العسكر إلى قلعة كوكب فحصرها ونازلها ظنا منه أن ملكها سهلا وأن أخذها عجلا وهو في قلة من العسكر متيسر فلما رآها عالية منيعة والوصول إليها متمذر وكان عنده منها ومن صفد والكرك المقيم المقعد لأن البلاد الساحلية من عكا إلى جهة الجنوب كانت قد ملك جميعها ماعدا هذه الحصون وكان يختار أن لا يبقى في وسطها ما يشغل قلبه ويقسم همه ويحتاج إلى حفظه ولئلا ينال الرعايا والمجتازين منهم الضرر العظيم فلما حصر كوكب ورآها منيعة يبطله ملكها وأخذها رحل عنها وجعل عليها قايمز النجمي مستديما لحصاره وكان رحيله عنها في ربيع الأول وأناه رسل الملك قلعج أرسلان وقزل أرسلان وغيرهما يهنونه بالفتح والظفر وسار من كوكب إلى دمشق ففرح الناس بتقدمه وكتب إلى البلاد جميعا باجتماع العساكر بها وأقام بها إلى أن سار إلى الساحل بالبلاد الشامية .

(ذكر رحيل صلاح الدين إلى بلد الفرنج) لما أراد صلاح الدين المسير عن دمشق حضر عنده القاضي الفاضل مودعاه ومستشيرا وكان مريضا وودعه وسار عن دمشق منتصف ربيع الأول إلى حمص فزل على بحيرة قدس غربي حمص وجاءته العساكر فأول من أناه من أصحاب الأطراف عماد الدين زنكي بن مودود بن آقسنقر صاحب منجار ونصيبين والخابور وتلاحقت العساكر من الموصل وديار الجزيرة وغيرها فاجتمعت عليه وكثرت عنده فسار حتى نزل تحت حصن الأكراد من الجانب الشرقي وكنت معه حينئذ فأقام يومين وسار جريدة وترك أنقال العسكر موضعها تحت الحصن ودخل إلى بلد الفرنج فأغار على صافينا والعريمة ويحمور وغيرها من البلاد والولايات ووصل إلى قريب طرابلس وأبصر البلاد وعرف من أين يأتها وأين يسلك منها ثم عاد إلى معسكره سالما وقد غنم العسكر من الدواب على اختلاف أنواعها مالا حد له وأقام تحت حصن الأكراد إلى آخر ربيع الآخر .

(ذكر فتح جبلة) لما أقام صلاح الدين تحت حصن الأكراد أناه قاضي جبلة وهو منصور بن ثيبيل يستدعيه إليه ليسلمها إليه وكان هذا القاضي عند بيمنند صاحب أنطاكية وجبلة مسموع الكلمة له الحرمة الوافرة والمنزلة العالية وهو يحكم على جميع المسلمين بجبلة ونواحيها وعلى ما يتلق بالبيمنند فحملته الغيرة للدين على قصد السلطان وتكفل له بفتح جبلة ولاذقية والبلاد الشمالية فسار صلاح الدين معه رابع جمادى الأولى فنزل بانطوطوس سادسه فرأى الفرنج قد أخذوا المدينة واحتموا في برجين حصينين كل واحد منها قلعة حصينة ومعقل منيع فحرب المسلمون دورهم ومساكنهم وسور البلد ونهبوا ما وجدوه من ذخائر وكان الداوية بأحد البرجين فحصرهما صلاح الدين فنزل إليه من في أحد البرجين بأمان وسلموه بأمنهم وخرّب البرج وألقى حجارته في البحر وبقي الذي فيه الداوية لم يسلمه وكان معهم مقدمهم الذي أسره صلاح الدين يوم المصاف وكان قد

أطلقه لما ملك البيت المقدس فهو الذي حفظ هذا الحصن فخر بصلاح الدين ولاية انطربوس ورحل عنها وأنى مرقية وقد أخلاها أهلها ورحلوا عنها وساروا إلى المرقب وهي من حصونهم التي لا ترام ولا تحدث أحدا نفسه بملكه لعلوه وامتناعه وهو للاستتار والطريق تحته فيكون الحصن على بين المجتاز إلى جيلة والبحر عن يساره والطريق مضيق لا يسلكه إلا الواحد بعد الواحد فاتفق أن صاحب صقلية من الفرنج قد سير نجدة إلى فرنج الساحل في ستين قطعة من الشواني وكانوا بطرا بلس فلما سمعوا بمسير صلاح الدين جاءوا ووقفوا في البحر تحت المرقب في شوانيمهم لينعروا من يجتاز بالسهم فلما رأى صلاح الدين ذلك أمر بالطارقيات والجففيات فصفت على الطريق مما يلي البحر من أول المضيق إلى آخره وجعل وراءه الرماة فمنعوا الفرنج من الدنو إليهم فاجتاز المسلمون عن آخرهم حتى عبروا المضيق ووصلوا إلى جيلة ثامن عشر جمادى الأولى وتسلمها وقت وصوله وكان قاضيها قد سبق إليها ودخل فلما وصل صلاح الدين رفع أعلامه على سورها وسلمها إليه وتحصن الفرنج الذين كانوا بها تحصننا واحتموا بقلعتها فما زال قاضي جيلة يخوفهم ويرغبهم حتى استنزلهم بشرط الأمان وأن يأخذ رهائهم يكونون عنده إلى أن يطلق الفرنج رهائهم من المسلمين من أهل جيلة وكان يميند صاحبها قد أخذ رهائن القاضي ومسلمي جيلة وتركهم عنده بانطاكية فأخذ القاضي رهائن الفرنج وجاء رؤساء أهل الجبل إلى صلاح الدين بطاعة أهله وهو من أمنع الجبال وأشقى مسلكا وفيه حصن يعرف بيكر ايل بين جيلة ومدينة حماه فلما ملك المسلمون وصار الطريق في هذا الوقت عليه من بلاد الإسلام إلى العسكرو كان الناس يلقون شدة في سلوكه وقرر صلاح الدين أحوال جيلة وجعله فيها لحفظها الأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر وسار عنها .

(ذكر فتح لاذقية) لما فرغ السلطان من أمر جيلة وسار عنها إلى لاذقية فوصل إليها في الرابع والعشرين من جمادى الأولى فترك الفرنج المدينة لمجزهم عن حفظها وصعدوا إلى حصنين لها على الجبل فامتنعوا بهما فدخل المسلمون المدينة وحصروا القلعتين اللتين فيهما الفرنج وزحفوا إليهما ونقبوا الأسوار ستين ذراعا وعلقوه وعظم القتال واشتد الأمر عند الوصول إلى السور فلما أيقن الفرنج بالعطب ودخل إليهم قاضي جيلة يخوفهم من المسلمين فطلبوا الأمان فأضهم صلاح الدين ورفعوا الأعلام الإسلامية إلى الحصنين وكان ذلك في اليوم الثالث من النزول عليها وكانت عمارة اللاذقية من أحسن الأبنية وأكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه فخرّب المسلمون كثيرا منها ونقلوا رخامها وشعثوا كثيرا من بيعها التي قد غرم على كل واحدة منها الأموال الجليلة المقدار وسلمها إلى ابن أخيه تقي الدين عمر فعمرها وحصن قلعتها حتى إذا رآها اليوم من رآها ينكرها فلا يظن أن هذه تلك وكان عظيم الهمة في تحصين القلاع والغرامة الوافرة عليها كما فعل بقلعة حماة .

(ذكر حال أسطول صقلية) لما نازل صلاح الدين لاذقية ووصل أسطول صقلية الذي تقدم ذكره فوقف بإزاء مينا لاذقية فلما سلمها الفرنج الذين بها إلى صلاح الدين عزم أهل هذا الأسطول على أخذ من يخرج منها من أهلها غيظا وحنفا حيث سلموها سريرا فسمع بذلك أهل لاذقية فأقاموا وبذلوا الجزية وكان سبب مقامهم ثم إن مقدم هذا الأسطول طلب من السلطان الأمان ليحضر عنده فأمنه وحضر وقبل الأرض

بين يديه وقال مامعناه إنك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالفرنجة ما فعلت فذلوا فازركهم يكونون بمالكك وجندك تفتح بهم البلاد والممالك وترد عليهم بلادهم وإلا جاءك من البحر ما لا طاق لك به فيعظم عليك الأمر ويشد الحال فأجابهم صلاح الدين بنحو من كلامه من إظهار القوة والاستمانة بكل من يجيء من البحر وأنهم إن خرجوا أذاقهم ما أذاق أصحابهم من القتل والأسر فانقلب على وجهه ورجع إلى أصحابه .

(ذكر فتح صهيون وعدة من الحصون) ثم رحل صلاح الدين عن لاذقية في السابع والعشرين من جمادى الأولى وقصد قلعة صهيون وهي قلعة منيعة شاهقة في الهواء صعبة المرتقى على قرنة جبل يطيف بها واد عميق فيه ضيق في بعض المواضع بحيث إن حجر المنجنيق يصل منه إلى الحصن إلا أن الجبل متصل بها من جهة الشمال وقد عملوا لها خندقاً عميقاً لا يرى قعره وخمسة أسوار منيعة فنزل صلاح الدين على هذا الجبل المتصق بها ونصبت عليه المنجنيقات ورمها وتقدم إلى ولده الظاهر صاحب حلب فنزل على المكان الضيق من الوادي ونصب عليه المنجنيقات فرمى الحصن منه وكان معه من الرجاله الحليين كثير وهم في الشجاعة بالملزلة المشهورة ودام رشق السهام من قسي اليد والجرح والزنبوك والزبار فخرج أكثر من بالحصن وهم يظهرون التجلد والامتناع وزحف المسلمون اليهم ثانی جمادى الآخرة فتعلقوا بقرنة من ذلك الجبل قد أغفل الفرنج إحكامها فتسلقوا منها بين الصخور حتى التحقوا بالسور الأول فلكروا منها ثلاثة وغنموا ما فيها من أبقار ودواب وذخائر وغير ذلك واحتجى الفرنج بالقلعة التي للقلعة فقاتلهم المسلمون عليها فنادوا وطلبوا الأمان فلم يجبهم صلاح الدين إليه فقررروا على أنفسهم مثل قطيعة البيت المقدس وتسلم الحصن وسلمه إلى أمير يقال له ناصر الدين منكورس صاحب قلعة أبي قبيس فخصنه وجعله من أحسن الحصون ولما ملك المسلمون صهيون تفرقوا في تلك النواحي فلكروا حصن بلاطوس وكان من به من الفرنج قد هربوا منه وتركوه خوفاً ورعباً وملك أيضاً حصن العبد وحصن الجماهرتين فانتسعت المملكة الإسلامية بتلك الناحية إلا أن الطريق إليها من البلاد الإسلامية على عقبة بكسراثيل شاق شديد لأن الطريق السهلة كانت غير مسلوكة لأن بعضها بيد الإسماعيلية وبعضها بيد الفرنج .

(ذكر فتح حصن بكاس والشفر) ثم سار صلاح الدين عن صهيون ثالث جمادى الآخرة فوصل إلى قلعة بكاس فرأى الفرنج قد أدخلوها وتحصنوا بقلعة الشفر فلك قلعة بكاس بغير قتال وتقدم إلى قلعة الشفر وهي وبكاس على الطريق السهل المسلوكة إلى لاذقية وجبله والبلاد التي افتتحها صلاح الدين من بلاد الشام الإسلامية فلما نزلها رآها منيعة حصينة لا ترام ولا يوصل إليها بطريق من الطرق إلا أنه أمر بمزاحفتهم ونصب المنجنيق عليهم ففعلوا ذلك ورمى بالمنجنيق فلم يصل من أحجاره إلى القلعة شيء إلا القليل الذي لا يؤذي بقي المسلمون عليه أياماً لا يرون فيه طمأناً وأهله غير مهتمين بالقتال لامتناعهم عن ضرور يتطرق إليهم وبلاء ينزل عليهم فبينما صلاح الدين جالس وعنده أصحابه وهم في ذكر القلعة وإعمال الحيلة في الوصول إليها فقال بعضهم هذا الحصن كما قال الله تعالى (فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً) فقال صلاح الدين أو يأتي الله بنصر من عنده وفتح فبينما هم في هذا الحديث إذ قد أشرف عليهم فرنجي ونادى بطلب الأمان لرسول يحضر عند صلاح الدين فأجيب إلى ذلك ونزل رسول وسأل انتظارهم ثلاثة أيام فإن جاءهم من بينهم وإلا سلموا القلعة بما فيها من ذخائر ودواب وغير ذلك فأجابهم إليه وأخذ رهائتهم على الوفاء به

فلما كان اليوم الثالث سلموها اليه واتفق أنه يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة وكان سبب استمها لهم أنهم أرسلوا إلى البيمند صاحب أنطاكية وكان هذا الحصن له يعرفونه أنهم محصورون ويطلبون منه أن يرحل عنهم المسلمين فإن فعل وإلا سلوها وإما فعلوا ذلك لرعب قذنه الله تعالى في قلوبهم وإلا فلو أقاموا الدهر الطويل لم يصل إليهم أحد ولا بلغ المسلمون منه غرضا فلما تسلم صلاح الدين الحصن سلمه إلى أمير يقال له قلعج وأمره بمهارته ورحل عنه .

(ذكر فتح سرمينية) لما كان صلاح الدين مشغولا بهذه القلاع والحصون سير ولده الظاهر غازي صاحب حلب فحصر سرمينية وضيق على أهله واستزلمهم على قطيعة قررها عليهم فلما أزلهم وأخذ منهم المقاطعة هدم الحصن وعنى أثره وعلى بنيانه وكان فيه وفي هذه الحصون من أسارى المسلمين الجرم الغفير فأطلقوا وأعطوا كسوة ونفقة وكان فتحه في يوم الجمعة الثالث والعشرين من جمادى الآخرة واتفق أن فتح هذه المدن والحصون جميعها من جبلة إلى سرمينية مع كثرتها كان في ست جمع مع أنها في أيدي أشجع الناس وأشدهم عداوة للمسلمين فسبحان من إذا أراد أن يسهل الصعب فعل وهي جميعها من أعمال أنطاكية ولم يبق لها سوى القصير وبغراس ودر ب ساك وسياتي ذكرها إن شاء الله تعالى في مكانه .

(ذكر فتح برزية) لما رحل صلاح الدين من قلعة الشغرسار إلى قلعة برزية وكانت قد وصفت له وهي تقابل حصن أفامية وتناصفها في أعمالها وبينهما بحيرة تجتمع من ماء العاصي وعيون تتفجر من جبل برزية وغيره وكان أهلها أضرب شيء على المسلمين يقطعون الطريق ويبالغون في الأذى فلما وصل إليها نزل شرقها في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة ثم ركب من الغد وطاف عليها لينظر موضعا يقاتلها منه فلم يجده إلا من جهة الغرب فنصب له هناك خيمة صغيرة ونزل فيها ومعه بعض المسكر جريدة لضيق المواضع وهذه القلعة لا يمكن أن تقاتل من جهة الشمال والجنوب البتة فإنها لا يقدر أحد أن يصعد جبلها من هاتين الجهتين وأما الجانب الشرقي فيمكن الصعود منه لكن لغيره مقاتل لعلوه وصعوبته ، وأما جهة الغرب فإن الوادي المطيف بجبلها قد ارتفع هناك ارتفاعا كثيرا حتى قارب القلعة بحيث يصل منه حجر المنجنيق والسهم فنزل له المسلمون ونصبوا عليه المنجنيقات ونصب أهل القلعة عليها منجنيقا أبطلها ورأيت أنا من رأس جبل عال يشرف على القلعة لكنه لا يصل منه شيء إليها امرأة ترمي من القلعة عن المنجنيق وهي التي أبطلت منجنيق المسلمين فلما رأى صلاح الدين أن المنجنيق لا ينتفعون به عزم على الزحف ومكاثرة أهلها بجموعه فقسم عسكره ثلاثة أقسام يزحف قسم فإذا تعبوا وكأوا عادوا وزحف القسم الثاني فإذا تعبوا وضجروا عادوا وزحف القسم الثالث ثم يدور الدور مرة بعد أخرى حتى يتعب الفرنج وينصبوا فإنهم لم يكن عندهم من الكثرة ما يتقسمون كذلك فإذا تعبوا وأعيوا سلوا القلعة فلما كان الغد وهو السابع والعشرون من جمادى الآخرة تقدم أحد الأقسام وكان المقدم عليهم عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار وزحفوا وخرج الفرنج من حصنهم فقاتلهم على فصيلهم ورماهم المسلمون بالسهم من وراء الجفتيات والجنويات والطارقيات ومشوا إليهم حتى قربوا إلى الجبل فلما قاربوا الفرنج عجزوا عن الدنو منهم لخشونة المرتقى وتسلط الفرنج عليهم لعلو مكانهم بالنشاب والحجارة فإنهم كانوا يلقون الحجارة الكبار فتدحرج إلى أسفل الجبل فلا يقوم لها شيء فلما تعب هذا القسم انحدروا وصعد القسم الثاني وكانوا جلوسا ينتظرونهم وهم حلقة صلاح الدين الخاص فقاتلوا قتالا

وكان الزمان حرا شديدا فاشتد الكرب على الناس وصلاح الدين في سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم وكان تنق الدين ابن أخيه كذلك فقاتلوه إلى قريب الظهر ثم تعبوا ورجعوا فلما رآهم صلاح الدين قد عادوا تقدم إليهم ويده جواق يردهم وصاح في القسم الثالث وهم جلوس ينتظرون نوبتهم فوثبوا ملبين وساعدوا إخوانهم وزحفوا معهم فجاء الفرنج مالا قبل لهم به وكان أصحاب عماد الدين قد استراحوا فقاموا أيضا معهم فحينئذ اشتد الأمر على الفرنج وبلغت القلوب الحناجر وكانوا قد اشتد تعبهم ونصبهم فظهر عجزهم عن القتال وضعفهم عن حمل السلاح لشدة الحر والقتال فخالطهم المسلمون فعاد الفرنج يدخلون الحصن فدخل المسلمون معهم وكان طائفة قليلة في الخيام شرقي الحصن فرأوا الفرنج قد أهملوا ذلك الجانب لأنهم لم يروا فيه مقاتلا وليكثروا في الجهة التي فيها صلاح الدين فصعدت تلك الطائفة من العسكر فلم يمنعهم مانع فصعدوا أيضا الحصن من الجهة الأخرى فالتقوا مع المسلمين الداخلين مع الفرنج فملكوا الحصن عنوة وقهرا ودخل الفرنج القلعة التي للحصن وأحاط بها المسلمون وأرادوا نهبها وكان الفرنج قد رفعوا من عندهم من أسرى المسلمين إلى سطح القلعة وأرجلهم في القيود والخشب المثقوب فلما سمعوا تكبير المسلمين في نواحي القلعة كبروا في سطح القلعة وظن الفرنج أن المسلمين قد صعدوا على السطح فاستسلموا وألقوا بأيديهم إلى الأسر فلما كبرها المسلمون عنوة ونهبوا ما فيها وأسروا وسبوا من فيها وأخذوا صاحبها وأهله وأمست خالية لاديابها وألقى المسلمون النار في بعض بيوتهم فاحترقت هـ ومن أعجب ما يحكى من السلامة أني رأيت رجلا من المسلمين على هذا قد جاء من طائفة من المؤمنين شمالي القلعة إلى طائفة أخرى من المسلمين جنوبي القلعة وهو يعدو في الجبل عرضا فألقيت عليه الحجارة وجاءه حجر كبير لونه لبعجه فنزل عليه فناداه الناس يحذروه فالتفت ينظر ما الخبر فسقط على وجهه من عثرة فاسترجع الناس وجاء الحجر إليه فلما قاربه وهو منبطح على وجهه لقيه حجر آخر ثابت في الأرض فوق الرجل فضربه المنحدر فارتفع عن الأرض وجاز الرجل ثم عاد إلى الأرض من جانبه الآخر لم ينله منه أذى ولا ضرر وقام يعدو حتى لحق بأصحابه فكان سقوطه سبب نجاة فتعست أم الجبان وأما صاحب برزبة فإنه أسره هو وأصحابه وامراته وأولاده ومنهم بنت له معها زوجها فتفرقهم العسكر فأرسل صلاح الدين في الوقت وبحث عنهم واشتراهم وجمع شمل بعضهم ببعض فلما قارب أنطاكية أطلقهم وسيرهم إليها وكانت امرأة صاحب برزبة أخت امرأة يميند صاحب أنطاكية وكانت ترسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيرا من الأحوال التي تؤثر فأطلق هؤلاء لأجلها .

(ذكر فتح درب ساك) لما فتح صلاح الدين حصن برزبة رحل عنه من الغد فأتى جسر الحديد وهو على العاصي بالقرب من أنطاكية فأقام عليه حتى وافاه من تخلف عنه من عسكره ثم سار عنه إلى قلعة درب ساك فنزل عليها ثامن رجب وهي من معاقل الداوية الحصينة وقلاعهم التي يدخرونها لحمايتهم عند نزول الشدائد فلما نزل عليها نصب المنجنيقات وتابع الرمي بالحجارة فهدمت من سورها شيئا يسيرا فلم يبال من فيه بذلك فأمر بالزحف عليها ومهاجمتها فبادرها العسكر بالزحف وقتلوا وكشفوا الرجال عن سورها وتقدم النقبون فنتجروا منها برجا وعلقوه فسقط واتسع المكان الذي يريد المقاتلة يدخلون منه وعادوا يومهم ذلك ثم باكروا الزحف من الغد وكان من فيه قد أرسلوا إلى صاحب أنطاكية يستنجدونه نصبروا وأظهروا الجلودهم ينتظرون جوابه إما بإنقاذهم وإما بإزاحة المسلمين عنهم وإما بالنخلى عنهم ليقوم عندهم في التسليم فلما علموا عجزه عن نصرتهم

وخافوا هجوم المسلمين عليها وأخذهم بالسيف وقتلهم وأسروهم ونهب أموالهم وطلبوا الأمان فأمّنهم على شرط أن لا يخرج أحد إلا بثيابه التي عليه بغير مال ولا سلاح ولا أثاث بيت ولا دابة ولا شيء مما بها ثم أخرجهم منه وسيرهم إلى أنطاكية وكان فتحه تاسع عشر رجب .

(ذكر فتح بغراس) ثم سار عن درب ساك إلى قلعة بغراس فحصرها بعد أن اختلف أصحابه في حصرها فمنهم من أشار به ومنهم من نهى عنه وقال هو حصن حصين وقلعة منيعة وهو بالقرب من أنطاكية ولا فرق بين حصره وحصرها ويحتاج أن يكون أكثر العسكر في التزك مقابل أنطاكية فإذا كان الأمر كذلك قل المقاتلون عليها ويتعذر الوصول إليها فاستخار الله تعالى وسار إليها وجعل أكثر عسكره يزك مقابل أنطاكية يغيرون على أعمالها وكأوا حذرين من الخوف من أهلها إن غفلوا لقربهم منها وصلاح الدين في بعض أصحابه على القلعة يقاتلها ونصب المنجنيقات فلم يؤثر فيها شيئا لعلوها وارتفاعها فغلب على الظنون تعذر فتحها وتأخر ملكها وشق على المسلمين قلة الماء عندهم إلا أن صلاح الدين نصب الحياض وأمر بحمل الماء إليها فخفف الأمر عليهم فبينما هو على هذه الحال إذ قد فتح باب القلعة وخرج منه إنسان يطلب الأمان فأجيب إلى ذلك فأذن له في الحضور فحضر وطلب الأمان لمن في الحصن حتى يسلموه إليه بما فيه على قاعدة درب ساك فأجابهم إلى ما طلبوا فعاد الرسول ومعه الأعلام الإسلامية فرفعت على رأس القلعة ونزل من فيها وتسلم المسلمون القلعة بما فيها من ذخائر وأموال وسلاح وأمر صلاح الدين بتخريبه فخرّب وكان ذلك مضرة عظيمة على المسلمين فإن ابن ليون صاحب الأرمن خرج إليه من ولايته وهو مجاوره فجدد عمارته وأتقنه وجعل فيه جماعة من عسكره يغيرون منه على البلاد فتأذى بهم السواد الذي لحاب وهو إلى الآن بأيديهم .

(ذكر الهدنة بين المسلمين وصاحب أنطاكية) لما فتح صلاح الدين بغراس عزم على التوجه إلى أنطاكية وحصرها فخاف البيمنند صاحبها من ذلك وأشفق منه فأرسل إلى صلاح الدين يطلب الهدنة وبذل إطلاق كل أسير عنده من المسلمين فاستشار من عنده من أصحاب الأطراف وغيرهم فأشار أكثرهم بإجابته إلى ذلك ليعود الناس ليستريحوا ويجددوا ما يحتاجون إليه فأجاب إلى ذلك واصطلحوا ثمانية أشهر أولها أول تشرين الأول وآخرها آخر أيار وسير رسوله إلى صاحب أنطاكية يستحلفه ويطلق من عنده من الأسرى وكان صاحب أنطاكية في هذا الوقت أعظم الفرنج شأنا وأكثرهم ملكا فإنه كان الفرنج قد سلموا إليه طرابلس بعد موت القمص وجميع أعمالها مضافا إلى ما كان له لأن القمص لم يخلف ولدا فلما سلمت إليه طرابلس جعل ولده الأكبر فيها نائبا عنه وأما صلاح الدين فإنه عاد إلى حلب ثالث شعبان فدخلها وسار منها إلى دمشق وفرق العساكر الشرقية كعماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار والخابور وعسكر الموصل وغيرها ثم رحل من حاب لي دمشق وجعل طريقه على قبر عمر بن عبد العزيز فزاره وزار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربي وكان مقبلا هناك وكان من عباد الله الصالحين وله كرامات ظاهرة وكان مع صلاح الدين الأمير عز الدين أبو الفلحة قاسم ابن المهنا العلوي الحسيني وهو أمير مدينة النبي صلى الله عليه وسلم كان قد حضر عنده وشهد معه مشاهدته وفتوحه وكان صلاح الدين قد تبرك برؤيته وتيمن بصحبه وكان يكرمه كثيرا وينبسط معه ويرجع إلى قوله في أعماله كلها ودخل دمشق أول شهر رمضان فأشير عليه بتفريق العساكر فقال إن العمر قصير والأجل غير مأمون وقد بقي بيد الفرنج هذه الحصون كوكب وصفد والكرك وغيرها ولا بد من الفراغ منها فإنها في وسط

ببلاد الإسلام ولا يؤمن شر أهلها وإن أغفلناهم ندمنا فيما بعد والله أعلم .
 (ذكر فتح الكرك وما يجاوره) كان صلاح الدين قد جعل على الكرك عسكريا يحصره فلازموا الحصار هذه المدة الطويلة حتى فنيت أزواد الفرنج وذخائرهم وأكلوا دراهمهم وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال فراسلوا الملك العادل أخا صلاح الدين وكان جعله صلاح الدين على قلعة الكرك في جمع من العسكر يحصرها ويكون مطلعاً على هذه الناحية من البلاد لما أبعده هو إلى درب ساك وبغراس فوصلته رسلة الفرنج من الكرك يبذلون تسليم القلعة إليه ويطلبون الأمان فأجابهم إلى ذلك وأرسل إلى مقدم العسكر الذي يحصرها في المعنى فتسلم القلعة منهم وأمنهم وتسلم أيضاً ما يقاربه من الحصون كالشوبك وهزموا الوعية والسلم وفرغ القلب من تلك الناحية وألقى الإسلام هناك جرانه وأمنت قلوب من في ذلك الصقع من البلاد كالقدس وغيره فإنهم كانوا من بتلك الحصون وجلين ومن شرهم مشفقين .

(ذكر فتح قلعة صفد) لما وصل صلاح الدين إلى دمشق وأشير عليه بتفريق العساكر وقال لأعدمن الفرنج من صفد وكوكب وغيرها أقام بدمشق إلى منتصف رمضان وسار عن دمشق إلى قلعة صفد فحصرها وقتلها ونصب عليها المنجنيقات وأدام الرمي إليها ليلاً ونهاراً بالحجارة والسهم وكان أهلها قد قارب ذخائرهم وأزوادهم أن تفتى في المدة التي كانوا فيها محاصرين فإن عسكر صلاح الدين كان يحاصرهم كما ذكرناه فلما رأى أهل جد صلاح الدين في قتالهم خافوا أن يقيم إلى أن يفنى ما بقي معهم من أقواتهم وكانت قليلة وبأخذهم عنوة ويهلكهم أو أنهم يضعفون عن مقارمته قبل فناء ما عندهم من القوات فيأخذهم فأرسلوا يطلبون الأمان فأنهم وتسلبها منهم فخرجوا عنها وساروا مدينة صور وكفى الله المؤمنين شرهم فإنهم كانوا وسط البلاد الإسلامية .
 (ذكر فتح كوكب) لما كان صلاح الدين يحاصر صفد اجتمع من بصور من الفرنج وقالوا إن فتح المسلمون قلعة صفد لم تبق كوكب ولو أنها معلقة بالكوكب وحينئذ ينقطع طمعنا من هذا الطرف من البلاد فاتفق رأيهم على إنفاذ نجدة لها سرا من رجال وصلاح وغير ذلك فأخرجوا مائتي رجل من شجيمان الفرنج وأجلادهم فساروا الليل مستخفين وأقاموا النهار مكمنين فاتفق من قدر الله تعالى أن رجلاً من المسلمين الذين يحاصرون كوكب خرج متصيذاً فلقى رجلاً من تلك النجدة فاستغربه بتلك الأرض فضربه ليعليه بحاله وما الذي أقدمه إلى هناك فأقر بالحال ودله على أصحابه فعاد الجندى المسلم إلى قايماز النجمي وهو مقدم ذلك العسكر فأعلمه الخبر والفرنجي معه فركب في طائفة من العسكر إلى الموضع الذي قد اختفى فيه الفرنج فكبسهم فأخذهم وتبعهم في الشعاب والكهوف فلم يفلت منهم أحد فكان معهم مقدمان من فرسان الاستتار فحملوا إلى صلاح الدين وهو على صفد فأحضرهما ليقتلها وكانت عاقبة قتلهما والداوية والاستتارية لشدة عداوتهم للمسلمين وشجاعتهم فلما أمر بقتلها قال له أحدهما ما أظن ينالنا سوء وقد نظرنا إلى طلعتك المباركة ووجهك الصبيح وكان رحمه الله كثير العفو يفعل الاعتذار والاستعطاف فيه فيعفو ويصفح فلما سمع كلامهما لم يقتلها وأمر بهما فوجنا ولما فتح صفد سار عنها إلى كوكب ونازلها وحصرها وأرسل إلى من بها من الفرنج يبذل لهم الأمان إن سلموا ويتهددهم بالقتل والسبي والنهب إن امتنعوا فلم يسمعوا قوله وأصرروا على الامتناع فجذب في قتالهم ونصب عليهم المنجنيقات وتابع رمي الأحجار إليهم وزحف مرة بعد مرة وكانت الأمطار كثيرة لا تنقطع ليلاً ولا نهاراً فلم يتمكن المسلمون من القتال على الوجه الذي يريدونه وطال مقامهم عليها وفي آخر الأمر زحف

اليها دفعات متناوبة في يوم واحد ووصلوا إلى باشورة القلعة ومعهم النقابون والرماة يحملونهم بالنشاب عن قوس اليد والجروح فلم يقدر أحد منهم أن يخرج رأسه من أعلى السور فثقبوا الباشورة فسقطت وتقدموا إلى السور الأعلى فلما رأى الفرنج ذلك أذعنوا بالتسليم وطلبوا الأمان فأمنهم وتسلم الحصن منهم منتصف ذى القعدة وسيرهم إلى صور فوصلوا اليها واجتمع بها من شياطين الفرنج وشجعانهم كل صنيدي فاشتدت شوكتهم وحميت جمرتهم وتابعوا الرسل إلى من بالاندلس وصقلية وغيرها من جزائر البحر يستغيثون ويستنجدون والامداد كل قليل تأتيهم وكان ذلك كله بتفريط صلاح الدين في إطلاق كل من حصره حتى عض بنانه ندما وأسفا حيث لم ينفعه ذلك واجتمع للمسلمين بفتح كوكب وصدق من حدايلة إلى أقصى أعمال بيروت لا يفصل بينه غير مدينة صور وجميع أعمال أنطاكية سوى القصير ولما ملك صلاح الدين صفد سار إلى البيت المقدس فعيد فيه عيد الأضحى ثم سار منه إلى عكا فأقام بها حتى انساخت السنة .

(ذكر ظهور طائفة من الشيعة بمصر) في هذه السنة ثار بالقاهرة جماعة من الشيعة هدتهم اثنا عشر رجلا ليلا ونادوا بشعار العلويين يال على يال على وسلكوا الدروب ينادون ظنا منهم أن رعية البلد يلبون دعوتهم ويخرجون معهم فيعيدون الدولة العلوية ويخرجون بعض من بالقصر محبوسا منهم ويملكون البلد فلم ياتفت أحد منهم إليهم ولا أعارهم سمعه فلما رأوا ذلك تفرقوا خائفين فأخذوا وكتب بذلك إلى صلاح الدين فأمرهم وأزعجه فدخل عليه القاضي الفاضل فأخبره الخبر فقال القاضي الفاضل ينبغي أن تفرح بذلك ولا تحزن ولا تهتم حيث علمت من بواطن رهيتك المحبة لك والنصح ولترك الميل إلى عدوك ولو وضعت جماعة يفعلون مثل هذه الحالة لتعلم بواطن أصحابك ورعيته وخسرت الأموال الجليلة عليهم لكان قليلا فسرى عنه وكان هذا القاضي الفاضل صاحب دولة صلاح الدين وأكبر من بها وستأتي مناقبه عند وفاته ماتراه :

(ذكر انهزام عسكر الخليفة من السلطان طغرل) في هذه السنة جهز الخليفة الناصر لدين الله عسكرا كثيرا وجعل المقدم عليهم وزيره جلال الدين عبيد الله بن بونس وسيرهم إلى مساعدة قزل ليكف الناس طغرل عن البلاد فسار العسكر ثالث صفر إلى أن قارب همذان واقتتلوا فلم يثبت عسكر بغداد بل انهزموا وتفرقوا وثبت الوزير قائما ومعه مصحف وسيف فأناه من عسكر طغرل من أسره وأخذ مامعه من خزانة وسلاح ودواب وغير ذلك وعاد العسكر إلى بغداد متفرقين وكنت حينئذ بالشام في عسكر صلاح الدين يريد الغزاة فأناه الخبر مع النجابين بمسير العسكر البغدادي فقال كأنكم وقد وصل الخبر بانهم فقال له بعض الحاضرين وكيف ذلك فقال لاشك أن أصحابي وأهلي أعرف بالحرب من الوزير وأطوع في العسكر منه ومع هذا فما أرسل أحدا منهم في سرية للحرب إلا وأخاف عليه وهذا الوزير غير عارف بالحرب وقريب العهد بالولاية ولا يراه الأمراء أهلا أن يطاع وفي مقابلة سلطان شجاع قد باشر الحرب بنفسه ومن معه يطيعه وكان الأمر كذلك ووصل الخبر إليه بانهزامهم فقال لأصحابه كنت أخبرتكم بكذا وكذا وقد وصل الخبر بذلك ولما عادت عساكر بغداد منهزمة قال بعض الشعراء وهو أحمد بن الواثق بالله .

أتركونا من جائحات الجريمة • طلعة طلعة تكون وخيمه
بركات الوزير قد شملتنا • فلهذا أمورنا مستقيمه
خرجت جندنا تريد خراسا • ن جميعا بأبها عظيمه

بخيول وعده وعديده وسيوف مجربات قديمه
 ووزير وطاق طناب ونقش و خيول معدة للهزيمة
 هم رأوا غرة العدو وقد أقبل ولوا وانحل عقد العزيز
 وأتونا ولا يخفى حنينه بوجوده سود قباج دميمة
 لورأى صاحب الزمان ولو عين أفعالهم وقبح الجريمة
 قابل الكل بالنكال و ناهيك بهاسبة عليهم مقيم

كان ينبغي أن تتقدم هذه الحادثة وإنما آخرتها لتتبع الحوادث المتقدمة بعضها بعضا لتعلق كل واحدة منها بالأخرى .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة توفي شيخنا أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد الله بن سويده التكريتي كان عالما بالحديث وله تصانيف حسنة . وفيها توفيت سلجوقه خاتون بنت قلع أرسلان بن مسعود ابن قلع أرسلان زوجة الخليفة وكانت قبله زوجة نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن فلما توفي عنها تزوجها الخليفة ووجد الخليفة عليها وجدا عظيما ظهر للناس كلهم وبني علي قبزها تربة بالجانب الغربي وإلى جانب التربة رباطه المشهور بالرملة . وفيها توفي علاء الدين تماش وحمل تابوته إلى مشهد الحسن عليه السلام . وفيها توفي خادم الخليفة وكان أكبر أمير بيغداد . ومات أبو الفرج بن النور العدل بيغداد وسمع الحديث الكثير وهو من بيت الحديث رحمه الله (١)

(١) وفيها توفي الأمير الكبير سلالة الملوك والسلاطين الشيرازي مؤيد الدولة أبو الحارث وأبو المظفر أسامة ابن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ أحد الشعراء المشهورين ، المشكورين ، بلغ من العمر ستا وتسعين سنة ، وكان عمره تاريخا مستقلا وحده ، وكانت داره بدمشق ، مكان العزيزية ، وكانت معقلا للفضلاء ، ومنزلا للعلماء وله أشعار زائفة ، ومعان فائقة ولديه علم غزير ، وعنده جود وفضل كثير ، وكان من أولاد ملوك شيراز ، ثم أقام بمصر مدة في أيام الفاطميين ، ثم عاد إلى الشام فقدم على الملك صلاح الدين في سنة سبعين وأنشده :

حمدت على طول عمري المشيبا . وإن كنت أكثرت فيه الذنوبا
 لأنى حيايت إلى أن لقيت . بعد العدو صديقا حبيبا
 وله في سن قلها وفقد نفعها :

وصاحب لا أمل الدهر صحبته . يشق لنفسي ويسعى سعي مجتهد
 لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا . لناظري افرقنا فرقة الأبد
 وله ديوان شعر كبير ، وكان صلاح الدين يفضل على سائر الدواوين ، وقد كان مولده في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وكان في شبابه شهما شجاعا ، قتل الأسد وحده مواجهة ، ثم عمر إلى أن توفي في هذه السنة ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من رمضان ، ودفن شرقي جبل قايسون . قال وزرت قبره وأنشدت له :

لا تستر جلدأ على هجرانهم . فقواك تضعف عن صدود دائم
 واعلم بأنك إن رجعت إليهم . طوطا وإلا عدت عودة نادم
 وله أيضا : واجب لضعف يدي عن حملها قلنا . من بعد حطم القناني لبة الأسد
 وقل لمن يتمنى طول مدته . هذى عواقب طول العمر والمدد

(ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة)

(ذكر فتح شقيف أرنوم) في هذه السنة في ربيع الأول صار صلاح الدين إلى شقيف أرنوم وهو من أمنع الحصون ليحصره فنزل بمرج عيون فنزل صاحب الشقيف وهو أرناط صاحب صيدا وكان هذا أرناط من أعظم الناس دهاء ومكرا فدخل إليه واجتمع به وأظهر له الطاعة والمودة وقال له أنا محب لك ومعتز بك يا حسانك وأخاف أن يعرف المركيس ما بيني وبينك فينال أولادى وأهلى منه أذى فإنهم عنده فأشتمى أن تمهلى حتى أتوصل في تخليصهم من عنده وحينئذ أحضر أنا هم عندك ونسلم الحصن إليك وأكون أنا وهم في خدمتك نقتنع بما تعطينا من أقطاع فظن صلاح الدين صدقه فأجابته إلى ما سأل فاستقر الأمر بينهما أن يتسلم الشقيف في جمادى الآخرة وأقام صلاح الدين بمرج عيون ينظر الميعاد وهو قلق مفكر لقرب انقضاء مدة الهدنة بينه وبين البيمنند صاحب أنطاكية فأمر تقي الدين ابن أخيه أن يسير فيمن معه من عساكره ومن يأتى من بلاد المشرق ويكون مقابل أنطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الإسلام عند انقضاء الهدنة وكان أيضا منزعج الخاطر كثير الهم لما بلغه من اجتماع الفرنج بمدينة صور وما يتصل بهم من الأمداد في البحر وأن ملك الفرنج الذى كان قد أمره صلاح الدين وأطلقه بعد فتح القدس قد اصطاح هو والمركيس بعد اختلاف كان بينهما وأنهم قد اجتمعوا في خلق لا تحصى فإنهم قد خرجوا من مدينة صور إلى ظاهرها فكان هذا وأشباهه مما يزعجه ويخاف من ترك الشقيف وراء ظهره والتقدم إلى صور . وفيها الجموع المتوافرة فتقطع الميرة عنه إلا أنه مع هذه الأشياء مقيم على العهد مع أرناط صاحب الشقيف وكان أرناط في مدة الهدنة يشتري الأقوات من سوق العسكر والسلاح وغير ذلك مما يحصن به شقيفة وكان صلاح الدين يحسن الظن وإذا قبل له عنه مما هو فيه من المكر وأن قصده المطاولة إلى أن يظهر الفرنج من صور وحينئذ يبدى فضيخته ويظهر مخالفته لا يقبل فيه فلما قارب انقضاء الهدنة تقدم صلاح الدين من معسكره إلى القرب من شقيف أرنوم وأحضر عنده أرناط وقد بقى من الأجل ثلاثة أيام فقال له في معنى تسليم الشقيف فاعتذر بأولاده وأهله وأن المركيس لم يمكنهم من الحجى إليه وطلب التأخير مدة أخرى فحينئذ علم السلطان مكره وخداعه فأخذه وحبسه وأمره بتسليم الشقيف فطلب قسيما ذكره ليحمل رسالة إلى من بالشقيف ليسلوه فأحضره عنده فساره بمالم يعلموا فضى ذلك القسيس إلى الشقيف فأظهر أهله العصيان فسير صلاح الدين أرناط إلى دمشق وسجنه وتقدم إلى الشقيف فحصره وضيق عليه وجعل عليه من يحفظه ويمنعه عن الذخيرة والرجال .

(ذكر وقعة اليزك مع الفرنج) لما كان صلاح الدين بمرج عيون وعلى الشقيف جأته كتب من أصحابه الذين جعلهم يزكا في مقابل الفرنج على صور يخبرونه فيها أن الفرنج قد أجمعوا على عبور الجسر الذى لصور وعزموا على حصار صيدا فسار صلاح الدين جريدة في شجعان أصحابه سوى من جعله على الشقيف فوصل إليهم وقد فات الأمر أن الفرنج قد فارقوا صور وساروا عنها لمقصد فلقبهم اليزك على مضيق هناك وقاتلهم ومنعوم وجرى لهم معهم حرب شديدة يشيب لها الوليد وأسروا من الفرنج جماعة وقتلوا جماعة وقتل من المسلمين أيضا جماعة منهم مملوك لصلاح الدين كان من أشجع الناس فحمل وحده على صف الفرنج فاختلف بهم وضربهم بسيفه يمينا وشمالا فتكاثروا عليه فقتلوه رحمه الله ثم إن الفرنج عجزوا عن الوصول إلى صيدا

فعادوا إلى مكاهم .

(ذكر وقعة ثانية للغزاة المتطوعة) لما وصل صلاح الدين إلى اليزك وقد فاتته تلك الوقعة أقام عندهم في خيمة صغيرة ينتظر عودة الفرنج لينتقم منهم ويأخذ بثأر من قتلوه من المسلمين فركب في بعض الأيام في عدة يسيرة على أن ينظر إلى مخيم الفرنج من الجبل ليعمل بمقتضى ما يشاهده وظن من هناك من غزاة العجم والعرب المتطوعة أنه على قصد المصاف والحرب فساروا مجدين وأوغلوا في أرض العدو مبعدين وفارقوا الحزم وخلفوا السلطان وراء ظهورهم وقاربوا الفرنج فأرسل صلاح الدين عدة من الأمراء يردونهم ويحمونهم إلى أن يخرجوا فلم يسمعوا ولم يقبلوا وكان الفرنج قد اعتقدوا أن وراهم كميناً فلم يقدموا عليهم فأرسلوا من ينظر حقيقة الأمر فأنام الخبر أنهم منقطعون عن المسلمين وليس وراهم ما يخاف فحملت الفرنج عليهم حملة رجل واحد فقاتلهم فلم يلبثوا أن أمانهم وقتل معهم جماعة من المعروفين وشق على صلاح الدين والمسلمين ما جرى عليهم وكان ذلك بتفريطهم في حق أنفسهم رحمهم الله ورضى عنهم وكانت هذه الوقعة تاسع جمادى الأولى فلما رأى صلاح الدين ذلك انحدر من الجبل إليهم في عسكره فحملوا على الفرنج فالتقوا إلى الجسر وقد أخذوا طريقهم فالتقوا أنفسهم في الماء فغرق منهم نحو مائة دارع سوى من قتل وهزم السلطان على مصابرتهم ومحاصرتهم فتسامع الناس فقصدوه واجتمع معه خلق كثير فلما رأى الفرنج ذلك عادوا إلى مدينة صور فلما عادوا إليها عاد صلاح الدين إلى تبين ثم إلى عكا ينظر حالها ثم عاد إلى العسكر والمخيم .

(ذكر وقعة ثالثة) لما عاد صلاح الدين إلى العسكر أتاه الخبر أن الفرنج يخرجون من صور للاحتطاب والاحتشاش متبديدين فكتب إلى من بعكاه من العسكر وواعدهم يوم الإثنين ثامن جمادى الآخرة ليلاقوم من الجانبين ورتب كميناً في موضع من تلك الأودية والشعاب واختار جماعة من شجعان عسكره وأمرهم أنهم إذا حمل عليهم الفرنج قاتلهم شيئاً من قتال ثم تطاردوا لهم وأروهم العجز عن مقاتلتهم فإذا تبهم الفرنج استجروهم إلى أن يجوزوا مواضع الكمين ثم يعطفوا عليهم ويخرج الكمين من خلفهم فخرجوا على هذه العزيمة فلما تراءى الجمعان والتقت الفئتان انف فرسان المسلمين أن يظهر عنهم اسم الهزيمة وثبتوا فقاتلهم وصبر بعضهم لبعض واشتد القتال وعظم الأمر ودامت الحرب وطال على الكمين الانتظار فخافوا على أصحابهم وخرجوا من مكاهم محوهم مسرعين وإليهم قاصدين فاتوهم وهم في شدة الحرب فازداد الأمر شدة على شدة فخرجوا من مكاهم محوهم مسرعين وإليهم قاصدين فاتوهم وهم في شدة الحرب فازداد الأمر شدة على شدة وكان فيهم أربعة أمراء من ربيعة طى وكانوا يجهلون تلك الأرض فلم يسلكوا مسلك أصحابهم فسلكوا الوادى ظناً منهم أنه يخرج بهم إلى أصحابهم وتبعهم بعض ممالك صلاح الدين فلما رأهم الفرنج بالوادى علموا أنهم جاهلون فاتوهم وقاتلهم وأما المملوك فإنه نزل عن فرسه وجلس على صخرة وأخذ قوسه بيده وحى نفسه وجعلوا يرمونه بسهام الزنبورك وهو يرميهم فخرج منهم جماعة وجرحوه جراحات كثيرة فسقط فاتوه وهو بأخر رمق فتركوه وانصرفوا وهم يحسبونه ميتاً ثم إن المسلمين جاؤا من الغد إلى موضعهم فرأوا القتلى ورأوا المملوك حياً فحملوه في كساء وهو لا يكاد يعرف من الجراحات فأيسوا من حياته وأعرضوا عليه الشهادة وبشروه بالشهادة فتركوه ثم عادوا إليه فرأوه وقد قويت نفسه فأقبلوا عليه بمشروب فعوفى ثم كان بعد ذلك لا يحضر مشهداً إلا كان له فيه الأثر العظيم .

(ذكر مسير الفرنج إلى عكا ومحاصرتها) لما كثر جمع الفرنج بصور على ما ذكرناه من أن صلاح الدين

كان كلما فتح مدينة أو قلعة أعطي أهلها الأمان وسيرهم إليها بأموالهم ونسائهم وأولادهم فاجتمع بها منهم عالم كثير لا يعد ولا يحصى ومن الأموال مالا يقى على كثرة الإنفاق في السنين الكثيرة ثم إن الرهبان والقسس وخلقا كثيرا من مشهورينهم وفرسانهم لبسوا السواد وأظهروا الحزن على خروج البيت المقدس من أيديهم وأخذهم البرك الذي كان بالقدس ودخل بهم بلاد الفرنج بطونها بهم جميعا ويستجدون أهلها ويستجيرون بهم ويحثونهم على الأخذ بثار البيت المقدس وصور المسيح عليه السلام وجعلوا صورة رجل عربي والعربي يضربه وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام وقالوا لهم هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين وقد جرحه وقتله فعظم ذلك على الفرنج فحشروا وحشدوا حتى إذا هم كانوا في عكا على عدة من النساء يبارزون الأقران على ما ذكره إن شاء الله تعالى ومن لم يستطع الخروج استأجر من يخرج عوضه أو يعطيهم مالا على قدر حاجتهم فاجتمع لهم من الرجال والأموال مالا يتطرق إليه الإحصاء (ولقد حدثني) بعض المسلمين المقيمين بحصن الأكراد وهو من أجناد أصحابه الذين سلموه إلى الفرنج قديما وكان هذا الرجل قد ندم على ما كان منه من موافقة الفرنج في الغارة على بلاد الإسلام والقتال معهم والسعي معهم وكان سبب اجتماعي به ما ذكره سنة تسعين وخمسمائة إن شاء الله تعالى قال لي هذا الرجل إنه دخل مع جماعة من الفرنج من حصن الأكراد إلى البلاد البحرية التي للفرنج والروم في أربع شواني يستجدون قال فأنتهى بنا الطواف إلى رومية الكبرى فخرجنا منها وقد ملأنا الشواني نقرة (وحدثني) بعض الأسرى منهم أن له والدة ليس لها ولد سواه ولا يملكون من الدنيا غير بيت باعته وجهازه بثمنه وسيرته لاستنقاذ البيت المقدس فأخذ أسيرا وكان عند الفرنج من الباعث الديني والنفساني ما هذا حده فخرجوا على الصعب والذلول برا وبحرا من كل فج هببق ولولا الله تعالى لطف بالمسلمين وأهلك ملك الألمان لما خرج على ما ذكره عند خروجه إلى الشام وإلا كان يقال إن الشام ومصر كانتا للمسلمين فهذا كان سبب خروجهم فلما اجتمعوا بصور يهوج بعضهم في بعض ومعهم الأموال العظيمة والبحر يمدحهم بالآقوات والذخائر والعدد والرجال من بلادهم فضاعت عليهم صور باطنها وظاهرها فأرادوا قصد صيدا وكان ما ذكرناه فعادوا وانفقوا على قصد عكا ومحاصرتها ومصابرتها فساروا إليها بفارسهم وراجاهم وقضهم وقضيضهم ولزموا البحر في مسيرهم لا يفارقونه في السهل والوعر الضيق والسعة ومرا كبحهم تسير مقابلهم في البحر فيها سلاحهم وذخائرهم ولتكون عدة لهم إن جاءهم مالا قبل لهم به ركبوا فيها وعادوا وكان رحيلهم ثامن رجب ونزلهم على عكا في منتصفه ولما كانوا سائرين كان يترك المسلمين يتخطفونهم ويأخذون المنفرد منهم ولما رحلوا جاء الخبر إلى صلاح الدين برحيلهم فسار حتى قاربهم ثم جمع أمراءه واستشارهم هل يكون المسير محاذة الفرنج ومقاتلتهم وهم سائرون أو يكون في غير الطريق التي سلكوها فقالوا لا حاجة بنا إلى احتمال المشقة في مسيرتهم فإن الطريق وعمر وضيق ولا يتبأ لنا ما زبده منهم والرأى أننا نسير في الطريق المهيح ونجتمع عليهم عند عكا فنفرقهم ونمزقهم فعمل مياهم إلى الراحة المعجلة فوافقهم وكان رأيه مسيرتهم ومقاتلتهم وهم سائرون وقال إن الفرنج إذا نزلوا لصقوا بالأرض فلا يتبأ لنا لإزعاجهم ولا نبل الغرض منهم والرأى قتالهم قبل الوصول إلى عكا فخالفوه فقبهم وساروا على طريق كفر كنا فسبقهم الفرنج وكان صلاح الدين قد جعل في مقابل الفرنج جماعة من الأمراء يسايرونهم ويناشونهم القتال ويتخطفونهم ولم يقدم الفرنج عليهم مع قتلهم فلأن العساكر

اتبعت رأى صلاح الدين في مسابرتهم ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكا لكان بلغ غرضه وصددهم عنها ولكن إذا أراد الله أمراً هياً أسبابه ولما وصل صلاح الدين إلى عكا رأى الفرنج قد نزلوا عليها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر ولم يبق للمسلمين إليها طريق فنزل صلاح الدين عليهم وضرب خيمته على تل كيسان وامتدت ميمته إلى تل الغياضية وميسرته إلى النهر الجاري ونزلت الأثقال بصفورية وسير الكتب إلى الأطراف باستدعاء العساكر فأتاه عسكر الموصل وديار بكر وسنجار وغيرها من بلاد الجزيرة وأناه تقي الدين بن أخيه وأناه مظفر الدين بن زين الدين وهو صاحب حران والرها وكانت الأمدادات تأتي المسلمين في البر وتأتي الفرنج في البحر وكان بين الفريقين مدة مقامهم على عكا حروب كثيرة ما بين صغيرة وكبيرة منها اليوم المشهور ومنها ما هو دون ذلك وما عداها كان قتالا يسيراً من بعضهم مع بعض فلا حاجة إلى ذكره ولما نزل السلطان عليهم لم يقدر على الوصول إليهم ولا إلى عكا حتى انسلخ رجب ثم قاتلهم مستهل شعبان فلم ينل منهم ما يريد وبات الناس على تعبئة فلما كان الغد باكرهم القتال بحده وحديده واستدار عليهم من سائر جهاتهم من بكرة إلى الظهر وصبر الفريقان صبر حار له من رآه فلما كان وقت الظهر حمل عليهم تقي الدين حملة منكرة من الميمنة على من يليه منهم فأزاحهم عن موافقهم فركب بعضهم بعضاً لا يلوى أخ على أخ والتجؤوا إلى من يليهم من أصحابهم واجتمعوا بهم وأخلوا نصف البلد وملك تقي الدين مكانهم والتصق بالبلد وصار ما أخلوه بيده ودخل المسلمون البلد وخرجوا منه واتصلت الطرق وزال الحصر عن فيه وأدخل صلاح الدين إليه من أراد من الرجال وما أراد من الذخائر والأموال والسلاح وغير ذلك ولو أن المسلمين لزموا قتالهم إلى الليل لبلغوا ما أرادوه فإن للصدمة الأولى روعة لكنهم لما نالوا منهم هذا القدر أخذوا إلى الراحة وتركوا القتال وقالوا نبا بكرم غدا ونقطع دابرهم وكان في جملة من أدخله صلاح الدين إلى عكا من جملة الأمراء حسام الدين أبو الهيجاء السمين وهو من أكابر أمراء عسكره وهو من الأكراد الخطية من بلد إربل وقتل من الفرنج هذا اليوم جماعة كبيرة.

(ذكر وقعة أخرى ووقعة العرب) ثم إن المسلمين نهضوا إلى الفرنج من الغد وهو سادس شعبان عازمين على بذل جهدهم واستنفاد وسعهم في استنصاحهم فتقدموا على تعبئتهم فرأوا الفرنج حذرين محتاطين قد ندموا على ما فرطوا فيه بالأمس وهم قد حفظوا أطرافهم ونواحيهم وشرعوا في حفر خندق يمنع من الوصول إليهم فألح المسلمون عليهم في القتال فلم يتقدم الفرنج إليهم ولا فارقوا مرابضهم فلما رأى المسلمون ذلك عادوا عنهم ثم إن جماعة من العرب بلغهم أن الفرنج تخرج من الناحية الأخرى إلى الاحتطاب وغيره من أشغالهم فكمنوا لهم في معاطف النهر ونواحيه سادس عشر شعبان فلما خرج جمع من الفرنج على عادتهم حملت عليهم العرب فقتلوا من آخرهم وغنموا ما كان معهم وحملوا الرؤوس إلى صلاح الدين فأحسن إليهم وأعطاهم الخلع.

(ذكر الوقعة الكبرى على عكا) لما كان بعد هذه الوقعة المذكورة بقي المسلمون إلى العشرين من شعبان كل يوم يغادرون القتال مع الفرنج ويرأون حونه والفرنج لا يظهرون من معسكرهم ولا يفارقونه، ثم إن الفرنج اجتمعوا للشورة فقالوا إن عسكر مصر لم يحضروا الحال مع صلاح الدين هكذا فكيف يكون إذا حضروا والرأى أننا نلقى المسلمين غدا لعنا نظفر بهم قبل اجتماع العساكر والأمداد إليهم وكان كثير من عسكر

صلاح الدين غائبا عنه بعضهم مقابل أنطاكية ليردوا غائلة البيمنند صاحبها عن أهمال حلب وبعضهم في حمص مقابل طرابلس ليحفظ ذلك الثغر أيضا وعسكر في مقابل صور لحماية ذلك البلد وعسكر بمصر يكون بشغر دمياط والإسكندرية وغيرهما والذي بقي من عسكر مصر كانوا لم يصلوا لطول بيكارهم كما ذكرناه قبل وكان هذا مما أطمع الفرنج في الظهور إلى قتال المسلمين وأصبح المسلمون على عاداتهم منهم من يتقدم إلى القتال ومنهم من هو في خيمته ومنهم من قد توجه في حاجته من زيارة صديق وتحصيل ما يحتاج إليه هو وأصحابه ودوابه إلى غير ذلك فخرج الفرنج من معسكرهم كأهم الجراد المتشر يدبون على وجه الأرض قد ماؤها طولا وعرضا وطلبوا ميمنة المسلمين وعليها تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين فلما رأى أن الفرنج نحوه قاصدين حذر هو وأصحابه فتقدموا إليه فلما قربوا منه تأخر عنهم فلما رأى صلاح الدين الحال وهو في القلب أمد تقي الدين رجال من عنده ليتقوى بهم وكان عسكر ديار بكر وبعض الشرقيين في جناح القلب فلما رأى الفرنج قلة الرجال في القلب وأن كثيرا منهم قد ساروا نحو الميمنة مددا لهم عطفوا على القلب فحملوا حملة رجل واحد فاندفعت العساكر بين أيديهم منهزمين وثبت بعضهم فاستشهد جماعة منهم كالأمير مجلي بن مروان والظهير أخي الفقيه عيسى وكان والى البيت المقدس قد جمع بين الشجاعة والعلم والدين والحاجب خليل الهكاري وغيرهم من الشجعان الصابرين في مواطن الحرب ولم يبق بين أيديهم في القلب من يردهم فقصدوا التل الذي عليه خيمة صلاح الدين فقتلوا من مروا به ونهبوا وقتلوا عند خيمة صلاح الدين جماعة منهم شيخنا جمال الدين أبو علي بن رواحة الحموي وهو من أهل العلم وله شعر حسن وماورث الشهادة من بعيد فإن جده عبدالله بن رواحة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله الروم يوم مؤتة وهذا قتله الفرنج يوم عكا وقتلوا غيره وانحدروا إلى الجانب الآخر من التل فوضعوا السيف فيمن لقوه وكان من لطف الله تعالى بالمسلمين أن الفرنج لم يلقوا خيمة صلاح الدين ولو ألقوها لعلم الناس وصولهم إليها وانهمزام العساكر بين أيديهم فكانوا إنهمزوا أجمعون ثم إن الفرنج نظروا وراءهم فرأوا أمدادهم قد انقطعت عنهم فرجعوا خوفا أن ينقطعوا عن أصحابهم وكان سبب انقطاعهم أن الميمنة وقفت مقابلهم فاحتاج بعضهم يقف مقابلها وحملت ميسرة المسلمين على الفرنج فاشتغل المدد بقتال من بها عن الاتصال بأصحابهم وعادوا إلى طرف خنادقهم فحملت الميسرة على الفرنج الواصلين إلى خيمة صلاح الدين صادفهم وهم را جمعون فقاتلهم ونار بهم غلمان العسكر وكان صلاح الدين لما انهزم القلب قد تبعهم يناديهم ويأمرهم بالكرة ومعاودة القتال فاجتمع معه منهم جماعة سالحة فحمل بهم على الفرنج من وراء ظهورهم وهم مشغولون بقتال الميسرة فأخذتهم سيوف الله من كل جانب فلم يفلت منهم أحد بل قتل أكثرهم وأخذ الباقون أسرى وفي جملة من أسر مقدم الداوية الذي كان قد أسره صلاح الدين وأطلقه فلما ظهر به الآن قتله وكانت عدة القتلى سوى من كان إلى جانب البحر نحو عشرة آلاف قتيل فأمر بهم فألقوا في النهر الذي يشرب الفرنج منه وكان عامة القتلى من فرسان الفرنج فإن الرجال لم يلحقوهم وكان في جملة الأسرى ثلاث نسوة فرنجيات كن يقاتلان على الخيل فلما أسرن وألقى عنهن السلاح عرفن أنهن نساء. وأما المنهزمون من المسلمين فمنهم من رجع من طبرية ومنهم من جاوز الأردن وعاد ومنهم من بلغ دمشق ولولا أن العساكر تعرفت في الهزيمة لكانوا بلغوا من الفرنج من الاستئصال والإهلاك مرادهم على أن الباقين بذلوا جهدهم وجدوا في القتال وصمموا على الدخول مع الفرنج في معسكرهم لعلهم يفرعون منهم فجاءهم الصريح بأن رحلهم وأمرهم قد نهبت وكان سبب هذا

النهب أن الناس لما رأوا الهزيمة حملوا أثقالهم على الدواب فثار بهم أوباش العسكر وغلماه فنهوه وأنوا عليه وكان في عزم صلاح الدين أن يياكرهم القنال والزحف فرأى اشتغال الناس بما ذهب من أموالهم وهم يسمعون في جمعها وتحصيلها فأمر بالنداء بإحضار ما أخذ فأحضر منه ما ملأ الأرض من المفارش والعيب المملوءة والشباب والصلاح وغير ذلك فرد الجميع على أصحابه فقائه ذلك اليوم ما أراد فسكن زرع الفرنج وأصحابوا شأن الباقيين منهم (ذكر رحيل صلاح الدين عن الفرنج وتمكنهم من حصر عكا) لما قتل من الفرنج ذلك العدد الكثير جافت الأرض من تنريحهم وفسد الهواء والجو ووجدت الأزجة فسادا واحرف مزاج صلاح الدين وحدث له قولنج مبرح وكان يعتاده فحضر عنده الأمراء وأشاروا عليه بالانتقال من ذلك الموضع وترك مضايقة الفرنج وحسنوه له وقالوا قد ضيقنا على الفرنج ولو أرادوا الاتصال عن عكا لم يقدرنا والراي أننا نبعده عنهم بحيث يتمكنون من الرحيل والعود فإن رحلوا فقد كفينا شرهم وكفرا شرنا وإن أقاموا عادوا القنال ورجعنا معهم إلى ما نحن فيه ثم إن مزاجك منحرف والألم شديد ولو وقع لجفاف لك الناس والراي على كل تقدير البعد عنهم ووافقهم الأطباء على ذلك فأجابهم إليه إلى ما يريد الله أن يفعله (وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال) فرحلوا إلى الخربة رابع شهر رمضان وأمر من بعكا من المسلمين بحفظها وإغلاق أبوابها والاحتياط وأعلمهم بسبب رحيله فلما رحل هو وعساكره أمن الفرنج وانبطوا في تلك الأرض وعادوا وحصروا عكا وأحاطوا بها من البحر إلى البحر ومراكبهم أيضا في البحر تحصرها وشرعوا في حفر الخندق وعمل السور من التراب الذي يخرجونه من الخندق وجاءوا بمالم يكن في الحساب وكان البزك كل يوم يوافقهم وهم لا يقاتلون ولا يتحركون إنما هم معتمدون بحفر الخندق والسور عليهم ليتحصنوا به من صلاح الدين إن عاد إلى قتالهم فحينئذ ظهر رأي المشيرين بالرحيل وكان البزك كل يوم يخبرون صلاح الدين بما يصنع الفرنج ويعظمون الأمر عليه وهو مشغول بالمرض لا يقدر على النهوض للحرب وأشار عليه بعضهم بأن يرسل العساكر جميعها إليها لينعهم من الخندق والسور ويقانلوهم ويتخلف هو عنهم فقال إذا لم أحضر معهم لا يفعلون شيئا وربما كان من الشر أضعاف ما رجوه من الخير فتأخر الأمر إلى أن عوفي فتمكن الفرنج وهملوا ما أرادوا وأحكموا أمورهم وحصنوا نفوسهم بما وجدوا إليه السبيل وكان من بمكا يخرجون إليهم كل يوم ويقانلونهم وينالون منهم بظاهر البلد.

(ذكر وصول عسكر مصر والأسطول المصري في البحر) في منتصف شوال وصلت العساكر المصرية ومقدمها الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب فلما وصل قويت نفوس الناس به وبمن معه واشتدت ظهورهم وأحضر معه من آلات الحصار من الدرق والطارقيات والنشاب والأقواس شيئا كثيرا ومعهم من الرجالة الجمل الغفير وجمع صلاح الدين من البلاد الشامية راجلا كثيرا وهو على عزم الزحف إليهم بالفارس والراجل ووصل بده الأسطول المصري ومقدمه الأمير لؤلؤ وكان شهما شجاعا مقداما خبيرا بالبحر والقتال فيه ميمون النقيبة فوصل بفتة فرقع على بطسة كبيرة للفرنج فغنمها وأخذ منها أموالا كثيرة وميرة عظيمة فأدخلها إلى عكا فسكنت نفوس من بها بوصول الأسطول وقوى جناتهم.

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في صفر خطب لولي العهد أبي نصر محمد بن الخليفة الناصر لدين الله ببغداد ونثرت الدنانير والدرهم وأرسل إلى البلاد في إقامة الخطبة ففعل ذلك. وفيها في شوال ملك الخليفة

تكريت وسبب ذلك أن صاحبها وهو الأمير عيسى قتله إخوته وملكوا القلعة بعده فسير الخليفة إليهم لمسكرا فحصرها وتسلبوها ودخل أصحابه إلى بغداد فأعطوا أقطاعا وفيها في صفر فتح الرباط الذي بناه الخليفة بالجانب العربي من بغداد وحضر الخلق العظيم فكان يوم مشهودا . وفي هذه السنة في رمضان مات شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن أبي عسرون الفقيه الشافعي بدمشق وكان قاضيا وأضر وولى القضاء بعده ابنه وكان الشيخ من أعيان الفقهاء الشافعية . وفيها في ذي القعدة توفي الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري بالخروبة مع صلاح الدين وهو بن أعيان أمراء عسكره ومن قدماء الأسدية وكان فقيها جنديا شجاعا كريما ذا عصبية ومروءة وهو من أصحاب الشيخ الإمام أبي القاسم بن البرزى تفقه عليه بجزيرة ابن عمر ثم اتصل بأسد الدين شيركوه فصار إماما له فرأى من شجاعته ما جعل له أقطاعا وتقدم عند صلاح الدين تقدما عظيما . وفيها في صفر توفي شيخنا أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن وهبان المعروف بابن أفضل الزمان بمكة وكان رحمه الله عالما متبحرا في علوم كثيرة خلاف فقه مذهبه والأصولين والحساب والرائض والنجوم والهيئة والمنطق وغير ذلك وختم أعماله بالزهد ولبس الحشن وأقام بمكة حربها الله تعالى مجاورا فتوفي بها وكان من أحسن الناس صحة وخلقا . وفيها في ذي القعدة مات أبو طاب المبارك بن المبارك الكرخي مدرس النظامية وكان من أصحاب أبي الحسن بن الخلل وكان صالحا خيرا له عند الخليفة والعامه حرمة عظيمة وجاء عريض وكان حسن الخط يضرب به المثل

(ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة)

(ذكر وقعة الفرنج واليزك وعود صلاح الدين إلى منازل الفرنج) قد ذكرنا رحيل صلاح الدين عن عكا إلى الخروبة لمرضه فلما برأ أقام بمكانه إلى أن ذهب الشتاء وفي مدة مقامه بالخروبة كان يزكه وطلائعه لا تنقطع عن الفرنج فلما دخل صفر من سنة ست وثمانين وخمسمائة سمع الفرنج أن صلاح الدين قد سار للصيد ورأى العسكر الذي في اليزك عندهم قليلا وأن الوحل الذي في مرج عكا كثير يمنع من سلوكه من أراد أن ينجد اليزك فاغتموا ذلك وخرجوا من خندقهم على اليزك وقت العصر فقاتلهم المسلمون وحموا أنفسهم بالنشاب ، وأحجموا بالفرنج عنهم حتى قتلوا نصابهم ، فحملوا عليهم حينئذ حملة رجل واحد ، فاشتد القتال وعظم الأمر وعلم المسلمون أنه لا ينجبهم إلا الصبر وصدق القتال فقاتلوا قتال مستقتل إلى أن جاء الليل وقتل من الفريقين جماعة كثيرة وعاد الفرنج إلى خندقهم ولمساعد صلاح الدين إلى المعسكر سمع خبر الواقعة فندب الناس إلى نصر إخوانهم فأماه الخبر أن الفرنج عادوا إلى خندقهم فأقام ثم إنه رأى الشتاء قد ذهب وجاءته العساكر من البلاد القريبة منه دمشق وحمص وحماة وغيرها فتقدم من الخروبة نحو عكا فنزل بتل كيسان وقاتل الفرنج كل يوم ليشغلهم عن قتال من بعكا من المسلمين فكانوا يقاتلون الطائفتين ولا يسأمون .

(ذكر إحراق الأبراج ووقعة الأسطول) كان الفرنج في مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جدا طول كل برج منها خمس طبقات كل طبقة مملوءة من المقاتلة وقد جمع أخشابها من الجزائر فإن مثل هذه الأبراج العظيمة لا يصلح لها من الخشب إلا القليل النادر وغشوها بالجلود والخل والعطين والأدوية التي تمنع النار من إحراقها وأصلحو الطرق لها وقدموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات وزحفوا بها من العشرين من ربيع الأول فأشرفت على السور وقاتل من بها من عليه فأنكشفوا وشرهوا في طم خندقها

فأشرف البلد على أن يملك عنوة وقهرا فأرسل أهله إلى صلاح الدين إنسانا سبج في البحر فأعلمه ما هم فيه من الضيق وما قد أشرفوا عليه من أخذهم وقتلهم فركب هو وءاكره وتقدموا إلى الفرنج وقاتلهم من جميع جهاتهم قتالا عظيما دائما يشغلهم عن مكاثرة البلد فاهترق الفرنج فرقتين فرقة تقاتل صلاح الدين وفرقة تقاتل أهل عكا إلا أن الأمر قد خف عن بالبلد ودام القتال ثمانية أيام متتابة آخرها الثامن والعشرون من الشهر وسُمَّ الريقان القتال وملوا منه لملازمته لبلان ونهارا والمسلمون قد تيقنوا استيلاء الفرنج على البلد لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الأبراج فإنهم لم يتركوا حيلة إلا عملوها فلم يقد ذلك ولم يغن عنهم شيئا وتابعوهم الرمي بالنفط الطيار عابها فلم يؤثر فيها فأيقنوا بالبورار والهلاك فأنام الله بنصر من عنده وأذن من إحراق الأبراج وكان سبب ذلك أن إنسانا من أهل دمشق كان مولما بجميع آلات النفاطين وتحصيل عقاقير تقوى عمل النار فكان من يعرفه يلومه على ذلك وينكره عليه وهو يقول هذه حالة لم أبشرها بنفسى إنما أشتى معرفتها وكان بعكا لأمر يريد الله فلما رأى الأبراج قد نصبت على عكا شرع في عمل ما يعرفه من الأدوية المقوية للبار بحيث لا يمنعها شيء من الطين والخل وغيرهما فلما فرغ منها حضر عند الأمير قراقوش وهو متولى الأمور بعكا والحاكم فيها وقال له يأمر المنجنيق أن يرمى في المنجنيق المحاذى لبرج من هذه الأبراج ما أعطيه حتى أحرقه وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله فازداد غيظا بقوله وحرد عليه فقال له قد بالغ أهل هذه الصناعة في الرمي بالنفط وغيره فلم يفلحوا فقال له من حضر لعل الله تعالى قد جعل الفرج على يد هذا ولا يضرننا أن نوافق على قوله فأجابه إلى ذلك وأمر المنجنيق بامثال أمره فرمى عدة قدور نفطا وأدوية ليس فيها نار فكان الفرنج إذا رأوا القدر لا يحرق شيئا يضحون ويرقصون ويلعبون على سطح البرج حتى علم أن الذي ألقاه قد تمكن من البرج ألقى قدرا مملوءا وجعل فيها النار فاشتعل البرج وألقى قدرا ثانية وثالثة فاضطربت النار في نواحي البرج وأعجلت من في طبقاته الخمس عن الهرب والخلاص فاحترق هو ومن فيه وكان فيه من الزرديات والسلاح شيء كثير وكان طمع الفرنج بما رأوا أن القدر الأولى لا تعمل بحملهم على الطمأنينة وترك السعى في الخلاص حتى عجز الله لهم النار في الدنيا قبل الآخرة، فلما احترق البرج الأول انتقل إلى الثاني وقد هرب من فيه لخوفهم فأحرقه وكذلك الثالث وكان يوما مشهودا لم ير الناس مثله والمسلمون ينظرون ويفرحون وقد أسفرت وجودهم بعد الكآبة فرحا بالنصر، وخلاص المسلمين من القتل، لأنهم ليس فيهم أحد إلا وله في البلد إما نسيت وإما صديق وحمل ذلك الرجل إلى صلاح الدين فبذل له الأموال الجزيلة والإقطاع الكثيرة فلم يقبل منه الحبة الفرد وقال إنما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء إلا منه وسيرت الكتب إلى البلاد بالبشائر وأرسل يطلب العساكر الشرقية فأول من أتاه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي وهو صاحب سنجار وديار الجزيرة ثم أتاه علاء الدين ولد عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي سيره أبوه مقدما على عسكره وهو صاحب الموصل ثم وصل زين الدين يوسف صاحب إربل وكان كل منهم إذا وصل يتقدم إلى الفرنج بعسكره وينضم إليه غيرهم ويقاتلونهم ثم ينزلون ووصل الأسطول من مصر فلما سمع الفرنج بقربه جهزوا إلى طريقه أسطولا ليلقاه ويقاتله فركب صلاح الدين في العساكر جميعها وقاتلهم من جهاتهم ليشتغلوا بقتاله عن قتال الأسطول ليتمكن من دخول عكا فلم يشتغلوا عن قصده بشيء فكان القتال بين الفريقين برا وبحرا وكان يوما مشهودا لم يورخ مثله وأخذ المسلمون من الفرنج مركبا فيه من الرجال والسلاح وأخذ الفرنج من

المسلمين مثل ذلك إلا أن القتل في الفرنج كان أكثر منه في المسلمين ووصل الأسطول الإسلامي سالماً .
 (ذكر وصول ملك الألمان إلى الشام وموته) في هذه السنة خرج ملك الألمان من بلاده وهم نوع
 من الفرنج من أكثرهم عدداً وأشدهم بأساً وكان قد أرحمهم ملك الإسلام البيت المقدس فجمع عساكره وأزاح
 عنهم وسار عن بلاد وطريقه على القسطنطينية فأرسل ملك الروم بهذا إلى صلاح الدين يعرفه الخبر ويعدده
 أنه لا يمكنه من العبور في بلاده فلما وصل ملك الألمان إلى القسطنطينية عجز ملكه عن منعه من العبور
 لكثرة جموعه لكنه منع عنهم الميرة ولم يمكن أحداً من رعيته من حمل ما يريدونه إليهم فضافت بهم الأزواد
 والأقوات وساروا حتى عبروا خليج القسطنطينية وساروا على أرض بلاد الإسلام وهي مملكة الملك قلاج
 أرسلان بن مسعود بن قلاج أرسلان بن قلمش بن سلاجق فلما وصلوا إلى أوائلها نار بهم التركمان الأراج فما
 زالوا يسايرونهم ويقتلون من انفراد يسرقون ما قدروا عليه وكان لزمان شتاء والبرد يكون في تلك البلاد شديد
 والثاج متراكماً فأهلكهم البرد والجوع والزرعان فقتل عددهم فلما قاربوا مدينة قونية خرج إليهم الملك قطب
 الدين ملك شاه بن قلاج أرسلان لينعهم فلم يكن له بهم قوة فعاد إلى قونية وبها أبوه قد حجر ولده المذكور
 عليه وتفرق أولاده في بلاده وتغلب كل واحد منهم على ناحية منها فلما عاد عنهم قطب الدين أسرعوا السير في
 أثره فانزلوا قونية وأرسلوا إلى قلاج أرسلان هدية وقالوا له ما قصدنا بلادك ولا أردناها وإنما قصدنا البيت
 المقدس وطلبوا منه أن يأذن لرعيته في إخراج ما يحتاجون إليه من قوت وغيره فأذن في ذلك فاتاهم ما يريدون
 فشبوا وتزودوا وساروا ثم طلبوا من قطب الدين أن يأمر رعيته بالكف عنهم وأن يلم إليهم جماعة من أمرائه
 رهائن وكان يخافهم فسلم إليهم نيفا وعشرين أميراً كان يكرههم فساروا بهم معهم ولم يمنع اللصوص وغيرهم
 من قصدهم والتعرض إليهم فقبض ذلك الألمان وقيدهم فمهم من هلك في أسره ومنهم من فدى نفسه وسار ملك
 الألمان حتى أتى بلاد الأرمن وصاحبها لافون بن اصطفان بن ليون فأمدهم بالأقوات والعلوفات وحكمهم
 في بلاده وأظهر الطاعة لهم ثم ساروا بحر أنطاكية وكان في طريقهم نهر فزلوا عنده ودخل ملكهم إليه ليفتسل
 فغرق في مكان منه لا يبلغ الماء وسط الرجل وكفى الله شره ، وكان معه ولده فصار ملكاً بعده وسار إلى
 أنطاكية فاختلف أصحابه عليه فأحب بعضهم العود إلى بلاده فتخاف عنه وبهضهم مال إلى تملك أخ له فعاد أيضاً وأسار
 فيمن صحت نيته له فعرضهم وكانوا نيفا وأربعين ألفاً ووقع فيهم الوباء والموت فوصلوا إلى أنطاكية وكانهم قد
 نبشوا من القبور فترم بهم صاحبها وحسن لهم المسير إلى الفرنج على عكا فساروا على جباله ولادقية وغيرها
 من البلاد التي ملكها المسلمون وخرج أهل حلب وغيرها إليهم وأخذوا منهم خلقاً كثيراً ومات أكثر من أخذ
 فبلغوا طرابلس وأقاموا بها أياماً فكثير فيهم الموت فلم يبق منهم إلا نحو ألف رجل فركبوا في البحر إلى الفرنج
 الذين على عكا ولما وصلوا ورأوا ما نالهم في طريقهم وما هم فيه من الاختلاف عادوا إلى بلادهم ففرقت بهم
 المراكب ولم ينج منهم أحد وكان الملك قلاج أرسلان يكتب صلاح الدين بأخبارهم ويعدده أنه يمنعهم من العبور
 في بلاده فلما عبروها وخلفوها أرسل يتعذر بالعجز عنهم لأن أولاده حكموا عليه وحجروا عليه وتفرقوا
 عنه وخرجوا عن طاعته ، وأما صلاح الدين عند وصول الخبر بعبور ملك الألمان فإنه استشار أصحابه فأشار
 كثير منهم عليه بالمسير إلى طريقهم ومحاربتهم قبل أن يتصلوا بمن على عكا فقال بل نقيم إلى أن يقرروا منا
 وحينئذ نفعل ذلك لئلا يستلم من بعكنا من عساكرنا لكنه سير من عنده من العساكر منها عسكر حلب

وجبله ولادقية وشيزر وغير ذلك إلى أعمال حلب ليكونوا من أطراف البلاد يحفظونها من عاديهم وكان حال المسلمين كما قال الله عز وجل (إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) فكفى الله شرهم ورد كيدهم في نحرهم ومن شدة خوفهم أن بعض أمراء صلاح الدين كان له بيلد الموصل قرية وكان أخى رحمه الله يتولاها فحصل دخلها من حنطة وشعير وتبن فأرسل إليه في بيع الغلة فوصل كتابه يقول لا تبع الحبة الفرد واستكثر لنا من التبن ثم بعد ذلك وصل كتابه يقول تبيع الطعام فما بنا حاجة إليه ثم إن ذلك الأمير قدم الموصل فسألناه عن المنع من بيع الغلة ثم الإذن فيها بعد مدة يسيرة فقال لما وصلت الأخبار بوصول ملك الألمان أيقنا أننا ليس لنا بالشام مقام فكتبت بالمنع من بيع العلة لتكون ذخيرة لنا إذا جئنا إليكم فلما أهلكهم الله تعالى وأغنى عنها كتبت ببيعها والانتفاع بثمنها .

(ذكر وقعة للمسلمين والفرنج على عكا) وفي هذه السنة في العشرين من جمادى الآخرة خرجت الفرنج فارسها وراجلها من وراء خنادقهم وتقدموا إلى المسلمين وهم كثير لا يحصى عددهم وقصدوا نحو عسكر مصر ومقدمهم الملك العادل أبو بكر بن أيوب وكان المصريون قد ركبوا واصطفوا اللقاء الفرنج فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهز المصريون عنهم ودخل الفرنج خيامهم ونهبوا أموالهم فغطب المصريون عليهم فقاتلوه من وسط خيامهم فأخرجوهم عنها وتوجهت طائفة من المصريين نحو خنادق الفرنج فقطعوا المدد عن أصحابهم الذين خرجوا وكانوا متصلين كالتل فلما انقطعت أمدادهم ألقوا بأيديهم وأخذتهم السيوف من كل ناحية فلم ينج منهم إلا الشريد وقتل منهم مقتلة عظيمة يزيد عدد القتلى على عشرة آلاف قتيل وكانت عساكر الموصل قريبة من عسكر مصر وكان مقدمهم علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود صاحب الموصل حملوا أيضا على الفرنج وبالغوا في قتالهم ونالوا منهم نبالا كثيرا هذا جميعه ولم يباشر القتال أحد من الحلقة الخاص التي مع صلاح الدين ولا أحد من الميسرة وكان بها عماد الدين زكي صاحب سنجار وعسكر إربل وغيرهم ولما جرى على الفرنج هذه الحادثة خمدت جبرتهم ولانت عربكتهم وأشار المسلمون على صلاح الدين بمباكرتهم القتال ومناجزتهم وهم على هذه الحال من الملح والجزع فاتفق أنه وصله من الغد كتاب من حلب يخبر فيه بموت ملك الألمان وما أصاب أصحابه من الموت والقتل والأسروما صار أمرهم إليه من القلة والذلة واشتغل المسلمون بهذه البشرية والفرح بها عن قتال من يباينهم وظنوا أن الفرنج إذا بلغهم هذا الخبر ازدادوا وهنا على وهم وخوفا على خوفهم فلما كان بعد يومين أتت الفرنج أمداد في البحر مع كند من الكنود البحرية يقال له الكند هري ابن أخى ملك إفرنسيس لأبيه وابن أخى ملك إسكلتار لأمه ووصل معه من الأموال شيء كثير يفوق الإحصاء فوصل إلى الفرنج فجند الأجناد وبذل الأموال فعادت نفوسهم قوية واطمأنت وأخبرهم أن الأمداد واصله إليهم يتلو بعضها بعضا قتماسكوا وحفظوا مكانهم ثم أظهروا أنهم يريدون الخروج إلى لقاء المسلمين وقاتلهم فانتقل صلاح الدين من مكانه إلى الخروبة في السابع والعشرين من جمادى الآخرة ليتسع المجال وكانت المنزلة قد أنتنت بريح القتلى ثم الكند هري نصب منجنيقا ودبابات وعرادات فخرج من مكانه من المسلمين فأخذوها وقتلوا عندها كثيرا من الفرنج ثم إن الكند هري بعد أخذ منجنيقاته أراد أن ينصب منجنيقا فلم يتمكن من ذلك لأن المسلمين بهكا كانوا يمنعون من عمل ستائر يستتر بها من يرمى من المنجنيق

فعمل ثلاثين تراب بالبعد من البلد ثم إن الفرنج كانوا ينقلون النبل إلى البلد بالتدريج ويسترون به ويقربونه إلى البلد فلما صار من البلد بحيث يصل من عنده حجر منجنيق. نصبوا وراءه منجنيقين وصار التل سترة لها وكانت الميرة قد قلت بهما فأرسل صلاح الدين إلى الإسكندرية يأمرهم بإنفاذ الأقوات واللحوم وغير ذلك في المراكب إلى سكا وتأخر إنفاذها فسير إلى نائبه بمدينة بيروت في ذلك فسير بطسة عظيمة مملوءة من كل ما يريدونه وأمر من بها فلبسوا ملابس الفرنج وتشبهوا بهم ورفعوا عليها الصليبان فلما وصلوا إلى عكا لم يشك الفرنج أنها لهم فلم يتعرضوا لها ولما حازت مينا عكا أدخلها من بها ففرح بها المسلمون وانتمشوا وقويت نفوسهم وتباهوا بما فيها إلى أن أتتهم الميرة من الإسكندرية وخرجت ملكة من الفرنج من داخل البحر في نحو ألف مقاتل فأخذت بنواحي الإسكندرية وأخذت من معها ثم إن الفرنج وصلهم كتاب من بابا وهو كبيرهم الذي يصدر عن أمره وقوله عندهم كقول النبيين لا يخالف والمحروم عندهم من حرمة والمقرب من قربه وهو صاحب رومية الكبرى يأمرهم بملازمة ما هم بصدده ويعلمهم أنه قد أرسل إلى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير إلى نجدتهم برا وبحرا ويعلمهم بوصول الأمداد إليهم فازدادوا قوة وطمعا.

(ذكر خروج الفرنج من خنادقهم) لما تابعت الأمداد إلى الفرنج وجند لهم الكندهرى جمعا كثيرا بالأموال التي وصلت معه عزموا على الخروج من خنادقهم ومناجزة المسلمين فتركوا على عكا من يحصرها ويقاتل أهلها وخرجوا حادى عشر شوال في عدد كالرمل كثرة وكالجارجرة فلما رأى صلاح الدين ذلك نقل أثقال المسلمين إلى ميمون وهو على ثلاثة فراسخ عن عكا وكان قد عاد إليه من فرق من عساكره لما ملك ملك الألمان ولقى الفرنج على تعية حسنة وكان أولاده الأفاضل على الظاهر غزى والظاهر مما يلي القلب وأخوه العادل أبو بكر في المينة ومعه عساكر مصر ومن انضم إليه وكان في الميرة عماد الدين صاحب سنجار وتقى الدين صاحب حماة ومعاذ الدين سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر مع جماعة من أمراءه واتفق أن صلاح الدين أخذه مغس كان يعتاده فنصب له خيمة صغيرة على تل مشرف على العسكر ونزل فيها ينظر إليهم فسار الفرنج شرقى نهر هناك حتى وصلوا إلى رأس الهر فشاهدوا عساكر الإسلام وكثرتها فارتاعوا لذلك ولقيهم الجالشية وأمطروا عليهم من السهام ما كاد يستر الشمس فلما رأوا ذلك تحولوا إلى غربى الهر ولزمهم الجالشية يقاتلونهم والفرنج قد نجحوا ولزم بعضهم بعضا وكان غرض الجالشية أن تحمل الفرنج عليهم فيلقاهم المسلمون ويلتحم القتال فيكون الفصل ويستريح الناس وكان الفرنج قد ندموا على مفارقة خنادقهم ولزموا مكاهم وباتوا ليلتهم تلك فلما كان الغد عادوا نحو عكا ليعتصموا بخنادقهم والجالشية في أكتافهم يقاتلونهم تارة بالسيوف وتارة بالرمح وتارة بالسهم وكلما قتل من الفرنج قتل أخذوه معهم لئلا يعلم المسلمون ما أصابهم فلولا ذلك الألم الذى حدث بصلاح الدين لكانت هى الفصل وإنما لله أمره وبالغ فلما بلغ الفرنج خنادقهم ولم يكن لهم بمدتها ظهور منه عاد المسلمون إلى خيامهم وقد قتلوا من الفرنج خلفا كثيرا وفى الثالث والعشرين من شوال أيضا كن جماعة من المسلمين وتعرض للفرنج جماعة أخرى نخرج إليهم أربعمائة فارس فقاتلهم المسلمون شيئا من قتال وتطاردوا لهم وتبعهم الفرنج حتى جازوا الكمين فخرجوا عليهم فلم يفلت منهم أحد واشتد الغلاء على الفرنج حتى بلغت غرارة الحنطة أكثر من مائة دينار صورى نصبروا على هذا وكان المسلمون يحملون إليهم الطعام من البلدان منهم الأمير أسامة مستحفظ بيروت كان يحمل الطعام وغيره ومنهم سيف الدين

على بن أحمد المعروف بالمشطوب كان يحمل من صيدا أيضا اليهم وكذلك من عسقلان وغيرها لولا ذلك هلكوا جوعا خصوصا في الشتاء عند انقطاع مراكبهم عند تهيج البحر .

(ذكر تسيير البدل إلى عكا والتفريط فيه حتى أخذت) لما هجم الشتاء وعصفت الرياح خاف الفرنج على مراكبهم التي عندهم لأنها لم تمكن من الميناء فسيروها إلى بلادهم صور والجزائر فانفتح الطريق إلى عكا في البحر فأرسل أهلها إلى صلاح الدين يشكون الضجر والملافة والسامة وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين مقدما على جندها فأمر صلاح الدين بإقامة البدل وإنفاذه إليها وإخراج من فيها وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك فانتقل إلى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشواني وكلما جاءه جماعة من العسكر سيرهم إليها وأخرج عوضهم فدخل إليها عشرون أميرا وكان بها ستون أميرا فكان الذين دخلوا قليلا بالنسبة إلى الذين خرجوا وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وإنفاذهم وكان على خزانة ماله قوم من النصارى وكانوا إذا جاءهم جماعة قد جندوا تعتوهم بأنواع شتى تارة بإقامة معرفة وتارة بغير ذلك فتفرق بهذا السبب خلق كثير وانضاف إلى ذلك تواني صلاح الدين ووثوقه بنوابه وإهمال النواب فانحسر الشتاء والأمر كذلك وعادت مراكب الفرنج إلى عكا وانقطع الطريق إلا من صابح يأتي بكتاب وكان من جملة الأمراء الذين دخلوا إلى عكا سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وعزالدين أرسل مقدم الأسدية بعد جاولي وغيرهم وكان دخولهم عكا أول سنة سبع وثمانين وكان قد أشار جماعة على صلاح الدين بأن يرسل إلى من يعك النفقات الواسعة والذخائر والأقوات الكثيرة ويأمرهم بالمقام فإنهم قد جربوا وتدرّبوا واطمأنت نفوسهم على ما هم فيه ، فلم يفعل ، وظن فيهم الضجر والملل وأن ذلك يحملهم على الضجر والفشل ، فكان الأمر بالضد .

(ذكر وفاة زين الدين يوسف صاحب إربل ومسير أخيه مظفر الدين إليها) كان زين الدين يوسف بن زين الدين علي صاحب إربل قد حضر عند صلاح الدين بعساكره فرض ومات ثامن عشر شهر رمضان و ذكر العماد الكاتب في كتابه البرق الشامي قال جئنا إلى مظفر الدين نعزيه بأخيه وظننا به الحزن وليس له أخ غيره ولا ولد يشغله عنه فإذا هو في شغل شاغل عن العزاء مهتم بالاحتياط على ما خلفه وهو جالس في خيام أخيه المتوفى وقد قبض على جماعة من أمرائه واعتقلهم وعجل عليهم وما أغفلهم منهم بلد اجى صاحب قلعة خفتين كان وأرسل إلى صلاح الدين يطلب منه إربل لينزل عن حران والرها فأقطعه إياها وأضاف إليها شهرزور وأعمالها ودر بندقرا بلي وبنى قفجاق ، ولما مات زين الدين كاتب من كان ياربيل مجاهد الدين قايماز هو اعم فيه وحسن سيرته كانت فيهم وطلبوه إليهم ليملكوه فلم يجسر هو ولا صاحبه عز الدين أنابك مسعود بن مودود على ذلك خوفا من صلاح الدين وكان أعظم الأسباب في تركها أن عز الدين كان قد قبض على مجاهد الدين فتمكن زين الدين من إربل ثم إن عز الدين أخرج مجاهد الدين من القبض وولاه نيابته وقد ذكرنا ذلك أجمع فلما ولاه النيابة عنه لم يمكنه وجعل معه إنسانا كان من بعض غلبان مجاهد الدين فكان يشاركه في الحكم ويحل عليه ما يعقده فلحق مجاهد الدين من ذلك غيظ شديد فلما طلب إلى إربل قال لمن يثق إليه لا أفعل لئلا يحكم فيها فلان ويكف يدي عنها فجاء مظفر الدين إليها وملكها وبقي غصّة في حلق البيت الأتابكي لا يقدرّون على إساعتها وسندكر ما اعتمده معهم مرة بعد أخرى إن شاء الله تعالى .

(ذكر ملك الفرنج مدينة شلب وعودها إلى المسلمين) في هذه السنة ملك ابن الرنك وهو من ملوك الفرنج غرب بلاد الأندلس مدينة شلب وهي من كبار مدن المسلمين بالأندلس واستولى عليها فوصل الخبر بذلك إلى الأمير أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب الغرب والأندلس فتجهز في العساكر الكثيرة وسار إلى الأندلس وعبر المجاز وسير طائفة كثيرة من عسكره في البحر ونازلها وحصرها وقاتل من بها قتالا شديدا حتى دلوا وسألوا الأمان فأمهم وسلموا البلد وعادوا إلى بلادهم وسير جيشا من الموحدين ومعهم جمع كثير من العرب ففتحوا أربع مدن كان الفرنج قد ملكوها قبل ذلك بأربعين سنة وفتكروا في الفرنج فخافهم ملك طليطلة من الفرنج وأرسل يطلب الصلح فصالحه خمس سنين وعاد أبو يوسف إلى مراکش وامتنع من هذه الهدنة طائفة من الفرنج لم يرضوها ولا أمكنهم إظهار الخلاف فبقوا متوقفين حتى دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسة مائة فتحركوا وسندكر خبرهم هناك إن شاء الله تعالى .

(ذكر الحرب بين غياث الدين وسلطان شاه بخراسان) كان سلطان شاه أخو خوارزم شاه قد تعرض إلى بلاد غياث الدين ومعز الدين ملكي الغورية من خراسان فتجهز غياث الدين وخرج من فيروزكوه إلى خراسان سنة خمس وثمانين وخمسة مائة فبقي يتردد بين بلاد الطالقان وينجده ومرو وغيرها يريد حرب سلطان شاه فلم يزل كذلك إلى أن دخلت سنة ست وثمانين فجمع سلطان شاه عساكره وقصد غياث الدين فتصافا واقتلا فانهزم سلطان شاه وأخذ غياث الدين بعض بلاده وعاد إلى غزنة .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في ربيع الأول تسلم الخليفة الناصر لدين الله حديثه عانة وكان سير إليها جيشا حصرها سنة خمس وثمانين فقاتلوا عليها قتالا شديدا ودام الحصار وقتل من الفريقين خلق كثير فلما ضاقت عليهم الأقوات سلخواها على أقطاع عينبها ووصل صاحبها وأهلها إلى بغداد وأعطوا أقطاعا ثم تفرقوا في البلاد واشتدت الحاجة بهم حتى رأيت بعضهم وأنه يتعرض بالوال إلى بعض خدم الناس نعوذ بالله من زوال نعمته وتحول عافيته . وفي هذه السنة توفي مسعود بن البادر وكان مكثرا من الحديث حسن الخط خيرا ثقة . وفيها توفي أبو حامد محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري بالموصل كان قاضيا وقبلها ولي قضاء حلب وجميع الأعمال وكان رئيسا جوادا ذا مروءة عظيمة يرجع إلى دين وأخلاق^(١)

(ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسة مائة)

(ذكر حصر عز الدين صاحب الموصل الجزيرة) في هذه السنة في ربيع الأول سار أتابك عز الدين مسعود ابن مودود بن زنكي صاحب الموصل إلى جزيرة ابن عمر فحصرها وكان بها صاحبها سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود وهو ابن أخي عز الدين وكان سبب حصره أن سنجر شاه كان كثير الأذى لعمه عز الدين والشناعة عليه والمراسلة إلى صلاح الدين في حقه تارة يقول إنه يريد تصد بلادك وتارة يقول إنه يكتب

(١) وفيها في اليوم السابع من ذي الحجة سقطت ثلثة عظيمة من سور عكا ، فبادر الفرنج إليها فسبقهم المسلمون إلى سدها بصدورهم ، وقاتلوا دونها بنحورهم ، وما زالوا يمانعون عنها حتى بنوها أشد مما كانت ، وأقوى وأحسن وقع في هذه السنة وباء عظيم في المسلمين والكافرين ، فكان السلطان يقول في ذلك :
اقتلوني ومالكاه واقتلوا مالكا معي

أعداءك ويحتمهم على قصدك إلى غير ذلك من الامور المؤذبة وعز الدين يصبر على ما يكره لأمور تارة للرحم وتارة خوفا من تسليمها إلى صلاح الدين فلما كان في السنة الماضية سار صاحبها إلى صلاح الدين وهو على عكا في جملة من سار من أصحاب الأطراف؛ وأقام عنده قليلا وطلب دستورا للعود إلى بلده فقال له صلاح الدين عندنا من أصحاب الأطراف جماعة منهم عماد الدين صاحب سنجار وغيرها وهو أكبر منك ومنهم ابن عمك عز الدين وهو أصغر منك وغيرهم ومتى فتحت هذا الباب اقتدى بك غيرك فلم يلتفت إلى قوله وأصر على ذلك وكان عند صلاح الدين جماعة من أهل الجزيرة يستغيثون على سنجر شاه لأنه ظلمهم وأخذ أموالهم وأملأهم فكان يخافه لهذا ولم يزل في طلب الإذن في العود إلى البلد إلى عيد الفطر من سنة ست وثمانين فركب تلك الليلة سنجر شاه وجاء إلى خيمة صلاح الدين وأذن لأصحابه في المسير فساروا بالاثقال وبقي جريدة فلما وصل إلى خيمة صلاح الدين أرسل يطلب الإذن وكان صلاح الدين قد بات محموما وقد عرق فلم يمكن أن يأذن له فبقى كذلك مترددا على باب خيمته إلى أن أدن له فلما دخل عليه هناك بالعيد وأكب عليه يودعه فقال له ما علمنا بصحة عزمك على الحركة فتصبر علينا حتى نرسل ماجرت به العادة فما يجوز أن تنصرف عنا بعد مقامك عندنا على هذا الوجه فلم يرجع وودعه وانصرف وكان تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين قد أقبل من بلده حماة في عسكره فكتب إليه صلاح الدين يأمره بإعادة سنجر شاه طوعا أو كرها فخكى له عن تقي الدين أنه قال ما رأيت مثل سنجر شاه لقيته بعقبة فيق فـألتـه عن سبب انصرافه فعاطني فقلت له سمعت بالحال ولا يليق أن تنصرف بغير تشریف السلطان وهديته فيضيع تعبك وسألته العود فلم يصغ إلى قولي فكلمني كما أتني بعض مماليكه فلما رأيت ذلك منه قلت له إن رجعت بالنى هي أحسن وإلا أعدتلك كارها فنزل عن دابته وأخذ ذيلي وقال قد استجرت بك وجعل يبكي فعجبت من حماقته أولا وذلته ثانيا فعاد معي فلما عاد بقي عند صلاح الدين عشرة أيام وكتب صلاح الدين إلى عز الدين أت بك يأمره بتصد الجزيرة ومحاصرتها وأخذها وأنه يرسل إلى طريق سنجر شاه ليقبض عليه إذا عاد نخاف عز الدين أن صلاح الدين قد فعل ذلك مكيدة ليشنع عليه بنسكك العهد فلم يفعل شيئا من ذلك بل أرسل إليه يقول أريد خطك بذلك ومنشورا منك بالجزيرة فرددت الرسل في ذلك إلى أن انقضت سنة ست وثمانين فاستقرت القاعدة بينهما فسار عز الدين إلى الجزيرة فحصرها أربعة أشهر وأياما آخرها شعبان ولم يملكها بل استقرت القاعدة بينه وبين سنجر شاه على يد رسول صلاح الدين فإنه كان قد أرسل بعد قصدتها يقول إن صاحب سنجار وصاحب إربل وغيرها قد شفعا في سنجر شاه فاستقر الصلح على أن لعز الدين نصف أعمال الجزيرة ولسنجر شاه نصفها وتكون الجزيرة بيد سنجر شاه من جملة النصف وعاد عز الدين إلى الموصل وكان صلاح الدين بعد ذلك يقول ما قيل لي عن أحد شيء من الشر فرأيت أنه إلا كان دون ما يقال فيه إلا سنجر شاه فإنه كان يقال لي عنه أشياء استعظمتها فلما رأيت صغر في عيني ما قيل .

(ذكر عبور تقي الدين الفرات وملكه حران وغيرها من البلاد الجزرية ومسيره إلى خلاط وموته)
 في هذه السنة في صفر سار تقي الدين من الشام إلى البلاد الجزرية حران والرها كان قد أقطعه إياها عمه صلاح الدين بعد أخذها من مظفر الدين مضافا إلى ما كان له بالشام وقرر معه أنه يتقطع البلاد للجند ويعود وهم معه ليتقوى بهم على الفرنج فلما عبر الفرات وأصلح حال البلاد سار إلى ميفارقين وكانت له فلما بلغها تجدد له طمع في غيرها

من البلاد المجاورة لها فقصد مدينة حاني من ديار بكر فحصرها وملكها وكان في سبعمائة فارس فلما سمع سيف الدين بكتمر صاحب خلاط بملكه حاني جمع عساكره وسار إليه فاجتمعت عساكره أربعة آلاف فارس فلما التقوا اقتتلوا فلم يثبت عسكر خلاط لتقى الدين بل انهزموا وتبعهم تقي الدين ودخل بلادهم وكان بكتمر قد قبض على مجد الدين بن رشيق وزير صاحبه شاه أرمن وسجنه في قلعة هناك فلما انهزم كتب إلى مستحفظ القلعة يأمره بقتل ابن رشيق فوصل القاصد وتقى الدين قد نازل القلعة فأخذ الكتاب وملك القلعة وأطلق ابن رشيق وسار إلى خلاط فحصرها ولم يكن في كثرة من العسكر فلم يبلغ منها غرضاً فعاد عنها وقصد ملاز كرد وحصرها وضيق على من بها وطال مقامه عليها فلما ضاق عليهم الأمر طلبوا منه المهلة أيأما ذكرها فأجابهم إليها ومرض تقي الدين فمات قبل انقضاء الأجل بيومين وتفرقت العساكر عنها وحمله ابنه وأصحابه ميتاً إلى ميفارقين وعاد بكتمر قوى أمره وثبت ملكه بعد أن أشرف على الزوال وهذه الحادثة من الفرج بعد الشدة فإن ابن رشيق نجح من القتل وبكتمر نجح من أن يؤخذ.

(ذكر وصول الفرنج من الغرب في البحر إلى عكا) وفي هذه السنة وصلت أمداد الفرنج في البحر إلى الفرنج الذين على عكا وكان أول من وصل منهم الملك فليب ملك افرنسيس وهو من أشرف ملوكهم نسبا وإن كان ملكه ليس بالكثير وكان وصوله إليها ثاني عشر ربيع الأول ولم يكن في الكثرة التي ظنوها وإنما كان معه ست بطس كبار عظيمة فقويت به نفوس من على عكا منهم ولحواف في قتال المسلمين الذين فيها وكان صلاح الدين بشفر عم فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال عن مزاحفة البلد وأرسل إلى الأمير أسامة مستحفظ بيروت يأمره بتجهيز ما عنده من الشواني والمراكب وتشحيتها بالمقاتلة وتسييرها في البحر لمنع الفرنج من الخروج إلى عكا ففعل ذلك وسير الشواني في البحر فصادت خمسة مراكب بملاوة رجالا من أصحاب ملك إنكلتار الفرنج وكان قد سيرهم بين يديه وتأخر هو بجزيرة قبرس ليمالكها فاقتلت شواني المسلمين مع مراكب الفرنج فاستظهر المسلمون عليهم وأخذوهم وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال وأسروا الرجال وكتب أيضا صلاح الدين إلى من بالقرب من النواب له يأمرهم بمثل ذلك ففعلوا وأما الفرنج الذين على عكا فانهزموا لزموا قتال من بها ونصبوا عليها سبع منجنيقات رابع جمادى الأولى فلما رأى صلاح الدين ذلك انحول من شفر عم ونزل عليهم لثلا يتعب العسكر كل يوم في الحجى إليهم والعود عنهم فقرب منهم وكانوا كلما تحركوا القتال ركب وقائلهم من وراء خندقهم فكانوا يشتغلون بقتالهم فيخف القتال عنهم بالبلد ثم وصل ملك إنكلتار ثالث عشر جمادى الأولى وكان قد استولى في طريقه على جزيرة قبرس وأخذها من الروم فإنه لما وصل إليها غدر بصاحبها وملكها جميعا فكان ذلك زيادة في ملكه وقوة للفرنج فلما فرغ منها سار عنها إلى من على عكا من الفرنج فوصل إليهم في خمس وعشرين قطمة كبارا بملاوة رجالا وأموالا فعضم به شر الفرنج واشتدت نكايتهم في المسلمين وكان رجل زمانه شجاعة ومكرا وجسدا وصبرا وبلى المسلمون منه بالدهية التي لا مثل لها ولما وردت الأخبار بوصوله أمر صلاح الدين بتجهيز بسطة كبيرة بملاوة من الرجال والعدد والأقوات فتجهزت وسيرت من بيروت. وفيها سبعمائة مقاتل؛ فلقبها ملك إنكلتار مصادفة؛ فقاتلها وصبر من فيها على قتالها فلما أيسوا من الخلاص ونزل مقدم من بها إلى أسفلها وهو يعقوب الحلبي مقدم الجندارية يعرف بغلام ابن شقتين فخرقها خرقا واسعا لثلا يظفر الفرنج بمن فيها وما معهم من الذخائر ففرق جميع

ما فيها وكانت عكا محتاجة إلى رجال لما ذكرناه من سبب نقصهم ثم إن الفرنج عملوا دبابات وزحفوا بها فخرج المسلمون وقاتلوهم بظاهر البلد وأخذوا تلك الكباش فلما رأى الفرنج أن ذلك جميعه لا ينفعهم عملوا تلا كبيرا من التراب مستطيلا وما زالوا يقربونه إلى البلد ويقاتلون من ورائه لا ينالهم من البلد أذى حتى صار على نصف علوه فكانوا يستظلون به ويقاتلون من خلفه فلم يكن للمسلمين فيه حيلة لا بالنار ولا بغيرها فحينئذ عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين فأرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه حالهم فلم يقدر لهم على نفع .

(ذكر ملك الفرنج عكا) في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة استولى الفرنج لغنهم الله على مدينة عكا وكان أول وهن دخل على من بالبلد أن الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب كان فيها ومعه عدة من الأمتعة كان هو أمثلهم وأكبرهم فخرج إلى ملك افرنسيس وبذل تسليم البلد بما فيه هلى أن يطلق المسلمين الذين فيه ويمكنهم من اللحاق بسلاطنتهم فلم يجبه إلى ذلك فعاد على بن أحمد إلى البلد فوهن من فيه وضعت نفوسهم وتخاذلوا وأهتتم أنفسهم ثم إن أميرين ممن كان بعكا لما رأوا ما فعلوا بالمشطوب والفرنج لم يجيوا إلى الألمان اتخذوا الليل جملا وركبوا في شيء صغير وخرجوا سرا من أصحابهم ولحقوا بعسكر المسلمين وهم عز الدين أرسل الأسدي وابن عز الدين جاولي وسنقر الوشاقى ومعهم غيرهم فلما أصبح الناس ورأوا ذلك ازدادوا وهنا إلى وهنهم وضعفا إلى ضعفهم وأيقنوا بالعطب ثم إن الفرنج أرسلوا إلى صلاح الدين في معنى تسليم البلد فأجابهم إلى ذلك والشرط بينهم أن يطلق من أسراهم بعدد من في البلد ليطلقوا هم من بعكا وأن يسلم إليهم صليب الصليبوت فلم يقنعوا بما بدل فأرسل إلى من بعكا من المسلمين يأمرهم أن يخرجوا من عكا يدا واحدة ويتركوا البلد بما فيه ووعدهم أنه يتقدم إلى تلك الجهة التي يخرجون منها بعساكره ويقاتل الفرنج فيها ليأحقوا به فشرعوا في ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه فما فرغوا من أشغالهم حتى أسفر الصبح فبطل ما عزموا عليه لظهوره فلما عجز الناس من حفظ البلد زحف إليهم الفرنج بحدهم وحديدتهم فظهر من بالبلد على سعوره يحركون أعلامهم ليراها المسلمون وكانت هي العلامة إذا اخترمهم أمر فلما رأى المسلمون ذلك ضجوا بالبكاء والعيويل وحملوا على الفرنج من جميع جهاتهم طلبا منهم أن الفرنج يشتغلون عن الذين بعكا وصلاح الدين يحرضهم وهو في أولهم وكان الفرنج قد خدعوا عن خنادقهم ومالوا إلى جهة البلد فقرب المسلمون من خنادقهم حتى كادوا يدخلونها عليهم ويضعون السيف فيهم فوقع الصوت فعاد الفرنج ومنعوا المسلمين وتركوا في مقابلة من بالبلد من يقاتلهم فلما رأى المشطوب أن صلاح الدين لا يقدر على نفع ولا يدفع عنهم ضرا خرج إلى الفرنج وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه بأموالهم وأنفسهم وبذل لهم عن ذلك مائتي ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين ، وإعادة صليب الصليبوت وأربعة عشر ألف دينار للرئيس صاحب صور فأجابوه إلى ذلك وحلفوا له عليه وأن يكون مدة تحصيل المال والأسرى إلى شهرين فلما حلفوا له سلم البلد إليهم ودخلوه سلما فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وهلى أموالهم وحبسوهم وأظهروا أنهم يفعلون ذلك ليصل إليهم ما بذل لهم ورأسلوا صلاح الدين في إرسال المال والأسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم فشرع في جمع المال وكان هو الأمان له إنما يخرج ما يحصل إليه من دخل البلاد أولا بأول فلما اجتمع عنده من المال مائة ألف دينار جمع الأمراء واستشارهم فأشاروا بأن لا يرسل شيئا حتى يعاود يستحلفهم على إطلاق أصحابه وأن يضمن

الداوية ذلك لأنهم أهل دين يرون الوفاء فراسلهم صلاح الدين في ذلك فقال الداوية لا تحلف ولا نضمن لأننا نخاف غدر من عندنا وقال ملوكهم إذا سلمتم إلينا المال والأسرى والصليب فلنا الخيار فيمن عندنا حينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر فلم يرسل إليهم شيئا وأعاد الرماله إليهم وقال نحن نسلم إليكم هذا المال والأسرى والصليب ونعطيكم رهنا على الباقي وتطلقون أصحابنا وتضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء لهم فقالوا لا تحلف إنما نرسل المائة ألف دينار التي حصلت والأسرى والصليب ونحن نطلق من أصحابكم من يزيد ونترك من يزيد حتى يجيء باقي المال فعلم الناس حينئذ غدرهم وإنما يطلقون غلمان العسكر والفقراء والأكراد ومن لا يؤبه له ويمسكون عندهم الأمراء وأرباب الأموال وبطلون منهم الفداء فلم يجهم السلطان إلى ذلك فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب ركب الفرنج وخرجوا إلى ظاهر البلد بالفارس والراجل وركب المسلمون إليهم وقصدوهم وحملوا عليهم فانكشفوا عن مواقفهم وإذا أكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف واستبقوا الأمراء والمقدمين ومن كان له مال وقتلوا من سواهم من سوادهم وأصحابهم ومن لا مال له فلما رأى صلاح الدين ذلك تصرف في المال الذي كان جمعه وسير الأسرى والصليب إلى دمشق .

(ذكر رحيل الفرنج إلى ناحية عسقلان وتخريبها) لما فرغ الفرنج لعنهم الله من إصلاح أمر عكا برزوا منها في الثامن والعشرين من رجب وساروا مستهل شعبان نحو حيفا مع شاطئ البحر لا يفارقونه لما سمع صلاح الدين برحيلهم نادى في عسكره بالرحيل فساروا وكان على البرك ذلك اليوم الملك الأفضل ولد صلاح الدين ومعه سيف الدين إياز كوش وعز الدين جورديك وعدة من شجعان الأمراء فضايقوا الفرنج في مسيرهم وأرسلوا عليهم من سهام ما كان يحجب الشمس ووقعوا على ساقه الفرنج فقتلوا منها جماعة وأمرها جماعة وأرسل الأفضل إلى والده يستمده ويعرفه الحال فأمر العساكر بالمسير إليه فاعتذروا بأنهم ماركبوا بأهبة الحرب وإنما كانوا على عزم المسير لا غير فبطل المدد وعاد الملك الإنكشار إلى ساقه الفرنج فخماها وجمعهم وساروا حتى أتوا حيفا فنزلوا بها ونزل المسلمون بقرية بالقرب منهم وأحضر الفرنج من عكا عوض من قتل منهم وأسر ذلك اليوم وعرض ما ملك من الخيل ثم ساروا إلى قيسارية والمسلمون يسارونهم ويتحفظون منهم من قدروا عليه فيقتلونه لأن صلاح الدين كان قد أقسم أنه لا يظهر بأحد منهم إلا قتله بمن قتلوا بمن كان بعكا فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقاتلهم أشد قتال فمات منهم نيلًا كثيرًا ونزل الفرنج بها وبات المسلمون قريبًا منهم فلما نزلوا خرج من الفرنج جماعة فأبعدوا عن جمعهم فأوقع بهم المسلمون الذين كانوا في البرك فقتلوا منهم وأسروا منهم ثم ساروا من قيسارية إلى أرسوف وكان المسلمون قد سبقوهم إليها ولم يمكنهم مسيرتهم لضيق الطريق فلما وصل الفرنج إليهم حمل المسلمون عليهم حملة منكراة الحقوهم بالبحر ودخله بعضهم فلما رأى الفرنج ذلك اجتمعوا وحملت الخيالة على المسلمين حملة رجل واحد فولوا منهزمين لا يلوى أحد على أحد وكان كثير من الخيالة والسوقة قد ألفوا القيام وقت الحرب قريبًا من المعركة فلما كان ذلك اليوم كانوا على حالهم فلما انهزم المسلمون عنهم قتل منهم كثير والنجا المنهزمون إلى القلب وفيه صلاح الدين فلو علم الفرنج أنها هزيمة لتبعتهم واشتد الهزيمة وملك المسلمون لكن كان بالقرب من المسلمين شعرة كثيرة الشجر فدخلوها وظنوا الفرنج مكيدة فعادوا وزال عنهم ما كانوا فيه من الضيق وقتل من الفرنج كند كبير

من طواغيتهم وقتل من المسلمين مملوك لصلاح الدين اياز الطويل وهو من المرصوفين بالشجاعة والشهامة لم يكن في زمانه مثله فلما نزل الفرنج نزل المسلمين وأغنة خيلهم بأيديهم ثم سار الفرنج إلى يافا فنزلوها ولم يكن بها أحد من المسلمين فلما كانوا يمشون في الأسواق استشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بتخريب عسقلان وقالوا له قد رأيت الرملة واجتمع بأثقاله بها وجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بتخريب عسقلان وقالوا له قد رأيت ما كان منا بالأمس وإذا جاء الفرنج إلى عسقلان ورثنا في وجوههم نصددهم عنها فهم لاشك يقاتلون النزاح عنها ويزلزلونها فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كنا عليه على عكا ويعظم الأمر علينا الآن العدو قد قوى بأخذ عدنا وما فيها من الأسلحة وغيرها ونحن قد ضعفنا بما خرج من أيدينا ولم نأكل المدة حتى نستجد غيرها فلم تسمح نفسه بتخريبها وبدب الناس إلى دخولها وحفظها فلم يجبه أحد إلى ذلك وقالوا إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار وإلما يدخلها منا أحدا فلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا فلما رأى الأمر كذلك سار إلى عسقلان وأمر بتخريبها تاسع عشر شعبان وألقيت حجارتها في البحر وهلك فيها من الأموال والذخائر التي للسلطان والرعية ما لا يمكن حصره وعنى أثرها حتى لا يبقى للفرنج في قصدها مطمع ولما سمع الفرنج بتخريبها أقاموا مكانهم ولم يسيروا إليها وكان المركيس لعنه الله لما أخذ الفرنج عكا قد أحس من ملك إنكلترا بالغدر به فهرب من عنده إلى مدينة صور وهي له وبيده وكان رجل الفرنج رأيا وشجاعة وكل هذه الحروب هو أثرها فلما خربت عسقلان أرسل إلى ملك إنكلترا يقول نه مثلك لا ينبغي أن يكون ملكا ويتقدم على الجيوش تسمع أن صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك يا جاهل لما بلغك أنه قد شرع في تخريبها كنت سرت إليه مجدا فرحلته وملكته صفوا عفوا بغير قال ولا حصار فإنه ما خربها إلا وهو عاجز عن حفظها وحق المسيح لو أنني معك كانت عسقلان اليوم بأيدينا لم يخرب منها غير برج واحد فلما خربت عسقلان رحل صلاح الدين عنها ثاني شهر رمضان ومضى إلى الرملة فخرب حصنها وخرب كنيسة لدة وفي مدة مقامه لتخريب عسقلان كانت العساكر مع الملك العادل أبي بكر بن أيوب تجاه الفرنج ثم سار صلاح الدين إلى القدس بعد تخريب الرملة فاعتبره وما فيه من سلاح وذخائر وقرر قواعده وأسبابه وما يحتاج إليه وعاد إلى المخيم ثامن رمضان وفي هذه الأيام خرج ملك إنكلترا من يافا معه نفر من الفرنج من معسكرهم فوقع به نفر من المسلمين فقاتلوهم قتالا شديدا وكاد ملك إنكلترا يؤسر ففداه بعض أصحابه بنفسه ففخاض الملك وأسر ذلك الرجل وفيها أيضا كانت وقعة بين طائفة من المسلمين وطائفة من الفرنج انتصر فيها المسلمون ،

(ذكر رحيل الفرنج إلى نظرون) لما رأى صلاح الدين أن الفرنج قد لزموها يافا ولم يفارقوها وشرعوا في عمارتها رحل من منزلته إلى نظرون ثالث عشر رمضان وخيم به فراسله ملك إنكلترا يطلب المهادنة فكانت الرسل تتردد إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب أخى صلاح الدين فاستقرت القاعدة أن ملك إنكلترا يزوج أخيه من العادل ويكون القدس وما بأيدي المسلمين من بلاد الساحل للعادل ويكون عكا وما يد الفرنج من البلاد لأخت إنكلترا مضافا إلى مملكة كانت لها داخل البحر قد ورثتها من زوجها وأن يرضى الداوية بما يقع الاتفاق عليه فعرض العادل ذلك على صلاح الدين فأجاب إليه فلما ظهر الخبر اجتمع القيسيون والأساقفة والرهبان إلى أخت إنكلترا وأنكروا عليها فامتعت من الإجابة وقيل كان المانع منه غير ذلك وانه أعلم وكان العادل وملك إنكلترا يجتمعان بعد ذلك ويتجاريان حديث الصلح وطلب من العادل أن يسمعه

غناء المسلمين فأحضر له مغنية تضرب بالجنك فغنت له فاستحسن ذلك ولم يتم بينهما صلح وكان ملك إنكلتار يفعل ذلك خديعة ومكرًا ثم إن الفرنج أظهروا العزم على قصد بيت المقدس فسار صلاح الدين إلى الرملة جريدة وترك الأثقال بالنظرون وقرب من الفرنج وبقي عشرين يوما ينتظرهم فلم يبرحوا فكان بين الطائفتين مدة المقام عدة وقعات في كلها ينتصر المسلمون على الفرنج وعاد صلاح الدين إلى النظرون ورحل الفرنج من يافا إلى الرملة ثالث ذى القعدة على عزم قصد البيت المقدس فقرب بعضهم من بعض فعظم الخطب واشتد الحذر فكان كل ساعة يقع الصوت في العسكرين باللقاء فلقوا من ذلك شدة شديدة وأقبل الشتاء وحالت الأحوال والأمطار بينهما .

(ذكر مسير صلاح الدين إلى القدس) لما رأى صلاح الدين أن الشتاء قد هجم والأمطار متوالية متتابعة والناس منها في ضنك وخرج ومن شدة البرد ولبس السلاح والسهر في تعب دائم وكان كثير من العساكر قد طان بيكارها فأذن لهم في العود إلى بلادهم للاستراحة والإراحة وسار هو إلى البيت المقدس فيمن بقي معه فزلوا جميعا داخل البلد فاستراحوا عما كانوا فيه ونزل هو بدار الأقصى بجوار بيعة قمامة وقدم إليه عسكر مصر مقدمهم الأمير أبو الهيثم السمين فقويت نفوس المسلمين بالقدس وسار الفرنج من الرملة إلى النظرون ثالث ذى الحجة على عزم قصد القدس فكانت بينهم وبين نيك والمسلمين وقعات أسرا المسلمين في وقعة منها نيفا وخمسين فارسا من مشهورى الفرنج وشجعاهم وكان صلاح الدين لما دخل القدس أمر بعمارة سورته وتجدد مآثر منه فأحكم الموضع الذى ملك البلد منه وأتقنه وأمر بحفر خندق خارج الفصيل وسلم كل برج إلى أمير يتولى عمله فعمل ولده الأفضل من ناحية باب عمود إلى باب الرحمة وأرسل أتابك عز الدين مسعود صاحب الموصل جماعة من الجصاصين لهم في قطع الصخر اليد الطولى فعملوا له هناك برجا وبدنة وكذلك جميع الأمراء ثم إن الحجارة قلت عند العمالين فكان صلاح الدين رحمه الله يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأماكن البعيدة فيقتدى به العسكر فكان يجمع عنده من العمالين في اليوم الواحد من يعملون قدر عدة أيام .

(ذكر عود الفرنج إلى الرملة) في العشرين من ذى الحجة عاد الفرنج إلى الرملة وكان سبب عودهم أنهم كانوا ينقلون ما يريدونه من الساحل فلما أبعثوا عنه كان المسلمون يخرجون على من يجلب لهم الميرة فيقطعون الطريق ويغنمون ما معهم ثم إن ملك إنكلتار قال لمن معه من الفرنج الشاميين صوروا لى مدينة القدس فإني مارأيتها فصوروها له فرأى الوادى يحيط بها ما عدا موضعا يسيرا من جهة الشمال فسأل عن الوادى وعن عمقه فأخبر أنه عميق وعر المسالك فقال هذه مدينة لا يمكن حصرها مهما كان صلاح الدين حيا وكلمة المسلمين بجمعة لأننا إن نزلنا في الجانب الذى يلي المدينة بقيت سائر الجوانب غير محصورة فيدخل إليهم منها الرجال الذخائر وما يحتاجون إليه وإن نحن افرقنا فنزل بعضنا من جانب الوادى وبعضنا من الجانب الآخر جمع صلاح الدين أصحابه وواقع إحدى الطائفتين ولم يكن للطائفة الأخرى أصحابهم لأنهم إن فارقوا مكاهم خرج من البلد من المسلمين فذموا ما به وإن تركوا فيه من يحفظه وساروا نحو أصحابهم فإلى أن يتخلصوا من الوادى ويلحقوا بهم قد فرغ صلاح الدين منهم هذا سوى ما يتعذر علينا من إيصال ما يحتاج إليه من العلوفات والأقوات فلما قال لهم ذلك علموا صدقة ورأوا قلة الميرة عندهم وما يجرى للجاليين لها من المسلمين فأشاروا عليه بالعود إلى الرملة فعادوا خائبين خاسرين .

(ذكر قتل قزل أرسلان) في شعبان من هذه السنة قتل قزل أرسلان واسمه عثمان بن أيلدكز وقد ذكرنا أنه ملك البلد بعد وفاة أخيه البهلوان ملك أران وأذربيجان وهمدان وأصفهان والرى وما بينهما وأطاعه صاحب فارس وخوزستان واستولى على السلطان طغرل فاعتقله في بعض القلاع ودانت له البلاد وفي آخر أمره سار إلى أصفهان والفتن بها متصلة من لدن توفى البهلوان إلى ذلك الوقت فتعصب على الشافعية وأخذ جماعة من أعيانهم فصلبهم وعاد إلى همذان وخطب لنفسه بالسلطة وضرب النوب الخمس ثم إنه دخل ليلة قتل إلى منزله لينام وتفرق أصحابه فدخل إليه من قتله على فراشه ولم يعرف قاتله فأخذ أصحابه صاحب بابہ ظنا وتخمينا وكان كريمة حسن الأخلاق يحب العدل ويؤثره ويرجع إلى حلم وقلة عقوبة .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة قدم معز الدين قيصر شاه بن قلاج أرسلان صاحب بلاد الروم على صلاح الدين في رمضان ، وكان سبب قدومه أن والده عز الدين قلاج أرسلان فرق مملكته على أولاده ، وأعطى ولده هذا ملطية ، وأعطى ولده قطب الدين ملكشاه سيواس ، فاستولى قطب الدين على أبيه ، وحجر عليه وأزال حكمه وأزعمه أن يأخذ ملطية من أخيه وسلمها إليه فخاف معز الدين فسار إلى صلاح الدين ملتجئا إليه معتمدا به ، فأكرمه صلاح الدين وزوجه بابنة أخيه الملك العادل ، فامتنع قطب الدين من قصده وعاد معز الدين إلى ملطية في ذى القعدة وحدثني من أثق به قال : رأيت صلاح الدين وقد ركب ليودع هذا معز الدين فترجل له معز الدين وترجل صلاح الدين وودعه راجلا فلما أراد الركوب عضده هذا معز الدين وركب وسوى ثيابه علاه الدين خرمشاه بن عز الدين صاحب الموصل ، قال فعجبت من ذلك ، وقلت ما تبالي يا ابن أيوب أي مودة تموت بركبك ملك سلجوق وابن أتابك زنكي . وفيها توفى حسام الدين محمد بن عمر ابن لاجين وهو ابن أخت صلاح الدين وعلم الدين سليمان بن جندر وهو من أكابر أمراء صلاح الدين أيضا . وفي رجب توفى الصفي بن القابض وكان متولى دمشق لصلاح الدين يحكم في جميع بلاده (١) .

(ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة)

(ذكر عمارة الفرنج عسقلان) في هذه السنة في المحرم رحل الفرنج نحو عسقلان وشرعوا في عمارتها وكان صلاح الدين بالقدس فسار ملك إنكلتار جريدة من عسقلان إلى يزك المسلمين فواقعهم وجرى بين الطائفتين قتال شديد انتصف بعضهم من بعض وفي مدة مقام صلاح الدين بالقدس ما برحت سراياه تقصد

(١) وفي هذه السنة توفى الأمير علم الدين سليمان بن حيدر الحلبي كان من أكابر الدولة الصلاحية ، وفي خدمة السلطان حيث كان ، وهو الذي أشار على السلطان بتخريب عسقلان ، واتفق مرضه بالقدس فاستأذن في أن يمرض بدمشق ، فأذن له ، فسار منها فلما وصل إلى غباغب مات بها في أواخر ذى الحجة وفي رجب منها توفى الأمير الكبير نائب دمشق . وفيها أيضا توفى الطبيب الماهر أسعد بن المطران وقد شرف بالإسلام ، وشكره على طبه الخاص والعام وفيها أيضا توفى الجيوشاق الشيخ نجم الدين الذي بنى تربة الشافعي بمصر بأمر السلطان صلاح الدين ، ووقف عليها أوقافا سنية ، وولاه تدريسها ونظرها ، وقد كان السلطان يحترمه ويكرمه ، وقد ذكرته في طبقات الشافعية ، وما صنفه في المذهب من شرح الوسيط وغيره . ولما توفى الجيوشاق طلب التدريس جماعة فشجع الملك العادل عند أخيه في شيخ الشيوخ أبي الحسن محمد بن حمويه ، فولاه إياه ، ثم عزله عنها بعد موت السلطان ، واستمرت عليه أيدي بني السلطان واحداً بعد واحد ، ثم عادت إليها الفقهاء والمدرسون بعد ذلك ،

الفرنج فتارة تواقع طائفة منهم وتارة تقطع الميرة عنهم ومن جملتها سرية كان مقدمها فارس الدين ميمون القصرى وهو من مقدمى المماليك الصلاحية خرج على قافلة كبيرة للفرنج فأخذها وغنم ما فيها .
 (ذكر قتل المركيس وملك الكندهرى) فى هذه السنة فى ثلاث عشر ربيع الآخر قتل المركيس الفرنجى لعنه الله صاحب صور وهو أكبر شياطين الفرنج وكان سبب قتله أن صلاح الدين راسل مقدم الاسماعيليه وهو سنان أن أرسل من يقتل ملك إنكلتار وإن قتل المركيس فله عشرة آلاف دينار فلم يمكنهم قتل ملك إنكلتار ولم يره سنان مصلحة لهم لذلك يخلو وجه صلاح الدين من الفرنج ويتفرغ لهم وشبهه فى أخذ المال فعدل إلى قتل المركيس فأرسل رجلا فى زى الرهبان واتصلا بصاحب صيدا وابن بارزان صاحب رملة وكانا مع المركيس بصور فأقاما معهما ستة أشهر يظهران العبادة فانسر بهما المركيس ووثق إليهما فلما كان بعد التاريخ عمل الأسقف بصور دعوة المركيس فحضرها وأكل طعامه وشرب مدامه وخرج من عنده فوثب عليه الباطنيان المذكوران فجرحاه جراحا وثيقة وهرب أحدهما ودخل كنيسته يختنق فيها فانفق أن المركيس حمل إليها ليشد جراحه فوثب عليه ذلك الباطنى فقتله وقتل الباطنيان بعده ونسب الفرنج قتله إلى وضع من ملك إنكلتار لينفرد بملك الساحل الشامى فلما قتل ولى بعده مدينة صور كند من الفرنج من داخل البحر يقال له الكندهرى وتزوج بالملك فى ليلته ودخل بها وهى حامل وليس الحمل عندهم مما يمنع النكاح وهذا الكندهرى هو ابن أخت ملك إفرنيس من أبيه وابن أخت ملك إنكلتار من أمه وملك هذا كندهرى بلاد الفرنج بالساحل بعد عود ملك إنكلتار وعاش إلى سنة أربع وتسعين وخمسة مائة فسقط من سطح فمات وكان عاقلا كثير المداراة والاحتمال ولما رحل ملك إنكلتار إلى بلاده أرسل هذا كندهرى إلى صلاح الدين يستعطفه ويستميله يطلب منه خلة وقال أنت تعلم أن لبس القباء والشربوش عندنا عيب وأما البسهما منك حجة لك فأنفذ إليه خلة سنوية منها القباء والشربوش فلبسهما بعكا .

(ذكر نهب بني عامر البصرة) فى هذه السنة فى صفر اجتمع بنو عامر فى خاق كثير وأميرهم حميرة وقصدوا البصرة وكان الأمير بها اسمه محمد بن اسمعيل بنوب عن مقطوعها الأمير طغرل مملوك الخليفة الناصر لدين الله فوصلوا إليها يوم السبت سادس صفر فخرج اليهم الأمير محمد فيمن معه من الجند ف وقعت الحرب بينهم بدرج الميدان بجانب الحريرة ودام القتال إلى آخر النهار فلما جاء الليل ثم العرب فى السور عدة ثم ودخلوا البلد من الغد فقاتلهم أهل البلد فقتل بينهم قتلى كثيرة من الفريقين ونهبت العرب الخانات بالشاطىء وبعض محال البصرة وعبر أهلها إلى شاطىء الملاحين وفارق العرب البلد فى يومهم وعاد أهله إليه وكان سبب سرعة العرب فى مفارقة البلد أنهم بلغهم أن خفاجة والمتفق قد قاربوا فساروا اليهم وقاتلهم أشد قتال فظفرت عامر وغنمت أموال خفاجة والمتفق وعادوا إلى البصرة بكرة الاثني وكان الأمير قد جمع من أهل البصرة والسواد جمعا كثيرا فلما عادت عامر قاتلهم أهل البصرة ومن اجتمع معهم فلم يقوموا للعرب وانهمزوا ودخل العرب البصرة ونهبوها وفارق البصرة أهلها ونهبت أموالهم وجرت أمور عظيمة ونهبت القسائل وغيرها يومين وفارقها العرب وعاد أهلها إليها وقد رأيت هذه القصة بعينها فى سنة ثلاث وتسعين وخمسة مائة والله أعلم .

(ذكر ما كان من ملك إنكلتار) فى ناسع جمادى الأولى من هذه السنة استولى الفرنج على حصن الداروم فخرّبوه ثم ساروا إلى البيت المقدس وصلاح الدين فيه فبلغوا بيت نوبة وكان سبب طمهم أن صلاح

نشاط إلى هذا ولا إلى غيره ودخل داره وتوفي بعد أيام وأصيب أهل بلاده بموته وغظم عليهم فقده وكان محبوباً إليهم قريباً من قلوبهم ففي كل دار لأجله ربة وعربيل ولما حضرته الوفاة أوصى بالملك لولده الأكبر نور الدين أرسلان شاه وعمره نحو عشر سنين وجعل الوصي عليه والمدبر لدولته بدر الدين لؤلؤ وهو الذي كان يتولى دولة القاهر ودولة أبيه نور الدين قبله وقد تقدم من أخباره ما يعرف به محله وسيرد منها أيضاً ما يزيد الناظر بصيرة فيه فلما قضى نحبه قام بدر الدين بأمر نور الدين أجلسه في مملكة أبيه وأرسل إلى الخليفة يطلب له التقليد والتشريف وأرسل إلى الملوك وأصحاب الأطراف المجاورين لهم يطلب تجديد العهد لنور الدين على القاعدة التي كانت بينهم وبين أبيه فلم يصبح إلا وقد فرغ من كل ما يحتاج إليه وجلس للعزاء وحلف الجند والرعايا وضبط المملكة من التزلزل والتغير مع صغر السلطان وكثرة الطامعين في الملك فإنه كان معه في البلد أعمام أبيه وكان معه عماد الدين زنكي بن أرسلان شاه بولايته وهي قلعة عقر الحميدية يحدث نفسه بالملك لا يشك في أن الملك يصير إليه بعد أخيه فرفع بدر الدين ذلك الخرق ورتق ذلك الفتق وتبع الإحسان والخلع على كافة الناس وغير ثياب الحداد عنهم فلم يخص بذلك شريفاً دون مشروف ولا كبيراً دون صغير وأحسن السيرة وجلس لكشف ظلمات الناس وإنصاف بعضهم من بعض وبعد أيام وصل التقليد من الخليفة لنور الدين بالولاية وأبدر الدين بالنظر في أمر دولته والتشريقات لها أيضاً وأتهم رسل الملوك بالنعزية وبذل ما طلب منهم من العهود واستقرت القواعد لها .

(ذكر ملك عماد الدين زنكي قلاع الهكارية والزوزان) قد ذكرنا عند وفاة نور الدين سنة سبع وستمائة أنه أعطى ولده الأصغر زنكي قلعتي العقر وشوش وهما بالقرب من الموصل فكان نارة يكون بالموصل ونارة بولايته متجنياً لكثرة تلونه وكان بقلعة العمادية مستحفظ من ممالك جده عز الدين مسعود بن مودود قيل إنه جرى له مع زنكي مراسلات في معنى تسليم العمادية إليه فسمى الخبر بذلك إلى بدر الدين فبادره بالعزل مع أمير كبير وجماعة من الجند لم يمكنه الامتناع وسلم القلعة إلى نائب بدر الدين كذلك وجعل بدر الدين في غير العمادية من القلاع نواباً له وكان نور الدين بن القاهر لا يزال مريضاً من جروح كانت به وغيرها من الأمراض وكان يبقى المدة الطويلة لا يركب ولا يظهر للناس فأرسل زنكي إلى من بالعمادية من الجند يقول إن ابن أخي توفي ويريد بدر الدين بملك البلاد وأما أحق بملك آبائي وأجدادي فلم يزل حتى استدعاه الجند منها وسلوا إليه ثامن عشر رمضان سنة خمس عشرة وستمائة وقبضوا على النائب البدرى وعلى من معه فوصل الخبر إلى بدر الدين ليلاً فجد في الأمر ونادى في العسكر لوقت بالرحيل فساروا مجدين إلى العمادية وحصروها وكان الزمان شتاء والبرد شديد والثلج هناك كثير فلم يتمكنوا من القتال من بها لكنهم أقاموا يحصرونها وقام مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين صاحب إربل في نصر عماد الدين وتجزد لمساعدته فراسله بدر الدين يذكره الإيمان والعهد التي من جملتها أنه لا يتعرض إلى شيء من أعمال الموصل ومنها قلاع الهكارية والزوزان بأسمائها ومتى تعرض إليها أحد من الناس من كان منعه بنفسه وعساكره وأعان نور الدين وبدر الدين على منعه ويطالبه بالوفاء بها ثم نزل عن هذا ورضى منه بالسكوت لا لهم ولا عليهم فلم يفعل وأظهر معاضدة عماد الدين زنكي فحينئذ لم تكن مكافئة زنكي بالرجال والعساكر لفرب هذا الخصم وأعمالها إلا أن العسكر البدرى محاصر للعمادية وبها زنكي ثم إن بعض الأمراء من عسكر الموصل ممن لا علم له بالحرب وكان شجاعاً وهو جديد الإمارة أراد أن يظهر

من هذه السنة .

(ذكر عود الفرنج إلى عكا) لما عاد الملك الأفضل فيمن معه وعاد الملك العادل وابن تقي الدين فيمن معهما من عساكرهما ولحقهم العساكر الشرقية. عسكر الموصل وعسكر ديار بكر وعسكر سنجار وغير ذلك من البلاد واجتمعت العساكر بدمشق أيقن الفرنج أنهم لا طاقة لهم بها إذا فارقوا البحر فعادوا نحو عكا يظهرون العزم على قصد بيروت ومحاصرتها فأمر صلاح الدين ولده الأفضل أن يسير إليها في عسكره والعساكر الشرقية جميعها مبارضا للفرنج في مسيرهم نحوها فسار إلى مرج العيون واجتمعت العساكر معه فأقام هنالك ينتظر سير الفرنج فلما بلغهم ذلك أقاموا بعكا ولم يفارقوها .

(ذكر ملك صلاح الدين يافا) لما رحل الفرنج نحو عكا كان قد اجتمع عند صلاح الدين عسكر حلب وغيرها فسار إلى مدينة يافا وكانت بيد الفرنج فنازلها وقاتل من بها منهم وملكها في العشرين من رجب بالسيف هنة ونهبها المسلمون وغنموا ما فيها وقتلوا الفرنج وأسروا كثيرا وكان بها أكثر ما أخذوه من عسكر مصر والقفل الذي كان معهم وقد ذكر ذلك وكان جماعة من المماليك الصلاحية قد وقفوا على أبواب المدينة وكل من خرج من الجند ومعه شيء من الغنيمة أخذوه منه فإن امتنع ضربوه وأخذوا مامعه قهرا ثم زحفت العساكر إلى القلعة فقاتلوا عليها آخر النهار وكادوا يأخذونها فطلب من بالقلعة الأمان على أنفسهم وخرج البترك الكبير الذي لهم ومعه عدة من أكابر الفرنج في ذلك وترددوا وكان قصدهم منع المسلمين عن القتال فأدركهم الليل وواعدوا المسلمين أن ينزلوا بكرة غد ويسلموا القلعة فلما أصبح الناس طالبهم صلاح الدين بالنزول عن الحصن فامتنعوا وإذ قد وصلهم نجدة من عكا وأدركهم ملك إنكلتار فأخرج من يافا من المسلمين وأناه المدد من عكا وبرزوا إلى ظاهر المدينة واعترض المسلمين وحده وحمل عليهم فلم يتقدم إليه أحد فوقف بين الصنمين واستدعى طعاما من المسلمين ونزل أكل فأمر صلاح الدين عسكره بالحملة عليهم وبالجد في قتالهم فتقدم إليه بعض أمرائه يعرف بالجناح وهو أخو المشطوب بن علي بن أحمد الهكاري فقال له يا صلاح الدين قل للمالكك الذين أخذوا أمس الغنيمة وضربوا الناس بالحماقات يتقدمون فيقتاتلهم إذا كان القتال فنحن وإذا كانت الغنيمة فلهم فغضب صلاح الدين من كلامه وعاد عن الفرنج وكان رحمه الله حليما كريما لمقدرة ونزل في خيامه وأقام حتى اجتمعت العساكر وجاء إليه ابنه الأفضل وأخوه العادل وعساكر الشرق فدخل بهم إلى الرملة لينظر ما يكون منه ومن الفرنج فلزم الفرنج يافا ولم يبرحوا منها .

(ذكر الهدنة مع الفرنج وعود صلاح الدين إلى دمشق) في العشرين من شعبان من هذه السنة عقدت بين المسلمين والفرنج هدنة لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر أولها هذا التاريخ وافق أول أيلول وسبب الصلح أن ملك إنكلتار لما رأى اجتماع العساكر وأنه لا يمكنه مفارقة ساحل البحر وليسر بالساحل للمسلمين بلد يطمع فيه وقد طال غيبته عن بلاده، وأرسل صلاح الدين في الصلح وأظهر من ذلك ضد ما كان يظهره أولا فلم يجبه صلاح الدين إلى ما طلب فلما منه أنه يفعل ذلك خديعة ومكرا وأرسل يطلب منه المصاف والحرب فأعاد الفرنجى رسله مرة بعد مرة وترك تمة عمارة عسقلان وعن غزة والداروم والرملة وأرسل إلى الملك العادل في تقرير هذه القاعدة فأشار هو وجماعة الأمراء بالإجابة إلى الصلح وعرفوه ما عند العسكر من الضجر والملل وما قد هلك من أسلحتهم ودوابهم ونفذ من نفقاتهم وقالوا إن هذا الفرنجى إنما طلب الصلح ليركب البحر

ويعود إلى بلاده فإن تأخرت آجابه إلى أن يجيء الشتاء وينقطع الركوب في البحر نحتاج نبقي ههنا سنة أخرى
وحيث يظم الضرر على المسلمين وأكثروا القول له في هذا المعنى فأجاب حينئذ إلى الصلح فحضر رسل الفرنج
وهقدوا الهدية وتحالفوا على هذه القاعدة وكان في جملة من حضر عند صلاح الدين باليان بن بارزان الذي كان
صاحب الرملة ونايبلس فلما حلف صلاح الدين قال له ما عمل أحد في الإسلام ما عملت ولا هلك من الفرنج مثل
ما هلك منهم هذه المدة فإننا أحصينا من خرج إلينا في البحر من المقاتلة فكانوا ستمائة ألف رجل ما عاد منهم
إلى بلادهم من كل عشرة واحد بعضهم قتلهم أنت وبعضهم مات وبعضهم غرق ولما انفصل أمر الهدية أذن
صلاح الدين للفرنج في زيارة بيت المقدس فزاروه وتفرقوا وعادت كل طائفة إلى بلادها وأقام بالساحل
الشامي ملكا على الفرنج والبلاد التي بأيديهم الكندهري وكان خير الطبع قليل الشر رفيقا بالمسلمين محبا لهم
وتزوج بالملكة التي كانت تملك بلاد الفرنج قبل أن يملكها صلاح الدين كما ذكرناه، وأما صلاح الدين فإنه بعد
تمام الهدية سار إلى البيت المقدس وأمر بإحكام سورته وعمل المدرسة والرباط والبيمارستان وغير ذلك من
مصالح المسلمين ووقف عليها الوقوف وصام رمضان بالقدس وعزم على الحج والإحرام منه فلم يمكنه ذلك
فسار عنه خامس شوال نحو دمشق واستتاب بالقدس أميرا اسمه جورديك وهو من المماليك التورية، ولما
سار عنه جعل طريقه على الثغور الإسلامية كنايبلس وطبرية وصفد وتبزين وبيروت وتعهد هذه البلاد وأمر
بإحكامها فلما كان في بيروت أتاه يميند صاحب أنطاكية وأعمالها واجتمع به وخدمه فخلع عليه صلاح الدين
وعاد إلى بلده فلما عاد رحل صلاح الدين إلى دمشق فدخلها في الخامس والعشرين من شوال وكان يوم دخوله
إليها يوما مشهودا وفرح الناس به فرحا عظيما لطول غيبته وذهاب العدو عن بلاد الإسلام .

(ذكر وفاة قلع أرسلان) في هذه السنة منتصف شعبان توفي الملك قلع أرسلان بن مسعود بن قلع
أرسلان بن قتلش بن سلجوق السلجوقي بمدينة قونية وكان له من البلاد قونية وأعمالها وأقصر وسيواس
وملطية وغير ذلك من البلاد وكانت مدة ملكه نحو تسع وعشرين سنة وكان ذا سياسة حسنة وهيبة عظيمة وعدل
وافر وغزوات كثيرة إلى بلاد الروم فلما كبر فرق بلاده على أولاده فاستضعفوه ولم يلتفتوا إليه وحجر عليه
ولده قطب الدين وكان قلع أرسلان قد استتاب في مدينة ملكه رجلا يعرف باختيار الدين حسن فلما غلب
قطب الدين على الأمر قتل حسنا ثم أخذ والده وسار به إلى قيسارية ليأخذها من أخيه الذي سلمها إليه أبوه
فحصرها مدة فوجد والده قلع أرسلان فرصة فهرب ودخل قيسارية وحده فلما علم قطب الدين ذلك عاد إلى
قونية وأقصر فملكها ولم يزل قلع أرسلان يتحول من ولد إلى ولد وكل منهم يتبرم به حتى مضى إلى ولده
غياث الدين كيخسرو صاحب مدينة برغلا فلما رآه فرح به وخدمه وجمع العساكر وسار هو معه إلى قونية
فملكها وسار إلى أقصر ومع والده قلع أرسلان فحصرها ففرض أبوه فعاد به إلى قونية فتوفي بها ودفن هناك
وبقى ولده غياث الدين في قونية مالكا لها حتى أخذها منه أخوه ركن الدين سليمان على ما ذكره إن شاء الله
تعالى وقد حدثني بعض من أثق إليه من أهل العلم بما يحكيه وكان قد وصل تلك البلاد بغير هذا ونحن نذكره
قال إن قلع أرسلان قسم بلاده بين أولاده في حياته فسلم دوقاط إلى ابنه ركن الدين سليمان وسلم قونية إلى
ولده كيخسرو وغياث الدين وسلم أنقرة وهي التي تسمى أنكورية إلى ولده محي الدين وسلم ملطية إلى ولده
معز الدين قيصر شاه وسلم ابليستين إلى ولده مغيث الدين وسلم قيسارية إلى ولده نور الدين محمود وسلم سيواس

واقصرا إلى ولده قطب الدين وسلم تكسار إلى ولد آخر وسلم أماسيا إلى ولد أخيه هذه أمهات البلاد وينضاف إلى كل بلد من هذه ما يجاورها من البلاد الصغار التي ليست مثل هذه ثم إنه ندم على ذلك وأراد أن يجمع الجميع لولده الأكبر قطب الدين وخطب له ابنة صلاح الدين يوسف صاحب مصر والشام ليقوى به فلما سمع باقي أولاده بذلك امتنعوا عليه وخرجوا عن طاعته وزال حكمه عنهم فسار يتردد بينهم على سبيل الزيارة فيقيم عند كل واحد منهم مدة وينتقل إلى الآخر ثم إنه مضى إلى ولده كيخسرو صاحب قونية على عادته فخرج إليه ولقيه وقبل الأرض بين يديه وسلم قونية إليه وتصرف عن أمره فقال لكيخسرو وأريد أسير إلى ولدي الملعون محمود وهو صاحب قيسارية وتجيء أنت معي لأخذها منه فتجهز وسار معه وحصر محمودا بقيسارية ففرض قلعج أرسلان وتوفي عليها فعاد كيخسرو وبقي كل واحد من الأولاد على البلد التي بيده وكان قطب الدين صاحب اقصرا وسيواس إذا أراد أن يسير من إحدى المدينتين إلى الأخرى يجعل طريقه على قيسارية وبها أخوه نور الدين محمود وليست على طريقه إنما كان يقصدها ليظهر المودة لأخيه والمحبة له وفي نفسه الغدر فكان أخوه محمود يقصده ويجمع به في بعض المرات نزل بظاهر البلد على عادته وحضر أخوه محمود عنده غير محاط فقتله قطب الدين وألقى رأسه إلى أصحابه وأراد أخذ البلد فانتزع من به من أصحاب أخيه عليه ثم انهم سلموه إليه على قاعدة استمرت بينهم وكان عند محمود أمير كبير وكان يحذره من أخيه قطب الدين ويخوفه فلم يصغ إليه وكان جوادا كثير الخير والتقدم في الدولة عند نور الدين فلما قتل قطب الدين أخاه قتل حسنا معه وألقاه على الطريق فجاء كلب يأكل من لحمه فثار الناس وقالوا لاسمعا ولاطاعة هذا رجل مسلم وله ههنا مدرسة وتربة وصدقات دارة وأفعال حسنة لا تتركه تأكله الكلاب فأمر به فدفن في مدرسته وبقي أولاد قلعج أرسلان على حالهم ثم إن قطب الدين مرض ومات فسار أخوه ركن الدين سليمان صاحب دوقاط إلى سيواس وهي تجاوره فملكها ثم سار منها إلى قيسارية واقصرا ثم بقي مديدة وسار إلى قونية وبها أخوه غياث الدين فحصره بها وملكها ففارقها غياث الدين إلى الشام ثم إلى بلد الروم وكان من أمره ما ذكره إن شاء الله تعالى ثم سار بعد ذلك إلى ركن الدين إلى نكسار وأماسيا فملكها وسار إلى ملطية سنة سبع وتسعين وخمسة فملكها وفارقها أخوه معز الدين إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب وكان هذا معز الدين تزوج ابنة للعادل فأقام عنده واجتمع لركن الدين ملك جميع الأخوة ماعدا أنقرة فإنها منيعه لا يوصل إليها فجعل عليها عسكرا يحصرها صيفا وشتاء ثلاث سنين فتسلمها سنة إحدى وستمائة ووضع على أخيه الذي كان بها من يقتله إذا فارقها فلما سار عنها قتل وتوفي ركن الدين في تلك الأيام ولم يسمع خبر قتل أخيه بل عاجله الله تعالى لقطع رحمة وإنما أردنا هذه الحادثة ههنا لتتبع بعضها بعضا ولأنني لم أعلم تواريخ كل حادثة منها لأثبتته فيه .

(ذكر ملك شهاب الدين أجمير وغيرها من الهند) قد ذكرنا سنة ثلاث وثمانين غزوة شهاب الدين الغوري إلى بلد الهند وانهازاه وبقي إلى الآن وفي نفسه الحقد العظيم على الجند الغورية الذين انهزموا وما ألزمهم من الهوان فلما كانت هذه السنة خرج من غزنة وقد جمع عساكره وسار فيها يطلب غزوة الهندي الذي هزمه تلك التوبة فلما وصل إلى يرشاوور تقدم إليه شيخ من الغورية كان يدل عليه فقال له قد قربنا من العدو وما يعلم أحد أين يمضي ولا من يقصد ولا نرد على الأمراء سلاما وهذا لا يجوز فعله فقال له السلطان أعلم أنني منذ هزمتي هذا الكافر ما نمت مع زوجتي ولا غيرت ثياب البياض عني وأماسا إلى عدوي ومعتمد على الله تعالى

لاعلى الغورية ولا على غيرهم فإن نصرني الله سبحانه ونصر دينه فمن فضله وكرمه وإن انهزمت فلا تطلبوني فما انهزمت ولو ملكت تحت حوافر الخيل فقال له الشيخ سوف ترى بني همك من الغورية ما يفعلون فينبغي أن تكلمهم وترد سلامهم ففعل ذلك وبقي أمراء الغورية يتضرعون ويقولون سوف ترى ما نفعل وسار إلى أن وصل إلى موضع المصاف الأول وجازه مسيرة أربعة أيام وأخذ عدة مواضع من بلاد العدو فلما سمع الهندي تجهز وجمع عما كره وسار يطلب المسلمين فلما بقي بين الطائفتين مرحلة عاد شهاب الدين وراءه، والكافر في أعقابه أربع منازل فأرسل الكافر إليه يقول له أعطني يدك أنك تصافقني في باب غزوة حتى أجيء وراك وإلا فنحن مثقلون ومثلك لا يدخل البلاد شبيه اللصوص ثم يخرج هاربا ما هذا من السلاطين فأعاد الجواب إنني لا أقدر على حربك وتم على حاله عائدا إلى أن بقي بينه وبين بلاد الإسلام ثلاثة أيام والكاfer في أثره يتبعه حتى لحقه قريبا من مرده فجرد شهاب الدين من عسكره سبعين ألفا وقال أريد هذه الليلة تدورون حتى تكونوا وراء عسكر العدو وعند صلاة الصبح تاتون أنتم من تلك الناحية وأنا من هذه الناحية ففعلوا ذلك وطلع الفجر ومن عادة الهنود أنهم لا يرحون من مضاجعهم إلى أن تطلع الشمس فلما أصبحوا حمل عليهم عسكر المسلمين من كل جانب وضربت الكؤوس فلم يلتفت ملك الهند إلى ذلك وقال من يقدم على أنا هذا والقتل قد أكثر في الهنود والنصر قد ظهر للمسلمين فلما رأى ملك الهند ذلك أحضر فرسا له سابقا وركبه ليهرب فقال له أعيان أصحابه إنك حلفت لنا أنك لا تخيلنا وتهرب فنزل عن الفرس وركب الفيل ووقف موضعه والقتال شديد والقتل قد كثرت في أصحابه فاتمى المسلمون إليه وأخذوه أسيرا وحينئذ عظم القتل والأسر في الهنود لم ينج منهم إلا القليل وأحضر الهندي بين يدي شهاب الدين فلم يخدمه فأخذ بعض الحجاب بلحيته وجذبه إلى الأرض حتى أصابها جبينه وأقعدته بين يدي شهاب الدين فقال له شهاب الدين لو استأسرتني ما كنت تفعل بي فقال الكافر قد استعملت لك قيادا من ذهب أقيدك به فقال شهاب الدين بل نحن ما نجعل لك من القدر ما نقيدك وغنم المسلمون من الهنود أموالا كثيرة وأمتعة عظيمة وفي جملة ذلك أربعة عشر فيلا من جملتها الفيل الذي جرح شهاب الدين في تلك الواقعة وقال ملك الهند لشهاب الدين إن كنت طالب بلاد فما بقي فيها من يحفظها وإن كنت طالب أموال فعندي أموال تحمل أجمالك فسار شهاب الدين وهو معه إلى الحصن الذي له يعول عليه وهو أجير فأخذه وأخذ جميع البلاد التي تقاربه وأقطع جميع البلاد لمملوكه قطب الدين أيبك وعاد إلى غزوة وقتل ملك الهند.

(ذکر عدة حوادث) في هذه السنة قبض على أمير الحاج طاشتكين ببغداد وكان نعم الأمير عادلا في الحاج رفيقا بهم محبا لهم له اوراد كثيرة من صلوات وصيام وكان كثير الصدقة لاجرم وقفت أعماله بين يديه نخلص من السجن على ما ذكره إن شاء الله تعالى. وفيها خرج السلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل من الحبس بعد موت قزل أرسلان بن أيلدكز والتقى هو وقتع أيناخ بن البهلوان بن أيلدكز فانهزم أيناخ إلى الري على ما ذكره إن شاء الله تعالى سنة تسعين وخمسةائة. وفيها في رجب توفي الأمير السيد علي بن المرتضى العلوي الحنفي مدرس جامع السلطان ببغداد. وفي شعبان منها توفي أبو علي الحسن بن هبة الله بن البوقى الفقيه الشافعي

الواسطي وكان عالماً بالمدب، انتفع به الناس^(١)

(ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة)

(ذكر وفاة صلاح الدين وبعض سيرته) في هذه السنة في صفر توفى صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي صاحب مصر والشام والجزيرة وغيرها بدمشق ومولده بتكريت وقد ذكرنا سبب انتقالهم منها وملكهم مصر سنة أربع وستين وخمسمائة وكان سبب مرضه أنه خرج يتلقى الحاج فعاد ومرض من يومه مرضاً حاداً بقي به ثمانية أيام، وتوفى رحمه الله وكان قبل مرضه قد حضر ولده الأفضل علياً وأخاه الملك العادل أبابكر واستشارهما فيما يفعل وقال قـتـرغنا من الفرنج وليس لنا في هذه البلاد شاغل فأى جهة نقصد فأشار عليه أخوه العادل بقصد خلاط لأنه كان قد وعده إذا أخذها أن يسلمها إليه وأشار ولده الأفضل بقصد بلد الروم التي بيد أولاد قلع أرسلان وقال هي أكثر بلاداً وعسكراً ومالاً وأسرع مأخذاً وهي أيضاً طريق الفرنج إذا خرجوا على البر فإذا ملكناها منعناهم من العبور فيها فقال كلاً كما مقصر ناقص المهمة بل أقصد أنا بلد الروم وقال لأخيه تأخذ أنت بعض أولادى وبعض العسكرو تقصد خلاط فإذا فرغت أنا من بلد الروم جئت إليكم وندخل منها أذربيجان ونصل ببلاد العجم فما فيها من يمنع عنها ثم أذن لأخيه العادل في المضي إلى الكرك وكان له وقال له تجهز واحضر لتسير فلما سار إلى الكرك مرض صلاح الدين وتوفى قبل عوده وكان رحمه الله كريماً حليماً حسن الأخلاق متواضعاً صبوراً على ما يكره كثيراً التغافل عن ذنوب أصحابه يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعله بذلك ولا يتغير عليه وبلغنى أنه كان جالساً وعنده جماعة فرمى بعض المماليك بعضاً بسرmoz فأخطأته ووصلت إلى صلاح الدين فأخطأته ووقعت بالقرب منه فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلم جليسه ليتغافل عنها وطلب مرة الماء فلم يحضر وعاود الطلب في مجلس واحد خمس مرات فلم يحضر فقال يا أصحابنا والله قد قتلتى العطش فأحضر الماء فشربه ولم ينكر التواني في إحضاره وكان مرة قد مرض مرضاً شديداً أرجف عليه بالموت فلما برئ منه

(١) وفيها توفى محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفرائش، كان قاضى العساكر بدمشق، ويرسله السلطان إلى ملوك الآفاق، ومات بملطية. وفيها توفى سيف الدين علي بن أحمد المشطوب كان من أصحاب أسد الدين شيركوه حضر معه الوقعات الثلاث بمصر، ثم صار من كبراء أمراء صلاح الدين، وهو الذى كان نائباً على عكا لما أخذوها المريج، فأسروه في جملة من أسروا فافتدى نفسه بخمسين ألف دينار، وجاء إلى السلطان وهو بالقدس فأعطاه أكثرها، وولاه نابلس. توفى يوم الأحد ثالث وعشرين شوال بالقدس، ودفن في داره. وفيها توفى نصر ابن منصور النيرى سمع الحديث واشتغل بالأدب، وأصابه جذري وهو ابن أربعة عشرة سنة فنقص بصره جداً، وكان لا يبصر الأشياء البعيدة، ويرى القريب منه، ولكن كان لا يحتاج إلى قائد، فارتحل إلى العراق لمداداة عينيه فأيسه الأطباء من ذلك، فاشتغل بحفظ القرآن ومصاحبة الصالحين فأفلق، وله ديوان شعر كبير حسن، وقد سئل مرة عن مذهبه واعتقاده فأنشأ يقول:

أحب علياً والبتول وولدهما • ولا أجحد الشيخين فضل التقدم
وأبرأ من نال عثمان بالأذى • كما أبرأ من ولاء ابن ملجم
ويمجنى أهل الحديث لصدقهم • فلست إلى قوم سوامم بمتنى

توفى بغداد ودفن بمقابر الشهداء بباب حرب رحمه الله تعالى.

وأدخل الحمام كان الماء حاراً فطلب ماء بارداً فأحضره الذي يخدمه فسقط من الماء شيء على الأرض فناله منه شيء فتألم له لضعفه ثم طلب البارد أيضاً فأحضر فلما قاربته سقطت الطاسة على الأرض فوقع الماء جميعه عليه فكاد يهلك فلم يزد على أن قال للغلام إن كنت تريد قتلي فعرفني فاعتذرا ليه فسكت عنه وأما كرمه فإنه كان كثير البذل لا يقف في شيء يخرج به ويكفي دليلاً على كرمه أنه لم يخلف في خرائنه غير دينار واحد صوري وأربعين درهماً ناصرية وبلغني أنه أخرج في مدة مقامه على عكا قبالة الفرنج ثمانية عشر ألف دابة من فرس وبغل سوى الجمال وأما العين والثياب والسلاح فإنه لا يدخل تحت الحصر ولما انقضت الدولة العلوية بمصر أخذ من ذخائرهم من سائر الأنواع ما يفوت الإحصاء ففرقه جميعه وأما تواضعه فإنه كان ظاهراً لم يتكبر على أحد من أصحابه وكان يعيب الملوك المتكبرين بذلك وكان يحضر عنده الفقراء والصوفية ويعمل لهم السماع فإذا قام أحدهم لرقص أو سماع يقوم له فلا يقعد حتى يفرغ الفقير ولم يلبس شيئاً مما ينكره الشرع وكان عنده علم ومعرفة وسمع الحديث وأسمعه وبالجملة فكان نادراً في عسكره كثير المحاسن والأفعال الجميلة عظيم الجهاد في الكفار وفتوحه تدل على ذلك وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً. (١)

(ذكر حال أهله وأولاده بعده) لمسامات صلاح الدين بدهشق كان معه بها ولده الأكبر الأفضل بوزالدين عليّ وكان قد حلف له العساكر جميعهم غير مرة في حياته فلما مات ملك دمشق والساحل والبيت المقدس

(١) لما اشتد الحال بالسلطان ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر، استدعى الشيخ أبا جعفر إمام الكلاسة لبيت عنده يقرأ القرآن ويأقنه الشهادة إذا جد به الأمر، فذكر أنه كان يقرأ عنده وهو في الغمرات فقرأ (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة) فقال: وهو كذلك صحيح. فلما أذن الصبح جاء القاضي الفاضل فدخل عليه وهو في آخر روق، فلما قرأ القارئ (لا إله إلا هو عليه توكلت) تبسم وتهلل وجهه وأسلم روحه إلى ربه سبحانه، ومات رحمه الله، وأكرم مثواه، وجعل جنات الفردوس مأواه، وكان له من العمر سبع وخمسون سنة لأنه ولد بتكريت في شهر سنة اثنتين وثلاثين وخمسة، رحمه الله، فقد كان ردهاً للإسلام وحرزاً وكهفاً من كيد الكفرة اللثام، وذلك بتوفيق الله له، وكان أهل دمشق لم يصابوا بمثل مصابه، وود كل منهم لو فداه بأولاده وأحبابه وأصحابه، وقد غلقت الأسواق واحتفظ على الحواصل، ثم أخذوا في تجهيزه، وحضر جميع أولاده وأهله وكان الذي تولى غسله خطيب البلد الفقيه الدرعي، وكان الذي أحضر الكفن ومؤنة التجهيز القاضي الفاضل من صلب ماله الحلال، هذا وأولاده الكبار والصغار يتباكون وينادون، وأخذ الناس في العويل والانتحاب والدعاء له والابتهاج، ثم أبرز جسمه في نعشه في تابوت بعد صلاة الظهر، وأم الناس عليه القاضي ابن الزكي ثم دفن في داره بالقلعة المنصورة، ثم شرع ابنه في بناء تربة له ومدرسة للشافعية بالقرب من مسجد القدم، لوصيته بذلك قديماً، فلم يكمل بناؤها، وذلك حين قدم ولده العزيز وكان محاصراً لآخيه الأفضل ثم اشترى له الأفضل داراً شمالي الكلاسة في وزان مازاده القاضي الفاضل في الكلاسة، فجعلها تربة، هطت محائب الرحمة عليها، ووصلت أطفاف الرأفة إليها. وكان نقله إليها في يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين، وصلى عليه تحت الفسق قاضي القضاة محمد بن علي الترابي ابن الزكي، عن إذن الأفضل، ودخل في لحده ولده الأفضل فدفنه بنفسه، وهو يومئذ سلطان الشام، ويقال إنه دفن معه سيفه الذي كان يحضر به الجهاد، وذلك عن أمر القاضي الفاضل وتفاءلوا بأنه يكون معه يوم القيامة يتوكأ عليه، حتى يدخل الجنة إن شاء الله. ثم عمل عزائه بالجامع الأموي ثلاثة أيام، يحضره الخاص والعام، والرعية والحكام.

وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين وجميع الأهمال إلى الداروم وكان ولده الملك العزيز عثمان بمصر فاستولى عليها واستقر ملكه بها وكان ولده الظاهر غازي بحلب فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها مثل حارم وتل باشر وإعزاز وبرزية ودرب ساك ومنبج وغير ذلك وكان بحماة محمود بن تقي الدين عمه فأطاعه وصار معه وكان بحمص شيركوه بن محمد بن شيركوه فأطاع الملك الأفضل وكان الملك العادل بالكرك قدسار إليه كما ذكرنا فامتنع فيه ولم يحضر عند أحد أولاد أخيه فأرسل إليه الملك الأفضل يستدعيه ليحضر عنده فوعده ولم يفعل فأعاد مراسلته وخوفه من الملك العزيز صاحب مصر ومن أتابك عز الدين صاحب الموصل فإنه كان قد سار عنها إلى بلاد العادل الجزرية على ما ذكره ويقول له إن حضرت جهزت العساكر وسرت إلى بلادك حفظتها وإن أقت تصدك أخى الملك العزيز لما بينكما من العداوة وإذا ملك عز الدين بلادك فليس له دون الشام مانع وقال لرسوله إن حضر معك وإلا فقل له قد أمرني إن سرت إليه بدمشق عدت معك وإن لم تفعل أسير إلى الملك العزيز أحالفه على ما يختار فلما حضر الرسول عنده وعده بالجيء فلما رأى أن ليس معه منه شيء غير الوعد أبلغه ما قيل له في معنى موافقة العزيز فحينئذ سار إلى دمشق وجهاز الأفضل معه عسكر من عنده وأرسل إلى صاحب حصص وصاحب حماة وإلى أخيه الملك الظاهر بحلب يحثهم على إنفاذ العساكر مع العادل إلى البلاد الجزرية لينعها من صاحب الموصل ويخوفهم إن هم لم يفعلوا وما قال لأخيه الظاهر قد عرفت صحة أهل الشام لبيت أتابك فوالله إن ملك عز الدين حران ليفر كن أهل حلب عليك ولتخرجن منها وأنت لاتعقل وكذلك يفعل في أهل دمشق فاتفقت كلمتهم على تسيير العساكر معه فجهزوا عساكرهم وصيروها إلى العادل وقد عبر الفرات فعسكر عساكرهم بنواحي الرها بمرج الریحان وسندكر ما كان منه إن شاء الله تعالى .

(ذكر مسير أتابك عز الدين إلى بلاد العادل وعوده بسبب مرضه) لما بلغ أتابك عز الدين مسعود ابن مودود بن زنكي صاحب الموصل وفاة صلاح الدين جمع أهل الرأي من أصحابه وفيهم مجاهد الدين قايماز كبير دولته والمقدم على كل من فيها وهو نائبه فيهم واستأذنهم فيما يفعل فسكتوا فقال له بعضهم وهو أخى مجد الدين أبو السعادات المبارك أما أرى أنك تخرج مسرعا جريدا فيمن خفت من أصحابك وحلفتك الخاص وتنقدم إلى الباقيين باللحاق بك وتعطى من هو محتاج إلى شيء ما يتجهز به ويلحق بك إلى نصيبين وتكاتب أصحاب الأطراف مثل مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل وسنجر شاه ابن أخيك صاحب جزيرة ابن عمر وأخاك عماد الدين صاحب سنجار ونصيبين تعرفهم أنك قد سرت وتطلب منهم المساعدة وتبذل لهم العيون على ما ياتمصونه فتى رأوك قد سرت خافوك وإن أجابك أخوك صاحب سنجار ونصيبين إلى الموافقة وإلا بدأت بنصيبين أخذتها وتركت فيها من يحفظها ثم سرت نحو الخابور وهو له أيضا فأقطعه وتركت عسكره مقابل أخيك يمنع من الحركة إن أرادها أو قصدت الرقة فلا تمنع نفسها وتأتى حران والرها فليس فيهما من يحفظهما لأصاحب ولا عسكر ولا ذخيرة فإن العادل أخذها من ابن تقي الدين ولم يبق فيهما ليصالح حالها وكان القوم يتكلمون على قوتهم فلم يظنوا هذا الحادث فإذا فرغت من ذلك الطرف عدت إلى من امتنع من طاعتك فقاتلته وليس ورايك ماتخاف عليه فإن بلدك عظيم لا يبالي بكل من ورايك فقال مجاهد الدين المصلحة أننا نكاتب أصحاب الأطراف ونأخذ رأيهم في الحركة ونستعملهم فتال له أخى إن أشاروا بترك الحركة تقبلون منهم قال لا قال فإنهم لا يشيرون إلا بتركها لأنهم لا يرون أن يقوى هذا السلطان خوفا منه وكان بهم يغالطونكم

مهما كانت البلاد الجزرية فارغه من صاحب وعسكر فإذا جاء إليها من يحفظها جاهروكم بالعداوة ولم يمكنه أكثر من هذا خوفا من مجاهد الدين حيث رأى ميله إلى ماتكم به فانفصلوا على أن يكاتبوا أصحاب الأطراف فكاتبوهم فكل أشار بترك الحركة إلى أن ينظر ما يكون من أولاد صلاح الدين وعمهم فنشط ثم إن مجاهد الدين كثر المراسلات إلى عماد الدين صاحب سنجار يعده ويستميله ، فبينما هم على ذلك إذ جاءهم كتاب الملك العادل من المناخ بالقرب من دمشق وقد سار عن دمشق إلى بلاده يذكر فيه موت أخيه وأن البلاد قد استقرت لولده الملك الأفضل والناس متفقون على طاعته وأنه هو المدبر لدولة الأفضل وقد سيره في عسكر جم كثير العدد لقصد ماردين لما بلغه أن صاحبها تعرض إلى بعض القرى التي له وذكر من هذا النحو شيئا كثيرا فظنوه حقا وإن قوله لا ريب فيه ففتروا عن الحركة وذلك الرأي فسيروا الجواسيس فأتتهم الأخبار بأنه في ظاهر حران من نحو مائتي خيمة لا غير ، فعادوا تحركوا فإلى أن تقرررت القواعد بينهم وبين صاحب سنجار ، وأقبلت العساكر الشامية التي سيرها الأفضل وغيره إلى العادل ، فامتنع بها ، وسار أتابك عز الدين عن الموصل إلى نصيبين واجتمع هو وأخوه عماد الدين بها وساروا على سنجار نحو الرها وكان العادل قد عسكر قريبا منها بمرج الريمان لخافهم خوفا عظيما فلما وصل أتابك عز الدين إلى تل موزن مرض بالإسهال فأقام عدة أيام فضعفت منه الحركة وكثر مجيء الدم منه تخاف الهلاك فترك العساكر مع أخيه عماد الدين وعاد جريدة في مائتي فارس ومعه مجاهد الدين وأخى نجد الدين فلما وصل إلى دنيسر استولى عليه الضمف فأحضر أخى وكتب وصية ثم سار فدخل الموصل وهو مريض أول رجب .

(ذكر وفاة أتابك عز الدين وشيء من سيرته) في هذه السنة توفي أتابك مسعود بن مودود بن زنسكي ابن آقسنقر صاحب الموصل بالموصل وقد ذكرنا عوده إليها مريضا فبقي في مرضه إلى التاسع والعشرين من شعبان فتوفي رحمه الله ودفن بالمدرسة التي أنشأها مقابل دار المملكة وكان قد بقي ما يزيد على عشرة أيام لا يتسكلم إلا بالشهادتين وتلاوة القرآن وإذا تكلم بغيرها استغفر الله ثم عاد إلى ما كان عليه فرزق خاتمة خير رضى الله عنه وكان رحمه الله خير الطبع كثير الخير والإحسان لا سيما إلى شيوخ قد خدموا أباه فإنه كان يتعهدهم بالبر والإحسان والصلة والإكرام ويرجع إلى قولهم ويزور الصالحين ويقربهم ويشفهم وكان حليما قليل المعاقبة كثير الحياء لم يكلم جليسا له إلا وهو مطرق وما قال في شيء يستله لأحياء وكرم طبع وكان قد حج وليس بمكة حرمها الله خرقة التصوف وكان يلبس تلك الخرقة كل ليلة ويخرج إلى مسجد قد بناه في داره ويصلي فيه نحو ثلث الليل وكان رقيق القلب شقيقا على الرعية بلغني عنه أنه قال بعض الأيام إنني سهرت الليلة كثيرا وسبب ذلك أني سمعت صوت نائحة فظننت أن ولد فلان قد مات وكان قد سمع أنه مريض قال فضاق صدري وقت من فراشي أدور في السطح فلما طال على الأمر أرسلت خادما إلى الجاندارية فأرسل منهم واحدا يستعلم الخبر فعاد وذكر إنسانا لا أعرفه فسكن بعض ما عندي فتمت ولم يكن الرجل الذي ظن أن ابنه مات من أصحابه إنما كان من رعيته كان ينبغي أن تتأخر وفاته وإنما قدمناها لتتبع أخباره بعضها بعضا .

(ذكر قتل بكتمر صاحب خلاط) في هذه السنة أول جمادى الأولى قتل سيف الدين بكتمر صاحب خلاط وكان بين قتله وموت صلاح الدين شهران فإنه أسرف في إظهار الشهامة بموت صلاح الدين فلم يمهله الله تعالى ولما بلغه موت صلاح الدين فرح فرحا كثيرا وعمل تخطا جلس عليه ولقب نفسه بالسلطان المعظم

صلاح الدين وكان لقبه سيف الدين فغيره وسمى نفسه عبدالعزيز وظهر منه اختلال وتخليط وتجهز ليقتصد مياقارقين بمصرها فأدركته منيته وكان سبب قتله أن هزار دیناری وهو ایضاً من مالیک شاه أرمن ظهر الدين كان قد قوى وكثر جمعه وتزوج ابنة بكتمر فطمع في الملك فوضع عليه من قتله بلما قتل ملك بعده هزار دیناری بلاد خلاط وأعمالها وكان بكتمر دينا خيرا صالحا كثير الخير والصلاح والصدقة محبا لأهل الدين والصوفية كثير الإحسان إليهم قريبا منهم ومن سائر رعيته محبوبا إليهم عادلا فيهم وكان جوادا شجاعا عادلا في رعيته حسن السيرة فيهم :

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة شتى شهاب الدين ملك غزنة في برشاوور وجهاز مملوكه أيبك في عساكر كثيرة فأدخله بلاد الهند يغتم ويسبي ويفتح من البلاد ما يمكنه فدخلها وعاد وخرج هو وعساكره سالما قدماؤا أيديهم من الغنائم . وفيها في رمضان توفي سلطان شاه صاحب مرو وغيرها من خراسان وملك أخوه علاء الدين فكش بلاده وسنذكره سنة تسعين إن شاء الله . وفيها أمر الخليفة الناصر لدين الله بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد ونقل إليها من الكتب النفيسة ألوانا لا يوجد مثلها . وفيها في ربيع الأول فرغ من عمارة الرباط الذي أمر بإشائه الخليفة أيضا بالحريم الظاهري غربى ببغداد على دجلة وهو من أحسن الربط ونقل إليه كتب كثيرة من أحسن الكتب : وفيها ملك الخليفة قلعة من بلاد خوزستان وسبب ذلك أن صاحبها سوسيان بن شملة جعل فيها دردارا فأساء السيرة مع جندها فغدر به بعضهم فقتله ونادوا بشعار الخليفة فأرسل إليها وملكها وفيها انقض كوكبان عظيمان وسمع صوت هدة عظيمة وذلك بعد طلوع الفجر وغلب ضوءهما القمر وضوء النهار وفيها مات الأمير داود بن عيسى بن محمد بن أبي هاشم أمير مكة وما زالت مكة تكون له تارة ولاخيه مكثر تارة إلى أن مات .

(ثم دخلت سنة تسعين وخمسمائة)

(ذكر الحرب بين شهاب الدين وملك بنارس الهندي) كان شهاب الدين الغورى ملك غزنة قد جهز مملوكه قطب الدين وسيره إلى بلد الهند للغزاة فدخلها فقتل فيها وسبي وغنم وعاد فلما سمع به ملك بنارس وهو أكبر ملك في الهند ولايته من حد الصين إلى بلاد ملاوا طولا ومن البحر إلى مسيرة عشرة أيام من لهاوور عرضا وهو ملك عظيم فعندها جمع جيوشه وحشرها وسار يطلب بلاد الإسلام ودخلت سنة تسعين فسار شهاب الدين الغورى من غزنة بعساكره نحوه فالتقى العسكران على ماخون وهو نهر كبير يقارب دجلة بالموصل وكان مع الهندي سبعمائة فيل ومن العسكر على ما قيل ألف ألف رجل ومن جملة عسكره عدة أمراء مسلمين كانوا في تلك البلاد أب عن جد من أيام السلطان محمود بن سبكتكين يلزمون شريعة الإسلام ويواظبون على الصلوات وأفعال الخير فلما التقى المسلمون والهنود اقتتلوا فنصر الكفار لكثرتهم وصبر المسلمون لشجاعتهم فانهزم الكفار ونصر المسلمون وكثر القتل في الهنود حتى امتلأت الأرض وجافت وكانوا لا يأخذون إلا الصبيان والجوارى وأما الرجال فيقتلون وأخذ منهم تسعين فيلا وبقى الفيلة قتل بعضها وانهزم بعضها وقتل ملك الهند ولم يعرفه أحد إلا أنه كانت أسنانه قد ضعفت أصولها فأمسكوها بشریط الذهب فلذلك عرفوه فلما انهزم الهنود دخل شهاب الدين بلاد بنارس وحمل من خزائنها على ألف وأربعمائة حمل وعاد إلى غزنة

ومعه الفيلة التي أخذها من جملة هافيل أبيض حدثني من رآه لما أخذت الفيلة وقدمت إلى شهاب الدين وأمرت بالخدمة فخدمت جميعها إلا الأبيض فإنه لم يخدم ولا يجب أحد من قوتنا الفيلة تخدم فإنها تفهم ما يقال لها ولقد شاهدت فيلا بالموصل وفياله بحدته فيفعل ما يقول له .

(ذكر قتل السلطان طغرل وملك خوارزم شاه الري و وفاة أخيه سلطان شاه) قد ذكرنا سنة ثمان وثمانين خروج السلطان طغرل بن ألب أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي من الحبس وملكه همدان وغيرها وكان قد جرى بينه وبين قتلغ اينانج بن البهلوان صاحب البلاد حرب انهزم فيها قتلغ اينانج وتحصن بالري وسار طغرل إلى همدان وأرسل قتلغ اينانج إلى خوارزم شاه علاء الدين تكش يستنجد فسار إليه في سنة ثمان وثمانين فلما تمار بانديم قتلغ اينانج على استدعاء خوارزم شاه وخاف على نفسه فمضى من بين يديه وتحصن في قلعة له فوصل خوارزم شاه إلى الري وملكها وحصر قلعة طبرك ففتحها في يومين وراسله طغرل واصطلحا وبقيت الري في يد خوارزم شاه فرتب فيها عسكريا يحفظها وعاد إلى خوارزم لأنه بلغه أن أخاه سلطان شاه قد قصد خوارزم فجد في السير خوفا عليها فأتاه الخبر وهو في الطريق أهل خوارزم منعوا سلطان شاه عنها ولم يقدر على القرب منها وعاد عنها خائبا فشتى خوارزم شاه بخوارزم فلما انقضى الشتاء سار إلى مرو لقصد أخيه سنة تسع وثمانين فترددت الرسل بينهما في الصلح فبينما هم في تقرير الصلح وإذ قد ورد على خوارزم شاه رسول من مستحفظ قلعة سرخس لأخيه سلطان شاه يدهوه ليسلم إليه القلعة لأنه قد استوحش من صاحبه سلطان شاه فسار خوارزم شاه إليه مجدا فتسلم القلعة وصار معه وبلغ ذلك سلطان شاه فقت ذلك في عضده وتزايد كده فمات سلخ رمضان سنة تسع وثمانين وخمسمائة فلما سمع خوارزم شاه بموته سار من ساعته إلى مرو فتسلمها وتسلم ملكة أخيه سلطان شاه جميعها وخزائنه وأرسل إلى ابنه علاء الدين محمد وكان يلقب حينئذ قطب الدين وهو بخوارزم فأحضره فولاه نيسابور وولى ابنه الكبير ملكشاه مرو وذلك في ذي الحجة سنة تسع وثمانين فلما دخلت سنة تسعين وخمسمائة قصد السلطان طغرل بلد الري فأغار على من به من أصحاب خوارزم شاه ففر منه قتلغ اينانج بن البهلوان وأرسل إلى خوارزم شاه يعتذر ويسأل إيجازه مرة ثانية ووافق ذلك وصول رسول الخليفة إلى خوارزم شاه يشكو من طغرل ويطلب منه قصد بلاده ومعه منشور بإقطاعه البلاد فسار من نيسابور إلى الري فلتقاه قتلغ اينانج ومن معه بالطاعة وساروا معه فلما سمع السلطان طغرل بوصوله كانت عساكره متفرقة فلم يقف ليجمعها بل سار إليه فيمن معه فقيل له إن الذي تفعله ليس برأى والمصلحة أن تجمع العساكر فلم يقبل وكان فيه شجاعة بل تم مسيره فالتقى العسكران بالقرب من الري فحمل طغرل بنفسه في وسط عسكر خوارزم شاه فأحاطوا به وألقوه عن فرسه وقتلوه في الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول وحمل رأسه إلى خوارزم شاه فسيره من يومه إلى بغداد فنصب بها بياب النوى عدة أيام وسار خوارزم شاه إلى همدان وملك تلك البلاد جميعها وكان الخليفة الناصر لدين الله قد سير عسكريا إلى نجدة خوارزم شاه وسير له الخلع السلطانية مع وزيره مؤيد الدين بن القصاب فنزل على فرسخ من همدان فأرسل إليه خوارزم شاه يطلبه إليه فقال مؤيد الدين ينبغي أن تحضرت أنت وتلبس الخلعة من خيمتي وترددت الرسل بينهما في ذلك فقيل لخوارزم شاه إنها حيلة عليك حتى تحضر عنده ويقبض عليك فدخل خوارزم شاه إليه قصدا لاخذه فاندفع بين يديه إلى بعض الجبال فامتنع به فرجع خوارزم

شاه إلى همدان ولما ملك همدان وتلك البلاد سلمها إلى قتلغ اينانج وأقطع كثيرا منها للمالكة وجعل المقدم عليهم مياجق وعاد إلى خوارزم .

(ذكر مسير وزير الخليفة إلى خوزستان وملكها) في هذه السنة في شعبان خلع الخليفة الناصر لدين الله على النائب في الوزارة مؤيد الدين أبي عبد الله محمد بن علي المعروف بابن القصاب خلع الوزارة وحكم في الولاية وبرز في رمضان وسار إلى بلاد خوزستان وولى الأعمال بها وصار له فيها أصحاب وأصدقاء ومعارف وعرف البلاد ومن أى وجه يمكن الدخول إليها والاستيلاء عليها ، فلما ولى ببغداد نيابة الوزارة أشار على الخليفة بأن يرسله في عسكر إليها ليملكها له وكان عزمه أنه إذا ملك البلاد واستقر فيها أقام مظهرا للطاعة مستقلا بالحكم فيها ليأمن على نفسه فاتفق أن صاحبها ابن شملة توفي واختلف أولاده بعده فراسل بعضهم مؤيد الدين يستنجده لما بينهم من الصحبة القديمة فقوى الطمع في البلاد فجهزت العساكر وسيرت معه إلى خوزستان فوصلها سنة إحدى وتسعين وجرى بينه وبين أصحاب البلاد مراسلات ومحاربة عجزوا عنها وملك مدينته تستر في الحرم وملك غيرها من البلاد وملك القلاع منها قلعة الناظر وقلعة كاكرد وقلعة الأموج وغيرها من الحصون والقلاع وأنفذ بنى شملة أصحاب بلاد خوزستان إلى بغداد فوصلوا في ربيع الأول

(ذكر حصر العزيز مدينة دمشق) في هذه السنة وصل الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين وهو صاحب مصر إلى مدينة دمشق فحصرها وبها أخوه الأكبر الملك الأفضل علي بن صلاح الدين وكنت حينئذ بدمشق فزل بنواحي ميدان الحصى فأرسل الأفضل إلى عمه الملك العادل أبي بكر بن أيوب وهو صاحب الديار الجزرية يستنجده وكان الأفضل غاية الوثاق به والمعتمد عليه وقد سبق ما يدل على ذلك فسار الملك العادل إلى دمشق هو والملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حاب وناصر الدين محمد بن تقي الدين صاحب حماة وأسد الدين شيركوه ابن محمد بن شيركوه صاحب حمص وعسكر الموصل وغيرها كل هؤلاء اجتمعوا بدمشق واتفقوا على حفظها عليا منهم أن العزيز إن ملكها أخذ بلادهم فلما رأى العزيز اجتماعهم علم أنه لا قدرة له على البلد فترددت الرسل حينئذ في الصلح فاستقرت القاعدة على أن يكون البيت المقدس وماجاوره من أعمال فلسطين للعزيز وتبقى دمشق وطبرية وأعمالها الغور للأفضل علي ما كانت عليه وأن يعطى الأفضل أخاه الملك الظاهر جبلة ولاذقية وأن يكون للعادل بمصر إقطاعه الأول وانفقوا على ذلك وعاد العزيز إلى مصر ورجع كل واحد من الملوك إلى بلده

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة كانت زلزلة في ربيع الأول بالجزيرة والعراق وكثير من البلاد سقطت منها الجبابة التي عند مشهد أمير المؤمنين على عليه السلام وفيها في جمادى الآخرة اجتمعت زغب وغيرها من العرب وقصدوا مدينة النبي صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم هاشم بن قاسم أخو أمير المدينة فقاتلهم فقتل هاشم وكان أمير المدينة قد توجه إلى الشام فلماذا طمعت العرب فيه . وفيها توفي القاضي أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الصمد الطرسوسى الحلبي بها في شعبان وكان من عباد الله الصالحين رحمه الله تعالى

(ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة)

(ذكر ملك وزير الخليفة همدان وغيرها من بلاد المعجم) قد ذكرنا ملك مؤيد الدين بن القصاب بلاد خوزستان فلما ملكها سار منها إلى ميسان من أعمال خوزستان فوصل إليه قتلغ اينانج بن البهلوان صاحب البلاد وقد

تقدم ذكر تغلب خوارزم شاه عليها ومعه جماعة من الأمراء فأكرمه وزير الخليفة وأحسن إليه وكان سبب مجيئه أنه جرى بينه وبين عسكر خوارزم شاه ومقدمهم مياجق مصاف عند زنجان واقتلوا فانهزم قتلغ اينانج وعسكره وقصد عسكر الخليفة ملتجئاً إلى مؤيد الدين الوزير فأعطاه الوزير الخيل والخيام وغير ذلك مما يحتاج إليه وخلع عليه وعلى من معه من الأمراء ورحلوا إلى كرمانشاه ورحل منها إلى همذان وكان بها ولد خوارزم شاه ومياجق والعسكر الذين معهما فلما قاربهم عسكر الخليفة فارقها الخوارزميون وتوجهوا إلى الري واستولى الوزير على همذان في شوال من هذه السنة ثم رحل هو وقاتلغ اينانج خلفهم فاستولوا على كل بلد جازوا به منها خراقان ومزدغان وساوة وآوة وساروا إلى الري ففارقها الخوارزميون إلى خوار الري فسير الوزير خلفهم عسكراً ففارقها الخوارزميون إلى دامغان وبتظام وجرجان فعاد عسكر الخليفة إلى الري فأقاموا بها فاتفق قتلغ اينانج ومن معه من الأمراء على الخلاف على الوزير وعسكر الخليفة لأنهم رأوا البلاد قد دخلت من عسكر خوارزم شاه فطمعوا فيها فدخلوا الري فحصرها وزير الخليفة ففارقها قتلغ اينانج وملكها الوزير ونهبها العسكر فأمر الوزير بالنداء بالكف عن الهب وسار قتلغ اينانج ومن معه من الأمراء إلى مدينة آوة وبها شحنة الوزير فمنعهم من دخولها فساروا عنها ورحل الوزير في أثرهم نحو همذان فبلغه وهو في الطريق أن قتلغ اينانج قد اجتمع معه عسكر وقصد مدينة كرج وقد نزل على دربند هناك فطلبهم الوزير فلما قاربهم التقوا واقتلوا قتلاً شديداً فانهزم قتلغ اينانج ونجا بنفسه ورحل الوزير من موضع المصاف إلى همذان فنزل بظاهرها فأقام نحو ثلاثة أشهر فوصله رسول خوارزم شاه تكش وكان قد قصد منكر أخذه البلاد من عسكره ويطلب إعانتها وتقدير قواعدها والصلاح فلم يجب الوزير إلى ذلك فسار خوارزم شاه مجداً إلى همذان وكان الوزير مؤيد الدين بن القصاب قد توفي في أوائل شعبان فوقع بينه وبين عسكر الخليفة مصاف نصف شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة فقتل بينهم كثير من العسكرين وانهزم عسكر الخليفة وغم الخوارزميون منهم شيئاً كثيراً وملك خوارزم شاه همذان ونش الوزير من قبره وقطع رأسه وسيره إلى خوارزم وأظهروا أنه قتله في المعركة ثم إن خوارزم شاه أتاه من خراسان ما أوجب أن يعود إليها فترك البلاد وعاد إلى خراسان.

(ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالاندلس) في هذه السنة في شعبان غزا أبو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن صاحب بلاد المغرب والاندلس بلاد الفرنج بالاندلس وسبب ذلك أن الفتن ملك الفرنج بها ومعه ملكة مدينة طليطلة كتب إلى يعقوب كتاباً باسمك اللهم فاطر السموات والأرض أما بعد أيها الأمير فإنه لا يخفى على كل ذي عقل لازب ولاذی لب ثاقب أنك أمير الملة الحنيفية كما أما أمير الملة النصرانية وأنتك من لا يخفى عليه ما هو عليه رؤساء الاندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية واشتغالهم على الراحة وأنا أسومهم الخسف وأخلى الديار وأسبى الذراري وأمثل بالكهول وأقتل الشباب ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم وقد أمكنك يد القدرة وأنتم تعتقدون أن الله فرض عليكم قتال عشرة منا الواحد منكم والآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فقد فرض عليكم قتال اثنين منا واحد منكم ونحن الآن نقاتل عدداً منكم بواحد منا ولا تقدر على دفاعاً ولا تستطيعون امتناعاً ثم حكى لي هناك أنك أخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال وتمطلت نفسك عاماً بعد عام تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ولا أدري آلجن أبطأ بك أم التكذيب بما أنزل عليك ثم حكى لي هناك أنك لا تجد سيلاً للحرب لملك ما يسوغ لك النقم فيها فما أقول لك ما فيه واعتذر منك

ولك أن توفيني بالعهود والمواثيق والأيمان أن تتوجه بجملة من عندك في المراكب والشوانى وأجوز إليك بجملي وأبارزك في أعز الأماكن عندك فإن كان لك فغنيمة عظيمة جاءت إليك وهدية مثلت بين يديك وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك واستحققت إماره الملتئين والتقدم على العثين والله يسهل الإرادة ويوفق السعادة بمنه لا رب غيره ولا خير إلا خيره) فلما وصل كتابه وقرأه يعقوب كتب في أعلاه هذه الآية (ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أدلة وهم صاغرون) وعااده إليه وجمع العساكر العظيمة من المسلمين وعبر المجاز إلى الأندلس وقيل كان سبب عبوره إلى الأندلس أن يعقوب لما قاتل الفرنج سنة ست وثمانين وصالحهم بقى طائفة من الفرنج لم ترض الصالح كما ذكرناه فلما كان الآن جمعت تلك الطائفة جمعا من الفرنج وخرجوا إلى بلاد الإسلام فقتلوا وسبوا وغنموا وأسروا وعاثوا فيها عيئا شديدا فانتهى ذلك إلى يعقوب فجمع العساكر وعبر المجاز إلى الأندلس في جيش يضيق عنه الفضاء فسمعت الفرنج بذلك فجمعت قاصيمهم ودانيمهم وأقبلوا إليه مجدين على قتاله واثقين بالظفر لكثرتهم فالتقوا ناسع شعبان شمالي قرطبة عند قلعة رباح بمكان يعرف بمرج الحديد فاقتلوا قتالا شديدا فكانت الدائرة أولا على المسلمين ثم عادت على الفرنج فانهزموا أقبح هزيمة وانتصر المسلمون عليهم (وجعل الله كلمة الذين كفروا السفلى وكلته هي العليا والله عزيز حكيم) وكان عدد من قتل من الفرنج مائة ألف وستة وأربعين ألفا وأسر ثلاثة عشر ألفا وغنم المسلمون منهم شيئا عظيما من الخيام مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفا ومن الخيل ستة وأربعون ألفا ومن البغال مائة ألف ومن الحمير مائة ألف وكان يعقوب قد نادى في عسكره من غنم شيئا فهو له سوى السلاح وأحصى ما حمل إليه منه فكان زيادة على سبعين ألف لبس وقتل من المسلمين نحو عشرين ألفا ولما انهزم الفرنج اتبعهم أبو يوسف فرآهم قد أخذوا قلعة رباح وساروا عنها من الرعب والخوف فلكها وجعل فيها واليا وجندا يحفظونها وعاد إلى مدينة أشيلية وأما الفنش فإنه لما انهزم حلق رأسه ونكس صليبه وركب حمارا وأقسم أن لا يركب فرسا ولا بغلا حتى تنصر النصرانية فجمع جموعا عظيمة وبلغ الخبر بذلك إلى يعقوب فأرسل إلى بلاد الغرب مراكش وغيرها يستنفر الناس من غير إكراه فأتاه من المتطوعة والمرتزقين جمع عظيم فالتقوا في ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة وغنم المسلمون مامعهم من الآهوال والسلاح والدواب وغيرها وتوجه إلى مدينة طليطلة فحصرها وقاتلها قتالا شديدا وقطع أشجارها وشن الغارة على ما حولها من البلاد وفتح فيها عدة حصون فقتل رجالها وسبي حريمها وخرب دورها وهدم أسوارها فضعفت النصرانية حينئذ وعظم أمر الإسلام بالأندلس وعاد يعقوب إلى أشيلية فأقام بها فلما دخلت سنة ثلاث وتسعين سار عنها إلى بلاد الفرنج وذلوا واجتمع ملوكهم وأرسلوا يطلبون الصلح فأجابهم إليه بعد أن كان عازما على الامتناع مريدا للملازمة الجهاد إلى أن يفرغ منهم فأتاه خبر على بن إسحق الملتئم الميورقي أنه فعل بأفريقية ما نذكره من الأفاعيل الشنيعة فترك عزمه وصالحهم مدة خمس سنين وعاد إلى مراكش آخر سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة .

(ذكر فعلة الملتئم بأفريقية) لما عبر أبو يوسف يعقوب صاحب المغرب إلى الأندلس كما ذكرناه وأقام مجاهدا ثلاث سنين انقطعت أخباره عن أفريقية فقوى طمع على بن إسحاق الملتئم الميورقي وكان بالبرية مع العرب فعاود قصد أفريقية فانبت جنوده في البلاد فخربوها وأكثروا الفساد فيها فحيت أثار تلك البلاد وتغيرت وصارت خالية من الأنيس خاوية على عروشها وأراد المسير إلى بجاية ومحاصرتها لاشتغال يعقوب بالجهاد (٣٠ - كامل - ٩)

وأظهر أنه إذا استولى على بجاية سار إلى المغرب فوصل الخبر إلى يعقوب بذلك فصالح الفرنج على ما ذكرناه وعاد إلى مرا كش عازما على قصده وإخراجه من البلاد كما فعله سنة إحدى وثمانين وخمسمائة وقد ذكرناه .

(ذكر ملك عسكر الخليفة أصفهان) في هذه السنة جهز الخليفة الناصر لدين الله جيشا وسيره إلى أصفهان ومقدمهم سيف الدين طغرل مقطع بلد اللحف من العراق وكان بأصفهان عسكر خوارزم شاه مع ولده وكان أهل أصفهان يكرهونهم فكتب صدر الدين الخجندی رئيس الشافعية بأصفهان الديوان ببغداد يبذل من نفسه تسليم البلد إلى من يصل من الديوان من العساكر وكان بعد الحاكم بأصفهان على جميع أهلها فسيرت العساكر فوصلوا إلى أصفهان ونزلوا بظاهر البلد وفارقه عسكر خوارزم شاه وعادوا إلى خراسان وتبعهم بعض عسكر الخليفة فتحفظوا منهم وأخذوا من ساقدة العسكر من قدروا عليه ودخل عسكر الخليفة إلى أصفهان وملكوها .

(ذكر ابتداء حال كوكجا وملكه بلد الري وهمدان وغيرها) لمعاد خوارزم شاه إلى خراسان كما ذكرنا اتفق المماليك الذين للبهلوان والأمراء وقدموا على أنفسهم كوكجه وهو من أعيان بهلوانية واستولوا على الري وماجاورها من البلاد وساروا إلى أصفهان لإخراج الخوارزمية منها فلما قاربوها سمعوا بعسكر الخليفة عندها فأرسل إلى مملوك الخليفة سيف الدين طغرل يعرض نفسه على خدمة الديوان ويظهر العبودية وأنه إنما قصد أصفهان في طلب العساكر الخوارزمية وحيث رآهم فارقوا أصفهان سار في طلبهم فلم يدركهم وسار عسكر الخليفة من أصفهان إلى همذان وأما كوكجه فإنه تبع الخوارزمية إلى طبرستان وهي من بلاد الإسماعيلية وعاد فقصد أصفهان وملكها وأرسل إلى بغداد يطلب أن يكون له الري وخوارزم وسواة وقم وقاجان وما ينضم إليها من حد مزدغان وتكون أصفهان وهمذان وزنجان وقزوين لديوان الخليفة فأجيب إلى ذلك وكتب له منشور بما طلب وأرسلت له الخلع فعظم شأنه وقوى أمره وكثرت عساكره وتعظم على أصحابه .

(ذكر حصر العزيز دمشق ثانية وانتهامه عنها) وفي هذه السنة أيضا خرج الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين من مصر في عساكره إلى دمشق يريد حصرها فعاد عنها منهزما وسبب ذلك أن من عنده من مماليك أبيه المعروفين بالصلاحية نخر الدين جر كس وسرانقر وقراجا وغيرهم كانوا منحرفين عن الأفضل على بن صلاح الدين لأنه كان قد أخرج من عنده منهم مثل ميمون القصرى وسنقر الكبير وأبيك وغيرهم فكأوا لا يزالون يخوفون العزيز من أخيه ويقولون إن الأكراد والمماليك الأسدية من هسكر مصر يريدون أخاك ونخاف أن يميلهم اليه ويخرجوك من البلاد والمصلحة أن تأخذ دمشق نخرج في العام الماضى وعاد كما ذكرناه فتجهز هذه السنة ليخرج فبلغ الخبر إلى الأفضل فسار من دمشق إلى عمه الملك العادل فاجتمع به بقلعة جعبر ودعاه إلى نصرته وسار من عنده إلى حلب إلى أخيه الملك الظاهر غازى فاستنجد به وسار الملك العادل من قلعة جعبر إلى دمشق فسبق الأفضل إليها ودخلها وكان الأفضل لثقتة به قد أمر نوابه بإدخاله إلى القلعة ثم عاد الأفضل من حلب إلى دمشق فأرسل مقدم الأسدية وهو سيف الدين أياكوش وغيره منهم ومن الأكراد أبو الهيجاء السمين وغيره إلى الأفضل والعادل بالانحياز إليهما والكون معهما وأمرهما بالاتفاق على العزيز والخروج من دمشق ليسلوه إليهما وكان سبب الانحراف عن العزيز وميلهم إلى الأفضل أن العزيز لما ملك مصر مال إلى المماليك الناصرية وقدمهم ووثق بهم ولم يلتفت إلى هؤلاء الأمراء فأنفوا من ذلك ومالوا إلى أخيه وأرسلوا إلى الأفضل والعادل فاتفقا

على ذلك واستقرت القاعدة بحضور رسل الامراء أن الأفضل يملك الديار المصرية ويسلم دمشق إلى همه الملك العادل وخرجا من دمشق فأنحاز إليهما من ذكرنا فلم يمكن العزيز المقام بل عاد منهزما يطوى المراحل خوف الطالب ولا يصدق بالنجاة وتساقط أصحابه عنه إلى أن وصل إلى مصر ، وأما العادل والأفضل فإنهما أرسلتا إلى القدس وفيه نائب العزيز فسلبه إليهما وسارا فيمن معهما من الأسدية والاكرا إلى مصر فرأى العادل انضمامه العساكر إلى الأفضل واجتماعهم عليه فخاف أنه يأخذ مصر ولا يسلم إليه دمشق فأرسل حينئذ سرا إلى العزيز يأمره بالثبات وأن يحمل بمدينة بليس من يحفظها وتكفل بأنه يمنع الأفضل وغيره من مقاتلة من بها فجعل العزيز الناصرية ومقدمهم نحر الدين جركس بها ومعهم غيرهم ووصل العادل والأفضل إلى بليس فثاروا من بها من الناصرية وأراد الأفضل مناجزتهم أو تركهم بها والرحيل إلى مصر فذمه العادل من الامرين وقال هذه عساكر الإسلام فإذا اقتتلوا في الحرب فن يرد العدو الكافر وما بها حاجة إلى هذا فإن البلاد لك وبحكمك ومتى قصدت مصر والقاهرة وأخذت ما قهرت هبته البلاد وطمع فيها الأعداء وليس فيها من يمنعك عنها وسلك معه مثل هذا فطالت الايام وأرسل إلى العزيز سرا يأمره بإرسال القاضي الفاضل وكان مطاعا عند البيت الصلاحي لعلو منزلته كانت عند صلاح الدين فحضر عندهما وأجرى ذكر الصلاح وزاد القول ونقص وانفسخت العزائم واستقر الامر على أن يكون للأفضل القدس وجميع البلاد بفلسطين وطبرية والأردن وجميع ما بيده ويكون للعادل أقطاعه الذي كان قديما ويكون مقيما بمصر عند العزيز وإنما اختار ذلك لأن الاسدية والاكرا لا يريدون العزيز فهم يجتمعون معه فلا يقدر العزيز على منعه عما يريد فلما استقر الامر على ذلك وتعاهدوا عاد الأفضل إلى دمشق وبقى العادل بمصر عند العزيز

(ذكر عدة حوادث) في ذي القعدة تاسع عشرة وقع حريق عظيم ببغداد بمقدام المصطنع فاحترقت المربعة التي بين يديه ودكان ابن البخيل الهراس ، وقيل كان ابتداءها من دار ابن البخيل

(ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة)

(ذكر ملك شهاب الدين بهنكر وغيرها من بلد الهند) في هذه السنة سار شهاب الدين الغوري صاحب غزنة إلى بلد الهند وحصر قلعة بهنكر وهي قلعة عظيمة منيعة فحصرها فطلب أهلها منه الأمان على أن يسلموا إليه فأنهم وتسلمها وأقام عندها عشرة أيام حتى رتب جندها وأحوالها وسار عنها إلى قلعة كوالبر وبينهما مسيرة خمسة أيام وفي الطريق نهر فجازته ووصل إلى كوالبر وهي قلعة منيعة حصينة على جبل لا يصل إليها حجر منجنيق ولا نشاب وهي كبيرة فأقام عليها صفرا جيمه يحاصرها فلم يبلغ منها غرضا فراسله من بها في الصلح فأجابهم إليه على أن يقر القلعة بأيديهم على مال يحملونه إليه فحملوا إليه فيلا حمله ذهب فرحل عنها إلى بلاد آي وسور فأغار عليها ونهبها وسبي وأسر ما يعجز العاد حصره ثم عاد إلى غزنة سالما .

(ذكر ملك العادل مدينة دمشق من الأفضل) في هذه السنة في السابع والعشرين من رجب ملك الملك العادل أبو بكر بن أيوب مدينة دمشق من ابن أخيه الأفضل على بن صلاح الدين وكان أبلغ الأسباب في ذلك وثوق الأفضل بالعادل وأنه بلغ من وثوقه أنه أدخله بلده وهو غائب عنه ولقد أرسل إليه أخوه الظاهر غازي صاحب حلب يقول له أخرج عننا من بيتنا فإنه لا يجيء علينا منه خير ونحن ندخل لك تحت كل ما تريد وأما أعرف به

منك وأقرب اليه فإيه عمى مثل ما هو عمك وأنا زوج ابنته ولو علمت أنه يريد لنا خيرا لكنت أنا أولى به منك فقال له الأفضل أنت سيء الظن في كل أحد أى مصلحة لمعنا في أن يؤذينا ونحن إذا اجتمعت كلتنا وسيرنا معه العساكر من عندنا كلنا ملك من البلاد أكثر من بلادنا ونرجح سوء الذكر وهذا كان أبلغ الأسباب ولا يعلمها كل أحد وأما غير هذا فقد ذكرنا مسير العادل والأفضل إلى مصر وحصارهم بلبليس وصلاحهم مع الملك العزيز ابن صلاح الدين ومقام العادل معه بمصر فلما أقام عنده استماله وقرر معه أنه يخرج معه إلى دمشق ويأخذها من أخيه ويسلمها إليه فسار معه من مصر إلى دمشق وحاصروها واستمالوا أميراً من أمراء الأفضل يقال له العزيز بن أبي غالب الحمصى وكان الأفضل كثير الإحسان اليه والاعتماد عليه والثوق به فسلم إليه باباً من أبواب دمشق يعرف بالباب الشرقى ليحفظه فمال إلى العزيز والعادل ووعدهما أنه يفتح لها الباب ويدخل العسكر منه إلى البلد غفلة ففتحه اليوم السابع والعشرين من رجب وقت العصر وأدخل الملك العادل منه ومعه جماعة من أصحابه فلم يشعر الأفضل إلا وعمه معه في دمشق وركب الملك العزيز ووقف بالميدان الأخضر غربى دمشق فلما رأى الأفضل أن البلد قد ملك خرج إلى أخيه وقت المغرب واجتمع به ودخلا كلاهما البلد واجتمعا بالعادل وقد نزل في دار أسد الدين شيركوه وتحادثوا فاتفق العادل والعزيز على أن أوهما الأفضل أنهما يبقيان عليه البلد خوفاً أنه ربما جمع من عنده من العسكر وثار بهما ومعه العامة فأخرجهم من البلد لأن العادل لم يكن في كثرة وأعاد الأفضل إلى الفلعة وبات العادل في دار شيركوه وخرج العزيز إلى الخيم فبات فيها وخرج العادل من الغد إلى جوسقه فأقام به وعساكره في البلد في كل يوم يخرج الأفضل إليهما ويجمعهما فبقوا كذلك أياماً ثم أرسلوا إليه وأقراء بمفارقة القلعة وتسليم البلد على قاعدة أن تعطى قلعة صرخد له ويسلم جميع أهمال دمشق فخرج الأفضل ونزل في جوسق بظاهر البلد غربى دمشق وتسلم العزيز القلعة ودخلها وأقام بها أياماً فجلس يوماً في مجلس شرابه فلما أخذت منه الخمر جرى على لسانه أنه يعيد البلد إلى الأفضل فنقل ذلك إلى العادل في وقته فحضر المجلس في ساعته والعزيز سكران فلم يزل به حتى سلم البلد إليه وخرج منه وعاد إلى مصر وسار الأفضل إلى صرخد وكان العادل يذكر أن الأفضل سعى في قتله فلماذا أخذ البلد منه وكان الأفضل ينكر ذلك ويتبرأ منه (والله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة هبت ريح شديدة بالعراق واسودت لها الدنيا ووقع رمل أحر واستعظم الناس ذلك وكبروا واشتعلت الأضواء بالنهار وفيها قتل صدر الدين محمود بن عبداللطيف بن محمد ابن ثابت الخجندى رئيس الشافعية بأصفهان قتله فلك الدين سنقر الطويل شحنة أصفهان بها وكان قدم بغداد سنة ثمان وثمانين وخمسمائة واستوطنها وولى النظر في المدرسة النظامية ببغداد ولما سار مؤيد الدين بن القصاب إلى خوزستان سار في صحبته فلما ملك الوزير أصفهان أقام ابن الخجندى بها في بيته وملكه ومنصبه فجرى بينه وبين سنقر الطويل شحنة أصفهان للخليفة منافرة فقتله سنقر . وفي رمضان درس مجير الدين أبو القاسم محمود بن المبارك البغدادي الفقيه الشافعي بالمدرسة النظامية ببغداد وفي شوال منها أثبت نصير الدين ناصر بن مهدي العلوى الرازى في الوزارة ببغداد وكان قد توجه إلى بغداد لمالك ابن القصاب الرى وفيها ولى أبوطالب يحيى بن سعيد بن زيادة ديوان الإنشاء ببغداد وكان كاتباً مفلحاً وله شعر جيد . وفي صفر منها توفى الفخر محمود ابن على القوفانى الفقيه الشافعي بالكوفة عائداً من الحج وكان من أعيان أصحابه محمد بن يحيى . وفي رجب منها

توفي أبو الغنائم محمد بن علي بن المعلم الشاهر الهروي (والهرث بضم الهاء والثاء المثناة قرية من أعمال واسط) عن إحدى وتسعين سنة . وفي رابع شعبان منها توفي الوزير مؤيد الدين أبو الفضل محمد بن علي بن القصاب بهمدان وقد ذكرنا من كفايته ونهضته ما فيه كفاية .

(ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة)

(ذكر إرسال الامير أبي الهيجاء إلى همدان وما فعله) وصل إلى بغداد أمير كبير من أمراء مصر اسمه أبو الهيجاء ويعرف بالسمن لأنه كان كثير السمن وكان من أكابر أمراء مصر وكان في أقطاعه أخيرا البيت المقدس وغيره مما يجاوره فلما ملك العزيز والعاذل مرتبة دمشق من الأيضا أخذ القدس منه ففارق الشام وعبر الفرات إلى الموصل ثم انحدر إلى بغداد لأنه طلب من ديوان الخلافة فلما وصل إليها أكرم إكراما كثيرا ثم أمر بالتجهيز والمسير إلى همدان مقدما على عساكر البغدادية فسار إليها والتقى عندها بالملك أوزبك بن البهلوان وأمير علم وابنه وابن سطمش وغيرهم وهم قد كاتبوا الخليفة بالطاعة لما اجتمع بهم وثقوا إليه ولم يحذروه فقبض على أوزبك وابن سطمش وابن قرا بموافقة من أمير علم فلما وصل الخبر بذلك إلى بغداد أنكرت هذه الحال على أبي الهيجاء وأمر بالإفراج عن الجماعة وسيرت لهم الخلع من بغداد تطيبا لقلوبهم فلم يسكنوا بعد هذه الحادثة ولا آمنوا ففارقوا أبا الهيجاء السمن بخاف الديوان فلم يرجع إليه ولم يمكنه أيضا المقام فعاد يريد إربل لأنه من بلدها هو فتوفي قبل وصوله إليها وهو من الأكراد الحكيمية من بلد إربل

(ذكر ملك العادل يافا من الفرنج وملك الفرنج بيروت من المسلمين وحصر الفرنج تبين ورحيلهم عنها) في هذه السنة في شوال ملك العادل أبو بكر بن أيوب مدينة يافا من الساحل الشامى وهو بيد الفرنج لعنهم الله وسبب ذلك أن الفرنج كان قد ملكهم الكندهرى على ما ذكرناه قبل وكان الصلح قد استقر بين المسلمين والفرنج أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله تعالى ، فلما توفي وملك أولاده بعده كما ذكرناه جدد الملك العزيز الهدنة مع الكندهرى وزاد في مدة الهدنة وبقي ذلك إلى الآن وكان بمدينة بيروت أمير يعرف بأسامة وهو مقطوعها فكان يرسل الشوانى تقطع الطريق على الفرنج فاشتكى الفرنج من ذلك غير مرة إلى الملك العادل بدمشق وإلى الملك العزيز بمصر فلم يمنعا أسامة من ذلك فأرسلوا إلى ملوكهم الذين داخل البحر يشتكون إليهم ما يفعل بهم المسلمون ويقولون إن لم تنجدونا وإلا أخذ المسلمون البلاد فأمدهم الفرنج بالعساكر الكثيرة وكان أكثرهم من ملك الألمان وكان المقدم عليهم قس يعرف بالخنصير فلما سمع العادل بذلك أرسل إلى العزيز بمصر يطلب العساكر وأرسل إلى ديار الجزيرة والموصل يطلب العساكر فجاءته الأمراء واجتمعوا على عين جالوت فأقاموا شهر رمضان وبعض شوال ورحلوا إلى يافا وملكوا المدينة وامتنع من بها بالقلعة التى لها نخرب المسلمون المدينة وحصروا القلعة فلما كوها عنوة وقهرا بالسيف فى يومها وهو يوم الجمعة وأخذ كل ما بها غنيمة وأسرا وسبيا ووصل الفرنج من عكا إلى قيسارية ليمنعوا المسلمين عن يافا فوصلهم الخبر بها بملكها فعادوا وكان سبب تأخرهم أن ملكهم الكندهرى سقط من موضع عال بعكفات فاختلفت أحوالهم وتأخروا لذلك وعاد المسلمون إلى عين جالوت فوصلهم الخبر بأن الفرنج على عزم قصد بيروت فرحل العادل والعسكر فى ذى القعدة إلى مرج العيون وعزم على تخريب بيروت فسار إليها جمع من العسكر وهدموا سور المدينة سابع ذى الحجة وشرعوا فى تخريب دورها وتخریب القلعة فنعمهم أسامة من ذلك وتكفل بحفظها ورحل الفرنج

من عكا إلى صيدا وعاد معسكر المسلمين من بيروت فالتقوا هم والفرنجة بنواحي صيدا وجرى بينهم مناوشة فقتل من الفريقين جماعة وحجز بينهم الليل وسار الفرنج تاسع ذي الحجة فوصلوا إلى بيروت فلما قاربوها هرب منها أسامة وجميع من معه من المسلمين فملكوها صفوا عفوا بغير حرب ولا قتال فكانت غنيمة باردة فأرسل العادل إلى صيدا من خرب ما كان بقي منها فإن صلاح الدين كان قد خرب أكثرها وسافرت العساكر الإسلامية إلى صور فقطعوا أشجارها وخربوا ما لها من قري وأبراج فلما سمع الفرنج بذلك رحلوا من بيروت إلى صور وأقاموا عليها ونزل المسلمون عند قلعة هونين وأذن للعساكر الشرقية بالعود ظنا منه أن الفرنج يقيمون بيلاذهم وأراد أن يعطى العساكر المصرية دستوراً بالعود فأتاه الخبر منتصف المحرم أن الفرنج يريدون أن يحصروا حصن تبين فمير العادل إليه عسكرياً يحمونه ويمنعون عنه ورحل الفرنج من صور ونازلوا تبين أول صفر سنة أربع وتسعين وقاتلوا من به وجدوا في القتال ونقبوه من جهاتهم فلما علم العادل بذلك أرسل إلى العزيز بمصر يطلب منه أن يحضر هو بنفسه ويقول له إن حضرت وإلا فلا يمكن حفظ هذا الثغر فسار العزيز مجداً فيمن بقي معه من العساكر وأمان تحصن بتبين فإنهم لما رأوا النقب قد خربت القلعة ولم يبق إلا أن يملكوها بالسيف نزل بعض من فيها إلى الفرنج يطلب الأمان على أنفسهم وأموالهم ليسلوا القلعة وكان المرجع إلى القسيس الخنصير من أصحاب ملك الألمان فقال لهؤلاء المسلمين بعض الفرنج الذين من ساحل الشام أن سلمتم الحصن استأسركم هذا وقتلكم فاحفظوا نفوسكم فعادوا كأنهم يراجعون من في القلعة ليسلوا فلما صدوا إليها أصروا على الامتناع وقاتلوا قتال من يحمى نفسه فحموها إلى أن وصل الملك العزيز إلى عسقلان في ربيع الأول فلما سمع الفرنج بوصوله واجتماع المسلمين وأن الفرنج ليس لهم ملك يجمعهم وأن أمرهم إلى امرأة وهي الملكة فاتفقوا وأرسلوا إلى ملك قبرس واسمه هيمرى فأحضره وهو أخو الملك الذي أسر بحطين كما ذكرناه فزوجوه بالملكة زوجة الكنديهري وكان رجلاً عاقلاً يحب السلامة والعافية فلما ملكهم لم يعد إلى الزحف على الحصن ولا قاتل واتفق وصول العزيز أول شهر ربيع الآخر ورحل هو والعساكر إلى جبل الخيل الذي يعرف بجبل عاملة فأقاموا أياماً والأمطار متداولة فبقي إلى ثالث عشر الشهر ثم سار وقارب الفرنج وأرسل رماة الذناب فرموا ساعة وعادوا ورتب العساكر ليحذف إلى الفرنج ويجد في قتالهم فرحلوا إلى صور خامس عشر الشهر المذكور ليلاً ثم رحلوا إلى عكا فسار المسلمون فنزلوا اللجون وترأسوا في الصلح وتناول الأمر فعاد العزيز إلى مصر قبل انفصال الحال وسبب رحيله أن جماعة من الأمراء وهم ميمون القصرى وأسامة وسراستقر والحجاف وابن المشطوب وغيرهم قد عزموا على الفتك به وبفخر الدين جرکس مدبر دولته والله سبحانه وتعالى أعلم بذلك فلما سمع بذلك سار إلى مصر وبقي العادل وترددت الرسل بينه وبين الفرنج في الصلح في شعبان سنة أربع وتسعين فلما انتظم الصلح عاد العادل إلى دمشق وسار منها إلى ماردين من أرض الجزيرة فكان ما ذكره إن شاء الله تعالى .

(ذكر وفاة سيف الإسلام وملك ولده) في شوال من هذه السنة توفي سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخو صلاح الدين وهو صاحب اليمن بزيد وقد ذكرنا كيف ملك وكان شديد السيرة مضيافاً على رعيته يشتري أموال التجار لنفسه ويبيعها كيف شاء وأراد ملك مكة حرسها الله تعالى فأرسل الخليفة الناصر لدين الله إلى أخيه صلاح الدين في المعنى فنعه من ذلك وجمع من الأموال ما لا يحصى حتى أنه من كثرة كان يسبك

الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره ولما توفي ملك بعده ابنه اسماعيل وكان أهوج كثير التخليط بحيث إنه ادعى أنه قرشي من بني أمية وخطب لنفسه بالخلافة وتلقب بالهادي فلما سمع عمه الملك العادل ذلك ساء وأهمه وكتب إليه يلومه ويوبخه ويأمره بالعود إلى نسبه الصحيح وبترك ما ارتكبه مما يضحك الناس منه فلم يلتفت إليه ولم يرجع وانضاف إلى ذلك أنه أساء السيرة مع أجناده وأمرائه فوثبوا عليه فقتلوه وملكوا بعده أميراً من ممالك أيه .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في ربيع الآخر توفي أبو بكر عبدالله بن منصور بن عمران البافلاني المقرئ الواسطي بها عن ثلاث وسبعين سنة وثلاثة أشهر وأيام وهو آخر من بقي من أصحاب القلانسي وفي جمادى الآخرة توفي قاضي القضاة أبو طالب علي بن البخاري ببغداد ودفن بترتبه في مشهد باب التين وفيها في ربيع الآخر توفي ملكشاه بن خوارزم شاه تكش بنيسابور وكان أبوه قد جعله فيها وأضاف إليه عما كر جميع بلاده التي بخراسان وجعله ولي عهده في الملك وخلف ولد اسمه هند وخان فلما مات جعل فيها أبوه خوارزم شاه بعده ولده الآخر قطب الدين محمد وهو الذي ملك بعد أبيه وكان بين الأخوين عداوة مستحكمة أفضت إلى أن محمداً لما ملك بعد أبيه هرب هندوخان بن ملكشاه منه إلى ما ذكره . وفيها توفي شيخنا أبو القاسم يعيش ابن صدقة بن علي الفرائي الضرير الفقيه الشافعي كان إماماً في الفقه مدرساً صالحاً كثير الإصلاح سمعت عليه كثيراً لم أر مثله رحمه الله تعالى ولقد شاهدت منه عجبا يدل على دينه وإرادته بعمله وجه الله تعالى وذلك أني كنت أسمع عليه ببغداد سنن أبي عبدالرحمن النسائي وهو كتاب كبير والوقت ضيق لأنني كنت مع الحجاج قد عدنا من مكة حرسها الله فبينما نحن نسمع عليه مع أخى الأ كبر مجد الدين أبي السعادات إذ قد أتاه إنسان من أعيان بغداد وقال له قد برز الأمر لنحضر الأمر كذا فقال أنا مشغول بسماع هؤلاء السادة ووقتهم يفوت والذي يراد مني لا يفوت فقال أنا لا أحسن أذكر هذا في مقابل أمر الخليفة فقال لا عليك قل قال أبو القاسم لا أحضر حتى يفرغ السماع فسألناه ليشي معه فلم يفعل ذلك وقال اقرؤا وقرأنا فلما كان الغد حضر غلام لنا وذكر أن أمير الحاج الموصلی قد رحل فعظم الأمر علينا فقال ولم يعظم عليكم العود إلى أهلكم وبلدكم فقلنا لاجل فراغ هذا الكتاب فقال إذا رحلتم استعير دابة وأركبها بأسير معكم وانتم تقرؤن فإذا فرغتم علمت ففضي الغلام ليتزود ونحن نقرأ فعاد وذكر أن الحجاج لم يرحلوا ففرغنا من الكتاب فانظر إلى هذا الدين المتين يرد أمر الخليفة وهو يخافه ويرجوه ويريد يسير معنا ونحن غرباء لا يخافنا ولا يرجونا .

(ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسة)

(ذكر وفاة عماد الدين وملك ولده قطب الدين محمد) في هذه السنة في المحرم توفي عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب سنجار ونصيبين والخابور والرقعة وقد تقدم ذكره كيف ملكها سنة تسع وسبعين وكان رحمه الله عادلاً حسن السيرة في رعيته عفيفاً عن أموالهم وأملأ بهم متواضعاً يحب أهل العلم والدين ويحترهم ويجلس معهم ويرجع إلى أقوالهم إلا أنه كان بخيلاً شديداً البخل وملك بعده ابنه قطب الدين محمد وتولى تدبير دولته مجاهد الدين برتقش مملوك أبيه وكان ديناً خيراً عادلاً حسن السيرة كثير البر والإحسان للفقراء وكان رحمه الله شديد التعصب على مذهب الخنفة كثير الذم للشافعية فن تعصبه أنه بنى مدرسة

للحنفية بسنجار وشرط أن يكون النظر للحنفية من أولاده دون الشافعية وشرط أن يكون البواب والفراس على مذهب أبي حنيفة وشرط للفقهاء طبيخا يطبخ ذلك كل يوم وهذا نظر حسن رحمه الله .

(ذكر ملك نور الدين نصيبين) في هذه السنة في جمادى الأولى سار نورالدين أرسلان شاه بن مسعود ابن مودود صاحب الموصل إلى مدينة نصيبين فملكها وأخذها من ابن عمه قطب الدين محمد وسبب ذلك أن عمه عمادالدين كان له نصيبين فتناول نوابه بها واستولوا على عدة قرى من أعمال بين النهرين من ولاية الموصل وهي نجاور نصيبين فبلغ الخبر مجاهد الدين قايمار القائم بتدبير مملكة نورالدين بالموصل كلها والمرجع إليه فيها فلم يعلم بخدومه بذلك لما علم من قلة صبره على احتمال مثل هذا وخاف أن يجرى خلف بينهم فأرسل من عنده رسولا إلى عماد الدين في المعنى وقبح هذا الفعل الذي فعله النواب بغير أمره وقال إنني ما أعلنت نورالدين بالحال لئلا يخرج عن يدك فإنه ليس كوالده وأخاف أن يبدومنه ما يخرج الأمر فيه عن يدي فأعاد الجواب أنهم لم يفعلوا إلا ما أمرتهم به وهذه القرى من أعمال نصيبين فترددت الرسل بينهما فلم يرجع عمادالدين عن أخذها فحينئذ أعلم مجاهد الدين نورالدين بالحال فأرسل نورالدين رسولا من مشايخ دولته بمن خدم جدهم الشهيد زكي وسن بعده وحمله رسالة فيها بعض الخشونة فمضى الرسول فلاحق عماد الدين قدم مرض فلما سمع الرسالة لم ينتفت وقال لا أعيد ملكي فأشار الرسول من عنده حيث هو من مشايخ دولتهم بترك وتسليم ما أخذه وحذره عاقبة ذلك فأغلظ عليه عماد الدين القول وعرض بدم نورالدين واحتقاره فعاد الرسول وحكى لنورالدين جليلة الحال فغضب نورالدين وعزم على المسير إلى نصيبين وأخذها من عمه فاتفق أن عمه مات وملك بعده ابنه فقوى طمعه فمعه مجاهد الدين فلم يتمتع وتجهز وسار إليها فلما سمع قطب الدين صاحبها سار إليها من سنجان في عسكره ونزل عليها ليمتنع نورالدين عنها فوصل نورالدين وتقدم إلى البلد وكان بينهما نهر جازه بعض أمراءه وقاتل من إزائه فلم يثبتوا له فجمع العسكر النوري وتمت الهزيمة على قطب الدين فصعد هو ونائبه مجاهد الدين برتقش إلى قلعة نصيبين وأدركهم الليل فخرجوا منها هاربين إلى حران وراسلوا الملك العادل أبا بكر بن أيوب صاحب حران وغيرها وهو بدمشق وبذلوا له الأموال الكثيرة لينجدهم ويعيد نصيبين إليهم وأقام نور الدين بنصيبين مالكمها فتضعض عسكره بكثرة الأمراض وعودهم إلى الموصل وموت كثير منهم ووصل العادل إلى الديار الجزرية فحينئذ فارق نورالدين نصيبين وعاد إلى الموصل في شهر رمضان فلما فارقها تسلمها قطب الدين ومن توفي من أمراء الموصل عز الدين جورديك شمس الدين عبد الله بن إبراهيم وفخر الدين عبدالله بن عيسى المهرانيان ومجاهد الدين قايمار وظهير الدين يولق بن بلنكري وجمال الدين محاسن وغيرهم ولما عاد نورالدين إلى الموصل قصد العادل قلعة ماردين فحصرها وضيق على أهلها على ما ذكره إن شاء الله تعالى .

(ذكر ملك الغورية مدينة بلخ من الخطأ الكافرة) في هذه السنة ملك بهاء الدين سام بن محمد بن مسعود وهو ابن أخت غياث الدين وشهاب الدين صاحب غزني وغيرها وله باميان مدينة بلخ وكان صاحبها تركيا اسمه أزيه وكان يحمل الخراج كل سنة إلى الخطأ بما وراء الهر . فتوفي هذه السنة ، فسار بهاء الدين سام إلى المدينة فملكها وتمكن منها وقطع الحمل إلى الخطأ وخطب لغياث الدين وصارت من جملة بلاد الإسلام بعد أن كانت في طاعة الكفار .

(ذكر انهزام الخطا من الغورية) وفي هذه السنة عبر الخطا نهر جيحون إلى ناحية خراسان فعاثوا في البلاد وأفسدوا بقلبيهم عسكر غياث الدين الغورى وقاتلهم فانهزم الخطا وكان سبب ذلك أن خوارزم شاه تكش كان قد سار إلى بلد الري وهمذان وأصفهان وما بينهما من البلاد وملكها وتعرض إلى عساكر الخليفة وأظهر طلب الساطنة والخطابة ببغداد فأرسل الخليفة إلى غياث الدين ملك الغور وغزوة يأمره بقصد بلاد خوارزم شاه ليمود عن قصد العراق وكان خوارزم شاه قد عاد إلى خوارزم فراسله غياث الدين يقبض له فعله ويتهدده بقصد بلاده وأخذها فأرسل خوارزم شاه إلى الخطا يشكو إليهم من غياث الدين ويقول إن لم تدر كونه بإنفاذ العساكر وإلا أخذ غياث الدين بلاده كما أخذ مدينة بلخ، وقصد بعد ذلك بلادهم ويتعذر عليهم منعه ويعجزون عنه ويضعفون عن رده عما وراء النهر فجهز ملك الخطا جيشا كثيفا وجعل مقدمهم المعروف بطاينكوا وهو كالوزير فساروا وعبروا جيحون في جمادى الآخرة وكان الزمان شتاء وكان شهاب الدين الغورى أخو غياث الدين ببلاد الهند والعساكر معه وغياث الدين به من القرس ما يمنعه من الحركة إنما يحمل في محفة والذي يقود الجيش ويباشر الحروب أخوه شهاب الدين فلما وصل الخطا إلى جيحون سار خوارزم شاه إلى طوس عازما على قصد هراة ومحاصرتها وعبر الخطا النهر ووصلوا إلى بلاد الغور مثل كرزبان وشبرقان وغيرهما وقتلوا وأسروا ونهبوا وسبوا كثيرا لا يحصى فاستغاث الناس بغياث الدين فلم يكن عنده من العساكر ما يلقاهم بها، فراسل للخطا بهاء الدين صام ملك باميان يأمرونه بالإفراج عن بلخ وأنه يحمل ما كان من قبله يحمله من المال فلم يجبهم إلى ذلك وعظمت المصيبة على المسلمين بما فعله الخطا فانتدب الأمير محمد بن جربك الغورى وهو مقطع الطالقان من قبل غياث الدين وكان شجاعا وكاتب الحسين بن خرميل وكان بقلعة كرزبان واجتمع معهما الأمير حروش الغورى وساروا بعساكرهم إلى الخطا فبيتوم وكبسوم ليلا من عادة الخطا أنهم لا يخرجون من خيامهم ليلا ولا يفارقوها فأتاهم هؤلاء الغورية وقاتلهم وأكثروا القتل في الخطا وانهزم من سلم منهم من القتل وأين ينهزمون والعسكر الغورى خلفهم وجيحون بين أيديهم وظن الخطا أن غياث الدين قد قصدهم في عساكره فلما أصبحوا وعرفوا من قاتلهم وعلوا أن غياث الدين بمكانه قويت قلوبهم وثبتوا عامة نهارهم فقتل من الفريقين خلق عظيم ولحقت المنطوعة بالغوريين وأتاهم مدد من غياث الدين وهم في الحرب، فثبت المسلمون وعظمت نكباتهم في الكفار وحمل الأمير حروش على قلب الخطا وكان شيخا كبيرا فأصابه جراحة توفي منها ثم إن محمود بن جربك وابن خرميل حملا في أصحابهما وتنادوا أن لا يرمى أحد بقوس ولا يطن بريح وأخذوا اللنوت وحملوا على الخطا فهزمومم وألحقوم بجيحون، فمن صبر قتل ومن ألقى نفسه في الماء فغرق ووصل الخبر إلى ملك الخطا فعظم عليه وأرسل إلى خوارزم شاه يقول له أنت قتلت رجالي وأريد من كل قبيل عشرة آلاف دينار وكان القتلى اثني عشر ألفا وأنفذ إليه من رده إلى خوارزم وألزموه بالحضور عنده فأرسل حينئذ خوارزم شاه إلى غياث الدين يعرفه حاله مع الخطا ويشكو إليه ويستعطفه غير مرة فأعاد الجواب يأمره بطاعة الخليفة وإعادة ما أخذه الخطا من بلاد الإسلام فلم ينفصل بينهما حال .

(ذكر ملك خوارزم شاه مدينة بخارا) لما ورد رسول ملك الخطا على خوارزم شاه بما ذكرناه أعاد الجواب أن عسكرك إنما قصد انتزاع بلخ ولم يأتوا إلى نصرتي ولا اجتمعت بهم ولا أمرتهم بالعبور وإن كنت فعلت ذلك فأنا مقيم بالمال المطلوب مني ولكن حيث عجزتم أنتم عن الغورية عدتم على هذا القول

وهذا المطلب وأما أنا فقد أصلحت الغورية ودخلت في طاعتهم ولا طاعة لكم عندي فعاد الرسول بالجواب فجهز ملك الخطا جيشا عظيما وسيره إلى خوارزم شاه يخرج إليهم كل ليلة ويقتل منهم خلقا عظيما وأتاه من المتطوعة خلق كثير فلم يزل هذا فعله بهم حتى أتى على أكثرهم فدخل الباقون إلى بلادهم ورحل خوارزم شاه في آثارهم وقصد بخارا فنازلها وحصرها وامتنع أهلها منه وقتلوه مع الخطا حتى أنهم أخذوا كلبا أعور وألبسوه قباء وقلنسوة وقالوا هذا خوارزم شاه لأنه كان أعور وطافوا به على السور ثم ألغوه في منجنيق إلى العسكر وقالوا هذا سلطانكم وكان الخوارزميون يسبونهم ويقولون يا أجناد الكفر أنتم قد ارتددتم عن الإسلام فلم يزل هذا دأبهم حتى ملك خوارزم شاه البلد بعد أيام يسيرة هنوة وعفان أهله وأحسن إليهم وفرق فيهم مالا كثيرا وأقام بها مدة ثم عاد إلى خوارزم.

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في ذى الحجة توفي أبو طالب يحيى بن سعيد بن زيادة كاتب الإنشاء بديوان الخليفة وكان عالما فاضلا له كتابة حسنة وكان رجلا عاقلا خيرا كثير النفع للناس وله شعر جيد (١) وفيها حصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب قلعة مardin في شهر رمضان وقاتل من بها وكان صاحبها حسام الدين يولق أرسلان بن أيلغازي بن أبي بن تمر تاش بن أيلغازي بن أرتق كل هؤلاء ملوك مardin وقد تقدم من أخبارهم ما يعلم به محلهم وكان صبيا والحاكم في بلده ودولته مملوك أبيه النظام يرتقى وليس لصاحبه معه حكم البتة في شئ من الأمور ولما حصر العادل مardin ودام عليها سلم إليه بعض أهلها الرض بمخامرة منهم فتهب العسكر أهله نهباً قبيحا وفعولوا بهم أفعالا عظيمة لم يسمع بمثلا فلما تسلم الرض تمكن من حصر القلعة وقطع الميرة عنها وبقي عليها إلى أن رحل عنها سنة خمس وتسعين على ما ذكره إن شاء الله. وفيها توفي الشيخ

(١) ومن مستجاد الشعر قوله : لا تحقرن عدواً تزدرية فكم • قد أتس الدهر جد الجد باللعب

فهذه الشمس يعروها الكسوف لها • على جلالها بالرأس والذنب

باضطراب الزمان ترتفع الآن • بذال فيه حتى يم البلاء

وكذا الماء راكد فإذا • حرك ثارت من قعره الأقداء

قد سلوت الدنيا ولم يسلمها • من عقلت في آماله والأراجي

فإذا ما صرفت وجهي عنها • قدفتني في بحرهما العجاج

يستضبئون بي وأهلك وحدى • فكأن ذبالة في سراج

توفي في ذى الحجة وله ثنتان وسبعون سنة ، وحضر جنازته خلق كثير ، ودفن عند موسى بن جعفر . وفيها توفي

القاضي أبو الحسن علي بن رجاء بن زهير بن علي البطائحي ، قدم بغداد ففتقه بها وسمع الحديث وأقام برجة مالا .

ابن طوق مدة يشتغل على أبي عبد الله بن النبيه الغرضي ، ثم ولي قضاء العراق مدة ، وكان أدبيا ، وقد سمع من شيخه

أبي عبد الله بن النبيه يفشد نفسه معارضا للحريري في بيته الذين زعم أنهما لا يعزوان ثالثا لها ، وهما قوله :

سم سممة يحمد آثارها • واشكر لمن أعطا ولو سمسه

والمكر مهما استطعت لاناته • لتفتي السؤدد والمكرمة

قال ابن النبيه :

ما الامة الوكساء بين الوردى • أحسن من حر أتي ملامه

فه إذا استجديت عن قول لا • فالحر لا يملأ منها فه

أبو علي الحسن بن مسلم بن أبي الحسن القادسي الزاهد المقيم ببغداد والقادسية التي ينسب إليها قرية بنهر عيسى من أعمال بغداد وكان من عباد الله الصالحين العالمين ودفن بقريته أبو المجد علي بن أبي الحسن علي ابن الناصر بن محمد الفقيه الحنفي مدرس أصحاب أبي حنيفة ببغداد وكان من أولاد محمد بن الحنفية ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسة)

(ذكر وفاة الملك العزيز وملك أخيه الأفضل ديار مصر) في هذه السنة في العشرين من المحرم توفي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب ديار مصر وكان سبب موته أنه خرج إلى الصيد فوصل إلى الفيوم متصيذا فرأى ذئبا فركض فرسه في طلبه فعثر الفرس فسقط عنه في الأرض ولحقته حمى فعاد إلى القاهرة مريضا فبقي كذلك إلى أن توفي فلما مات كان الغالب على أمره مملوك والده فخر الدين جهار كس هو الحاكم في بلده فأحضر إنسا ما كان عندهم من أصحاب الملك العادل أبي بكر بن أيوب وأراه العزيز ميتا وسيره إلى العادل وهو يحاصر ماردن كما ذكرناه ويستدعيه لملكه البلاد فسار القاصد مجدا فلما كان بالشام رأى بعض أصحاب الأفضل علي بن صلاح الدين فقال له قل لصاحبك إن أخاه العزيز توفي وليس في البلاد من يمنعها فليسر إليها فليس دونها مانع وكان الأفضل محبوبا إلى الناس يريدونه فلم يلتفت الأفضل إلى هذا القول وإذ قد وصله رسل الأمراء من مصر يدعونه اليهم لملكه وكان السبب في ذلك أن الأمير سيف الدين يازكج مقدم الأسدية والفرقة الأسدية والأمراء الأكراد يريدونه ويميلون إليه وكان المماليك المصرية الذين هم ملك أبيه يكرهونه فاجتمع سيف الدين مقدم الأسدية وفخر الدين جهار كس مقدم الناصرية ليتفقوا على من يولونه الملك فقال فخر الدين نولي ابن الملك العزيز فقال سيف الدين إنه طفل وهذه البلاد ثغر الإسلام ولا بد من قيم بالملك يجمع العساكر ويقا تل بها والرأى أننا نجعل الملك في هذا الطفل الصغير ونجعل معه بعض أولاد صلاح الدين يدبره إلى أن يكبر فإن العساكر لا تطيع غيرهم ولا تنقاد لأمر فاتفقا على هذا فقال جهار كس فمن يتولى هذا فأشار يازكج بغير الأفضل فجرى بينه وبين جهار كس منازعة لثلاثتهم وينفر جهار كس عنه فامتنع من ولايته فلم يزل يذكر من أولاد صلاح الدين واحدا بعد آخر إلى أن ذكر آخرهم الأفضل فقال جهار كس هو بعيد عنا وكان بصر خد مقبما فيها من حين أخذت منه دمشق فقال يازكج نرسل إليه من يطلبه مجدا فأخذ جهار كس يغالطه فقال يازكج نمضي إلى القاضي الفاضل ونأخذ رأيه فاتفقا على ذلك وأرسل يازكج يعرفه ذلك ويشير بتملك الأفضل فلما اجتمعا عنده وعرفاه صورة الحال أشار بالأفضل فأرسل يازكج في الحال القصاد وراه فسار عن صرخد لليلتين بقيتا من صفر متنكرا في تسعة عشر نفسا لأن البلاد كانت للعادل وبضبط نوابه الطرق لئلا يجوز إلى مصر ليحيى العادل ويملكها فلما قرب الأفضل القدس وقد عدل عن الطريق المؤدى إليه لقيه فارسان قد أرسلتا إليه من القدس فأخبراه أن من بالقدس قد صار في طاعته وجد في السير فوصل إلى بلبس خامس ربيع الأول واتيته إخوته وجماعة الأمراء المصرية وجميع الأعيان فاتفق أن أخاه الملك المؤيد مسعودا صنع له طعاما وصنع له فخر الدين مملوك أبيه طعاما فابتدأ بطعام أخيه ليمين حلفها أخوه أنه يبدأ به فظن جهار كس أنه فعل هذا انحرافا عنه وسوء اعتقاد فيه فتغيرت نيته وعزم على

الهرب فحضر عند الأفضل وقال إن طائفة من العرب قد اقتتلوا ولئن لم نمض إليهم نصلح بينهم يؤدي ذلك إلى فساد فأذن له الأفضل في المضي إليهم ففارقه وسار مجدا حتى وصل إلى البيت المقدس ودخله وتغلب عليه ولحقه جماعة من الناصرية منهم قراجه الزرمكنش وسرا سنقر وأحضروا عندهم ميمونا القصرى صاحب نابلس وهو أيضا من المالكة الناصرية فقويت شوكتهم به واجتمعت كلتهم على خلاف الأفضل وأرسلوا إلى الملك العادل وهو على ماردين يطلبونه إليهم ليدخلوا معه إلى مصر ليلكوها فلم يسر إليهم لأنه كانت أطباعه قد قويت في أخذ ماردين وقد عجز من بها عن حفظها وأنه يأخذها والذي يريدونه لا يفوته وأما الأفضل فإنه دخل إلى القاهرة سابع ربيع الأول وسمع بهرب جهار كس فأهمه ذلك وترددت الرسل بينه وبينهم ليعودوا إليه فلم يزدادوا إلا بعدا ولحق بهم جماعة من الناصرية أيضا فاستوحش الأفضل من الباقين فقبض عليهم وهم شقيرة وأبيك فطيس والبيكى الفارس وكل هؤلاء بطل مشهور ومقدم مذكور سوى من ليس مثلهم في التقدم وعلو القدر وأقام الأفضل بالقاهرة وأصلح الأمور وقرر القواعد والمرجع في جميع الأمور إلى سيف الدين يازكج .

(ذكر حصر الأفضل مدينة دمشق وعوده عنها) لما ملك الأفضل مصر واستقر بها ومعه ابن أخيه الملك العزيز اسم الملك له لصفه واجتمعت الكلمة على الأفضل بها وصل إليه رسول أخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب ورسول ابن عمه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص يخثانه على الخروج إلى دمشق واغتنام الفرصة بغية العادل عنها وبذلا له المساعدة بالمال والنفس والرجال فبرز من مصر متصف جمادى الأولى من السنة على عزم المسير إلى دمشق وأقام بظاهر القاهرة إلى ثالث رجب ورحل فيه وتعوق في مسيره ولو بادر وعجل المسير لملك دمشق لكنه تأخر فوصل إلى دمشق ثالث عشر شعبان فزل عند جسر الخشب على فرسخ ونصف من دمشق وكان العادل قد أرسل إليه نوابه بدمشق يعرفونه قصد الأفضل لم يفارق ماردين وخلف ولده الكامل محمدا في جميع العساكر على حصارها وسار جريدة فجذ في السير فسبق الأفضل فدخل دمشق قبل الأفضل بيومين وأما الأفضل فإنه تقدم إلى دمشق من الغد وهو رابع عشر شعبان ودخل ذلك اليوم بعينه طائفة يسيرة من عسقلان إلى دمشق من باب السلامة وسبب دخولهم أن قوما من أجناده ممن بيوتهم مجاورة الباب اجتمعوا بالأمير مجد الدين أخى الفقيه عيسى الهكارى وتحدثوا معه في أن يقصد هو والعسكر باب السلامة ليفتحوه لهم فأراد مجد الدين أن يختص بفتح الباب وحده فلم يعلم الأفضل ولا أخذ معه أحدا من الأمراء بل سار وحده ومعه نحو خمسين فارسا من أصحابه ففتح له الباب فدخله هو ومن معه فلما رآهم عامة البلد نادوا بشعار الأفضل واستسلم من به من الجند ونزلوا هن الأسوار وبلغ الخبر إلى الملك العادل فكان يستسلم وتماسك وأما الذين دخلوا البلد فإنهم وصلوا إلى البريد فلما رأى عسكر العادل بدمشق قلة عدده وانقطع مددهم وثبوا بهم وأخرجوهم منه وكان الأفضل قد نصب خيمه بالميدان الأخضر وقارب عسكره الباب الحديد وهو من أبواب القلعة فقدر الله تعالى أن أشير على الأفضل بالانتقال إلى ميدان الحصى ففعل ذلك فقويت نفوس من فيه وضعفت نفوس العسكر المصرى ثم إن الأمراء الأكراد منهم تحالفوا فصاروا يدا واحدة وينضبون لغضب أحدهم ويرضون لرضا أحدهم فظن الأفضل وباقي الأسدية أنهم فعلوا بقاعدة بينهم وبين الدمشقيين فرحلوا من موضعهم وتأخروا في العشرين من شعبان ووصل أسد الدين شيركوه صاحب حمص إلى الأفضل الخامس والعشرين من شعبان ووصل بعده الملك الظاهر صاحب حلب ثاني عشر شهر رمضان

وأراد الزحف إلى دمشق فنعهم الملك الظاهر مكرًا بأخيه وحسدًا له ولم يشعر أخوه الأفضل بذلك وأما الملك العادل فإنه لما رأى كثرة العساكر وتتابع الإمداد إلى الأفضل عظم عليه فأرسل إلى المماليك الناصرية بالبيت المقدس يستدعيهم إليه فساروا سلخ شعبان فوصل خبرهم إلى الأفضل فسير أسد الدين صاحب حمص ومعه جماعة من الأمراء إلى طريقهم لمنعهم فسلكوا غير طريقهم فجاء أولئك ودخلوا دمشق خامس رمضان فقوى العادل بهم قوة عظيمة وأيس الأفضل ومن معه من دمشق وخرج عسكر دمشق في شوال فكبسوا العسكر المصري فوجدوهم قد حذروهم فعادوا عنهم خاسرين وأقام العسكر على دمشق ما بين قوة وضعف وانتصار وتخاذل حتى أرسل الملك العادل خلف ولده الملك الكامل محمد وكان قد رحل عن ماردن على ما نذره إن شاء الله تعالى وهو بحران، فاستدعاه إليه بعسكره، فسار على طريق البر، فدخل إلى دمشق ثاني عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة فعند ذلك رحل العسكر عن دمشق إلى ذيل جبل الكسوة سابع عشر صفر واستقر أن يقيموا بحوران حتى يخرج الشتاء فرحلوا إلى رأس الماء وهو موضع شديد البرد فتغير العزم عن المقام وانفقوا على أن يعود كل منهم إلى بلده فعاد الظاهر صاحب حلب وأسد الدين صاحب حمص إلى بلادهما وعاد الأفضل إلى مصر فكان ما نذره إن شاء الله تعالى.

(ذكر وفاة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه محمد) في هذه السنة ثامن عشر ربيع الآخر وقيل جمادى الأولى توفي أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب والأندلس بمدينة سلا وكان قد سار إليها من مراکش وكان قد بنى مدينة محاذية لسلا وسماها المهديّة من أحسن البلاد وأزهها فسار إليها يشاهدها فتوفى بها وكانت ولايته خمس عشرة سنة وكان ذا جهاد للعدو ودين حسن وسيرة وكان يتظاهر بمذهب الظاهرية وأعرض عن مذهب مالك فعظم أمر الظاهرية في أيامه وكان بالمغرب منهم خلق كثير يقال لهم الحزمية منسوبون إلى ابن محمد بن حزم رئيس الظاهرية إلا أنهم مغمورون بالمالكية ففى أيامه ظهروا وانتشروا ثم فى آخر أيامه استقضى الشافعية على بعض البلاد ومال إليهم .

(ذكر عصيان أهل المهديّة على يعقوب وطاعتها لولده محمد) كان أبو يوسف يعقوب صاحب المغرب لما عاد من أفريقيا كما ذكرناه سنة إحدى وثمانين وخمسمائة استعمل أباسعيد عثمان وأبا على يونس بن عمرايتى وهما وأبوهما من أعيان الدولة فولى عثمان مدينة تونس وولى أخاه المهديّة وجعل قائد الجيش بالمهديّة محمد بن عبدالكريم وهو شجاع مشهور فعظمت نكايته فى العرب فلم يبق منهم إلا من يخافه فاتفق أنه أنه الخبر بأن طائفة من عوف نازلين بمكان نخرج إليهم وعدل عنهم حتى جازهم ثم أقبل عائدا يطلبهم وأتاهم الخبر بخروجه إليهم فهربوا من بين يديه فلقبهم أماءهم فهربوا وتركوا المال والعيال من غير قتال فأخذ الجميع ورجع إلى المهديّة وسلم العيال إلى الوالى وأخذ من الأسلاب والغنيمة ما شاء وسلم الباقى إلى الوالى وإلى الجند ثم إن العرب من بنى عوف قصدوا أباسعيد بن عمرايتى فوجدوا وصاروا من حزب الموحدين واستجاروا به فى رد عيالهم وأموالهم فأحضر محمد بن عبدالكريم وأمره بإعادة ما أخذ لهم من النعم فقال أخذه الجند ولا أقدر على رده فأغلظ له فى القول وأراد أن يعطش به فاستمهله إلى أن يرجع إلى المهديّة ويستفرد من الجند ما يجده عنده وما عدم منه غرم العوض عنه من ماله فأمهله فعاد إلى المهديّة وهو خائف فلما وصلها جمع أصحابه وأعلمهم ما كان من أبى سعيد وحالفهم على موافقته فحلفوا له فقبض على أبى على يونس وتغلب على المهديّة

وملكها فأرسل إليه أبو سعيد في معنى إطلاق أخيه يونس فأطلقه على اثني عشر ألف دينار فلما أرسلها إليه أبو سعيد فرقها في الجند وأطلق يونس وجمع أبو سعيد العساكر وأراد قصد محاصرته فأرسل محمد بن عبد الكريم إلى علي بن إسحق الملقب بحالفه واعتضد به فامتنع أبو سعيد من قصده ومات يعقوب وولى ابنه محمد فسير عسكرا مع عمه في البحر وعسكرا آخر في البر مع ابن عمه الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن فلما وصل عسكر البحر إلى بجاية وعسكر السير إلى قسنطينة الهوى هرب الملقب ومن معه من العرب من بلاد أفريقيا إلى الصحراء ووصل الأسطول إلى المهديّة فشكا محمد بن عبد الكريم مالتقى من أبي سعيد وقال أنا على طاعة أمير المؤمنين محمد ولا أسلمها إلى أبي سعيد وإنما أسلمها إلى من يرسله أمير المؤمنين فأرسل محمد من يتسلمها منه وعاد إلى الطاعة.

(ذكر رحيل عسكر الملك العادل عن ماردن) في هذه السنة زال الحصار عن ماردن ورحل عسكر الملك العادل عنها مع ولده الملك الكامل وسبب ذلك أن الملك العادل لما حصر ماردن عظم ذلك على نور الدين صاحب الموصل وغيره من ملوك ديار بكر والجزيرة وخافوا أن ملكها لا يبقى عليهم إلا أن العجز عن منعه حملهم على طاعته فلما توفي العزيز صاحب مصر وملك الأفضل مصر كما ذكرناه وبينه وبين العادل اختلاف فأرسل أخذ عسكر مصر من عنده وأرسل إلى نور الدين صاحب الموصل وغيره من الملوك يدعوهم إلى موافقته فأجابوه إلى ذلك فلما رحل الملك العادل عن ماردن إلى دمشق كما ذكرناه برز نور الدين أرسلان شاه بن مسعود ابن مودود صاحب الموصل عنها ثانی شعبان وصار إلى دنيسر فنزل عليها ووافق ابن عمه قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود صاحب سنجان وابن عمه الآخر سنجر شاه بن غازي بن مودود صاحب جزيرة ابن عمر فاجتمعوا كلهم بدنيسر إلى أن عيدوا عيد الفطر ثم ساروا عنها سادس شوال ونزلوا بحرزم وتقدم العسكر إلى تحت الجبل ليرتادوا موضعا للنزول وكان أهل ماردن قد عدت الأقوات عندهم وكثرت الأمراض فيهم حتى إن كثيرا منهم كان لا يطيق القيام فلما رأى النظام وهو الحاكم في دولة صاحبها ذلك أرسل إلى ابن العادل في تسليم القلعة إليه إلى أجل معلوم ذكره على شرط أن يتركهم يدخل اليهم من الميرة ما يقوتهم حسب فاجابهم إلى ذلك وتحالفوا عليه ورفعوا أعلامهم إلى رأس القلعة وجعل ولد العادل يباب القلعة أمير الأيتام يدخلها من الأطلعة إلا ما يكفيهم يوما بيوم فأعطى من بالقلعة ذلك الأمير شيئا فكنتمهم من إدخال الذخائر الكثيرة فيبنام كذلك إذ أتاهم خبر وصول نور الدين صاحب الموصل فقويت نفوسهم وعزموا على الامتناع فلما تقدم عسكره إلى ذيل جبل ماردن قدر الله تعالى أن الملك الكامل بن العادل نزل بعسكره من ربض ماردن إلى لقاء نور الدين وقتاله ولو أقاموا بالربض لم يمكن نور الدين ولا غيره الصعود اليهم ولا إزاتهم لكن نزلوا يقضى الله أمرا كان مفعولا فلما أصحروا من الجبل اقتتلوا وكان من عجيب الاتفاق أن قطب الدين صاحب سنجان كان قد واعد العسكر العادلي أن ينزحوا إذا التقوا ولم يعلم بذلك أحدا من العسكر فقدر الله تعالى أنه لما نزل العسكر العادلي واصطفت العساكر للقتال ألبأت قطب الدين الضرورة بالزحمة إلى أن وقف في سفح جبل ماردن ليس إليه طريق للعسكر العادلي ولا يرى الحرب الواقعة بينهم وبين نور الدين ففاته ما أراد من الانهزام فلما التقى العسكران واقتتلوا حمل ذلك اليوم نور الدين بنفسه واصطلى الحرب الناس أنفسهم بين يديه فانزح العسكر العادلي وصعدوا في الجبل إلى الربض وأسر منهم كثير فحملوا إلى بين يدي نور الدين فأحسن اليهم ووعدهم

الإطلاق إذا انفصلوا ولم يظن أن الملك الكامل ومن معه يرحلون عن ماردین سرعاً فجاءهم أمر لم يكن في الحساب فإن الملك الكامل لما صعد إلى الربض رأى أهل القلعة قد نزلوا إلى الذين جعلوهم بالربض من العسكر فقاتلوهم ونالوا منهم ونهبوا فألقى الله الرعب في قلوب الجميع فأعملوا رأيهم على مفارقة الربض ليلاً فرحلوا ليلة الاثنين سابع شوال وتركوا كثيراً من أثقالهم ورحالهم وما أعدوه فأخذ أهل القلعة ولوثت العسكر العادلي بمكانه لم يمكن أحداً أن يقرب منهم ولما رحلوا نزل صاحب ماردین حسام الدين يولق بن البلغازی إلى نور الدين ثم عاد إلى حصنه وعاد أنابك إلى دنيسر ورحل عنها إلى رأس عين على عزم قصد حران وحصرها فأتاه رسول من الملك الظاهر يطلب الخطبة والسكة وغير ذلك فتغيرت نية نور الدين وقرر عزمه عن حصرها فعزم على العود إلى الموصل فهو يقدم إلى العود رجلاً ويؤخر أخرى إذ أصابه مرض فتحقق عزم العود إلى الموصل فعاد إليها وأرسل رسولا إلى الملك الأفضل والملك الظاهر يعتذر عن عوده بمرضه فوصل الرسول ثانياً ذى الحجة إليهم وهم على دمشق وكان عود نور الدين من سعادة الملك العادل فإنه كان هو وكل من عنده ينتظرون ما يجيء من أخباره فإن من بحران استسلموا فقدر الله تعالى أنه عاد فلما عاد جاء الملك الكامل إلى حران وكان قد سار عن ماردین إلى ميفارقين فلما رجع نور الدين سار الكامل إلى حران وسار إلى أبيه بدمشق على ما ذكرناه فازداد به قوة والأفضل ومن معه ضعفاً .

(ذكر الفتنة بفيروزكوه من خراسان) في هذه السنة كانت فتنة عظيمة بعسكر غياث الدين ملك الغور وغزنة وهو بفيروزكوه عمت الرعية والملوك والأمراء وسبها أن الفخر محمد بن همر بن الحسين الرازي الإمام المشهور الفقيه الشافعي كان قدم إلى غياث الدين مفارقاً لبهاء الدين سام صاحب باميان وهو ابن أخت غياث الدين فأكرمه غياث الدين واحترمه وبالغ في إكرامه وبنى له مدرسة بهراة بالقرب من الجامع فقصدته الفقهاء من البلاد فعمم ذلك على الكرامية وهم كثيرون بهراة، وأما الغورية فكلهم كرامية وكرهوه وكان أشد الناس عليه الملك ضياء الدين وهو ابن عم غياث الدين وزوج ابنته فاتفق أن حضر الفقهاء من الكرامية والخنفية والشافعية عند غياث الدين بفيروزكوه للنظرة وحضر نخر الدين الرازي والقاضي مجد الدين عبد المجيد بن عمر المعروف بابن القدوة وهو من الكرامية الهيصمية وله عندهم محل كبير لزمه وعلية وبيته فتكلم الرازي فاعترض عليه ابن القدوة وطال الكلام فقام غياث الدين فاستطال عليه الفخر وسبه وشتمه وبالغ في أذاه وابن القدوة لا يزيد على أن يقول لا يفعل مولانا لا واخذك الله أستغفر الله فانفصلوا على هذا وقام ضياء الدين في هذه الحادثة وشكر إلى غياث الدين وذم الفخر ونسبه إلى الزندقة ومذهب الفلاسفة فلم يصغ غياث الدين إليه، فلما كان الغد وعظ ابن عمر المجد بن القدوة بالجامع فلما صعد المنبر قال بعد أن حمد الله وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم (لا إله إلا الله ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين أيها الناس إنا لا نقول إلا ما صح عندنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما علم أرسطاطاليس وكفريات ابن سينا وفلسفة الفارابي فلا نعملها فلائى حال يشتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام يذب عن دين الله وعن سنة نبيه) وبكى وضع الناس وبكى الكرامية واستغاثوا وأعاهم من يؤثر بعد الفخر الرازي عن السلطان وثار الناس من كل جانب وامتلأ البلد فتنة وكادوا يقتلون ويجرى ما يهلك فيه خلق كثير فبلغ ذلك السلطان فأرسل جماعة من عنده إلى الناس وسكنهم ووعدهم بإخراج الفخر من عندهم وتقديم إليه بالعود إلى هراة فعاد إليها .

(ذكر مسير خوارزم شاه إلى الري) في هذه السنة في ربيع الأول سار خوارزم شاه علاء الدين تكش إلى الري وغيرها من بلاد الجبل لأنه بلغه أن نائبه بها مياجق قد تغير عن طاعته فسار إليه نخافه مياجق فجعل يفر من بين يديه وخوارزم شاه في طلبه، يدعوه إلى الحضور عنده، وهو يمتنع فأتاه من أكثر أصحابه إلى خوارزم شاه، وهرب هو فحصل بقلعة من أعمال مازندران، فامتنع بها، فسارت العساكر في طلبه، فأخذ منها، وأحضر بين يدي خوارزم شاه، فأمر بحبسها، بشفاعة أخيه أقيجة، وسيرت الخلع من الخليفة لخوارزم شاه ولولده، قطب الدين محمد وتقليد ما بيده من البلاد، فلبس الخلعة، واشتغل بقتال الملاحدة فافتتح قلعة على باب قزوين تسمى أرسلان كيشاء وانتقل إلى حصار الموت فقتل عليها صدر الدين محمد بن الوزان رئيس الشافعية بالري وكان قد تقدم عنده تقدما عظيما قتله الملاحدة وعاد خوارزم شاه إلى خوارزم فوثب الملاحدة على وزيره نظام الملك مسعود بن علي فقتلوه في جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين فأمر تكش ولده قطب الدين بمقصد الملاحدة فقصد قلعة ترشيش وهي من قلاعهم فحصرها فأذعنوا له بالطاعة وصالحوه على مائة ألف دينار ففارقها وإنما صالحهم لأنه بلغه خبر مرض أبيه وكانوا يرسلونه بالصلح فلا يفعل فلما سمع بمرض أبيه لم يرحل حتى صالحهم على المال المذكور والطاعة ورحل.

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في ربيع الأول توفي مجاهد الدين قايماز رحمه الله بقلعة الموصل وهو الحاكم في دولة نور الدين والمرجوع إليه فيها وكان ابتداء ولايته قلعة الموصل في ذي الحجة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة وولى إربل سنة تسع وخمسين وخمسمائة فلما مات زين الدين علي كوكج سنة ثلاث وستين بقي هو الحاكم فيها ومعه من يختاره من أولاد زين الدين ليس لواحد منهم معه حكم وكان عاقلا أدبيا خيرا فاضلا يعرف الفقه على مذهب أبي حنيفة ويحفظ من التاريخ والأشعار والحكايات شيئا كثيرا وكان كثير الصوم يصوم من كل سنة نحو أربعة أشهر وله أوراد كثيرة حسنة كل ليلة ويكثر الصدقة وكان له فراسة حسنة فيمن يستحق الصدقة ويعرف المقير المستحق ويبرهم وبني عدة جوامع منها الجامع الذي بظاهر الموصل بباب الجسر وبني الربط والمدارس والخانات في الطرق وله من المعروف شيء كثير رحمه الله فلقد كان من محاسن الدنيا وفيها فارق غياث الدين صاحب غزنة وبعض خراسان مذهب الكرامية وصار شافعي المذهب وكان سبب ذلك أنه كان عنده إنسان يعرف بالفخر مبارك شاه يقول الشعر بالفارسية متفتنا في كثير من العلوم فأوصل إلى غياث الدين الشيخ وجيه الدين أبا الفتح محمد بن محمود المروزي الفقيه الشافعي فأوضح له مذهب الشافعي وبين له فساد مذهب الكرامية فصار شافعيًا وبني المدارس للشافعية وبني بغزنة مسجدا لهم أيضا وأكثر مراعاتهم فسعى الكرامية في أذى وجيه الدين فلم يقدرهم الله تعالى على ذلك وقيل إن غياث الدين وأخاه شهاب الدين لما ملكا في خراسان قيل لهما إن الناس في جميع البلاد يزرون على الكرامية ويحتقرونهم والرأي أن تفارقا مذاهم فصارا شافعيين وقيل إن شهاب الدين كان حنفيًا والله أعلم. وفي هذه السنة توفي أبو القاسم محيى ابن علي بن فضلان الفقيه الشافعي وكان إماما فاضلا ودرس ببغداد وكان من أعيان أصحاب محمد بن يحيى نجي النيسابوري. (١)

(١) وفيها شرع في بناء سور بغداد بالآجر والكلس، وفرق على الأمراء وكلت عمارته بعد هذه السنة، فأمنت بغداد من الفرق والحصار، ولم يكن لها سور قبل ذلك وفيها ادعى رجل أحمي بدمشق أنه عيسى بن مريم، فأمر =

﴿ ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسة ﴾

﴿ ذكر ملك العادل الديار المصرية ﴾ قد ذكرنا سنة خمس وتسعين حصر الأفضل والظاهر ولدى صلاح الدين دمشق ورحيلهما إلى رأس الماء على عزم المقام بحوران إلى أن يخرج الشتاء ؛ فلما أقاموا برأس الماء وجد العسكر بردا شديدا لأن البرد في ذلك المكان في الصيف موجود ، فكيف في الشتاء ؛ فتغير العزم على المقام وانفقوا على أن يعود كل إنسان منهم إلى بلده ؛ ويعودوا إلى الاجتماع فتفرقوا تاسع ربيع الأول ، فعاد الظاهر وصاحب حصص إلى بلادهما ، وسار الأفضل إلى مصر ، فوصل بلبس فأقام بها ووصلته الأخبار بأن عمه الملك العادل قد سار من دمشق قاصدا مصر ، ومعه المماليك الناصرية وقد حلفوه أن يكون ولد الملك العزيز هو صاحب البلاد وهو المدبر لذلك إلى أن يكبر فساروا على هذا وكان عسكره بمصر قد تفرق عن الأفضل من الخشي فسار كل منهم إلى أقطاعه ليربعوا دوابهم فرام الأفضل جمعهم من أطراف البلاد فأعجله الأمر عن ذلك ولم يجتمع منهم إلا طائفة يسيرة من قرب أقطاعه ووصل العادل فأشار بعض الناس على الأفضل أن يخرب سور بلبس ويقيم بالقاهرة وأشار غيرهم بالتقدم إلى أطراف البلاد ففعل ذلك فسار عن بلبس ونزل موضعا يقال له السائح في طرف البلاد والتقى هو والعادل سابع ربيع الآخر فانهزم الأفضل ودخل القاهرة ليلا وفي تلك الليلة توفي القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي البيهقي كاتب الإنشاء لصلاح الدين ووزيره فحضر الأفضل الصلاة عليه وسار العادل فنزل على القاهرة وحصرها فجمع الأفضل من عنده من الأمراء واستشارهم فرأى منهم تخاذلا فأرسل رسولا إلى عمه في الصلح وتسليم البلاد إليه وأخذ العوض عنها وطلب دمشق فلم يجبه فنزل عنها إلى حران والرها فلم يجبه فنزل إلى ميفارقين وحاني وجبل جور فأجابه إلى ذلك وتحالفوا عليه وخرج الأفضل من مصر ليلة السبت ثامن عشر ربيع الآخر واجتمع بالعدل وسار إلى صرخد ودخل العادل إلى القاهرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر ولما وصل الأفضل إلى صرخد أرسل

الأمير صارم الدين برغش نائب القلعة ، بصلبه عند حمام العماد الكاتب ، خارج باب الفرج مقابل الطاحون التي بين البابين ، وقد باد هذا الحمام قديما ، وبعد صلبه بيومين ثارت العامة على الروافض وعمدوا إلى قبر رجل منهم بباب الصغير يقال له وثاب فنبشوه وصلبوه مع كلبين ، وذلك في ربيع الآخر منها . وفيها توفي أبو الحسن محمد بن جعفر ابن أحمد بن محمد بن عبدالعزيز العباس الهاشمي ، قاضي القضاة ببغداد ، بعد ابن النجاري ، كان شافعيًا تفقه على أبي الحسن ابن الحل وغيره ، وقد ولي القضاء والخطابة بمكة ، وأصله منها ، ولكن ارتحل إلى بغداد فنال منها ما نال من الدنيا وآل به الأمر إلى ما آل ، ثم إنه عزل عن القضاء بسبب محض رقم خطه عليه ، وكان فيما قبل مزورا عليه . فأنه أعلم جلس في منزله حتى مات . وفيها توفي الشيخ جمال الدين أبو القاسم يحيى بن علي بن الفضل بن بركة بن فضلان شيخ للشافعية ببغداد ، تفقه أولا على سعيد بن محمد الزار مدرس النظامية ، ثم ارتحل إلى خراسان فأخذ عن الشيخ محمد الزبيدي تلميذ الغزالي وعاد إلى بغداد وقد اقتبس علم المناظرة والأصلين ، وساد أهل بغداد وانتفع به الطلبة والفقهاء وبنيت له مدرسة فدرس بها وبعد صيته ، وكثرت تلاميذه ، وكان كثير التلاوة وسماع الحديث ، وكان شيخنا حسنا لطيفا ظريفا ، ومن شعره :

وإذا أردت منازل الأشراف هـ فعليك بالإسفاف والإنصاف
وإذا بغا باغ عليك فخله هـ والدمر ، فهو له مكاف كاف

(٣٢ - كامل - ٩)

من تسلّم ميافارقين وحانی وجبل جور فامتنع نجم الدين أيوب بن الملك العادل من تسلّم ميافارقين وسلّم ما عداها فترددت الرسل بين الأفاضل والعادل في ذلك والعادل يزعم أن ابنه عصاه فأمسك عن المراسلة في ذلك لعله أن هذا فعل بأمر العادل ولما ثبت قدم العادل بمصر قطع خطبة الملك المنصور ابن الملك العزيز في شوال من السنة وخطب لنفسه وحاقد الجند في أقطاعاتهم واعترضهم في أصحابهم ومن عليهم من العسكر المقرر قغيرت لذلك نياتهم فكان ما مذ كره سنة سبع وتسعين إن شاء الله .

(ذكر وفاة خوارزم شاه) في هذه السنة في العشرين من رمضان توفي خوارزم شاه تكش بن أرسلان صاحب خوارزم وبعض خراسان والرى وغيرها من البلاد الجبالية بشهر ستاة بين نيسابور و خوارزم وكان قد سار من خوارزم إلى خراسان وكان به خوائق فأشار عليه الأطباء بترك الحركة فامتنع وسار فلما بلغ شهر ستاة اشتد مرضه ومات ولما اشتد مرضه أرسلوا إلى ابنه قطب الدين محمد يستدعونه ويعرفونه شدة مرض أبيه فسار إليهم وقدمات أبوه فولى الملك بعده ولقب علاء الدين لقب أبيه وكان لقبه قطب الدين وأمر فحمل أبوه ودفن بخوارزم في تربة عملها في مدرسة بناها كبيرة عظيمة وكان عادلا حسن السيرة له معرفة حسنة وعلم يعرف الفقه على مذهب أبي حنيفة ويمرف الأصول وكان ولده على شاه بأصفهان فأرسل إليه أخوه خوارزم شاه محمد يستدعيه فسار إليه فذهب أهل أصفهان خرائته ورحله فلما وصل أخيه ولاء حرب خراسان والتقدم على جندها وسلم إليه نيسابور وكان هندوخان ملك شاه بن خوارزم شاه تكش يخاف عمه محمدا فهرب منه ونهب كثيرا من خزائن جده تكش لما مات وكان معه وسار إلى مرو ولما سمع غياث الدين ملك غزنة وفاة خوارزم شاه أمر أن لا تضرب نوبته ثلاثة أيام وجلس للغزاة على ما بينهما من العداوة والمحاربة فعمل ذلك عقلا منه ومرواة ثم إن هندوخان جمع جمعا كثيرا بخراسان فسير إليه عمه خوارزم شاه جيشا مقدمهم جقر التركي فلما سمع هندوخان بمسيرهم هرب عن خراسان وسار إلى غياث الدين يستنجده على عمه فأكرم لقاءه وإزاله وأقطعه ووعده النصره فأقام عنده ودخل جقر مدينة مرو وبها والده هندوخان وأولاده فاستظهر عليهم وأعلم صاحبه فأمره بإرسالهم إلى خوارزم مكرمين فلما سمع غياث الدين ذلك أرسل إلى محمد بن جربك صاحب الطالقان يأمره أن يرسل إلى جقر يتهدده ففعل وسار من الطالقان فأخذ مرو والروذ والخمس قرى وتسمى بالفارسية بنج ده وأرسل إلى جقر يأمره بإقامة الخطبة بمرو لغياث الدين أو يفارق البلد فأعاد الجواب يتهدد ابن جربك ويتوعده وكتب إليه سرا يسأله أن يأخذ له أمانا من غياث الدين ليحضر خدمته فكتب إلى غياث الدين بذلك فلما قرأ كتابه علم أن خوارزم شاه ليس له قوة فلماذا طلب جقر الانحياز إليه فقوى طمعه في البلاد وكتب إلى أخيه شهاب الدين يأمره بالخروج إلى خراسان ليتفقا على أخذ بلا خوارزم شاه محمد .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في جمادى الآخرة وثب الملاحدة الإسماعيلية على نظام الملك مسعود ابن علي وزير خوارزم شاه تكش فقتلوه وكان صالحا كثير الخير حسن السيرة شافعي المذهب بنى للشافعية بمرو جامعا مشرفا على جامع الحنفية فتعصب شيخ الإسلام وهو مقدم الختابة بها فيهم والرياسة وجمع الأوباش فأحرقه فأنفذ خوارزم شاه فأحضر شيخ الإسلام وجماعة ممن سعى في ذلك فأغرمهم مالا كثيرا وبني الوزير أيضا مدرسة عظيمة بخوارزم وجامعا وجعل فيها خزانة كتب وله آثار حسنة بخراسان باقية

ولما مات خلف ولدا صغيرا فاستوزره خوارزم شاه رعاية لحق ابيه فأشير عليه أن يستعفى فأرسل يقول
 أنتي صبي لا أصلح لهذا المنصب الجليل فيولى السلطان فيه من يصلح له إلى أن أكبر فإن كنت أصلح فأنا
 المملوك فقال خوارزم شاه لست أعفيك وأنا وزيرك فكن مراجعي في الأمور فإنه لا يقف منها شيء فاستحسن
 الناس هذا ثم إن الصبي لم تطل أيامه فتوفي قبل خوارزم شاه ببسير . وفي هذه السنة في ربيع الأول توفي شيخنا
 أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب بن كليب الحراني المقيم ببغداد وله ست وتسعون سنة وشهران وكان عالي
 الإسناد في الحديث وكان ثقة صحيح السماع . وفي ربيع الآخر منها توفي القاضي الفاضل عبد الرحيم البيهقي
 الكاتب لم يكن في زمانه أحسن كتابة منه ودفن بظاهر مصر بالقرافة وكان ديناً كثير الصدقة والعبادة وله وقوف
 كثيرة على الصدقة وفك الأسارى وكان يكثر الحج والمجاورة مع اشتغاله بخدمة السلطان وكان السلطان صلاح
 الدين يعظمه ويحترمه ويكرمه ويرجع إلى قوله رحمه الله (١).

(ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة)

(ذكر ملك الملك الظاهر صاحب حلب منبج وغيرها من الشام وحصره هو وأخوه الأفضل مدينة دمشق
 وعودهما عنها) قد ذكرنا قبل ملك العادل ديار مصر وقطعه خطبة الملك المنصور ولد الملك العزيز عثمان
 ابن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وأنه لما فعل ذلك لم يرضه الأمراء المصريون ، وخبثت نياتهم في طاعته
 فراسلوا أخويه الظاهر بحلب والأفضل بمصر خد وتكررت المكاتبات والمراسلات بينهم يدعونهما إلى قصد
 دمشق وحصرها ليخرج الملك العادل إليهم فإذا خرج إليهم من مصر أسلحوه وصاروا معهما فتملكا البلاد
 وكثر ذلك حتى نشأ الخبر واتصل بالملك العادل وانضاف إلى ذلك أن النيل لم يزد بمصر الزيادة التي تركب
 الأرض ليزرع الناس فكثر الغلاء فضعفت قوة الجند وكان فخر الدين جهار كس قد فارق مصر إلى الشام هو
 وجماعة من المماليك الناصرية لحصار بانياس ليأخذها لنفسه بأمر العادل وكانت لأمير كبير تركي اسمه بشارة قداتهم
 العادل فأمر جهار كس بذلك وكان أمير من أمراء العادل يعرف بعز الدين أسامة قد حج هذه السنة فلما عاد من

(١) وفيها توفي الفقيه مجد الدين أبو محمد بن طاهر بن نصر بن جميل ، مدرس القدس أول من درس بالصلاحية ،
 وهو والد الفقهاء بني جميل الدين ، كانوا بالمدرسة الجاروخية ، ثم صاروا إلى العمادية والدماعية في أيامنا هذه ،
 ثم ماتوا ولم يبق إلا شرحهم . وفيها توفي الشيخ شهاب الدين الطوسي أحد مشايخ الشافعية بديار مصر ، شيخ المدرسة
 المنسوبة إلى تقي الدين شاهنشاه بن أيوب ، التي يقال لها منازل العز ، وهو من أصحاب محمد بن يحيى تليذ الغزالي ،
 كان له قدر ومنزلة عند ملوك مصر ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، توفي في هذه السنة ، فأزدحم الناس على
 جنازته ، وتأسفوا عليه . وفيها توفي الشيخ ظهير الدين عبد السلام الفارسي شيخ الشافعية بحلب ، أخذ الفقه عن
 محمد بن يحيى تليذ الغزالي ، وتليذ للرازي ، ورحل إلى مصر وعرض عليه أن يدرس بترية الشافعية فلم يقبل ، فرجع
 إلى حلب فأقام بها إلى أن مات . وفيها توفي الشيخ العلامة بدر الدين بن عسكر رئيس الحنفية بدمشق ، قال أبو شامة :
 ويعرف بابن العقادة . وتوفي أيضا الشاعر أبو الحسن علي بن نصر بن عقيل بن أحمد بغدادى ، قدم دمشق في سنة
 خمس وتسعين وخمسمائة ؛ ومعه ديوان شعر له فيه درر حسان ؛ وقد تصدى لمادح الملك الأجدد صاحب بعلبك وله :

وما الناس إلا كامل الحظ ناقص • وآخر منهم ناقص الحظ كامل
 وإنى لثمر من خيبار أعفة • وإن لم يكن عندى من المال كامل

الحج وقارب صرخد نزل الملك الأفضل فلقبه وأكرمه ودعاه إلى نفسه فأجابته وحلف له وعرفه الأفضل جلية الحال وكان أسامة من بطانة العادل وإنما حلف لينكشف له الأمر فلما فارق الأفضل أرسل إلى العادل وهو بمصر يعرفه الخبر جميعه فأرسل إلى ولده الذي بدمشق يأمره بحصر الأفضل بصرخد، وكتب إلى إياس جركس وميمون القصرى صاحب بلبس وغيرهما من الناصرية يأمرهم بالاجتماع مع ولده على حصر الأفضل وسمع الأفضل الخبر فسار إلى أخيه الظاهر بحلب مستهل جمادى الأولى من السنة، ووصل إلى حلب عاشر الشهر وكان الظاهر قد أرسل أميراً كبيراً من أمراته إلى عمه العادل فنعه العادل من الوصول إليه وأمره بأن يكتب رسالته فلم يفعل وعاد لوقته فتحرك الظاهر لذلك وجمع عسكره وقصد منبج فلما كان السادسة والعشرين من رجب وسار إلى قلعة نجم وحصرها فتسلمها سلخ رجب، وأما الملك المعظم عيسى بن العادل المقيم بدمشق فإنه سار إلى بصرى وأرسل إلى جهار كس ومن معه وعم على بانياس يحصرونها يدعوم إليه فلم يجيبوه إلى ذلك بل غلطوه فلما طال مقامه على بصرى عاد إلى دمشق وأرسل الأمير أسامة إليهم يدعومهم إلى مساعدته فاتفق أنه جرى بينه وبين البكاء الفارس بعض المماليك الكبار الناصرية منافرة أغلظ له البكاء القول وتعدى إلى الفعل باليد ونار العسكر جميعه على أسامة فاستنم بميمون فأمنه وأعادته إلى دمشق واجتمعوا كلهم عند الملك الظاهر خضر بن صلاح الدين وأنزلوه من صرخد وأرسلوا إلى الملك الظاهر والأفضل يخونهما على الوصول إليهم والملك الظاهر يترهب ويتعوق فوصل من منبج إلى حماة في عشرين يوماً وأقام على حماة يحصرها وبها صاحبها ناصر الدين محمد بن تقي الدين إلى تاسع عشر رمضان فاصطلحا وحمل له ابن تقي الدين ثلاثين ألف دينار صورية وساروا عنها إلى حمص وسار منها إلى دمشق على طريق بعلبك فنزلوا عليها عند مسجد القدم فلما نزلوا على دمشق أتاهم المماليك الناصرية مع الملك الظاهر خضر بن صلاح الدين وكانت القاعدة استقرت بين الظاهر وأخيه الأفضل أنهم إذا ملكوا دمشق تكون بيد الأفضل ويسيرون إلى مصر فإذا ملكوها تسلّم الظاهر دمشق فيبقى الشام جميعه له وتبقى مصر للأفضل وسلم الأفضل صرخد إلى زين الدين قراجه بملوك والده ليحضر في خدمته وأنزل والده وأهله منها وسيرهم إلى حمص فأقاموا عند أسد الدين شيركوه صاحبها وكان الملك العادل قد سار من مصر إلى الشام فنزل على مدينة نابلس وسير جمعا من العسكر إلى دمشق ليحفظها فوصلوا قبل وصول الظاهر والأفضل وحضر فخر الدين جهار كس وغيره من الناصرية فوصلوا قبل وصول الظاهر والأفضل وزحفوا إلى دمشق وقاتلوا رابع عشر ذى القعدة واشتد القتال عابها فالتصق الرجال بالسور فأدركهم الليل فعادوا وقد قوى الطمع في أخذها ثم زحفوا إليها مرة ثانية وثالثة فلم يبق إلا ملكها لأن العسكر صعد إلى سطح خان ابن المقدم وهو ملاصق السور فلوم يدركهم الليل لملكوا البلد فلما أدركهم الليل وهم عازمون على الزحف بكرة وليبر لهم عن البلد مانع حسد الظاهر أخاه الأفضل فأرسل إليه يقول له تكون دمشق له ويده ويسير العساكر معه إلى مصر فقال له الأفضل قد علمت أن والدتي وأهلي وهم أهلك أيضا على الأرض ليس لهم موضع يأوون إليه فأحسب أن هذا البلد لك تدبرنا إياه ليسكننا أهلي هذه المدة إلى أن يملك مصر فلم يجبه الظاهر في ذلك ولج فلما رأى الأفضل ذلك الحال قال للناصرية ونزل من جاء إليهم من الجند إن كنتم جئتم إلى فقد أذنت لكم في العود إلى العادل وإن كنتم جئتم إلى أخى الظاهر فأنتم وهو أخير وكان الناس كلهم يريدون الأفضل فقالوا ما تريد سواك والعادل أحب إلينا من أخيك فأذن لهم في العود فهرب فخر الدين جهار كس وزير الدين قراجه

الذي أعطاه الأفضل صرخد فنهم من دخل دمشق ومنهم من عاد إلى أقطائه فلما انفسخ الأمر عليهم هادوا إلى تجديد الصلح مع العادل فرددت الرسل بينهم واستقر الصلح على أن يكون للظاهر منبج وأفامية وكفر طاب وقرى معينة من المعرة ويكون للأفضل سميساط وسروج ورأس العين وحلين ورحلوا عن دمشق أول المحرم سنة ثمان وتسعين فقصد الأفضل حمص فأقام بها وسار الظاهر إلى حلب ووصل العادل إلى دمشق ناسع المحرم وسار الأفضل إليه من حمص فاجتمع به بظاهر دمشق وعاد من عنده إلى حمص وسار منها ليتسلم سميساط قدسها وتسلم باقي ما استقر له برأس العين وسروج وغيرها .

(ذكر ملك غياث الدين وأخيه ما كان لخوارزم شاه بخراسان) قد ذكرنا مسير محمد بن خرميل من الطالقان واستيلاءه على مرو وروذ وسؤال جقر التركي نائب علاء الدين محمد خوارزم شاه بمرو أن يكون في جملة صكر غياث الدين ولما وصل كتاب ابن خرميل إلى غياث الدين في معنى جقر علم أن هذا إنما دعاه إلى الانتماء إليهم ضعف صاحبه فأرسل إلى أخيه شهاب الدين يستدعيه إلى خراسان فسار من غزنة في عساكره وجنوده وعدته وما يحتاج إليه وكان بهراة الأمير مهر بن محمد المرغني نائبا عن غياث الدين وكان يكره خروج غياث الدين إلى خراسان فأحضره غياث الدين واستشاره فأشار بالكف عن قصدتها وترك المسير إليها فأنكر عليه ذلك وأراد إبعاده عنه ثم تركه ووصل شهاب الدين في عساكره وعساكر سجستان وغيرها في جمادى الأولى من هذه السنة فلما وصلوا إلى ميمنة وهي قرية بين الطالقان وكرزيان وصل إلى شهاب الدين كتاب جقر مستحفظ مرو يطلبه ليدلها إليه فاستأذن أخاه غياث الدين فأذن له فسار إليها فخرج أهلها مع العسكر الخوارزمي وقتلوه فأمر أصحابه بالحملة عليهم والجد في قتالهم فحملوا عليهم فأدخلوهم البلد وزحفوا بالفيلة إلى أن قاربوا السور فطلب أهل البلد الأمان فأمهم وكف الناس عن التعرض إليهم وخرج جقر إلى شهاب الدين فوعده الجليل ثم حضر غياث الدين إلى مرو وبعد فتحها فأخذ جقر وسيره إلى هراة مكرما وسلم مرو إلى هندوخان ابن ملك شاه بن خوارزم شاه تكش وقد ذكرنا هربه من همه خوارزم شاه محمد بن تكش إلى غياث الدين ووصاه بالإحسان إلى أهلها ثم سار غياث الدين إلى مدينة سرخس فأخذها صلحا وسلمها إلى الأمير زنگي ابن مسعود وهو من أولاد عمه وأقطعها معها نساو أبيورد ثم سار بالعساكر إلى طوس فأراد الأمير الذي بها أن يمتنع فيها ولا يسلمها فأغلاق باب البلد ثلاثة أيام فبلغ الخبر ثلاثة أمناء بدينار ركني فضج أهل البلد عليه فأرسل إلى غياث الدين يطلب الأمان فأمنه فخرج إليه فخلع عليه وسيره إلى هراة ولما ملكها أرسل إلى علي شاه ابن خوارزم شاه تكش وهو نائب أخيه علاء الدين محمد بنيسابور يأمره بمفارقة البلد ويحذره إن أقام سطوة أخيه شهاب الدين وكان مع علي شاه عسكر من خوارزم شاه فاتفقوا على الامتناع من تسليم البلد وحصره وخربوا ما بظاهرة من العمارة وقطعوا الأشجار وسار غياث الدين إلى نيسابور فوصل إليها أوائل رجب وتقدم عسكر أخيه شهاب الدين إلى القتال فلما رأى غياث الدين ذلك قال لولده محمود قد سبقنا عسكر غزنة بفتح مرو، وهم يريدون يفتحون نيسابور، فيحصلون بالإسم، فاحمل إلى البلد، ولا ترجع حتى تصل السور، فحمل، وحمل معه وجوه الغورية، فلم يردم أحد عن السور، حتى أصدوا علم غياث الدين إليه، فلما رأى شهاب الدين علم أخيه على السور، قال لأصحابه: اقصدوا بنا هذه الباحة، واصعدوا السور من ههنا، وأشار إلى مكان فيه، فسقط السور متهدما، فضج الناس بالتكبير، وذهل الخوارزميون وأهل

البلد ودخل الغورية البلد وملكوه عنوة ونهبوه ساعة من نهار فبلغ الخبر إلى غياث الدين فأمر بالنداء من نهب مالا أو آذى أحدا فدمه حلال فأعاد الناس ما نهبوه عن آخره ولقد حدثني بعض أصدقائنا من التجار وكان بنيسابور في هذه الحادثة نهب من متاعى شىء من جملته سكر فلما سمع العسكر النداء ردوا جميع ما أخذوا منى وبقي لى بساط وشىء من السكر مع جماعة فطابته منهم فقالوا أما السكر فأكلناه فنسألك أن لا يسمع أحد وإن أردت ثمنه أعطيناك فقلت أنتم فى حل منه ولم يكن البساط مع أولئك قال فمشيت إلى باب البلد مع النظارة فرأيت البساط الذى لى قد ألقى عند باب البلد لم يجسر أحد يأخذه فأخذته وقلت هذا لى فطلبوا منى من يشهد به فأحضرت من شهد لى وأخذته ثم إن الخوارزميين تحصنوا بالجامع فأخرجهم أهل البلد فأخذهم الغورية ونهبوا مالهم وأخذ على شاه بن خوارزم شاه وأحضر عند غياث الدين راجلا فأنكر ذلك على من أحضره وعظم الأمر فيه وحضرت دابة كانت لعلى شاه وقال لغياث الدين أهكذا يفعل بأولاد الملوك فقال لا بل هكذا وأخذ بيده وأقعدته معه على السرير وطيب نفسه وسير جماعة الأمراء الخوارزمية إلى هراة تحت الاستظهار وأحضر غياث الدين ابن عمه وصهره على ابنة ضياء الدين محمد بن أبى الغورى وولاه حرب خراسان وخراجها ولقبه علاء الدين وجعل معه وجوه الغورية ورحل إلى هراة وسلم على شاه إلى أخيه شهاب الدين وأحسن إلى أهل نيسابور وفرق فيهم مالا كثيرا، ثم رحل بعده شهاب الدين إلى ناحية قهستان فوصل إلى قرية فذكر له أن أهلها إسماعيلية فأمر بقتل المقاتلة ونهب الأموال وسى الذرارى وخرب القرية فجعلها خاوية على عروشها ثم سار إلى كنياباد وهى من المدن التى جميع أهلها إسماعيلية فنزل عليها وحصرها فأرسل صاحب قهستان إلى غياث الدين يشكو أخاه شهاب الدين ويقول بيننا عهد فما الذى بدأ منا حتى تحاصر بلدى واشتد خوف الإسماعيلية الذين بالمدينة من شهاب الدين فطلبوا الأمان ليخرجوا منه فأمنهم وأخرجهم وملك المدينة وسلمها إلى بعض الغورية فأقام بها الصلوات وشعار الإسلام ورحل شهاب الدين فنزل على حصن آخر للإسماعيلية ووصل إليه رسول أخيه غياث الدين فقال الرسول معى تقدم من السلطان فلا يجرى حردان فعلته فقال لا أرحل قال إذن أفعل ما أمرنى قال أفعل فسل سيفه وقطع أظناب سراق شهاب الدين وقال أرحل بتقدم السلطان فرحل شهاب الدين والمسكر وهو كاره إلى بلاد الهند ولم يبق بغزنة غضبا لما فعله أخوه معه .

(ذكر قصد نورالدين بلاد العادل والصلاح بينهما) فى هذه السنة أيضا تجهز نورالدين أرسلان صاحب الموصل وجمع عساكره، وسار إلى بلاد الملك العادل بالجزيرة حران والرها، وكان سبب حركته أن الملك العادل لما ملك مصر على ما ذكرناه قبل اتفق نورالدين والملك الظاهر صاحب حلب وصاحب ماردى وغيرهما على أن يكونوا يدا واحدة متفقين على منع العادل عن قصد أحدهم فلما تجدد حركة الأفاضل والظاهر أرسلوا إلى نورالدين، ليقتصد البلاد الجزرية، فسار عن الموصل فى شعبان من هذه السنة، وسار معه ابن عمه قطب الدين محمد بن عماد الدين زنىكى صاحب سنجان، ونصيبين وصاحب ماردى، ووصل إلى رأس العين، وكان الزمان قيظا فكثرت الأمراض فى عسكره، وكان بمران ولد للعادل، يلقب بالملك الفاتز، ومعه عسكر يحفظ البلاد فلما وصل نورالدين إلى رأس العين جاءت رسل الفاتز ومن معه من أكابر الأمراء يطلبون الصلح ويرغبون فيه وكان نورالدين قد سمع بأن الصلح بدأ يتم بين الملك العادل والملك الظاهر والأفاضل وانضاف إلى ذلك كثرة الأمراض فى عسكره فأجاب إليه وحلف الملك الفاتز ومن عنده من أكابر الأمراء على القاعدة

التي استقرت وحلفوا أنهم يحلفون الملك العادل له فإن امتنع كانوا معه عليه وحالف هولئك العادل وسارت الرسل من عنده ومن عند ولده في طلب اليمين من العادل فأجاب إلى ذلك وحلف له واستقرت القاعدة وأمنت البلاد وعاد نور الدين إلى الموصل في ذي القعدة من السنة .

(ذكر ملك شهاب الدين نهر واله) لما سار شهاب الدين من خراسان على ما ذكرناه لم يقيم بغزوة وقصد بلاد الهند وأرسل مملوكه قطب الدين أيبك إلى نهر واله فوصلها سنة ثمان وتسعين فلقية عسكر الهنود فقاتلوه قتالا شديدا فهزمهم أيبك واستباح معسكرهم وما لهم فيه من الدواب وغيرها وتقدم إلى نهر واله فلكها عنوة وهرب ملكها فجمع وحشد فكثرت جمعه وعلم شهاب الدين أنه لا يقدر على حفظها إلا بأن يقيم هو فيها ويخليها من أهلها فيتعذر عليه ذلك فإن البلد عظيم هو أعظم بلاد الهند وأكثرهم أهلا فصالح صاحبها على مال يؤديه إليه عاجلا وأجلا وأعاد عساكره عنها وسلها إلى صاحبها .

(ذكر ملك ركن الدين ملطية من أخيه وأرزن الروم) في هذه السنة في شهر رمضان ملك ركن الدين سليمان بن قلع أرسلان مدينة ملطية وكانت لأخيه معز الدين قيصر شاه فسار إليه وحصره أياما وملكها وسار منها إلى أرزن الروم وكانت لولد الملك ابن محمد بن صلتق وهم بيت قد ملكوا أرزن الروم مدة طويلة فلما سار إليها وقاربها خرج صاحبها إليه ثقة به ليقرر معه الصالح على قاعدة يؤثرها ركن الدين فقبض عليه واعتقله عنده وأخذ البلد وكان هذا آخر أهل بيته ملكوا فتبارك الله الحى القيوم الذى لا يزول ملكه أبدا سرمدًا .

(ذكر وفاة سقمان صاحب آمد وملك أخيه محمود) في هذه السنة توفى قطب الدين سقمان بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان صاحب آمد وحصن كيفا سقط من سطح جوسق كان له بظاهر حصن كيفا فسار وكان شديد الكراهة لأخيه هذا والنفور عنه قد أبعدته وأزله حصن منصور في آخر بلادهم واتخذ مملوكا اسمه إياس فزوجه أخته وأحبه حبا شديدا وجعله ولى عهده فلما توفى ملك بعده عدة أيام وتهدد وزيراً كان لقطب الدين وغيره من أمراء الدولة فأرسلوا إلى أخيه محمود سرا يستدعونه فسار مجدا فوصل إلى آمد وقد سبقه إليها إياس مملوك أخيه فلم يقدم على الامتناع فتسلم محمود البلاد جميعها وملكها وحبس المملوك فبقى مدة محبوسا ثم شفع له صاحب بلاد الروم فأطلق من الحبس وسار إلى الروم فصار أميرا من أمراء الدولة .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة اشتد الغلاء بالبلاد المصرية لعدم زيادة النيل وتعذرت الأقوات حتى أكل الناس الميتة وأكل بعضهم بعضا ثم لحقتهم عليه وباء وموت كثير أفنى الناس . وفي شعبان منها تزلزلت الأرض بالموصل وديار الجزيرة كلها والشام ومصر وغيرها فأثرت في الشام آثارا قبيحة وخربت كثيرا من الدور بدمشق وحمص وحماة وانخسفت قرية من قرى بصرى وأثرت في الساحل الشامى أثرا كثيرا فاستولى الخراب على طرابلس وصور وعكا ونابلس وغيرها من القلاع ووصلت الزلزلة إلى بلاد الروم وكانت بالعراق يسيرة لم تهدم دورا . وفيها ولد بيغداد طملى له رأسان وذلك أن جبهته مفروقة بمقدار ما يدخل فيها ميل . وفي هذه السنة في شهر رمضان توفى أبو الفرج عبدالرحمن بن على بن الجوزى الحنبلى الواعظ بيغداد وتصانيفه مشهورة وكان كثيرا الوقيعة في الناس لاسيما في العلماء المخالفين لمذهبه والموافقين له وكان مولده سنة عشر وخمسة مائة وفيها أيضا توفى عيسى بن نصير النيرى الشاعر وكان حسن الشعر وله أدب وفضل وكان موته بيغداد وفيها توفى العماد أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن على بن محمود بن هبة الله بن أله (باللام

المشدة المضمومة) وهو العماد الكاتب الأصفهاني كتب لنور الدين محمود بن زنكي ولصلاح الدين يوسف ابن أيوب رضي الله عنهما وكان كاتباً مفلحاً قادراً على القول . وفيها جمع عبد الله بن حمزة العلوي المتغلب على جبال اليمن جموعاً كثيرة فيها اثنا عشر ألف فارس ومن الرجال ما لا يحصى كثرة وكان قد انضاف إليه من جند المعز بن إسماعيل بن سيف الإسلام طغديكين بن أيوب صاحب اليمن خوفانه وأيقنوا بملك البلاد واقتسموها وخافهم ابن سيف الإسلام خوفاً عظيماً فاجتمع قواد عسكر ابن حمزة ليلاً ليتفقوا على رأى يكون العمل بمقتضاه وكانوا إثنى عشر قائداً فنزلت عليهم صاعقة أهلكتهم جميعهم فأنى الخبر ابن سيف الإسلام في باقى الليلة بذلك فسار إليهم مجدداً فوقع بالهـمـكـر المجتمع فلم يثبتوا له وانهمزوا بين يديه ووضع السيف فيهم فقتل منهم ستة آلاف قتيل أو أكثر من ذلك وثبت ملكه واستقر أمره . وفيها وقع في بنى عزة بأرض الشراة بين الحجاز واليمن وباء عظيم وكانوا يسكنون في عشرين قرية فوق الوباء في ثمان عشرة قرية فلم يبق منهم أحد وكان الإنسان إذا قرب من تلك القرى يموت ساعة ما يقاربها فتحامها الناس وبقيت إبلهم وأغنمهم لا مانع لها وأما القرينتان الأخريان فلم يمت فيهما أحد ولا أحسوا بشيء مما كان فيه أولئك . (١)

(ثم دخلت سنة ثمان تسعين وخمسة مائة)

(ذكر ملك خوارزم شاه ما كان أخذه الغورية من بلاده) قد ذكرنا في سنة سبع وتسعين ملك غياث الدين وأخيه شهاب الدين ما كان لخوارزم شاه محمد بن تكش بخواسان ومرو ونيسابور وغيرها وعودهما عنها بعد أن أقطعا البلاد ومسير شهاب الدين إلى الهند فلما اتصل بخوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش عود العساكر الغورية عن خراسان ودخول شهاب الدين الهند أرسل إلى غياث الدين يعاتبه ويقول كنت أعتقد أن تخلف على بعدانى وأن تنصرفنى على الخطأ وترد منى عن بلادى فحيث لم تفعل فلا أقل من أن لا تؤذبنى وتأخذ بلادى والذي أريده أن تعيد ما أخذته منى إلى وإلا انتصرت عليك بالخطأ وغيرهم من الأتراك إن عجزت عن أخذ بلادى

(١) وفيها توفى الأمير بهاء الدين قراقوش الفحل الخصبى ؛ أحد كبار كتاب أمراء الدولة الصلاحية ، كان شهيداً شجاعاً فاتكاً ، تسلم القصر لما مات العاضد وعمر سور القاهرة محيطاً على مصر أيضاً ، وانتهى إلى المقسم وهو المكان الذى اقتسمت فيه الصحابة ما غنموا من الديار المصرية ؛ وبني قلعة الجبل ، وكان صلاح الدين سله عكا ليعمر فيها أما كن كثيرة فوق الحصار . وهو بها ، فلما خرج البدل منها كان هو من جملة من خرج ، ثم دخلها ابن المشطوب وقد ذكر أنه أسرف فأتى نفسه بعشرة آلاف دينار ، وعاد إلى صلاح الدين ففرح به فرحاً شديداً ، ولما توفى في هذه السنة احتاط العادل على تركته وصارت أقطاعه وأملاكه للملك الكامل محمد بن العادل . قال ابن خلكان : وقد نسب إليه أحكام عجيبة ، حتى صنف بعضهم جزءاً لطيفاً سماه كتاب الفاشوش في أحكام قراقوش ؛ فذكر أشياء كثيرة جداً ، وأظنها موضوعة عليه ؛ فإن الملك صلاح الدين كان يعتمد عليه فكيف يعتمد على من بهذه المذاهب والله أعلم . وفيها توفى مكلبة بن عبدالله المستجدى كان تركياً عابداً زاهداً ، سمع المؤذن وقت السحر ، وهو ينشد على المنارة :

يا رجال الليل جئوا • رب صوت لا يرد • ما يقوم الليل إلا • من له عزم وجد
فبكى مكابة ؛ وقال للمؤذن يا مؤذن زدنى ، فقال : قدمضى الليل وولى • وحببى قد تخللا

فصرخ مكلبة صرخة كان فيها حتفه ، فأصبح أهل البلد قد اجتمعوا على بابه فأسعده منهم من وصل إلى نعشه رحمه الله تعالى .

فإني إنما شغلني عن منعكم عنها الاشتغال بعزاء والدي وتقرير أمر بلادى وإلا فما أنا بما جز عنكم وعن أخذ بلادك خراسان وغيرها فغالطه غياث الدين في الجواب ثمهد الأيام بالمراسلات ويخرج أخوه شهاب الدين من الهند بالعساكر إن غياث الدين كان عاجز باستيلاء القرس عليه . فلما وقف خوارزم شاه على رسالة غياث الدين أرسل إلى علاء الدين الغورى نائب غياث الدين بخراسان يأمره بالرحيل عن نيسابور ويهدده إن لم يفعل فكتب علاء الدين إلى غياث الدين بذلك ويعرفه ميل أهل البلد إلى الخوارزميين فأعاد غياث الدين جوابه يقوى قلبه ويعدده النصر والمنع عنه وجمع خوارزم شاه عساكره وسار عن خوارزم نصف ذى الحجة سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، فلما قارب نسا وأبيورد هرب هندوخان ابن أخى ملك شاه من مرو إلى غياث الدين بفيروزكوه وملك خوارزم شاه مدينة مرو وسار إلى نيسابور ، وبها علاء الدين محصره وقاتله قتالا شديدا وطال مقامه عليها ورأسله غير مرة فى تسليم البلد إليه وهو لا يجيب إلى ذلك انظارا للدد من غياث الدين فبقى نحو شهرين فلما أبطأت عليه النجدة أرسل إلى خوارزم شاه يطلب الأمان لنفسه ولمن معه من الغورية وأنه لا يتعرض إليهم بحبس ولا غيره من الأذى فأجابه إلى ذلك وحلف لهم وخرجوا من البلد وأحسن خوارزم شاه إليهم ووصلهم بمال جليل وهدايا كثيرة وطلب من علاء الدين أن يسعى فى الصلح بينه وبين غياث الدين وأخيه فأجابه إلى ذلك وسار إلى هراة وفيها إقطاعه ولم يمض إلى غياث الدين تجنيا عليه لتأخر أمداده ولما خرج الغورية من نيسابور أحسن خوارزم شاه إلى الحسين بن خرمةيل وهو من أعيان أمرائهم زيادة على غيره وبالغ فى إكرامه فقيل إن من ذلك اليوم استخلفه لنفسه وأن يكون معه بعد غياث الدين وأخيه شهاب الدين ثم سار خوارزم شاه إلى سرخس وبها الأمير زنى فحصره أربعين يوما وجرى بين الفريقين حروب كثيرة فضاقت الميرة على أهل البلد لاسيما الحطب فأرسل زنى خوارزم شاه يطلب منه أن يتأخر عن باب البلد حتى يخرج هو وأصحابه ويترك البلد له فرأسله خوارزم شاه فى الاجتماع به ليحسب إليه وإلى من معه فلم يجبه إلى ذلك واحتج بقرب نسبه من غياث الدين فأبعد خوارزم شاه عن باب البلد بعساكره فخرج زنى فآخذ من الغلات وغيرها التى فى العسكر ما أراد لاسيما من الحطب وعاد إلى البلد وأخرج منه من كان قد ضاق به الأمر وكتب إلى خوارزم شاه (العود أحمد) فدم حيث لم ينفعه الندم ورحل عن البلد وترك عليه جماعة من الأمراء يحصرونه فلما أبعده خوارزم شاه سار محمد بن جربك من الطالقان وهو من أمراء الغورية وأرسل إلى زنى أمير سرخس يعرفه أنه يريد يكبس الخوارزميين لثلاثين عجم إذا سمع الغلبة ، وسمع الخوارزميون الخبر ففارقوا سرخس وخرج زنى ولقى محمد بن جربك وعسكرا فى مرو الروذ وأخذ أخرائجها وما يجاورها فسير إليهم خوارزم شاه عسكرا مع خاله فلقمهم محمد بن جربك وقاتلهم وحمل بلى فى يده على صاحب علم الخوارزمية فضره فقتله وألقى عليهم وكسر كوساتهم ، فأنقطع صوتها عن العسكر ولم يروا أعلاهم ، فانهزموا وركبهم الغورية قتلا وأسرا نحو فرسخين فكانوا ثلاثة آلاف فارس وابن جربك فى تسعمائة فارس وغنم جميع معسكرهم فلما سمع خوارزم شاه ذلك عاد إلى خوارزم وأرسل إلى غياث الدين فى الصلح فأجابه عن رسالته مع أمير كبير من الغورية يقال له الحسين بن محمد المرغنى و(مرغن) من قرى الغور فقبض عليه خوارزم شاه .

(ذكر حصر خوارزم شاه هراة وعوده عنها) لما أرسل خوارزم شاه إلى غياث الدين فى الصلح وأجابه عن رسالته مع الحسين المرغنى مفاطاة قبض خوارزم شاه على الحسين وسار إلى هراة ليحاصرها فكتب الحسين

(٢٣ - كامل - ٩)

إلى أخيه عمر بن محمد المرغني أمير هراة يخبره بذلك فاستعد للحصار وكان سبب قصد خوارزم شاه حصار هراة أن رجلين أخوين كان يخدم محمد سلطان شاه اتصلا بغياث الدين بعد وفاة سلطان شاه فأكرمهما غياث الدين وأحسن إليهما يقال لأحدهما الأمير الحاجي فكانا خوارزم شاه وأطعاه في البلد وضمنا له تسليمه إليه فسار لذلك ونازل المدينة وحصرها فسلم الأمير عمر المرغني أمير البلد مفاتيح الأبواب إليهما وجعلهما على القتال ثقة منه بهما وظنا منه أنهما عدوا خوارزم شاه تكش وابنه محمد بعده ، فاتفق أن بعض الخوارزمية أخبر الحسين المرغني عند خوارزم شاه بحال الرجلين وأنهما هما اللذان يدبران خوارزم شاه ويأمرانه بما يفعل فلم يصدقهما وأتاه بخط الأمير حاجي فأخذه وأرسله إلى أخيه عمر أمير هراة فأخذهما واعتقلهما وأخذ أصحابهما ثم إن ألب غازي وهو ابن أخت غياث الدين جاء في عسكر من الغورية فنزل على خمسة فراسخ من هراة فكان يمنع الميرة عن عسكر خوارزم شاه ثم إن خوارزم شاه سير عسكرا إلى أعمال الطالقان للغارة عليها فلقبهم الحسن بن جربك فقاتلهم فظفر بهم فلم يفلت منهم أحد وسار غياث الدين عن فيروزكوه إلى هراة في عسكره فنزل برباط رزين بالقرب من هراة ولم يقدم على خوارزم شاه لقله عسكره لأن أكثر عساكره كانت مع أخيه بالهند وغزوة فأقام خوارزم شاه على هراة أربعين يوما وعزم على الرحيل لأنه بلغه انهزام أصحابه بالطالقان وقرب غياث الدين وكذلك أيضا قرب ألب غازي وسمع أيضا أن شهاب الدين قد خرج من الهند إلى غزوة وكان وصوله إليها في رجب من هذه السنة يخاف أن يصل بعساكره فلا يمكنه المقام على البلد فأرسل إلى أمير البلد عمر المرغني فصالحه على مال حمله إليه وارتحل عن البلد وأما شهاب الدين فإنه لما وصل إلى غزوة بلغه الخبر بما فعله خوارزم شاه بخراسان وملكه لها فسار إلى خراسان فوصل إلى بلخ ومنها إلى باميان ثم إلى مرو عازما على حرب خوارزم شاه وكان نازلا هناك فالتقت أوائل عسكريهما واقتلوا قتالا شديدا فقتل من الفريقين خلق كثير ثم إن خوارزم شاه ارتحل عن مكانه شبه المهزم وقطع القناطر وقتل الأمير سنجر صاحب نيسابور لأنه انهمه بالخامرة عليه وتوجه شهاب الدين إلى طوس فأقام بهاتلك الشتوة على عزم المصير إلى خوارزم ليحصرها فأتاه الخبر بوفاة أخيه غياث الدين فقصد هراة وترك ذلك العزم .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة درس مجد الدين أبو علي يحيى بن الربيع الفقيه الشافعي بالنظامية ببغداد في ربيع الأول ، وفيها توفيت بنفسه جارية الخليفة المستنصر بأمر الله وكان كثير الميل إليها والمحبة لها وكانت كثيرة المعروف والإحسان والصدقة . وفيها أيضا توفي الخطيب عبد الملك بن زيد الدولعي خطيب دمشق وكان فقيها شافعيًا والدولية قرية من أعمال الموصل (١) .

(١) وفيها توفي القاضي بن الزكي : محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن عبد العزيز القرشي ، كان هو وأبوه وجده وأبو جده قضاة وهو أول من خطب بالقدس لما فتح ، ثم تولى قضاء دمشق وأضيف إليه قضاء حلب أيضا ، وكان ناظر أوقاف الجامع ، وعزل عنها قبل وفاته بشهور ، وولع بينه وبين الاسماعيلية فأرادوا قتله فانخذ له بابا من داره إلى الجامع ليخرج منه إلى الصلاة ، ثم إنه خولط في عقله ، فكان يعتريه شبه الصرع إلى أن توفي في شعبان من هذه السنة ، ودفن بترتبه بسفح قايسون . وفيها توفي الخطيب الدولعي ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك ابن زيد بن ياسين الثعلبي الدولعي ، نسبة إلى قرية بالموصل ، يقال لها الدولعي ، ولد بها في سنة ثمان هجر وخمسةائة .

(ثم دخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة)

(ذكر حصر العادل ماردين وصلحه مع صاحبها) في هذه السنة في المحرم سير الملك العادل أبو بكر بن أيوب صاحب دمشق ومصر عسكرا مع ولده الملك الأشرف موسى إلى ماردين فحصرها وشحنوا على أعمالها وانضاف إليه عسكر الموصل وسنجار وغيرهما ونزلوا بخرم تحت ماردين ونزل عسكر من قلعة البارعية وهي لصاحب ماردين يقطعون الميرة عن العسكر العادل فصار إليهم طائفة من العسكر العادل فاقتلوا فانهزم عسكر البارعية وثار التركان وقطعوا الطريق في تلك الناحية وأكثروا الفساد فتعذر سلوك الطريق إلا لجماعة من أرباب السلاح فصار طائفة من العسكر العادل إلى رأس العين لإصلاح الطرق وكف عادة الفساد وأقام ولد العادل ولم يحصل له غرض فدخل الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف صاحب حلب في الصلح بينهم وأرسل إلى عمه العادل في ذلك فأجاب إليه على قاعدة أن يحمل له صاحب ماردين مائة وخمسين ألف دينار لجاء صرف الدينار أحد عشر قيراطا من أميري ويخطب له بيلاده ويضرب اسمه على السكة ويكون عسكره في خدمته أي وقت طلبه وأخذ الظاهري عشرين ألف دينار من النقد المذكور وقرية القرادي من أعمال شيختان فرحل ولد العادل عن ماردين .

(ذكر وفاة غياث الدين ملك الغور وشيء من سيرته) في هذه السنة في جمادى الأولى توفي غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام الغوري صاحب غزنة وبعض خراسان وغيرها وأخفيت وفاته وكان أخوه شهاب الدين بطوس عازما على قصد خوارزم شاه فأتاه الخبر بوفاة أخيه فصار إلى هراة فلما وصل إليها جلس للعزاء بأخيه في رجب وأظهرت وفاته حينئذ وخلف غياث الدين من الولد ابنا اسمه محمود لقب بعد موت أبيه غياث الدين وسنورد من أخباره كثيرا ولما سار شهاب الدين من طوس استخلف بمرو الأمير محمد بن جربك فصار إليه جماعة من الأمراء الخوارزمية فخرج إليهم محمد ليلا وبينهم فلم ينج منهم إلا القليل وأنفذ الأسرى والرؤس إلى هراة فأمر شهاب الدين بالاستعداد لقصد خوارزم على طريق الرمل وجهاز خوارزم شاه جيشا وسيرهم مع برفور التركي إلى قتل محمد بن جربك فسمع بهم فخرج إليهم ولقيهم على عشرة فراسخ من مرو فاقتلوا قتالا شديدا قتل بين الفريقين خلق كثير وانهزم الغورية ودخل محمد بن جربك مرو في عشرة فرسان وجاء الخوارزميون فحصره خمسة عشر يوما فضعف عن الحفظ فأرسل في طلب الأمان فحلفوا له إن خرج إليهم على حكمهم أنهم لا يقتلونه فخرج فقتلوه وأخذوا كل مامعه وسمع شهاب الدين الخبر فعظم عليه وترددت الرسل بينه وبين خوارزم شاه فلم يستقر الصلح وأراد العود إلى غزنة فاستعمل على هراة ابن أخيه ألب غازي وفلك الملك علاء الدين محمد بن أبي علي الغوري على مدينة فيروزكوه وجعل إليه حرب خراسان وأمر كل ما يتعلق بالملسكة وأتاه محمد ابن أخيه غياث الدين فولاه مدينة بست وأسفرار وتلك الناحية وجعله بمعزل من الملك جميعه ولم يحسن الخلافة عليه بعدأيه ولا على غيره من أهله فن جملة فعله أن غياث الدين كانت له زوجة كانت مغنية فهويها وتزوجها فلما مات غياث الدين قبض عليها وضربها ضربا مبرحا وضرب ولدها غياث الدين وزوج اختها وأخذ أموالهم وأملاكهم وسيرهم إلى بلد الهند فكانوا في أقيح صورة وكانت قد بنت مدرسة ودفنت فيها أباهما وأخاهما فهدمها ونش قبر الموتى ورعى بعضهم منها وأما سيرة غياث الدين وأخلاقه فإيه كان

من سرخس إلى مرو فأقام بظاهرها فأعاد إليه شهاب الدين جوابه لعلمك تهزم كما فعلت تلك الدفعة لكن خوارزم
تجمعنا ففرق خوارزم شاه عساكره وأحرق ما جمعه من العلف ورحل يسابق شهاب الدين إلى خوارزم فسبقه
إليها فقطع الطريق وأجرى المياه فيها فنعذر على شهاب الدين سلوكها وأقام أربعين يوماً يصلحها حتى أمكنه
الوصول إلى خوارزم والنقى العسكران بسوقرا ومعناه الماء الأسود فجرى بينهم قتال شديد كثرت القتل في
بين الفريقين ومن قتل من الغورية الحسين المرغني وغيره وأسرجاعة من الخوارزمية فأمر شهاب الدين بقتلهم
فقتلوا وأرسل خوارزم شاه إلى الأتراك الخطا يتنجدهم وهم حينئذ أصحاب ماوراء النهر فاستمدوا وساروا إلى
بلاد الغورية فلما بلغ شهاب الدين ذلك عاد عن خوارزم فلقى أوائلهم في صحراء اندخوى أول صفر سنة إحدى
وستمئة فقتل فيهم وأسرا كثيراً فلما كان اليوم الثاني دهمه من الخطا ما لا طاقة له بهم فانهزم المسلمون هزيمة
قبيحة وبقي شهاب الدين في نفر يسير وقتل بيده أربعة أفيال لأنها أعيت وأخذ الكفار فيلين ودخل شهاب الدين
اندخوى فيمن معه وحصره الكفار ثم صالحوه على أن يعطيهم فيلا آخر ففعل وخلص ووقع الخبر في جميع
بلادهم بأنه قد عدم وكثرت الأراجيف بذلك ثم وصل إلى الطالقان في سبعة نفر وقد قتل أكثر عسكره ونهبت
خزائنه جميعها فلم يبق منها شيء فأخرج له الحسين بن خرميل صاحب الطالقان خياماً وجميع ما يحتاج إليه وسار
إلى غزنة وأخذ معه الحسين بن خرميل لأنه قيل له عنه أنه شديد الخوف لانهزامه وأنه قال إذا سار السلطان
هربت إلى خوارزم شاه فأخذه معه وجعله أمير حاجب ولما شاع الخبر بقتل شهاب الدين جمع تاج الدين الدز
وهو مملوك اشتراه شهاب الدين أصحابه وقصد قلعة غزنة ليصعد إليها فتمه مستحفظها فعاد إلى داره فأقام بها وأفسد الخلق
وسائر المفسدين في البلاد وقطعوا الطرق وقتلوا كثيراً فلما عاد شهاب الدين إلى غزنة بلغه ما فعله الدز فأراد قتله فشفع فيه
سائر المماليك فأطلقه ثم اعتذر وسار شهاب الدين في البلاد فقتل من المفسدين من تلك الأمم نفراً كثيراً وكان له أيضاً
مملوك آخر اسمه أيبك بالتر فسلم من المعركة ولحق بالهند ودخل المولتان وقتل نائب السلطان بها وملك البلد وأخذ
الأموال السلطانية وأساء السيرة في الرعية وأخذ أموالهم وقال قتل السلطان وأنا السلطان وكان يحمله على ذلك
ويحسنه له إنسان اسمه عمر بن يزان وكان زنديقاً ففعل ما أمره وجمع المفسدين وأخذ الأموال فأخاف الطريق
فبلغ خبره إلى شهاب الدين فسار إلى الهند وأرسل إليه عسكراً فأخذه ومعه عمر بن يزان فقتلها أقبج قتلة
وقتل من وافقهما في جمادى الآخرة من سنة إحدى وستمئة ولما رآهم قتلى قرأ (إنما جزاء الذين يحاربون الله
ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا) الآية وأمر شهاب الدين في جميع بلاده بالتجهز
لقتال الخطا وغزومهم والأخذ بثأرهم وقبل كان سبب انهزامه أنه لما عاد إلى الخطا من خوارزم فرق عسكره
في المفازة التي في طريقه لقلعة الماء وكان الخطا قد نزلوا على طرف المفازة فكلما خرج من أصحابه طائفة فتكروا
فيهم بالقتل والأسر ومن سلم من عسكره انهزم نحو البلاد ولم يرجع إليه أحد يعلم الحال وجاء شهاب الدين
في ساقية العسكر في عشرين ألف فارس ولم يعلم الحال فلما خرج من البرية لقيه الخطا مستريحين وهو ومن معه
قد تعبوا وأعيوا وكان الخطا أضداد أصحابه فقاتلهم عامة نهاره وحمى نفسه منهم وحصره في اندخوى فجرى
بينهم في عدة أيام أربعة عشر مصافاً منها مصاف واحد كان من العصر إلى بكرة الغد ثم إنه بعد ذلك سير طائفة
من عسكره ليلا سرا وأمرهم أن يرجعوا إليه بكرة كأنهم قد أتوه مدداً من بلاده فلما فعلوا ذلك خافه الخطا
قال لهم صاحب سمرقند وكان مسلماً وهو في طاعة الخطا وقد خاف على الإسلام والمسلمين إن هم ظفروا

بشهاب الدين فقال لم إن هذا الرجل لا نجد قط أضعف منه لما خرج من المفازة ومع ضعفه وأتبعه وقلة من معه لم نظفر به والإمداد آتته وكانكم بعساكره وقد أقبلت من كل طريق وحينئذ نطلب الخلاص منه فلا نقدر عليه والرأى لنا الصلح معه فأجابوا إلى ذلك فأرسلوا إليه في الصلح وكان صاحب سمرقند قد أرسل إليه وعرفه الحال سرا وأمره بإظهار الامتناع من الصلح أولا والإجابة إليه أخيرا فلما آتته الرسل امتنع وأظهر القوة بانتظار الإمداد وطال الكلام فاصطلحوا على أن الخطأ لا يعبرون الهرا إلى بلاده ولا يعبر إلى بلادهم ورجعوا عنه وخلص هو وعاد إلى بلاده والباقي نحو ما تقدم .

(ذكر قتل طائفة من الإسماعيلية بخراسان) في هذه السنة وصل رسول إلى شهاب الدين الغوري من عند مقدم الإسماعيلية بخراسان برسالة أنكرها فأمر علاء الدين محمد بن أبي علي متولى بلاد الغورية بالمسير إليهم ومحاصرة بلادهم فسار في عساكر كثيرة إلى قهستان وسمع به صاحب زوزن فقصدته وسار معه وفارق خدمة خوارزم شاه ونزل علاء الدين على مدينة قان وهي للإسماعيلية وحصرها وضيق على أهلها ووصل خبر قتل شهاب الدين على ما ذكره فصالح أهلها على ستين ألف دينار ركنية ورحل عنهم وقصد حصن كاخك فأخذه وقتل مقاتلة وسبي الذرية ورحل إلى هراة ومنها إلى فيروزكوه .

(ذكر ملك القسطنطينية من الروم) في هذه السنة في شعبان ملك الفرنج مدينة القسطنطينية من الروم وأزالوا ملك الروم عنها وكان سبب ذلك أن ملك الروم بها تزوج أخت ملك إفرنسيس وهو من أكبر ملوك الفرنج فرزق منها ولدا ذكرا ثم وثب على الملك أخ له فقبض عليه وملك البلد منه وسمل عينيه وسجنه فهرب ولده ومضى إلى خاله مستنصرا به على عمه فاتفق ذلك ، وقد اجتمع كثير من الفرنج ليخرجوا إلى بلاد الشام ، لا متفقا البيت المقدس فأخذوا ولد الملك معهم وجعلوا طريقهم على القسطنطينية قصدا لإصلاح الحال بينه وبين عمه ، ولم يكن له طمع في سوى ذلك فلما وصلوا خرج عمه في عساكر الروم محاربا لهم فوقع القتال بينهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وخمسمائة فانهزمت الروم ودخلوا البلد فدخله الفرنج معهم فهرب ملك الروم إلى أطراف البلاد ، وقيل إن ملك الروم لم يقابل الفرنج بظاهر البلد وإنما حصروه فيها وكان بالقسطنطينية من الروم من يريد الصبي فألقوا النار في البلد فاشتغل الناس بذلك ففتحو بابا من أبواب المدينة فدخلها الفرنج وخرج ملكها هاربا وجعل الفرنج الملك في ذلك الصبي وليس له من الحكم شيء وأخرجوا أباه من السجن إنما الفرنج هم الحكم في البلد فقلوا البوطة على أهله وطلبوا منهم أموالا عجزوا عنها وأخذوا أموال البيع وما فيها من ذهب ونقرة وغير ذلك حتى ما على الصليان وهو على صورة المسيح عليه السلام والحواريين وما على الأناجيل من ذلك أيضا فعظم ذلك على الروم وحملوا منه خطبا عظيما فعمدوا إلى ذلك الصبي الملك فقتلوه وأخرجوا الفرنج من البلد وأغلقوا الأبواب واستحضروا الملك وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ستماية فأقام الفرنج بظاهرة محاصرين للروم وقتلهم ولازموا قتالهم ليلا ونهارا وكان الروم قد ضعفوا ضعفا كثيرا فأرسلوا إلى السلطان ركن الدين سليمان بن قلع أرسلان صاحب قونية وغيرها من البلاد يستنجدونه فلم يجد إلى ذلك سبيلا وكان بالمدينة كثير من الفرنج مقيمين يقاربون ثلاثين ألفا ولعظم البلد لا يظهر أمرهم فتواضعوا هم والفرنج الذين يظاهر البلد ووثبوا فيه وألقوا النار مرة ثانية فاحترق نحو ربع البلد وفتحو الأبواب فدخلوها ووضعوا السيف ثلاثة أيام وفتكوا بالروم قتلا ونهبيا فأصبح الروم كلهم ما بين قتيل أو فقير لا يملك شيئا ودخل جماعة

من أعيان الروم الكنيسة العظمى التي تدعى سوفيا فجاء الفرنج إليها فخرج إليهم جماعة من القسيسين والأساقفة والرهبان بأيديهم الإنجيل والصليب يتوسلون بها إلى الفرنج ليقبوا عليهم فلم يلتفتوا إليهم وقتلوا جميعهم ونهبوا الكنيسة وكأوا ثلاثة ملوك دوقس البنادقة وهو صاحب المراكب البحرية وفي مراكبه ركبوا إلى القسطنطينية وهو شيخ أعمى إذا ركب تقاد فرسه والآخر يقال له المراكيس وهو مقدم الإفرنسيس والآخر يقال له كند أفند وهو أكثرهم عددا ، فلما استولى القسطنطينية اقترعوا على الملك فخرجت القرعة على كند أفند فأعادوا القرعة ثانية وثالثة فخرجت عليه فلكوه والله يؤتى ملكه من يشاء وينزعه من يشاء فلما خرجت القرعة عليه ملكوه عليها وعلى ما يجاورها وتكون لدوقس البنادقة الجزائر البحرية مثل جزيرة إقريطش وجزيرة رودس وغيرها ويكون لمراكيس الإفرنسيس البلاد التي هي شرقي الخليج مثل أزيق ولاذيق فلم يحصل لأحد منهم شيء غير الذي أخذ القسطنطينية وأما الباقي فلم يلم من به من الروم ، وأما البلاد التي كانت لملك القسطنطينية شرقي الخليج المجاورة لبلاد ركن الدين سليمان بن قلع أرسلان ومن جملتها أزيق ولاذيق فإنها تغلب عليها بطريق الروم اسمه لشكري وهي بيده إلى أن توفي .

(ذكر انهزام نور الدين صاحب الموصل من العساكر العادلية) في هذه السنة في العشرين من شوال انهزم نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل من العساكر العادلية وسبب ذلك أن نور الدين كان بينه وبين عمه قطب الدين محمد بن زنديكي صاحب سنجار وحشة مستحكمة أولا فاتفقا وسارمعه إلى ميفارقين سنة خمس وتسعين وقد ذكرناه فلما كان الآن أرسل الملك العادل أبو بكر بن أيوب صاحب مصر ودمشق وبلاد الجزيرة إلى قطب الدين واستماله فقال إليه وخطب له فلما سمع نور الدين ذلك سار إلى مدينة نصيبين سلخ شعبان وهي لقطب الدين فحصرها وملك المدينة وبقيت القلعة فحصرها عدة أيام فبينما هو يحاصرها وقد أشرف على أن يتسلها أتاه الخبر أن مظفر الدين بوكبري زين الدين على صاحب إربل قد قصد أعمال الموصل فذهب نينوى وأحرق خلالها فلما بلغه ذلك من نائبه المرتب بالموصل يحفظها سار عن نصيبين إلى الموصل على عزم العبور إلى بلد إربل ونهجه جزاء بما فعل صاحبها ببلده فوصل إلى مدينة بلد وعاد مظفر الدين إلى بلده وتحقق نور الدين أن الذي قيل له وقع فيه زيادة فسار إلى تل أعفر من بلد وهي لصاحب سنجار وحصرها وأخذها ورتب أمورها وأقام عليها سبعة عشر يوما ، وكان الملك الأشرف موسى بن الملك العادل بن أيوب قد سار من مدينة حران إلى رأس عين نجدة لقطب الدين صاحب سنجار ونصيبين وقد اتفق هو ومظفر الدين صاحب إربل وصاحب الحصن وأمد صاحب جزيرة ابن عمر وغيرهم على ذلك وعلى منع نور الدين من أخذ شيء من بلاده وكلهم خائفون منه ولم يمكنهم الاجتماع وهو على نصيبين فلما فارقها نور الدين سار الأشرف إليها وأتاه أخوه نجم الدين صاحب ميفارقين وصاحب الحصن وصاحب الجزيرة وصاحب دارا وساروا عن نصيبين نحو بلد البقعا قريبا من بوشري وسار نور الدين من تل أعفر إلى كفر زمار وعزم على المطاولة ليتفرقا فأتاه كتاب من بعض مماليكه يسمى جرديك وقد أرسله يتجسس أخبارهم فيقللهم في عينه ويعلمهم فيهم ويقول إن أذنت لي لقبهم بمفردى فسار حينئذ نور الدين إلى بوشري فوصل إليها من الغد الظهر وقد تعبت دوابه وأصحابه ولقوا شدة من الحر فنزل بالقرب منهم أقل من ساعة ، وأتاه الخبر أن عساكر الخصم قد ركبوا فركب هو وأصحابه وساروا نحوهم فلم يروا لهم أثرا فعاد إلى خيامه ونزل هو وعساكره وتفرق كثير منهم في القرى لتحصيل العلفات وما يحتاجون إليه فجاءه

من أخبره بحركة الخصم وقصده فركب نور الدين وعسكره وتقدموا إليهم وبيد منهم نحو فرسخين فوصلوا وقد زاد قبيهم والخصم مستريح فالتقوا واقتتلوا فلم يطل الحرب بينهم حتى انهزم عسكر نور الدين وانهزم هو أيضا وطلب الموصل فوصل إليها في أربعة أنفس وتلاحق الناس وأتى الأشرف ومن معه فنزلوا في كافر زمار ونهبوا البلاد سببا قبيحا وأهلكوا ما لم يصلح لهم لاسيما مدينة بلد قباهم أخشوا في نهبها ومن أعجب ما سمعنا أن امرأة كانت تطبخ فرأت الهب فألقت سوارين كانتا في يديها في النار وهربت فجاء بعض الجند ونهب ما في البيت فرأى فيه بيضا فأخذه وجعله في النار ليا كلة فحرك فرأى السوارين فيها فأخذهما وطال مقامهم والرسول تتردد في الصلح فوقف الأمر على إعادة تل أعفر ويكون الصلح على القاعدة الأولى وتوقف نور الدين في إعادة تل أعفر فلما طال الأمر سلبها إليهم واصطلحوا أوائل سنة إحدى وستمائة وتفرقت العساكر من البلاد .

(ذكر خروج الفرنج بالشام إلى بلاد الإسلام والصلح معهم) في هذه السنة خرج كثير من الفرنج في البحر إلى الشام وسهل الأمر عليهم بذلك للملكهم قسطنطينية وارسو بعكا وعزموا على قصد البيت المقدس حرسه الله واستنقذه من المسلمين فلما استراحوا بعكا ساروا فنهبوا كثيرا من بلاد الإسلام بنواحي الأردن وسبوا وقتلوا في المسلمين وكان الملك العادل بدمشق فأرسل في جمع العساكر من بلاد الشام ومصر وسار فنزل عند الطور بالقرب من عكا لمنع الفرنج من قصد بلاد الإسلام ونزل الفرنج بمرج عكا وأغاروا على كفر كنا فأخذوا كل من بها وأموالهم والأمراء يحثون العادل على قصد بلادهم ونهبها فلم يفعل فبقوا كذلك إلى أن انقضت السنة وذلك سنة إحدى وستمائة فاصطلم هو والفرنج على دمشق وأعمالها ومايد العادل من الشام ونزل لهم عن كثير من المناصيفات في الرملة وغيرها وأعطاهم ناصرة وغيرها وسار نحو الديار المصرية فقصد الفرنج مدينة حماة فلقبهم صاحبها ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فقاتلهم وكان في قلة فهزموه إلى البلد فخرج العامة إلى قتالهم فقتل الفرنج منهم جماعة وعاد الفرنج .

(ذكر قتل كوكجة ببلاد الجبل وولاية أيتغمش) قد ذكرنا قبل تغلب كوكجة بملوك البهلوان على الري وهمذان وبلاد الجبل وبقي الآن وكان قد اصطنع مملوكا آخر كان للبهلوان اسمه أيتغمش وقدمه وأحسن إليه ووثق به فجمع أيتغمش الجموع من المماليك وغيرهم ثم قصد كوكجة فتصافا واقتتل الفريقان ، فقتل كوكجة في الحرب واستولى أيتغمش على البلاد وأخذ معه أوزبك بن البهلوان له اسم الملك وأيتغمش هو المدبر له والقيم بأمر المملكة وكان شهما شجاعا ظالما وكان كوكجة عادلا حسن السيرة رحمه الله

(ذكر وفاة ركن الدين بن قلع أرسلان وملك ابنه بعده) وفي هذه السنة سادس ذى القعدة توفي ركن الدين سليمان بن قلع أرسلان بن مسعود بن قلع أرسلان بن سليمان بن قتلش بن سلجوق صاحب ديار الروم ما بين ملطية وقونية وكان موته بمرض القولنج في سبعة أيام وكان قبل مرضه بخمسة أيام قد غدر بأخيه صاحب أنكورية وتسمى أيضا أنقرة وهي مدينة منيعة وكان مشاققا لركن الدين فحصره عدة سنين حتى ضعف وقلت الأقوات عنده فأذعن بالتسليم على عوض يأخذه فعوضه قلعة في أطراف بلده وحلف له عليها فنزل أخوه عن مدينة أنقرة وسلبها ومعه ولدان له فوضع ركن الدين عليه من أخذه وأخذ أولاده معه فقتله فلم يمض غير خمسة أيام حتى أصابه القولنج فسات واجتمع الناس بعده على ولده قلع أرسلان وكان صغيرا فبقي في الملك إلى بعض سنة إحدى وستمائة وأخذ منه على ما ذكره هناك وكان ركن الدين شديدا على الأعداء فيما بأمر الملك إلا أن

الناس كانوا ينسبون إلى فساد الاعتقاد كان يقال إنه يمتد أن مذهبه مذهب الفلاسفة وكان كل من يرمى بهذا المذهب يأوئى إليه ولهذه الطائفة منه إحسان كثير إلا أنه كان عاقلاً فلا يحب ستر هذا المذهب لئلا ينفر الناس عنه به حكى لي عنه أنه كان عنده إنسان وكان يرمى بالزندقة ومذهب الفلاسفة وهو قريب منه فحضر يوماً عنده فقيه فتناظرا فأظهر شيئاً من اعتقاد الفلاسفة فقام الفقيه إليه ولطمه وشتمه محضرة ركن الدين، وركن الدين ساكت وخرج الفقيه فقال لركن الدين يجرى على مثل هذا في حضرتك ولا تنكره فقال لو تكلمت لقتلنا جميعاً ولا يمكن إظهار ما تريده أنت .

(ذكر قتل الباطنية بواسط) في هذه السنة في رمضان قتل الباطنية بواسط وسبب كونهم بها وقتلهم أنه ورد إليها رجل يعرف بالركم محمد بن طالب بن عصية وأصله من القاروب من قرى واسط وكان باطنياً ملحداً ونزل مجاوراً لدور بني الهروي وغشيه الناس وكثر أتباعه وكان ممن يغشاه رجل يعرف بحسن الصابوني فاتفق أنه اجتاز بالسويقة فكلمه رجل نجار في مذهبهم فرد عليه الصابوني رداً غليظاً فقام إليه النجار وقتله وتسامع الناس بذلك فوثبوا وقتلوا من وجدوا ممن ينتسب إلى هذا المذهب وقصدوا دار ابن عصية وقد اجتمع إليه خلق من أصحابه وأغلقوا الباب وصعدوا إلى سطحها ومنعوا الناس عنهم فصعدوا إليهم من بعض الدور من على السطح وتحصن من بقي في الدار بإغلاق الأبواب والمارق فكسروها ونزلوا فقتلوا من وجدوا في الدار وأحرقوا وقتل ابن عصية وفتح الباب وهرب منهم فقتلوا وبلغ الخبر إلى بغداد وانحدر فخر الدين أبو البدر بن أمسينا الواسطي لإصلاح الحال وتسكين الفتنة .

(ذكر استيلاء محمود على مرباط وغيرها من حضرموت) في هذه السنة استولى إنسان اسمه محمود بن محمد الحميري على مدينة مرباط وظفار وغيرها من حضرموت وكان ابتداء أمره أنه له مركب يكرهه في البحر للتجارة ثم وزر لصاحب مرباط وفيه كرم وشجاعة وحسن سيرة فلما توفي صاحب مرباط ملك المدينة بعده وأطاعه الناس محبة له لكرمه وسيرته ودامت أيامه بها فلما كان سنة تسع عشرة وستمائة خرب مرباط وظفارا وبني مدينة جديدة على ساحل البحر بالقرب من مرباط وعندهما عين عذبة كبيرة أجراها إلى المدينة وعمل عليها سوراً وخندقاً وحصنها وسماها الأحمدية وكان يحب الشعر ويكثر الجائزة عليه .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة خرج أسطول من الفرنج إلى الديار المصرية فهبوا مدينة فوة وأقاموا خمسة أيام يسبون وينهبون وعساكر مصر مقابلهم بينهم النيل ليس لهم وصول إليهم لأنهم لم تكن لهم سفن . وفيها كانت زلزلة عظيمة عمّت أكثر البلاد مصر والشام والجزيرة وبلاد الروم وصقلية وقبرس ووصلت إلى الموصل والعراق وغيرها وخربت من مدينة صور سورها وأثرت في كثير من الشام . وفيها في رجب اجتمع جماعة من الصوفية برباط شيخ الشيوخ ببغداد وفيهم صوفي اسمه أحمد بن إبراهيم الداري من أصحاب شيخ الشيوخ عبدالرحيم بن اسماعيل رحيم الله ومعهم مغلبي يفتي بقول الشعر :

أعادلتى أقصرى • كفى بمشيبى عذل شباب كأن لم يكن • وشيب كأن لم يزل
وحق ليالى الوصال • وآخرها والأول • وصفرة لون الحب • عند استماع العذل

لئن عاد عيشى بكم • حلا العيش لي واتصل

فتحرك الجماعة عادة الصوفية في السماع وطرب الشيخ المذكور وتواجد ثم سقط مغشياً عليه فركوه فإذا

هو ميت فصل عليه ودفن وكان رجلا صالحا . وفيها توفي أبو الفتوح أسعد بن محمود العجلي الفقيه الشافعي بأصفهان في صفر وكان إماما فاضلا . وفي رمضان منها توفي قاضي هراة عمدة الدين الفضل بن محمود بن صاعد الساوي وولي بعده ابنه صاعد (١)

(ثم دخلت سنة إحدى وستائة)

(ذكر ملك كينخرو بن قلعج أرسلان بلاد الروم من ابن أخيه) في هذه السنة في رجب ملك غياث الدين كينخرو ابن قلعج أرسلان بلاد الروم التي كانت بيد أخيه ركن الدين سليمان وكان سبب ملك غياث الدين لها أن ركن الدين كان قد أخذ ما كان لأخيه غياث الدين وهو مدينة قونية فهرب غياث الدين منه وقصد الشام إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب فلم يجد عنده قبولا وقصر به فسار من عنده وتقلب في البلاد إلى أن وصل إلى القسطنطينية فأحسن إليه ملك الروم وأقطعه وأكرمه فأقام عنده وتزوج بابنة بعض البطارقة الكبار وكان لهذا الطريق قلعة من عمل القسطنطينية فلما ملك الفرنج القسطنطينية هرب غياث الدين إلى حيه وهو بقلعة فأنزله عنده وقال له نشترك في هذه القلعة وتفتح بدخلها فأقام عنده فلما مات أخوه سنة ستائة كاذرناه اجتمع الأمراء على ولده وخالفهم الأتراك الأوج وهم كثير بتلك البلاد وأنف من اتباعهم وأرسل إلى غياث الدين يستدعيه إليه ليلكم البلاد فسار إليه فوصل في جمادى الأولى اجتمع به وكثر جمعه وقصد مدينة قونية ليحصرها وكان ولد ركن الدين والعساكر بها فأخرجوا إليه طائفة من العسكر فلقوه فهزموه فبقى حيران لا يدري أين يتوجه فقصد بلدة صغيرة يقال لها أوكرم بالقرب من قونية فقدر الله تعالى أن أهل مدينة اقصرأ وثبوا على الوالي فأخرجوه منها ونادوا بشعار غياث الدين فلما سمع أهل قونية بما فعله أهل اقصرأ قالوا نحن

(١) وفيها توفي البناني الشاعر أبو عبد الله محمد بن المهنا الشاعر المعروف بالبناني، مدح الخلفاء والوزراء وغيرهم ومدح وكبر وعلت سنة ، وكان رقيق الشعر ظريفه قال :

ظلمنا ترى مغرما في الحب تزجره • وغيره بالهوى أمسيت تنكره
يا عاذل الصب لو عانيت قاتله • لو جنة وعذار كنت تعذره
أفدى الذي بسحر عينيه يعلمني • إذا تصدى لقتلي كيف أسهره
يستمتع الليل في نوم وأسهره • إلى الصباح وينساني وأذكره

وفيها توفي أبو سعيد الحسن بن خلد بن المبارك النصراني المارداني الملقب بالوحيد ، اشتغل في حدائمه بعلم الأوائل وأتقنه وكانت له يد طولى في الشعر الرائق ، فن ذلك قوله .

أتاني كتاب أنشأته أامل • حوت أبحرا من فيضها يفرق البحر
فواجبا أن التوت فوق طرسه • وما عودت بالبض أنمله العشر
وله أيضا لقد أثرت صدغاه في لون خده • ولا حاكفى من وراء زجاج
ترى عسكرا للروم في الريح مذبت • كطائفة تسعى ليوم هياج
أم الصبح بالليل الهميم موشح • حكى آبنوساً في صحيفة عاج
لقد غار صدغاه على ورد خده • فسيجه من شعره بسياج

أولى بفعل هذا لأنه كان حسن السيرة فيهم لما كان ملكهم فنادوا باسمه أيضا وأخرجوا من عندهم واستدعوه فحضر عندهم وملك المدينة وقبض ابن أخيه ومن معه وآتاه الله الملك وجمع له البلاد جميعها في ساعة واحدة فبجحان من إذا أراد أمرا هيا أسبابه وكان أخوه قيصر شاه الذي كان صاحب ملطية لما أخذها ركن الدين منه سنة سبع وتسعين خرج منها وقصد الملك العادل أما بكر بن أيوب لأنه كان زوج ابنته مستنصرا به فأمره بالمقام بمدينة الرها فأقام بها فلما سمع بملك أخيه غياث الدين سار إليه فلم يجد عنده قهولا إنما أعطاه شيئا وأمره بمفارقة البلاد فعاد إلى الرها وأقام بها فلما استقر ملك غياث الدين سار إليه الأفضل صاحب سيمساط فلقبه بمدينة قيسارية وقصده أيضا نظام الدين صاحب خرت برت وصار معه فعظم شأنه وقوى أمره .

(ذكر حصر صاحب آمد خرت برت ورجوعه عنها) كانت خرت برت لعباد الدين بن قرا أرسلان فبات وملكها بعده ابنه نظام الدين أبو بكر والتجأ إلى ركن الدين بن قلع أرسلان وبعده إلى أخيه غياث الدين ليمتنع به من ابن عمه ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان فامتنع به وكان صاحب آمد ملتجئا إلى الملك العادل وفي طاعته وحضر مع ابنه الملك الأشرف قتال صاحب الموصل على شرط أنه يسير معه عساكره ويأخذ له خرت برت وإنما طمع فيها بموت ركن الدين فلما دخلت هذه السنة طلب ما كان استقر الأمر عليه فسار معه الملك الأشرف وعساكر ديار الجزيرة من سنجار وجزيرة ابن عمر والموصل وغيرها وكان نزولهم عليها في شعبان وفي رمضان تسلموا ربضها وكان قد اجتمع بغياث الدين بعد أن ملك البلاد الرومية وصار معه في طاعته فلما نزل صاحب آمد على خرت برت خاطب صاحبها غياث الدين يستنجد به بعسكر يرحلهم عنه فجهز عسكرا كثيرا عدتهم ستة آلاف فارس وسيرهم مع الملك الأفضل صاحب سيمساط فلما وصل العسكر إلى ملطية فارق صاحب آمد ومن معه من خرت برت ونزلوا إلى الصحراء وحصروا البحيرة المعروفة ببحيرة سهنين وبها حصنان أحدهما لصاحب آمد والآخر لصاحب خرت برت فحصره وزاحفه ففتحه ثاني ذي الحجة ووصل صاحب خرت برت مع العسكر الرومي إلى خرت برت فرحل صاحب آمد عن البحيرة وقوى الحصن الذي فتحه فيها فأزاح علكه ورحل إلى خلف مرحلة ونزل وترددت الرسل والعسكر الرومي يطلب إعادة البحيرة وصاحب آمد يمتنع من ذلك فلما طال الأمر بقي الحصن بيد صاحب آمد وانفصل العسكران وعاد كل فريق إلى بلاده .

(ذكر الفتن ببغداد) في سابع عشر شعبان جرت فتنة ببغداد بين أهل باب الأزج وأهل المأمونية وسببها أن أهل باب الأزج قتلوا سبعا وأرادوا أن يطوفوا به فنعمهم أهل المأمونية فوقت الفتنة بينهما عند البستان الكبير فخرج منهم خلق كثير وقتل جماعة وركب صاحب الباب لتسكين الفتنة فجرح فرسه فعاد فلما كان الغد سار أهل المأمونية إلى باب الأزج فوقت بينهم فتنة شديدة وقاتل بالسيوف والنشاب واشتد الأمر فهبت الدور القريبة منهم وسعى الركن بن عبدالقادر ويوسف في تسكين الناس وركب الأتراك نصاروا يبيتون تحت المنظرة فامتنع أهل الفتنة من الاجتماع فسكنوا وفي العشرين منه جرت فتنة بين أهل قطفنا والقرية من محال الجانب الغربي بسبب قتل سبع أيضا أراد أهل قطفنا أن يجتمعوا ويطوفوا به فنعمهم أهل القرية أن يجرؤا به عندهم فاقتلوا وقتل بينهم عدة قتلى فأرسل إليهم عسكر من الديوان لتلافي الأمر ومنع الناس عن الفتنة فامتنعوا وفي تاسع رمضان كانت فتنة بين أهل سوق السلطان والجعفرية منشؤها أن رجلين من المحليين اختصما

وتوعد كل واحد منهما صاحبه فاجتمع أهل المحدثين واقتتلوا في مقبرة الجعفرية فسير اليهم من الديوان من تلافى الأمر وسكنه فلما كثرت الفتن رتب أمير كبير من مماليك الخليفة ومعه جماعة كثيرة فطاف في البلد وقتل جماعة ممن فيه شبهة فسكن الناس .

(ذكر غارة الكرج على بلاد الإسلام) في هذه السنة أغارت الكرج على بلاد الإسلام من ناحية أذربيجان فأكثروا العيث والفساد والنهب والسبي ثم أغاروا على ناحية خلاط من أرمينية فأوغلوا في البلاد حتى بلغوا ملاز كرد ولم يخرج اليهم أحد من المسلمين يمنهم فجاسوا خلال البلاد ينهبون ويأسرون وكلما تقدموا تأخرت عساكر المسلمين منهم ثم انهم رجعوا فآله تعالى ينظر إلى الإسلام وأهله ويبسر لهم من يحمي بلادهم ويحفظ ثغورهم ويغزو أعداءهم . وفيها أغارت الكرج على بلاد خلاط فأتوا إلى أرجيش ونواحها فنهبوا وسبوا وخرّبوا البلاد وساروا إلى حصن التين من أعمال خلاط وهو مجاور أذن الروم فجمع صاحب خلاط عسكره وسار إلى طغل شاه ولد قلع أرسلان صاحب أرنج الروم فاستنجده على الكرج فسير عسكره جميعه معه فتوجهوا نحو الكرج فلقوهم وتصافوا واقتتلوا فانهمزمت الكرج وقتل زكري الصغير وهو من أكابر مقدميهم وهو الذي كان مقدم هذا العسكر من الكرج والمقاتل بهم وغنم المسلمون مائتهم من الأموال والأسلحة والكراع وغير ذلك وقتلوا منهم خلقا كثيرا وأسروا كذلك وعاد إلى بلاده .

(ذكر الحرب بين أمير مكة وأمير المدينة) وفي هذه السنة أيضا كانت الحرب بين الأمير قتادة الحسيني أمير مكة وبين الأمير سالم بن قاسم الحسيني أمير المدينة ومع كل واحد منهما جمع كثير فاقتتلوا قتالا شديدا وكانت الحرب بذي الخليفة بالقرب من المدينة وكان قتادة قد قصد المدينة ليحصرها ويأخذها فلقبه سالم بعد أن قصد الحجره على ساكنها الصلاة والسلام فصلى عندها ودعا وسار فلقبه فانهمزمت قتادة وتبعه سالم إلى مكة فحصره بها فأرسل قتادة إلى من مع سالم من الأمراء فأفسدهم عليه فقالوا إليه وحالفوه فلما رأى سالم ذلك رحل عنه عائدا إلى المدينة وعاد أمر قتادة قويا .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في يوم الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة قطعت خطبة ولي العهد وأظهر خط قرئ بدار الوزير نصير الدين بن مهدي الرازي وإذا هو خط ولي العهد الأمير أبي نصر بن الخليفة إلى أبيه الناصر لدين الله أمير المؤمنين يتضمن العجز عن القيام بولاية العهد ويطلب الإقالة وشهد عدلان أنه خطه وأن الخليفة أقاله وعمل بذلك محضر شهد فيه القضاة والعدول والفقهاء . وفي هذه السنة ولدت امرأة ببغداد ولدأله رأسان وأربع أرجل وبدان ومات في يومه . وفيها أيضا وقع الحريق في خزانة السلاح التي للخليفة فاحترق فيها منه شيء كثير وبقيت النار يومين وسار ذكر هذا الحريق في البلدان فحمل الملوك من السلاح إلى بغداد شيئا كثيرا . وفي هذه السنة وقع الثلج بمدينة هراة أسبوعا كاملا فلما سكن جاء بعده سيل من الجبل من باب سرا خرب كثيرا من البلد ورمى من حصنه قطعة عظيمة وجاء بعده برد شديد أهلك الثمار فلم يكن بها تلك السنة شيء إلا اليسير . وفيها في شعبان خرج عسكر من الغورية مقدمهم الأمير زنكي بن مسعود إلى مدينة مرو فلقبهم نائب خوارزم شاه بمدينة سرخس وهو الأمير جقر وكن لهم كمينًا فلما وصلوا إليه هزمهم وأخذ وجوه الغورية أسرى فلم يفلت منهم إلا القليل وأخذ أميرهم زنكي أسيرا فقتل صبورا وعلقت رؤسهم بمرو أياما . وفيها في ذي القعدة سار الأمير حماد الدين مهر بن الحسين الغوري صاحب بلخ إلى مدينة

ترمز وهي الأتراك الخطا فافتتحها عنوة وجعل بها ولده الأكبر وقتل من بها من الخطا ونقل العلويين منها إلى بلخ وصارت ترمز دار إسلام وهي من أمنع الحصون وأقواها . وفيها توفي صدر الدين السجزي شيخ خاسكاه السلطان بهراة : وفيها في صفر توفي أبو علي الحسن بن محمد بن عبدوس الشاعر الواسطي وهو من الشعراء المجيدين واجتمعت به بالموصل ورددها مادحا لصاحبها نورالدين أرسلان شاه وغيره من المقدمين وكان نعم الرجل حسن الصحبة والعشرة . وفيها اجتمع ببغداد رجلا ن أهميان على رجل أعمى أيضا وقتلاه بمسجد طمعا أن يأخذا منه شيئا فلم يجدا معه ما يأخذانه وأدركهما الصباح فهربا من الخوف يريدان الموصل ورؤى الرجل مقتولا ولم يعلم قاتله فاتفق أن بعض اصحاب الشحنة اجتاز من الحريم في خصومة جرت فرأى الرجلين الضريين فقال لمن معه هذان اللذان قتلنا الأعمى يقوله مزحا فقال أحدهما هذا والله قتله فقال الآخر بل أنت قتله فأخذا إلى صاحب الباب فأقرأ فقتل أحدهما وصلب الآخر على باب المسجد الذي قتل فيه الرجل (١)

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وستمائة ﴾

﴿ ذكر الفتنة بهراة ﴾ في هذه السنة في المحرم نار العامة بهراة وجرت فيه فتنة عظيمة بين أهل السوقين الحدادين والصفارين قتل فيها جماعة ونهبت الأموال وخربت الديار فخرج أمير البلد ليكفهم فضربه بعض العامة بحجر ناله منه ألم شديد واجتمع الغوغاء عليه فرفع إلى القصر الفيروزي واختفى أياما إلى أن سكنت الفتنة ثم ظهر .

﴿ ذكر قتال شهاب الدين الغوري بنى كوكر ﴾ قد ذكرنا انهزام شهاب الدين محمد بن سام الغوري صاحب غزنة من الخطا الكفار وأن الخبر ظهر بيلاده أنه عدم من المعركة لم يقف أصحابه له على خير فلما اشتمر هذا الخبر نار المفسدون في أطراف البلاد وكان ممن أفسد دانيال صاحب جبل الجودي فإنه كان قد أسلم فلما بلغه الخبر ارتد عن الإسلام وتابع بنى كوكر ومساكنهم في جبال بين لهاور والمولتان حصينة منيعة وكانوا قد أطاعوا شهاب الدين وحملوا له الخراج فلما بلغهم خبر عدمه ناروا فيمن معهم من قبائلهم وعشائهم وأطاعهم صاحب جبل الجودي وغيره من القاطنين بتلك الجبال ومنعوا الطريق من لهاور وغيرها إلى غزنة فلما بلغ شهاب الدين من قتل مملوكه أيبك وقد ذكرناه أرسل إلى نائبه بلهاور والمولتان وهو محمد بن أبي علي يأمره

(١) وفيها توفي أبو الحسن علي بن عنتر بن ثابت الحلبي المعروف بشميم ، كان شيخا أديبا لغويا شاعرا جمع من شعره حماسة كان يفضلها على حماسة أبي تمام ، وله خمريات بزعم أنها أفضل من التي لأبي نواس . قال أبو شامة في الذيل : كان قليل الدين ذا حماقة ورقاعة وخلاعة ، وله حماسة ورسائل . قال ابن الساعي : قدم بغداد فأخذ النحو عن ابن الخشاب ، حصل منه طرفا صالحا ، ومن اللغة وأشعار العرب ، ثم أقام بالموصل حتى توفي بها . ومن شعره
لا تسرحن الطرف في مقل المها • فصارع الآجال في الآمال
كم نظرة أردت وما أخرت • يدكم قبلت أوان قتال
سحنت وما سمعت بتسليمة • وأغلال التحية فعلة المحتال

وله في التجنيس :

ليت من طول باك • أم ثواه • وثوابه • جعل العود إلى الزو • راء من بعض ثوابه
أثرى يوطئ الده • رثرى مسك ترابه • وأراني نور عيني • موطنًا لي وترى به

بحمل المال لسنة ستائة وسنة إحدى وستائة ليتجهز به لحرب الخطا فأجاب أن أولاد كوكر قد قطعوا الطريق ولا يمكنه إرسال المال وحضر جماعة من التجار وذكروا أن قفلا كبيرا أخذه أولاد كوكر ولم ينج منه إلا القليل فأمر شهاب الدين بملوكه أبيك مقدم عساكر الهند أن يرسل بنى كوكر يدعوهم إلى الطاعة ويهددهم إن لم يجيبوا ففعل ذلك فقال ابن كوكر لآي معنى لم يرسل السلطان إلينا رسولا فقال له الرسول وما قدركم أنتم حتى يرسل إليكم وإنما ملوكه يبصركم ورشدكم ويهددكم فقال ابن كوكر لو كان شهاب الدين حيا لراسلنا وقد كنا ندفع الأموال إليه فحيث عدم فقل لأبيك يترك لنا لهاوور وما والاها وفرشابور ونحن نصالحه فقال الرسول نفذ أنت جاسوسا تنق إليه يأتيك بخبر شهاب الدين من فرشابور فلم يصنع إلى قوله فرده فعاد وأخبر بما سمع ورأى فأمر شهاب الدين بملوكه قطب الدين أبيك بالعود إلى بلاده وجمع العساكر وقتال بنى كوكر فعاد إلى دهلي وأمر عساكره بالاستعداد فأقام شهاب الدين في فرشابور إلى نصف شعبان من سنة إحدى وستائة ثم عاد إلى غزوة فوصلها أول رمضان وأمر بالنداء في العساكر بالتجهز لقتال الخطا وأن المسير يكون أول شوال فتجهزوا لذلك فاتفق أن الشكايات كثرت من بنى كوكر وما يهددون من أخائه السبل وأنهم قد أنفذوا شحنة إلى البلاد ووافقهم أكثر الهنود وخرجوا من طاعة أمير لهاوور والمولنان وغيرهما ووصل كتاب الوالي يذكر ما قد دهمه منهم وأن عماله قد أخرجهم بنو كوكر وجبوا الخراج وأن ابن كوكر مقدمهم أرسل إليه ليرك له لهاوور والبلاد وإلا قتله ويقول له إن لم يحضر السلطان شهاب الدين بنفسه ومعه العساكر وإلا خرجت البلاد من يده وتحدث الناس بكثرة من معهم من الجموع وما لهم من القوة فتغير عزم شهاب الدين حينئذ عن غزو الخطا وأخرج خيامه وسار عن غزوة خامس ربيع الأول سنة اثنين وستائة فلما سار وأبعد انقطعت أخباره عن الناس بغزوة وفرشابور حتى أرجف الناس بانزاهه وكان شهاب الدين لما سار عن فرشابور أتاه خبر ابن كوكر أنه نازل في عساكره ما بين جبل وسودرة فجذ السير إليه فدمه قبل الوقت الذي كان يقدر وصوله فيه فافتلوا قتالا شديدا يوم الخميس لخمس بقين من ربيع الآخر من بكرة إلى العصر واشتد القتال فبينما هم في القتال وإذا قد أقبل قطب الدين أبيك في عساكره فنادوا بشعار الإسلام وحملوا حملة صادقة فانهزم الكوكرية ومن انضم إليهم وقتلوا بكل مكان وقصدوا أجمة هناك فاحتما بها وأضرموا نارا فكان أحدهم يقول لصاحبه لا تترك المسلمين يقتلونك ثم يلقى نفسه في النار فيلقى صاحبه نفسه بعده فيها فعمهم الفناء قتلا وحرقا فبعدا للقوم الظالمين وكان أهلهم وأموالهم معهم لم يفارقوها فغنم المسلمون منهم ما لم يسمع بمثله حتى إن الممالك كانوا يباعون كل خمسة بدينار ركنى ونحوه وهرب ابن كوكر بعد أن قتل إخوته وأهله، وأما ابن دانيال صاحب جبل الجودي فإنه جاء ليلا إلى قطب الدين أبيك فاستجار به فأجاره وشفع فيه إلى شهاب الدين فشفعه فيه وأخذ منه قلعة الجودي فلما فرغ منهم سار نحو لهاوور ليؤمن أهلها ويسكن روعهم وأمر الناس بالرجوع إلى بلادهم والتجهيز لحرب الخطا وأقام شهاب الدين بلهاوور إلى سادس عشر رجب وعاد نحو غزوة وأرسل إلى بهاء الدين سام صاحب باميان ليتجهز للسير إلى سمرقند ويعمل جسرا ليعبر هو وعساكره عليه .

(ذكر الظفر بالتيراهية) كان من جملة الخارجين المفسدين أيضا على شهاب الدين التيراهية فإنهم خرجوا إلى حدود سوران ومكرهان للغارة على المسلمين فأوقع بهم نائب تاج الدين الذي يملك شهاب الدين بتلك الناحية ويعرف بالخايجي وقتل منهم خلقا كثيرا وحمل رؤس المعروفين فعلقت ببلاد الإسلام وكانت فتنة هؤلاء

التیراہیۃ علی بلاد الإسلام عظیمة قدیما وحدیثا وكان إذا وقع بأيديهم أسیر من المسلمین عذبوه بأنواع العذاب وكان أهل فرشابور معهم فی ضرشدید لأنهم یحیطون بتك الولاية من جوانبها لاسیما آخر أيام سبكتکین فإن الملوك ضمهوا وقوی مؤلاء علیهم وكأوا یغیرون علی أطراف البلاد وكانوا كتمارا لادین لهم یرجمون إلیه ولا مذهب یعتمدون علیه إلا أنهم كانوا إذا ولد لأحدهم بنت وقف علی باب داره ونادی من یتزوج هذه من یقبلها فإن أجابه أحد تركها وإلا قتلها ویكون للمرأة عدة أزواج فإذا كان أحدهم عندها جعل مداسه علی الباب فإذا جاء غیره من أزواجها ورأى مداسه عاد ولم یزالوا كذلك حتی أسلم طائفة منهم آخر أيام شہاب الدین الغوری فكفروا عن البلاد وسبب إسلامهم أنهم أسروا إنسانا من فرشابور فعذبوه فلم یتمت ودامت أيامه عندهم فأحضره یوما بمقدمهم وسأله عن بلاد الإسلام وقال له لو حضرت أنا عند شہاب الدین ماذا كان یعطینی فقال له كان یمطیک الأموال والأقطاع ویرد إلیك حکم جمیع البلاد التي لكم فأرسله إلی شہاب الدین فی الدخول فی الإسلام فداد ومنعه رسول بالخلع والمنشور بالإقطاع فلما وصل إلیه الرسول سار هو وجماعة من أهله إلی شہاب الدین فأسلموا وعادوا وكان للناس بهم راحة فلما كانت هذه الفتنة واختلفت البلاد نزل أكثرهم من الجبال فلم یکن لهذه الطائفة بهم قدرة لیمنعوهم فأفسدوا وعملوا ما ذکرناه .

(ذکر قتل شہاب الدین الغوری) فی هذه السنة أول لیلۃ من شعبان قتل شہاب الدین أبوالمظفر محمد بن سام الغوری ملك غزوة وبعض خراسان بعد عودہ من لها وور بمنزل یقال له دیمك وقت صلاة العشاء وكان سبب قتله أن نفرا من الكفار الكوكریة لزموا عسكره عازمین علی قتله لما فعل بهم من القتل والأسر والسبی فلما كان هذه اللیلۃ تفرق عنه أصحابه وكان قد عاد ومعه من الأموال ما لا یحذفه كان عازما علی قصد الخطا والاستكثار من العساكر وتفريق المال فیهم وقد أمر عساكره بالهند باللحاق به وأمر عساكره الخراسانیة بالتجهز إلی أن یصل إلیهم (فأتاه الله من حیث لم یحتسب) ولم یغن عنه ما جمع من مال وسلاح ورجال لكن كان علی نية صالحة من قتال الكفار فلما تفرق عنه أصحابه وبقي وحده فی خركاه فثار أولئك النفر فقتل أحدهم بعض الحرس بیاب سرادق شہاب الدین فلما قتلوه صاح فثار أصحابه من حول السرادق لینظروا ما بصاحبهم فأخلوا مواقفهم وكثر الزحام فاغتنم الكوكریة غفلتهم عن الحفظ فدخلوا علی شہاب الدین وهو فی الخركاه فضربوه بالسكاكين اثنتین وعشرین ضربة فقتلوه فدخل علیه أصحابه فوجدوه علی مصلاه قتیلا وهو ساجد فأخذوا أولئك الكفار فقتلوه وكان فیهم اثنان مخنونان وقیل إلیما قتله الإسماعیلیة لأنهم خافوا خروجه إلی خراسان وكان له عسكر یحاصر بعض قلاعهم علی ما ذكرناه فلما قتل اجتمع الأمراء عند وزیره مؤید الملك ابن خوجاسجستان فتحالفوا علی حفظ الخزانة والملك ولزوم السكينة إلی أن یظهر من یتولاه وأجلسوا شہاب الدین وخیطوا جراحه وجعلوه فی المحفة وساروا به ورتب الوزير الأمور وسكن الناس بحیث لم ترق بحجة دم ولم یوجد فی أحد شیء وكانت المحفة محفوفة بالحشم والوزير والعسكر والشمسية علی حاله فی حیاته وتقدم الوزير إلی أمير دار العسكر بإقامة السیاسة وضبط العسكر وكانت الخزانة التي فی صحبته التي حمل وماتی حمل وشغل الغلبان الأتراك الصغار لینهبوا المال فنعمهم الوزير والأمراء الكبار من الممالیک وهو صونج صهر ألدز وغیره وأمروا كل من له إقطاع عند قطب الدین أیبك بملوك شہاب الدین ببلاد الهند بالعود إلیه وفرقوا فیهم أموالا كثيرة فدادوا وسار الوزير ومعه من له أقطاع وأهل بغزنة وعلموا أنه یكون من غیاب الدین

محمود بن غیاث الدین اخی شہاب الدین الاکبر و بین بہاء الدین صاحب بامیان و ہوا بن اخی شہاب الدین حروب شدیدہ و کان میل الوزير و الاثراک و غیرہم إلی غیاث الدین محمود و کان الامراء الغوریة یمیلون إلی بہاء الدین سام صاحب بامیان فأرسل کل طائفة إلی من یمیلون إلیہ یعرفونہ قتل شہاب الدین و جلبة الامور و جاء بعض المفسدین من اهل غزنة فقال للممالیک إن فخر الدین الرازی قتل مولا کم لانه هو أوصل من قتله فوضع من خوارزمشاہ قثاروا بہ لیقتلوه فہرب و قصد مؤید الملک الوزير فأعلمہ الحال فسیرہ سرا إلی مامنہ ولما وصل العسکر و الوزير إلی فرشابور اختلفوا فالغوریة یقولون نسیر إلی غزنة علی طریق مکرہان و کان غرضہم أن یقربوا من بامیان لیخرج صاحبہا بہاء الدین سام فیملک الخزانة قال الاثراک بل نسیر علی طریق سوران و کان مقصودہم أن یکنوا قریبا من تاج الدین الدز مملوک شہاب الدین و هو صاحب کرمان مدینة بین غزنة و لها وورد لیست بکرمان التي تجاور بلاد فارس لیحفظ الدز الخزانة و یرسلون من کرمان إلی غیاث الدین یستدعونہ إلی غزنة و یملکونہ و کثر بینہم الاختلاف حتی کادوا یقتلون مؤید الملک مع الغوریة حتی أذنوا لہ وللأثراک بأخذ الخزانة و المحفة التي فیہا شہاب الدین و المسیر إلی کرمان و ساروا ہم علی طریق مکرہان و لقی الوزير و من معہ مشقة عظيمة و خرج علیہم الامم الذین فی تلك الجبال التیراہیة و أوغان و غیرہم فناو امن أطراف العسکر إلی أن وصلوا إلی کرمان فخرج إلیہم تاج الدین الدز یستقبلہم فلما عین المحفة و فیہا شہاب الدین میتا نزل و قبل الأرض علی عادته فی حیاة شہاب الدین و کشف عنہ فلما رآہ میتا مزق ثیابہ و صاح و بکی فأبکی الناس و کان یوما مشهودا .

(ذکر مافعلہ الدز) کان الدز من أول ممالیک شہاب الدین و اکبرہم و أقدمہم و اکبرہم محلا عنده بحيث إن اهل شہاب الدین کانوا یخدمونہ و یقصدونہ فی أشغالہم فلما قتل صاحبہ طمع أن یملک غزنة فأول ما عمل أنه سأل الوزير مؤید الملک عن الآموال و السلاح و الدواب فأخبرہ بما خرج من ذلك و بالباقی معہ فأنکر الحال و أساء أدبہ فی الجواب و قال إن الغوریة قد کاتبوا بہاء الدین سام صاحب بامیان لیلکواہ غزنة و قد کتب إلی غیاث الدین محمود و هو مولای یا امرنی أننی لا أترك أحدا یقرب من غزنة و قد جعلنی نائبہ فیہا و فی سائر الولاية المجاورة لها لأنه مشغول بأمر خراسان و قال للوزير إنه قد امرنی أيضا أن أتسلم الخزانة منك فلم یقدر علی الامتناع لمیل الاثراک إلیہ فسلها إلیہ و سار بالمحفة و الممالیک و الوزير إلی غزنة فدفن شہاب الدین فی التربة بالمدرسة التي أنشأها و دفن ابنہ فیہا و کان وصولہ الیہا فی الثانی و العشرین من شعبان من السنة (ذکر بعض سیرة شہاب الدین) کان رحمہ اللہ شجاعا مقداما کثیر الغزو إلی بلاد الهند عادلا فی رعیتہ حسن السیرة فہم حاکما بینہم بما یوجبہ الشرع المطہر و کان القاضی بغزنة یحضر دارہ من کل أسبوع السبت و الأحد و الاثنین و الثلاثاء و یحضر معہ امیر حاجب و امیر دار و صاحب التربة فیحکم القاضی و أعجاب السلطان ینفذون أحكامہ علی الصغیر و الکبیر و الشریف و الوضیع و إن طلب أحد الخصوم الحضور عنده أحضرہ و سمع کلامہ و أمضى علیہ أولہ حکم الشرع فکانت الامور جاریة علی أحسن نظام (حکى عنہ) أنه لقیہ صبی علوی عمرہ نحو خمس سنین فدعا لہ و قال لی خمسة أيام ما أکلت شیئا فعاد من الرکوب لوقته و معہ الصبی فنزل فی دارہ و أطعم العلوئی أطیب الطعام بحضرته ثم أعطاه مالا بعد أن أحضر أباه و سلمہ إلیہ و فرق فی سائر العلویین مالا عظیما (و حکى) أن تاجرا من مراغہ کان بغزنة وله علی بعض ممالیک شہاب الدین دین مبلغہ عشرة آلاف (۳۵ - کامل - ۹)

دينار فقتل المملوك في حرب كانت له فرفع التاجر حاله فأمر بأن يقر أقطاع المملوك بيد التاجر إلى أن يستوفي دينه ففعل ذلك (وحكى عنه) أنه كان يحضر العلماء بحضرته فيتكلمون من المسائل الفقهية وغيرها وكان نخر الدين الرازي يعظ في داره فحضر يوما فوعظ وقال في آخر كلامه يا سلطان لا سلطانك يبقى ولا تلبس الرازي وأن مردنا إلى الله فبكى شهاب الدين حتى رحمة الناس لكثرة بكائه وكان رقيق القلب وكان شافعي المذهب مثل أخيه، قيل وكان حنфия والله أعلم.

(ذكر مسير بهاء الدين سام إلى غزنة وموته) لما ملك غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام باميان أقطعها ابن عمه شمس الدين محمد بن مسعود وزوجه أخته فأتاه منها ولد اسمه سام فبقي فيها إلى أن توفي وملك بعده ابنه الأكبر واسمه عباس وأمه تركية فغضب غياث الدين وأخوه شهاب الدين في ذلك وأرسلوا من أحضر عباسا عندهما فأخذ الملك منه وجعل ابن أخيهما سام ملكا على باميان وتلقب بهاء الدين وعظم شأنه ومحلته وجمع الأموال ليملك البلاد بعد خاله وأحبه أمراء الغورية حبا شديدا وعظموه فلما قتل خاله شهاب الدين سار بعض الأمراء الغورية إلى بهاء الدين سام فأخبره بذلك فلما بلغه قتله كتب إلى من بغزنة من الأمراء الغورية يأمرهم بحفظ البلد، ويعرفهم أنه على الطريق سائر إليهم وكان والى قلعة غزنة ويعرف بأبيردار وقد أرسل ولده إلى بهاء الدين سام يستدعيه إلى غزنة فأعاد جوابه أنه تجهز ويصل إليه ويعده الجليل والإحسان، وكتب بهاء الدين إلى علاء الدين محمد بن أبي علي ملك الغور يستدعيه إليه وإلى غياث الدين محمود بن غياث الدين وإلى ابن خرميل وإلى هراة يأمرهما بإقامة الخطبة له وحفظ ما بأيديهما من الأعمال ولم يظن أن أحدا يخالفه فأقام أهل غزنة ينتظرون وصوله أو وصول غياث الدين محمود والأتراك ويقولون لا نترك غير ابن سيدنا يعنون غياث الدين يدخل غزنة والغورية يتظاهرون بالميل إلى بهاء الدين ومنع غيره فسار من باميان إلى غزنة في عساكره ومعه ولداه علاء الدين محمود وجلال الدين فلما سار عن باميان مرحلتين وجد صداعا فزل يستريح ينتظر خفته عنه فازداد للصداع وعظم الأمر عليه فأيقن بالموت فأحضر ولديه وعهد إلى علاء الدين وأمرهما بقصد غزنة وحفظ مشايخ الغورية وضبط الملك وبالرفق بالرعايا وبذل الأموال وأمرهما أن يصلحا غياث الدين على أن يكون له خراسان وبلاد الغور ويكون لها غزنة وبلاد الهند.

(ذكر ملك علاء الدين غزنة وأخذها منه) لما فرغ بهاء الدين من وصيته، توفي فسار ولداه إلى غزنة فخرج أمراء الغورية وأهل البلد فلقوهما وخرج الأتراك معهم على كره منهم ودخلوا البلد وملكوه ونزل علاء الدين وجلال الدين دار السلطنة مستهل رمضان وكانوا قد وصلوا في ضروقة من العسكر وأراد الأتراك منعهم فنهزم مؤيد الملك وزير شهاب الدين لقاتهم ولاشتغال غياث الدين بابن خرميل وإلى هراة على ما ذكره فلم يرجعوا ولما استقروا بالقلعة ونزلا بدار السلطانية راحلها الأتراك بأن يخرجوا من الدار ولاقاتلوا ففرقا فيهم أموالا كثيرة واستحلفوا خلفوا واستبوا غياث الدين محمودا وأنفذا خلعا إلى تاج الدين الدز وهو بأقطاعه مع رسول وطلباه إلى طاعتهما وواعداه بالأموال والزيادة في الأقطاع وإمارة الجيش والحكم في جميع الممالك فأتاه الرسول فلقية وقد سار عن كرمان في جيش كثير من الترك والخلاج والغز وغيرهم فأبلغه الرسالة فلم يلتفت إليه وقال قل لها يعودان إلى باميان وفيها كفاية فإني قد أمرني مولاي غياث الدين أن أسير إلى غزنة وأمنعها عنها فإن عادا إلى بلدهما وإلا فعلت بهما وبين معهما ما بكرهون ورد مامعه من الهدايا والخلع

ولم يكن قصد الدز بهذا حفظ بيت صاحبه وإنما أراد أن يجعل هذا طريقا إلى ملك غزنة لنفسه فعاد الرسول وأبلغ علاء الدين رسالة الدز فأرسل وزيره وكان قبله وزير أبيه إلى باميان وبلغ وترمذ وغيرها من بلادهم ليجمع العساكر ويعود إليه فأرسل الدز إلى الأتراك الذين بغزنة يعرفهم أن غياث الدين أمره أن يقصد غزنة ويخرج علاء الدين وأخاه منها فحضروا عند وزير علاء الدين وطلبوا منه سلاحا ففتح خزانة السلاح فهرب ابن الوزير إلى علاء الدين وقال له قد كان كذا وكذا فلم يقدر أن يفعل شيئا وسمع مؤيد الملك وزير شهاب الدين فركب وأنكر على الخازن تسليم المفاتيح وأمره فاسترد ما نهبه الترك جميعه لأنه كان بطاعا فيهم ووصل الدز إلى غزنة فأخرج إليه علاء الدين جماعة من الغورية ومن الأتراك وفيهم صونج صهر الدز فأشار عليه أصحابه أن لا يفعل وينتظر العسكر مع وزيره فلم يقبل منهم وسير العساكر فالتقوا خامس رمضان فلما لقوه خدعه الأتراك وعادوا معه على عسكر علاء الدين فقاتلوهم فهزموهم وأسروا مقدمهم وهو محمد بن علي بن حردون ودخل عسكر الدز المدينة فنهوا بيوت الغورية والبامانية وحصر الدز القلعة فخرج جلال الدين منها في عشرين فارسا وسار عن غزنة فقالت له امرأة تستهزئ به إلى أين تمضي خذ الجتر والشمسة معك ما أقبح خروج السلاطين هكذا فقال لها إنك ستين ذلك اليوم وأفعل بكم ما تقرون به بالسلطنة لي وكان قد قال لأخيه احفظ القلعة إلى أن آتيك بالعساكر فبقى الدز يحاصرهما وأراد من مع الدز نهب البلد فنهام عن ذلك وأرسل إلى علاء الدين يأمره بالخروج من القلعة وتهده إن لم يخرج منها وترددت الرسل بينهما في ذلك فأجاب إلى مفارقتها والعود إلى بلده وأرسل من حلف له الدز أن لا يؤذيه ولا يعترض إليه ولا إلى أحد ممن يحلف له وسار عن غزنة فلما رآه الدز وقد نزل من القلعة عدل إلى تربة شهاب الدين مولاه ونزل إليها ونهب الأتراك ما كان مع علاء الدين وألقوه عن فرسه وأخذوا ثيابه وتركوه عريانا بسر أويله فلما سمع الدز ذلك أرسل إليه بدواب وثياب ومال واعتذر إليه فأخذ ما لبسه وترك الباقي فلما وصل إلى باميان لبس ثياب سواد وركب حمارا فأخرجوا له مراكب ملوكية وملابس جميلة فلم يركب ولم يلبس وقال أريد أن يراني الناس وما صنع بي أهل غزنة حتى إذا عدت إليها وخربتها ونهبتها لا يلومني أحد ودخل دار الإمارة وشرع في جمع العساكر.

(ذكر ملك الدز غزنة) قد ذكرنا استيلاء الدز على الأموال والسلاح والدواب وغير ذلك مما كان حجة شهاب الدين وأخذه من الوزير مؤيد الملك فجمع له العساكر من أنواع الناس الأتراك والخلج والغز وغيرهم وسار إلى غزنة وجرى له مع علاء الدين ما ذكرنا فلما خرج علاء الدين من غزنة أقام الدز بداره أربعة أيام يظهر طاعة غياث الدين إلا أنه لم يأمر الخطيب بالخطبة له ولا لغيره وإنما يخطب للخليفة ويترحم على شهاب الدين الشهيد حسب فلما كان في اليوم الرابع أحضر مقدمي الغورية والأتراك وذم من كاتب علاء الدين وأخاه وقبض على أمير دار والي غزنة فلما كان الغد وهو سادس عشر رمضان أحضر القضاة والفقهاء والمقدمين وأحضر أيضا رسول الخليفة وهو الشيخ مجد الدين أبو علي بن الربيع الفقيه الشافعي مدرس النظامية ببغداد وكان قد ورد إلى غزنة رسولا إلى شهاب الدين فقتل شهاب الدين وهو بغزنة فأرسل إليه والي قاضي غزنة يقول له إنني أريد أن أنتقل إلى الدار السلطانية وأن أخاطب بالملك ولا بد من حضورك والمقصود من هذا أن تستقر أمور الناس فحضر عنده فركب الدز والناس في خدمته وعاليه ثياب الحزن وجلس في الدار في غير مجلس كان يجلس فيه شهاب الدين فتغيرت لذلك نيات كثير من الأتراك لأنهم كانوا يطيعونه ظنا منهم

أنه يرير الملك لغياث الدين فحيث رآوه يريد الانفراد تغيروا عن طاعته حتى إن بعضهم بكى غيظا من فعله وأقطع الإقطاعات الكثيرة وفرق الأموال الجليلة وكان عند شهاب الدين جماعة من أولاد بلوك الغوروسمرقند وغيرهم فأنفوا من خدمة الدز وطلبوا منه أن يقصدوا خدمة غياث الدين وأخيه صاحب باميان وأرسل غياث الدين إلى الدز يشكره ويثني عليه لإخراج أولاد بهاء الدين من غزنة وسيرله الخلع وطلب منه الخطبة والسكة فلم يفعل وأعاد الجواب فغالطه وطلب منه أن يخاطبه بالملك وأن يمتقه من الرق لأن غياث الدين ابن أخي سيده لا وارث له سواه وأن يزوج ابنة الدز فلم يجبه إلى ذلك واتفق أن جماعة من الغوريين من عسكر صاحب باميان أغاروا على أعمال كرمان وسوران وهي أقطاع الدز القديمة فغنموا وقتلوا فأرسل صهره صونج في عسكر فلقوا عسكر الباميان فظفر بهم وقتل منهم كثيرا وأنفذ رؤسهم إلى غزنة فنصبت بها وأجرى الدز في غزنة رسوم شهاب الدين وفرق في أهلها أموالا جليلة المقدار وألزم مؤيد الملك أن يكون وزيرا له فامتنع من ذلك فألح عليه فأجابه على كره منه فدخل على مؤيد الملك صديق له يهته فقال بماذا تهنى من بعد ركوب الجواد بالحمار وأنشد :

ومن ركب الثور بعد الجوايه دانكر إطلاقه والغيب

بيننا الدز يأتي إلى بابي ألف مرة حتى آذن له في الدخول أصبح على بابي ولو حفظ النفس مع هؤلاء الأتراك لكان لي حكم آخر .

(ذكر حال غياث الدين بعد قتل عمه) وأما غياث الدين محمود بن غياث الدين فإنه كان في أقطاعه وهو بست واسفرار وكان الملك علاء الدين بن محمد بن علي قد ولاه شهاب الدين بلاد الغور وغيرها من أرض الراون فلما بلغه قتله سار إلى فيروزكوه خوفا أن يسبقه إليها غياث الدين فيملك البلد ويأخذ الخزائن التي بها وكان علاء الدين حسن السيرة من أكابر بيوت الغورية إلا أن الناس كرهوه لميلهم إلى غياث الدين وأبي الأمراء من خدمته مع وجود ولد غياث الدين سلطانهم ولأنه كان كراميا مغاليا في مذهبه وأهل فيروزكوه شافعية وألزمهم أن يجعلوا الإقامة مثنى فلما وصل إلى فيروزكوه أحضر جماعة من الأمراء منهم حمد المرغني وأخوه ومحمد بن عثمان وهم من أكابر الأمراء وحلفهم على مساعدته على قتال خوارزمشاه وبهاء الدين صاحب باميان ولم يذكر غياث الدين احتقارا له خلفوا له ولولده من بعده وكان غياث الدين بمدينة بست لم يتحرك في شيء انتظارا لما يكون من صاحب باميان لأنهما كانا قد تعاهدا أيام شهاب الدين أن تكون خراسان لغياث الدين وغزنة والهند لبهاء الدين وكان بهاء الدين أقوى فلماذا لم يفعل شيئا فلما بلغه خبر موت بهاء الدين ، جلس على التخت وخطب لنفسه بالسلطنة عاشر رمضان ، وحلف الأمراء الذين قصدوه وهم اسماعيل الخاجي وسونج أمير اشكار وزنكي بن خرجوم وحسين الغوري صاحب تكيا باذ وغيرهم وتلقب بألقاب أبيه غياث الدين ، وكتب إلى علاء الدين محمد بن أبي علي ، وهو بفيروزكوه يستدعيه إليه ويستعطفه ، ليصده عن رأيه ، ويسلم مملكته إليه ؛ وكتب إلى الحسين بن خرميل ، وإلى هراة مثل ذلك أيضا ، ووعده الزيادة في الإقطاع ، فأما علاء الدين فأغلظ له في الجواب ، وكتب إلى الأمراء الذين معه ، يتهددم فرحل غياث الدين إلى فيروزكوه فأرسل علاء الدين عسكرا مع ولده وفرق فيهم مالا كثيرا وخلع عليهم لينعوا غياث الدين فلقوه قريبا من فيروزكوه فلما تراهي الجمعان كشف اسماعيل الخاجي المغفر عن وجهه وقال الحمد لله

أن الأتراك الذين لا يعرفون آباءهم لم يضيعوا حق التربية وردوا ابن ملك باميان وأنتم مشايخ الغورية الذين أنعم عليكم والد هذا السلطان ورباكم وأحسن إليكم كهرتم الإحسان وجتمتم تقالمون ولده أهذا فعل الأحرار فقال محمد المرغني وهو مقدم العسكر الذين يصعدون عن رايه لا والله ثم ترجل عن فرسه وألقى سلاحه وقصد غياث الدين وقبل الأرض بين يديه وبكى بصوت عال وعجل سائر الأمراء كذلك فانهزم أصحاب علاء الدين مع ولده فلما بلغه الخبر خرج عن فيروزكوه هاربا نحو الغور وهو يقول أنا أمشي أجاور بمكة فأنفذ غياث الدين خلفه من رده إليه فأخذه وحبسه ومثلك فيروزكوه وفرح به أهل البلد وقبض غياث الدين على جماعة من أصحاب علاء الدين الكرامية وقتل بعضهم ولما دخل غياث الدين فيروزكوه ابتداء بالجامع فصلى فيه ثم ركب إلى دار أبيه فسكنها وأعاد رسوم أبيه واستخدم حاشيته وقدم عليه عبد الجبار بن محمد الكيراني وزير أبيه واستوزره وسلك طريق أبيه في الإحسان والعدل ، ولما فرغ غياث الدين من علاء الدين لم يكن له همة إلا ابن خرميل بهراة واجتذابه إلى طاعته فكانه وراسله واتخذة أبا واستدعاه إليه وكان ابن خرميل قد بلغه موت شهاب الدين ثامن رمضان فجمع أعيان الناس معهم قاضي هراة صاعد بن الفضل النيسابوري وعلي بن عبد الخلاق بن زياد مدرس النظامية بهراة وشيخ الإسلام رئيس هراة ونقيب العلويين ومقدمي المحال وقال لهم قد بلغني وفاة السلطان شهاب الدين وأنا في نحو خوارزمشاه وأخاف الحصار وأريد أن نخرجوا إلى علي المساعدة على كل من نازعني فأجابه القاضي وابن زياد بأننا نخاف على كل الناس إلا ولد غياث الدين فخذ عليهم فلما وصل كتاب غياث الدين خاف ميل الناس إليه فغالطه في الجواب وكان ابن خرميل قد كاتب خوارزمشاه يطلب منه أن يرسل إليه عسكري ليصير في طاعته ويمتنع به على الغورية فطلب منه خوارزمشاه إنفاذ ولده رهينة ويرسل إليه عسكريا فيسير إلى خوارزمشاه فكتب خوارزمشاه إلى عسكريه الذين بنيسابور وغيرها من بلاد خراسان يأمرهم بالتوجه إلى هراة وأن يكونوا يتصرفون بأمر ابن خرميل ويمثلون أمره هذا ، وغياث الدين يتابع الكتب إلى ابن خرميل وهو يحتاج بشيء بعد شيء انتظارا لعسكر خوارزمشاه ولا يؤيسه من طاعته ولا يخطب له ويهطيه طاعة غير مستوية ثم إن الأمير علي بن أبي علي صاحب كالوين أطلع غياث الدين على حال ابن خرميل فعزم غياث الدين على التوجه إلى هراة فشبته بهض الأمراء الذين معه وأشاروا عليه بانتظار آخر أمره وترك محافقته واستشار ابن خرميل القاضي في أمر غياث الدين ، فقال له علي بن عبد الخلاق بن زياد مدرس النظامية بهراة وهو متولى وقوف خراسان التي بيده للغورية جميعها ينبغي أن نخطب للسلطان غياث الدين وتترك المغالطة إنني أخاف على نفسي فامض أنت وتوثق لي منه وكان قصده أن يبعده عن نفسه فمضى برسائله إلى غياث الدين وأطلعه على ما يريد ابن خرميل يفعل من الغدر به والميل إلى خوارزمشاه وحثه على قصد هراة وقال له أنا أسلمها إليك ساعة تصل إليها ووافق بعض الأمراء وخالفه غيرهم وقال ينبغي أن لا تترك له حجة فترسل إليه تقليدا بولاية هراة ففعل ذلك وسيره مع ابن زياد وبعض أصحابه ثم إن غياث الدين كاتب أميران بن قيصر صاحب الطالقان يستدعيه إليه فتوقف وأرسل إلى صاحب مرو ليسير إليه فتوقف أيضا فقال له أهل البلد إن لم تسلم البلد إلى غياث الدين وتوجه وإلا سليناك وقيدناك وأرسلناك إليه فاضطر إلى المجيء إلى فيروزكوه فخلع عليه غياث الدين وأقطعته إقطاعات شتى وأقطع الطالقان سونج مملوك أبيه المعروف بأمر اشكار .

(ذكر استيلاء خوارزمشاه على بلاد الغورية بخراسان) قد ذكرنا مكاتبة الحسين بن خرميل والى هراة

خوارزمشاه ومراسلته في الانتماء اليه والطاعة له وترك طاعة الغورية وخداه لغياث الدين ومغالطته له بالخطبة له والطاعة انتظاراً لوصول عسكر خوارزمشاه ووصول رسول غياث الدين وابن زياد بالخطبة فقال يوم الجمعة نخطب له فاتفق قرب عسكر خوارزمشاه منهم فلما كان يوم الجمعة قيل له في معنى الخطبة فقال نحن في شغل أهم منها بوصول هذا العدو فطالت المجادلات بينهم في ذلك وهو مصر على الامتناع منها ووصل عسكر خوارزمشاه فلقبهم ابن خرميل وأنزلهم على باب البلد فقالوا له قد أمرنا خوارزمشاه أننا لا نخالف لك أمراً فشكرهم على ذلك وكان يخرج اليهم كل يوم وأقام لهم الوظائف الكثيرة وأتاه الخبر أن خوارزمشاه نزل على بلخ فحصرها فلقبه صاحبها وقاتله بظاهر البلد فلم ينزل بالقرب منها فنزل على أربعة فراسخ فندم ابن خرميل على طاعة خوارزمشاه وقال لخواصه لقد أخطأنا حيث صرنا مع هذا الرجل فإنني أراه عاجزاً وشرع في إعادة العسكر فقال للأمرء إن خوارزمشاه قد أرسل إلى غياث الدين يقول له إنني على العهد الذي بيننا وأنا أترك ما كان لأبيك بخراسان والمصلحة أن ترجعوا حتى ننظر ما يكون فعادوا وأرسل اليهم الهدايا الكثيرة وكان غياث الدين حيث اتصل به ووصول عسكر خوارزمشاه إلى هراة أخذ إقطاع ابن خرميل وأرسل إلى كرزبان وأخذ كل ماله بها من مال وأولاد ودواب وغير ذلك وأخذ أصحابه في القيود وأتاه كتب من يميل إليه من الغورية يقولون له إن رآك غياث الدين قتلك ولما سمع أهل هراة بما فعل غياث الدين بأهل ابن خرميل وماله عزموا على قبضه والمكاتبة إلى غياث الدين بإفاد من يتسلم البلد وكتب القاضي صاعد قاضي هراة وابن زياد إلى غياث الدين بذلك فلما سمع ابن خرميل بما فعله غياث الدين بأهله وبما عزم عليه أهل هراة خاف أن يعاجله بالقبض فحضر عند القاضي وأحضر أعيان البلد وألان لهم القول وتقرّب اليهم وأظهر طاعة غياث الدين وقال قد رددت عسكر خوارزمشاه وأريد أرسل رسولا إلى غياث الدين بطاعتي والذي أوثره منكم أن تكتبوا معه كتاباً بطاعتي فاستحسنوا قوله وكتبوا له بما طلب وسير رسوله إلى فيروزكوه وأمره إذا جنه الليل أن يرجع على طريق نيسابور يلحق عسكر خوارزمشاه ويجد السير فإذا لحقهم ردهم إليه ففعل الرسول ما أمره ولحق العسكر على يومين من هراة فأمرهم بالعود فعادوا فلما كان اليوم الرابع من سير الرسول وصلوا إلى هراة والرسول بين أيديهم فلقبهم ابن خرميل وأدخلهم البلد والطبول تضرب بين أيديهم فلما دخلوا أخذ ابن زياد الفقيه فسمله وأخرج القاضي صاعداً من البلد فسار إلى غياث الدين بفيزروزكوه وأخرج من عنده من الغورية وكل من يعلم أنه يريدهم وسلم أبواب البلد إلى الخوارزمية وأما غياث الدين فإنه برز من فيروزكوه نحو هراة وأرسل عسكراً فأخذوا حشيراً كان لأهل هراة فخرج الخوارزمية فشنوا الغارة على هراة الروذ وغيره فأمر غياث الدين عسكره بالتقدم إلى هراة وجعل المقدم عليهم علي بن أبي علي وأقام هو بفيزروزكوه لما بلغه أن خوارزمشاه على بلخ فسار العسكر وعلى يركه الأمير أميران بن قيصر الذي كان صاحب الطالقان فأرسل إلى ابن خرميل يعرفه أنه على اليك ويأمره بالجيء إليه فإنه لا يمنعه وحلف له على ذلك فسار ابن خرميل في عسكره فكبس عسكر غياث الدين فلم يلحقوا يركبون خيولهم حتى خالطوهم فقتلوا فيهم فكف ابن خرميل أصحابه عن الغورية خوفاً أن يهلكوا وغنم وأسر إسماعيل الخلجي وأقام بمكانه وأرسل عسكره فشنوا الغارة على البلاد بأذغيس وغيرها وعظم الأمر على غياث الدين فعزم على المسير إلى هراة بنفسه فأتاه الخبر أن هلاء الدين صاحب باميان قد عاد إلى غزنة على ما ذكره فأقام ينتظر ما يكون منهم ومن الدز

وأما بلخ فإن خوارزم شاه لما بلغه قتل شهاب الدين أخرج من كان عنده من الغوريين الذين كان أسرم في المصاف على باب خوارزم فخلع عليهم وأحسن إليهم وأعطاهم الأموال وقال إن غياث الدين أخى ولا فرق بينى وبينه فمن أحب منكم المقام عندى فليقم ومن أحب أن يسير إليه فإننى أسيره ولو أراد منى مهما أراد نزلت له عنه وعهد إلى محمد بن على بن بشير وهو من أكابر الأمراء الغورية فأحسن إليه وأقطعه استمالة للغورية وجعله سفيرا بينه وبين صاحب بلخ فسير أخاه على شاه بين يديه في عسكره إلى بلخ فلما قاربها خرج إليه همدان الدين عمر بن الحسين الغورى أميرها فدفعه عن النزول عليها فنزل على أربعة فراسخ عنها فأرسل إلى أخيه خوارزم شاه يعلمه قوتهم فسار إليها في ذى القعدة من السنة فلما وصل إلى بلخ خرج صاحبها فقاتلهم فلم يقو بهم لكثرتهم فنزلوا فصار يوقع بهم ليلا فكافوا معه على أقبح صورة فأقام صاحب بلخ محاصرا وهو ينتظر المدد من أصحابه أولاد بهاء الدين صاحب باميان وكانوا قد اشتغلوا عنه بغزاة على ما ذكرناه وعلى ما ذكره إن شاء الله تعالى فأقام خوارزم شاه على بلخ أربعين يوما كل يوم يركب إلى الحرب فيقتل من أصحابه كثير ولا يظفر بشيء فراسل صاحبها عماد الدين مع محمد بن على بن بشير الغورى وبذل له بذلا كثيرا ليسلم إليه البلد فلم يجبه إلى ذلك وقال لا أسلم البلد إلا إلى أصحابه فعزم على المسير إلى هراة فلما سار أصحابه أولاد بهاء الدين صاحب باميان إلى غزاة المرة الثانية على ما ذكره إن شاء الله تعالى وأسرم تاج الدين الدز عاد عن ذلك العزم وأرسل محمد بن على بن بشير إلى عماد الدين نائبه يعرفه حال أصحابه وأسرم وأنه لا يبقى عليه حجة ولا له في التأخر عنه عذر فدخل إليه ولم يزل يخذعه تارة يرغبه وتارة يرهبه حتى أجاب إلى طاعة خوارزم شاه والخطبة له وذكر اسمه على السكة وقال أنا أعلم إنه لا يبقى له وأرسل من يستحلفه على ما أراد فتم الصلح وخرج إلى خوارزم شاه فخلع عليه وأعاد إلى بلده وكان سلخ ربيع الأول سنة ثلاث وستمائة ثم سار خوارزم شاه إلى كرزبان ليحاصرها وبها على بن أبي على وأرسل إلى غياث الدين يقول إن هذه كان قد أقطعها عمك لابن خرميل فنزل عنها فامتنع وقال بينى وبينكم السيف فأرسل إليه خوارزم شاه مع محمد بن على بن بشير فرغبه وآيسه من نجدة غياث الدين ولم يزل به حتى نزل عنها وسلمها وعاد إلى فيروزكوه فأمر غياث الدين بقتله فشفع فيه الأمراء فتركه وسلم خوارزم شاه كرزبان إلى ابن خرميل ثم أرسل إلى عماد الدين صاحب بلخ يطلبه إليه ويقول قد حضر معهم ولاغنى عن حضورك فانت اليوم من أخص أوليائنا فحضر عنده فقبض عليه وسيره إلى خوارزم ومضى هو إلى بلخ فأخذها واستتاب بها جعفر التركي .

(ذكر ملك خوارزم شاه ترمذ وتسليمها إلى الخطا) لما أخذ خوارزم شاه مدينة بلخ سار عنها إلى مدينة ترمذ مجدا وبها ولد همدان الدين الذى كان صاحب بلخ فأرسل إليه محمد بن على بن بشير يقول له إن أباك قد صار من أخص أصحابى وأكابر أمراء دولتى وقد سلم إلى بلخ وإنما ظهر لى منه ما أنكرته فسيرته إلى خوارزم مكرما محترما وأما أنت فتكون عندى أخا ووعدة وأقطعه الكثير فخذعه محمد بن على فرأى صاحبها أن خوارزم شاه قد حصره من جانب والخطا قد حصروه من جانب آخر وأصحابه قد أسرم الدز بغزاة فضعفت نفسه وأرسل من يستحلف له خوارزم شاه فخلف له وتسلم منه ترمذ وسلمها إلى الخطا فلقد اكتسب بها خوارزم شاه مسبة عظيمة وذكرنا قبيحا في عاجل الأمر ثم ظهر للناس بعد ذلك أنه إنما سلمها إليهم ليتمكن بذلك من ملك خراسان ثم يعود إليهم فيأخذها وغيرها منهم لأنه لما ملك خراسان وقصد بلاد الخطا وأخذها

وأفانم ظهر على الناس أنه فعل ذلك خديعة وسكرا غفرا لله له .
 ﴿ ذكر عود أصحاب باميان إلى غزنة ﴾ قد ذكرنا قبل وصول الدز التركي إلى غزنة وإخراجه علاء الدين
 وجلال الدين ولدى بهاء الدين سام صاحب باميان عنها بعد أن ملكها وأقام هو في غزنة من عاشر رمضان
 سنة اثنتين وستمئة إلى خامس ذي القعدة من السنة يحسن السيرة ويعدل في الرعية وأقطع البلاد للأجناد فبعضهم
 قام وبعضهم سار إلى غياث الدين ولم يخطب لأحد ولا لنفسه وكان يعد الناس بأن رسولاً عند مولاي غياث
 الدين فإذا عاد خطبت له ففرح الناس بقوله وكان يفعل ذلك مكرًا وخديعة بهم وبغياث الدين لأنه لو لم يظهر
 ذلك لفارقه أكثر الأتراك وسائر الرعايا وكان حينئذ يضعف عن مقاومة صاحب باميان فكان يستخدم
 الأتراك وغيرهم بهذا القول وأشباهه فلما ظهر بصاحب باميان على ما ذكره أظهر ما كان يضمه فينما هو
 في هذا أنه الخبر بقرب علاء الدين وجلال الدين ولدى بهاء الدين صاحب باميان في العساكر الكثيرة وأنهم
 قد عزموا على نهب غزنة ، واستباحه الأموال والأشخاص ، فخاف الناس خوفاً شديداً وجهاز الدز كثيراً
 من عسكره وسيرهم إلى طريقهم فلحقوا أوائل العسكر فقتل من الأتراك وأدركهم العسكر فلم يكن لهم قوة بهم
 فانهزموا وتبعهم عسكر علاء الدين يقتلون وبأسرون فوصل المنهزمون إلى غزنة فخرج عنها الدز منهزماً
 يطلب بلده كرمان فأدركه بعض عسكر باميان نحو ثلاثة آلاف فارس فقاتلهم قتالاً شديداً فردد عنهم وأحضر
 من كرمان مالا كثيراً وسلاحاً ففرقه في العسكر وأما علاء الدين وأخوه فإنهما تركا غزنة لم يدخلها وسارا
 في أثر الدز فسمع بهم فسار عن كرمان فنهب الناس بعضهم بعضاً وملك علاء الدين كرمان وأمنوا أهلها
 وعزموا على العود إلى غزنة ونهبها فسمع أهلها بذلك فقصدوا القاضي سعيد بن مسعود وشكوا إليه حالهم فثنى
 إلى وزير علاء الدين المعروف بالصاحب وأخبره بحال الناس فطيب قلوبهم وأخبرهم غيره ممن يثقون إليهم أنهم
 يجمعون على النهب فاستعدوا وضيقوا أبواب الدروب والشوارع وأعدوا العرادات والأحجار وجاءت التجار
 من العراق والموصل والشام وغيرها وشكروا إلى أصحاب السلطان فلم يسكنهم أحد فقصدوا دار مجد الدين بن الربيع
 رسول الخليفة واستغاثوا به فسكنهم ووعدهم الشفاعة فيهم وفي أهل البلد فأرسل إلى أمير كبير من الغورية يقال له
 سليمان بن سيدر وكان شيخاً كبيراً يرجعون إلى قوله يعرفه الحال ويقول له يكتب إلى علاء الدين وأخيه يتشفع في
 الناس ففعل وبالغ في الشفاعة وخوفهم من أهل البلدان أصروا على النهب فأجابوه إلى العفو عن الناس بعد
 مراجعات كثيرة وكانوا قد وعدوا من معهم من العساكر بنهب غزنة فعوضوهم من الخزانة فسكن الناس وعاد
 العسكر إلى غزنة وأواخر ذي القعدة ومعهم الخزانة التي أخذها الدز من مؤيد الملك لما عاد ومعه شهاب الدين
 قتيلاً فكانت مع ما أضيف إليها من الثياب والعين تسعمائة حمل ومن جملة ما كان فيها من الثياب الممزج المنسوج
 بالذهب إثني عشر ألف ثوب وعزم علاء الدين أن يستوزر مؤيد الملك فسمع أخوه جلال الدين فأحضره وخلع
 عليه على كراهة منه للخلعة واستوزره ، فلما سمع علاء الدين بذلك قبض على مؤيد الملك وقيده وحبسته فتغيرت
 نيات الناس واختلفوا ثم إن علاء الدين وجلال الدين اقتسما الخزانة وجرى بينهما من المشاحنة ما لا يحصى بين
 التجار فاستدل بذلك الناس على أنهما لا يستقيم لهما حال لبخاها واختلافهما وندم الأمراء على ميلهم إليهما
 وتركهم غياث الدين مع ما ظهر من كرمه وإحسانه ثم إن جلال الدين وعه عباساً سارا في بعض العسكر إلى باميان
 وبقي علاء الدين بغزنة فأساء وزيره عماد الملك السيرة مع الأجناد والرعية ونهب أموال الأتراك حتى أنهم

باعوا أمهات أولادهم وهن يبكين ويصرخن ولا ياتفت إليهن .
 (ذكر عود الدز إلى غزنة) لما سار جلال الدين عن غزنة وأقام بها أخوه علاء الدين جمع الدز ومن معه من الأتراك عسكريا كثيرا وعادوا إلى غزنة فوصلوا إلى كلوا فملكوها وقتلوا جماعة من الغورية ووصل المهزمون إلى كرمان فسار الدز إليهم وجعل على مقدمته بلوكا كبيرا من عماليك شهاب الدين اسمه أي دكز التتر في ألقى فارس من الخليج والأتراك والغورية وغيرهم ، وكان بكرمان عسكر لعلاء الدين مع أمير يقال له ابن المؤيد ومعه جماعة من الأمراء منهم أبو علي بن سليمان بن سيسر وهو وأبوه من أعيان الغورية وكا ما مشتغلين باللعب واللهو والشرب لا يفتران بين ذلك فقبل لهما إن عسكر الأتراك قد قروا منكم فلم يلتفتا إلى ذلك ولا تركا ما كا عليه فهجم عليهم أي دكز التتر ومن معه من الأتراك فلم يمهلمهم يركبون خيولهم فقتلوا عن آخرهم منهم من قتل في المعركة ومنهم من قتل صبورا ولم ينج إلا من تركه الأتراك عمدا ولما وصل الدز فرأى أمراء الغورية كلهم قتلى قال كل هؤلاء قاتلونا فقال أي دكز التتر لا بل قتلناهم صبورا فلامه على ذلك ووبخه وأحضر رأس ابن المؤيد بين يديه فجد شكرا لله تعالى وأمر بالمقتولين فغسلوا ودفنوا وكان في جملة القتلى أبو علي بن سليمان ابن سيسر ووصل الخبر إلى غزنة في العشرين من ذي الحجة من هذه السنة فصلب علاء الدين الذي جاء بالخبر فتغيمت السماء وجاء مطر شديد خرب بعض غزنة وجاء بعده برد كبير مثل بيض الدجاج نضج الناس إلى علاء الدين بإزال المصلوب فأنزله آخر النهار فأنكشفت الظلمة وسكن ما كانوا فيه وملك الدز كرمان وأحسن إلى أهلها وكانوا في ضر شديد مع أولئك ولما صح الخبر عند علاء الدين أرسل وزيره صاحب إلى أخيه جلال الدين في باميان يخبره بحال الدز ويبتجده وكان قد أعد العساكر ليسيير إلى بلخ يرسل عنها خوارزمشاه فلما أتاه هذا الخبر ترك بلخ وسار إلى غزنة وكان أكثر عسكره من الغورية قد فارقوه وفارقوا أخاه وقصدوا غياث الدين فلما كان أواخر ذي الحجة وصل الدز إلى غزنة ونزل هو وعسكره بإزاء قلعة غزنة وحصر علاء الدين وجرى بينهم قتال شديد ، وأمر الدز فتودى في البلد بالأمان ، وتسكن الناس من أهل البلد والغورية وعسكر باميان وأقام الدز محاصرا للقلعة فوصل جلال الدين في أربعة آلاف من عسكر باميان وغيرهم فرحل الدز إلى طريقهم وكان مقامه إلى أن سار إليهم أربعين يوما فلما سار الدز سير علاء الدين من كان عنده من العسكر وأمرهم أن يأتوا الدز من خلفه ويكون أخوه من بين يديه فلا يسلم من عسكره أحد فلما خرجوا من القلعة سار سليمان ابن سيسر الغوري إلى غياث الدين بفيروزكوه . فلما وصل أكرمه وعظمه وجعله أمير دار فيروزكوه وكان ذلك في صفر سنة ثلاث وستمائه ، وأما الدز فإنه سار إلى طريق جلال الدين فالتقوا بقرية بلق فاقتلوا قتالا صبروا فيه فانهزم جلال الدين وعسكره وأخذ جلال الدين أسيرا وأتى به إلى الدز فلما رآه ترجل وقبل يده وأمر بالاحتياط عليه وعاد إلى غزنة وجلال الدين معه أسير وألف أسير من الباميانية وغنم أصحابه أموالهم ولما عاد إلى غزنة أرسل إلى علاء الدين يقول له ليسم القلعة إليه وإلا قتل من عنده من الأسرى فلم يسلمها فقتل منهم أربعمائه أسير بإزاء القلعة فلما رأى علاء الدين ذلك أرسل مؤيد الملك يطلب الأمان فأمنه الدز فلما خرج قبل عليه ووكل به وبأخيه من يحفظهما وقبض على وزيره لسوء سيرته وكان هندوخان ملكشاه بن خوارزمشاه تكش مع علاء الدين بقلعة غزنة فلما خرج منها قبض عليه أيضا وكتب إلى غياث الدين بالفتح وأرسل إليه الأعلام وبعض الأسرى .

(ذكر قصد صاحب مراغة وصاحب إربل أذربيجان) في هذه السنة اتفق صاحب مراغة وهو علاء الدين هو ومظفر الدين كوكبرى صاحب إربل على قصد أذربيجان وأخذها من صاحبها أبي بكر بن البهلوان لاشتغاله بالشرب ليلا ونهارا وتركه النظر في أحوال المملكة وحفظ العساكر والرعايا فسار صاحب إربل إلى مراغة واجتمع هو وصاحبها علاء الدين وتقدما نحو تبريز فلما علم صاحبها أبو بكر أرسل إلى أيتغمش صاحب بلاد الجبل همذان وأصفهان والرى وما بينهما من البلاد وهو مملوك أياه البهلوان وهو في طاعة أبي بكر إلا أنه قد غلب على البلاد فلا يلتفت إلى أبي بكر فأرسل إليه أبو بكر يستنجده ويعرفه الحال وكان حينئذ يبلد الإسماعيلية فلما أتاه الخبر سار إليه في العساكر الكثيرة فلما حضر عنده أرسل إلى صاحب إربل يقول له إنا كنا نسمع عنك أنك تحب أهل العلم والخير وتحسن إليهم فكنا نعتقد فيك الخير والدين فلما كان الآن ظهر لنا منك ضد ذلك لقصدك بلاد الإسلام وقتال المسلمين ونهب أموالهم وإثارة الفتنة فإذا كنت كذلك فما لك عقل تجيء إلينا وأنت صاحب قرية ونحن لنا من باب خراسان إلى خلاط وإلى إربل وأحسب أنك هزمت هذا أما تعلم أن له ماليك أنا أحدهم ولو أخذ من كل قرية شحنة أو من كل مدينة عشرة رجال لاجتمع له أضعاف عسرك فالمصلحة أنك ترجع إلى بلدك وإنما أقول لك هذا لإبقاء عليك ثم سار نحوه عقيب هذه الرسالة فلما سمعها مظفر الدين وبلغه مسير أيتغمش عزم على العود فاجتهد به صاحب مراغة ليقم بمكانه ويسلم عسكره إليه وقال له إني قد كاتبت جميع أمراته ليكونوا معي إذا قصدتهم فلم يقبل مظفر الدين من قوله وعاد إلى بلده وسلك الطريق الشاقة، والمضايق الصعبة والعقاب الشاهقة خوفا من الطلب ثم إن أبا بكر وأيتغمش قصدا مراغة وحصراها فصالحهما صاحبها على تسليم قلعة من حصونه إلى أبي بكر، هي كانت سبب الاختلاف، وأقطعه أبو بكر مدينتي استوا وأرمية وعاد عنه.

(ذكر إيقاع أيتغمش بالإسماعيلية) وفي هذه السنة سار أيتغمش إلى بلاد الإسماعيلية المجاورة لقزوين فقتل منهم مقتلة كبيرة ونهب وسبي وحصر قلاعهم ففتح منها خمس قلاع وصمم العزم على حصر الموت واستتصال أهلها فاتفق ما ذكرنا من حركة صاحب مراغة وصاحب إربل واستدعاه الأمير أبو بكر ففارق بلادهم وسار إلى أبي بكر كما ذكرناه.

(ذكر وصول عسكر خوارزم إلى بلاد الجبل وما كان منهم) وفي هذه السنة سار من عسكر خوارزم طائفة كبيرة نحو عشرة آلاف فارس بأهلهم وأولادهم فوصلوا إلى زنكان وكان أيتغمش صاحبها مشغولا مع صاحب إربل وصاحب مراغة واغتمموا خلو البلاد فلما عاد مظفر الدين إلى بلده وانفصل الحال بين أيتغمش وصاحب مراغة سار أيتغمش نحو الخوارزمية فلقبهم وقاتلهم فاشتد القتال بين الطائفتين ثم انهزم الخوارزميون وأخذهم السيف فقتل منهم وأسر خلق كثير ولم ينج منهم إلا الشريد وسبي نساؤهم وغنمت أموالهم وكانوا قد أفسدوا في البلاد بالنهب والقتل فلقوا عاقبة فعلهم.

(ذكر الغارة من ابن ليون على أعمال حلب) وفي هذه السنة توالى الغارة من ابن ليون الأرمي صاحب الدروب على ولاية حلب فحرق وأسر وسبي لجمع الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف صاحب حلب عساكره واستنجد غيره من الملوك فجمع كثيرا من الفارس والراجل وسار عن حلب نحو ابن ليون وكان ابن ليون قد نزل في طرف بلاده مما يلي بلد حلب فليس إليه طريق لأن جميع بلاده لا طريق إليها إلا من

جبال وهرة ومضائق صعبة فلا يقدر غيره على الدخول اليها لاسيما من ناحية حلب فإن الطريق منها متعذر جدا فنزل الظاهر على خمسة فراسخ من حلب وجعل على مقدمته جماعة من عسكره مع أمير كبير من مماليك آبيه يعرف بميمون القصرى ينسب إلى قصر الخلفاء العلويين بمصر لأن أمه منهم أخذته فأنفذ الظاهر ميرة وسلاحا إلى حصن له مجاور لبلاد ابن ليون اسمه دربساك وأنفذ إلى ميمون ليرسل طائفة من العسكر الذين عنده إلى طريق هذه الذخيرة ليسيروا معها إلى دربساك ففعل ذلك وسير جماعة كثيرة من عسكره وبقى في قلة فبلغ الخبر إلى ابن ليون فجدّ فوافاه وهو مخف من العسكر فقاتله واشتد القتال بينهم فأرسل ميمون إلى الظاهر بعرفه وكان بعيدا عنه فطالت الحرب بينهم وحى ميمون نفسه وأثقاله على قلة من المسلمين وكثرة من الأرمين فانهزم المسلمون ونال العدو منهم قتل وأسر وكذلك أيضا فعل المسلمون بالأرمين من كثرة القتل وظفر الأرمين بأثقال المسلمين فغنموا وساروا بها فصادفهم المسلمون الذين كانوا قد ساروا مع الذخائر إلى دربساك فلم يشعروا بالحال فلم يرعهم إلا العدو وقد خالطهم ووضع السيف فيهم فاقتتلوا أشد قتال ثم انهرم المسلمون أيضا وعاد الأرمين إلى بلادهم بما غنموا واعتصموا بجبالهم وحصونهم .

(ذكر نهب الكرج أرمينية) في هذه السنة قصدت الكرج في جموعها ولاية خلط من أرمينية ونهبوا وقتلوا وأسروا وسبوا أهلها كثيرا وجاسوا خلال الديار آمين ولم يخرج اليهم من خلط من يمنهم فبقوا متصرفين في النهب والسبي والبلاد شاغرة لآمانع لها لأن صاحبها صى والمدبر لدولته ليست له تلك الطاعة على الجند فلما اشتد البلاء على الناس تذامروا وحرص بعضهم بعضا واجتمعت العساكر الإسلامية التي بتلك الولاية جميعها وانضاف اليهم من المتطوعة كثير فساروا جميعهم نحو الكرج وهم خائفون فرأى بعض الصوفية الأخيار الشيخ محمدا البستي وهو من الصالحين وكان قد مات فقال له الصوفي أراك ههنا فقال جئت لمساعدة المسلمين على عدوهم فاستيقظ فرحا بمحل البستي من الإسلام وأتى إلى مدير العسكر والقيم بأمره وقص عليه رؤياه ففرح بذلك وقوى عزمه على قصد الكرك وسار بالعساكر اليهم فنزل منزلا فوصلت الأخيار إلى الكرج فعزموا على كبس المسلمين فانتقلوا من موضعهم بالوادي إلى أعلاه فنزلوا فيه ليكبسوا المسلمين إذا أظلم الليل فأتى المسلمين الخبر فقصدوا الكرج وأمسكوا عليهم رأس الوادي وأسفله وهو واد ليس إليه غير هذين الطريقين فلما رأى الكرج ذلك أيقنوا بالهلاك وسقط في أيديهم وطمع المسلمون فيهم وضايقوهم وقاتلوهم فقتلوا منهم كثيرا وأسروا مثلهم ولم يفلت من الكرج الا القليل وكفى الله المسلمين شرهم بعد أن كانوا أشرفوا على الهلاك .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في جمادى الآخرة توفى الأمير طاشتكين مجير الدين أمير الحاج بستر وكان قد ولاه الخليفة على جميع خوزستان وكان أميرا على الحاج سنين كثيرة وكان خيرا صالحا حسن السيرة كثير العبادة يتشيع ، ولما مات ولي الخليفة على خوزستان مملوكه سنجر وهو صهر طاشتكين زوج ابنته . وفيها قتل سنجر بن مقلد بن سليمان بن مهارش أمير عبادة بالعراق وكان سبب قتله أنه سعى بأبيه مقلد إلى الخليفة الناصر لدين الله فأمر بالتوكيل على آبيه فبقى مدة ثم أطلقه الخليفة ثم إن سنجرا قتل أخاه اسمه ٣ فأوغر بهذه الأسباب صدور أهله وإخوته فلما كان هذه السنة في شعبان نزل بأرض المعشوق وركب في بعض الأيام ومعه إخوته وغيرهم من أصحابه فلما انفرد عن أصحابه ضربه أخوه على بن مقلد بالسيف فسقط إلى الأرض

فنزله إخوته إليه فقتلوه . وفيها تجهز غياث الدين خسرو شاه صاحب مدينة الروم إلى مدينة طرابزون وحصر صاحبها لأنه كان قد خرج عن طاعته ، فضيق عليه ، فأنقطعت لذلك الطرق من بلاد الروم والروس وقفجاق وغيرها برا وبحرا ولم يخرج منهم أحد إلى بلاد غياث الدين فدخل بذلك ضرر عظيم على الناس لأنهم كانوا يتجرون معهم ويدخلون بلادهم ويقصدون التجار من الشام والعراق والموصل والجزيرة وغيرها فاجتمع منهم بمدينة سيواس خلق كثير فحيث لم يفتح الطريق تأذوا أذى كثيرا فكان السعيد منهم من عاد إلى رأس ماله . وفيها تزوج أبو بكر بن البهلوان صاحب أذربيجان وأران بابنة ملك الكرج ، وسبب ذلك أن الكرج تابعت الغارات منهم على بلاده لما رأوا من عجزه وانهما كه في الشرب واللعب وما جانسهما وإعراضه عن تدبير الملك وحفظ البلاد فلما رأى هو أيضا ، ذلك ولم يكن عنده من الحمية والأنفة من هذه المناحس ما يترك ما هو مصر عليه وأنه لا يقدر على الذب عن البلاد عدل إلى الذب عنها بأمره فخطب ابنة ملكهم فتزوجها فكف الكرج عن النهب والإغارة والقتل فكان كما قيل (أغمد سيفه وسل أيره) وفيها حمل إلى أربك خروف وجهه صورة آدمى وبدنه بدن خروف وكان هذا من العجائب . وفيها توفي القاضي أبو محمد بن محمد المانداى الواسطى بها . وفيها في شوال توفي نحر الدين مبارك شاه بن الحسن المروروذى وكان حسن الشعر بالفارسية والدرية وله منزلة عظيمة عند غياث الدين الكبير صاحب غزنة وهرارة وغيرهما وكان له دار ضيافة فيها كتب شرط نج فالعلماء يطالعون الكتب والجهال يلعبون بالشرط نج . وفيها في ذى الحجة توفي أبو الحسن علي بن علي بن سعادة الفارقي الفقيه الشافعي ببغداد وبقي مدة طويلة معيدا بالنظامية وصار مدرسا بالمدرسة التي أحدثها أم الخليفة الناصر لدين الله وكان مع عليه صالحا طلب للنيابة في القضاء ببغداد فامتنع فألزم بذلك فوليه بسيرا ثم في بعض الأيام مشى إلى جامع ابن المطلب فنزل ولبس مئزر صوف غليظ وغير ثيابه وأمر الوكلاء وغيرهم بالانصراف وأقام به حتى سكن الطلب عنه وعاد إلى داره بغير ولاية . وفيها وقع الشيخ أبو موسى المكي المقيم بمقصورة جامع السلطان ببغداد من سطح الجامع فمات وكان رجلا صالحا كثير العبادة . وفيها أيضا توفي العفيف أبو المكارم عرفه بن علي بن بصلا البندنجي ببغداد وكان رجلا صالحا منقطعاً إلى العبادة رحمه الله . (١)

(١) وفيها توفي أبو الغنائم المر كيهلار البغدادي كان يخدم مع عز الدين نجاح السراي ، وحصل أموالا جزيلة كان كلما تهيأ له مال اشترى به ملسكا وكتبه باسم صاحب له يعتمد عليه ، فلما حضرته الوفاة أوصى ذلك الرجل أن يتولى أولاده وينفق عليهم من ميراثه مما تركه لهم ، فرض الموصى إليه بعد قليل فاستدعى الشهود ليشهدهم على نفسه أن مافي يده لورثة أبي الغنائم فنمادى ورثته بإحضار الشهود وطولوا عليه وأخذته سكرة فمات فاستولى ورثته على تلك الأموال والأحكام ، ولم يقضوا أولاد أبي الغنائم منها شيئا مما ترك لهم . وتوفي أيضا الأمير مجير الدين طاشتكين المستنجدى أمير الحاج وزعيم بلاد خوزستان ، كان شيخا خيرا حسن السيرة كثير العبادة ، غالباً في التشيع توفي بتستر ثاني جمادى الآخرة وحمل تابوته إلى الكوفة فدفن بمشهد على لوصيته بذلك ، هكذا ترجمه ابن الساعي في تاريخه ، وذكر أبو شامة في الذيل أنه طاشتكين بن عبد الله المقتفوى أمير الحاج ، حج بالناس ستا وعشرين سنة ، كان يكون في الحجاز كأنه ملك ، وقد رماه الوزير ابن يونس بأنه يكاتب صلاح الدين فحبسه الخليفة ، ثم تبين له بطلان ما ذكر عنه فأطلقه وأعطاه خوزستان ثم أعاده إلى إمرة الحج ، وكانت الحلة الشيعية إقطاعه ، وكان شجاعا جوادا سمحا قليل الكلام ، يمضى عليه الأسبوع لا يتكلم فيه بكلمة ، وكان فيه حلم واحتمال ، استغاث به رجل على بعض نوابه فلم رد عليه ، فقال له الرجل المستغيث : أحمار أنت ؟ فقال : لا . وفيه يقول ابن التعاويذي :

(ثم دخلت سنة ثلاث وستمائة)

(ذكر ملك عباس باميان وعودها إلى ابن أخيه) في هذه السنة ملك عباس باميان من علاء الدين وجلال الدين ولدى أخيه بهاء الدين وسبب ذلك أن عسكر باميان لما انهزموا من الدز وعادوا إليها أخبروا أن علاء الدين وجلال الدين أسرا وأن الدز ومن معه غموا ما في أيديهما فأخذ وزير أبيهما المعروف بالصاحب من الأموال كثيرا ومن الجواهر وغيرها من التحف وأخذ فيلا وسار إلى خوارزم شاه يستنجده على الدز ليسير معه عسكرا يستخلص به صاحبيه فلما فارق باميان ورأى عمهما عباس خلوا البلد منه ومن ابنى أخيه جمع أصحابه وقام في البلد فلكه وصعد إلى القلعة فلكها وأخرج أصحاب ابنى أخيه علاء الدين وجلال الدين منها فبلغ الخبر إلى الوزير السائر إلى خوارزم شاه فعاد إلى باميان وجمع الجموع الكثيرة وحصر عباسا في القلعة وكان مطاعا في جميع ممالك بهاء الدين وولديه من بعده وأقام محاصرا إلا أنه لم يكن معه من المال ما يقوم بما يحتاج إليه إنما كان معه ما أخذه ليحمله إلى خوارزم شاه فلما خلص جلال الدين من أسر الدز على ما ذكره وسار إلى باميان فوصل إلى أرسف وهي مدينة باميان وجاء إليه وزير أبيه الصاحب واجتمع به وسار إلى القلاع وأرسلوا عباسا المتغلب عليها ولاطفوه فسلم الجميع إلى جلال الدين وقال إنما حفظها خوفا أن يأخذها خوارزم شاه فاستحسن فعله وعاد إلى ملكه .

(ذكر ملك خوارزم شاه الطالقان) لما سلم خوارزم شاه ترمذ إلى الخطا ساز عنها إلى ميهنة واندخوى وكتب إلى سونج أمير الشكار نائب غياث الدين محمود بالطالقان يستميله فعاد الرسول خائبا لم يجبه سونج إلى ما أراد منه وجمع عسكره وخرج يحارب خوارزم شاه فالتقوا بالقرب من الطالقان فلما تقابل العسكران حمل سونج وحده مجدا حتى قارب عسكر خوارزم شاه فألقى نفسه إلى الأرض ورمى سلاحه عنه وقبل الأرض وسأل العفو فظن خوارزم شاه أنه سكران فلما علم أنه صاح ذمه وسبه وقال من يثق إلى هذا وأشباهه ولم يلتفت إليه وأخذ ما بالطالقان من مال وسلاح ودواب وأنقذه إلى غياث الدين مع رسول وحمله رسالة تتضمن التقرب إليه والملاطفة له واستتاب بالطالقان بعض أصحابه وسار إلى قلاع كالوين وبيوار فخرج إليه حسام الدين علي بن أبي علي صاحب كالوين وقاتله على رؤس الجبال فأرسل إليه خوارزم شاه يتهدده إن لم يسلم إليه فقال أما أنا فملوك وهذه الحصون فهي أمانة بيدي ولا أسلمها إلا إلى صاحبها فاستحسن خوارزم شاه منه هذا وأثنى عليه وذم سونج ولما بلغ غياث الدين خبر سونج وتسليم الطالقان إلى خوارزم شاه عنده وشق عليه فسلاه أصحابه وهونوا الأمر ولما فرغ خوارزم شاه من الطالقان سار إلى هراة فبزل بظاهرها ولم يمكن ابن خرميل أحدا من الخوارزميين أن يتطرق بالأذى إلى أهلها وإنما كان يجتمع منهم الجماعة بعد الجماعة

وأمر على البلاد مولى لا يجيب الشاكي بغير السكوت

كلما زاد رفعة حطنا الله به بتفيله إلى البهوت

وقد سرق فراشه حياجة له فأرادوا أن يستفروه عليها، وكان قد رآه الأمير طاشتكين حين أخذها فقال : لا تعاقبوا أحدا، قد أخذها من لا يردها، ورآه حين أخذها من لا ينم عليه، وقد كان بلغ من العمر تسعين سنة، وافق أنه استأجر أرضا مدة ثلاثمائة سنة للوقوف، فقال فيه بعض المضحكين : هذا لا يوقن بالموت، عمره تسعون سنة، واستأجر أرضا ثلاثمائة سنة، فاستضحك القوم، والله سبحانه وتعالى أعلم .

فقطعون الطريق وهذه عادة الخوارزميين ووصل رسول غياث الدين إلى خوارزم شاه بالهدايا ورأى الناس عجباً وذلك أن الخوارزميين لا يذكرون غياث الدين الكبير والد هذا غياث الدين ولا يذكرون أيضاً شهاب الدين أخاه وهما حيان إلا بالغوري وصاحب غزنة وكان وزير خوارزم شاه الآن مع عظم شأنه وقلّة هذا غياث الدين لا يذكره إلا بولانا السلطان مع ضعفه وعجزه وقلّة بلاده وأما ابن خرميل فإنه سار من هراة في جمع من عسكر خوارزم شاه فنزل على اسفرار في صفر وكان صاحبها قد توجه إلى غياث الدين فحصرها وأرسل إلى من بها يتسم بالله لئن سلوها أن يؤمنهم وإن امتنعوا أقام عليهم إلى أن يأخذم فإذا أخذم فهرا لا يبقى على كبير ولا صغير فخافوا فسلوها في ربيع الأول فأمنهم ولم يتعرض إلى أهلها بسوء فلما أخذها أرسل إلى حرب بن محمد صاحب سجستان يدعو إلى طاعة خوارزم شاه والخطبة له ببلاده فأجاب به إلى ذلك وكان غياث الدين قد راسله قبل ذلك في الخطبة والدخول في طاعته فغالطه ولم يجبه إلى ما طلب ولما كان خوارزم شاه على هراة عاد إليها القاضي صاعد بن الفضل الذي كان ابن خرميل قد أخرجه من هراة في العام الماضي وسار إلى غياث الدين فعاد الآن من عنده فلما وصل قال ابن خرميل لخوارزم شاه أن هذا يميل إلى الغورية ويريد دولتهم ووقع فيه فسجنه خوارزم شاه بقلعة زوزن وولى القضاء بهراة الصفي أبابكر بن محمد السرخسي وكان ينوب عن صاعد وابنه في القضاء بهراة .

(ذكر حال غياث الدين مع الاز و أيبك) لما عاد الاز إلى غزنة وأسر علاء الدين وأخاه جلال الدين كاذكرناه وكتب إليه غياث الدين بطالبه بالخطبة له فأجاب في هذه المدة أشد منه فيما تقدم فأعاد غياث الدين إليه يقول إما أن تخطب لنا وإما أن تعرفنا ما في نفسك فلما وصل الرسول بهذا أحضر خطيب غزنة وأمره يخطب لنفسه بعد الترحم على شهاب الدين فخطب لتاج الدين الاز بغزنة فلما سمع الناس ذلك ساءم وتغيرت نياتهم ونيات الأتراك الذين معه ولم يروه أهلاً أن يخدموه وإنما كانوا يطيعونه ظناً منهم أنه ينصر دولة غياث الدين فلما خطب لنفسه أرسل إلى غياث الدين يقول له بماذا تشتط على وتتحكم هذه الخزنة نحن جمعناها بأسياقنا وهذا الملك قد أخذته وأنت قد اجتمع عندك الذين هم أساس الفتنة وأقطعهم الإقطاعات ووعدتني بأمور لم تف بها فإن أنت أعتقتني خطبت لك وحضرت خدمتك فلما وصل الرسول أجابه غياث الدين إلى عتق الاز بعد الامتناع الشديد والعزم على مصالحة خوارزم شاه على ما يريد وتصد غزنة ومحاربتة بها فلما أجابه إلى العتق أشهد عليه به وأشهد عليه أيضاً بعتق قطب الدين أيبك بمملك شهاب الدين ونائبه ببلاد الهند وأرسل إلى كل واحد منهما ألف قباء وألف قلنسوة ومناطق الذهب وسيوفاً كثيرة وجترين ومائة رأس من الخيل وأرسل إلى كل واحد منهما رسولا فقبل الاز الخلع ورد الجتر وقال نحن عبيد ومالك والجتر له أصحاب وسار رسول أيبك إليه وكان بفرشابور قد ضبط المملكة وحفظ البلاد ومنع المفسدين من الفساد والأذى والناس معه في أمن فلما قرب الرسول منه لقيه على بعد وترجل وقبل حافر الفرس ولبس الخلعة وقال أما الجتر فلا يصلح للديك، وأما العتق فمقبول وسوف أجازيه بعبودية الأبد وأما خوارزم شاه فإنه أرسل إلى غياث الدين يطلب منه أن يتصاهرا ويطلب منه ابن خرميل صاحب هراة إلى طاعته ويسير معه في المسافر إلى غزنة فإذا ملكها من الاز اقتسموا المال أثلاثاً ثلثا لخوارزم شاه وثلثا لغياث الدين وثلثا للعسكر فأجاب به إلى ذلك ولم يبق إلا الصلح فوصل الخبر إلى خوارزم شاه

بموت صاحب مازندران فسار عن هراة إلى مرو وسمع الدز بالصالح فجزع لذلك جزعا عظيما ظهر أثره عليه وأرسل إلى غياث الدين يقول له ما حملك على هذا فقد حملني عليه عصيانك وخلالك على دثار الدز إلى تكيا باذ فأخذها وإلى بست وتلك الاعمال فلحقها وقطع خطبة غياث الدين منها وأرسل إلى صاحب سجستان يأمره بإعادة الترحم على شهاب الدين وقطع خطبة خوارزم شاه وأرسل إلى ابن خرميل صاحب هراة بمثل ذلك وتهديهما بقصد بلادهما فخالعه الناس ثم إن الدز أخرج جلال الدين صاحب باميان من أسرته وسير معه خمسة آلاف فارس مع أيدكر الترمك شهاب الدين إلى باميان ليعيدوه إلى ملكه ويزيلوا ابن عمه عنه وزوجه ابنته وسار معه أيدكر فلما خلا به لأمه على لبعه خلعة الدز وقال أنتم مارضيتم تلبسون خلعة غياث الدين وهو أكبر سنا منكم وأشرف بيتا تلبس خلعة هذا المأبون يعني الدز ودعاه إلى العود معه إلى غزنة وأعلمه أن الأتراك كلهم مجتمعون على خلاف الدز فلم يجبه إلى ذلك فقال أيدكر فإني لا أسير معك وعاد إلى كابل وهي أقطاعه فلما وصل أيدكر إلى كابل لقيه رسول من قطب الدين أيبك إلى الدز يقبح له فعله ويأمره بإقامة خطبة غياث الدين ويخبره أنه قد خطب له في بلاده ويقول له إن لم يخطب له هو أيضا بغزنة ويعود إلى طاعته وإلا قضده وحاربه فلما علم أيدكر ذلك قويت نفسه على محاربة الدز وصمم العزم على قصد غزنة ووصل أيضا رسول أيبك إلى غياث الدين بالهدايا والتخيم ويشير بإجابة خوارزم شاه إلى ما طلب الآن وعند المصراع من أمر غزنة تسهل أمور خوارزم شاه وغيره وأنفذ له ذهباً عليه اسمه فكتب أيدكر إلى أيبك يعرفه عصيان الدز على غياث الدين وما فعله في البلاد وأنه على عزم مشافقة الدز وهو ينتظر أمره فأعاد أيبك جوابه يأمره بقصد غزنة فإن حصلت له القلعة أقام بها إلى أن يأتيه وإن لم تحصل له القلعة وقصده الدز انحاز إليه أو إلى غياث الدين أو يعود إلى كابل فسار إلى غزنة وكان جلال الدين قد كتب إلى الدز يخبره خبر أيدكر وما عزم عليه فكتب الدز إلى نوابه بقلعه غزنة يأمرهم بالاحتياط منه فوصلها أيدكر أول رجب من السنة وقد حذره فلم يسلموا إليه القلعة ومنعوه عنها فأمر أصحابه بنهب البلد فتهبوا عدة مواضع منه فتوسط القاضي الحال بأن سلم إليه من الخزانة خمسين ألف دينار ركنية وأخذ له من التجار شيئا آخر وخطب أيدكر بغزنة لغياث الدين وقطع خطبة الدز ففرح الناس بذلك وكان مؤيد الملك ينوب عن الدز بالقلعة ووصل الخبر إلى الدز بوصول أيدكر إلى غزنة ووصول رسول أيبك إليه ففتت في عضده وخطب لغياث الدين في تكيا باذ وأسقط اسمه من الخطبة فخطب له ورحل إلى غزنة فلما قاربها ورحل أيدكر عنها إلى بلد الغور فأقام في تمران وكتب إلى غياث الدين يخبره بحاله وأنفذ إليه المال الذي أخذه من الخزانة ومن أموال الناس فأرسل إليه خلعا وأعتقه وخاطبه بملك الأمراء ورد عليه المال الذي كان أخذه من الخزانة وقال له أما مال الخزانة فقد أعدناه إليك لنخرجه وأما أموال التجار وأهل البلد فقد أرسلته مع رسولي ليعاد إلى أربابه لئلا نفتح دولتنا بالظلم وقد عوضتك عنه ضعفه وأرسل أموال الناس إلى غزنة إلى قاضي غزنة وأمره أن يرد المال المنفذ على أربابه فأنهى القاضي الحال إلى الدز وأشار عليه بالخطبة لغياث الدين وقال أنا أسعى في الوصلة بينكما والصلح فأمره بذلك فبلغ الخبر إلى غياث الدين فأرسل إلى القاضي ينهيه عن المجيء إليه وقال لا تسأل في عبد أبق قد بان فساده وانضح عناده فأقام بغزنة هو والدز وسير غياث الدين عسكر إلى أي دكر الترمك فأقاموا معه وسير الدز عسكر إلى روين كان وهي لغياث الدين وقد أقطعها لبعض الأمراء فهجموا على صاحبها فتهبوا ماله وأخذوا أولاده فنجوا وحده إلى

غیاث الدین فاقضی الحال أن سار غیاث الدین إلى بست وتلك الولاية فاستردها وأحسن إلى أهلها وأطلق لهم خراج سنة لما نالهم من الدير من الأذى .

(ذکر وفاة صاحب مازندران والخلف بين أولاده) في هذه السنة توفي حسام الدين أردشير صاحب مازندران وخلف ثلاثة أولاد فلك بعده ابنه الأكبر وأخرج أخاه الأوسط من البلاد فقصد جرجان وبها الملك علي شاه بن خوارزم شاه تكش أخو خوارزم شاه محمد وهو ينوب عن أخيه فيها فشكا إليه ما صنع به أخوه من إخراجهم من البلاد ؛ وطلب منه أن ينجده عليه ، ويأخذ له البلاد ليكون في طاعته فكتب علي شاه إلى أخيه خوارزم شاه في ذلك فأمره بالمسير معه إلى مازندران وأخذ البلاد له وإقامة الخطبة لخوارزم شاه فيها فساروا عن جرجان فاتفق أن حسام الدين صاحب مازندران مات في ذلك الوقت وملك البلاد بعده أخوه الأصغر واستولى على القلاع والأموال فوصل علي شاه البلاد ومعه صاحب مازندران فنهوها وخربوها وامتنع منهم الأخ الصغير بالقلاع وأقام بقلعه كورا وهي التي فيها الأموال والذخائر وحصره فيها بعد أن ملكوا أسامة البلاد مثل سارية وآمل وغيرها من البلاد والحصون وخطب لخوارزم شاه فيها جميعها نصارت في طاعته وعاد علي شاه إلى جرجان وأقام ابن ملك مازندران في البلاد مالکها جميعها سوى القلعة التي فيها أخوه الأصغر وهو يرأسه ويستميله ويستعطفه وأخوه لا يرد جوابا ولا ينزل في حصنه .

(ذکر ملك غياث الدين كيوخرو مدينة أنطاكية) في هذه السنة ثالث شعبان ملك غياث الدين كيوخرو صاحب قونية وبلد الروم مدينة أنطاكية بالأمان وهي للروم على ساحل البحر وسبب ذلك أنه كان حصرها قبل هذا التاريخ وأطال المقام عليها وهدم عدة أبراج من سورها ولم يبق إلا فتحها عنوة فأرسل من بها من الروم إلى الفرنج الذين بجزيرة قبرس وهي قريبة منها ، فاستجدوهم فوصل إليها جماعة منهم ، فعند ذلك يتس غياث الدين منها ، ورحل عنها ، وترك طائفة من عسكره ؛ بالقرب منها بالجبال التي بينها وبين بلاده وأمرهم بقطع الميرة عنها فاستمر الحال على ذلك مدة ، حتى ضاق بأهل البلد واشتد الأمر عليهم فطلبوا من الفرنج الخروج لدفع المسلمين عن مضايقتهم فظن الفرنج أن الروم يريدون إخراجهم من المدينة بهذا السبب فوقع الخلف بينهم فافتتلوا فأرسل الروم إلى المسلمين وطلبوهم ليدخلوا إليهم البلد فوصلوا إليهم واجتمعوا معهم على قتال الفرنج فاهزم الفرنج ودخلوا الحصن فاعتصموا به فأرسل المسلمون يطلبون غياث الدين وهو بمدينة قونية فسار إليهم مجدداً في طائفة من عسكره فوصلها ثانی شعبان وتقرر الحال بينه وبين الروم وتسلم المدينة ذلك وحصر الحصن الذي فيه الفرنج وتسلبه وقتل كل من كان به من الفرنج .

(ذکر عزل ولد بکتمر صاحب خلاط وملك بلبان ومسير صاحب مازدين إلى خلاط وعوده) وفي هذه السنة ، قبض عسكر خلاط على صاحبها ، ولد بکتمر وملكها بلبان ملك شاه أرمن بن سکان ، وكتب أهل خلاط إلى ناصر الدين أرتق بن أيلغازي بن ألي بن تمرناش بن أيلغازي بن أرتق ، يستدعونه إليها ، وسبب ذلك أن ولد بکتمر كان صديقا جاهلا ، فقبض على الأمير شجاع الدين قتلغ بملوك من بمالیک شاه أرمن وهو كان أتابکة ومدبر بلاده وكان حسن السيرة مع الجند والرعيه فلما قتله اختلفت الكلمة عليه من الجند والعامه واشتغل هو باللهو واللعب وإدمان الشرب فكانت جماعة من أهل خلاط وجماعة من الجند ناصر الدين صاحب مازدين يستدعونه إليهم وإماما كانوا دون غيره من الملوك لأن أباه قطب

الدين أبلغا زى كان ابن أخت شاه ارمن بن سجان وكان شاه ارمن قد حلف له الناس في حياته لأنه لم يكن له ولد فلما تجددت بعده هذه الحادثة تذاكروا تلك الأيمان وقاروا نستدعيه ونملكه فإنه من أهل شاه ارمن فكاتبوه وطلبوه إليهم ثم إن بعض بمالك شاه ارمن اسمه بلبان وكان قد جاهر ولد بكتمر بالعداوة والعصيان سار من خلاط إلى بلاد ملاز كرد وملكها واجتمع الأجناد عليه وكثر جمعه وسار إلى خلاط فملكها واتفق وصول صاحب ماردين إليها وهو يظن أن أحدا لا يمتنع عليه ويسلمون إليه المدينة فنزل قريبا من خلاط عدة أيام فأرسل إليه بلبان يقول له إن أهل خلاط قد أمروني بالميل إليك وهم ينفرون من العرب والرأي أنك ترحل عائدا مرحلة واحدة وتقيم فإذا تسلمت البلد سلمته إليك لأنني لا يمكنني أن أملكه أنا ففعل صاحب ماردين ذلك فلما أبعده عن خلاط أرسل إليه يقول له تعود إلى بلدك وإلا جئت إليك وأوقعت بك وبمن معك وكان في قلة من الجيش فعاد إلى ماردين وكان الملك الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب صاحب حران وديار الجزيرة قد أرسل إلى صاحب ماردين لماسمع أنه يريد قصد خلاط يقول له إن سرت إلى خلاط قصدت بلدك وإنما خاف أن يملك خلاط فيقوى عليهم فلما سار إلى خلاط جمع الأشرف العساكر وسار إلى ولاية ماردين فأخذ دخلها وأقام بدنيسر حتى تجيء الأموال إليه فلما فرغ منه عاد إلى حران فكان مثل صاحب ماردين كما قيل (خرجت تطاب قرنين عادت بلا أذنين) وأما بلبان فإنه جمع العساكر وحشد وحصر خلاط وضيق على أهلها وبها ولد بكتمر فجمع من عنده بالبلد من الأجناد والعامه وخرج إليه فالتقوا فانهزم بلبان ومن معه من بين يديه وعاد إلى الذي بيده من البلاد وهو ملاز كرد وأرجيش وغيرهما من الحصون وجمع العساكر واستكثر منها وعاود حصار خلاط وضيق على أهلها فاضطروهم إلى خذلان ولد بكتمر لصغره وجهله بالملك واشتغاله بلهوه ولعبه ثم قبضوا عليه في القلعة وأرسلوا إلى بلبان وحلفوه على ما أرادوا وسلموا إليه البلد وابن بكتمر واستولى على جميع أعمال خلاط وسجن ابن بكتمر في قلعة هناك واستقر ملكه فسبحان من إذا أراد أمرا هيا أسبابه بالامس يقصدها شمس الدين محمد بن البهلوان وصالح الدين يوسف بن أيوب فلم يقدر أحدهما عليها والآن يظهر هذا المملوك العاجز القاصر عن الرجال والبلاد والأموال فيملكها صفوا عفوا ثم إن نجم الدين أيوب بن العادل صاحب ميفارفين سار نحو ولاية خلاط وكان قد استولى على عدة حصون من أعمالها منها حصن موسى ومدينته فلما قارب خلاط أظهر له بلبان العجز عن مقابله فطمع وأوغل في القرب فأخذ عليه بلبان الطريق وقاتله فهزمه ولم يفلت من أصحابه إلا القليل وهم جرحى وعاد إلى ميفارفين .

(ذكر ملك الكرج مدينة قرس وموت ملكة الكرج) في هذه السنة ملك الكرج حصن قرس من أعمال خلاط وكانوا قد حصروه مدة طويلة وضيقوا على من فيه واخذوا دخل الولاية عدة سنين وكل من نزل خلاط لا ينجدم ولا يسعي في راحة تصل إليهم وكان الوالي بها يواصل رسله في طلب النجدة وإزاحة من عليه من الكرج فلا يجاب له دعاء فلما طال الأمر عليه ورأى أن لا ناصر له صالح الكرج على تسليم القلعة على مال كثير وأقطع يأخذه منهم وصارت دار شرك بعد أن كانت دار توحيد فإما لله وإما إليه راجعون ونسأل الله أن يسهل للإسلام وأهله نصرا من عنده فإن ملوك زماننا قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم وظلمهم عن مد اشغور وحفظ البلاد ثم إن الله تعالى نظر إلى قلة ناصر الإسلام فتولاه فأمات ملكة الكرج واختلفوا فيما بينهم وكفى الله شرهم إلى آخر السنة .

(ذکر الحرب بين عسكر الخليفة وصاحب كرستان) في هذه السنة في رمضان سار عسكر الخليفة من خوزستان مع مملوكه سنجر وهو كان المتولى لتلك الاعمال ولها بعد موت طاشتكين أمير الحاج لأنه زوج ابنة طاشتكين إلى جبال كرستان وصاحبها يعرف بأبي طاهر وهي جبال منيعة بين فارس وأصبهان وخوزستان فقاتلوا أهلها وعادوا منزومين وسبب ذلك أن مملوكا للخليفة الناصر لدين الله اسمه قشتمر من اكابر مماليكه كان قد فارق الخدمة لتقصير رآه من الوزير نصير الدين العلوي الرازي واجتاز بخوزستان وأخذ منها ما أمكنه ولحق بأبي طاهر صاحب كرستان فأكرمه وعظمه وزوجه ابنته ثم توفي أبو طاهر فقوى أمر قشتمر وأطاعه أهل تلك الولاية فأمر سنجر بجمع العساكر وقصدته وقتاله ففعل سنجر ما أمر به وجمع العساكر وسار إليه فأرسل قشتمر يعتذر ويسأل أن لا يقصدته ويخرج إلى الخروج عن العبودية فلم يقبل عذره فجمع أهل تلك الاعمال ونزل إلى العسكر فلقبهم فهزمهم وأرسل إلى صاحب فارس بن دكلا وشمس الدين أيتغمش صاحب أصبهان وهمدان والري يعرفهما الحال ويقول إنني لاقوة لي بعسكر الخليفة لما أضيف إليهم عساكر أخرى من بغداد وعادوا إلى حربي وحينئذ لا أقدر بهم وطلب منهما النجدة وخوفهما من عسكر الخليفة إن ملك تلك الجبال فأجاباه إلى ما طلب فقوى جناحه واستمر على حاله.

(ذکر عدد حوادث) في هذه السنة قتل صبي صيبا آخر ببغداد وكما يتعاشران وعمر كل واحد منهما يقارب عشرين سنة فقال احدهما للآخر الساعة أضربك بهذه السكين بمازحه بذلك وأهوى نحوه بها فدخلت في جوفه فمات فهرب القاتل ثم أخذ وأمر به ليقتل فلما أرادوا قتله طلب دواة وبيضاء وكتب فيها من قوله :
 قدمت على الكريم بغير زاد • من الأعمال بالقلب السليم
 وسوء الظن أن تعتدّ زادا • إذا كان القدوم على كريم

وفيهما حج برهان الدين صدر جهان محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن مارة البخاري رئيس الحنفية ببخارا وهو كان صاحبها على الحقيقة يؤدي الخراج إلى الخطا وينوب عنهم في البلد فلما حج لم تحمد سيرته في الطريق ولم يصنع معروفا وكان قد أكرم ببغداد عند قدومه من بخارا فلما عاد لم يلفت إليه لسوء سيرته مع الحاج وسماه الحجاج صدر جهنم . وفيها في شوال مات شيخنا أبو الحرم مكى بن ريان بن شبة النحوي المقرئ بالموصل وكان عارفا بالنحو واللغة والقراءات لم يكن في زمانه مثله وكان ضريرا وكان يعرف سوى هذه العلوم من الفقه والحساب وغير ذلك معرفة حسنة وكان من خيار عباد الله وصالحهم كثير التواضع لا يزال الناس يشتغلون عليه من بكرة إلى الليل . وفيها فارق أمير الحاج مظفر الدين سنقر مملوك الخليفة المعروف بوجه السبع الحاج بموضع يقال له المرزوم وهضى في طائفة من أصحابه إلى الشام وسار الحاج ومعهم الجند فوصلوا سالمين ووصل هو إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب فأقطعه أقطعا كثيرا بمصر وأقام عنده إلى أن عاد إلى بغداد سنة ثمان وستمائة في جمادى الأولى فانه لما قبض الوزير أمن على نفسه وأرسل يطلب العود فأجيب إليه فلما وصل أكرمه الخليفة وأقطعه الكوفة . وفيها في جمادى الآخرة توفي أبو الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز الإسكندراني المعروف بابن النظروني في مارستان ببغداد وكان قد مضى زلي المايورقي في رسالة بأفريقية فحصل له منه عشرة آلاف دينار مغربية ففرقتها جميعها في بلده على معارفه وأصدقائه وكان فاضلا خيرا نعم الرجل رحمه

الله وله شعر حسن وكان قبا يعلم الادب واقام بالموصل مدة واشتغل على الشيخ أبي الحرم واجتمعت به كثيرا عند الشيخ أبي الحرم رحمه الله .^(١)

(ثم دخلت سنة أربع وستمئة)

(ذكر ملك خوارزم شاه وراء النهر وما كان بخراسان من الفتن وإصلاحها) في هذه السنة عبر علماء الدين محمد بن خوارزم شاه نهر جيحون لقتال الخطا وسبب ذلك أن الخطا كانوا قد طالت أيامهم ببلاد تركستان وما وراء النهر ونقلت وطأنهم على أهلها ولهم في كل مدينة نائب يجي إليهم الاموال وهم يسكنون الخركاهات على عادتهم قبل أن يملكوا وكان مقامهم بنواحي أوزكند وبلاساغرن وكاشغر وتلك النواحي فاتفق أن سلطان سمرقند وبخارا ويلقب خان خانان يعنى سلطان السلاطين وهو من أولاد الخانية عربق الذيب في الإسلام والملك أنف وضجر من تحكم الكفار على المسلمين فأرسل إلى خوارزم شاه يقول له إن الله عز وجل قد أوجب عليك بما أعطاك من سعة الملك وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين وبلادهم من أيدي الكفار وتخلصهم مما يجرى عليهم من التحكم في الاموال والأبشار ونحن نتفق معك على محاربة الخطا ونحمل إليك ما نحمله إليهم ونذكر اسمك في الخطبة وعلى السكة فأجابه إلى ذلك وقال أخاف أنكم لا توفون لي فسير إليه صاحب سمرقند وجوه أهل بخارا وسمرقند بعد أن حلفوا صاحبهم على الوفاء بما تضمنه وضمنوا عنه الصدق والثبات على ما بذل وجعلوا عنده رهائن فشرع في إصلاح أمر خراسان وتقرير قواعدها فولى أخاه على شاه طبرستان مضافة إلى جرجان وأمر بالحفظ والاحتياط وولى الأمير كركك خان وهو من أقارب أمه وأعيان دولته بنيسابور وجعل معه عسكرا وولى الأمير جلدك مدينة الخام وولى الأمير أمين الدين أبا بكر مدينة زوزن وكان هذا أمين الدين حمالا ثم صار أكبر الأمراء وهو الذي ملك كرمان على ما ذكره إن شاء الله تعالى وأقر الأمير الحسين على هراة وجعل معه ألف فارس من الخوارزمية وصالح غياث الدين محمودا على ما بيده من بلاد الغور

(١) وفيها توفي عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر كان ثقة عابدا زاهدا ورعا ، لم يكن في أولاد الشيخ عبد القادر الجيلاني خير منه ، لم يدخل فيما دخلوا فيه من المناصب والولايات ، بل كان متقللا من الدنيا مقبلا على أمر الآخرة وقد سمع الكثير وسمع عليه أيضا . وفيها توفي أيضا أبو الحزم مكي بن زيان بن شبة بن صالح الماكسيني ، من أعمال سنجان ، ثم الموصل النحوي ، قدم بغداد وأخذ على بن الخشاب وابن القصار ، والشكا ، الأنباري ، وقدم الشام فانتفع به خلق كثير منهم الشيخ علم الدين السخاوي وغيره وكان ضريرا ، وكان يتعصب لأبي العلاء المعري لما بينهما من القدر المشترك في الأدب والعمى ، ومن شعره :

إذا احتاج النوال إلى شفيح • فلا تقبله تضح قرير عين

إذا عيف النوال لفرد من • فأولى أن يعاف لمتنين

ومن شعره أيضا :

نفسى فداء لاغيد غنج • قال لنا الحق حين ودعنا

من ود شيئا من حبه طمعا • في قتله للوداع ودعنا

وفيها توفي إقبال الخادم جمال الدين أحد خدام صلاح الدين ، واقف الإقباليين الشافعية والحنفية ، وكانت دارين فجعلهما مدرستين ، ورقف عليهما وقفا الكبيرة للشافعية والصغيرة للحنفية ، وعليها ثلث الوقف . توفي بالقدس رحمه الله

وكرمير واستناب في مرو وسرخس وغيرهما من خراسان نوابا وأمرهم بحسن السياسة والحفظ والاحتياط وجمع عساكره جميعها وسار إلى خوارزم وتجهز منها وعبر جيحون واجتمع به سلطان سمرقند وسمع الخطا فحشدوا وجمعوا وجاءوا إليه فجري بينهم وقعت كثيرة ومغاورات فتارة له وتارة عليه .

(ذكر قتل ابن خرميل وحصر هراة وأسر خوارزمشاه وخلاصه) ثم إن خرميل صاحب هراة رأى سوء معاملة عسكر خوارزمشاه للرعية وتعدبهم إلى الأموال فقبض عليهم وحبسهم وبعث رسولا إلى خوارزمشاه يعتذر ويعرفه ما صنعوا فعظم عليه ولم يمكنه محاqqته لاشتغاله بقتال الخطا فكتب إليه يكتب بحسن فعله وبأمره بإنفاذ الجند الذين قبض عليهم لحاجته إليهم وقال له إنني قد أمرت هز الدين جلدك بن طغرل صاحب الخاتم أن يكون عندك لما أعلاه من هتله وحسن سيرته ، وأرسل إلى جلدك بأمره بالمسير إلى هراة وأسر إليه أن يحتال في القبض على حسين بن خرميل ، ولو أول ساعة يلقاه ، فسار جلدك في ألفي فارس ، وكان أبوه طغرل أيام السلطان سنجر واليا بهراة فهوى إليها بالأشواق يختارها على جميع خراسان فلما قارب هراة أمر ابن خرميل الناس بالخروج بتلقيه وكان للحسين وزير يعرف بخواجه الصاحب وكان كبيرا قد حسنته التجارب فقال لابن خرميل لا تخرج إلى لقائه ودعه يدخل إليك منفردا فإنني أخاف أن يغدر بك وأن يكون خوارزمشاه أمر بذلك ، فقال لا يجوز أن يقدم مثل هذا الأمير ولا ألتقيه ، وأخاف أن يضطن ذلك على خوارزمشاه وما أظنه يتجاسر عليّ ، فخرج إليه الحسين بن خرميل ، فلما بصر كل واحد منهما بصاحبه ترجل للالتقاء وكان جلدك قد أمر أصحابه بالقبض عليه فاختلطوا بهما وحالوا بين ابن خرميل وأصحابه وقبضوا عليه فانهزم أصحابه ودخلوا المدينة وأخبروا الوزير بالحال فأمر بإغلاق الباب والطلوع إلى الأسوار واستعد للحصار ونزل جلدك على البلد وأرسل إلى الوزير يبذل له الأمان ويتهدده إن لم يسلم البلد بقتل ابن خرميل فنأدى الوزير بشعار غياث الدين محمود الغوري وقال لجلدك لا أسلم البلد إليك ولا إلى الغادر ابن خرميل وإنما هو لغياث الدين ولأبيه قبله فقدموا ابن خرميل إلى السور فخاطب الوزير وأمره بالتسليم فلم يفعل فقتل ابن خرميل وهذه عاقبة الغدر فقد تقدم من أخباره عند شهاب الدين الغوري ما يدل على غدره وكفرانه الإحسان ممن أحسن إليه فلما قتل ابن خرميل كتب جلدك إلى خوارزمشاه بجملة الحال فأنفذ خوارزمشاه إلى كزلك خان والي نيسابور أمين الدين أبي بكر صاحب زوزن يأمرهما بالمسير إلى هراة وحصارها وأخذها فسارا في عشرة آلاف فارس فنزلوا على هراة وراسلوا الوزير بالتسليم فلم يلتفت إليهم وقال ليس لكم من المحل ما يسلم إليكم مثل هراة لكن إذا وصل السلطان خوارزمشاه سلمتها إليه فقاتلوه وجدوا في قتاله فلم يقدروا عليه وكان ابن خرميل قد حصن هراة وعمل لها أربعة أسوار محكمة وحفر خندقها وشحنها بالميرة فلما فرغ من كل ما أراد ، قال بقيت أخاف على هذه المدينة شيئا واحدا وهو أن تسكر المياه التي لها أياما كثيرة ثم ترسل دفعة واحدة فتحرق أسوارها فلما حصرها هؤلاء سمعوا قول ابن خرميل فسكروا المياه حتى اجتمعت كثيرا ثم أطلقوها على هراة فأحاطت بها ولم تصل إلى السور لأن أرض المدينة مرتفعة فامتلا الخندق ماء وصار حولها وحل فانتقل العسكر عنهم ولم يمكنهم القتال لعدم عن المدينة وهذا كان قصد ابن خرميل أن يمتلى الخندق ماء ويمنع الوحل من القرب عن المدينة فأقاموا مدة حتى نشف الماء فكان قول ابن خرميل من أحسن الحيل ونعود إلى قتال خوارزمشاه الخطا وأسرته وأما خوارزمشاه فإنه دام القتال بينه وبين الخطا ، فني بمض الأيام اقتتلوا واشتد القتال ودام

بينهم ثم انهزم المسلمون هزيمة قبيحة وأسر كثير منهم وقتل كثير وكان من جملة الأسرى خوارزمشاه وأسر معه أمير كبير يقال له فلان بن شهاب الدين مسعود أسرها رجل واحد ووصلت العساكر الإسلامية إلى خوارزم ولم يروا السلطان معهم فأرسلت أخت كزلك خان صاحب نيسابور وهو يحاصر هراة وأعلنت الحال فلما أتاه الخبر سار عن هراة لئلا إلى نيسابور وأحس به الأمير أمين الدين أبو بكر صاحب زوزن فأراد هو ومن عنده من الأمراء منعه مخافة أن يجرى بينهم حرب يطمع بسببها أهل هراة فيخرجون إليهم فيبلغون منهم ما يريدونه فامسكوا عن معارضته وكان خوارزمشاه قد خرب سور نيسابور لما ملكها من الغورية فشرع كزلك خان يهره وأدخل إليها الميرة واستكثر من الجند وعزم على الاستيلاء على خراسان إن صح فقد السلطان وبلغ خبر عدم السلطان إلى أخيه علي شاه وهو بطبرستان فدعا إلى نفسه وقطع خطبة أخيه واستعد لطلب السلطنة واختلطت خراسان اختلاطاً عظيماً وأما السلطان خوارزمشاه فإنه لما أسر قال له ابن شهاب الدين مسعود يجب أن تدع السلطنة في هذه الأيام وتصير خادماً لعل احتال في خلاصك فشرع يخدم ابن مسعود ويقدم له الطعام ويخلعه ثيابه وخفه ويعظمه فقال الرجل الذي أسرها لابن مسعود أرى هذا الرجل يعظّمك في أنت فقال أنا فلان وهذا غلامى فقام إليه وأكرمه وقال لولا أن القوم عرفوا بمكانك عندي لأطلقتك ثم تركه أياً ما فقال له ابن مسعود إنى أخاف أن يرجع المهزومون فلا يراني أهلى معهم فيظنون أنى قتلت فيعملون العزاء والمأتم وتضيق صدورهم لذلك ثم يقتسمون مالى فأهلك وأحب أن تقرر على شينا من المال حتى أحمله إليك فقرر عليه مالا وقال له أريد أن تأمر رجلاً عاقلاً يذهب بكتابى إلى أهلى ويخبرهم بعافيتى ويحضر معى من يحمل المال ثم قال إن أصحابكم لا يعرفون أهلنا ولكن هذا غلامى أثق به ويصدق أهلى فأذن له الخطاى بإنفاذه فبيرة وأرسل مع الخطاى فرسا وعدة من الفرسان يحمونه فساروا حتى قاربوا خوارزم وعاد الفرسان عن خوارزمشاه ووصل خوارزمشاه إلى خوارزم فاستبشر به الناس وضربت البشائر وزينوا البلد وأتته الأخبار بما صنع كزلك بنيسابور وبما صنع أخوه علي شاه بطبرستان .

(ذكر مافعه خوارزمشاه بخراسان) لما وصل خوارزمشاه إلى خوارزم أتته الأخبار بمافعه كزلك خان وأخوه علي شاه وغيرهم فسار إلى خراسان وتبعته العساكر فتقطعت ووصل هو إليها في اليوم السادس ومعه ستة فرسان وبلغ كزلك خان وصوله فأخذ أمواله وعساكره وهرب نحو العراق وبلغ أخاه علي شاه فخافه وسار على طريق قهستان ملتجئاً إلى غياث الدين محمود الغورى صاحب فيروزكوه فلتقاه وأكرمه وأزله عنده وأما خوارزم شاه فإنه دخل نيسابور وأصلح أمرها وجعل فيها نائباً وسار إلى هراة فنزل عليها مع عسكره الذين يحاصرونه وأحسن إلى أولئك الأمراء ووثق بهم لأنهم صبروا على تلك الحال ولم يتغيروا ولم يبلغوا من هراة غرضاً بحسن تدبير ذلك الوزير فأرسل خوارزمشاه إلى الوزير يقول له إنك وعدت عسكرى أنك تسلّم المدينة إذا حضرت ، وقد حضرت فلم فقال لا أفعل لأنى أعرف أنكم غدارون لا تبقون على أحد ولا أسلم البلد إلا إلى غياث الدين محمود فغضب خوارزمشاه من ذلك وزحف إليه بعساكره فلم يكن فيه حيلة فاتفق جماعة من أهل هراة وقالوا هلك الناس من الجوع والقلة وقد تطلت علينا ما يشنا وقد مضى سنة وشهر وكان الوزير بعد تسليم البلد إلى خوارزمشاه إذا وصل إليه وقد حضر خوارزمشاه ولم يسلم ويجب أن نحتال في تسليم البلد والخلاص من هذه الشدة التى نحن فيها فأنهى ذلك إلى الوزير فبعث إليهم جماعة من عسكره وأمره بالقبض

عليهم فغضب الجند إليهم فثارت فتنة في البلد عظام خطبها فاحتاج الوزير إلى تداركها بنفسه فغضب لذلك فكتب من البلد إلى خوارزمشاه بالخبر وزحف إلى البلد وأمله مختلطون فغربوا برجين من السور ودخلوا البلد فلكوه وقبضوا على الوزير فقتله خوارزمشاه وملك البلد وذلك سنة خمس وستمئة وأصلح حاله وسلمه إلى خاله أمير ملك وهو من أعيان أمرائه فلم يزل بيده حتى هلك خوارزمشاه ، وأما ابن شهاب الدين مسعود فإنه أقام عند الخطا مديدة فقال له الذي استأسره يوما إن خوارزمشاه قد عدم فأبش عندك من خبره فقال له ، أما تعرفه قال لا قال هو أسيرك الذي كان عندك فقال لم لا عرفتي حتى كنت أخدمه وأسير بين يديه إلى مملكته قال خفتكم عليه فقال الخطائي سر بنا إليه فسار إليه فأكرمهما وأحسن إليهما وبالغ في ذلك .

(ذكر قتل غياث الدين محمود) لما سلم خوارزمشاه هراة إلى خاله أمير ملك وسار إلى خوارزم أمره أن يقصد غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد بن سام الغوري صاحب الغور وفيروزكوه وأن يقبض عليه وعلى أخيه علي شاه بن خوارزمشاه ويأخذ فيروزكوه من غياث الدين فإر أمير ملك إلى فيروزكوه وبلغ ذلك إلى محمود فأرسل يبذل الطاعة ويطلب الأمان فأعطاه ذلك فنزل إليه محمود فقبض عليه أمير ملك وعلى علي شاه أخى خوارزمشاه فسألاه أن يحملهما إلى خوارزمشاه ليرى فيهما رأيه فأرسل إلى خوارزمشاه يعرفه الخبر فأمره بقتلهما فقتلا في يوم واحد واستقامت خراسان كلها لخوارزمشاه وذلك سنة خمس وستمئة أيضا وهذا غياث الدين هو آخر ملوك الغورية ، ولقد كانت دولتهم من أحسن الدول سيرة وأعدلها وأكثرها جهادا وكان محمود هذا عادلا حلما كريما من أكرم الملوك أخلاقا رحمه الله تعالى .

(ذكر عود خوارزمشاه إلى الخطا) لما استقر أمر خراسان لمحمد خوارزمشاه وعبر نهر جيحون جمع له الخطا جمعا عظيما وساروا إليه والمقدم عليهم شيخ دولتهم القائم مقام الملك فيهم المعروف بطاينكوه وكان عمره قد جاوز مائة سنة ولقى حروبا كثيرة وكان مظفرا حسن التدبير والعقل واجتمع خوارزمشاه وصاحب سمرقند وتصانوا م والخطا سنة ست وستمئة فجرت حروب لم يكن مثلها شدة وصبروا فانهمز الخطا هزيمة منكرة وقتل منهم وأسرى خلق لا يحصى وكان فيمن أسر طاينكوه مقدمهم وجرى به إلى خوارزمشاه فأكرمه وأجلسه على سريره وسيره إلى خوارزم ثم قصد خوارزمشاه إلى بلاد ماوراء النهر فملكها مدينة مدينة وناحية ناحية حتى بلغ أوزكند وجعل نوابه فيها وعاد إلى خوارزم ومعه سلطان سمرقند وكان من أحسن الناس صورة فكان أهل خوارزم يجتمعون حتى ينظروا إليه فزوجه خوارزمشاه بابنته ورده إلى سمرقند وبعث معه شحنة يكون بسمرقند على ما كان رسم الخطا .

(ذكر غدر صاحب سمرقند بالخوارزميين) لما عاد صاحب سمرقند إليها ومعه شحنة لخوارزمشاه وأقام معه نحو سنة فرأى سوء سيرة الخوارزميين وقبح معاملتهم ندم على مفارقة الخطا فأرسل إلى ملك الخطا يدعوهم إلى سمرقند ليرسلها إليه ويعود إلى طاعته وأمر بقتل كل من في سمرقند من الخوارزميين بمن سكنها قديما وحديثا وأخذ أصحاب خوارزمشاه فكان يحمل الرجل منهم قطعتين ويملقهم في الأسواق كما يعلق القصاب اللحم وأساء غاية الإساءة ومضى إلى القلعة ليقتل زوجته ابنة خوارزمشاه فأغلقت الأبواب ووقفت بجوارها تمنعه وأرسلت إليه تقول أنا امرأة وقتل مثلي قبيح ولم يكن مني إليك ما أستوجب به هذا منك ولعل تركي أحد طاعة فاتق الله في تركها ووكل بها من يمنعها التصرف في نفسها ووصل الخبر إلى خوارزمشاه فقامت

قيامته وغضب غضبا شديدا وأمر بقتل كل من بخوارزم من الغرباء فنفته أمه عن ذلك وقالت إن هذا قد أتاه الناس من أقطار الأرض ولم يرض كلهم بما كان من هذا الرجل فأمر بقتل أهل سمرقند فنفته أمه فأتته وأمر عساكره بالتجهيز إلى ما وراء النهر وسيرهم أرسالا كلما تجهز جماعة عبروا جيحون فعبر منهم خلق كثير لا يحصى ثم عبر هو بنفسه في آخرهم ونزل على سمرقند وأنفذ إلى صاحبها يقول له قد فعلت ما لم يفعله مسلم واستحللت من دماء المسلمين ما لا يفعله عاقل لا مسلم ولا كافر وقد عفا الله عما سلف فأخرج من البلاد وأمض حيث شئت فقال لا أخرج وأفعل ما بدالك فأمر عساكره بالزحف فأشار عليه بهض من معه بأن يأمر بعض الأمراء إذا فتحوا البلدان يقصدوا الدرب الذي يسكنه التجار فيمنع من نهبه والنظر إلى إهم بسوء فإنهم غرباء وكلهم كارهون لهذا الفعل فأمر بعض الأمراء بذلك وزحف ونصب السلايم على السور فلم يكن بأسرع من أن أخذوا البلد وأذن لعسكره بالنهب وقتل من يجدونه من أهل سمرقند فهب البلد وقتل أهله ثلاثة أيام فيقال إنهم قتلوا منهم مائتي ألف إنسان وسلم ذلك الدرب الذي فيه الغرباء فلم يعدم منهم الفرد ولا الأدمى الواحد ثم أمر بالكف عن النهب والقتل ثم زحف إلى القلعة فرأى صاحبها ماملأ قلبه هيبته وخوفا فأرسل يطلب الأمان فقال لا أمان لك عندي فزحفوا عليها فلكروها وأسروا صاحبها وأحضروه عند خوارزمشاه فقبل الأرض فطلب العفو فلم ينف عنه وأمر بقتله فقتل صبورا وقتل معه جماعة من أفرابه ولم يترك أحدا من ينسب إلى الخانية ورتب فيها وفي سائر البلاد نوابه ولم يبق لأحد معه في البلاد حكم.

(ذكر الوقعة التي أفنت الخطا) لما فعل خوارزم شاه بالخطا ما ذكرناه مضى من سلم منهم إلى ملكهم فإنه لم يحضر الحرب فاجتمعوا عنده وكان طائفة عظيمة من التتر قد خرجوا من بلادهم حدود الصين قديما ونزلوا وراء بلاد تركستان وكان بينهم وبين الخطا عداوة وحروب فلما سمعوا بما فعله خوارزمشاه بالخطا قصدوم مع ملكهم كشيلى خان فلما رأى ملك الخطا ذلك أرسل إلى خوارزمشاه يقول له أما ما كان ملك من أخذ بلادنا وقتل رجالنا فعفو عنه وقد أتى من هذا العدو من لا قبل لنا به وإهم إن انتصروا علينا وملكونا فلا دافع لهم عنك والمصلحة أن تدير إلينا بعضا كرك وتنصرنا على قنالم ونحن نحلف لك أننا إذا ظهرنا بهم لا نتعرض إلى ما أخذت من البلاد ونقنع بما في أيدينا وأرسل إليه كشيلى خان ملك التتر يقول إن هؤلاء الخطا أعداؤك وأعداء آبائك وأعداؤنا فسادنا عليهم ونحلف أننا إذا انتصرنا عليهم لا نقرب بلادك ونقنع بالمواضع التي ينزلونها فأجاب كلا منهما أنني معك ومعاضدك على خصمك وسار بعساكره إلى أن نزل قريبا من الموضع الذي تصافوا فيه فلم يخالطهم مخالطة يعلم بها أنه من أحدهما فكانت كل طائفة منهم تظن أنه معها وتواقع الخطا والتتر فاهزم الخطا هزيمة عظيمة فالجيتند خوارزمشاه وجعل يقتل ويأسرو وينهب ولم يترك أحدا ينجو منهم فلم يسلم منهم إلا طائفة يسيرة مع ملكهم في موضع من نواحي الترك يحيط به جبال ليس إليه طريق إلا من جهة واحدة تحصنوا فيه وانضم إلى خوارزم شاه منهم طائفة وساروا في عسكره وأنفذ خوارزمشاه إلى كشيلى خان ملك التتر يمت عليه بأنه حضر لمساعدته ولولاه ما تمكن من الخطا فاعترف له كشيلى خان بذلك مدة ثم أرسل إليه يطلب منه المفاصلة على بلاد الخطا وقال كما أننا اتفقنا على إبادتهم يذنبى أن نقسم بلادهم فقال ليس لك عندي غير السيف ولستم بأقوى من الخطا شوكة ولا أعز ملكا إن قمت بالمساكنة والإسرت إليك وفعلت بك شر مما فعلت بهم وتجهز وسار حتى نزل قريبا منهم وعلم خوارزمشاه أنه لا طاقة له به

فكان يراوغه فإذا سار إلى موضع قصد خوارزمشاه أدله وأثقالهم فينهبها وإذا سمع أن طائفة سارت عن موطنهم سار إليها فأوقع بها فأرسل إليه كشيلى خان يقول له ليس هذا فعل الملوك هذا فعل اللصوص وإلا إن كنت سلطانا كما تقول فيجب أن نلتقى بإما أن تهزمنى وتملك البلاد التى بيدي وإما أن أفعل أنا بك ذلك فكان يغالطه ولا يجيبه إلى ما طلب لكنه أمر أهل الشاش وفرغانة واسفيجاب وكاسان وما حولها من المدن التى لم يكن فى الدنيا أزه منها ولا أحسن عمارة بالجللاء منها وللحاق ببلاد الإسلام ثم خربها جميعها خوفا من التتر أن يملكوها ثم اتفق خروج هؤلاء التتر الآخر الذين خربوا الدنيا وملكهم جنكزخان النهرجى على كشيلى خان التترى الأول فاشتغل بهم كشيلى خان عن خوارزمشاه فخلا وجهه فعبث التتر إلى خراسان .

(ذكر ملك نجم الدين بن الملك العادل خلط) فى هذه السنة ملك الملك الأوحى نجم الدين أيوب ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب مدينة خلط وسبب ذلك أنه كان بمدينة مياقارقين من جهة أبيه فلما كان من ملك بلبان خلط ما ذكرناه قصد هو مدينة موس وحصرها وأخذها وأخذ غيرها مما بجاورها وكان بلبان لم تثبت قدمه حتى يمنعه فلما ملكها طمع فى خلط فسار إليها فهزمه بلبان كما ذكرناه أيضا فعاد إلى بلده وجمع وحشد وسير إليه أبوه جيشا فقصد خلط فسار إليه بلبان فتصافا واقتلا فانهمزم بلبان وتمكن نجم الدين من البلاد وازداد منها ودخل بلبان خلط واعتصم بها وأرسل رسولا إلى مغيبك الدين طغرل شاه بن قلع أرسلان وهو صاحب أرزن الروم يستجده على نجم الدين فحضر بنفسه ومعه عسكره فاجتمعا وهزما نجم الدين وحصرها موش فأشرف الحصار على أن تملك فغدر ابن قلع أرسلان بصاحب خلط وقتله طمعا فى البلاد فلما قتله سار إلى خلط فننعه أهلها عنها فسار إلى ملازكرد فرده أهلها أيضا وامتنعوا عليه فلما لم يجد فى شىء من البلاد مطمعا عاد إلى بلده فأرسل أهل خلط إلى نجم الدين يستدعونه إليهم ليلكروه فحضر عندهم وملك خلط وأعمالها سوى البشير منها وكره الملوك المجاورون له ملكها خوفا من أبيه وكذلك أيضا خاينه الكرج وكرهوه فتابعوا الغارات على أعمال خلط وبلادها ونجم الدين مقيم بخلط لا يقدر على مفارقتها فلقى المسلمون من ذلك أذى شديدا واعتزل جماعة من عسكر خلط واستولوا على حصن وان وهو من أعظم الحصون وأمنعها وعضوا على نجم الدين واجتمع إليهم جمع كثير وملكوا مدينة أرجيش فأرسل نجم الدين إلى أبيه الملك العادل يعرفه الحال ويطلب منه مجدة وأن يمدّه بعسكر فسير إليه أخاه الملك الأشرف موسى بن العادل فى عسكر فاجتمعا فى عسكر كثير وحصرنا قلعة وان وبها الخلاطية وجدوا فى قتالهم فضعف أولئك عن مقاومتهم فسلخوا وصلحوا وخرجوا منها وتسلبها بنجم الدين واستقر ملكه بخلط وأعمالها وعاد أخوه الأشرف إلى بلده حران والرها .

(ذكر غارات الفرنج بالشام) وفى هذه السنة كثر الفرنج الذين بطرابلس ، وحصن الأكراد وأكثروا الإغارة على بلد حمص وولاياتها ونازلوا مدينة حمص وكان جمعهم كثيرا فلم يكن لصاحبها أسد الدين شيركوه ابن محمد بن شيركوه بهم قوة ، ولا يقدر على دفعهم ومنعهم فاستنجد الظاهر غازى صاحب حلب وغيره من ملوك الشام فلم ينجده أحد إلا الظاهر فإنه سير له عسكرا أقاموا عنده ومنعوا الفرنج عن ولايته ثم إن الملك العادل خرج من مصر بالأساكر الكثيرة وقصد مدينة هكا فصالحه صاحبها الفرنجى على قاعدة استقرت من إطلاق أسرى من المسلمين وغير ذلك ، ثم سار إلى حمص فنزل على بحيرة قدس وجاءه عساكر الشرق وديار

الجزيرة ودخل الى بلاد طرابلس وحاصره موصفا يسمى القلبيات واخذها صلحا واطلق صاحبه وغنم ما فيه من دواب وسلاح وخربه وتقدم الى طرابلس ؛ فنهب واحرق وسبي وغنم وعاد الى بحيرة قدس ؛ وترددت الرسل بينه وبين الفرنج في الصلح فلم تستقر قاعدة ودخل الشتاء وطلبت العساكر الشرقية العود الى بلادهم قبل البرد فنزل طائفة من العسكر بمحصر عند صاحبها وعاد الى دمشق فشتى بها وعادت عساكر ديار الجزيرة الى اماكنها وكان سبب خروجه من مصر بالعساكر ان اهل قبرس الفرنج اخذوا عدة قطع من اسطول مصر واسروا من فيها فارسل العادل الى صاحب عكا في رد ما اخذوا ويقول نحن صلح فلم غدرتم باصحابنا فاعتذر بان اهل قبرس ليس لي عليهم حكم وان مرجعهم الى الفرنج الذين بالقسطنطينية ثم ان اهل قبرس ساروا الى القسطنطينية بسبب غلاء كان عندهم تعذرت عليهم الاقوات ، وعاد حكم قبرس الى صاحب عكا ، واعاد العادل مراسلته فلم يفصل حال فخرج بالعساكر وفعل بعكا ما ذكرنا فاجابه حينئذ صاحبها الى ما طلب وارسل الاسرى .

(ذكر الفتنة بخلاط وقتل كثير من أهلها) لما تم ملك خلاط واعمالها للملك الاوحد نجم الدين بن العادل سار عنها الى ملازكرد ليقرر قواعدها ايضا ويفعل ما ينبغي ان يفعله فيها فلما فارق خلاط وثب أهلها على من بها من العسكر فأخرجوه من عندهم وعصوا وحصروا القلعة وبها أصحاب الاوحد ونادوا بشعار شاه ارمن وإن كان ميتا يعنون بذلك رد الملك الى أصحابه ومماليكه . فبلغ الخبر الى الملك الاوحد فعاد إليهم وقد وافاه عسكر من الجزيرة فقوى بهم وحصر خلاط فاختلف أهلها فقال إليه بعضهم حسدا للآخرين فلكها وقتل بها خلقا كثيرا من أهلها وأسر جماعة من الاعيان فسيرهم الى ميفارقين وكان كل يوم يرسل إليهم فيقتل منهم جماعة فلم يسلم الا القليل وذل اهل خلاط بعد هذه الواقعة وتفرقت كلمة للفتيان وكان الحكم إليهم وكفى الناس شرم فإبهم كانوا قد صاروا يقيمون ملكا ويقتلون آخر السلطنة عندهم لا حكم لها وإنما الحكم لهم وإليهم .

(ذكر ملك أبي بكر بن البهلوان مراغة) في هذه السنة ملك الأمير نصرة الدين أبو بكر بن البهلوان صاحب اذربيجان مدينة مراغة وسبب ذلك أن صاحبها علاء الدين قراسنقر مات هذه السنة وولى بعده ابن له طفل وقام بتدبير دولته وتربيته خادم كان لآبيه فعصى عليه أمير كان مع آبيه وجمع جمعا كثيرا فارسل إليه الخادم من عنده من العسكر فقاتلهم ذلك الأمير فانهزموا واستقر ملك ولد علاء الدين إلا أنه لم تطل أيامه حتى توفي في أول سنة خمس وستائة وانقرض أهل بيته ولم يبق منهم أحد ، فلما توفي سار نصرة الدين أبو بكر من تبريز الى مراغة فلكها واستولى على جميع مملكة آل قراسنقر ما عدا قلعة روين فإنها احتصم بها الخادم وعنده الخزان فامتنع بها على الأمير أبي بكر .

(ذكر عزل نصير الدين وزير الخليفة) كان هذا نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي من أهل الري من بيت كبير فقدم بغداد لما ملك مؤيد الدين بن القصاب وزير الخليفة الري ولقي من الخليفة قبولا لجعله نائب الوزارة ثم جعله وزيرا وحكم ابنه صاحب المخزن ، فلما كان في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة عزل وأغلق بابه وكان سبب عزله أنه أساء السيرة مع أكابر مماليك الخليفة فنهى أمير الحاج مظفر الدين سنقر المعروف بوجه السبع فإنه هرب من يديه الى الشام سنة ثلاث وستائة فارق الحاج بالمرخوم وارسل يعتذر ويقول إن الوزير يريد أن لا يبقى في خدمة الخليفة أحداً من مماليكه ولا شك أنه يريد أن يدعى الخلافة وقال الناس في ذلك فأكثروا وقالوا الشعر فن ذلك قول بعضهم :

ألا مبلغ عنى الخليفة أحدا ، توق وقيت السوء ما أنت صانع
وزيرك هذا بين أمرين فهما ، فمالك يا خير البرية ضائع
فإن كان حقا من سلالة أحمد ، فهذا وزير فى الخسلافة طامع
وإن كان فيما يدعى غير صادق ، فأضيع ما كانت لديه الصنائع

فجزله ، وقيل فى سبب ذلك غيره ، ولما عزل أرسل إلى الخليفة يقول إننى قد هت إلى ههنا وليس لى دينار
ولا درهم وقد حصل لى من الأموال والأعلاق النفيسة وغير ذلك ما يزيد على خمسة آلاف دينار ويسأل أن
يؤخذ منه الجميع ويمكن من المقام بالمشهد أسوة ببعض العلويين فأجابته إننا ما أنعمنا عليك بشىء فتوينا إعادته
ولو كان ملء الأرض ذهباً ونفسك فى أمان الله وأماننا ولم يبلغنا عنك ما تستوجب به ذلك غير أن الأعداء
قد أكثروا فىك فاختر لنفسك موضعا تنتقل إليه ، وقرأ محترما فاختر أن يكون تحت الاستظهار من جانب
الخليفة لكلا يتمكن منه العدو فتذهب نفسه ففعل به ذلك ، وكان حسن السيرة قريبا إلى الناس حسن اللقاء لم
والانبساط معهم عفيفاً عن أموالهم غير ظالم لهم فلما قبض عاد أمير الحاج من مصر فى الخدمة العادلة وعاد
أيضا قشتمر وأقيم فى النيابة فى الوزارة فخر الدين أبو البدر محمد بن أحمد بن أمسينا الواسطى إلا أنه لم يكن متحكما
(ذكر عدة حوادث) فى هذه السنة ليلة الأربعاء لخمس بقين من رجب زلزلات الأرض وقت السحر وكنت
حينئذ بالموصل ولم تكن بها شديدة وجاءت الأخبار من كثير من البلاد بأنها زلزلت ولم تكن بالقوية .
وفىها أطلق الخليفة الناصر لدين الله جميع حق البيع ، وما يؤخذ من أرباب الأمتعة من المكوس من سائر
المبيعات وكان مبلغا كثيرا وكان سبب ذلك أن بنتا لعزالدين نجاح شرابى الخليفة توفيت فاشتري لها بقرة
لتذبح ويتصدق بلحمها عنها فرفعوا فى حساب ثمنها مؤنة البقرة فكانت كثيرة فوقف الخليفة على ذلك وأمر
بإطلاق المؤنة جميعها . وفىها فى شهر رمضان أمر الخليفة ببناء دور فى المحال ببغداد ليفطر فيها الفقراء وسميت
دور الضيافة يطبخ فيها اللحم الضأن والخبز الجيد عمل ذلك فى جانبى بغداد وجعل فى كل دار من يوثق بأمانته
وكان يعطى كل إنسان قدحا مملوا من الطيبخ واللحم ومنا من الخبز فكان يفطر كل ليلة على طامه خلق لا يحصون
كثرة . وفىها زادت دجلة زيادة كثيرة ودخل الماء فى خندق بغداد من ناحية باب كلواذى فخيف على البلد
من الغرق فاهتم الخليفة بسد الخندق وركب فخر الدين نائب الوزارة وعزالدين الشرابى ووقفا ظاهر البلد فلم
يبرح حتى سد الخندق . وفىها توفى الشيخ حنبل بن عبدالله بن الفرج المكبر بجامع الرصافة وكان على الإسناد روى
هن ابن الحصين مسند أحمد بن حنبل وله إسناد حسن وقدم الموصل وحدث بها وبغيرها^(١)

(١) وفىها توفى عبدالرحمن بن عيسى ابن أبى الحسن المروزى الواهظ البغدادى ، سمع من ابن أبى الوقت وغيره
واشتغل على بن الجوزى بالوعظ ، ثم حدثه نفسه بمضاهاته وشيخت نفسه ، واجتمع عليه طائفة من أهل باب النصيرة
ثم تزوج فى آخر عمره وقد قارب السبعين ، فاغتسل فى يوم بارد فانتفخ ذكره فمات فى هذه السنة وفىها توفى الأمير
زين الدين قراجا الصلاحى صاحب صرخد ، كانت له دار هند باب الصغير عند قناة الزلاقة ، وتربته بالسفح فى قبة
على جادة الطريق عند تربة ابن تيمرك ، وأقر العادل ولده يعقوب على صرخد . وفىها توفى أيضا عبدالعزيز الطبيب
توفى لجأة ، وهو والد سعد الدين الطبيب الأشرفى ، وفيه يقول ابن عنين :

فرارى ولا خلف الخطيب جماعة ، وموتى ولا عبد العزيز طيب

(ثم دخلت سنة خمس وستائة)

(ذكر ملك الكرج أزجيش وعودم عنها) في هذه السنة سارت الكرج في جموعها إلى ولاية خلاط وقصدوا مدينة أزجيش لحصروها وملكوها عنوة ونهبوا جميع ما بها من الأموال والأمتعة وغيرها وأمسروا وسبوا أهلها وأحرقوها وخربوها بالسكينة ولم يبق بها من أهلها أحد فأصبحت خاوية على عروشها كأن لم تكن بالأمس وكان نجم الدين أيوب صاحب أرمينية بمدينة خلاط، وعنده كثير من العساكر، فلم يقدم على الكرج لأسباب، منها: كثرتهم وخوفه من أهل خلاط لما كان أسلف إليهم من القتل والأذى، وخاف أن يخرج منها فلا يمكن من العود إليها فلما لم يخرج إلى قتال الكفار عادوا إلى بلادهم سالمين لم يذعرهم ذعر وهذا جميعه وإن كان عظيمًا شديدًا على الإسلام وأهله فانه يسير بالنسبة إلى ما كان مما ذكره سنة أربع عشرة إلى سنة سبع عشرة وستائة .

(ذكر قتل سنجر شاه وملك ابنه محمود) في هذه السنة قتل سنجر شاه بن غازي بن مودود بن زنكي ابن آسنقر صاحب جزيرة ابن عمر وهو ابن عم نورالدين صاحب الموصل قتله ابنه غازي واقتد سلك ابنه في قتله طريقًا عجيبًا يدل على مكر ودهاء وسبب ذلك أن سنجر كان سبيء السيرة مع الناس كلهم من الرعية والجنود والحريم والأولاد وبلغ من قبيح فعله مع أولاده أنه سير ابنه محمودا ومودود إلى قلعة فرح من بلد الزوزان وأخرج ابنه هذا إلى دار بالمدينة أسكنه فيها ووكل به من يمنعه من الخروج وكانت الدار إلى جانب بستان لبعض الرعية فكان يدخل إليه منها الحيات والعقارب وغيرهما من الحيوان المؤذى ففي بعض الأيام اصطاد حية وسيرها في مندبل إلى أبيه لعله يرق له فلم يعطف عليه فأعمل الحيلة حتى نزل من الدار التي كان بها واختفى ووضع إنسانا كان يخدمه فخرج من الجزيرة وقصد الموصل وأظهر أنه غاري بن سنجر فلما سمع نورالدين بقربه منها أرسل نفقة وثيابا وخيلا وأمره بالعود وقال إن أباك يتجنى لنا الذنوب التي لم نعملها ويقبح ذكرنا فإذا صرت عندنا جعل ذلك ذريعة للشناعات والبشاعات ونقع معه في صداع لا ينادى وليده فسار إلى الشام وأما غازي بن سنجر فإنه تسلق إلى دار أبيه واختفى عند بعض سراريه وعلم به أكثر من بالدار فسترت عليه بغضا لأبيه وتوقعا للخلاص منه لشدة عليه فبقي كذلك وترك أبوه الطلب له ظانمنا أنه بالشام فاتفق أن أباه في بعض الأيام شرب الخمر بظاهر البلد مع ندمائه فكان يقترح على المغنين أن يغنوا في الفراق وماشاكل

= وفيها توفي العفيف بن الدرعي إمام مقصورة الحنفية الغريبة بجامع بني أمية . وفيها توفي أيضا أبو محمد جعفر بن محمد ابن محمد بن محمود بن هبة الله بن أحمد بن يوسف الأربلي ، كان فاضلا في علوم كثيرة في الفقه على مذهب الشافعي ، والحساب والفرائض والهندسة والأدب والنحو ، وما يتعلق بمعلوم القرآن العزيز وغير ذلك . ومن شعره :

لا يدفع المرء ما يأتي به القدر • وفي الخطوب إذا فكرت معتبر
فليس ينجي من الأقدار إن نزلت • رأى وحزم ولا خوف ولا حذر
فاستعمل الصبر في كل الأمور ولا • تجزع لشيء فمقبي صبرك الظفر
كم منا عسر فصرفه الله عنا وولى بعده يسر
لا يئس المرء من روح الإله فما • يياس منه إلا عصبه كفروا
إني لأعلم أن الدهر ذو دول • وأن يومه ذا أمن وذا خطر

ذلك ويبكى ويظهر في قوله قرب الأجل ودنو الموت وزوال ما هو فيه فلم يزل كذلك إلى آخر النهار وعاد إلى داره وسكر عند بعض حظاياها ففي الليل دخل الخلاء وكان ابنه عند تلك الحظية فدخل إليه فضربه بالسكين أربع عشرة ضربة ثم ذبحه وتركه ملقى ودخل الحمام وقعد يلعب مع الجوارى فلو فتحت باب الدار وأحضر الجند واستحلفهم لملك البلد لكنه آمن واطمأن ولم يشك في الملك فاتفق أن بعض الخدم الصغار خرج إلى الباب وأعلم أستاذ دار سنجر الخبر فأحضر أعيان الدولة وعرفهم ذلك وأغلق الأبواب على غازي واستحلف الناس لمحمود بن سنجر شاه وأرسل إليه أحضره من فرح ومعه أخوه مودود فلما حلف الناس وسكنوا فتحوا باب الدار على غازي ودخلوا عليه ليأخذوه فماتهم عن نفسه فقتلوه وألقوه على باب الدار فأكلت الكلاب بعض لحمه ثم دفن باقيه ووصل محمود إلى البلد وملكه ولقب بمعز الدين لقب أبيه فلما استقر أخذ كثيرا من الجوارى اللواتي لآبيه ففرقهن في دجلة واقعد حدثي صديق لنا أنه رأى بدجلة في مقدار غلوة بهم سبع جوارى مفرقات منهن ثلاث قد أحرقت وجوههن بالنار فلم أعلم سبب ذلك الحريق حتى حدثتني جارية اشتريتها بالموصل من جواريه أن محمودا كان يأخذ الجارية فيجعل وجهها في النار فإذا احترقت ألقاها في دجلة وباع من لم يعرفه سنن فتفرق أهل تلك الدار أيدي سبا وكان سنجر شاه قبيح السيرة ظالما غاشما كثير المخاتلة والمواربة والنظر في دقيق الأمور وجليلها لا يمتنع من قبيح يفعله مع رعيتيه وغيرهم من أخذ الأموال والأموال والقتل والإهانة وسلك معهم طريقا وعرا من قطع الألسنة والأنوف والآذان وأما اللحي فإنه حلق منها مالا يحصى وكان جل فكره في ظلم يفعله وبلغ من شدة ظلمه أنه كان إذا استدعى إنسانا ليحسن إليه لا يرضى إلا وقد قارب الموت من شدة الخوف واستعلى في أيامه السفهاء ونفقت سوق الأشرار والساعين بالناس فخرّب البلد وتفرق أهله لاجرم سلط الله عليه أقرب الخلق إليه فقتله ثم قتل ولده غازي وبعد قليل قتل ولده محمود أخاه مودوداً وجرى في داره من التحريق والتفريق والتفريق ما ذكرنا بعضه ، ولو رما شرح قبيح سيرته لطال والله تعالى بالمرصاد لكل ظالم .

(ذكر هدة حوادث) في هذه السنة ثانی المحرم توفى أبو الحسن ورام بن أبي فراس الزاهد بالحلة السيفية وهو منها ، وكان صياحها ، وفي صفر توفى الشيخ مصدق بن شبيب النحوي وهو من أهل واسط . وفي شعبان توفى القاضي محمد بن أحمد بن المنداي الواسطي بها ، وكان كثير الرواية للحديث وله إسناد عال وهو آخر من حدث بمسند أحمد بن حنبل على ابن الحصين وفيه توفى القوم أبو فراس نصر بن نصر بن مكي المدائني صاحب المخزن ببغداد وكان أديبا فاضلا كامل المروءة يحب الأدب وأهله ويحب الشعر ويحسن الجوائز عليه ، ولما توفى ولي بعده أبو الفتوح المبارك بن الوزير عضد الدين أبي الفرج بن رئيس الرؤساء وأكرم وأعلى محله فبقي متوليا إلى سبع ذى القعدة وعزل لعجزه . وفيها كانت زلزلة عظيمة بنيسابور وخراسان وكان أشدها بنيسابور وخرج أهلها إلى الصحراء أياما حتى سكنت وعادوا إلى مساكنهم (١)

(١) وفيها توفى أبو الفتوح محمد بن أحمد بن مختيار بن علي الواسطي المعروف بابن السنداي ، آخر من روى المسند عن أحمد بن الحصين ، وكان من بيت فقه وقضاء وديانة ، وكان ثقة عدلا متورعا في النقل ، ومما أنشده من حفظه :

ولو أن ليلي مطلع الشمس دونها • وكانت وراء الشمس حين تغيب

(ثم دخلت سنة ست وستمائة)

(ذكر ملك العادل الخابور ونصيبين وحصر سنجار وعوده عنها واتفاق نور الدين أرسلان شاه ومظفر الدين)
 في هذه السنة ، ملك العادل أبو بكر بن أيوب بلد الخابور ونصيبين ، وحصر مدينة سنجار ، والجميع من
 أهمال الجزيرة وهي بيد قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود وسبب ذلك أن قطب الدين المذكور كان بينه وبين
 ابن عمه نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل عداوة مستحكمة وقد تقدم ذكر ذلك
 فلما كان سنة خمس وستمائة حصلت مصاهرة بين نور الدين والعاقل فإن ولد العادل تزوج ابنة نور الدين وكان
 لنور الدين وزراء يحبون أن يشغل عنهم فحسنوا له مراسلة العادل والاتفاق معه على أن يفتسما بالبلاد التي
 لقطب الدين وبالولاية التي لولد سنجر شاه بن غازي بن مودود وهي جزيرة ابن عمر وأعمالها فيكون ملك قطب
 الدين للعاقل وتكون الجزيرة لنور الدين فوافق هذا القول هو نور الدين فأرسل إلى العادل في المعنى
 فأجابته إلى ذلك مستبشرا وجاءه ما لم يكن يرجوه لأنه علم أنه متى ملك هذه البلاد أخذ الموصل وغيرها وأطمع
 نور الدين أيضا في أن يعطى هذه البلاد إذا ملكها لولده الذي هو زوج ابنة نور الدين ويكون مقامه
 في خدمته بالموصل واستقرت القاعدة على ذلك وتحالفا عليها فبادر العادل إلى المسير من دمشق إلى الفرات
 في عساكره وقصد الخابور فأخذه فلما سمع نور الدين بوصوله كأنه خاف واستشعر فأحضر من يرجع إلى رأيهم
 وقولهم وهرتهم وصول العادل واستشارهم فيما يفعله فأما من أشار عليه فسكتوا وكان فيهم من لم يعلم هذه الحال
 فعظم الأمر وأشار بالاستعداد للحصار وجمع الرجال وتحصيل الذخائر وما يحتاج إليه فقال نور الدين نحن
 فعلنا ذلك وخبره فقال بأي رأي تجيء إلى عدوك هو أقوى منك وأكثر جمعا وهو بعيد منك متى تحرك
 لقصدك تعلم به فلا يصل إلا وقد فرغت من جميع ما تربده تسعى حتى يصير قريبا منك ويزداد قوة إلى قوته
 ثم إن الذي استقر بينكما أنه له يملكه أولا بغير تعب ولا مشقة وتبقى أنت لا يمكنك أن تفارق الموصل إلى
 الجزيرة وتحصرها والعاقل ههنا هذا إن وفي لك بما استقرت القاعدة عليه لا يجوز أن تفارق الموصل وإن
 عاد إلى الشام لأنه قد صار له ملك خلاط ودمض ديار بكر وديار الجزيرة جميعها والجميع بيد أولاده فني سرت
 عن الموصل أمكنهم أن يحولوا بينك وبينها فما زدت على أن آذيت نفسك وابن عمك وقويت عدوك وجعلته
 شعارك وقد فات الأمر وليس يجوز إلا أن تقف معه على ما استقر بينكما لئلا يجعل ذلك حجة ويبتدىء بك
 هذا والعاقل قد ملك الخابور ونصيبين وسار إلى سنجار فحصرها وكان عزم صاحبها قطب الدين أن يسلمها
 إلى العادل بعوض يأخذها عنها فمنعه من ذلك أمير كان معه اسمه أحمد بن يرتش مملوك أبيه زنكي وقام بحفظ
 المدينة والذب عنها وجهز نور الدين عسكرا مع ولده الملك القاهر ليسيروا إلى الملك العادل فبينما الأمر على
 ذلك إذ جاءهم أمر لم يكن لهم في حساب وهو أن مظفر الدين كوكبرى صاحب إربل أرسل وزيره إلى نور الدين
 يبذل من نفسه المساعدة على منع العادل عن سنجار وأن الاتفاق معه على ما يريد فوصل الرسول ليلا
 وأبلغه الرسالة فأجاب نور الدين إلى ما طلب من الموافقة وحلف له على ذلك وعاد الوزير من ليلته فسار

لحدثت نفسي بانتظار نوالها . وقال المنى لي : إنها لقريب

وفيها توفي قاضي القضاة بمصر صدر الدين عبد الملك بن درباس المارداني الكردي والله أعلم .

مظفر الدين واجتمع هو ونور الدين ونزلا بعساكرهما بظاهر الموصل وكان سبب ما فعله مظفر الدين أن يستشفع به إلى العادل ليمقي عليه سنجار وكان مظفر الدين يظن أنه لو شفّع في نصف ملك العادل لشفعه لأثره الجليل في خدمته وقيامه في الذب عن ملكه غير مرة كما تقدم فشفع إليه فلم يشفعه العادل ظنا منه أنه بعد اتفائه مع نور الدين لا يبالي بمظفر الدين فلما رده العادل في شفاعته راسل نور الدين في الموافقة عليه ولما وصل إلى الموصل واجتمع بنور الدين أرسل إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين وهو صاحب حلب وإلى كيخسرو بن قلج أرسلان صاحب بلاد الروم بالاتفاق معهما فكلاهما أجاب إلى ذلك وتداعرا على الحركة وقصد بلاد العادل إن امتنع من الصلح والإبقاء على صاحب سنجار وأرسل أيضا إلى الخليفة الناصر لدين الله ليرسل رسولا إلى العادل في الصلح أيضا فقويت حينئذ نفس صاحب سنجار على الامتناع ووصلت رسل الخليفة وهو هبة الله بن المبارك بن الضحّاك أستاذ الدار والأمير آق باش وهو من خواص عماليك الخليفة وكبارهم فوصلوا إلى الموصل وسارا منها إلى العادل وهو يحاصر سنجار وكان من معه لا يناصحونه في القتال لا سيما أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة فإنه كان يدخل إليها الأغنام وغيرها من الأقوات ظاهرا ولا يقاتل عليها وكذلك غيره فلما وصل رسول الخليفة إلى العادل أجاب أولا إلى الرحيل ثم امتنع عن ذلك وغالط وأطال الأمر لعله يبلغ منها غرضا فلم ينل منها ما أمّله وأجاب إلى الصلح على أن له ما أخذه وتبقى سنجار لصاحبها واستقرت القاعدة على ذلك وتحالفوا على هذا كلهم وعلى أن يكونوا يبدأ واحدة على الناكث منهم ورحل العادل عن سنجار إلى حران وعاد مظفر الدين إلى إربل وبقي كل واحد من الملوك في بلده وكان مظفر الدين عند مقابله بالموصل قد زوج ابنتين له بولدين لنور الدين وهما عز الدين مسعود وهما الدين زنگي (ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في ربيع الأول عزل نخر الدين بن امسينا عن نيابة الوزارة للخليفة وألزم بيته ثم نقل إلى المخزن على سبيل الاستظهار عليه وولى بعده نيابة الوزارة مكين الدين محمد بن محمد بن برزاقعي كاتب الإنشاء ولقب مؤيد الدين ونقل إلى دار الوزارة مقابل باب النوبي. وفيها في شوال توفي مجد الدين يحيى بن الربيع الفقيه الشافعي مدرس النظامية ببغداد. وفيها توفي نخر الدين أبو الفضل محمد بن عمر بن خطيب الري الفقيه الشافعي صاحب التصانيف المشهورة في الفقه والأصول وغيرهما وكان إمام الدنيا في عصره وبلغنى أن مولده سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. وفيها في سلخ ذى الحجة توفي أخى مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم الكاتب مولده في أحد الربيعين سنة أربع وأربعين وكان عالما في عدة علوم منها الفقه والأصول والنحو والحديث واللغة وله تصانيف مشهورة في التفسير والحديث والنحو والحساب وغريب الحديث وله رسائل مدونة وكان كاتباً مفلحاً يضرب به المثل ذا دين متين ولزوم طريق مستقيم رحمه الله ورضي عنه فلقد كان من محاسن الزمان ولعل من يقف على ما ذكرته يتهمنى في قولي ومن عرفه من أهل عصرنا يعلم أنى مقصر. وفيها توفي مجد المطرزي النحوي الخوارزمي وكان إماما في النحو له فيه تصانيف حسنة. وفيها توفي المؤيد بن عبد الرحيم بن الإخوة بإصفهان وهو من أهل الحديث رحمه الله.

(ثم دخلت سنة سبع وستمائة)

(ذكر عصيان سنجر بملوك الخليفة بخوزستان ومسير العساكر إليه) كان قطب الدين سنجر بملوك

الخليفة الناصر لدين الله قد ولاء الخليفة خوزستان بعد طاشتكين أمير الحاج كما ذكرناه فلما كان سنة ست وستمائة بدا منه تغير عن الطاعة فروسى في القدوم إلى بغداد فخالط ولم يحضر وكان يظهر الطاعة ويبطن التغلب على البلاد فبقى الأمر كذلك إلى ربيع الأول من هذه السنة فتقدم الخليفة إلى مؤيد الدين نائب الوزارة وإلى عز الدين بن نجاح الشرابي خاص الخليفة بالمسير بالعساكر إليه بخوزستان وإخراجه عنها فساروا في عساكر كثيرة فلما تحقق سنجر قصدم إليه فارق البلاد ولحق بصاحب شيراز وهو أتابك عز الدين سعد بن دكلامتجنا إليه فأكرمه وقام دونه ووصل عسكر الخليفة إلى خوزستان في ربيع الآخر بغير ممانعة فلما استقروا في البلاد راسلوا سنجر يدعونه إلى الطاعة فلم يجب إلى ذلك فساروا إلى أرجان عازبين على قصد صاحب شيراز فأدركهم الشتاء فأقاموا شهورا والرسل مترددة بينهم وبين صاحب شيراز فلم يجهم إلى تسليمه فلما دخل شوال رحلوا يريدون شيراز فحينئذ أرسل صاحبها إلى الوزير والشرابي يشفع فيه ويطلب العهد له على أن لا يؤذى فأجيب إلى ذلك وسله إليهم هو وماله وأهله فعادوا إلى بغداد وسنجر معهم تحت الاستظهار وولى الخليفة بلاد خوزستان بملوكه ياقوتنا أمير الحاج ووصل الوزير إلى بغداد في المحرم سنة ثمان وستمائة هو والشرابي والعساكر وخرج أهل بغداد إلى تلقيهم فدخلوها وسنجر معهم راكبا على بغل بأكاف وفي رجله سلسلتان في يد كل جندي سلسلة وبقي محبوسا إلى أن دخل صفر فجمع الخلق الكثير من الأمراء والأعيان إلى دار مؤيد الدين نائب الوزارة فأحضر سنجر وقرر بأمور نسبت إليه منكرا فأقر بها فقال مؤيد الدين للناس قد عرفتم ما تقتضيه السياسة من عقوبة هذا الرجل وقد عفا أمير المؤمنين عنه وأمر بالخلع عليه فلبسها وعاد إلى داره فعجب الناس من ذلك وقيل إن أتابك سعد نهب مال سنجر وخزائنه ودوابه وكل ماله ولأصحابه وسيرهم فلما وصل سنجر إلى الوزير والشرابي طلبوا المال فأرسل شيئا يبرأ واقه أعلم .

(ذكر وفاة نور الدين أرسلان شاد وشيء من سيرته) في هذه السنة أو آخر رجب توفي نور الدين أرسلان شاه ابن مسعود بن مؤذود بن زنى بن آق سنقر صاحب الموصل وكان مرضه قد طال ومزاجه قد فسد وكانت مدة ملكه سبع عشرة سنة وأحد عشر شهرا وكان شهما شجاعا ذا سياسة للرعايا شديدا على أصحابه فكانوا يخافونه خوفا شديدا وكان ذلك مانعا من تعدى بعضهم على بعض وكان له همة عالية أعادنا وس البيت الأتابكي وجاهه وحرمة بعد أن كانت قد ذهبت وخافه الملوك وكان سريع الحركة في طلب الملك إلا أنه لم يكن له صبر فلماذا لم يتسع ملكه ولولم يكن له من الفضيلة إلا أنه لما رحل الكامل بن العادل عن ماردن كما ذكرناه سنة خمس وتسعين وخمسمائة عفا عنها وأبقاها على صاحبها ولو قصدتها وحصرها لم يكن فيها قوة الامتناع لأن من كان بها كانوا قد هلكوا أو ضجروا ولم يبق لهم رمق فأبقاها على صاحبها ولما ملك استغاث إليه إنسان من التجار فسأل عن حاله فقيل إنه قد أدخل قماشه إلى البلد ليبيعه فلم يتم له البيع ويريد إخراجه وقد منع من ذلك فقال من منعه فقيل ضامن البزيريد منه ماجرت به العادة من المكس وكان القيم بتدبير مملكته مجاهد الدين قايماز وهو إلى جانبه فسأله عن العادة كيف هي فقال إن اشترط صاحبها إخراج متاعه مكن من إخراجه وإن لم يشترط ذلك لم يخرج حتى يؤخذ ماجرت العادة بأخذه فقال واقه إن هذه العادة مدبرة إنسان لا يبيع متاعه لأى شيء يؤخذ منه ماله فقال مجاهد الدين لاشك في فساد هذه العادة فقال إذا قلت أنا وأنت إنها عادة فاسدة فما المانع من تركها وتقديم بإخراج مال الرجل وأن لا يؤخذ إلا بمن باع وسمعت أخى محمد الدين أبه السعادات

رحمه الله وكان من أكثر الناس اختصاصا به يقول ما قلت له يوما في فعل خير فامتنع منه بل يادر إليه بفرح واستبشار واستدعى في بعض الأيام أخى المذكور فركب إلى داره فلما كان بباب الدار لقيته امرأة ويدها رقعة وهي تشكو وتطلب عرضها على نور الدين فأخذها فلما دخل إليه جراه في مهم له فقال قبل كل شيء تقف على هذه الرقعة وتقضى شغل صاحبها فقال لا حاجة إلى الوقوف عليها عرفنا إيش فيها فقال والله لا أعلم إلا أنى رأيت امرأة بباب الدار وهي متظلمة شاكية فقال نعم عرفت حالها ، ثم انزعج فظهر منه الغيظ والغضب وعنده رجلان هما القيان بأمر دولته ، فقال لأخى ابصر إلى أى شيء قد دفعت مع هذين هذه المرأة كان لها ابن وقد مات في الموصل وهو غريب وخلف قماشاً ومملوكين فاحتاط نواب بيت المال على القماش وأحضروا المملوكين إلينا فبقيا عندنا منتظرين يستحقان التركة ليأخذها فحضرت هذه المرأة ومعها كتاب حكى بأن المال الذى مع ولدها لها فتقدمنا بتسليم مالها إليها وقلبت لهذين اشتريا المملوكين منها وأنصفاها في الثمن فعادا وقالوا لم يتم بيننا بيع لآنها طلبت تمنا كثيرا فأمرتهما بإعادة المملوكين إليها من مدة شهرين وأكثر ، وإلى الآن ما عدت سمعت لها حديثا وظننت أنها أخذت مالها ولا شك أنهما لم يسلبا المملوكين إليها وقد استغاثت إليهما فلم ينصفاها فجاءت إليك وكل من رأى هذه المرأة تشكو وتستغيث يظن أنى أنا منعها من مالها فيذمنى وينسبني إلى الظلم وليس لى علم وكل هذا فعل هذين أشتهى أن تتسلم أنت المملوكين وتسلبهما إليها ؛ فأخذت المرة مالها وعادت شاكرة داعية وله من هذا الجنس كثير لا يطول بذكره (١)

(ذكر ولاية ابنة الملك القاهر) لما حضر نور الدين الموت أمر أن يرتب في الملك بعده ولده الملك القاهر عز الدين مسعود وأحلف له الجند وأعيان الناس وكان قد عهد إليه قبل موته بمدة فجدد العهد له عند وفاته وأعطى ولده الأصغر عماد الدين زكي قلعة عقرا الحميدية وقلعه شوش وولايتهما وسيره إلى العقرة وأمر أن يتولى تدير مملكتهما ويقوم بحفظها والنظر في مصالحهما افتاه الأمير بدر الدين أو ثولما رأى من عقله وسداده وحسن سياسته وتديره وكال خلال السياسة فيه وكان هم القاهر حينئذ عشرين سنين ؛ ولما اشتد مرضه وأيس من نفسه أمره الأطباء بالانحدار إلى الحمامة المعروفة بعين القيارة وهي بالقرب من الموصل فأنحدر إليها فلم يجد بها راحة وازداد ضعفا فأخذه بدر الدين وأصعده في الشبارة إلى الموصل فتوفى في الطريق ليلا ومعه الملاحون والأطباء بينه وبينهم ستر وكان مع بدر الدين هند نور الدين مملوكا ، فلما توفى نور الدين قال لها لا يسمع أحد بموته وقال للأطباء والملاحين لا يتكلم أحد فقد نام السلطان فسكتوا ووصلوا إلى الموصل في الليل فأمر الأطباء والملاحين بمفارقة الشبارة لتلا يروه ميتا وأبعدوا لحمه هو والمملوكا وأدخله الدار وتركة في الموضع الذى كان فيه ومعه المملوكا ونزل على بابه من يثق إليه لا يمكن أحدا من الدخول والخروج ، وقعد مع الناس يمضى أمورا كان يحتاج إلى إتمامها فلما فرغ من جميع ما يريد أظهر موته وقت العصر ودفن ليلا بالمدرسة التى أنشأها مقابل داره وضبط

(١) وفيها توفى ابن خروف شارح سيبويه ، على بن محمد بن يوسف أبو الحسن ابن خروف الأندلسى النحوى شرح سيبويه ، وقدمه إلى صاحب المغرب فأعطاه ألف دينار ، وشرح جبل الزجاجى ، وكان ينتقل في البلاد ولا يسكن إلا في الخانات ، ولم يتزوج ولا تسرى ، وقد تغير عقله في آخر عمره ؛ فكان يمشى في الأسواق مكشوف الرأس توفى عن خمس وثمانين سنة .

البلد تلك اللبلة ضبطاً جيداً بحيث إن الناس في البلد لم يزالوا مترددين لم يعدم من أحد مقدار الحبة الفرد واستقر الملك لولده وقام بدر الدين بتدبير الدولة والنظر في مصالحها .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في شهر ربيع الآخر درس القاضي أبو زكريا بن القاسم بن المفرج قاضي تكريت بالمدرسة النظامية ببغداد استدعى من تكريت إليها . وفيها نقصت دجلة بالعراق نقصاً كثيراً حتى كان يجرى الماء ببغداد في نحو خمسة أذرع وأمر الخليفة أن يكرى دجلة لجمع الخلق الكثير وكانوا كلما حفروا شيئاً عاد الرمل وغطاه وكان الناس يخوضون دجلة فوق بغداد وهذا لم يمهده مثله وحج بالناس هذه السنة علاء الدين محمد وإد الأمير مجاهد الدين ياقوت أمير الحاج وكان قد ولاه الخليفة خوزستان وجعله هو أمير الحاج وجعل معه من يدبر الحاج لأنه كان صيباً . وفيها في العشرين من ربيع الآخر توفي ضياء الدين أحمد عبد الوهاب بن علي بن عبدالله الأمير البغدادي ببغداد وهو سبط صدر الدين اسماعيل شيخ الشيوخ وعمره سبع وثمانون سنة وشهور . وكان صوفياً فقيهاً محدثاً سمعنا معه الكثير رحمه الله . وكان من عباد الله الصالحين كثير العبادة والصلاح . وفيها توفي شيخنا أبو حفص عمر بن محمد بن المعمر بن طبرزد البغدادي وكان عالي الإسناد^(١)

(ثم دخلت سنة ثمان وستائة)

(ذكر استيلاء منكلي على بلاد الجبل وأصفهان وغيرها وهرب أيتغمش) في هذه السنة في شعبان قدم أيتغمش صاحب همدان وأصفهان والري وما بينهما من البلاد إلى بغداد هاربا من منكلي وسبب ذلك أن أيتغمش كان قد تمكن في البلاد وعظم شأنه وانتشر صيته وكثر عسكره حتى أنه حصر صاحبه أبا بكر بن البهلوان صاحب هذه البلاد أذربيجان وأران كما ذكرناه فلما كان الآن خرج عليه مملوك اسمه منكلي ونازعه في البلاد وكثر أتباعه وأطاعه المماليك البهلوانية فالتوى عليها وهرب منه شمس الدين أيتغمش إلى بغداد فلما وصل إليها أمر الخليفة بالاحتفال به في اللقاء . فخرج الناس كافة وكان يوم وصوله مشهوداً ؛ ثم قدمت زوجته في رمضان في محفل فأكرمت وأنزلت عند زوجها وأقام ببغداد إلى سنة عشر وستمائة فسار عنها فكان من أمره ما ذكره (ذكر نهب الحاج بمنى) وفي هذه السنة نهب الحاج بمنى وسبب ذلك أن باطنياً وثب على بعض أهل الأمير قتادة صاحب مكة فقتله بمنى ظاناً منه أنه قتادة فلما سمع قتادة ذلك جمع الأشراف والعرب والعبيد وأهل مكة وقصدوا الحاج ونزلوا عليهم من الجبل ورموه بالحجارة والنبل وغير ذلك وكان أمير الحاج ولد الأمير ياقوت المقدم ذكره وهو صبي لا يعرف كيف يفعل فخاف وتحير وتمكن أمير مكة من نهب الحاج فتهبوا منهم من كان في الأطراف وأقاموا على حالهم إلى الليل فاضطرب الحاج وباتوا بأسوأ حال من شدة الخوف من القتل والنهب فقتل بعض الناس لأمير الحاج لينتقل بالحجاج إلى منزلة حجاج الشام فأمر بالرحيل فرفعوا أثقالهم على الجمال واشتغل الناس بذلك فطمع العدو فيهم وتمكن من النهب والتحق من سلم بحجاج الشام فاجتمعوا بهم ثم رحلوا

(١) وفيها توفي ابن سكينه عبد الوهاب بن علي ضياء الدين المعروف بابن سكينه الصوفى ، كان يعد من الأبدال سمع الحديث الكثير وأسمعه ببلاد شتى ، ولد في سنة تسع عشرة وخمسمائة ، وكان صاحباً لآبى الفرج بن الجوزى ملازماً لمجلسه وكان يوم جنازته يوماً مشهوداً لكثرة الخلق ولكثرة ما كان فيه من الخاصة والعامة رحمه الله .

إلى الزاهر ومنعوا من دخول مكة ثم أذن لهم في ذلك فدخلوها وتمموا حجهم وعادوا ثم أرسل قتادة ولده وجماعة من أصحابه إلى بغداد فدخلوها ومعهم السيوف مسلولة والأكفان فقبلوا العتبة واعتذروا بما جرى على الحجاج .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة أظهر الإسماعيلية ومقدمهم جلال الدين بن فلان بن حسن بن الصباح الانتقال عن فعل المحرمات واستحلالها وأمر بإقامة الصلوات وشرائع الإسلام بلادهم من خراسان والشام وأرسل مقدمهم رسلا إلى الخليفة وغيره من ملوك الإسلام يخبرهم بذلك وأرسل والدته إلى الحج فأكرمت ببغداد إكراما عظيما وكذلك بطريق مكة . وفيها سلخ جمادى الآخرة توفى أبو حاتم محمد بن يونس بن مبيعة الفقيه الشافعي بمدينة الموصل وكان إماما فاضلا إليه انتهت رياسة الشافعية لم يكن في زمانه مثله وكان حسن الاخلاق كثير التجاوز عن الفقهاء والإحسان إليهم رحمه الله . وفيها في شهر ربيع الأول توفى القاضي أبو الفضائل علي بن يوسف بن أحمد بن الأمدى الواسطي قاضيا وكان نعم الرجل . وفيها في شعبان توفى المعين أبو الفتح عبدالواحد بن أحمد بن علي الأمين شيخ الشيوخ ببغداد وكان موته بجزيرة كاس مضى إليها رسولا من الخليفة وكان من أصدقائنا وبيننا وبينه مودة متأكدة وصحبة كثيرة وكان من عباد الله الصالحين رحمه الله ورضي عنه وله كتابة حسنة وشعر جيد وكان عالما بالفقه وغيره ولما توفى رتب أخوه زين الدين عبدالرزاق بن أبي أحمد وكان ناظرا على المارستان العضدي فتركه واقتصر على الرباط . وفيها في ذي الحجة توفى محمد بن يوسف بن محمد بن عبيد الله النيسابوري الكاتب الحسن الخط وكان يؤدي طريقة ابن البواب وكان فقيها حاسبا متكلما وفيها توفى عمر بن مسعود أبي العز أبو القاسم البزار البغدادي بها وكان من الصالحين يجتمع إليه الفقهاء كثيرا ويحسن إليهم وتوفى أيضا أبو سعيد الحسن بن محمد بن الحسن بن حمدون الثعالبى العدوى وهو ولد مصنف التذكرة وكان عالما . (١)

(ثم دخلت سنة تسع وستمائة)

(ذكر قدوم ابن منكلى ببغداد) في هذه السنة في المحرم قدم محمد بن منكلى المستولى على بلاد الجبل إلى بغداد وسبب ذلك أن أباه منكلى لما استولى على بلاد الجبل وهرب أيتغمش صاحبها منها إلى بغداد خاف أن يساعده الخليفة ويرسل معه العساكر فيعظم الأمر عليه لأنه لم يكن قد تمكن في البلاد فأرسل ولده محمدا ومعه جماعة من العسكر فخرج الناس ببغداد على طبقاتهم يلتقونه وأنزلوا أكرم وبقى ببغداد إلى أن قتل أيتغمش

(١) وفيها توفى أيضا الشيخ عماد الدين محمد بن يونس الفقيه الشافعي الموصلى صاحب التصانيف والفنون الكثيرة ، كان رئيس الشافعية بالموصل ، وبعث رسولا إلى بغداد بعد موت نور الدين أرسلان ، وكان عنده وسوسة كثيرة في الطهارة ، وكان يعامل في الأموال بمسألة العينة كما قيل تصفرون البعوض من شرابكم وتستتر بطون الجبال بأحبالها ، ولو عكس الأمر لكان خيرا له ، فلقبه يوما قضيبي البان الموكه فقال له : يا شيخ بلغني أنك تغسل العضو من أعضائك بأبريق من الماء فلم لا تغسل اللقمة التي نأكلها لتستظف قلبك وباطلك ؟ ففهم الشيخ ما أراد فترك ذلك . توفى بالموصل في رجب عن ثلاث وسبعين سنة . وفيها توفى الشيخ الكبير المعمر الرحلة أبو القاسم أبو بكر أبو الفتح منصور بن عبد المنعم بن عبدالله بن محمد بن الفضل المراوى النيسابورى ، سمع أباه وجد أبيه وغيرهما ، وعنه ابن الصلاح وغيره ، توفى بنيسابور في شعبان في هذه السنة عن خمس وثمانين سنة .

ذكر عدة حوادث

فخلع عليه وعلى من معه وأكرموا وسيرهم إلى أبيه .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة قبض الملك الدايل أبو بكر بن أيوب صاحب مصر والشام على علي أمير اسمه أسامة كان له أقطاع كثيرة من جبلتها حصن كوكب من أعمال الأردن بالشام وأخذ منه حصن كوكب وخربه وعفى أثره ومن بعده بنى حصنا بالقرب منه على جبل يسمى الطور وهو معروف هناك وشيخه بالرجال والذخائر والسلاح . وفيها توفي الفقيه محمد بن إسماعيل بن أبي الصيف اليمنى فقيه الحرم الشريف بمكة (١)

(ثم دخلت سنة عشر وستمائة)

(ذكر قتل أيتشمش) في هذه السنة في المحرم قتل أيتشمش الذي كان صاحب همزان وقد ذكرنا سنة ثمان أنه قدم إلى بغداد وأقام بها فأنعم عليه الخليفة وشرفه بالخلع وأعطاه الكوسات وما يحتاج إليه وسيره إلى همذان فسار في جمادى الآخرة عن بغداد قاصدا إلى همذان فرصل إلى بلاد ابن ترجم واجتمعا وأقام ينتظر وصول عساكر بغداد إليه ليسير معه على قاعدة استقرت بينهم ، وكان الخليفة قد عزل سليمان بن ترجم عن الإمارة على عشيرته من التركان الإيوانية وولى أخاه الأصغر فارسيل سليمان إلى منكلى يعرفه بحال أيتشمش ومضى هو على وجهه فأخذه فقتلوه ، وحملوا رأسه إلى منكلى ، وتفرق من معه من أصحابه في البلاد لا يلوى أخ علي أخيه ووصل الخبر ببغداد فعظم على الخليفة ذلك وأرسل إلى منكلى ينكر عليه ما فعل فأجاب جوابا شديدا وتمكن من البلاد وقوى أمره وكثرت جموعه وعساكره وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله

(ذكر عدة حوادث) حج بالناس في هذه السنة أبو فراس بن جعفر بن فراس الحلبي نيابة عن أمير الحاج ابن ياقوت ومنع ابن ياقوت عن الحج لما جرى للحاج في ولايته . وفيها في المحرم توفي الحكيم المهذب علي ابن أحمد بن مقبل الطبيب المشهور كان أعلم أهل زمانه بالطب روى الحديث وكان مقبلا بالموصل وسها مات وكان كثير الصدقة حسن الأخلاق وله تصنيف حسن في الطب . وفيها توفي إسماعيل بن علي البغدادي الفقيه الحنبلي صاحب ابن المي ، وفيها توفي أيضا أحمد بن مسعود التركستاني الفقيه الحنفي ببغداد وهو مدرس مشهد أبي حنيفة . وفيها في جمادى الأولى توفي معز الدين أبو المعاني سعد بن علي المعروف بابن حديد الذي كان وزير الخليفة الناصر لدين الله ، وكان قد ألزم بيته ، ولما توفي حمل تابوته إلى مشهد أمير المؤمنين علي عليه السلام ، بالكوفة وكان حسن السيرة في وزارته كثير الخير والنفع للناس (٢)

(١) وفيها توفي أبو الفتح محمد بن سعد بن محمد الديباجي من أهل مرو ، له كتاب المحصل في شرح المفصل للزمخشري في النحو . كان ثقة عالما سمع الحديث توفي فيها عن ثنتين وتسعين سنة . وفيها توفي أيضا الشيخ الصالح الزاهد العابد أبو البقاء محمود بن عثمان بن مكارم النعماني الحنبلي ، كان له عبادات ومجاهدات وسياحات ، وبنى رباطا بباب الأزج يأرى إليه أهل العلم من المقادسة وغيرهم ، وكان يؤثرهم ويحسن إليهم ، وقد سمع الحديث وقرأ القرآن ، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . توفي وقد جاوز الثمانين (٢) وفيها توفي الجزولي صاحب المقدمة المسماة بالقانون وهو أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي - بطن من البربر - ثم البردكيي النحوي المصري ، مصنف المقدمة المشهورة البديعة ، شرحها هو وتلامذته ، وكلهم يعترفون بتقصيرهم عن فهم مراده في أماكن كثيرة منها ، قدم مصر وأخذ عن ابن بري ، ثم عاد إلى بلاده وولى خطابة مراکش ، توفي في هذه السنة وقيل قبلها فانه أعلم .

(ثم دخلت سنة إحدى عشر وستمائة)

(ذكر ملك خوارزمشاه علاء الدين کرمان ومکران والسند) هذه الحادثة لا أعلم الحقيقة أى سنة كانت إنما هي إما هذه السنة أو قبلها بقليل أو بعدها بقليل لأن الذى أخبر بها كان من أجناد الموصل وافر إلى تلك البلاد وأقام بها عدة سنين وسار مع الأمير أبى بکر الذى فتح کرمان ثم عاد فأخبرنى بها على شك من وقتها وقد حضر ما يقال خوارزمشاه محمد بن تکش كان من جملة أمراء أبیه أمير اسمه أبوبکر ولقبه تاج الدين وكان فى ابتداء أمره جمالا يكرى الجمال فى الاسفار ثم جاءت السعادة فاتصل بخوارزمشاه وصار يروان جماله فرأى منه جلدا وأمانة فقدمه إلى أن صار من أعيان أمراء عسكره فولاه مدينة زوزن وكان عاقلا ذارأى وحزم وشجاعة فتقدم عند خوارزمشاه تقدما كثيرا فوثق به أكثر من جميع أمراء دولته فقال أبو بکر لخوارزمشاه إن بلاد کرمان مجاورة لبلدى فلوأضاف السلطان إلى عسکرا الملكتها فى أسرع وقت فسیر معه عسکرا كثيرا فضى إلى کرمان وصاحبها اسمه حرب بن محمد بن أبى الفضل الذى كان صاحب سجستان أيام السلطان سنجر فقاتله فلم يكن له به قوة وضعف فملك أبو بکر بلاده فى أسرع وقت وسار منها إلى نواحى مکران فملكها كلها إلى السند من حدود کابل وسار إلى هرز مدينة على ساحل بحر مکران فأطاعه صاحبها واسمه ملک وخطب بها لخوارزمشاه وحمل عنها مالا وخطب له بقلهات وبعض عمان لأن أصحابها كانوا يطيعون صاحب هرز وسبب طاعتهم له مع بعد الشقة والبحر يقطع بينهم أنهم يتقربون إليه بالطاعة لى أمن أصحاب المراكب التى تسیر إليهم عنده فإن هرز مرسى عظيم ومجمع للتجار من أقاصى الهند والصين واليمن وغيرها من البلاد وكان بن صاحب هرز وبين صاحب كيش حروب وغارات وكل منهما ينهى أصحاب المراكب أن ترسى ببلد خصمه وهم كذلك إلى الآن وكان خوارزمشاه يصيف بنواحى سمرقند لأجل التتر أصحاب كيشلى خان لثلا يقصد بلاده وكان سربيع السیر إذا قصد جهة سبق خبره .

(ذكر عدة حوادث) فى هذه السنة قتل مؤيد الملك الشحرى وكان قد وزر لشهاب الدين الغورى ولتاج الدين الذى بعده وكان حزن السيرة جميل الاعتقاد محسنا إلى العلماء وأهل الخبر يزورهم ويبرمهم ويحضر الجمعة ماشيا وكان سبب قتله أن بعض عسكر الدز كرهوه وكان كل سنة يتقدم إلى البلاد الحارة بين يدى الدز أول الشتاء فسار هذه كمادته فجاء أربعون نفرا أتراكا قالوا له السلطان يقول لك تحضر جريدة فى عشرة نفر لهم تجدد فسار معهم جريدة فى عشرة مماليك فلما وصلوا إلى نهوند بالقرب من ماء السند قتلوه وهربوا ثم لأنهم ظفروا بهم خوارزمشاه محمد فقتلهم . وفيها فى رجب توفى الركن أبو منصور عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجبلى البغدادى ببغداد وكان قدولى عدة ولايات وكان يتهم بمذهب الفلاسفة حتى أنه رأى أبوه يوما عليه قميصا بخارىا فقال ما هذا القميص فقال بخارى فقال أبوه هذا عجب ما زلنا نسمع مسلم والبخارى وأما كافر والبخارى ما سمعنا وأخذت كتبه قبل موته بعدة سنين وأظهرت فى ملا من الناس ورؤى فيها من تبخير النجوم ومخاطبة زحل بالإلهية وغير ذلك من الكفریات ثم أحرقت بياب العامة وحبس ثم أفرج عنه بشفاة أبیه واستعمل بعد ذلك . وفيها أيضا توفى أبو العباس أحمد بن هبة الله بن العلاء المعروف بان الزاهد ببغداد وكان عالما بالنحو واللغة . وفى شعبان منها توفى أبو المظفر محمد بن على بن أبل اللورى الواعظ ودفن برباط على نهر هيسى ومولده سنة عشر وخمسمائة . وفى شوال منها توفى عبد العزيز بن محمود بن الأخضر وكان من فضلاء

المحدثين وله سبع وثمانون سنة» .

(ثم دخلت سنة اثنتي عشر وستمائة)

(ذكر قتل منكلى وولاية أغاش ما كان بيده من الممالك) في هذه السنة في جمادى الأولى انهزم منكلى صاحب همدان وأصفهان والرى وما بينهما من البلاد ومضى هاربا فقتل وسبب ذلك أنه كان قد ملك البلاد كما ذكرناه وقتل أيتشمش فأرسل إليه من الديوان الخلبى رسول ينكر ذلك عليه وكان أوحش الأمير أوزبك ابن البهلوان صاحب أدريجان وهو صاحبه ومخدومه فأرسل الخليفة إليه بحرضه على منكلى ويده النصره وأرسل أيضا إلى جلال الدين الإسماعيلى صاحب قلاع الإسماعيلية ببلاد العجم الموت وغيرها بأمره بمساعدة أوزبك على قتال منكلى واستقرت القاعدة بينهم دلي أن يكون للخليفة بعض البلاد ولاوزبك بعضها ويعطى جلال الدين بعضها فلما استقرت القواعد على ذلك جهز الخليفة عسكرا كثيرا وجعل مقدمهم بموكه مظفر الدين سنقر الملقب بوجه السبع وأرسل إلى مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على كوجك وهو إذاك صاحب إربل وشهرزور وأعمالها بأمره أن يحضر بعساكره ويكون مقدم العساكر جميعها وإليه المرجع فى الحرب فحضر وحضر معه عسكر المرصل وديار الجزيرة وعسكر حلب فاجتمعت عساكر كثيرة وساروا إلى همدان فاجتمعت العساكر كلها فازاح منكلى من بين أيديهم وتعلق بالجبال وتبوه فزلوا بسفح جبل هو فى أعلاه بالغرب من مدينة كرج وضائق الميرة والأقوات على العسكر الخلبى جميعه ومن معهم فلواقام منكلى بموضعه لم يمكنهم المقام عليه أكثر من عشرة أيام لكنه طمع فنزل بعض عسكره من الجبل مقابل الأمير أوزبك فحملوا عليه فلم يثبت أوزبك ومضى منهزما فعاد أصحاب منكلى وصعدوا الجبل وعاد أوزبك إلى خيامه فطمع منكلى حينئذ ونزل من الغد فى جميع عسكره واصطدمت العساكر للحرب واقتتلوا أشد قتال يكون فانهزم منكلى وصعد الجبل فلو أقام بمكانه لم يقدر أحد على الصعود إليه وكان قصاراهم العود عنه لكنه اتخذ الليل جملا وفارق موضعه ومضى منهزما فاتبعه نفر يسير من عسكره وفارقه الباقون وتفرقوا أبدي سبا واستولى عسكر الخليفة وأوزبك على البلاد فأعطى جلال الدين ملك الإسماعيلية من البلاد ما كان استقر له وأخذ الباقي أوزبك فسلها إلى أغلش بموك أخيه وكان قد توجه إلى خوارزمشاه علاء الدين محمد وبقي عنده ثم عاد عنه وشهد الحرب وأبلى فيها فولاه أوزبك البلاد وعاد كل طائفة من العسكر إلى بلادهم وأما منكلى فإنه مضى منهزما إلى مدينة ساوة وبها شحنة هو صديق له فأرسل إليه يستأذنه فى الدخول إلى البلد فأذن له ودخل إليه وخرج فلقبه وقبل الأرض بين يديه وأدخله البلد وأزله فى داره ثم أخذ سلاحه وأراد أن يقيده ويرسله إلى أغلش فسأله أن يقتله هو ولا يرسله فقتله وأرسل رأسه إلى أوزبك وأرسله أوزبك إلى بغداد وكان يوم دخولها يوما مشهودا إلا أنه لم تتم المسرة للخليفة بذلك فإنه وصل ومات ولده فى تلك الحال فأعيد ودفن .

(ذكر وفاة ابن الخليفة) فى هذه السنة فى العشرين من ذى القعدة توفى ولد الخليفة وهـ الأصغر وكان

(١) وفيها توفى إبراهيم بن على بن محمد بن بكروس الفقيه الحنبلى ، أفقى وناظر وعدل عند الحكام ، ثم انسلخ من هذا كله وصار شرطيا بباب النوى يضرب الناس ويؤذيهم غاية الأذى ، ثم بعد ذلك ضرب إلى أن مات وألقى فى دجلة وفرح الناس بموته ، وقد كان أبوه رجلا صالحا .

يلقب الملك المعظم واسمه أبو الحسن علي وكان أحب وادى الخليفة إليه وقد رشحه لولاية العهد بعده وهزل ولده الأكبر عن ولاية العهد وأطرحه لأجل هذا الولد وكان رحمه الله كريماً كثيراً الصدقة والمعروف حسن السيرة محبوباً إلى الخاص والعام وكان سبب موته أنه أصابه إسهال فتوفي وحزن عليه الخليفة حزناً لم يسمع بمثله حتى إنه أرسل إلى أصحاب الأطراف ينههم عن إنفاذ رسول إليه يعزيه بولده ولم يقرأ كتاباً ولا يسمع رسالة وانقطع وخلا بهمومه وأحزانه ورؤى عليه من الحزن والجزع ما لم يسمع بمثله ولما توفي أخرج نهاراً ومشى جميع الناس بين يدي تابوته إلى تربة جدته عند قور معروف الكرخي فدفن عندها ولما أدخل التابوت أغلقت الأبواب وسمع الصراخ العظيم من داخل التربة فقبل إن ذلك صوت الخليفة وأما العامة ببغداد فإنهم وجدوا عليه وجداً شديداً ودامت المناجات عليه في أقطار بغداد ليلاً ونهاراً ولم يبق ببغداد محلة إلا فيها النوح ولم تبق امرأة إلا وأظهرت الحزن وما سمع ببغداد مثل ذلك في قديم الزمان وحديثه وكان موته وقت وصول رأس منكلي إلى بغداد فإن الموكب أمر بالخروج إلى لقاء الرأس فخرج الناس كافة فلما دخلوا بالرأس درب حبيب وقع الصوت بموت ابن الخليفة فأعيد الرأس وهذا دأب الدنيا لا يصفو أبداً فرحها من ترح وقد تخلص مصائبها من شائبة الترح .

(ذكر ملك خوارزمشاه غزنة وأعمالها) في هذه السنة في شعبان ملك خوارزمشاه محمد بن تكش مدينة غزنة وأعمالها وسبب ذلك أن خوارزمشاه لما استولى على عامة خراسان وملك باميان وغيرها أرسل إلى تاج الدين صاحب غزنة وقد تقدمت أخباره حتى ملكها يطلب منه أن يخطب له ويضرب السكة باسمه ويرسل إليه فيلاً واحداً ليصالحه ويده غزنة ولا يعارضه فيها فأحضر الأمراء وأعيان درلته واستشارهم وكان فيهم أكبر أمير اسمه قتلغ تكين وهو من ماليك شهاب الدين الغوري أيضاً واليه الحكم في دولة الدز وهو النائب عنه بغزنة فقال الرأي أن يخطب له وتعطيه ما طلب وتستريح من الحرب والقتال وليس لنا هذا السلطان قوة فقال الجماعة مثل قوله فأجاب إلى ما طلب منه وخطب لخوارزمشاه وضرب السكة باسمه وأرسل إليه رسولاً وأعاد رسوله إليه ومضى إلى الصيد فأرسل قتلغ تكين من غزنة إلى خوارزمشاه يطلبه ليدل عليه غزنة فسار مجداً وسبق خبره فسلم إليه قتلغ تكين غزنة وقلعتها فلما دخل إليها قتل من بها من عسكر الغورية لا سيما الأتراك فوصل الخبر إلى الدز بذلك فقال ما فعل قتلغ تكين وكيف ملك القلعة مع وجوده فيها فقيل هو الذي أحضره وسلم إليه فمضى هارباً هرواً ومن معه إلى لهاور وأقام خوارزمشاه بغزنة فلما تمكن منها أحضر قتلغ تكين فقال له كيف حالك مع الدز وكان عالماً به وإنما أراد أن تكون له الحجة عليه فقال كلانا ماليك شهاب الدين ولم يكن الذي يقيم بغزنة إلا أربعة أشهر الصيف وأنا الحاكم فيها والمرجع إلى في كل الأمور فقال له خوارزمشاه إذا كنت لا ترعى لرفيقك ومن أحسن إليك صحبته وإحسانه فكيف يكون حال أنا معك وما الذي تصنع مع ولدي إذا تركته عندك فقبحض عليه وأخذ منه أموالاً جمة حملها ثلاثون دابة من أصناف الأموال والأمتعة وأحضر أربع مائة مملوك فلما أخذ ماله قتله وترك ولده جلال الدين بغزنة مع جماعة من عسكره وأمرائه وقيل إن ملك خوارزمشاه غزنة كان سنة ثلاث عشرة وستائة

(ذكر استيلاء الدز على لهاور وقلته) لما هرب الدز من غزنة إلى لهاور لقيه صاحبها ناصر الدين قباچه وهو من ماليك شهاب الدين الغوري أيضاً وله من البلاد لهاور وملتان وأوجه وديبل وغير ذلك إلى

ساحل البحر ومعه نحو خمسة عشر ألف فارس وكان قد بقي مع -الذو نحو ألف وخمسة مائة فارس فوقع بينهما مصاف واقتتلوا فاهزمت ميمنة الذو وميسرته واحذت الفيلة التي معه ولم يبق له غير فيلين معه في القاب فقال الفيال إذا أخطرت بسعادتك وأمر أحد الفيدين أن يحمل على العلم الذي لقباجة يأخذه وأمر الفيال الآخر الذي له أيضا أن يأخذ الجتر الذي له فأخذه أيضا والفيلة المعلمة تفهم ما يقال لها هذا رأيناها تحمل الفيالان وحمل معهما الذو فيمن بقي عنده من العسكر وكشف رأسه وقال بالعجمية ما معناه إما ملك وإما هلك واخناط الناس بعضهم ببعض وفعل الفيالان ما أمرهما الفيال من أخذ العلم والجتر فاهزم قباجة وعسكره وملك الذو مدينة لها وورثم سار إلى بلاد الهند لملك مدينة دهلة وغيرها مما بيد المسلمين وكان صاحب دهلة أمير اسمه الترمش ولقبه شمس الدين وهو من مماليك قطب الدين أيك بمالك شهاب الدين أيضا كان قد ملك الهند بعد سيده فلما سمع به الترمش سار إليه في عسكرة كلها فلقبه عند مدينة سمانا فاقتتلوا فاهزم الذو وعسكره وأخذ وقتل وكان الذو محمود السيرة في ولايته كثير العدل والإحسان إلى الرعية لا سيما التجار والغرباء ومن محاسن أعماله أنه كان له أولاد ولحم يعلم يعلمهم نضرب المالم أحد عشر فسات فأحضره الذو وقال له يا مسكين ما حملك على هذا فقال والله ما أردت إلا تأديبه فانفق أن مات فقال صدقت وأعطاه نفقة وقال له تغيب فإن أمه لا تقدر على الصبر فربما أهلكتك ولا أقدر أن منع عنك فلما سمعت أم الصبي بموته طلبت الأستة ذلتقله فلم تجده فسلم وكان هذا من أحسن ما يحكى عن أحد من الناس .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة توفي الوجيه المبارك بن أبي الأزهر سعيد بن الدهان الواسطي النحوي الضرير كان تحرير افاضلا قرأ على السكال بن الأبارى وعلى غيره وكان حنبليا فصار حنфия ثم صار شافعيًا فقال فيه أبو البركات بن زيد التكريتي :

ألا مبلغا عنى الوجيه رسالة • وإن كان لا نجدى لديه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل • وفارقتك إذ أعوزتك المآكل
وما اخترت رأى الشافعي تدينا • ولكيما تهوى الذى هو حاصل
وعما قليل أنت لا شك صائر • إلى مالك فاطن لما أنا قائل^(١)

(١) قالوا وكان الوجيه لا يغضب قط ، فتراهن جماعة مع واحد أنه إن أغضبه كان له كذا وكذا ، فجاء إليه فسأله عن مسألة في العربية فأجابه فيها بالجواب . فقال له السائل : أخطأت أيها الشيخ ، فأعاد عليه الجواب بعبارة أخرى ، فقال : كذبت وما أراك إلا قد نسيت الحق ، فقال الوجيه : أيها الرجل فلعلك لم تفهم ما أقول لك ، فقال بلى ولكنك تخاطبني في الجواب ، فقال له نقل أنت ما عندك لذستفيد منك ، فأغاظ له السائل في القول فنبس ضاحكا وقال له : إن كنت راهنت فقد غلبت ، وإنما مثلك مثل البهوضة - يعنى الناموسة - سقطت على ظهر الفيل ، فلما أرادت أن تطير قالت له استمسك فاني أحب أن أطير ، فقال لها الفيل : ما أحسست بك حين سقطت ، فما أحتاج أن أستمسك إذا طرت ، كانت وفاته رحمه الله في شعبان منها ودفن بالوردية . وفيها توفي أبو محمد عبد العزيز بن أبي المعالي بن غنيمه المعروف بابن منينا ، ولد سنة خمس عشرة وخمسة مائة وسمع الكثير وأسمعه ، توفي في ذى الحجة منها عن سبع وتسعين سنة . وفيها توفي الشيخ الفقيه كمال الدين مودود بن الشاغوري الشافعي كان يقرئ بالجامع الاموى الفقه وشرح التنبية للطلبة ، ويأني تليم حتى ينفدوا احتسابا بنجاه المقصورة . ودفن بمقابر باب الصغير شمالي قبور الشهداء وعلى قبره شعر ذكره أبو شامة والله سبحانه أعلم .

(ثم دخلت سنة ثلاث عشر وستمائة)

(ذكر وفاة الملك الظاهر) في هذه السنة في جمادى الآخرة توفي الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف ابن أيوب وهو صاحب مدينة حلب ومنيح وغيرهما من بلاد الشام وكان مرضه إسهالا وكان شديد السيرة ضابطا لا مورد كلها كثير الجمع للأموال من غير جهاتها المعتادة عظيم العقوبة على الذنب لا يرى الصفع وله مقصد يقصده كثير من أهل البيوتات من أطراف البلاد والشعراء وأهل الدين وغيرهم فيكرمهم ويجري عليهم الجارى الحسن ولما اشتدت علته عهد بالملك بعده لولد له صغير اسمه محمد ولقبه الملك العزيز غياث الدين حمزه ثلاث سنين وعدل عن ولد كبير لأن الصغير كانت أمه ابنة عمه الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب مصر ودمشق وغيرهما من البلاد فعهد بالملك له ليبقى عمه البلاد عليه ولا ينازعه فيها ومن أعجب ما يحكى أن الملك الظاهر قبل مرضه أرسل رسولا إلى عمه العادل بمصر يطالب به أن يحلف لولده الصغير فقال العادل سبحان الله أى حاجة إلى هذه اليمين الملك الظاهر مثل بعض أولادى فقال الرسول وقد طلب هذا واختاره ولا بد من إجابته إليه ، فقال العادل كم من كبش في المرعى وخروف عند القصاب ، وحلف فاتفق في تلك الأيام ، أن توفي الملك الظاهر ، والرسول في الطريق ، ولما عهد الظاهر إلى ولده بالملك ، جعل أنابه ومريه خادما روميا اسمه طغر بل ، ولقبه شهاب الدين ، وهو من خيار عباد الله ، كثير الصدقة والمعروف ولما توفي الظاهر أحسن هذا شهاب الدين السيرة في الناس وعدل فيهم ، وأزال كثيرا من السنن الجارية وأعاد أملاكا كانت قد أخذت من أربابها وقام بتربية الطفل أحسن قيام وحفظ بلاده واستقامت الأمور بحسن سيرته وعدله وملك ما كان يتعذر على الظاهر ملكه فمن ذلك تل باشر كان الملك الظاهر لا يقدر أن يتعرض إليه فلما توفي ملكها كيكاس ملك الروم كما ذكره إن شاء الله تعالى انتقلت إلى شهاب الدين وما أقبح بالملوك وأبناء الملوك أن يكون الرجل الغريب المفرد أحسن سيرة وأعف من أهوال الرعية وأقرب إلى الخير منهم ولا أعلم اليوم في ولاية أمور المسلمين أحسن سيرة منه فآله يبقيه ويدفع عنه فلقد بلغنى عنه كل حسن وجميل .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في المحرم وقع بالبصرة برد كثير وهو مع كثرة عظيم القدر قيل كان أصغره مثل النارية الكبيرة وقيل في أكبره ما يستحي الإنسان أن يذكره فكسر كثيرا من رؤس النخيل وفي المحرم أيضا سير الخليفة الناصر لدين الله ولدى ابنه المعظم على إلى تستروهما المؤيد والموفق وسار معهما مؤيد الدين النائب عن الوزارة وعز الدين الشرابي فأقاما بها يسيرا ثم عاد الموفق مع الوزير والشرابي إلى بغداد أواخر ربيع الآخر وفيها في صفر هبت ببيغداد ريح سوداء شديدة كثيرة الغبار والقنم وألقت رملا كثيرا وقلعت كثيرا من الشجر تخاف الناس وتضرعوا ودامت من العشاء الآخرة إلى ثلث الليل وانكشفت . وفيها توفي التاج زيد بن الحسن بن زيد الكندي أبو اليمن البغدادي المولد والمنشأ انتقل بالشام فأقام بدمشق وكان إماما في النحو واللغة وله الإسناد العالي في الحديث وكان ذافنون كثيرة من أنواع العلوم رحمه الله .

(ثم دخلت سنة أربع عشر وستمائة)

(ذكر ملك خوارزم شاه بلد الجبل) في هذه السنة سار خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش إلى بلاد

الجبل فملكها وكان سبب حركته في هذا الوقت أشياء أحدها أنه كان قد استولى على ما وراء النهر وظفر بالخطا وعظم أمره وعلا شأنه وأطاعه القريب والبعيد ومنها أنه كان يهوى أن يخطب له ببغداد ويلقب بالسلطان وكان الأمر بالصدلان كان لا يجد من ديوان الخلافة قبولا وكان سبيله إذا ورد إلى بغداد أن يقدم غيره عليه وامل في عسكره مائة مثل الذي يقدم سبيله عليه فكان إذا سمع ذلك يفضبه ومنها أن أغلش لما ملك بلاد الجبل خطب له فيها جميعها كما ذكرناه فلما قتله الباطنية غضب له وخرج لئلا يخرج البلاد عن طاعته فسار مجدا في عساكر تطبق الأرض فوصل إلى الري فملكها وكان أنابك سعد بن دكلا صاحب بلاد فارس لما بلغه مقتل أغلش جمع عساكره وسار نحو بلاد الجبل طمعا في مملكها لخلوها عن حام ومما ع فوصل إلى أصفهان فأطاعه أهلها وسار منها يريد الري ولم يعلم بقدم خوارزم شاه فلقية مقدمة خوارزم شاه فظنما عساكر تلك الديار قد اجتمعت لقتاله ومنعه عن البلاد فقاتلهم وجد في محاربتهم حتى كاد يهزمهم فبينما هو كذلك وإذا هو قد ظهر له جتر خوارزم شاه فسأل عنه فأخبر به فاستسلم وانهزمت عساكره وأخذ أسيرا وحمل إلى بين يدي خوارزم شاه فأكرمه ووعدته بالإحسان والجميل وأمنه على نفسه واستحلفه على طاعته واستقرت القاعدة بينهما على أن يسلم بعض البلاد إليه ويبقى بعضها وأطلقه وسير معه جيشا إلى بلاد فارس ليسلم إليهم ما استقرت القاعدة عليه فلما قدم على ولده الأكبر آه قد تغلب على بلاد فارس فامتنع من التسليم إلى أبيه ثم إنه ملك البلاد كما ذكره وخطب فيها لخوارزم شاه وسار خوارزم شاه إلى ساوة فملكها وأقطعها العماد الملك عارض جيشه وهو من أهلها ثم سار إلى قزوين وزنجان وأبهر فملكها كلها بغير ممانع ولا مدافع ثم سار إلى همدان فملكها وأقطع البلاد لأصحابه وملك أصفهان وكذلك قم وقاشان واستوعب ملك جميع البلاد واستقرت القاعدة بينه وبين أوزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان وأران بأن يخطب له أوزبك في بلاده ويدخل في طاعته ثم إنه عزم على المسير إلى بغداد فقدم بين يديه أميرا كبيرا في خمسة عشر ألف فارس وأقطعته حلوان فسار حتى وصل إليها ثم اتبعه بأمير آخر فلما سار عن همدان يومين أو ثلاثة سقط عليهم من الثلج مالم يسمع بمثله فهلكت دوابهم ومات كثير منهم وطمع فيمن بقي بنو ترجم الأتراك وبنو هكار الأكراد فتحطفوهم ولم يرجع منهم إلى خوارزم شاه إلا اليسير فتطير خوارزم شاه من ذلك الطريق وعزم على العود إلى خراسان خوفا من النار لأنه ظن أنه يقضى حاجته ويفرغ من إرادته في المدة اليسيرة فخاب ظنه ورأى البيكار بين يديه طويلا فعزم على العود فولى همدان أميرا من أقاربه من جهة والدته يقال له طائيسى وجعل في البلاد جميعها ابنه ركن الدين وجعل معه متوليا لأمر دولته عماد الملك الساوى وكان عظيم القدر عنده وكان يحرص على قصد العراق وعاد خوارزم شاه إلى خراسان فوصل إلى مرو في المحرم سنة خمس عشرة وستمائة وسار من وجهه إلى ما وراء النهر ولما قدم إلى نيسابور جلس يوم الجمعة عند المنبر وأمر الخطيب بترك الخطبة للخليفة الناصر لدين الله وقال إنه قد مات وكان ذلك في ذى القعدة سنة أربع عشرة وستمائة ولما قدم مرو قطع الخطبة بها وكذلك يبلغ وبخارا وسرخس وبقي خوارزم وسمرقند وهرات لم تقطع الخطبة فيها إلا عن قصد لتركها لأن البلاد كانت لا تعارض من أشباه هذا إن أحبوا خطبوا وإن أرادوا قطعوا فبقيت كذلك إلى أن كان منه ما كان وهذه من جملة سعادات هذا البيت الشريف العباسي لم يقصده أحد بأذى إلا لفيه فوله وخبت نيته لا جرم لم يمهل هذا خوارزم شاه حتى جرى له ما ذكره مما لم يسمع بمثله في الدنيا قديما ولا حديثا .

(ذكر ماجرى لآتابك سعد مع أولاده) لما قتل أغلش صاحب بلاد الجبل همدان وأصفهان وما بينهما من البلاد جمع آتابك سعد بن دكلا صاحب فارس عساكره وسار عن بلاه إلى أصفهان فلما وصل إليها أتى عساكر خوارزمشاه قد وصلت كما ذكرناه فحزم على محاربة مقدمة العسكر فقاتلها حتى كاد يهزمها فظهرت عساكر خوارزم شاه ورأى الجتر فسقط في يده وألقى نفسه، وضعفت قوته وقوة عسكره، فولوا الأدبار، وأخذ آتابك سعد أسيراً وأحضر بين يدي خوارزمشاه فأكرمه وطيب نفسه ووعد الإحسان واستصحبه معه إلى أن وصل إلى أصفهان فسيره منها إلى بلاده وهي تجاورها وسير معه عسكراً مع أمير كبير ليتسلم منه ما كان استقر بينهما فإيهما اتفقا على أن يكون لخوارزمشاه بعض البلاد ولآتابك سعد بعضها وتكون الخطبة لخوارزمشاه في البلاد جميعها، وكان آتابك سعد قد استخلف ابناً له على البلاد، فلما سمع الابن بأسر أبيه خطب لنفسه بالمالكة وقطع خطبة أبيه، فلما وصل أبوه ومعه عسكر خوارزمشاه، امتنع الابن من تسليم البلاد إلى أبيه وجمع العساكر وخرج يقاتله فلما ترامى الجمدان، انحازت عساكر فارس إلى صاحبهم آتابك سعد، وتركوا ابنه في خصاصته، فحمل على أبيه فلما رآه أبوه ظن أنه لم يعرفه، فقال له: أنا فلان، فقال إياك أردت، فحينئذ امتنع منه، وولى الابن منهزماً ووصل آتابك سعد إلى البلاد فدخلها مالكا لها وأخذ ابنه أسيراً فسجنه إلى الآن إلا أنني سمعت الآن وهو سنة عشرين وسبعمائة أنه قد خفف حبسه ووسع عليه، ولما عاد خوارزم شاه إلى خراسان غدر سعد بالأمير الذي عنده فقتله ورفع عن طاعة خوارزم شاه واشتغل خوارزم شاه بالحادثة العظمى التي شغلته عن هذا وغيره، لكن الله انتقم له بابنه غياث الدين كما ذكرناه سنة عشرين وسبعمائة لأن سعداً كفر إحسان خوارزم شاه وكفر الإحسان عظيم العقوبة

(ذكر ظهور الفرنج إلى الشام ومسيرهم إلى ديار مصر وملكهم مدينة دمياط وعودها إلى المسلمين) كان من أول هذه الحادثة إلى آخرها أربع سنين غير شهر وإنما ذكرناها هنا لأن ظهورهم كان فيها وسقنا ما سيألفه لمتابعة ليلو بعضها بعضاً فنقول في هذه السنة وصلت إمداد الفرنج في البحر من رومية الكبرى وغيرها من بلاد الفرنج في الغرب والشمال إلا أن المتولى لها كان صاحب رومية لأنه ينزل عند الفرنج بمنزلة عظيمة لا يرون مخالفه أمره ولا الدول عن حكمه فيما سرهم وساءم فجهز العساكر من عنده مع جماعة من مقدمى الفرنج وأمر غيره من ملوك الفرنج أن يسير بنفسه أو يرسل جيشاً ففعلوا ما أمرهم فاجتمعوا بعكا من ساحل الشام وكان الملك العادل أبو بكر بن أيوب بمصر فسار منها إلى الشام فوصل إلى الرملة ومنها إلى لدوبرز الفرنج من عكا ليقتصدوه فسار العادل نحوهم فوصل إلى نابلس عازماً على أن يسبقهم إلى أطراف البلاد كما يلي عكا ليحميها منهم فسارواهم فسبقوه فنزل على بيسان من الأردن فتقدم الفرنج إليه في شعبان عازمين على محاربه لعدوهم أنه في قلة من العسكر لأن العساكر كانت متفرقة في البلاد فلما رأى العادل قربهم منه لم ير أن يلقاهم في الطائفة التي معه خوفاً من هزيمة تكون عليه وكان حازماً كثير الحذر فقارق بيسان نحو دمشق ليقم بالقرب منها ويرسل إلى البلاد ويجمع العساكر فوصل إلى مرج الصفر فنزل فيه، وكان أهل بيسان وتلك الأعمال لما رأوا الملك العادل عندهم اطمأؤوا ولم يفارقوا بلادهم ظناً منهم أن الفرنج لا يقربون عليه فلما أقدموا صار على غفلة من الناس فلم يقدر على النجاة إلا القليل فأخذ الفرنج كل ما في بيسان من ذخائر قد جمعت وكانت كثيرة وغنموا

شيئا كثيرا ونهبوا البلاد من بيسان إلى بانياس وبثوا السرايا في القرى فوصلت إلى خسفين ونوى وأطراف السواد ونازلوا بانياس وأقاموا عليها ثلاثة أيام ثم عادوا عنها إلى مرج عكا ومعهم من الغنائم والسبي والأسرى ما لا يحصى كثرة، هوى ماقتلوا وأحرقوا وأهلكوا فأقاموا أياما استراحوا ثم جاؤا إلى صور وقصدوا بلد الشقيف ونزلوا بينهم وبين بانياس مقدار فرسخين فنهبوا البلاد صيدا والشقيف وعادوا إلى عكا وكان هذا من نصف رمضان إلى العيد والذي سلم من تلك البلاد كان مخفا حتى قدر على النجاة ولقد بلغني أن العادل لما صار إلى مرج الصفر رأى في طريقه رجلا يحمل شيئا وهو يمشى تارة وتارة يتعمد ليستريح فعادل العادل إليه وحده فقال له يا شيخ لا تعجل، وارفق بنفسك، فعرفه الرجل، فقال بإساطان المسلمين أنت لا تعجل وإنما إدارايناك قد سرت إلى بلادك وتركنا مع الأعداء كيف لا تعجل، وبالجملة الذي فعله العادل هو الحزم والمصلحة لئلا يخاطر باللقاء على حال تفرق من العساكر ولما نزل العادل على مرج الصفر سير ولده الملك المعظم عيسى وهو صاحب دمشق في قطعة سالحة من الجيش إلى نابلس ليمنع الفرنج عن البيت المقدس.

(ذكر حصر الفرنج قلعة الطور وتخريبها) لما نزل الفرنج مرج عكا تجهزوا وأخذوا معهم آلة الحصار من مجانيق وغيرها وقصدوا قلعة الطور وهي قلعة منيعة على رأس جبل بالقرب من عكا كان العادل قد بناها عن قريب فتقدموا إليها وحاصروها وزحفوا إليها وصدوا في جبلها حتى وصلوا إلى سورها وكادوا يملكونه فاتفق أن بعض المسلمين ممن فيها قتل بعض ملوكهم فعادوا عن القلعة فتركوها وقصدوا عكا وكان مدد ففاجهم على الطور سبعة عشر يوما، ولما فارقوا الطور أقاموا قريبا ثم ساروا في البحر إلى ديار مصر على ما ذكره إن شاء الله تعالى فتوجه الملك المعظم إلى قلعة الطور تخريبها إلى أن ألحقها بالأرض لأنها بالقرب من عكا، ويتمنر حفظها.

(ذكر حصر الفرنج دمياط إلى أن ملكوها) لما عاد الفرنج من حصار الطور أقاموا بها إلى أن دخلت سنة خمس عشرة وستة فصاروا في البحر إلى دمياط فوصلوا في صفر فأرسلوا إلى بر الجزيرة بهم وبين دمياط النيل فإن بعض النيل يصب في البحر المالح عند دمياط وقد بنى في النيل برج كبير دنيح وجعلوا فيه سلاسل من حديد غلاظ ومدوها في النيل إلى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة من البحر المالح أن تصعد في النيل إلى ديار مصر ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو لا يقدر أحد على منعتها عن أقاصى ديار مصر وأدانها فلما نزل الفرنج على بر الجزيرة وبينهم وبين دمياط النيل بنوا عليهم سورا وجعلوا خندقا بينهم ممن يريدهم وشرعوا في قتال من بدعياط وعملوا آلات ومرمات وأبراجا يزحفون بها في المراكب إلى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه وكان البرج مشحونا بالرجال وقد نزل الملك الكامل ابن الملك العادل وهو صاحب دمياط وجميع ديار مصر بمنزلة تعرف بالعدلية بالقرب من دمياط والعساكر متصلة من عنده إلى دمياط ليمنع العدو من العبور إلى أرضها، وأدام الفرنج قتال البرج وتابعوه ولم يظفروا، منه بشيء وكسرت مرماتهم وآلاتهم ومع هذا فهم ملازمون لغتاله فيقتلوا كذلك أربعة أشهر ولم يقدروا على أخذه ثم بعد ذلك ملكوا البرج فمنا ملكوه قطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر المالح في النيل ويتحكموا في البر فنصب الملك عوض السلاسل جسرا عظيما امتنعوا به من ملوك النيل ثم إنهم قاتلوا عليه أيضا قتالا شديدا كثيرا مثالا حتى قطعوه فلما قطع أخذ الملك الكامل عدة مراكب كبار وولأها وخرقها وخرقها في النيل فنعت المراكب

من سلوكه فلما رأى الفرنج ذلك قصدوا خليجاً هناك يعرف بالازرق كان النيل يجري عليه قد بما حفروا ذلك الخليج وعمقوه فوق المراكب التي جعلت في النيل وأجروا الماء فيه إلى البحر المالح وأصدروا مراكبهم فيه إلى موضع يقال له بورة على أرض الجزيرة أيضاً مقابل المنزلة التي فيها الملك الكامل ليقاتلوه من هناك فإبهم لم يكن لهم إليه طريق يقاتلونه فيها كانت دمياط تحجز بينهم وبينه ، فلما صاروا في بورة حاذوه فقاتلوه في الماء وزحفوا إليه غير مرة فلم يظفروا بطائل ولم يتغير على أهل دمياط شيء لأن الميرة والأمداد متصلة بهم والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج فهم ممتنعون لا يصل إليهم أذى وأبواها مفتحة وليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر فاتفق لما يريد الله عز وجل أن الملك العادل توفي في جمادى الآخرة من سنة خمس وستمئة على ما ذكره إن شاء الله فضعفت نفوس الناس لأنه السلطان حقيقة وأولاده وإن كانوا ملوكاً إلا أنهم بحكمه والأمر إليه وهو ملكهم البلاد فاتفق موته والحال هكذا من مقاتلة العدو وكان من جملة الأمراء بمصر أمير يقال له حماد الدين أحمد بن علي ويعرف بابن المشطوب ، وهو من الأكراد الهكارية ، وهو أكبر أمير بمصر ، وله ليف كثير وجميع الأمراء ينقادون إليه ويطيعونه ، لاسيما الأكراد ، فاتفق هذا الأمير مع غيره من الأمراء ، وأردوا أن يخلعوا الملك الكامل من الملك ، ويملكوا أخاه الملك ، الفاضل بن العادل ، ليصير الحكم إليهم عليه وعلى البلاد فبلغ الخبر إلى الكامل ففارق المنزلة لبلا جريدة وسار إلى قرية يقال لها شمون طنح فنزل عندها وأصبح العسكر وقد فقدوا سلطانهم فركب كل إنسان منهم هواه ولم يتف الأخر على أخيه ولم يقدروا على أخذ شيء من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم إلا اليسير الذي يخف حمله وتركوا الباقي بحاله من ميرة وسلاح ودواب وخيام وغير ذلك ولحقوا بالكامل وأما الفرنج فإبهم أصبحوا من الغد فلم يروا من المسلمين أحداً على شاطئ النيل كجاري عادتهم فيبقوا لا يدرون ما الخبر وإذا قد أتتهم من أخبارهم الخبر على حقيقته فعبروا حينئذ النيل إلى بر دمياط آمنين بغير منازع ولا عمانع وكان عبورهم في العشرين من ذي القعدة سنة خمس عشرة وستمئة فغنموا ما في عسكر المسلمين فكان عظيمياً يدرج العادين وكان الملك الكامل قد فاق الديار المصرية لأنه لم يثق بأحد من عسكره وكان الفرنج ملكوا الجميع بغير تعب ولا اشتد فاتفق من لعن الله تعالى بالمسلمين أن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل وصل إلى أخيه الكامل بعد هذه الحركة بومين والناس في أمر مريب فقوى به قلبه واشتد ظهره وثبت جنانته وأقام بمنزلة وأخرجوا ابن المشطوب إلى الشام فاتصل بالملك الأشرف وسار من جنده فلما عبر الفرنج إلى أرض دمياط اجتمعت العرب على اختلاف قبائلهم ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وقطعوا الطريق وأفسدوا وبالغوا في الإفساد فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج وكان أضر شيء على أهل دمياط أنها لم يكن بها من العسكر أحد لأن السلطان ومن دعه عن العساكر كانوا عندها يمنعون العدو عنها فأتتهم هذه الحركة بغتة فلم يدخلها أحد من العسكر وكان ذلك من فعل ابن المشطوب لاجرم لم يمهله الله رأ حذو أخذة راية على ما ذكره إن شاء الله وأحاط الفرنج بدمياط وقاتلوا بها وبحرا وعملوا عليهم خدقا منهم بمن يريد منهم من المسلمين وهذه كانت عادتهم وأداموا القتال واشتد الأمر على أهلها وتعذرت عليهم الأفرات وغيرها وسموا القتال ولما لزمته لأن الفرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم وليس بدمياط من الكثرة ما يجدون القتال بينهم مناوبة ومع هذا فصبروا صبراً لم يسمع بمثله وكثر القتل فيهم والجراح والموت والأمراض ودام الحصار عليهم إلى السابع والعشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمئة فحجز من

بقي من أهلها عن الحفظ لفلنهم وتمذر القوت عندهم فسلموا البلد إلى الفرنج في هذا التاريخ بالأمان فخرج منهم قوة وأقام آخرون لعجزهم عن الحركة فتفرقوا أيدي سبا .

(ذكر ملك المسلمين دمياط من الفرنج) لما ملك الفرنج دمياط أقامها وبها وبشوا سراياهم في كل ما جاورهم من البلاد ينهبون ويقتلون لجلل أهله عنها وشرعوا في عمارتها وتحصينها وبالغوا في ذلك حتى أنها بقيت لا ترام وأما الملك الكامل فإنه أقام بالقرب منهم في أطراف بلاده يحميها ولما سمع الفرنج في بلادهم بفتح دمياط على أصحابهم أقبلوا يهرعون من كل فج هريق وأصبحت دار هجرتهم وعاد الملك المعظم صاحب دمشق إلى الشام فخرّب البيت المقدس في ذي القعدة من السنة وإنما فعل ذلك لأن الناس كافة خافوا الفرنج وأشرف الإسلام وكافة أهله وبلاده على خطأ خسف في شرق الأرض وغربها أقبل التتر من المشرق حتى وصلوا إلى واحة العراق وأذربيجان وأران وغيرها على ما نذكره إن شاء الله تعالى وأقبل الفرنج من المغرب فملكوا مثل دمياط في الديار المصرية مع عدم الحصون الممانعة بها من الأعداء وأشرف سائر البلاد بمصر والشام على وصاروا يتوقعون البلاء صباحا ومساء وأراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم خوفا من العدو ولات حين مناص والعدو قد أحاط بهم من كل جانب ولو مكنتهم الكامل من ذلك لتركوا البلاد خاوية على عروشها وإنما منعوا منه فثبتوا وتابع الملك الكامل كتبه إلى أخويه المعظم صاحب دمشق والملك الأشرف موسى بن العادل صاحب ديار الجزيرة وأرمينية وغيرهما يستنجدهما ويحكما على الحضور بأنفسهما فإن لم يمكن فيرسلان العساكر إليه فسار صاحب دمشق إلى الأشرف بنفسه فرآه مشغولا عن إنجاده بمادهم من اختلاف الكلمة عليه وزوال الطاعة عن كثير ممن كان يطيعه ونحر نذكر ذلك سنة خمس عشرة وستائة إن شاء الله عند وفاة الملك القاهر صاحب الموصل فليطلب من هناك فذره وعاد عنه وبقي الأمر كذلك مع الفرنج فأمر الملك الأشرف فزال الخلف من بلاده ورجع الملوك الخارجون عن طاعته إليه واستقامت له الأمور إلى سنة ثمان عشرة وستائة والملك الكامل مقابل الفرنج فلما دخلت سنة ثمان عشرة وستائة لم بزوال الممانع للأشرف عن أنجاده، فأرسل يستنجده وأخاه صاحب دمشق فصار صاحب دمشق يحثه على المسير ففعل وصار إلى دمشق فيمن معه من العساكر والعود إلى بلاده خوفا من اختلاف يحدث فلم يقبل قولهم وقال قد خرجت للجهاد ولا بد من إتمام ذلك العزم فسار إلى مصر وكان الفرنج قد صاروا عن دمياط الفارس والراجل وقصدوا الملك الكامل ونزلوا مقابله بينهما خليج من النيل يسمى بحر أشمون وهم يرهون بالمنجنيق والجرح إلى عسكر المسلمين وقد تيقنوا هم وكل الناس أنهم يملكون الديار المصرية، وأما الأشرف فإنه سار حتى وصل مصر فلما سمع أخوه الكامل يقربه منهم توجه إليه فلقية واستبشر هو وكافة المسلمين باجتماعهما له لاقه يحدث بذلك نصرا وظفرا، وأما الملك المعظم صاحب دمشق فإنه سار أيضا إلى ديار مصر وقصد دمياط ظنا منه أن أخويه وعسكريهما قد نازلوها وقيل بل أخبر في الطريق أن الفرنج قد توجهوا إلى دمياط فدأبتهم إليها ليلقاهم من بين أيديهم وأخواه من خلفهم والله أعلم . ولما اجتمع الأشرف بالكامل استقر الأمر بينهما على التقدم إلى خليج من النيل يعرف ببحر المحلة فتقدموا إليه فقاتلوا الفرنج وازدادوا قربا وتقدمت شواني المسلمين من النيل وقاتلوا شواني الفرنج فأخذوا منها ثلاث قطع بمن فيها من الرجال وما فيها من الأموال والسلاح ففرح المسلمون بذلك واستبشروا وتقاتلوا وقويت نفوسهم واستطالوا على عدوهم هذا يجرى والرسول مترددة بينهم في تقرير قاعدة الصالح وبذل

المسلمون لهم تسليم الديت المقدس وعقلان وطبرية ، وصيدا وجبله واللاذقية ، وجميع ما فتحه صلاح الدين ماعدا الكرك ليسلوا دمياط فلم يرضوا وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب القدس ليعمره بها فلم يتم بينهم أمر وقالوا لا بد من الكرك فبينما الأمر في هذا وهم يمنعون فاضطر المسلمون إلى قتالهم وكان الفرنج لاقتدارهم في نفوسهم لم يتصحبوا معهم ما يقوتهم عدة أيام ظمأ منهم أن العساكر الإسلامية لا تقوم لهم وأن القرى والسواد جميعه يبقى بأيديهم يأخذون منه ما أرادوا من الميرة لأمر بريدته الله تعالى بهم فعبث طائفة من المسلمين إلى الأرض التي عليها الفرنج ففجروا النيل فركب الماء أكثر تلك الأرض ولم يبق للفرنج جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فيها ضيق فنصب الكابل حينئذ الجور على النيل عند أشمون وعبرت العساكر عليها فلما الطريق الذي يسلكه الفرنج إن أرادوا العود إلى دمياط فلم يبق لهم خلاص واتفق في تلك الحال أنه وصل إليهم مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب يسمى مرمة وحوله عدة حراقات تحميه والجميع مملوء من الميرة والسلاح وما يحتاجون إليه فوقع عليها شواني المسلمين وقاتلوهم فظفروا بالمرمة وبما معها من الحراقات وأخذوها فلما رأى الفرنج ذلك سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا الصواب بمفارقة دمياط في أرض مجهولتها هذا وعساكر المسلمين محيطة بهم برمونهم بالنشاب ويحملون على أطرافهم فلما اشتد الأمر على الفرنج أحرقوا خيامهم ومجانيقهم وأثقالهم وأرادوا الزحف إلى المسلمين ومقاتلتهم لعلمهم يقدرون على العود إلى دمياط فرأوا ما أملوه بعيدا وحيل بينهم وبين ما يشتهون لكثرة الوحل والمياه حولهم والوجه الذي يقدرون على سلوكه قد ملكه المسلمون فلما تيقنوا أنهم قد أحيط بهم من سائر جهاتهم وأن ميرتهم قد تعذر عليهم ووصولها وأن المنايا قد كشرت لهم عن أنيابها ذلت نفوسهم وتنكست صلبانهم وضل عنهم شيطانهم فراسلوا الملك الكامل والأشرف يطلبون الأمان ليسلوا دمياط بغير عوض فبينما المراسلات مترددة إذ أقبل جيش كبير لهم رهج شديد وجلبه عظيمة من جهة دمياط فظنه المسلمون نجدة أتت للفرنج فاستشعروا وإذا هو الملك المعظم صاحب دمشق قد وصل إليهم وكان قد جعل طريقه على دمياط لما ذكرناه فاشتدت ظهور المسلمين وازداد الفرنج خذلانا ووهنا وتمموا الصلح على تسليم دمياط واستقرت القاعدة والأيمان سابع رجب من سنة ثمان عشر وستائة وانتقل ملوك الفرنج وكنودهم وقاهصتهم إلى الملك الكامل والأشرف رهائن على تسليم دمياط ملك عكا ونائب بابا صاحب رومية وكندريش وغيرهم وعدتهم عشرون ملكا وراسلوا قسوسهم ورهبانهم إلى دمياط في تسليمها لم يمتنع من بها وسلموها إلى المسلمين تاسع رجب المذكور وكان يوما مشهودا ومن العجب أن المسلمين لما تسلوا دمياط وصلوا للفرنج نجدة في البحر فلو سبغوا المسلمين إليها لامتنعوا من تسليمها ولكن سبغهم المسلمون ليقضى الله أمرا كان مفعولا ولم يبق بها من أهلها إلا آحاد وتفرقوا أيدي سبا بعضهم سار عنها باختياره وبعضهم مات وبعضهم أخذه الفرنج ولما دخلها المسلمون رأوها حصينة قد حصنها الفرنج تحصينا عظيما بحيث بقيت لا ترام ولا يوصل إليها وأعاد الله سبحانه وتعالى الحق إلى نصابه ورده إلى أربابه وأعطى المسلمين ظفرا لم يكن في حسابهم فإنهم كانت غاية أمانهم أن يسلبوا البلاد التي أخذت منهم بالشام ليعيدوا دمياط برزقهم الله إعادة دمياط وبقيت البلاد بأيديهم على حالها فآله المحمود المشكور على ما أنعم به على الإسلام سلين من كف عادية هذا العدو وكفاهم شر التتر على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في المحرم كانت بغداد فتنة بين أهل المأمونية وبين أهل باب الأزج

بسبب قتل سبع وزاد الشر بينهم واقتلوا فجرح بينهم كثير فحضر نائب الباب وكفهم عن ذلك فلم يقبلوا ذلك وأسموه ما يكره فأرسل من الديوان أمير من ممالك الخليفة فرد أهل كل محلة إلى محلتهم وسكنت الفتنة . وفيها كثر العار ببلدة دجيل من أعمال بغداد فكان الإنسان لا يقدر أن يجلس إلا معه عصا يرد الفار عنه وكان يرى الكثير منه ظاهرا يتبع بعضه بعضا وفيها زادت دجلة زيادة عظيمة لم يشاهد في قديم الزمان مثلها وأشرفت بغداد على الغرق فركب الوزير وكافة الأمراء والأعيان وجمعوا الخلق العظيم من العامة وغيرهم لحمل القورج حول البلد وقلق الناس لذلك وازعجوا وعابنوا الهلاك وأعدوا السفن لينجوا فيها وظهر الخليفة للناس وحثهم على العمل وكان مما قال لهم لو كان يفدى ما أرى بمال أو غيره لفعلت ولو دفع بحرب لعدت ولكن أمر الله لا يرد ونبع الماء من البلايع والآبار من الجانب الشرقي وغرق كثير منه وغرق مشهد أبي حنيفة وبعض الرصافة وجامع المهدي وقربة الملكية والكشك وانقطعت الصلاة بجامع السلطان وأما الجانب الغربي فهدم أكثر القرية ونهر عيسى والشطيات وخربت البساتين ومشهد باب التين ومقبرة أحمد بن حنبل والحريم الظاهري وبعض باب البصرة والدور التي على نهر عيسى وأكثر محلة قطفنا . وفيها توفي أحمد بن أبي الفضائل عبد المنعم ابن أبي البركات محمد بن طاهر بن سعيد بن فضل الله بن سعيد بن أبي الخير الميهني الصوفي أبو الفضل شيخ رباط الخليفة ببغداد وكان صالحا من بيت التصوف والصلاح .^(١)

﴿ ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمائة ﴾

﴿ ذكر وفاة الملك القاهر وولاية ابنه نور الدين وما كان من العتق بسبب موته إلى أن استقرت الأمور ﴾
في هذه السنة توفي الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنيكي بن آق سنقر صاحب الموصل ليلة الإثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الأول وكانت ولايته سبع سنين وتسعة أشهر وكان موته أنه أخذته حمى ثم فارقت الغد وبقي يومين موعوكا ثم عارذنه الحمى مع قى كثير وكرب شديد وقلق . تتابع ثم برد بدنه وعرق وبقي كذلك إلى وسط الليل ثم توفي وكان كريما حلما قليل الطمع في أموال الرعية كما عمن أذى يوصله إليهم مقبلا على لدانه كما نما بينهما ويبادر بها الموت وكان عنده رقة شديدة ويكثر ذكر الموت . حكى لي بعض من كان يلازمه قال كنا ليلة قبل وفاته بنصف شهر عنده فقال لي قد وجدت ضجرا من القعود فقم بنا نتمشى إلى الباب العماي قال فقمنا فخرج من داره نحو الباب العمادي فوصل التربة التي عملها لنفسه عند داره فوقف عندها مفكرا لا يتكلم ثم قال لي والله ما نحن في شيء أليس مصيرنا إلى ههنا وندفن تحت الأرض وأطال الحديث في هذا ونحوه ثم عاد إلى الدار فنقلت له ألا نتمشى إلى الباب العمادي فقال ما بقي عندي

(١) وفيها توفي الأمير بدر الدين محمد بن أبي القاسم المسكاري باني المدرسة التي بالقدس ، كان من خيار الأمراء وكان يتمنى الشهادة دائما فقتله الفرنج بمحس الطور ، ودفن بالقدس بتربة عاملها وهو يزار إلى الآن رحا الله . وفيها توفي الشجاع محمود المعروف بابن الدماغ كان من أصدقاء العادل يضحكه ، فحصل أموالا جزيلة منهم ، كانت داره داخل باب الفرنج فجعلها زوجته عائشة مدرسة للشافعية والحنفية ، ووقفت عليها أوقافا دارة . وفيها توفيت الشيخة الصالحة العابدة الزاهدة شيخة العالمات بدمشق ، تلقب بدهن اللوز ، بذت نورنجان ، وهي آخر بناته وفاة وجعلت أموالها وقفا على تربة أختها بنت العصبة المشهورة .

نشاط إلى هذا ولا إلى غيره ودخل داره وتوفي بعد أيام وأصيب أهل بلاده بموته وغظم عليهم فقده وكان محبوباً إليهم قريباً من قلوبهم ففي كل دار لأجله ربة وعويل ولما حضرته الوفاة أوصى بالملك لولده الأكبر نور الدين أرسلان شاه وعمره نحو عشر سنين وجعل الوصي عليه والمدير لدولته بدر الدين لؤلؤ وهو الذي كان يتولى دولة القاهر ودولة أبيه نور الدين قبله وقد تقدم من أخباره ما يعرف به محله وسيرد منها أيضاً ما يزيد الناظر بصيرة فيه فلما قضى نحبه قام بدر الدين بأمر نور الدين أجلسه في مملكة أبيه وأرسل إلى الخليفة يطلب له التقليد والتشريف وأرسل إلى الملوك وأصحاب الأطراف المجاورين لهم يطلب تجديد العهد لنور الدين على القاعدة التي كانت بينهم وبين أبيه فلم يصبح إلا وقد فرغ من كل ما يحتاج إليه وجلس للعزاء وحلف الجند والرعايا وضبط المملكة من الزلزل والتغير مع صغر السلطان وكثرة الطامعين في الملك فإنه كان معه في البلد أعمام أبيه وكان معه عماد الدين زنكي بن أرسلان شاه بولايته وهي قلعة عقر الحמידية يحدث نفسه بالملك لا يشك في أن الملك يصير إليه بعد أخيه فرجع بدر الدين ذلك الخرق ورتق ذلك الفتق وبع الإحسان والخلع على كافة الناس وغير ثياب الحداد عنهم ولم يخص بذلك شريفاً دون مشروف ولا كبيراً دون صغير وأحسن السيرة وجلس لكشف ظلمات الناس وإنصاف بعضهم من بعض وبعد أيام وصل التقليد من الخليفة لنور الدين بالولاية ولبدر الدين بالنظر في أمر دولته والتشريقات لها أيضاً وأنتهم رسل الملوك بالنعزية وبذل ما طلب منهم من العهود واستقرت القواعد لها .

(ذكر ملك عماد الدين زنكي قلاع الهكارية والزوزان) قد ذكرنا عند وفاة نور الدين سنة سبع وستمائة أنه أعطى ولده الأصغر زنكي قلعتي العقرو شوش وهما بالقرب من الموصل فكان نارة يكون بالموصل ونارة بولايته متجنبا لكثرة تلونه وكان بقلعة العمادية مستحفظ من ممالك جده عز الدين مسعود بن مودود قيل إنه جرى له مع زنكي مراسلات في معنى تسليم العمادية إليه فتمى الخبر بذلك إلى بدر الدين فبادره بالعزل مع أمير كبير وجماعة من الجند لم يمكنه الامتناع وسلم القلعة إلى نائب بدر الدين كذلك وجعل بدر الدين في غير العمادية من القلاع نواباً له وكان نور الدين بن القاهر لا يزال مريضاً من جروح كانت به وغيرها من الأمراض وكان يبقى المدة الطويلة لا يركب ولا يظهر للناس فأرسل زنكي إلى من بالعمادية من الجند يقول إن ابن أخي توفي ويريد بدر الدين بملك البلاد وأنا أحق بملك آبائي وأجدادي فلم يزل حتى استدعاه الجند منها وسلوا إليه ثامن عشر رمضان سنة خمس عشرة وستمائة وقبضوا على النائب البدرى وعلى من معه فوصل الخبر إلى بدر الدين ليلاً فجد في الأمر ونادى في العسكر لوقته بالرحيل فساروا مجددين إلى العمادية وحاصروها وكان الزمان شتاء والبرد شديد والثلج هناك كثير فلم يتمكنوا من القتال من بها لكنهم أقاموا يحصرونها وقام مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين صاحب إربل في نصر عماد الدين وتجزد لمساعدته فراسله بدر الدين يذكره الإيمان والعهود التي من جملتها أنه لا يتعرض إلى شيء من أعمال الموصل ومنها قلاع الهكارية والزوزان بأسمائها ومتى تعرض إليها أحد من الناس من كان منعه بنفسه وعساكره وأعان نور الدين وبدر الدين على منعه ويطالبه بالوفاء بها ثم نزل عن هذا ورضى منه بالسكوت لا لهم ولا عليهم فلم يفعل وأظهر معاضدة عماد الدين زنكي فحينئذ لم تكن مكافأة زنكي بالرجال والعساكر لفرب هذا الخصم وأعمالها إلا أن العسكر البدرى محاصر للعمادية وبها زنكي ثم إن بعض الأمراء من عسكر الموصل ممن لا علم له بالحرب وكان شجاعاً وهو جديد الإمارة أراد أن يظهر

شجاعته ليزداد بها تقدما وأشار على من هناك من العسكر بالتقدم إلى العبادية ومباشرتها بالقتال وكانوا قد تأخروا عنها شيئا يسيرا لشدة البرد والثلج فلم يوافقوه وقبحوا رأيه فتركهم ورحل متقدما إليهم ليلا فاضطروا إلى اتباعه خوفا عليه من أذى يصيبه ومن معه فساروا إليه على غير تعبئة لضيق المسلك ولأنه أعجزهم عن ذلك وحكم الثلج عليهم أيضا فسمع زنكي ومن معه ينزلوا ولقوا أوائل الناس وأهل مكة أخبر بشعابها فلم يشبتوا لهم وانهمزوا وعادوا إلى منزلهم ولم يقف العسكر عليهم فاضطروا إلى العود فلما عادوا راسل زنكي باقى قلاع الهكارية والزوزان واستدعاهم إلى طاعته فأجابوه وسلخوا إليه فجعل فيها الولاية وتسليمها وحكم فيها .

(ذكر اتفاق بدر الدين مع الملك الأشرف) لما رأى بدر الدين خروج القلاع عن يده واتفاق مظهر الدين وعماد الدين عليه ولم يفتح معهم للزولا الشدة وأهما لا يزالان يسميان في أخذ بلاده ويتعرضان إلى أطرافها بالهيب والأدى أرسل إلى الملك الأشرف موسى بن الملك العادل وهو صاحب ديار الجزيرة كلها إلا القليل وصاحب خلاط وبلادها يطلب منه الموافقة والمساعدة وانتمى إليه وصار في طاعته منخرطاً ملك موافقته فأجابته الأشرف بالقبول والفرح به والاستبشار ، وبذل له المساعدة والمعاونة والمجارية دونه ، واستعادة ما أخذ من القلاع التي كانت له ، وكان الملك الأشرف حينئذ يجلب نازلا بظاهرها لما ذكرناه من تعرض كيكارس ملك بلاد الروم التي بيد المسلمين قونية وغيرها إلى أعمالها وملكوا بعض قلاعها فأرسل إلى مظهر الدين يقبض هذه الحالة ويقول له إن هذه القاعدة تقررت بين جميعنا بحضور رسلك وأنا نكون على الناكث إلى أن يرجع إلى الحق ولا بد من إعادة ما أخذ من بلد الموصل لنردوم على اليمين التي استقرت بيننا فإن امتنعت وأصررت على معاودة زنكي ونصرته فأنا أجيء بنفسى وعسا كرى وأقصد بلادك وغيرها واسترد ما أخذتموه وأعيدته إلى أصحابه والمصلحة أنك توافق وتعود إلى الحق لنجعل شغلنا جمع العساكر وقصد الديار المصرية وإجلال الفرنج عما قبل أن يعظم خطبهم ويستطير شرهم لم يحصل بالإجابة منه إلى شئ من ذلك وكان نصر الدين محمود صاحب الحصن وآمد قد امتنع عن موافقة الأشرف وأقصد بعض بلاده ونهبها وكذلك صاحب ماردين واتفقا مع مظهر الدين ، فلما رأى الأشرف ذلك جهز عسكرا وسيره إلى نصيبين نجدة لبدر الدين إن احتاج إليهم (ذكر انهزم عماد الدين زنكي من العسكر البدرى) لما عاد العسكر البدرى من حصار العبادية وبها زنكي كما ذكرناه قويت نفسه وفارقها وعاد إلى قلعة العقير التي له ليتسلط على أعمال الموصل بالصحراء فإن بلد الجبل كان قد فرغ منه وأمد مظهر الدين بطائفة كثيرة من العسكر فلما اتصل الخبر ببدر الدين سير طائفة من عسكره إلى أطراف بلد الموصل يحمونها فأقاموا على أربعة فراسخ من الموصل ، ثم لهم اتفقوا بينهم على المسير إلى زنكي وهو عند العقير في عسكره ومجاريته ، ففعلوا ذلك ولم يأخذوا أمر بدر الدين بل أعلموه بمسيرهم جريئة ليس معهم إلا سلاحهم ودواب يقاتلون عليها يساروا إليهم وصبحوا زنكي بكرة الأحد لأربع بقين من المحرم من سنة ست عشرة وسبعمائة فالتقوا واقتتلوا تحت العقير وعظم الخطب فأنزل الله نصره على العسكر البدرى فانهزم عماد الدين وعسكره وسار إلى إربل منهزما وعاد العسكر البدرى إلى منزلته التي كان بها وحضرت الرسل من الخليفة الناصر لدين الله ومن الملك الأشرف في تجديد الصلح فاصطلحوا وتحالفوا بحضرة الرسل .

(ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل وملك أخيه) ولما تقرر الصلح توفي نور الدين أرسلان شاه بن الملك القاهر صاحب الموصل وكان لا يزال مريضا بعدة امراض فرتب بدر الدين في الملك بعده أخاه ناصر الدين (٤١ - كامل - ٩)

وله من العمر نحو ثلاث سنين ولم يكن للقاهر ولد غيره وحاف له الجند وركبه فطابت نفوس الناس ، لأن نور الدين كان لا يقدر على الركوب لمرضه فلما ركبوا هذا عدوا أن لهم سلطانا من البيت الأتابكي فاستقروا واطمأنوا وسكن كثير من الشعب بسببه .

(ذكر انهزام بدر الدين من مظفر الدين) لما توفي نور الدين وملك أخوه ناصر الدين تجدد لمظفر الدين ولعماد الدين طمع لصغر سن ناصر الدين فجمعما الرجال وتجهزا للحركة فظهر ذلك وتصد بهض أصحابهم طرف ولاية الموصل بالتهب والفساد ، وكان بدر الدين قد سير ولده الأكبر في جمع صالح بن العسكر ، إلى الملك الأشرف بحلب نجدة له بسبب اجتماع الفرنج بمصر ، وهو يزيد أن يدخل بلاد الفرنج التي بساحل الشام ينها ويخربها ليعود بعض من بدمياط إلى بلادهم ، فيخف الأمر على الملك الكامل صاحب مصر ، فلما رأى بدر الدين تحرك مظفر الدين وعماد الدين وإن بعض عسكره بالشام أرسل إلى عسكر الملك الأشرف الذي بنصدين يستدعيهم ليعتضدهم وكان المقدم عليهم ملوك الأشرف اسمه أيك فسار إلى الموصل رابع رجب سنة ست عشرة فلما رأهم بدر الدين استقلهم لأنهم كانوا أقل من العسكر الذي له بالشام أو مثلهم فأخ أيك على عبور دجلة وتصد بلاد إربل فمنعه بدر الدين من ذلك وأمره بالاستراحة فنزل بظاهر الموصل أياما وأصر على عبور دجلة فعبرها بدر الدين موافقة له ونزلوا على فرسخين من الموصل شرقي دجلة فلما سمع مظفر الدين ذلك جمع عسكره وسار إليهم ومعه زنكي فعبروا الزاب وسبق خبره فسمع به بدر الدين فعبى أصحابه وجعل أيك في الجالسية ومعه شجعان أصحابه وأكثر معه منهم بحيث إنه لم يبق معه إلا اليسير وجعل في ميسرته أميرا كبيرا وطلب الانتقال عنها إلى الميمنة فنقله فلما كان وقت العشاء الآخرة أعاد ذلك الأمير الطلب بالانتقال من الميمنة إلى الميسرة والخضم بالقرب منهم ففنع بدر الدين وقال متى انتقلت أنت ومن معك في هذا الليل ربما ظنه الناس هزيمة فلا يقف أحد فأقام بمكانه وهو في جمع كبير من العسكر فلما اتصف الليل سار أيك فأمره بدر الدين بالمقام إلى الصبح لقرب العدو منهم فلم يقبل لجهله بالحرب فاضطر الناس لاتباعه فقطعوا في الليل والظلمة والتقواهم والخضم في العشرين من رجب على ثلاثه فراسخ من الموصل فأما عز الدين فإنه تيامن والتحق بالميمنة وحمل في اطلاقه هو والميمنة على ميسرة مظفر الدين فهزمها وبها زنكي وكان الأمير الذي انتقل إلى الميمنة قد أبعدها فلم يقاتل فلما رأى أيك قد هزم الميسرة تبعه وتقدم إليه مظفر الدين فيمن معه في القلب لم يتفرقوا فلم يمكنه الوقوف فعاد إلى الموصل وعبور دجلة إلى القلعة ونزل منها إلى البلد فلما رآه الناس فرحوا به وساروا معه وقصد باب الجسر والعدو يازانه بينهما دجلة فنزل مظفر الدين فيمن سلم معه من عسكره وزايل حصن نينوى فأقام ثلاثة أيام فلما رأى اجتماع العسكر البدرى بالموصل وأنهم لم يفقه منهم إلا اليسيرة وبلغه الخبر إن بدر الدين يريد العبور إليه ليلا بالفارس والراجل على الجسور وفي السفن ويكبسه فرحل ليلا من غير أن يضرب كامسا أو بوقا وعادوا نحو إربل فلما عبروا الزاب نزلوا ثم جاءت الرسل وسعوا في الصلح فاصطلحوا على أن كل من بيده شيء هو له وتقررت اليهود والإيمان على ذلك .

(ذكر ملك عماد الدين قلعة كواشي وملك بدر الدين تل يعفر وملك الملك الأشرف سنجان) كواشي هذه من أحسن قلاع الموصل وأعلها وأمنها وكان الجند الذين بها لما رأوا ما فعل أهل العمادية وغيرها من التسليم إلى زنكي وأنهم قد تحكروا في القلاع لا يقدر أحد على الحكم عليهم أحبوا أن يكونوا كذلك

وأخرجوا نواب بدر الدين عنهم وامتنعوا بها وكانت رهائنهم بالموصل وهم يظهرون طاعة بدر الدين ويظنون المخالفة فترددت الرسل في هودم إلى الطاعة فلم يفعلوا وراه ملوك زنكي في الحجى بهم وتسلم القلعة وأقام عنهم فرسل مظفر الدين يذكر بالإيمان القريبة العهد ويطلب منه إعادة كواشي فلم تقع الإجابة إلى حينئذ بدر الدين إلى الملك الأشرف وهو بحلب يستنجده فسار وعبر الفرات إلى حران واختلفت عليه الأمور من عدة جهات منته من سرعة السير وسبب هذا كان الاختلاف أن مظفر الدين كان يرسل الملوك أصحاب الأطراف ليستميلهم ويحسن لهم الخروج على الأشرف ويخوفهم منه إذا خلى وجهه فأجابه إلى ذلك عز الدين كيكاروس كيكسرو بن قلع أرسلان صاحب بلاد الزوم وصاحب آمد وحصن كيفا وصاحب ماردين وانفقوا كلهم على طاعة كيكاروس وخطبوا له في بلادهم ونحن نذكر ما كان بينه وبين الأشرف عند منبج لما قصد بلاد حلب فهو موغر الصدر عليه فاتفق أن كيكاروس مات في ذلك الوقت وكفى الأشرف وبدر الدين شره ولا جدالا ما أقص عنك الرجال وكان مظفر الدين قد راسل جماعة من الأمراء الذين مع الأشرف واستالمهم فأجابوه منهم أحمد بن علي بن المشطوب الذي ذكرنا أنه فعل على دمياط ما فعل وهو أكبر أمير معه ووافقه غيره منهم عز الدين محمد بن بدر الحميدي وغيرهما وفارقوا الأشرف ونزلوا بدنيسر تحت ماردين ليجتمعوا مع صاحب آمد ويمنعوا الأشرف من العبور إلى الموصل لمساعدة بدر الدين فلما اجتمعوا هناك عاد صاحب آمد إلى موافقة الأشرف وفارقهم واستقر الصلح بينهما وسلم إليه الأشرف مدينة حانى وجبل جوز وضمن له أخذ دارا وتسليمها إليه فلما فارقهم صاحب آمد انحل أمرهم فاضطر بعض أولئك الأمراء إلى العود إلى طاعة الأشرف وبقي ابن المشطوب وحده فسار إلى نصيبين ليسير إلى إربل فخرج إليه شحنة نصيبين فيمن عنده من الجند فاقتلوا فانهزم ابن المشطوب وتفرق من معه من الجمع وهضى منهزما فاجتاز بطرف بلد سنجانفسير إليه صاحبها فروخ شاه بن زنكي بن مودود بن زنكي عسكريا فهزموه وأخذوه أسيرا وحملوه إلى سنجان وكان صاحبها موافقا للأشرف وبدر الدين فلما صار عنده ابن المشطوب حسن له مخالفة الأشرف فأجابه إلى ذلك وأطلقه فاجتمع معه من يريد الفساد فقصدوا البقعاء من أعمال الموصل ونهبوا فيها عدة قرى وعادوا إلى سنجان ثم ساروا وهو معهم إلى تل يعفر وهي لصاحب سنجان ليقتصدوا بلد الموصل وينهبوا في تلك الناحية فلما سمع بدر الدين بذلك سير إليه عسكريا فقاتلوهم ففضى منهزما وصعد إلى تل يعفر واحتفى بها منهم ونزلوه وحصره فيها فسار بدر الدين من الموصل إليه يوم الثلاثاء لتسع بقين من ربيع الأول سنة سبع عشرة وستائة وجد في حصره وزحف إليها مرة بعد أخرى فلما سابع عشر ربيع الآخرة من هذه السنة وأخذ ابن المشطوب معه إلى الموصل فسجنه بها ثم أخذه منه الأشرف فسجن بحران إلى أن توفي في ربيع الآخر سنة تسع عشرة وستائة ولقاء الله عقبه ما صنع بالملكين بدمياط وأما الملك الأشرف فإنه لما أطاعه صاحب الحصن وآمد وتفرق الأمراء كما ذكرناه رحل من حران إلى دنيسر فنزل عليها واستولى على بلد ماردين وشحن هلبه وأطلقه ومنع الميرة عن ماردين وحضر معه صاحب آمد وترددت الرسل بينه وبين صاحب ماردين في الصلح فاصطلحوا على أن يأخذ الأشرف رأس العين وكان هو قد أقطمها لصاحب ماردين ويأخذ منه أيضا ثلاثين ألف دينار ويأخذ منه صاحب آمد الموزر من بلد شبختان فلما تم الصلح صار الأشرف من دنيسر إلى نصيبين يريد الموصل فبينما هو في الطريق لقيه رسل صاحب سنجان يبذل تسليمها إليه ويطلب

العروض عنها مدينة الرقة وكان السبب في ذلك أخذ تل يعفر منه فانخلع قلبه وانضاف إلى ذلك أن ثقاته ونصحائه خانوه وزادوه رعبا وخوفا لأنهم تهددوه فتعدوا به قبل أن يتعشى بهم ولأنه قطع رحمة وقل أخاه الذي ملك سنجار بعد أبيه قتله كما يذكره إن شاء الله وملكها فلما اتفق الله صوره فعله ولم يمتعه بها فلما تيقن رحيل الأشرف تبحر في الأمر فأرسل في التسليم إليه فأجابته الأشرف إلى العروض وسلم إليه الرقة وتسلم سنجار مستهل جمادى الأولى سنة سبع عشرة وستمائة وفارقها صاحبها وإخوته بأهلهم وأموالهم وكان هذا آخر ملوك البيت الأتابكي بسنجار فسبحان الخي الدائم الذي ليس لملكه آخر وكان مدة ملكهم لها أربعاً وتسعين سنة وهذا دأب الدنيا بأبنائها فتعصا لها من دار ما أعدرها بأهلها .

(ذكر وصول الأشرف إلى الموصل والصلح مع مظفر الدين) لما ملك الملك الأشرف سنجار سار يريد الموصل ليجتاز منها فقدم بين يديه عساكره فكان يصل كل يوم منهم جمع كثير ثم وصل هو في آخرهم يوم الثلاثاء تاسع عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة وكان يوم وصوله مشهودا وأنادى رسل الخليفة ومظفر الدين في الصلح وبذل تسليم القلاع المأخوذة جميعها إلى بدر الدين ماعدا قلعة العمادية فإنها تبقى بيد زنكي وأن المصلحة قبول هذا لتزول الفتن ويقمع الاشتغال بجهاد الفرنج وطال الحديث في ذلك نحو شهرين ثم رحل الأشرف يريد مظفر الدين صاحب إربل فوصل إلى قرية السلامية بالقرب من نهر الزاب وكان مظفر الدين نازلا عليه من جانب إربل فأعاد الرسل وكان العسكر قد طال بيكاره والناس قد ضجروا وباصر الدين صاحب آمد يميل بهراه إلى مظفر الدين فأشار بالإجابة إلى ما بذل وأعان عليه غيره فوَقعت الإجابة إليه وأصطلحوا على ذلك وجعل لتسليمها أجل وحمل زنكي إلى الملك الأشرف يكون عنده رهينة إلى حين تسليم القلاع وصلت قلعة العفر وقلعة شوش أيضا وهما لزنكي إلى نواب الأشرف رهنا على تسليم ما استقر من القلاع فإذا سدت أطلق زنكي وأعيد عليه قلعة العفر وقلعة شوش وحلفوا على هذا وسلم الأشرف إلى زنكي القلعتين وعاد إلى سنجار وكان رحيله عن الموصل ثاني شهر رمضان من سنة سبع عشرة وستمائة فأرسلوا إلى القلاع لتسلم إلى نواب بدر الدين فلم يسلم إليه غير قلعة جل صورا من أعمال الهندكارية وأما باقي القلاع فإن جندها أظهروا الامتناع من ذلك وهضى الأجل ولم يسلم الأجل صورا ولزم عماد الدين زنكي لشهاب الدين غازي بن الملك العادل وخدمه وتقرب إليه فاستعطف له أخاه الملك الأشرف فسأل إليه وأطلقه وأزال نوابه من قلعة العفر وشوش وسلمها إليه وبلغ بدر الدين عن الملك الأشرف ميل إلى قلعة تل يعفر وإياها كانت لسنجار من قديم الزمان وحديثه وطال الحديث في ذلك فسلمها إليه بدر الدين .

(ذكر عود قلاع الهندكارية والزوزان إلى بدر الدين) لما ملك زنكي قلاع الهندكارية والزوزان لم يفعل مع أهلها ما ظنوه من الإحسان والإنعام بل فعل ضده وصق عليهم وكان ياتهم أفعال بدر الدين مع جنده ورعاه وإحسانه إليهم وبذله الأموال لهم وكانوا يريدون العود إليه ويمتنعهم الخوف منه لما أسلفوه من ذلك فلما كان الآن أعلنوا مما فعل معهم فأرسلوا إلى بدر الدين في المحرم سنة ثمان عشرة وستمائة في التسليم إليه وطلبوا منه اليمن والنفوس عنهم وذكروا شيئا من أقطاع تكون لهم فأجابهم إلى ذلك وأرسل إلى الملك الأشرف يستأذنه في ذلك فلم يأذن له وعاد زنكي من عند الأشرف لجمع جموعا وحصر قلعة العمادية فلم يبلغ منهم غرضاً وأعادوا رسالة بدر الدين التسليم إليه فكتب إلى الملك الأشرف في المعنى وبذل له قلعة جديدة ونصيبين وولاية

بين الهرين ليأذن له في أخذها فأذن له فأرسل إليها النواب وتسدوها وأحضر إلى أهلها ورحل زنكي عنها ووفى له بدر الدين بما بذله له فلما سمع جنديا في القلاع بما فعلوا وما وصلهم من الإحسان والزيادة ورغبوا كاهم في التسليم فسير إليهم النواب وانفقت كلمة أهلها على طاعته والانقياد إليه والعجب أن العساكر اجتمعت من الشام والجزيرة وديار بكر وخراسان وغيرها في استعادة هذه القلاع فلم يقدروا على ذلك فلما تفرقوا حضر أهلها وسألوا أن تؤخذ منهم فعدت صفوا عفوا بغير منة ولقد أحسن من قال :

لا سهل إلا ما جعلت سهلا وإن تشأ تجعل بحزن وحلا

فبارك الله الفعّال لما يريد لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع وهو على كل شيء قدير .

(ذكر قصد كيكاس وولاية حلب وطاعة صاحبها للأشرف وانتهزام كيكاس) في هذه السنة سار عز الدين كيكاس بن كينخرو ملك الروم إلى ولاية حلب قصدًا للتغلب عليها ومعه الأفضل بن صلاح الدين يوسف وسبب ذلك أنه كان بحلب رجلان فيهما شر كثير وسعاية بالناس فكانا ينقلان إلى صاحبها الملك الظاهر بن صلاح الدين عن زعمته فأوغروا صدره فلقى الناس منهما شدة فلما توفي الظاهر وولى الأمر شهاب الدين طغرل أبعدهما وغيرهما بمن يفعل فعلهما وسد هذا الباب على فاعله ولم يطرق إليه أحدا من أهله فلما رأى الرجلان كساد سوقهما الزمانيوتهم ارتأوا بهما الناس وآذوهما وتهددوهما كما أسلفاه من الشر فخافا ففارقا حلب وقصدا كيكاس فاطمعا فيها وقررا في نفسه أنه متى قصدها لا يثبت بين يديه وأنه يملكها ويهون عليه ملك ما بعدها فلما عزم على ذلك أشار عليه ذوو الرأي من أصحابه وقالوا له لا يتم لك هذا إلا بأن يكون معك أحد من بيت أيوب ليسهل على أهل البلاد وجندها الانقياد إليه وهذا الأفضل بن صلاح الدين هو في طاعتك والمصلحة أنك تستصحبه معك وتقرر بينكما قاعدة فيما تفتحانه من البلاد فتى كان معك أطاعك الناس وسهل عليك ما تريد فأحضر الأفضل من سميحاط إليه وأكرمه وحمل إليه شيئا كثيرا من الخيل والحيام والسلاح وغير ذلك واستقرت الفوائد بينهما أن يكون ما يفتح من حلب وأعمالها للأفضل وهو في طاعة كيكاس والخطبة له ذلك أجمع ثم بقصدون ديار الجزيرة فما يفتحونه مما بيد الملك الأشرف مثل حران والرها من البلاد الجزرية تكون لك كيكاس وجرت الأيمان على ذلك وجمعوا العساكر وساروا فلكوا قلعة رعيان فتسلمها الأفضل فقال الناس حينئذ إليهما ثم سارا إلى قلعة تل باشرو فيها صاحبها ابن بدر الدين دلددم إلياروق فحصره وضيّقوا عليه وملكوها منه فأخذها كيكاس لنفسه ولم يسلمها إلى الأفضل فاستشعر الأفضل من ذلك وقال هذا أول الغدر وخاف أنه إن ملك حلب يتمل به هكذا فلا يحصل إلا أن يكون قد قلع بيته لغيره فقترت نيته وأعرض عما كان يفعله وكذلك أيضا أهل البلاد فكأوا يظنون أن الأفضل يملكها فيسهل عليهم الأمر فلما رأوا ضد ذلك وقفوا وأما شهاب الدين أنابك ولد الظاهر صاحب حلب فإنه ملازم قلعة حلب لا ينزل منها ولا يفارقها البتة وهذه كانت عادته مذمات الظاهر خوفا من نثار يثور به فلما حدث هذا الأمر خاف أن يحصره وربما سلم أهل البلد والجند المدينة إلى الأفضل لميلهم إليه فأرسل إلى الملك الأشرف ابن الملك العادل صاحب الديار الجزرية وخراسان وغيرها يستدعيه لتكون طاعتهم له ويخطبون له ويجعل السكة باسمه ويأخذ من أعمال حلب ما اختار ولأن ولد الظاهر هو ابن أخته فأجاب إلى ذلك وسار إليهم في عساكره التي عنده وأرسل إلى الباقيين يطلبهم إليه وسره ذلك للمصلحة العامة لجمعهم وأحضر إليه

العرب من طييء وغيرهم ونزل بظاهر حلب، ولما أخذ كيكوس تل باشر كان الأفضل يشير بمعاجلة حلب قبل اجتماع العساكر بها وقبل أن محتاطوا ويتجهزوا فماد عن ذلك وصار يقول الرأى أننا نقصد منبج وغيرها لتلا يبقى لهم وراء ظهورنا شيء قصدا للتمادي ومرور الزمان في لائى فتوجهوا من تل باشر إلى جهة منبج وتقدم الأشرف نحوهم وسارت العرب في مقدمته وكان طائفة من عسكر كيكوس نحو ألف فارس قد سبقت مقدمته له، فالتقواهم والعرب ومن معهم من العسكر الأشرفى، فافتلوا، فانهزم عسكر كيكوس، وطادوا إليه منهزمين، وأكثر العرب الأمر منهم، والنهب لجودة خيلهم، ودير خيل الروم، فلما وصل إليه أصحابه منهزمين لم يثبت بل ولى على أعقابهم يطوى المراحل إلى بلاده خائفا يترقب فلما وصل إلى أطرافها أقام وإنما فعل هذا لأنه صبي وغز لا معرفة له بالحرب وإلا فالعساكر ما برحت تقع مقدماتها بعضها على بعض فسار حينئذ الأشرف فلك رعبان وحصر تل باشر وبها جمع من عسكر كيكوس فقاتلوه حتى غلبوا فأخذت القلعة منهم وأطلقهم الأشرف فلما وصلوا إلى كيكوس جعلهم في دار وأحرقها عليهم فهلكوا فعظم ذلك على الناس كافة واستبجوه واستضعفوه لاجرم لم يمهله الله تعالى وعجل عقوبته للؤم قدرته وشدة عقوبته ولعدم الرحمة في قلبه ومات عقيب هذه الحادثة وسلم الأشرف تل باشر وغيرها من بلد حلب إلى شهاب الدين أنابك صاحب حلب وكان عازما على اتباع كيكوس ويدخل بلاده فاتاه الخبر بوفاة أبيه الملك العادل فانتضت المصلحة العود إلى حلب لأن الفرنج بديار مصر ومثل ذلك السلطان العظيم إذا توفى ربحا جرى خلل في البلاد لا تعرف العاقبة فيه فماد إليها وكفى كل منهما أذى صاحبه.

(ذكر وفاة الملك العادل وملك أولاده بعده) توفى الملك العادل أبو بكر بن أيوب سابع جمادى الآخرة من سنة خمس عشر وستمائة، وقد ذكرنا ابتداء دولتهم عند ملك عمه أحد الدين شيركوه ديار مصر سنة أربع وستين وخمسمائة، ولما ملك أخوه صلاح الدين يوسف بن أيوب ديار مصر بعد عمه وسار إلى الشام استخلفه بمصر ثقة به واعتمادا عليه، وعليما بما هو عليه من توفر العقل وحسن السيرة، فلما توفى أخوه صلاح الدين ملك دمشق كما ذكرناه وبقي مالكا للبلاد إلى الآن، فلما ظهر الفرنج كما ذكرناه سنة أربع عشرة وستمائة قصد هو مرج الصفر فلما سار الفرنج إلى ديار مصر انتقل هو إلى عالقين فأقام به ومرض وتوفى وحمل إلى دمشق فدفن بالنزبة التي له وكان عاقلا ذا رأى شديد ومكر شديد وخديعة صبورا حلما ذا أمانة يسمع ما يكره ويفض عليه حتى كأنه لم يسمعه كثير الحرج وقت الحاجة لا يقف في شيء وإذا لم تكن حاجة فلا وكان همة خمسا وسبعين سنة وشهورا لأن مولده كان في المحرم من سنة أربعين وخمسمائة؛ وملك دمشق في شعبان سنة اثنين وتسعين وخمسمائة من الأفضل ابن أخيه وملك مصر في ربيع الآخر من سنة ست وتسعين منه أيضا ومن أعجب ما رأيت من منافاة الطوالع أنه لم يملك الأفضل مملكة قط إلا وأخذها منه همه العادل فأول ذلك أن صلاح الدين أعطى ابنه الأفضل حران والرها وميافارقين سنة ست وثمانين بعد وفاة تقي الدين فسار إليها فلما وصل إلى حلب أرسل أبو الملك العادل بعده فرده من حلب وأخذ هذه البلاد منه ثم ملك الأفضل بعد وفاة أبيه مدينة دمشق فأخذها منه ثم ملك مصر بعد وفاة أخيه الملك العزيز فأخذها أيضا منه ثم ملك صرخد فأخذها منه وأعجب من هذا أنى رأيت بالبيت المقدس سارية من الرخام ملقاة في بيعة صهيون ليس يوجد مثلها فقال القس الذي بالبيعة هذه كان قد أخذها الملك الأفضل لينقلها إلى دمشق ثم إن العادل أخذها بعد ذلك من الأفضل طلبها منه فأخذها

وهذا غاية وهو من أعجب ما يحكى وكان العادل قد قسم البلاد في حياته بين أولاده فجعل بمصر الملك الكامل محمدا وبدمشق والقدس وطبرية والأردن والسكر وغيرها من الحصون المجاورة لها ابنه المعظم عيسى وجعل بمض ديار الجزيرة وميفارقين وخلاط وأعمالها لابنه الملك الأشرف موسى وأعطى الرها لولده شهاب الدين غازي وأعطى قلعة جمبر لولده الحافظ أرسلان شاه ولما توفى ثبت كل منهم في المملكة التي أعطاه إياها أبوه واتفقوا اتفاقا حسنا لم يجر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة أن يجرى بين أولاد الملوك بعد آباءهم بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم يثق إلى الآخر بحيث يحضر عنده منفردا من عسكره ولا يخافه فلا جرم زاد ملكهم ورأوا من نفاذ الأمر والحكم ما لم يره أبوم ولعمري أنهم نعم الملوك فيهم الحلم والجهاد والذب عن الإسلام وفي نوبة دمياط كفاية وأما الملك الأشرف فليس للمال عنده محل بل يطره مطرا كثيرا كعفته عن أموال الرعية دائم الإحسان لا يسمع سعاية ساع .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في ذي القعدة رحل الملك الكامل بن العادل عن أرض دمياط لأنه بلغه أن جماعة من الأمراء قد اجتمعوا على تملك أخيه العائز عوضه لخافهم ففارق منزله فانتقل الفرنج إليها وحصروا حينئذ دمياط برا وبحرا وتمكنوا من ذلك وقد تقدم مستقصى سنة أربع عشرة وستمائه . وفيها في المحرم توفى شرف الدين محمد بن علوان بن مهاجر الفقيه الشافعي وكان مدرسا في عدة مدارس بالموصل وكان صالحا كثير الخير والدين سليم القلب رحمه الله . وفيها توفى عز الدين نجاح الشرايبي خاص الخليفة وقرب الناس إليه ، وكان الحاكم في دولته كثير العدل والإحسان والمعروف والمصيبة للناس وأما عقله وتديبه فإليه كانت النهاية وبه يضرب المثل ، وفيها توفى علي بن نصر بن هرون أبو الحسن الحلبي النحوي الملقب بالحجة . قرأ على الحشاش وغيره (١) .

(ثم دخلت سنة ست عشرة وستمائه)

(ذكر وفاة كيكوس وملك كيقباز أخيه) في هذه السنة توفى الملك العادل عز الدين كيكوس بن كينخرو ابن قلع أرسلان صاحب قونية واقصرا وملطية وما بينهما من بلاد الروم وكان قد جمع عساكره وحشد وسار إلى ملطية على قصد بلاد الملك الأشرف لقاعدة استقرت بينه وبين ناصر الدين صاحب آمد ومظفر الدين صاحب إربل وكانوا قد خطبوا له وضربوا اسمه على السكة في بلادهم واتفقوا على الملك الأشرف وبدر الدين بالموصل فسار كيكوس إلى ملطية لينزع الملك الأشرف عن المسير إلى الموصل نجدة لصاحبها بدر الدين لعل مظفر الدين يبلغ من الموصل غرضه وكان قد علق به السل ، فلما اشتد مرضه عاد عنها فتوفى وملك بعده أخوه كيقباز وكان محبوسا قد حبسه أخوه كيكوس لما أخذ البلاد وأشار عليه بعض أصحابه بقتله فلم يفعل ، فلما توفى لم يخلف

(١) وفيها توفى أبو اليمن نجاح بن عبداقه الحبشي السوداني نجم الدين مولى الخليفة الناصر ، كان يسمى سلمان دار الخلافة ، وكان لا يفارق الخليفة ، فلما مات وجد عليه الخليفة وجدا كثيرا ، وكان يوم جنازته يوماً مشهودا ، كان بين يدي نعشه مائة بقرة وألف شاة وأحمال من التمر والخبز والماورد ، وقد صلى عليه الخليفة بنفسه تحت التاج ، وأصدق عنه بعشرة آلاف دينار على المشاهد ، ومثلها على المجاورين بالحرمين ، وأعتق مائة وخمسة مائة مغل . وفيها توفى أبو المظفر محمد بن علوان بن مهاجر بن الموصل ، تفقه بالنظامية وسمع الحديث ، ثم عاد إلى الموصل فساد أهل زمانه بها ، وتقدم في الفتوى والتدريس بمدرسة بدر الدين لؤلؤ وغيرها ، وكان صالحا دينا .

ولما يصلح للملك لصغرهم فأخرج الجند كيقباز وملكوه ومن بغى عليه لينصرنه الله وقيل بل أرسل كيكاموس لما اشتد مرضه فأحضره عنده من السجن ووصى له بالملك وحلف الناس له ، فلما ملك خالفه عمه صاحب أرزن الروم وخاف أيضا من الروم المجاورين لبلاده فأرسل إلى الملك الأشرف وصالحه وتعاهدا على المصافاة والتعاقد وتصاهرا وكفى الأشرف شرتك الجهة وتفرغ باله لإصلاح ما بين يديه ولقد صدق القائل (وجدك طعان بغير سنان) وهذا مرة حسن الية فإبه حسن الية لرعيته وأصحابه كفا عن أذى يتطرق إليهم منه غير قاصد إلى البلاد المجاور لبلاده بأذى وملك مع ضعف أصحابها وقوته لاجرم تأتيه البلاد صفوا عفوا .

(ذكر موت صاحب سنجار وملك ابنه ثم قتل ابنه وملك أخيه) وفي هذه السنة ثامن صفر توفي قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود بن زنكي ، صاحب سنجار ، وكان كريما ، حسن السيرة في رعيته ، حسن المعاملة مع التجار كثير الإحسان إليهم وأما أصحابه فكانوا معه في أرغريش يعمهم بإحسانه ولا يخافون أداه وكان عاجزا عن حفظ بلده مسلما الأمور إلى نوابه ولما توفي ملك بعده ابنه حماد الدين شاهانشاه وركب الناس معه وبقي مالكا لسنجار عدة شهور وصار إلى تل أعفر وهي له فدخل عليه أخوه عمر بن محمد بن زنكي ومعه جماعة فقتلوه وملك أخوه عمر بعده فبقي كذلك إلى أن سلم سنجار إلى الملك الأشرف على ما ذكره إن شاء الله تعالى ولم يمنع بملكه الذي قطع رحمه وأراق الدم الحرام لأجله ولما سلم سنجار أخذ عوضها الرقة ثم أخذت منه عن قريب وتوفى بعد أخذها منه بقليل وعدم روحه وشبابه وهذه عاقبة قطيعة الرحم فإن صلها تزيد في العمر وقطيعتها تهدم العمر .

(ذكر إجلاء بني معروف عن البطائح وقلهم) في هذه السنة في ذي القعدة أمر الخليفة الناصر لدين الله الشريف معدا متولى بلاذ واسط أن يسير إلى قتال بني معروف فتجهز وجمع معه من الرحالة من تكريت وهيت والحديثة والأنبار والحلة والكوفة وواسط والبصرة وغيرها خلقا كثيرا وسار إليهم ومقدمهم حينئذ معلى بن معروف وهم قوم من ربيعة وكانت بيوتهم بمغربي الفرات تحت سورا وما يتصل بذلك من البطائح وآثر فسادهم وأذاهم لما يقاربهم من القرى وقطعوا الطريق وأفسدوا في النواحي المقاربة لبطيحة الغراف فشقوا أهل تلك البلاد الدبوان منهم فأمر معدا أن يسير إليهم في المجرع فسار إليهم فاستعد بنو معروف لقتاله فاقتتلوا بموضع يعرف بالمنبر وهو تل كبير بالبطيحة بقرب الغراف وكثر القتل بينهم ثم انهزم بنو معروف وكثر القتل فيهم والأسر والفرق وأخذت أهوالهم وحملت رؤس كثيرة من القتلى إلى بغداد في ذي الحجة من السنة .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في المحرم انهزم عماد الدين زنكي من عسكر بدر الدين . وفيها في العشرين من رجب انهزم بدر الدين من مظفر الدين صاحب إربل وعاد مظفر الدين إلى بلده وقد تقدم ذلك مستوفى في سنة خمس عشرة وستمائة . وفيها في السابع والعشرين من شعبان ملك الفرنج مدينة ديباط وقد ذكر سنة أربع عشرة مشروحا . وفيها توفي افتخار الدين عبد المطلب بن الفضل الهاشمي العباسي الفقيه الحنفي رئيس الحنفية بحلب روى الحديث عن عمر البسطامي نزيل بلخ وعن أبي سعد السمعاني وغيرهما . وفيها توفي أبو البقاء عبدالله بن الحسن بن عبدالله العكبري الضرير البصري . وفيها توفي أبو الحسن علي بن أبي محمد القائم بن علي بن الحسن بن عبدالله الدمشقي الحافظ بن الحافظ المعروف بابن عساكر وكان قد قصد خراسان وسمع بها الحديث

فأكثر وعاد إلى بغداد فوقع على القفل حرامية لجرح ونقي ببغداد وتوفي في جمادى الأولى رحمه الله (١)
(ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة)

(ذكر خروج التتر إلى بلاد الإسلام) لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كلها لذكرها فأنا أقدم إليه رجلاً وأوخر أخرى فن الذي يسهل عليه أن يكتب نهي الإسلام والمسلمين ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك فيأليت أمي لم تلدني وبالييتي مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً إلا أني حشني جماعة من الأصدقاء على تطيرها وأما متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعا فنقول هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقت الأيام والليالي عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين فلو قال قائل إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها . ومن أعظم ما يذكر من الحوادث ما فعله يختصر بنى إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس وما للبيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاحين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس . وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا فان أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى إسرائيل ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفتي الدنيا إلا بأجوج ومأجوج وأما الدجال فانه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة فانا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها وعم ضررها وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح فان قوما خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون ثم منها إلى بلاد ماوراء النهر مثل سمرقند وبخارا وغيرهما فيملكونها ويفعلون بأهلها ما ذكره ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها

(١) وفيها توفيت ست الشام واقفة المدرستين البرانية والجوانية الست الجليلة المصونة خاتون ست الشام بنت أيوب بن شادي ، أخت الملوك وعمه أولادهم ، وأم الملوك ، كان لها من الملوك المحارم خمسة وثلاثون مثكا ، منهم شقيقة المعظم توران شاه بن أيوب صاحب اليمن ، وهو مدفون عندها في القبر القبلي من الثلاثة ، وفي الأوساط منها زوجها وابن عمها ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي صاحب حمص ، وكانت قد تزوجته بعد أبي ابنها حسام الدين عمر بن لاجين ، وهي وابنها حسام الدين عمر في القبر الثالث ، وهو الذي يلي مكان المدرس ، ويقال للتربة والمدرسة الحسامية نسبة إلى ابنها هذا حسام الدين عمر بن لاجين ، وكان من أكابر العلماء عند حاله صلاح الدين ، وكانت ست الشام من أكثر النساء صدقة وإحسانا إلى الفقراء والمحاويج ، وكانت تعمل في كل سنة في دارها بألوف من الذهب أشربة وأدوية وعتاقيرو وغير ذلك وتفرقه على الناس ، وكانت وفاتها يوم الجمعة آخر النهار السادس عشر من ذي القعدة من هذه السنة في دارها التي جعلتها مدرسة ، وهي عند المارستان وهي الشاميه الجوانية ونقلت منها إلى تربتها بالشامية البرانية ، وكانت جنازتها حافلة رحمة الله .

وفيها توفي أبو عبد الله الحسين بن محمد بن أبي بكر الجلي الموصل ، يعرف بابن الجهني ، شاب فاضل ولي كتابة الإنشاء لبدر الدين لؤلؤ زعيم الموصل ، ومن شعره :

نفسى فداء الذي فكرت فيه وقد غدرت أغرق في بحر من العجب

يبدو بليل على صبح على قره على قضيب على وهم على كتب

(٤٢ - كامل - ٩)

ملكاً وتخريباً وقتلاً ونهباً ثم يتجاوزونها إلى الري وهمدان وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق ثم بلاد أذربيجان وأرانية ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ولم ينج إلا الشريد النادر في أقل من سنة هذا ما لم يسمع بمثله ثم لما فرغوا من أذربيجان وأرانية ساروا إلى دربند شروان فملكوا مدنه ولم يسلم غير القلعة التي بها ملكهم وعبروا عندها إلى بلد اللان واللكز ومن في ذلك الصقع من الأمم المختلفة فأوصدهم قتلاً ونهباً وتخريباً ثم قصدوا بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عدداً فقتلوا كل من وقف لهم فهرب الباقون إلى الغياض ورؤس الجبال وفارقوا بلادهم واستولى هؤلاء التتر عليها فعلوا هذا في أسرع زمان لم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لا غير ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء وأشد هذا ما لم يطرُق الأسماع مثله فإن الإسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة إنما ملكها في نحو عشرين سنة ولم يقتل أحد إنما رضى من الناس بالطاعة وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلاً وأعدلاً أهل الأرض أخلاقاً وسيرة في نحو سنة ولم يبت أحد من البلاد التي لم يطرُقوها إلا وهو خائف يترقبهم ويتربص وصولهم إليه ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم فإنهم معهم الإغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير وأما دوابهم التي يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها وتأكل عروق النبات لا تعرف الصغير فهم إذا نزلوا نزلوا لا يحتاجون إلى شيء من خارج وأما ديانتهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرمون شيئاً فإنهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها ولا يرفون نكاحاً بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فإذا جاء الوالد لا يعرف أباه. ولقد بلى الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يتبل بها أحد من الأمم منها. هؤلاء التتر قبضهم الله أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال التي يستعظها كل من سمع بها وستراها مشروحة متصلة إن شاء الله تعالى. ومنها خروج الفرنج لعنهم الله من المغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر وملكهم ثغر دمياط منها وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها، على أن يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم وقد ذكرناه سنة أربع عشرة وستمائة ومنها أن الذي سلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول، والفتنة قائمة على ساق وقد ذكرناه أيضاً فانا لله وإنا إليه راجعون نسأل الله أن يسر للإسلام والمسلمين، نصراً من عنده، فإن الناصر والمعين والذاب عن الإسلام معدوم (وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما له من دونه من وال) فإن هؤلاء التتر إنما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع وسبب عدمه أن خوارزم شاه محمداً كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفنائهم وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها فلما انزيم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها (ليقتضى الله أمراً كان مفعولاً) وهذا حين نذكر ابتداء خروجهم إلى البلاد.

(ذكر خروج التتر إلى تركستان وما وراء النهر وما فعلوه) في هذه السنة ظهر التتر إلى بلاد الإسلام وهم نوع كثير من الترك ومساكنهم جبال طمغاج من نحو الصين وبينها وبين بلاد الإسلام ما يزيد على ستة أشهر وكان السبب في ظهورهم أن ملكهم ويسمى بجنكزخان المعروف بتموجين كان قد فارق بلاده وسار إلى نواحي تركستان وسير جماعة من التجار والأتراك ومعهم شيء كثير من النقرة والقندر وغيرهما إلى بلاد ما وراء النهر سمرقند وبخارا ليشتروا له ثياباً للكسوة فوصلوا إلى مدينة من بلاد الترك تسمى أوتاروهي آخر ولاية

خوارزمشاه وكان له نائب هناك فلما وردت عليه هذه الطائفة من التتر أرسل إلى خوارزمشاه يعلمه بوصولهم ويذكر له ما معهم من الأموال فبعث إليه خوارزمشاه يأمر بقتلهم وأخذ ما معهم من الأموال وإنفاذه إليه فقتلهم وسير ما معهم وكان شيئا كثيرا فلما وصل إلى خوارزمشاه فرقه على تجار بخارا وسمرقند وأخذ ثمنه منهم وكان بعد أن ملك ما وراء النهر من الخطا قد سد الطريق عن بلاد تركستان وما بعدها من البلاد وأن طائفة من التتر أيضا كانوا قد خرجوا قديما والبلاد للخطا فلما ملك خوارزمشاه البلاد بما وراء النهر من الخطا وقتلهم واستولى هؤلاء التتر على تركستان كاشغار وبلاساغون وغيرها صاروا يحاربون عساكر خوارزمشاه فلذلك منع الميرة عنهم من الكسوات وغيرها وقيل في سبب خروجهم إلى بلاد الإسلام غير ذلك مما لا يذكر في بطون الدفاتر :

فكان ما كان مما لست أذكره • فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

فلما قتل نائب خوارزمشاه أصحاب جنكزخان أرسل جواسيس إلى جنكزخان لينظر ما هو وكم مقدار ماله من اليزك وما يريد أن يعمل ففضى الجواسيس وسلوكوا المفازة والجبال التي على طريقهم حتى وصلوا إليه فعادوا بعد مدة طويلة وأخبروه بكثرة عددهم وأنهم يخرجون عن الإحصاء وأنهم من أصبر خلق الله على القتال لا يعرفون هزيمة وأنهم يعملون ما يحتاجون إليه من السلاح بأيديهم فقدم خوارزمشاه على قتل أصحابهم وأخذ أموالهم وحصل عنده فكر زائد فأحضر الشهاب الحيوفي وهو فقيه فاضل كبير المحل عنده لا يخالف ما يشير به فحضر عنده فقال له قد حدث أمر عظيم لا بد من الفكر فيه فأخذ رأيك في الذي تفعله وذلك أنه قد تحرك إلينا خصم من ناحية الترك في كثرة لا تحصى فقال له عساكرك كثرة ونكاتب الأطراف ونجمع العساكر ويكون النفير عاما فإنه يجب على المسلمين كافة مساعدتك بالمال والنفس ثم نذهب بجميع العساكر إلى جانب سيحون وهو نهر كبير يفصل بين بلاد الترك وبلاد الإسلام فتكون هناك فإذا جاء العدو وقد سار مسافة بعيدة لقيناه ونحن مستريحون وهو عساكر قد ساهم الذهب والنهب فجمع خوارزمشاه أمراه ومن عنده من أرباب المشورة فاستشارهم فلم يوافقوه على رأيه بل قالوا تركهم يعبرون سيحون إلينا ويسلكون هذه الجبال والمصايق فإنهم جاهلون بطرقهم ونحن عارفون بها فنقوى حينئذ عليهم ونهلكهم فلا ينجو منهم أحد فبينما الأتراك كذلك إذ ورد رسول من هذا اللعين جنكزخان معه جماعة يتهدد خوارزمشاه ويقول تقتلون أصحابي وتأخذون أموالهم استعدادا للحرب فإني وأصل اليكم بجمع لا قبل لكم به وكان جنكزخان قد سار إلى تركستان فلك كاشغار وبلاساغون وجميع البلاد وأزال عنها التتر الأولى فلم يظهر لهم خبر ولا بقي لهم أثر بل بادوا كما أصاب الخطا وأرسل الرسالة المذكورة إلى خوارزمشاه فلما سمعها خوارزمشاه أمر بقتل رسوله فقتل وأمر بخلق لحي الجماعة الذين كانوا معه وأعادهم إلى صاحبهم جنكزخان يخبرونه بما فعل بالرسول ويقولون له إن خوارزمشاه يقول لك أنا سائر إليك ولو أنك في آخر الدنيا حتى أنتقم وأفعل بك كما فعلت بأصحابك وتجهز خوارزمشاه وسار بعد الرسول مبادرا ليدسبق خبره ويكبسهم فأدمن السير فغضى وقطع مسيرة أربعة أشهر فوصل إلى بيوتهم فلم ير فيها إلا النساء والصبيان والأطفال فأوقع بهم وغنم الجميع وسبي النساء والذرية وكان سبب غيبة الكفار عن بيوتهم أنهم ساروا إلى محاربة ملك من ملوك الترك يقال له كشلوخان فقاتلوه وهزموه وغنموا أمواله وعادوا فلقبهم في الطريق الخبر بما فعل خوارزمشاه بمخلفهم فجدوا السير

فأدركوه قبل أن يخرج عن بيوتهم وتصافوا للحرب واقتتلوا قتالا لم يسمع بمثله فبقوا في الحرب ثلاثة أيام بلياليها فقتل من الطائفتين مالا يعد ولم ينهزم أحد منهم أما المسلمون فإبهم صبروا حمية للدين وعلوا أهبهم إن انهزموا لم يبق للمسلمين باقية وأنهم يؤخذون لبعدهم عن بلادهم وأما الكفار فصبروا لا تنفذ أهبهم وأموالهم واشتد بهم الأمر حتى إن أحدهم كان ينزل عن فرسه ويقا تل قرنه راجلا ويتضاربون بالسكاكين وجرى الدم على الأرض حتى صارت الخيل تزلق من كثرتة واستنقد الطائفتان وسعهم في الصبر والقتال هذا القتال جميعه مع ابن جنكزخان ولم يحضر أبوه الواقعة ولم يشعر بها فأحصى من قتل من المسلمين في هذه الواقعة فكانوا عشرين ألفا وأما من الكفار فلا يحصى من قتل منهم فلما كان الليلة الرابعة أفرقوا فنزل بعضهم مقابل بعض فلما أظلم الليل أوقد الكفار نيرانهم وتركوها بحالها وساروا وكذلك فعل المسلمون أيضا كل منهم ستم القتال فأما الكفار فعادوا إلى ملكهم جنكزخان وأما المسلمون فرجعوا إلى بخارا فاستعد للحصار لعلمه بعجزه لأن طائفة من عسكره لم يقدر خوارزمشاه على أن يظفر بهم فكيف إذا جاؤا جميعهم مع ملكهم فأمر أهل بخارا وسمرقند بالاستعداد للحصار وجمع الذخائر للامتناع وجعل في بخارا عشرين ألف فارس من العسكر يحملونهم وفي سمرقند خمسين ألفا وقال لهم احفظوا البلد حتى أعود إلى خوارزم وخراسان وأجمع العساكر وأستنجد بالمسلمين وأعد اليكم فلما فرغ من ذلك رحل عائدا إلى خراسان فعبر جيحون ونزل بالقرب من بلخ فعسكر هناك وأما الكفار فإبهم رحلوا بعد أن استعدوا يطلبون ما وراء النهر فوصلوا إلى بخارا بعد خمسة أشهر من وصول خوارزمشاه وحصروها وقاتلوا ثلاثة أيام قتالا شديدا متابعا فلم يكن للعسكر الخوارزمي بهم قوة ففارقوا البلد عائدين إلى خراسان فلما أصبح أهل البلد وليس عندهم من العسكر أحد ضعفت نفوسهم فأرسلوا القاضي وهو بدر الدين قاضيخان ليطلب الأمان للناس فأعطوهم الأمان وكان قد بقي من العسكر طائفة لم يمكنهم الحرب مع أصحابهم فاعتصموا بالقلعة فلما أجابهم جنكزخان إلى الأمان فتحت أبواب المدينة يوم الثلاثاء رابع ذى الحجة من سنة ست عشرة وستمائة فدخل الكفار بخارا ولم يتعرضوا إلى أحد بل قالوا لهم كل ما هو للسلطان عنكم من ذخيرة وغيره أخرجوه اليانوساعدونا على قتال من بالقلعة وأظهروا عندهم العدل وحسن الـيرة ودخل جنكزخان بنفسه وأحاط بالقلعة ونادى في البلد بأن لا يتخلف أحد، ومن تخلف قتل فحضرهم فأمروهم بطم الخندق فطموه بالأخشاب والتراب، وغير ذلك، حتى إن الكفار كانوا يأخذون المنار وربعات القرآن فيلقونها في الخندق فإنا لله وإنا إليه راجعون وبحق سمي الله نفسه صبورا حليما وإلا كان خسف بهم الأرض عند فعل مثل هذا ثم تابعوا الزحف إلى القلعة وبها نحو أربعائة فارس من المسلمين فبذلوا جهدهم ومنعوا القلعة اثني عشر يوما يقاتلون جمع الكفار وأهـ البلد فقتل بعضهم ولم يزالوا كذلك حتى زحفوا إليهم ووصل النفايون إلى سور القلعة فنقبوه واشتد حينئذ القتار ومن بها من المسلمين يرمون بكل ما يجدون من حجارة ونار وسهام، فغضب اللعين ورد أصحابه ذلك اليوم وباكرهم من الغد فجـوا في القتال، وقد تعب من بالقلعة ونصبوا وجاءهم مالا قبل لهم به فقهرهم الكفار ودخلوا القلعة وقاتلهم المسلمون الذين فيها حتى قتلوا عن آخرهم فلما فرغ من القلعة أمر أن يكتب له رؤوس البلد ورؤوسهم ففعلوا ذلك فلما عرضوا عليه أمر بإحضارهم فحضرهم فقال أريد منكم النقرة التي باعكم خوارزمشاه فإنها لي ومن أصحابي أخذت وهي عنكم فأحضر كل من كان عنده شيء منها بين يديه ثم أمرهم بالخروج من البلد

نخرجوا من البلد مجردين من أموالهم ليس مع أحد منهم غير ثيابه التي عليه ودخل الكفار البلد فهبوه وقتلوا من وجدوا فيه وأحاط بالمسلمين فأمر أصحابه أن يفتدواهم فافتدواهم وكان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان وتفرقوا أبدي سببا وتمزقوا كل ممزق واقتسموا النساء أيضا وأصبحت بخارا غاوية على عروشها كان لم تغن بالأمس وارتكبوا من النساء العظيم والناس ينظرون ويكفون ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئا مما نزل بهم ففتحهم من لم يرض بذلك واختار الموت على ذلك فقاتل حتى قتل ومن فعل ذلك واختار أن يقتل ولا يرى ما نزل بالمسلمين الفقيه الإمام ركن الدين إمام زاده وولده فإيهما لما رأيا ما يفعل بالحرم قاتلا حتى قتلا وكذلك فعل القاضي صدر الدين خان ومن استلم أخذ أسيرا وألقوا النار في البلد والمدارس والمساجد وعذبوا الناس بأنواع العذاب من طلب المال ثم رحلوا نحو سمرقند وقد تحققوا عجز خوارزمشاه عنهم وهم بمكاه بين ترمذ وبلخ واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارا أسارى فساروا بهم مشاة على أقبح صورة فكل من أعيى وعجز عن المشي قتل فلما قاربوا سمرقند قدموا الخيالة وتركوا الرجالة والأسارى والأثقال وراءهم حتى تقدموا شيئا فشيئا ليكون أروع لقلوب المسلمين فلما رأى أهل البلد سوادهم استعظموه فلما كان اليوم الثاني وصل الأسارى والرجالة والأثقال ومع كل عشرة من الأسارى علم فظن أهل البلد إن الجميع عساكر مقاتلة وأحاطوا بالبلد وفيه خمسون ألف مقاتل من الخوارزمية وأما عامة البلد فلا يحصون كثرة فخرج إليهم شيمان أهله وأهل الجلد والقوة رجالة ولم يخرج معهم من العسكر الخوارزمي أحد لما في قلوبهم من خوف هؤلاء الملاحين ، فقاتلهم الرجالة بظاهر البلد ، فلم يزل التتر يتأخرون وأهل البلد يتبعوهم ، ويطمعون فيهم وكان الكفار قد كمنوا لهم كميناً ، فلما جاوزوا الكمين خرجوا عليهم وحالوا بينهم وبين البلد ، ورجع الباقون الذين أنشبو القتال أولاً فبقوا في الوسط وأخذهم السيف من كل جانب فلم يسل منهم أحد قتلوا عن آخرهم شهداء رضي الله عنهم وكانوا سبعين ألفاً على ما قيل فلما رأى الباقون من الجند والعامة ذلك ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك فقال الجند وكانوا أتركا نحن من جنس هؤلاء ولا يقبلون نطلبوا الأمان فأجابوهم إلى ذلك ففتحوا أبواب البلد ولم يقدر العامة على منعهم وخرجوا إلى الكفار بأهالهم وأموالهم فقال لهم الكفار ادفعوا إلينا سلاحكم وأموالكم ودوابكم ونحن نسيركم إلى ما نكم ففعلوا ذلك فلما أخذوا أسلحتهم ودوابهم وضعوا السيف فيهم وقتلهم عن آخرهم وأخذوا أموالهم ودوابهم ونساءهم فلما كان اليوم الرابع نادوا في البلد أن يخرج أهله جميعهم ومن تأخر قتله فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان ففعلوا مع أهل بخارا من النهب والقتل والسبي والفساد ودخلوا البلد فهبوا ما فيه وأحرقوا الجامع وتركوا باقي البلد على حاله وافتضوا الأبقار وعذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال وقتلوا من لم يصالح للسبي وكان ذلك في المحرم سنة سبع عشرة وستائة وكان خوارزمشاه بمنزلته كلما اجتمع إليه عسكر سيره إلى سمرقند فيرجعون ولا يقدهون على الوصول إليها نودى بالله من الخذلان سير مرة عشرة آلاف فارس فعادوا وسير عشرين ألفاً فعادوا أيضا .

(ذكر مسير التتر إلى خوارزمشاه وانمزاه وموته) لما ملك الكفار سمرقند عهد جنكز خان لعنه الله وسير عشرين ألف فارس وقال لهم اطلبوا خوارزمشاه أين كان ولو تعلق بالسما حتى تدركوه وتأخذوه وهذه الطائفة تسميها التتر المغربية لأنها سارت نحو غرب خراسان ليقع الفرق بينهم وبين غيرهم منهم لأنهم هم الذين أوغلوا في البلاد فلما أمرهم جنكز خان بالمسير ساروا وقصدوا موضعاً يسمى فنج اب ومعناه خمس مياه فوصلوا

إلیہ فلم یجدوا هناك سفینة فعملوا من الخشب مثل الأحواض الکبار والیسوها جلود البقر لئلا یدخلها الماء ووضعوا فیها سلاحهم وأمتعتهم وألقوا الخیل فی الماء وأمسکوا أذنانها وتلك الحیاض التي من الخشب مشدودة إلیهم فكان الفرس یجذب الرجل والرجل یجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره فدبروا کلهم دفعة واحدة فلم یشعر خوارزمشاہ إلا وقد صاروا معه علی أرض واحدة وكان المسلمون قد ملئوا منهم عبا وخوفا وقد اختلفوا فیما بینهم أنهم كانوا یتماسكون بسبب إن نهر جیحون یدهم فلما عبروه إلیهم لم یقدروا علی الثبات ولا علی المسیر مجتمعین بل تفرقوا أبدا وطالب کل طائفة منهم جهة ورحل خوارزمشاہ لا یلوی علی شیء فی نفر من خاصته وقصدوا نيسابور فلما دخلها اجتمع علیه بعض العسکر فلم یستقر حتی وصل أولئك التتر إلیها وكانوا لم یعرضوا فی مسیرهم لشیء لا یذهب ولا یقتل بل یجدون السیر فی طلبه لا یبهلون حتی یجمع لهم فلما سمع بقرهم منه رحل إلی مازندران وهی له أيضا فرحل التتر المغربون فی أثره ولم یعرجوا علی نيسابور بل تبعوه فكان کلما رحل عن منزلة نزلوها فوصل إلی مرسى من بحر طبرستان تعرف باب سکون وله هناك قلعة فی البحر فلما نزل هو وأصحابه فی السفن وصلت التتر فلما رأوا خوارزمشاہ وقد دخل البحر وقفوا علی ساحل البحر فلما أیسوا من لحاق خوارزمشاہ رجعوا فجمعهم الذین قصدوا الری وما بعدھا علی ما ذکره إن شاء الله هكذا ذکر لی بعض الفقهاء عن کان بینخارا وأسروه معهم إلی سمرقند ثم نجا منهم ووصل إلینا و ذکر غیره من التجار أن خوارزمشاہ سار من مازندران حتی وصل إلی الری ثم منها إلی همدان والتتر أثره ففارق همدان فی نفر یریدة لیسر نفسه ویکتم خبره وعاد إلی مازندران وركب فی البحر إلی هذه القلعة وكان هذا هو الصحیح فإن الفقیه کان حیثئذ مأسورا وهؤلاء التجار أخبروا أنهم كانوا بهمدان ووصل خوارزمشاہ ثم وصل بعده من أخبره بوصول التتر ففارق همدان وكذلك أيضا هؤلاء التجار فارقوها ووصل التتر إلیها بعدهم بیعض نهار فهم یخبرون عن مشاهدة ولما وصل خوارزمشاہ إلی هذه القلعة المذكورة توفی فیها .

(ذکر صفۃ خوارزمشاہ وشیء من سیرتہ) هو علاء الدین محمد بن علاء الدین تکش وكان مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وشهورا تقريبا واتسع ملكه وعظم محله وأطاعه العالم بأسره ولم یملك بعد السلجوقية أحد مثل ملكه فإنه ملك من حد العراق إلی تركستان وملك بلاد غزنة وبعض الهند وملك سجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبال وخراسان وبعض فارس وفعل بالخطا الأفاعیل العظيمة وملك بلادهم وكان فاضلا عالما بالفقه والأصول وغيرهما وكان مكرما للعلماء محبا لهم محسنا إليهم یكثر مجالستهم ومناظراتهم بین یدیه وكان صبورا علی التعب وإدمان السیر غیر متنعم ولا مقبل علی اللذات إنما هم فی الملك وتديره وحفظه وحفظ رعاياه وكان معظما لأهل الدین مقبلا عليهم متبركا بهم حكى لی بعض خدم حجرة النبی صلی الله علیه وسلم وقد عاد من خراسان قال وصلت إلی خوارزم فنزلت ودخلت الحمام ثم قصدت باب السلطان علاء الدین فحين حضرت اقبینی إنسان فقال ما حاجتك فقلت له أما من خدم حجرة النبی صلی الله علیه وسلم فأمرنی بالجلوس وانصرف عني ثم عاد إلی وأخذنی وأدخلنی إلی دار السلطان فتسلمنی منه حاجب من حجاب السلطان وقال لی قد أعلنت السلطان خبرك فأمر بإحضارك عنده فدخلت إلیه وهو جالس فی صدر ایوان كبير فحين توسطت صحن الدار قام قائما ومشى إلی بین یدیه فأسرعت السیر فلقيته فی وسط الإیوان فأردت أن أقبل یده فنعني واعتقني وجلس وأجاسنی إلی جانبه وقال لی أنت تخدم حجرة النبی صلی الله علیه وسلم فقلت

نعم فأخذ يدي وأمرها على وجهه وسألني عن حالنا وعيشتنا وصفة المدينة ومقدارها وأطال الحديث معي فلما خرجت من عنده قال لولا إنا على عزم السفر هذه الساعة لما ودعناك إنما نريد أن نعبر جيحون إلى الخطا وهذا طريق مبارك حيث رأينا من خدم حجرة النبي صلى الله عليه وسلم ثم ودعني وأرسل إلى جملة كثيرة من النفقة ومضى وكان منه ومن الخطا ما ذكرناه وبالجملة فاجتمع فيه ما تفرق في غيره من ملوك العالم رحمه الله ولو أردنا ذكر مناقبه لاطال .

(ذكر استيلاء التتر المغربة على مازندران) لما أيس التتر المغربة من إدراك خوارزمشاه عادوا فقتلوا بلاد مازندران فملكوها في أسرع رقت مع حصانتها وصعوبة الدخول إليها وامتناع فلاعها فإياها لم تنزل ممتعة قديم الزمان وحديثه حتى إن المسلمين لما ملكوا بلاد الأكامرة جميعها من العراق إلى أقصى خراسان بقيت أعمال مازندران يؤخذ منهم الخراج ولا يقدر على دخول البلاد إلى أن ملكت أيام سليمان بن عبد الملك سنة تسعين وهؤلاء الملاعين ملكوها صفوا عفوا لأمر يريده الله تعالى ولما ملكوا بلد مازندران قتلوا وسبوا ونهبوا وأحرقوا البلاد ولما فرغوا من مازندران سلكوا نحو الري فرأوا في الطريق والدة خوارزمشاه ونساءه وأموالهم وذخائرهم التي لم يسمع بمثلا من الأغلاق النفيسة وكان سبب ذلك أن والدة خوارزمشاه لما سمعت بما جرى على ولدها خافت ففارقت خوارزم وقصدت نحو الري لتصل إلى أصفهان وهمدان وبلد الجبل تمتنع فيها فصادفوها في الطريق فأخذوها وجمعها قبل وصولها إلى الري فكان في مالا عيونهم وقلوبهم ومالم يشاهد الناس مثله من كل غريب من المتاع ونفيس من الجواهر وغير ذلك وسيروا الجميع إلى جنكزخان بسمرقند .

(ذكر وصول التتر إلى الري وهمدان) في سنة سبع عشرة وستمائة وصل التتر لعنهم الله إلى الري في طلب خوارزمشاه محمد لأنهم بلغهم أنه مضى منهزما منهم نحو الري فخرجوا السير في أثره وقد انضاف إليهم كثير من عساكر المسلمين والكفار وكذلك أيضا من المفسدين من يريد النهب والنشر فوصلوا إلى الري على حين غفلة من أهلها فلم يشعروا إلا وقد وصلوا إليها ومنكروها ونهبوها وسبوا الحرير واسترقوا الأطفال ونهبوا الأفعال التي لم يسمع بمثلا ولم يقيموا ومضوا بسرعين في طلب خوارزمشاه فنهوا في طريقهم كل مدينة وقرية مروا عليها وفعلوا في الجميع أضعاف ما فعلوا في الري ، وأحرقوا وخربوا ووضعوا السيف في الرجال والنساء والأطفال فلم يبقوا على شيء وتموا على حالهم إلى همدان وكان خوارزمشاه قد وصل إليها في نفر من أصحابه ففارقها وكان آخر العهد به ولا يدري ما كان منه فيما حكاه به ضمهم عنه ، وقل غير ذلك وقد ذكرناه فلما قاربوا همدان خرج رئيسها ومعه الحل من الأموال والثياب والدواب وغير ذلك يطاب الأمان لأهل البلاد فأمنوهم ثم فارقوها وساروا إلى زنجان ففعلوا أضعاف ذلك ثم وصلوا إلى قزوین فاعتصم أهلها منهم بمديةتهم فقاتلهم وجدوا في قتالهم ودخلوها هتوة بالسيف فاقتلوا هم وأهل البلد في باطه حتى صاروا يقتتلون بالكافرين فقتل من الفريقين مالا يحصى ثم فارقوا قزوین فعد القتل من أهل قزوین فزادوا على أربعين ألف قتيل .

(ذكر وصول التتر إلى أذربيجان) لما هجم الشتاء على التتر في همدان وبلد الجبل رأوا شديدا وثلجا مترا كما فساروا إلى أذربيجان ففعلوا في طريقهم بالقرى والمدن الصغار من القتل والنهب مثل ما تقدم منهم وخربوا وأحرقوا ووصلوا إلى تبريز وبها صاحب أذربيجان أوزبك بن البهلوان فلم يخرج إليهم ولا حدث

نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدده من إدمان الشرب ليلا ونهارا لا يفيق. وإنما أرسل إليهم وصالحهم على مال وثياب ودواب وحمل الجميع إليهم فساروا من عنده يريدون ساحل البحر لأنه يكون قليل البرد ليشتوا عليه والمراعى به كثيرة لأجل دوابهم فوصلوا إلى موفان وتطرفوا في طريقهم إلى بلاد الكرج فجاء إليهم من الكرج جمع كثير من العسكر نحو عشرة آلاف مقاتل فقاتلهم فقاتلهم فاهزمت الكرج وقتل أكثرهم وأرسل الكرج إلى أوزبك صاحب أذربيجان يطلبون منه الصلح والاتفاق معهم على دفع التتر فاصطاحوا ليجتمعوا إذا انحسر الشتاء وكذلك أرسلوا إلى الملك الأشرف بن الملك العادل صاحب خلاط وديار الجزيرة يطلبون منه الموافقة عليهم وظنوا جميعهم أن التتر يصبرون في الشتاء إلى الربيع فلم يفعلوا كذلك بل تحركوا وساروا نحو بلاد الكرج وانضاف إليهم مملوك تركي من بماليك أوزبك اسمه أقوش وجمع أهل تلك الجبال والصحراء من الركان والآكراد وغيرهم، فاجتمع معه خلق كثير ورأسل التتر في الانضمام إليهم فأجابوه إلى ذلك ومالوا إليه للجنسية فاجتمعوا وساروا في مقدمة التتر إلى الكرج فلكروا حصنا من حصونهم وخرّبوه ونهبوا البلاد وخرّبوها وقتلوا أهلها ونهبوا أموالهم حتى وصلوا إلى قريب تفليس فاجتمعت الكرج وخرجت بجدها وحديدها إليهم فلقبهم أقوش أولا فيمن اجتمع إليه فاقنتلوا قتالا شديدا صبروا فيه كلهم فقتل من أصحاب أقوش خلق كثير وأدركهم التتر وقد تعب الكرج من القتال. وقتل منهم أيضا كثير. فلم يثبتوا للتتر. وانهمزوا أقبح هزيمة وركبهم السيف من كل جانب فقتل منهم مالا يحصى كثرة وكانت الواقعة في ذي القعدة من هذه السنة ونهبوا من البلاد ما كان سلم منهم ولقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه طائفة تخرج من حدود الصين لا تنقضي عليهم سنة حتى يصل بعضهم إلى بلاد أرمينية من هذه الناحية ويجاوزون العراق من ناحية همذان وتاقه لا أشك أن من يحيى بعدنا إذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها والحق بيده فمتى استبعد ذلك فليظن أننا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ في أزماننا هذه في وقت كل من فيه بهلم هذه الحادثة استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها يسر الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحوظهم فلقد دفعوا من العدو إلى عظيم ومن الملوك المسلمين إلى من لا تعدى همته بطنه وفرجه ولم ينل المسلمين أذى وشدة منذ جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا الوقت مثل ما دفعوا إليه الآن هذا العدو الكافر التتر قد وطئوا بلاد ما وراء الهر وماكوها وخرّبوها وناهيك به سعة بلاد وتعدت طائفة منهم النهر إلى خراسان فلكوها وفعلوا مثل ذلك ثم إلى الري وبلد الجبل وأذربيجان وقد اتصلوا بالكرج فغلبهم على بلادهم والعدو الآخر الفرنج قد ظهر من بلادهم في أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال ووصلوا إلى مصر فلكوها مثل ديباطو أقاموا فيها ولم يقدر المسلمون على إزعاجهم عنها ولا إخراجهم منها وباقى ديار مصر على خطر فإن الله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ومن أعظم الأمور على المسلمين أن سلطانهم خوارزمشاه محمدا قد عدم لا يعرف حقيقة خبره فتارة يقال مات عند همذان وأخفى موته وتارة دخل أطراف بلاد فارس ومات هناك وأخفى موته لئلا يقصدها التتر في أثره وتارة يقال عاد إلى طبرستان وركب البحر فتوفي في جزيرة هناك وبالجملة فقد عدم ثم صبح موته ببحر طبرستان وهذا عظيم مثل خراسان وعراق المعجم أصبح سائبا لا مانع له ولا سلطان يدفع عنه والعدو يجوس البلاد يأخذ ما أراد، ويترك ما أراد، على أنهم لم يبقوا على مدينة إلا خربوها وكل ما مروا عليه نهبوه ومالا يصلح لهم أحرقوه، فكأوا يجمعون الإبريسم تلالا ويلقون فيه النار وكذلك غيره من الأمتة

(ذكر ملك التتر مراغة) في صفر سنة ثمان عشر وستائة ملك التتر مدينة مراغة من أذربيجان وسبب ذلك أننا ذكرنا سنة سبع عشرة وستائة ما فعله التتر بالكرج وانقضت تلك السنة وهم في بلاد الكرج فلما دخلت سنة ثمان عشرة وستائة ساروا من ناحية الكرج لأنهم رأوا أن بين أيديهم شوكة قوية ومضايق تحتاج إلى قتال وصداع فعدلوا عنهم وهذه كانت عادتهم إذا قصدوا مدينة ورأوا عندها امتناعا عدلوا عنها فوصلوا إلى تبريز وصانعهم صاحبها بمال وثياب ودواب فساروا عنه إلى مدينة مراغة فحصرها وليس بها صاحب يمنعها لأن صاحبها كانت امرأة وهي مقيمة بقلعة رويندز وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة فلما حصرها قاتلهم أهلها فصبوا عليها المجانيق وزحفوا إليها وكانت عادتهم إذا قاتلوا مدينة قدموا من معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم يزحفون ويقاتلون فإن عادوا قتلوا فكانوا يقتلون كرها وهم المساكين كما قيل كالأشقران تقدم ينحرون إن تأخر يعقروا وكانوا هم يقاتلون وراء المسلمين فيكون القتل في المسلمين الأسارى وهم بنجوة منه فأقاموا عليها عدة أيام ثم ملكوا المدينة عنوة وقهرا رابع صفر ووضعوا السيف في أهلها فقتل منهم ما يخرج عن الحد والإحصاء ونهبوا كل ما صلح لهم وما لا يصلح لهم وأحرقوه واختفى بعض الناس منهم فكانوا يأخذون الأسارى ويقولون لهم نادوا في الدروب أن التتر قد رحلوا وإذا نادى أولئك خرج من اختفى فيؤخذ ويقتل (وبلغني) أن امرأة من التتر دخلت دارا وقتلت جماعة من أهلها وهم يظنونها رجلا فوضعت السلاح وإذا هي امرأة فقتلها رجل أخذته أسيرا (وسمعت) من بعض أهلها أن رجلا من التتر دخل دربا فيه مائة رجل فزال يقتلهم واحدا واحدا حتى أفنهم ولم يمد أحده يده إليه بسوء ووضعته الذلة على الناس فلا يدفعون عن نفوسهم قليلا ولا كثيرا فعوذ بالله من الخذلان ثم رحلوا عنها نحو مدينة إربل ووصل الخبر إلينا بذلك بالموصل فخفنا حتى إن بعض الناس هم بالجلاء خوفا من السيف وجاءت كتب مظفر الدين صاحب إربل إلى بدر الدين صاحب الموصل يطلب منه نجدة من العساكر فسير جمعا صالحا من عسكره وأراد أن يمضي إلى طرف بلاده من جهة التتر ويحفظ المضايق لئلا يجوزها أحد فإنها جميعها جبال وعرة ومضايق لا يقدر أن يجوزها إلا الفارس بعد الفارس ويمنعهم من الجواز إليه ووصلت كتب الخليفة ورسله إلى الموصل وإلى مظفر الدين يأمر الجميع بالاجتماع مع عساكره بمدينة دقوفا ليمنعوا التتر فإنهم ربما عدلوا عن جبال إربل لصعوبتها إلى هذه الناحية ويطلقون العراق فسار مظفر الدين من إربل في صفر وسار إليهم جمع من عسكر الموصل وتبعهم من المتطوعة كثير وأرسل الخليفة أيضا إلى الملك الأشرف يأمره بالحضور بنفسه في عساكره ليجتمع الجميع على قصد التتر وقتالهم فاتفق إن الملك المعظم ابن الملك العادل وصل من دمشق إلى أخيه الأشرف وهو بخران يستنجده على الفرنج الذين بمصر وطلب منه أن يحضر بنفسه ليسيروا كلهم إلى مصر ليستنقذوا دمياط من الفرنج فاعتذر إلى الخليفة بأخيه وقوة الفرنج وإن لم يتداركها خرجت هي وغيرها وشرع يتجهز للسير إلى الشام ليدخل مصر وكان ما ذكرناه من استنقاذ دمياط فلما اجتمع مظفر الدين والعساكر بدقوفا سير الخليفة إليهم بما لو كفتهم وهو أكبر أمير بالعراق ومعه غيره من الأمراء في نحو ثمانمائة فارس فاجتمعوا هناك ليتصل بهم باقي عسكر الخليفة وكان المقدم على الجميع مظفر الدين فلما رأى قلة العسكر لم يقدم على قصد التتر (وحكى مظفر الدين) قال لما أرسل إلى الخليفة في معنى التتر قلت له إن العدو قوى وليس لي من العسكر ما ألقاه به فإن اجتمع معي عشرة آلاف فارس استنقذت ما أخذ من البلاد فأمرني بالسير وواعدني بوصول

العسكر فلما سرت لم يحضر عندي غير عدد لم يبلغوا ثمانمائة طواشي فأقت ومارأيت المخاطرة بنفسى وبالمسلمين ولما سمع التتر باجتماع العساكر لهم رجعوا القهقري ظنا منهم أن العسكر يتبعهم فلما لم يروا أحدا يطلبهم أقاموا وأقام العسكر الإسلامى عند دقوقا فلما لم يروا أن العدو يقصدهم ولا المدد يأتيهم تفرقوا وعادوا إلى بلادهم.

(ذكر ملك التتر همذان وقتل أهلها) لما تفرق العسكر الإسلامى عاد التتر إلى همذان فزولوا بالقرب منها وكان لهم بها شحنة يحكم فيها فأرسلوا إليه يأمرونه ليطلب من أهلها مالا وثيابا وكانوا قد استنفدوا أموالهم في طول المدة وكان رئيس همذان شريفا علويا وهو من بيت رياسة قديمة لهذه المدينة وهو الذى يسعى في أمور أهل البلد مع التتر ويوصل اليهم ما يجمعه من الأموال فلما طلبوا الآن منهم المال لم يجد أهل همذان ما يحملونه اليهم فحضروا عند الرئيس ومعه إنسان فقيه قد قام في اجتماع الكلمة على الكفار قياما مرضيا فقالوا لهما هؤلاء الكفار قد أفنوا أموالنا ولم يبق لنا مانعطيهم وقد هلكنا من أخذهم أموالنا وما يفعله النائب عنهم بنا من الهوان وكانوا قد جعلوا بهمذان شحنة لهم يحكم في أهلها بما يختاره فقال الشريف إذا كنا نعجز عنهم فكيف الحيلة فليس لنا إلا مصانعتهم بالأموال فقالوا له أنت أشد علينا من الكفار وأغلظوا له في القول فقال أنا واحد منكم فاصنعوا ماشئتم فأشار الفقيه بإخراج شحنة التتر من البلد والامتناع فيه ومقاتلة التتر فوثب العامة على الشحنة فقتلوه وامتنعوا في البلد فتقدم التتر إليهم وحصروهم وكانت الآقوات متعذرة في تلك البلاد جميعها لخرابها وقتل أهلها وجلاء من سلم منهم فلا يقدر أحد على الطعام إلا قليلا وأما التتر فلا يباليون لعدم الآقوات لأهم لا يأكلون إلا اللحم ولا تأكل دوابهم إلا نبات الأرض حتى إنها تحفر بحوافرها الأرض عن عروق النبات فتأكلها فلما حصروا همذان قاتلهم أهلها والرئيس والفقيه في أوائلهم فقتل من التتر خلق كثير وجرح الفقيه عدة جراحات وافترقوا ثم خرجوا من الغد فاقتتلوا أشد من القتال الأول وقتل أيضا من التتر أكثر من اليوم الأول وجرح الفقيه أيضا عدة جراحات وهو صابر وأرادوا أيضا الخروج في اليوم الثالث فلم يطق الفقيه الركوب وطلب الناس الرئيس العلوى فلم يجدوه وكان قد هرب في سرب صنعه إلى ظاهر البلد هو وأهله إلى قلعة هناك على جبل عال فامتنع فيها فلما فقدته الناس بقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون إلا أنهم اجتمعت كلمتهم على القتال إلى أن يموتوا فأقاموا في البلد ولم يخرجوا منه وكان التتر قد عزموا على الرحيل لكثرة من قتل منهم فلما لم يروا أحدا خرج إليهم من البلد طمعوا واستدلوا على ضعف أهله فقصدهم وقائلوهم في رجب من سنة ثمان عشرة وستمائة ودخلوا المدينة بالسيف وقتلهم الناس في الدروب فبطل السلاح للزحمة وافتتلوا بالسكاكين فقتل من الفريقين ما لا يحصيه إلا الله تعالى وقوى التتر على المسلمين فأفروهم قتلا ولم يسلم إلا من كان عمل له نفقا يخفى فيه وبقي القتل في المسلمين عدة أيام ثم القوا النار في البلد فأحرقوه ورحلوا عنها إلى مدينة أردويل . وقيل كان السبب في ملكها أن أهل البلد لما شكوا إلى الرئيس الشريف ما يفعل بهم الكفار أشار عليهم بمكاتبة الخليفة لينفذ إليهم عسكرا مع أمير يجمع كلمتهم فانفقوا على ذلك فكتب إلى الخليفة ينهى إليه ما هم عليه من الخوف والذل ومايركبهم به العدو من الصفار والخزى ويطلب نجدة ولو ألف فارس مع أمير يقاتلون معه ويجمعون عليه فلما سار القصاد بالكتب أرسل بعض من علم بالحال إلى التتر يعلمهم ذلك فأرسلوا إلى الطريق فأخذوهم وأخذوا الكتب منهم وأرسلوا إلى الرئيس ينكرون عليه الحال فوجد فأرسلوا إليه كتبه وكتب الجماعة فسقط في أيديهم

وقدم اليهم التتر خيلند وقائلوم وجرى في القتال كاذ كرنا .

(ذكر مسير التتر إلى أذربيجان وملكهم أردوبيل وغيرها) لما فرغ التتر من همدان ساروا إلى أذربيجان فوصلوا إلى أردوبيل فملكوها وقتلوا فيها وأكثروا وخربوا أكثرها وساروا منها إلى تبريز وكان قد قام بأمرها شمس الدين الطغرائي وجمع كلته أهلها وقد فارقتها صاحبها أوزبك بن البهلوان وكان أميراً متخلفا لا يزال منتهمكا في الخمر ليلا ونهارا يبقى الشهر والشهرين لا يظهر وإذا سمع هيمة طار بجفلا لها وله جميع أذربيجان وأران وهو أعجز خلق الله عن البلاد من عدو يريد لها ويقصدها فلما سمع بمسير التتر من همدان فارق هو تبريز وقصد نقجوان وسير أهله ونسائه إلى خوى ليعبد عنهم فقام هذا الطغرائي بأمر البلد وجمع الكلمة وقوى قهوس الناس على الامتاع وحذرهم عاقبة التخاذل والتواني وحسن البلد بجهدده وطاقته فلما قاربه التتر وسمعوا بما أهل البلد عليه من اجتماع الكلمة على قتالهم وأنهم قد حصنوا المدينة وأصلحوا أسوارها وخذقها أرسلوا يطلبون منهم مالا وثيابا فاستقر الأمر بينهم على قدر معلوم من ذلك فسيروهم اليهم فأخذوه ودخلوا إلى مدينة سراو فتهبوا وقتلوا كل من فيها ورحلوا منها إلى ييلقان من بلاد أران قهبا كل مامروا به من البلاد والقرى وخربوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها فلما وصلوا إلى ييلقان حصرها فاستدعى أهلها منهم رسولا يقرون معه الصلح فأرسلوا اليهم رسولا من أكابرهم ومقدمهم فقتله أهل البلد فزحف التتر اليهم وقائلوم ثم إنهم ملكوا البلد عنوة في شهر رمضان سنة ثمان عشرة ووضعوا السيف فلم يبقوا على صغير ولا كبير ولا امرأة حتى إنهم يشقون بطون الحبالى ويقتلون الأجنة وكانوا يفجرون بالمرأة ثم يقتلونهم وكان الإنسان منهم يدخل الدرب فيه الجماعة فيقتلهم واحدا بعد واحد حتى يفرغ من الجميع لا يمد أحد منهم إليه يدا فلما فرغوا منها استقصوا ما حولها من النهب والتخريب وساروا إلى مدينة كنجة وهي أم بلاد أران فعملوا بكثرة أهلها وشجاعتهم لكثرة دربتهم بقتال الكرج وحصانتها فلم يقدموا عليها فأرسلوا إلى أهلها يطلبون منهم المال والثياب فحملوا اليهم ما طلبوا فساروا عنهم .

(ذكر وصول التتر إلى بلاد الكرج) لما فرغ التتر من بلاد المسلمين بأذربيجان وأران بعضه بالملك وبعضه بالصلح وساروا إلى بلاد الكرج من هذه الأعمال أيضا وكان الكرج قد أعدوا لهم واستعدوا وسيروا جيشا كبيرا إلى طرف بلادهم لينعوا التتر عنها فوصل اليهم التتر فالتقوا فلم يثبت الكرج بل ولوا منهزمين فأخذهم السيف فلم يسلم منهم إلا الشريد ولقد بلغنى أنهم قتل منهم نحو ثلاثين ألفا ونهبوا ما وصلوا إليه من بلادهم وخربوها وفعلوا بها ما هو عادتهم فلما وصل المنزهون إلى تفليس وبها ملكهم جمع جموعا أخرى وسيرهم إلى التتر أيضا لينعومهم من توسط بلادهم فأرأوا التتر وقد دخلوا البلاد لم يمنعهم جبل ولا مضيق ولا غير ذلك فلما رأوا فعلهم عادوا إلى تفليس فأدخلوا البلاد ففعل التتر فيها ما أرادوا من النهب والقتل والتخريب ورأوا بلادا كثيرة المضايق والدربنديات فلم يتجاسروا على الوغول فيها فعادوا عنها وداخل الكرج منهم خوف عظيم حتى سمعت عن بعض أكابر الكرج وكان قدم رسولا أنه قال من حدثكم أن التتر انهزموا وأسروا فلا تصدقوه وإذا حدثتم أنهم قتلوا نصدقوا فإن القوم لا يفرون أبدا ولقد أخذنا أسيرا منهم فألقى نفسه من الدابة وهرب رأسه بالحجر إلى أن مات ولم يسلم نفسه للأسرة .

(ذكر وصولهم إلى دربندشروان وما فعلوه) لما عاد التتر من بلد الكرج قصدوا دربندشروان فحصرها

مدينة شماخي وقتلوا أهلها فصبروا على الحصر ثم إن التتر صدوا سورها بالسلاليم وقيل بل جمعوا كثيرا من الجمال والبقر والغنم وغير ذلك ومن قتل الناس منهم ومن قتل من غيرهم وألقوا بعضه فوق بعض فصار مثل الغل وصعدوا عليه فأشرفوا على المدينة وقتلوا أهلها فصبروا واشتد القتال ثلاثة أيام فأشرفوا على أن يؤخذوا فقالوا السيف لا بد منه فالضرب أولى بنا موت كراما فصبروا تلك الليلة فأنتنت تلك الجيف وانمضت فلم يبق للتتر على السور استعلاء ولا تسلط على الحرب فعاودوا الزحف وملازمة القتال فضجر أهلها ومسهم التعب والكلال والإعياء فضعفوا فلك التتر البلد وقتلوا فيه كثيرا ونهبوا الأموال واستباحوها فلما فرغوا منه أرادوا عبور الدربند فلم يقدرُوا على ذلك فأرسلوا رسولا إلى شروان شاه ملك دربند شروان يقولون له ليرسل إليهم رسولا يسعى بينهم في الصلح فأرسل عشرة رجال من أعيان أصحابه فأخذوا أحدهم فقتلوه ثم قالوا للباقيين إن أنتم عرفتمونا طريقا نعبر فيه فلكم الأمان وإن لم تفعلوا قتلناكم كما قتلنا هذا فقالوا لهم إن هذا الدربند ليس فيه طريق البتة ولكن فيه موضع هو أسهل مافيه من الطرق فساروا معهم إلى ذلك الطريق فعبروا فيه وخلفوه وراء ظهورهم ﴿ذكر ما فعلوه باللان وقفجان﴾ لما عبر التتر دربند شروان ساروا في تلك الأعمال وفيها أمم كثيرة منهم اللان واللكز وطوائف من الترك فنهوه وقتلوا من الللكز كثيرا وهم مسلمون وكفار وأوقعوا بمن عداهم من أهل تلك البلاد ووصلوا إلى اللان وهم أمم كثيرة وقد بلغهم خبرهم فجدوا وجمعوا عندهم جمعا من قفجاق فقاتلهم فلم تظفر إحدى الطائفتين بالأخرى فأرسل التتر إلى قفجاق يقولون نحن وأنتم جنس واحد وهؤلاء اللان ليسوا منكم حتى تنصروهم ، ولا دينكم مثل دينهم ونحن نعاهدكم أننا لا نعترض إليكم ونحمل إليكم من الأموال والثياب ما شئتم وتركون بيننا وبينهم فاستقر الأمر بينهم على مال حملوه وثياب وغير ذلك فحملوا إليهم ما استقر وقارقهم قفجاق فأوقع التتر باللان فقتلوا منهم وأكثروا ونهبوا وسبوا وساروا إلى قفجاق وهم آمنون متفرقون لما استقر بينهم من الصلح فلم يجمعوا بهم إلا وقد طرقتهم ودخلوا بلادهم فأوقعوا بهم الأول فالأول ، وأخذوا منهم أضعاف ما حملوا إليهم وسمع من كان بعيد الدار من قفجاق الخبر ففروا من غير قتال وأبعدوا وبعضهم اعتمهم بالغياض وبعضهم بالجبال وبعضهم لحق ببلاد الروس وأقام التتر في بلاد قفجاق وهي أرض كثيرة المراعى في الشتاء والصيف ، وفيها أماكن باردة في الصيف كثيرة المرعى ، وأما كن حارة في الشتاء كثيرة المرعى وهي ، غياض على ساحل البحر ووصلوا إلى مدينة سوداق وهي مدينة قفجاق التي منها مادتهم فإنها على بحر خزرية والمراكب تصل إليها وفيها الثياب فتشترى منهم وتبيع عليهم الجوارى والماليك والبرطاسي والقندر والسنباب وغير ذلك مما هو في بلادهم وبحر خزرية هذا بحر متصل بخليج القسطنطينية ، ولما وصل التتر إلى سوداق ملكوها وتفرق أهلها منها فبعضهم صعد الجبال بأهله وماله وبعضهم ركب البحر وسار إلى بلاد الروم التي بيد المسلمين من أولاد قلع أرسلان .

﴿ذكر ما فعله التتر بقفجاق والروس﴾ لما استولى التتر على أرض قفجاق كما ذكرنا سار طائفة كثيرة منهم إلى بلاد الروس وهي بلاد كثيرة طويلة عريضة تجاورهم وأهلها يدينون بالنصرانية فلما وصلوا إليهم اجتمعوا كلهم وانفقت كلمتهم على قتال التتر إن قصدواهم وأقام التتر بأرض قفجاق مدة ثم إنهم ساروا سنة عشرين وستمئة إلى بلاد الروس فسمع الروس وقفجاق خبرهم وكانوا مستمدين لقتلهم فساروا إلى طريق التتر ليلقوهم قبل أن يصلوا إلى بلادهم لينعوم عنها فبلغ مسيرهم التتر فعادوا على أعقابهم راجعين فطمع الروس

وقفجاق فيهم وظنوا أنهم عادوا خوفا منهم وعجزا عن قتالهم لجحدوا في اتباعهم ولم يزل التتر راجعين وأولئك يقفون أترم اثني عشر يوما ثم إن التتر عطفوا على الروس وقفجاق فلم يشعروا بهم إلا وقد لقوم على غرة منهم لأنهم كانوا قد أمنوا التتر واستشعروا القدرة عليهم فلم يجتمعوا للقتال إلا وقد بلغ التتر منهم مبلغا عظيما فصر الطائفتان صبرا لم يسمع بمثله ودام القتال بينهم عدة أيام ثم إن التتر ظفروا واستظهروا فأمرم قفجاق والروس هزيمة عظيمة بعد أن أئخن فيهم التتر وكثر القتل في المنزهين فلم يسلم منهم إلا القليل ، ونهب جميع ما معهم ومن سلم وصل إلى البلاد على أفبح صورة لبعث الطريق والهزيمة وتبعهم كثير يقتلون وينهبون ويخربون البلاد حتى خلا أكثرها فاجتمع كثير من أعيان تجار الروس وأغنيائهم وحملوا ما يهز عليهم وساروا يقطعون البحر إلى بلاد الإسلام في عدة مراكب فلما قاربوا المرسى الذي يريدونه انكسر مركب من مراكبهم ففرق إلا أن الناس نجوا وكانت العادة جارية أن السلطان له المركب الذي ينكسر فأخذ من ذلك شيئا كثيرا وسلم باقي المراكب وأخبره من بها بهذه الحال .

(ذكر هود التتر من بلاد الروس وقفجاق إلى ملكهم) لما فعل التتر بالروس ما ذكرناه ونهبوا بلادهم عادوا عنها وقصدوا بلغار أو اخر سنة عشرين وستمائة فلما سمع أهل بلغار بقربهم منهم كانوا لهم في عدة مواضع وخرجوا إليهم فلقوم واستجروهم إلى أن جاوزوا موضع الكمناء فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم فبقوا في الوسط وأخذهم السيف من كل ناحية فقتل أكثرهم ولم ينج منهم إلا القليل قتل كانوا نحو أربعة آلاف رجل فساروا إلى سقين غاندين إلى ملكهم جنكزخان وخلت أرض قفجاق منهم فعاد من سلم منهم إلى بلادهم وكان الطريق منقطعا فدخلها التتر فلم يصل منهم شيء من الرطاسي والسنجاب والقندر وغيرها مما يحمل من تلك البلاد فلما فارقوها عادوا إلى بلادهم واتصلت الطريق وحملت الامتعة كما كانت هذا أخبار التتر المغربية قد ذكرناها سياقة واحدة لثلاث تنقطع .

(ذكر ما فعله التتر بما وراء النهر بعد بخارا وسمرقند) قد ذكرنا ما فعله التتر المغربية التي سيرها ملكهم جنكزخان لعنه الله إلى خوارزمشاه وأما جنكزخان فإنه بعد أن سير هذه الطائفة إلى خوارزمشاه وبعدها نهب خوارزمشاه من خراسان قسم أصحابه عدة أقسام فسير قسما منها إلى بلاد فرغانة ليلكوها وسير قسما آخر منها إلى ترمذ وسير قسما منها إلى كلانة وهي قلعة حصينة على جانب جيحون من أحسن القلاع وأمنح الحصون فسارت كل طائفة إلى الجهة التي أمرت بقصدها ونازلتها واستولت عليها وفعلت من القتل والأسر والسبي والنهب والتخريب وأنواع الفساد مثل ما فعل أصحابهم فلما فرغوا من ذلك عادوا إلى ملكهم جنكزخان وهو بسمرقند فجهز جيشا عظيما مع أحد أولاده وسيره إلى خوارزم وسير جيشا آخر فعبروا جيحون إلى خراسان .

(ذكر ملك التتر خراسان) لما سار الجيش المنفذ إلى خراسان عبروا جيحون وقصدوا مدينة بلخ فطلب أهلها الأمان فأمروهم فسلم البلد سنة سبع عشرة وستمائة ولم يتعرضوا إليه بنهب ولا قتل بل جعلوا فيه شحنة وساروا وقصدوا الزوزان وسميند واندخوى وقاريات فلما كوا الجميع وجعلوا فيه ولاية ولم يتعرضوا إلى أهلها بسوء ولا أذى سوى أنهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم حتى وصلوا إلى الطالقان وهي ولاية تشتمل على عدة بلاد وفيها قلعة حصينة يقال لها منصوركوه لا ترام علوا وارتفاعا وبها رجال يقاتلون شجعان فحصر وهامدة ستة أشهر يقاتلون أهلها ليلا ونهارا ولا يظفرون منها بشيء فأرسلوا إلى جنكزخان

يعرفونه مجزهم عن ملك هذه القلعة لكثرة من فيها من المقاتلة ولامتناعها بحصانتها فسار بنفسه وبمن عنده من جموعه إليهم وحصرها ومعه خلق كثير من المسلمين أسرى فأمرهم بمباشرة القتال والإقتلهم فقاتلوا معه وأقام عليهم أربعة أشهر أخرى فقتل من التتر عليها خاق كثير فلما رأى ملكهم ذلك أمر أن يجمع له من الحطب والأخشاب ما أمكن جمعه ، ففعلوا ذلك ، وصاروا يعملون صفا من خشب ، وفوقه صفا من تراب ، فلم يزالوا كذلك حتى صار تلا عاليا يوازي ، القلعة فاجتمع من بها ، وفتحوا بابها ، وخرجوا منها ، وحملوا حملة رجل واحد فلم الخيالة منهم ونجوا وملكوا تلك الجبال والشعاب وأما الرجال فقتلوا ودخل التتر القلعة وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الأموال والأمتعة ثم إن جنكزخان جمع أهل البلاد التي أعطاهم الأمان بيلخ وغيرها وسيرهم مع بعض أولاده إلى مدينة مرو فدخلوا إليها وقد اجتمع بها من الأعراب والآتراك وغيرهم من نجا من المسلمين ما يزيد على مائتي ألف رجل وهم معسكرون بظاهر مرو وهم عازمون على لقاء التتر ويحدثون نفوسهم بالغلبة لهم والاستيلاء عليهم فلما وصل التتر إليهم التقوا واقتتلوا فصبر المسلمون وأما التتر فلا يعرفون الهزيمة حتى إن بعضهم أسر فقال وهو عند المسلمين إن قيل إن التتر يقتلون فصدقوا وإن قيل أنهم ينهزمون فلا تصدقوا فلما رأى المسلمون صبر التتر وإقدامهم ولوا منهزمين فقتل التتر منهم وأسروا الكثير ولم يسلم إلا القليل ونهبت أموالهم وسلاحهم ودوابهم وأرسل التتر إلى ماحولهم من البلاد يجمعون الرجال لحصار مرو فلما اجتمع لهم ما أرادوا تقدموا إلى مرو وحصروها وجدوا في حصرها ولازموا القتال وكان أهل البلد قد ضعفوا بانهزام ذلك العسكر وكثرة القتل والأسر فيهم فلما كان اليوم الخامس من نزولهم أرسل التتر إلى الأمير الذي بها متقدما على من فيها يقولون له لا تهلك نفسك وأهل البلد واخرج إلينا فنحن نجعلك أمير هذه البلدة ونرحل عنك فأرسل يطلب الأمان لنفسه ولأهل البلد فأمنهم فخرج إليهم فخلع عليه ابن جنكزخان واحترمه وقال له أريد أن تعرض على أصحابك حتى ننظر من يصلح لخدمتنا استخدمناه وأعطياه أقطاعا ويكون معنا فلما حضروا عنده وتمكن منهم قبض عليهم وعلى أميرهم وكتفهم فلما فرغ منهم قال لهم اكتبوا إلى تجار البلد ورؤسائه وأرباب الأموال في جريدة واكتبوا إلى أرباب الصناعات والحرف في نسخة أخرى وأعرضوا ذلك علينا ففعلوا ما أمرهم فلما وقف على النسخ أمر أن يخرج أهل البلد منه بأهلهم فخرجوا كلهم ولم يبق فيه أحد فجلس على كرسي من ذهب وأمر أن يحضر أولئك الأجناد الذين قبض عليهم فأحضروا وضربت رقابهم صبرا والناس ينظرون إليهم ويبكون . وأما العامة فإنهم قدموا الرجال والنساء والأطفال فكان يوما مشهودا من كثرة الصراخ والبكاء والعيويل وأخذوا أرباب الأموال فضرروهم وعذبوهم بأنواع العقوبات في طلب الأموال فرمى مات أحدهم من شدة الضرب ولم يكن بقي له ما يفتدى به نفسه ثم إنهم أحرقوا البلد ، وأحرقوا تربة السلطان سنجر ونهبوا القبر طلبا للمال فبقوا كذلك ثلاثة أيام فلما كان اليوم الرابع أمر بقتل أهل البلد كافة ، وقال هؤلاء عصوا علينا فقتلهم أجمعين وأمر بإحصاء القتلى فكانوا نحو سبعمائة ألف قتيل فإنا لله وإنا إليه راجعون مما جرى على المسلمين ذلك اليوم ثم ساروا إلى نيسابور فحصرها خمسة أيام وبها جمع صالح من العسكر الإسلامي فلم يكن لهم بالتر قوة فملكوا المدينة وأخرجوا أهلها إلى الصحراء ، فقتلهم وسبوا حريمهم وعاقبوا من اتهموه بمال كما فعلوا بمرو وأقاموا خمسة عشر يوما يخرّبون ويفتشون المنازل عن الأموال وكانوا لما قتلوا أهل مرو قيل لهم إن قتلاهم سلم منهم كثير ، ونجوا إلى بلاد الإسلام فأمرنا بأهل

نيسابور أن تقطع رؤوسهم لئلا يسلم من القتل أحد، فلما فرغوا من ذلك سيروا طائفة منهم إلى طوس ففعلوا بها كذلك أيضا وخربوها وخربوا المشهد الذي فيه علي بن موسى الرضا والرشيدي حتى جعلوا الجميع خرابا ثم ساروا إلى هراة، وهي من أحصن البلاد، لحصروها عشرة أيام، فملكوها وأمنوا أهلها وقتلوا منهم البعض وجعلوا عند من سلم منهم شحنة وساروا إلى غزنة فلقبهم جلال الدين بن خوارزم شاه فقاتلهم وهزمهم على ما ذكره إن شاء الله فوثب أهل هراة على الشحنة فقتلوه فلما عاد المهزومون إليهم دخلوا البلد قهرا وعنوة وقتلوا كل من فيه ونهبوا الأموال وسبوا الحرير ونهبوا السواد وخربوا المدينة جميعها وأحرقوها وعادوا إلى ملكهم جنكزخان وهو بالطالقان يرسل سرايا إلى جميع بلاد خراسان ففعلوا بها كذلك ولم يسلم من شرم وفسادهم شيء من البلاد وكان جميع ما فعلوه بخراسان سنة سبع عشرة.

(ذكر ملكهم خوارزم وتخريبها) وأما الطائفة من الجيش التي سيرها جنكزخان إلى خوارزم فإنها كانت أكثر السرايا جميعها اعظم البلد فساروا حتى وصلوا إلى خوارزم وفيها عسكر كبير وأهل البلد معروفون بالشجاعة والكثرة فقاتلهم أشد قتال سمع به الناس ودام الحصر لهم خمسة أشهر فقتل من الفريقين خلق كثير إلا أن القتلى من التتر كانوا أكثر لأن المسلمين كان يحميهم السور فأرسل التتر إلى ملكهم جنكزخان يطلبون المدد فأمدم بمخلق كثير فلما وصلوا إلى البلد زحفوا زحفا متتابعا فملكوا طرفا منه فاجتمع أهل البلد وقاتلهم في طرف الموضع الذي ملكوا فلم يقدروا على إفراجهم ولم يزالوا يقاتلونهم والتتر يملكون منهم محلة بعد محلة وكلما ملكوا محلة قاتلهم المسلمون في المحلة التي تليهم فكان الرجال والنساء والصبيان يقاتلون فلم يزالوا كذلك حتى ملكوا البلد جميعه وقتلوا كل من فيه ونهبوا كل ما فيه ثم لهم فتحوا السكر الذي يمنع ماء جيحون عن البلد فدخله الماء ففرق البلد جميعه وتهدمت الأبنية وبقي موضعه ماء ولم يسلم من أهله أحد البتة فإن غيره من البلاد قد كان يسلم بعض أهله منهم من يختفي ومنهم من يهرب ومنهم من يخرج ثم يسلم ومنهم من يلقي نفسه بين القتلى فينجو وأما أهل خوارزم فن اختفى من التتر غرقه الماء أو قتله الهدم فأصبحت خرابا بيا با:

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفاة أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وهذا لم يسمع بمثله في قديم الزمان وحديثه نعوذ بالله من الخور بعد الكور، ومن الخذلان بعد النصر فلقد عمت هذه المصيبة الإسلام وأهله، فكم من قتل من أهل خراسان وغيرها لأن القاصدين من التجار وغيرهم كانوا كثيرا مضى الجميع تحت السيف ولما فرغوا من خراسان وخوارزم عادوا إلى ملكهم بالطالقان. (ذكر ملك التتر غزنة وبلاد الغور) لما فرغ التتر من خراسان وعادوا إلى ملكهم جيشا كثيفا وسيره إلى غزنة وبها جلال الدين بن خوارزم شاه مالكا لها وقد اجتمع إليه من سلم من عسكر أبيه قبل كانوا ستين ألفا فلما وصلوا إلى أعمال غزنة خرج إليهم المسلمون مع ابن خورزم شاه إلى موضع يقال له بلق فالتقوا هناك واقتلوا قتالا شديدا وبقوا كذلك ثلاثة أيام ثم أنزل الله نصره على المسلمين فانهزم التتر وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا ومن سلم منهم عاد إلى ملكهم بالطالقان فلما سمع أهل هراة بذلك ثاروا بالوالي الذي عندهم للتتر فقتلوه فسير إليهم جنكزخان عسكرا فملكوا البلد وخربوه كما ذكرناه فلما همزم التتر أرسل جلال الدين رسولا إلى جنكزخان يقول له في أي موضع تريد يكون الحرب حتى نأتي إليه لجهز جنكزخان عسكرا كثيرا أكثر من الأول مع

بعض أولاده وسيره اليه فوصل إلى كابل فتوجه العسكر الإسلامي اليهم وتصافوا هناك وجرى بينهم قتال عظيم فانهزم الكفار ثانيا فقتل كثير منهم وغنم المسلمون مامعهم وكان عظيما وكان معهم من أسارى المسلمين خلق كثير فاستنقذوهم ثم إن المسلمين جرى بينهم فتنة لأجل الغنيمة وسبب ذلك أن أميراً منهم يقال له سيف الدين بغراق أصله من الأتراك الخلج كان شجاعاً مقداراً ما ذار رأى في الحرب ومكيدة واصطلى الحرب مع التتر بنفسه وقال لعسكر جلال الدين تأخروا أنتم فقد ملتتم منهم رعباً وهو الذي كسر التتر على الحقيقة وكان من المسلمين أيضاً أمير كبير يقال له ملك خان بينه وبين خوارزمشاه نسب وهو صاحب هراة فاختلف هذان الأميران في الغنيمة فاقتلوا فقتل بينهم أخ لبغراق فقال لبغراق أنا انهزم الكفار ويقتل أخى لأجل هذا السحت فغضب وفارق العسكر وسار إلى الهند فتبعه من العسكر ثلاثون ألفاً كلهم يريدونه فاستعطفه جلال الدين بكل طريق وسار بنفسه إليه وذكره الجهاد وخوفه من الله تعالى وبكى بين يديه فلم يرجع وسار مفارقاً فانكسر لذلك المسلمون وضعفوا فيبنام كذلك إذ ورد الخبر أن جنكزخان قد وصل في جموعه وجيوشه فلما رأى جلال الدين ضعف المسلمين لأجل من فارقهم من العسكر ولم يقدر على المقام سار نحو بلاد الهند فوصل إلى ماء السند وهو نهر كبير فلم يجد من السفن ما يعبر فيه وكان جنكزخان يقص أثره مسرعاً فلم يتمكن جلال الدين من العبور حتى أدركه حنكرخان في التتر فاضطر المسلمون حينئذ إلى القتال والصبر لتعذر العبور عليهم وكانوا في ذلك كالأشقر إن تقدم ينحر وإن تأخر يعقر فتصافوا واقتلوا أشد قتال اعترفوا كلهم أن كل ما مضى من الحروب كان لعباً بالنسبة إلى هذا القتال فبقوا كذلك ثلاثة أيام فقتل الأمير ملك خان المقدم ذكره وخلق كثير وكان القتل في الكفار أكثر والجراح أعظم فرجع الكفار عنهم فأبعدوا ونزلوا فلما رأى المسلمون أنهم لا مدد لهم وقد ازدادوا ضعفاً بمن قتل منهم وجرح ولم يعلموا بما أصاب الكفار من ذلك فأرسلوا يطلبون السفن فوصلت وعبر المسلمين ليقضى الله أمراً كان مفعولاً فلما كان الغد عاد الكفار إلى غزوة وقد قويت نفوسهم بعبور المسلمين الماء إلى جهة الهند وبعدهم فلما وصلوا إليها ملكوها لوقتها لخلوها من العساكر والحامى فقتلوا أهلها ونهبوا الأموال وسبوا الحرير ولم يبق أحد وخربوها وأحرقوها وفعلوا بسوادها كذلك ونهبوا وقتلوا وأحرقوا فأصبحت تلك الأعمال جميعها خالية من الأنيس خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس .

(ذكر تسليم الأشرف خلاط إلى أخيه شهاب الدين غازي) أواخر هذه السنة أقطع الملك الأشرف موسى ابن العادل مدينة خلاط وجميع الأعمال أرمينية ومدينة ميفارقين من ديار بكر ومدينة حاني أخاه شهاب الدين غازي بن العادل وأخذ منه مدينة الرها ومدينة سروج من بلاد الجزيرة وسيره إلى خلاط أول سنة ثمان عشرة وستمائة وسبب ذلك أن الكرج لما قصد التتر بلادهم وهزموم ونهبوها وقتلوا كثيراً من أهلها أرسلوا إلى أوزبك صاحب أذربيجان وأران يطلبون منه المهادنة والمواقفة على دفع التتر وأرسلوا إلى الملك الأشرف في هذا المعنى وقالوا للجميع إن لم توافقونا على قتال هؤلاء القوم ، ودفعهم عن بلادنا ، وتحضروا بنفوسكم وعساكركم لهذا المهم وإلا صلحناهم عليكم فوصلت رسالهم إلى الأشرف يتجهز إلى الديار المصرية لأجل الفرنج وكانوا عنده أمم الوجوه لأسباب أولها إن الفرنج كانوا قد ملكوا دمياط وقد أشرفت الديار المصرية على أن تملك فلو ملكوها لم يبق بالشام ولا غيره معهم ملك لأحد وثانها أن الفرنج أشد شكيمه وطالبو ملك فإذا ملكوا قرية لا يفارقونها إلا بعد أن يعجزوا عن حفظها يوماً واحداً وثالثها أن الفرنج قد طمعوا في كرسی

ملك البيت العادل وهي مصر والنتر لم يصلوا إليها ولم يهاوزوا فيها من بلادهم وليسوا أيضا ممن يريد المنازعة في الملك وما غرضهم إلا الهب والقتل وتخريب البلاد والانتقال من بلد إلى آخر فلما أتاه وصل الكوخ بما ذكرناه أجايمهم يعتذر بالمسير إلى مصر لدفع الفرنج ويقول لهم إنني قد أقطعت ولاية خلاط لأخي وسيرته إليها ليكون بالقرب منكم وتركت عنده العساكر فني احتجتم إلى نصرته حضر لدفع النتر وسار هو إلى مصر كما ذكرناه .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في ربيع الآخر ملك بدر الدين قلعة تل أعفر . وفيها في جمادى الأولى ملك الأشرف مدينة سنجار . وفيها أيضا وصل الموصل وأقام بظاهرها ثم سار يريد إربل لقصد صاحبها فتردت الرسل بينهم في الصلح فاصطاحوا في شعبان ، وقد تقدم هذا جميعه مفصلا سنة خمس عشرة وستمئة ، وفيها وصل النتر الري فلكوها وقتلوا كل من فيها ونهبوها وساروا عنها فوصلوا إلى همدان فلقبهم رئيسها بالطاعة والمحل فأبقوا على أهلها وساروا إلى أذربيجان فخرّبوا وحرّقوا البلاد وقتلوا وسبوا وعملوا ما لم يسمع بمثله وقد تقدم أيضا مفصلا . وفيها توفي نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي الذي كان وزير الخليفة وصلى عليه بجامع القصر وحضره أرباب الدولة ودفن بالمشهد . وفيها توفي صدر الدين أبو الحسن محمد بن عمر بن حمويه الجويني شيخ الشيوخ بمصر والشام وكان موته بالموصل ووردها رسولا وكان فقيها فاضلا وصوفيا صالحا من بيت كبير من خراسان رحمه الله كان نم الرجل وفيها عاد جمع بني معروف إلى مواضعهم من البطيحة وكانوا قد ساروا إلى الأجنات والقطيف فلم يمكنهم المقام لكثرة أعدائهم فقصدوا شحنة البصرة وطلبوا منه أن يكاتب الديوان ببغداد بالرضا عنهم فكتب معهم بذلك وسبرم مع أصحابه إلى بغداد فلما قاربوا واسط لقيهم قاصد من الديوان بقتلهم فقتلوا (١)

(ثم دخلت سنة ثمان عشرة وستمئة)

(ذكر وفاة قتادة أمير مكة وملك ابنه الحسن وقتل أمير الحاج) في هذه السنة في جمادى الآخرة توفي قتادة ابن إدريس العلوي ثم الحسيني أمير مكة حرسها الله وكان عمره نحو سبعين سنة ، وكانت ولايته قد اتسعت من حدود اليمن إلى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم وله قلعة ينبع بنواحي المدينة وكثر عسكره واستكثر من المال كوخافه العرب في تلك البلاد خوفا عظيما وكان أول ملكه لما ملك مكة حرسها الله حسن السيرة أزال بها العبيد المفسدين وحسب البلاد وأحسن إلى الحجاج وأكرمهم وبقى كذلك مدة ثم انه بعد ذلك أساء السيرة وجدد المكوس بمكة وفعل أفعالا شنيعة ونهب الحاج في بعض السنين كما ذكرناه ، ولما مات ملك بعده ابنه الحسن وكان له ابن آخر اسمه راجح . قيم في العرب بظاهر مكة يفسد وينازع أخاه في ملكه ، فلما سار حاج العراق كان الأمير عليهم مملوكا من مماليك الخليفة الناصر لدين الله اسمه أقباش وكان حسن السيرة مع الحاج

(١) وفيها توفي أبو عبدالله الحسين بن محمد بن أبي بكر الجلي الموصل ، ويعرف بابن الجهني ، شاب فاضل ولي كتابة الإنشاء لبدر الدين أولو زعيم الموصل ، ومن شعره :

نفسى فداء الذى فكرت فيه وقد ه غمدوت أغرق في بحر من العجب
يسدر بليل على صبح على قمر ه على غضيب على رم على كنب

(٤٤ . كامل - ٩)

في الطريق كثير الحماية فقصده راجع بن قتادة وبذل له وللخليفة مالا ليساعده على ملك مكة فأجابه إلى ذلك ووصلوا إلى مكة ونزلوا بالزاهر وتقدم إلى مكة مقاتلا لصاحبها حسن وكان حسن قد جمع جموعا كثيرة من العرب وغيرها فخرج إليه من مكة وقاتله وتقدم أمير الحاج من بين يدي عسكره منفردا وصعد الجبل إدلالا بنفسه وأنه لا يقدم أحد عليه فأحاط به أصحاب حسن وقتلوه وعلقوا رأسه فانزمت عسكر أمير المؤمنين وأحاط أصحاب حسن بالحاج لينهم يوم فأرسل إليهم حسن عمامته أمانا للحجاج فعاد أصحابه ولم ينهبوا منهم شيئا وسكن الناس وأذن لهم حسن في دخول مكة وفعل ما يريدونه من الحج والبيع وغير ذلك، وأقاموا بمكة عشرة أيام وعادوا فوصلوا إلى العراق سالمين وعظم الأمر على الخليفة فوصلت رسل حسن يعتذرون ويطلبون العفو عنه فأجيب إلى ذلك، وقيل في موت قتادة إن ابنه حسنا خنقه فمات وسبب ذلك أن قتادة جمع جموعا كثيرة وسار عن مكة يريد المدينة فبزل بوادي الفرع وهو مريض وصير أخاه على الجيش ومعه ابنه الحسن بن قتادة فلما أبعدها بلغ الحسن أن عمه قال لبعض الجند: إن أخي مريض، وهو ميت لا محالة، وطلب منهم أن يحلفوا له ليكون هو الأمير بعد أخيه قتادة فحضر الحسن عندهم واجتمع إليه كثير من الاجناد والماليك الذين لا يبه فقال الحسن لعمه قد فعلت كذا وكذا، فقال لم أفعل فأمر حسن الحاضرين بقتله فلم يفعلوا وقالوا أنت أمير وهذا أمير ولا نمد أيدينا إلى أحديكما فقال له غلامان لقتادة: نحن عبيدك، فرنا بما شئت، فأمرهما أن يجعلوا عمامة عمه في عنقه ففعلوا ثم قتله، فسمع قتادة الخبر فبلغ منه الغيظ كل مبلغ وحلف ليقتلن ابنه وكان على ما ذكرناه من المرض فكتب بعض أصحابه إلى الحسن يعرفه الحال ويقول له أبدا به قبل أن يقتلك فعاد الحسن إلى مكة فلما وصلها قصد دار أبيه في نفر يسير فوجد على باب الدار جمعا كثيرا فأمرهم بالانصراف إلى منازلهم فقارقوا الدار وعادوا إلى مساكنهم ودخل الحسن إلى أبيه فلما رآه أبوه شتمه وبالغ في ذمه وتهديده فوثب إليه الحسن فخنقه لوقته وخرج إلى الحرم الشريف. وأحضر الأشراف وقال: إن أبي قد اشتد مرضه وقد أمركم أن تحلفوا لي أن أكون أنا أميركم فحلفوا له ثم إنه أظهر تابوتا ودفنه ليظن الناس أنه مات وكان قد دفنه سرا فلما استقرت الإمارة بمكة له أرسل إلى أخيه الذي بقلعة ينبع على لسان أبيه يستدعيه وكتب موت أبيه عنه فلما حضر أخوه قتله أيضا واستقر أمره وثبت قدمه وفعل بأمير الحاج ما تقدم ذكره، فارتكب عظيمًا قتل أباه وعمه وأخاه في أيام يسيرة، لاجرم لم يمهل الله سبحانه وتعالى، نزع ملكه وجعله طريداً شريداً خائفاً يترقب. وقيل إن قتادة كان يقول شعراً، فمن ذلك أنه طلب ليحضر عند أمير الحاج كما جرت عادة أمراء مكة فاستنع. فعوتب من بغداد، فأجاب بأبيات شعر منها:

ولي كعب ضرغام أدل يبطشها ه وأمرى بها بين الوري وأبيع
تظل ملوك الأرض تلم ظهرها ه وفي سطحها للجد بين ربيع
أجعلها تحت الرحا ثم ابتغى ه خلاصا لها إنى إذا لربيع
وما أنا إلا المسك في كل بلدة ه يצוע ، وأما عندكم فيضبح

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة استعاد المسلمون مدينة دمياط بالديار المصرية من الفرنج وقد تقدم ذكرها مشروحا مفصلا. وفيها في صفر ملك التتر مراغة وخربوها وأحرقوها وقتلوا أكثر أهلها وهبوا أموالهم وسبوا حريمهم وسار التتر منها إلى همدان وحصروها فقاتلهم أهلها وظفر بهم التتر وقتلوا منهم

مالا يحمى ونهبوا البلد وساروا إلى أذربيجان فأعادوا النهب ونهبوا ما بقى من البلاد ولم ينهبوه أولاً ووصلوا إلى ييلقان من بلاد أران فحاصروها وملكوها وقتلوا أهلها حتى كادوا يفتنونهم وقتل منهم كثير ونهبت أموالهم وأكثر بلادهم وقصدوا دربند شروان فحاصروا مدينة شماخي وملكوها وقتلوا كثيرا من أهلها وساروا إلى بلد اللان واللكز ومن عندهم من الأمم فأوقعوا ورحلوا عن قفجاق وأجلوهم عنهم واستولوا عليها وساحوا في تلك الأرض حتى وصلوا إلى بلاد الروس وقد تقدم ذكر جميعه مستقصي وإنما أوردناه هنا جملة ليعلم الذي كان في هذه السنة من حوادثهم . وفيها توفي صديقنا أمين الدين ياقوت الكاتب الموصلى ولم يكن في زمانه من يكتب ما يقاربه ولا من يؤدى طريقة ابن البواب مثله وكان ذا فضائل جمه من علم الأدب وغيره وكان كثير الخير نعم الرجل مشهورا في الدنيا والناس متفقون على الثناء الجميل عليه والمدح له ، ولهم فيه أقوال كثيرة نظما ونثرا فمن ذلك ما قاله نجيب الدين الحسين بن على الواسطى من قصيدة بمدحه بها .

جامع شارذ العلوم ولولا . . . لكانت أم الفضائل ثكلى

ذو يراع تخاف سطوته الأسد وتغول الكتائب ذلا

وإذا أقر ثغره عن سواد . في بياض فالبيض والسمر نجلى

أنت هدر والكاتب بن هلال . كأبيه لا تخرفينم تولى

إن يكن أولاً فإنك بالتفضيل أولى لقد سبقت وصلى

ومنها

وهى طويلة والكاتب بن هلال هو ابن البواب الذى هو أشهر من أن يعرف . وفيها توفي جلال الدين الحسن وهو من أولاد الحسن بن الصباح الذى تقدم ذكره صاحب الموت وكردكوه وهو مقدم الاسماعيليه وقد ذكرنا أنه كان قد أظهر شريعة الإسلام من الأذان والصلاة وولى بعده ابنه علاء الدين محمد (١)

(١) وفيها توفي أبو الغيث شعيب بن أبى طاهر بن كليب بن مقبل الضرير الفقيه الشافعى ، أقام ببغداد إلى أن توفى ، وكانت لديه فضائل وله رسائل ، ومن شعره وقوله :

إذا كنتم للناس أهل سيامة . فسوسوا كرام الناس بالوجود والبذل

وسوسوا لئام الناس بالذل يصلحوا . عليه ، فان الذل أصلح للذل

وفيها توفي أبو العز شرف بن على ابن أبى جعفر بن كامل الخالصى المقرئ الضرير الفقيه الشافعى ، تفقه بالنظامية وسمع الحديث ورواه ، وأشهد عن الحسن بن عمرو الحلبي :

تمثلتم لى والديار بعيدة . نخيل لى أن الفؤاد لكم معنى

وناجا كم قلبى على البعد بيتنا . فأوحشتم لفظا وأنتم معنى

وفيها توفي أبو المظفر عبد الودود بن محمود بن المبارك بن على بن المبارك بن الحسن الواسطى الأصل ، البغدادى الدار والمولد ، كمال الدين المعروف والده بالمجيد ، تفقه على أبيه وقرأ عليه علم الكلام ، ودرس بمدسته عند باب الأزج ، ووكله الخليفة الناصر واشتهر بالديانة والأمانة ، وبأشرف مناصب كباراً ، وحج مراراً عديدة ، وكان متواضعاً حسن الأخلاق وكان يقول :

وما تركت ست وستون حجة . لنا حجة أن نركب اللهو مركبا

العلم يأتي كل ذى خفة . من وبأبى على كل أبى

كالماء ينزل فى الرما . دوليس يمد فى الروانى

وكان ينشد :

(ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمائة)

(ذكر خروج طائفة من قفجاق إلى أذربيجان وما فعلوه بالكرج وما كان منهم) لما استولى التتر على أرض قفجاق تفرق قفجاق طائفة قصدت بلاد الروس وطائفة تفرقت في جبالهم واجتمع طائفة كثيرة منهم وساروا إلى دربند شروان وأرسلوا إلى صاحبه واسمه رشيد وقالوا له إن التتر قد ملكوا بلادنا ونهبوا أموالنا وقد قصدناك لنقيم في بلادك ونحن عمالك لك ونفتح البلاد لك وأنت سلطانتنا فنعمهم من ذلك وخانهم فأعادوا الرسالة إليه إننا نحن نرهن عندك أولادنا ونساءنا على الطاعة والخدمة لك والانتقاد لحكمك فلم يجيبهم إلى ما طلبوا فسألوه أن يمكنهم ليتزودوا من بلده تدخل عشرة عشرة فإذا اشتروا ما يحتاجون إليه فارقوا بلادهم فأجابهم إلى ذلك فصاروا يدخلون متفرقين ويشترون ما يريدون ويخرجون ثم إن بعض كبارهم والمقدمين منهم جاء إلى رشيد وقال إنني كنت في خدمة السلطان خوارزم شاه وأنا مسلم والدين يحملني على نصحك ، اعلم أن قفجاق أعداؤك ويريدون الغدر بك فلا تمكنهم من المقام ببلادك فاعطى عسكريا حتى أقاتلهم وأخرجهم من البلاد ففعل ذلك وسلم إليه طائفة من عسكرة وأعطاهم ما يحتاجون إليه من سلاح وغيره فساروا معه فأوقعوا بطائفة من قفجاق فقتل منهم جماعة ونهب منهم فلم يتحرك قفجاق لقتال بل قالوا نحن عمالك الملك شروان شاه رشيد ولولا ذلك لقاتلنا عسكره فلما عاد ذلك المقدم القفجاقى ومنعه عسكر رشيد سالمين فرح بهم ثم إن قفجاق فارقوا موضعهم فساروا ثلاثة أيام فقال ذلك القفجاقى لرشيد أريد عسكريا أتبعهم فأمر له من العسكر بما أراد فسار يقفوا أثر القفجاق فأوقع بأواخرهم وغنم منهم وقصدته جمع كثير من قفجاق من الرجال والنساء ويكون وقد جزوا شعورهم ومعهم تابوت وهم محيطون به ليكون حوله وقالوا له إن صديقك فلانا قد مات وقد أوصى أن نحمله إليك فتدفنه في أى موضع شئت ونكون نحن عندك فحمله معه والذين يكون عليه أيضا وعاد إلى شروان شاه رشيد وأعلمه أن الميت صديق له وقد حمله معه وقد طلب أهله أن يكونوا عنده في خدمته فأمر أن يدخلوا البلد وأزلم فيه فكان أولئك الجماعة يسرون مع ذلك المقدم ويركبون بركوبه ويصعدون معه إلى القلعة التي لرشيد ويقعدون عنده ويشربون معهم ونساءهم فأحب رشيد امرأة ذلك الرجل الذى قيل له إنه ميت ولم يكن مات وإنما فعلوا هكذا مكيدة حتى دخلوا البلد والذى أظهروا موته معهم فى المجلس ولا يعرفه رشيد هو من أكبر مقدمى قفجاق فبقوا كذلك عدة أيام فكل يوم يجيء جماعة من قفجاق متفرقين فاجتمع بالقلعة منهم جماعة وأرادوا قبض رشيد وملك بلاده فقطن لذلك فخرج عن القلعة من باب السر وهرب ومضى إلى شروان وملك قفجاق القلعة وقالوا لأهل البلد نحن خير لكم من رشيد وأعادوا باقى أصحابهم إليهم وأخذوا السلاح الذى فى البلد جميعه واستولوا على الأموال التى كانت لرشيد فى القلعة ورحلوا عن القلعة وقصدوا قبلة وهى للكرج فنزلوا عليها وحصروها فلما سمع رشيد بمفارقتهم القلعة رجع إليها وملكها وقتل من بها من قفجاق ولم يشعر القفجاق الذين عند قبلة بذلك فأرسلوا طائفة منهم إلى القلعة فقتلهم رشيد أيضا فبلغ الخبر إلى القفجاق فعادوا إلى دربند فلم يكن لهم فى القلعة طمع وكان صاحب قبلة لما كانوا يحصرونه قد أرسل إليهم وقال لهم أما أرسل إلى ملك الكرج حتى يرسل إليكم الخلع والأموال ونجتمع نحن وأنتم ونملك البلاد فكفوا عن نهب ولايته إياها ثم إنهم مدوا أيديهم بالنهب والفساد ونهبوا بلاد قبلة جميعها وساروا إلى قريب كنجة من بلاد أران وهى

للمسلمين فزلوا هناك فأرسل إليهم الأمير بكنجة وهو ملوك لأوزبك صاحب أذربيجان اسمه كوشخنة
 عسكرياً فنعمهم من الوصول إلى بلاده وسير رسولاً إليهم يقول لهم غدرتم بصاحب شروان وأخذتم قلعة وغدرتم
 بصاحب قبة ونهيتم بلاده فما يثق بكم أحد فأجابوا أننا ما جئنا إلا قصداً لخدمة سلطانكم فنحن شروان شاه عنكم فلهذا
 قصدنا بلاده وأخذنا قلعة ثم تركناها من غير خوف وأما صاحب قبة فهو عدو لكم ولو أردنا أن تكون عند الكرج
 لما كنا جملنا طريقنا على دربند شروان فإنه أصعب وأشق وأبعد وكنا جئنا إلى بلادهم على عادتنا ونحن نوجه الرهائن
 إليكم فلما سمع هذا سار إليهم فسمع به قفجاق فركب أميران منهم هما مقدماهم في نفر يسير وجاءوا إليه ولقوه
 وخدموه وقالوا له قد أتيناك جريداً في قلة من العدد لتعلم أننا ما قصدنا إلا الوفاء والخدمة لسلطانكم فأمرهم
 كوشخنة بالرحيل والنزول عند كنجة وتزوج ابنة أحدهم وأرسل إلى صاحبه أوزبك يعرفه حالم فأمرهم
 بالخلع والنزول بجبل كيلكون ففعلوا ذلك وخافهم الكرج فجمعوا لهم ليكبسوم فوصل الخبر بذلك إلى
 كوشخنة أمير كنجة فأخبر قفجاق وأمرهم بالعود والنزول عند كنجة فعادوا ونزلوا عندها وسار أمير من
 أمراء قفجاق في جمع منهم إلى الكرج فكبسهم وقتل كثيراً منهم وهزمهم وغنم ما معهم وأكثر القتل فيهم
 والأسر منهم وتمت الهزيمة عليهم ورجع قفجاق إلى جبل كيلكون فنزلوا فيه كما كانوا فلما نزلوا أراد الأمير
 الآخر من أمراء قفجاق أن يؤثر في الكرج مثل ما فعل صاحبه فسمع كوشخنة فأرسل إليه ينهيه عن الحركة
 إلى أن يكشف له خبر الكرج فلم يقف فسار إلى بلادهم في طائفته ونهب وخرب وأخذ الغنائم فسار الكرج
 من طريق يعرفونها وسبقوه فلما وصل إليهم قاتلوه وحملوا عليه وعلى من معه على غيرة وغفلة فوضعوا السيف
 فيهم وأكثروا القتل فيهم واستنقذوا الغنائم منه فعاد هو ومن معه على أقيح حالة وقصدوا برذعة وأرسلوا إلى
 كوشخنة يطلبون أن يحضر عندهم هو بنفسه وعسكره ليقتلوا الكرج فيأخذوا بثأرهم منهم فلم يفعل وأخافهم
 وقال أنتم خالفتوني وعلمتم برأيكم فلا أنجدكم بفارس واحد فأرسلوا يطلبون الرهائن الذين لهم فلم يعطهم
 فاجتمعوا وأخذوا كثيراً من المسلمين عوضاً من الرهائن فثار بهم المسلمون من أهل البلاد وقتلوا منهم
 جماعة كثيرة فخافوا وساروا نحو شروان وجازوا إلى بلد اللكر فطمع الناس فيهم المسلمون والكرج واللكر
 وغيرهم فأنقذوا قتلها وأسرا وسبوا بحيث أن المملوك منهم كان يباع في دربند شروان بالثمن البخس .

(ذكر نهب الكرج بيلقان) في هذه السنة في شهر رمضان سار الكرج من بلادهم إلى بلاد أران وقصدوا
 مدينة بيلقان وكان التتر قد خربوها ونهبوها كما ذكرناه قبل فلما سار التتر إلى بلاد قفجاق عاد من سلم من أهلها
 إليها وهمروا ما أمكنهم عمارته من سورها فيبيتهاً كذلك إذا أتاهم الكرج ودخلوا البلد ولم يكوه وكان المسلمون
 في تلك البلاد ألفوا من الكرج أنهم إذا ظفروا ببلد صانعهم بشيء من المال فيعودون عنهم فكانوا أحسن
 الأعداء مقدرة فلما كان هذه اللفتة ظن المسلمون أنهم يفعلون مثل ما تقدم فلم يبالغوا في الامتناع منهم
 ولا هربوا من بين أيديهم فلما ملك الكرج المدينة وضعوا السيف في أهلها وفعلوا من القتل والنهب ما فعل
 بهم التتر هذا جميعه يجرى وصاحب بلاد أذربيجان أوزبك بن البهلوان بمدينة تبريز ولا يتحرك في صلاح
 ولا يتجه لخير بل قد قنع بالاكل وإدمان الشرب والفساد فقبحة الله ويسر للمسلمين من يقوم بنصرهم وحفظ
 بلادهم بمحمد وآله .

(ذكر ملك بدرالدين قلعة شوش) في هذه السنة ملك بدرالدين صاحب الموصل قلعة شوش من

أعمال الحيدية وبينها وبين الموصل اثنا عشر فرسخا وسبب ذلك أنها كانت هي وقلعة العقر متجاورتين لهما الدين زنكي بن أرسلان شاه وكان بينهما من الخلف ما تقدم ذكره فلما كان هذه السنة سار زنكي إلى أذربيجان ليخدم صاحبها أوزبك بن البهلوان فأنصل به وصار معه وأقطمه أقطاعات وأقام عنده سار بدر الدين إلى قلعة شوش فحاصرها وضيق عليها وهي على رأس جبل عال فطال مقامه عليها لحصانتها فماد إلى الموصل وتركه محاصرا لها فلما طال الأمر على من بها ولم يروا من يرحله عنهم ولا من ينجدهم سلخوا على قاعدة استقرت بينهم من أقطاع وخلع وغير ذلك فتسلها نوابه في التاريخ ورتبوا أمورها وعادوا إلى الموصل .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة في العشرين من شعبان ظهر كوكب في السماء في الشرق كبير له ذؤابة طويلة غليظة وكان طلوعه وقت السحر فبقى كذلك عشرة أيام ثم إنه ظهر أول الليل في الغرب مما يلي الشمال فكان كل ليلة يتقدم إلى جهة الجنوب نحو عشرة أذرع في رأى العين فلم يزل يقرب من الجنوب حتى صار غربا محضاً ثم صار غربا مائلا إلى الجنوب بعد أن كان غربا مما يلي الشمال فبقى كذلك إلى آخر شهر رمضان من السنة ثم غاب . وفيها توفي ناصر الدين محمود بن محمد قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وأمد وكان ظالما قبيح السيرة في رعيته قيل إنه كان يتظاهر بمذهب الفلاسفة في أن الأجساد لا تحشر كذبوا لعنهم الله ولما مات ملك ابنه الملك المسعود (١)

(ثم دخلت سنة عشرين وستمائة)

(ذكر ملك صاحب اليمن مكة حرسها الله تعالى) في هذه السنة صار الملك المسعود اتسز بن الملك الكامل محمد صاحب مصر إلى مكة وصاحبها حينئذ حسن بن قتادة بن إدريس العلوي الحسيني قد ملكها بعد أبيه كما ذكرنا ، وكان حسن قد أساء إلى الأشراف والمالِك الذين كانوا آليه ، وقد تفرقوا عنه ولم يبق عنده غير أخواله من غيره فوصل صاحب اليمن إلى مكة ونهها عسكره إلى العصر فحدثى بعض المجاورين المتأهلين أنهم نهبوا حتى أخذوا الثياب عن الناس وأفقروهم ، وأمر صاحب اليمن أن ينبش قبر قتادة ويحرق فنبشوه فظهر التابوت الذي دفنه ابنه الحسن والناس ينظرون إليه فلم يروا فيه شيئا فعملوا حينئذ أن الحسن دفن أباه سرا وأنه لم يجعل في التابوت شيئا وذاق الحسن عاقبة قطيعة الرحم وعجل الله مقابله وأزال عنه ما قتل أباه وأخاه وهم لأجله خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين .

(ذكر حرب بين المسلمين والكرج بأرمينية) في هذه السنة في شعبان سار صاحب قلعة سرماري وهي من أعمال أرمينية إلى خلاط لأنه كان في طاعة صاحب خلاط وهو حينئذ شهاب الدين غازي بن العادل أبي بكر ابن أيوب فحضر عنده واستخلف ببلده أميراً من أمرائه لجمع هذا الأمير جمعا وسار إلى بلاد الكرج فنهب

(١) وفيها توفي قطب الدين العادل بالفيوم ونقل إلى القاهرة . وفيها توفي إمام الخنابلة بمكة . وفيها توفي الشيخ نصر بن أبي الفرج المعروف بابن الحصري ، جاور بمكة مدة لم يسافر ، ثم ساقته المنية إلى اليمن ، فات بها في هذه السنة . قد سمع الحديث من جماعة من المشايخ . وفيها في ربيع الأول توفي بدمشق الشهاب عبد الكريم بن نجم النيل أخو البهاء والناصح ، وكان فقيها مناظرا بصيرا بالمحاكمات . وهو الذي أخرج مسجد الوزير من يد الشيخ علم الدين السخاوي رحمه الله تعالى بمنه وكرمه .

منها عدة قري ، وعاد فسمعت الكرج بذلك فجمع صاحب دوين واسمه شلوة وهو من أكابر أمراء الكرج عسكره وسار إلى سرماري ، فحصرها أياما ونهب بلدها وسوادها ورجع فسمع صاحب سرماري الخبر فعادى إلى سرماري فوصل إليها في اليوم الذي رحل الكرج عنها فأخذ عسكره وتبعهم فأوقع بساقنهم فقتل منهم وغنم واستنقذ ما أخذوا من غنائم بلاده ثم إن صاحب دوين جمع عسكره وسار إلى سرماري ليحصرها فوصل الخبر إلى صاحبها بذلك فحصرها وجمع الذخائر وما يحتاج إليه فأناه من أخبره أن الكرج زلوا بواد بين دوين وسرماري وهو واد ضيق فسار بجميع عسكره جريدة وجد السير ليكبس الكرج فوصل إلى الوادي الذي هم فيه وقت السحر ففرق عسكره فرقتين ، فرقة من أعلى الوادي وفرقة من أسفله ، وحلوا عليهم وهم غافلون ووضعوا السيف فيهم فقتلوا وأسروا فكان في جملة الأسرى شلوة أمير دوين في جماعة كثيرة من مقدميهم ومن سلم من الكرج عاد إلى بلدهم على حال سيئة ثم إن ملك الكرج أرسل إلى الملك الأشرف موسى بن العادل صاحب ديار الجزيرة وهو الذي أعطى خلاط وأعمالها الأمير شهاب الدين يقول له كنا نظن أننا على صلح والآن فقد عمل صاحب سرماري هذا العمل فإن كنا على الصلح فتريد إطلاق أصحابنا من الأسر وإن كان الصلح قد انفسخ بيننا فتعرفنا حتى ندبر أمرنا فأرسل الأشرف إلى صاحب سرماري بأمره بإطلاق الأسرى وتجديد الصلح مع الكرج ففعل ذلك واستقرت قاعدة الصلح وأطلق الأسرى .

(ذكر الحرب بين غياث الدين وبين خاله) في هذه السنة في جمادى الآخرة اهزم إيغان طائسي وهو خال غياث الدين بن خوارزمشاه محمد بن تكش وهذا غياث الدين هو صاحب بلاد الجبل والري وأصبهان وغير ذلك وله أيضا بلاد كرمان وكان سبب ذلك أن خاله إيغان طائسي كان معه وفي خدمته وهو أكبر أمير معه لا يصدر غياث الدين إلا عن رأيه والحكم إليه في جميع المملكة فلما عظم شأنه حدث نفسه بالاستيلاء على الملك وحسن له ذلك غيره وأطعمه فيه قيل إن الخليفة الناصر لدين الله أقطعته البلاد سرا وأمره بذلك فقويت نفسه على الخلاف فاستفسد جماعة من العسكر واستمالهم فلما تم له أمره أظهر الخلاف على غياث الدين وخرج عن طاعته أوزبك وصار في البلاد يفسد ويقطع الطريق وينهب ما أمكنه من القرى وغيرها وانضاف إليه جمع كثير من أهل العنف والفساد ومعه مملوك آخر اسمه أيبك الشامي كما متفقين على العصيان فقوى بهما وساروا جميعهم إلى غياث الدين ليقاتلوه ويملكوا بلاده ويخرجوه منها فجمع غياث الدين عسكره والتقوا بنواحي (٢) واقتلوا فانهزم خال غياث الدين ومن معه وقتل من عسكره وأسر كثير وهاد المنهزمون إلى أذربيجان على أقبح حال وأقام غياث الدين في بلاده وثبت قدمه .

(حادثة غريبة لم يوجد مثلها) كان أهل مملكة الكرج لم يبق منهم غير امرأة وقد انتهى الملك إليها فوليته وقامت بالأمر فيهم وحكمت فطلبوا لها رجلا يتزوجها ويقوم بالملك نيابة عنها ويكون من أهل بيت مملكة فلم يكن فيهم من يصلح لهذا الأمر وكان صاحب أرزن الروم هذا الوقت هو منيخ الدين طغرلشاه بن قلع أرسلان بن مسعود قلع أرسلان وبينه مشهور من أكابر ملوك الإسلام وهم من الملوك السلجوقية وله ولد كبير فأرسل إلى الكرج يطلب الملكة لولده ليتزوجها فامتنعوا من إجابته وقالوا لا نفعل هذا لانتنا لا يمكننا أن يملك أمرنا مسلم فقال لهم إن ابني يتنصر ويتزوجها فأجابوه إلى ذلك فأمر ابنه فتصردان بالنصرانية وتزوج الملكة وانتقل إليها وأقام عند الكرج حاكما في بلاده واستمر على النصرانية نعوذ بالله من الخذلان

ونسأله أن يجعل خير أعمالنا آخرها وخير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم نلقاه ثم كانت هذه الملكة الكرجية تهوى مملوكا لها فكان زوجها يسمع عنها القبايح ولا يمكنه الكلام لعجزه ثم إنه يوما دخل عليها فرآها نائمة مع مملوكها في فراش فأذكر ذلك وواجهها بالمنع منه فقالت إن رضيت بهذا وإلا فأنت أخبر فقال إنني لأرض بهذه فنقلته إلى بلد آخر ووكلت به من يمنع من الحركة وحجرت عليه وأرسلت إلى بلد اللان وأحضرت رجلين كانا قد وصفا بحسن الصورة فتزوجت أحدهما فبقي معها يسيرا ثم إنهما فارقت وأحضرت إنسا ما آخر من كنجة وهو مسلم فطلبت منه أن يتنصر ليتزوجها فلم يفعل فأرادت أن تزوجه وهو مسلم فقام عليها جماعة الأمراء ومعهم إيوانى وهو مقدم العساكر الكرجية فقالوا لها قد افتضحنا بين الملوك بما تفعلين ثم تريدن أن يتزوجك مسلم وهذا لا يمكن منه أبدا والامر بينهم متردد والرجل الكنجى عندهم لم يجهم إلى الدخول فى النصرانية وهى تهواه .

(ذكر عدة حوادث) فى هذه السنة كان الجراد فى أكثر البلاد وأهلك كثيرا من الغلات والخضر بالعراق والجريرة وديار بكر وكثير من الشام وغيرها . وفيها فى رمضان توفى عبدالرحمن بن هبة الله بن عساكر الفقيه الشافعى الدمشقى بها وكان غزير العلم عالما بالمذهب كثير الصلاح والزهد والخير رحمه الله . وفيها تجمع العرب فى خلق كثير على حجاج الشام وأرادوا قطع الطريق عليهم وأخذهم وكان الأمير على الحجاج شرف يعقوب بن محمد وهو من أهل الموصل أقام بالشام وتقدم فيه فندعهم بالرغبة والرهبه ثم صانعهم بمال وثياب وغير ذلك فأعطى الجميع من ماله ولم يأخذ من الحجاج الدرهم الفرد وفعل فعلا جميلا وكان عنده كثير من العلوم ويرجع إلى دين متين . (١)

(ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وستائة)

(ذكر عودة طائفة من التتر إلى الري وهمدان وغيرهما) أول هذه السنة وصل طائفة من التتر من هند

(١) وفيها توفى الشيخ أبو الحسن الروزبهارى دفن بالمكان المنسوب إليه عند باب الفرايس . وفيها توفى الشيخ عبدالرحمن البهي كان مقيا بالمنارة الشرقية ، كان صالحا زاهدا ورعا وفيه مكارم أخلاق ، ودفن بقابر الصوفية . وفيها توفى الرئيس عز الدين المظفر بن أسعد بن حمزة التميمي ابن القلانسي ، أحد رؤساء دمشق وكبرائها ، وجدته أبو يعلى حمزة له تاريخ ذيل به على ابن عساكر ، وقد سمع عز الدين هذا الحديث من الحافظ أبي القاسم ابن عساكر وغيره ، ولزم مجالسة الكندي وانتفع به . وفيها توفى الأمير الكبير أحد حجاب الخليفة محمد بن سليمان بن قتلش ابن تركانشاه بن منصور السمرقندي ، وكان من أولاد الأمراء ، وولى حاجب الحجاب بالهيوان العزيز الخليفى ، وكان يكتب جيدا وله معرفة حسنة بعلوم كثيرة ، منها الأدب وعلوم الرياضة ، وعمردهما وله حظ من نظم الشعر الحسن ومن شعره قوله :

سمت تكاليف هذى الحياة • وكذا الصباح بها والمساء
وقد كنت كالطفل فى عقله • قليل الصواب كثير الهراء
أنام إذا كنت فى مجلس • وأسهر عند دخول الغناء
وقصر خطوى قيد المشيب • وطال على ما عناقى عناء
وغودرت كالفرخ فى عشه • وخلفت حلى وراء وراء
وما جر ذلك ضمير البقاء • فكيف بدأ سوء فعل البقاء

ملكهم جتکزغان وهؤلاء غير الطائفة الغربية التي ذكرنا أخبارها قبل وصول هؤلاء الري وكان من سلم من أهلها قد عادوا إليها وعمروها فلم يشعروا بالتر إلا وقد وصلوا إليهم فلم يمتنعوا عنهم فوضعوا في أهلها السيف وقتلوا كيف شاؤوا ونهبوا البلد وخرّبوه وساروا إلى ساوة ففعلوا بها كذلك ثم إلى قم وقاشان وكاتنا قد سلنا من التتر أولا فانهم لم يقربوها ولا أصاب أهلها أذى فأتاهما هؤلاء وملكوهما وقتلوا أهلها وخرّبوها وألحقوها بغيرهما من البلاد الخراب، ثم ساروا في البلاد يخربون ويقتلون وينهبون ثم قصدوا همدان وكان قد اجتمع بها كثير من سلم من أهلها فأبادوهم قتلا وأسرا ونهبوا البلد وكانوا لما وصلوا إلى الري رأوا بها عسكرا كثيرا من الخوارزمية فكبسوهم وقتلوا منهم وانهمز الباقون إلى أذربيجان فزلوا بأطرافها فلم يشعروا إلا والتر أيضا قد كبسوهم ووضعوا السيف فيهم فولوا منهزمين فوصل طائفة منهم إلى تبريز وأرسلوا إلى صاحبها أوزبك بن البهلوان يقولون إن كنت موافقا فسلم إلينا من عندك من الخوارزمية وإلا فرقتنا أنك غير موافق لنا ولا في طاعتنا فعمد إلى من عنده من الخوارزمية فقتل بعضهم وأسر بعضهم وحمل الأسرى والرؤس إلى التتر وأنفذ معها من الأموال والثياب والدواب شيئا كثيرا، فعادوا عن بلاده نحو خراسان فعلوا هذا وليسوا في كثرة كانوا نحو ثلاثة آلاف فارس وكان الخوارزمية الذين انهزموا منهم نحو ستة آلاف فارس وعسكر أوزبك أكثر من الجميع ومع هذا فلم يحدث نفسه ولا الخوارزمية بالامتناع منهم نسأل الله أن يبسر للإسلام والمسلمين من يقوم بنصرتهم فقد دفعوا إلى أمر عظيم من قتل النفوس ونهب الأموال واسترقاق الأولاد وسبي الحرير وقتلهم وتخريب البلاد.

(ذكر ملك غياث الدين بلاد فارس) قد ذكرنا أن غياث الدين بن خوارز مشاه محمد كان بالري وله معها أصفهان وهمدان وما بينهما من البلاد وله أيضا بلاد كرمان فلما هلك أبوه كما ذكرناه وصل التتر إلى بلاده وامتنع بأصفهان وحصره التتر فيها فلم يقدرها عليها فلما فارق التتر بلاده وساروا إلى بلاد قفجاق عاد وملك البلاد وعمر ما أمكنه منها وأقام بها إلى أواخر سنة عشرين وستمئة وجرى له ما ذكرناه في آخر سنة عشرين سار إلى بلاد فارس فلم يشعر صاحبها وهو أتابك سعد بن دكلا إلا وقد وصل غياث الدين إلى أطراف بلاده، فلم يتمكن من الامتناع فقصد قلعة اصطخر فاحتجى بها وسار غياث الدين إلى مدينة شيراز وهي كرمي ملكة فارس وأكبرها وأعظمها فلما بلغها بغير تعب أول سنة إحدى وعشرين وستمئة وبقي غياث الدين بها واستولى على أكثر البلاد ولم يبق بيد سعد الدين إلا الحصون المنيعه فلما طال الأمر على سعد الدين صالح غياث الدين على أن يكون لسعد الدين من البلاد قسم اتفقوا عليه ولغياث الدين الباقي وأقام غياث الدين بشيراز وازداد إقامة وعزما على ذلك لما سمع أن التتر قد عادوا إلى الري والبلاد التي له وخرّبوها.

(ذكر حصيان شهاب الدين غازي على أخيه الملك الأشرف وأخذ خلاط منه) كان الملك الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب قد أقطع أخاه شهاب الدين غازي مدينة خلاط وجميع أعمال أرمينية وأضاف إليها ميفارقين وحاني وجبل جور ولم يقنع بذلك حتى جعله ولي عهده في البلاد التي له جميعها وحاف له جميع النواب والعساكر في البلاد فلما سلم إليه أرمينية سار إليها كما ذكرناه وأقام بها إلى آخر سنة عشرين وستمئة فأظهر مغاضبة أخيه الملك الأشرف والتجنى عليه والحصيان والخروج عن طاعته فراسله الأشرف يستميله ويعاتبه على ما فعل فلم يرعو ولا ترك ما هو عليه بل أصر على ذلك وانفق هو وأخوه المعظم عيسى صاحب (٤٥ - كامل - ٩)

دمشق ومظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل على الخلاف للأشرف والاجتماع على محاربه وأظهروا ذلك وعلم الأشرف فأرسل إلى أخيه الكامل بمصر يعرفه ذلك وكأما متفقين وطلب منه نجدة لجهز العساكر وأرسل إلى أخيه صاحب دمشق يقول له إن تحركت من بلدك سرت إليه وأخذته وكان قد سار نحو ديار الجزيرة للبيعاد الذي بينهم فلما وصلت إليه رسالة أخيه وسمع بتجهيز العساكر عاد إلى دمشق وأما صاحب إربل فإنه جمع العساكر وسار إلى الموصل فكان منه ما ذكره إن شاء الله وأما الأشرف فإنه لما اتفق عصيان أخيه جمع العساكر من الشام والجزيرة والموصل وسار إلى خلاط فلما قرب منها خافه أخوه غازي ولم يكن له قوة على أن يلقاه محاربا ففرق عسكره في البلاد ليحصنها وانتظر أن يسير صاحب إربل إلى ما يجاوره من الموصل ومنجار وأن يسير أخوه صاحب دمشق إلى بلاد الأشرف عند الفرات الرقة وحران وغيرهما فيضطر الأشرف حينئذ إلى العود عن خلاط فسار الأشرف إليه وقصد خلاط وكان أهلها يريدونه ويختارون دولته لحسن سيرته كانت فيهم وصوه سيرة غازي فلما حصرها سلمها أهلها إليه يوم الإثنين ثاني عشر جمادى الآخرة وبقي غازي في القاعة ممتعا فلما جنه الليل نزل إلى أخيه معتذرا ومتصلا فعاتبه الأشرف وأبقى عليه ولم يعافيه على فعله لكن أخذ البلاد منه وأبقى عليه ميافارقين .

(ذكر حصار صاحب إربل الموصل) قد ذكرنا اتفاق مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على صاحب إربل وشهاب الدين غازي صاحب خلاط والمعظم عيسى صاحب دمشق على قصد بلاد الملك الأشرف فأما صاحب دمشق فإنه سار عنها مراحل يسيرة وعاد إليها لأن أخاه صاحب مصر أرسل إليه يتهدده إن سار عن دمشق أنه يقصدها ويحصرها فعاد وأما غازي فإنه استحصر في خلاط وأخذت منه كما ذكرناه وأما صاحب إربل فإنه جمع عسكره وسار إلى بلد الموصل وحصرها ونازلها يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة ظاناً منه أن الملك الأشرف إذا سمع بنزوله عليها رحل عن خلاط ويخرج غازي في طلبه فتتخبط أحواله وتقوى نفس صاحب دمشق على الحجى إليهم فلما نازل الموصل كان صاحبها بدر الدين لؤلؤ قد أحكم أمورهما من استخدام الجند على الأسوار وإظهار آلة الحصار وإخراج الذخائر وإنما قوى طمع صاحب إربل على حصر الموصل لأن أكثر عسكرها كان قد سار إلى الملك الأشرف إلى خلاط وقد قل العسكر فيها وكان الغلاء شديداً في البلاد جميعها والسعر في الموصل كل ثلاث مكاي بدينار فلهذا السبب أقدم على حصرها فلما نزل عليها أقام عشرة أيام ثم رحل عنها يوم الجمعة لسبع بقين من جمادى الآخرة وكان سبب رحيله أنه رأى امتناع البلد عليه وكثرة من فيه وهدم من الذخائر ما يكفيهم الزمان الكثير ووصل إليه خبر الملك الأشرف أنه ملك خلاط فأنفخ عاياه كل ما كان يؤمله من صاحبها ومن دمشق وبقي وحده متلبساً بالأمر فلما وصلت الأخبار إليه بذلك سقط في يده ورأى أنه قد أخطأ الصواب فرحل عائداً إلى بلده وأقام على الزاب ومدة مقامه على الموصل لم يقاتلها إنما كان في بعض الأوقات يحجى بعض الترك الذين له يقاتلون البلد فيخرج إليهم بعض الفرسان وبعض الرجال فيجري بينهم قتال ليس بالكثير ثم يتفرقون وترجع كل طائفة إلى صاحبها .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة أول آب جاء ببغداد مطر برعد وبرق وجرت المياه بباب البصرة والخريبة وكذلك بالمحول بحيث إن الناس كانوا يخوضون في الماء والوحل بالمحول . وفيها سار صاحب المخزن إلى يعقوباً في ذي القعدة فعسف أهلها فنقل إليه عن إنسان منها أنه يسبه فأحضره وأمر بمعاقبته وقال له لم تسبني فقال له

انتم تسبون أبا بكر وهر لاجل أخذهما فندك وهي عشر نخلات لفاطمة عليها السلام وأنتم تأخذون مني الف نخلة ولا أتكلم فغفا عنه . وفيها وقعت فتنة بواسطة بين السنة والشيعة على جاري عادتكم . وفيها قلت الأمطار في البلاد فلم يجيء منها شيء . إلى شباط ثم إنها كانت تجيء في الأوقات المتفرقة بحيثاً قريباً لا يحصل منه الري للزرع فجاءت الغلات قليلة ثم خرج عليها الجراد ولم يكن في الأرض من النبات ما يشتغل به عنها فأكلها إلا القليل وكان كثيراً خارجاً عن الحد فغلت الأسعار في العراق والموصل وسائر ديار الجزيرة وديار بكر وغيرها وقلت الأقوات إلا أن أكثر الغلاء كان بالموصل وديار الجزيرة (١) .

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وستمائة ﴾

(ذكر حصر الكرج مدينة كنجية) في هذه السنة سارت الكرج في جموعها إلى مدينة كنجية من بلاد أران فصدا لحصرها وامتدوا لها بما أمكنهم من القوة لأن أهل كنجية كثير هدمهم قوية شوكتهم وهندهم شجاعة كبيرة من طول عارستهم للحرب مع الكرج ، فلما وصلوا إليها وقاربوا قاتلوا أهلها عدة أيام من وراء السور ولم يظهر من أهلها أحد ، ثم في بعض الأيام خرج أهل كنجية ومن عندهم من العسكر من البلد وقاتلوا الكرج بظاهر البلد أشد قتال وأعظمه فلما رأى الكرج ذلك علموا أنهم لا طاقة لهم بالبلد فرحلوا بعد أن أثنى أهل كنجية فيهم (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً) .

(ذكر وصول جلال الدين بن خوارزمشاه إلى خوزستان والعراق) في أول هذه السنة وصل جلال الدين ابن خوارزمشاه محمد بن تكش إلى بلاد خوزستان والعراق وكان مجيئه من بلاد الهند لأنه كان وصل إليها لما قصد التتر غزوة وقد ذكرنا ذلك فلما تعذر عليه المقام ببلاد الهند سار عنها على كرمان ووصل إلى أصفهان وهي بيد أخيه غياث الدين وقد تقدمت أخباره فملكها وسار عنها إلى بلاد فارس وكان أخوه قد استولى على بعضها كما ذكرناه . فأعاد ما كان أخوه أخذه منها إلى أتابك سعد صاحبها وصالحه وسار من عنده إلى خوزستان فحصر مدينة تستر في المحرم وبها الأمير مظفر الدين المعروف بوجه السبع مملوك الخليفة الناصر لدين الله ، حافظها وأميراً عليها فحصره جلال الدين وضيق عليه فحفظها وجه السبع وبالغ في الحفظ والاحتياط وتفرق الخوارزمية ينهبون حتى وصلوا إلى بادرايا وباكسايا وغيرهما وانحدر بعضهم إلى ناحية البصرة فتهبوا هنالك فصار إليهم شحنة البصرة وهو الأمير ملتكين فأوقع بهم وقتل منهم جماعة ، فدام الحصار نحو شهرين ثم رحل عنها بغتة وكانت عساكر الخليفة مع مملوكه جمال الدين قشتمر بالقرب منه ، فلما رحل جلال الدين لم يقدر العسكر على منعه فسار إلى أن وصل إلى يعقوما وهي قرية مشهورة بطريق خراسان بينها وبين بغداد نحو سبعة

(١) وفيها توفي محمد بن أبي الفرج بن بركة الشيخ نضر الدين أبو المعالي الموصلی ، قدم بغداد واشتغل بالنظامية وأعادها ، وكانت له معرفة بالقراءات ، وصنف كتاباً في مخارج الحروف ، وأسنده الحديث وله شعر لطيف . وفيها توفي أبو بكر بن حلبة الموازي البغدادي كان فرداً في علم الهندسة وصناعة الموازين يخترع أشياء عجيبية ، من ذلك أنه ثقب حبة خشخاش سبعة ثقوب وجعل في كل ثقب شعرة ، وكان له حظوة عند الدولة . وفيها توفي أيضاً أحمد بن جعفر بن أحمد بن محمد أبو العباس الديلمي البيهقي الواسطي ، شيخ أديب فاضل له نظم ونثر ، عارف بالأخبار والسير ، وعنده كتب جيدة كثيرة ، وله شرح قصيدة لأبي العلاء المعري في ثلاث مجلدات ، وقد أورد له بن الساعي شعراً حسناً فصيحاً حلوا لذيقاً في السمع لطيفاً في القلب .

فراسخ فلما وصل الخبر إلى بغداد تجهزوا للحصار وأسلحوا السلاح من الجروح والقسى والنشاب والنفط وغير ذلك وعاد عسكر الخليفة إلى بغداد ، وأما عسكر جلال الدين فهب البلاد وأهلها ، وكان قد وصل هو وعسكره إلى خوزستان في ضر شديد وجهد جهيد وقلة من الدواب ، والذي معهم فهو من الضعف إلى حد لا ينتفع به فغنموا من البلاد جميعها واستغنوا وأكثروا من أخذ الخيل والبغال فإنهم كانوا في غاية الحاجة إليها وسار من يعقوبا إلى دقوقا فحصرها فصعد أهلها إلى السور وقاتلوه وسبوه وأكثروا من التكبير فغضب ذلك عنده وشق عليه وجد في قتالهم ففتحها هنوة وقهرا ونهبتا عساكره وقتلوا كثيرا من أهلها فهرب من سلم منهم من القتل وتفرقوا في البلاد ولما كان الخوارزميون على دقوقا سارت سرية منهم إلى البت والراذان فهرب أهلها إلى تكريت فتبعهم الخوارزميون فجرى بينهم وبين عسكر تكريت وقعة شديدة فعادوا إلى العسكر ولقد رأيت بعض أعيان أهل دقوقا وهم بنو يعلى وهم أغنياء فتهبوا وسلم أحدهم ومعه ولدان له وشيء يسير من المال فسير ما سلم معه إلى الشام مع الولدين ليتجر بما ينتفعون به وينفقوه على نفوسهم فمات أحد الولدين بدمشق واحتاط الحاكم على مامعهم فلقد رأيت أباهم على حالة شديدة لا يعلمها إلا الله يقول أخذت الأملاك وقتل بعض الأهل وفارقنا من سلم منهم والوطن بهذا القدر الحقيير أردنا نكف به وجوهنا من السؤال ونصون أنفسنا فقد ذهب الولد والمال ثم سار إلى دمشق ليأخذ ما سلم مع ابنه الآخر فأخذه وعاد إلى الموصل ، فلم يبق غير شهر حتى توفي . إن الشقى بكل جبل يخفق . وأما جلال الدين فإنه لما فعل بأهل دقوقا ما فعل خافه أهل البوازيج ، وهي لصاحب الموصل فأرسلوا إليه يطلبون منه إرسال شحنة إليهم يحميمهم ويدلوا له شيئا من المال فأجابهم إلى ذلك ونير إليهم من يحميمهم ، قيل كان بعض أولاد جنكزخان ملك التتر أسره جلال الدين في بعض حروبه مع التتر فأكرمه فخاهم وأقام بمكاه إلى أواخر ربيع الآخر والرسل مترددة بينه وبين مظفر الدين صاحب إربل فأضطجوا فسار جلال الدين إلى أذربيجان ، وفي مدة مقام جلال الدين بخوزستان والعراق ثارت العرب في البلاد يقطعون الطريق وينهبون القرى ويخيفون السبيل فقال الخلق منهم أذى شديد وأخذوا في طريق العراق قفلين عظيمين كانوا سائرين إلى الموصل فلم يسلم منهم شيء البتة .

(ذكر وفاة الملك الأفضل وغيره من الملوك) في هذه السنة في صفر توفي الملك الأفضل علي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب فجأة بقلعة سميساط وكان عمره نحو سبع وخمسين سنة ، وقد ذكرنا سنة تسع وثمانين وخمسمائة عند وفاة والده رحمه الله ملكة مدينة دمشق والبيت المقدس وغيرهما من الشام وذكرنا سنة اثنتين وتسعين أخذ الجميع منه ، ثم ذكرنا سنة خمس وتسعين ملكة ديار مصر ، وذكرنا سنة ست وتسعين أخذها منه واتقل إلى سميساط وأقام بها ولم يزل بها إلى الآن فتوفي بها وكان رحمه الله من محاسن الزمان ثم يكنى في الملوك مثله كان خيرا عادلا فاضلا حلما كريما قل إن عاقب على ذنب ولم يمنع طالبا وكان يكتب خطا حسنا وكتابة جيدة وبالجملة ، فاجتمع فيه من الفضائل والمناقب ما تفرق في كثير من الملوك لاجرم حرم الملك والدنيا وعاداه الدهر وما به بموته كل خلق جميل وفعل حميد فرحمه الله ورضى عنه ورأيت من كتابته أشياء حسنة ، فما بقي على خاطري منها أنه كتب إلى أصحابه لما أخذت دمشق منه كتاباً من نصوله ، وأما أصحابنا بدمشق فلا علم لي بأحد منهم وسبب ذلك أني :

أى صديق سألت عنه فني الذل وتحت الخمول في الوطن

وأي ضد سألت حالته سمعت مالا نخبه أذني

فركت السؤال عنهم وهذا غاية الجودة في الاعتذار، عن ترك السؤال عنهم، ولما مات اختلف أولاده وعمهم قطب الدين موسى، ولم يقو أحد منهم على الباقي، ليستبد بالامر، ومات في هذه السنة صاحب أرزن الروم، وهو مغيث الدين طغرل بن قلاج أرسلان، وهو الذي سير ولده إلى الكرج، وتنصر وتزوج ملكة الكرج، ولما مات ملك بعده ابنه ومات فيها ملك أرزنكان، وتوفي فيها عز الدين الحضرمي بن إبراهيم بن أبي بكر بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان صاحب خرت برت وملك بعده ابنه نور الدين أرتق شاه وكان المدبر لدولته ودولة والده معين الدين عبد الرحمن.

(ذكر خلع شروان شاه وظفر المسلمين بالكرج) في هذه السنة ثار على شروان شاه ولده فنزعه من الملك وأخرجه من البلاد وملك بعده وسبب ذلك أن شروان شاه كان سيء السيرة كثير الفساد والظلم يتعرض إلى أموال الرعايا وأملاكهم وقيل أيضا إنه كان يتعرض إلى النساء والولدان فاشتدت وطأته على الناس فاتفق بعض العسكر مع ولده وأخرجوا أباه من البلاد وملك الابن وأحسن السيرة فأحبه العساكر والرعية وأرسل الولد إلى أبيه يقول له إنني أردت أن أتركك في بعض القلاع وأجرى لك الجرايات الكثيرة ولكل من تحب أن يكون عندك والذي حملني على ما فعلت معك سوء سيرتك وظلمك لأهل البلاد وكراهيتهم لك ولدولتك فلما رأى الأب ذلك سار إلى الكرج واستنصر بهم وقرعهم أن يرسلوا معه عسكرا يعيدونه إلى ملكه ويعطيهم نصف البلاد فسيروا معه عسكرا كثيرا فسار حتى قارب مدينة شروان فجمع ولده العسكر وأعلمهم الحال وقال إن الكرج متى حصرنا ربما ظفروا بنا وحينئذ لا يبقى أبي على أحد منا وبأخذ الكرج نصف البلاد وربما أخذوا الجميع وهذا أمر عظيم إننا نسير إليهم جريدة ونلقاهم فإن ظفروا بهم فالحمد لله وإن ظفروا بنا فالخسر بين أيدينا فأجابوه إلى ذلك فخرج في عسكره وهم قليل نحو ألف فارس ولقوا الكرج وهم في ثلاثة آلاف مقاتل فالتقوا واقتتلوا وصبر أهل شروان فانهمز الكرج فقتل كثير منهم وأسر كثير ومن سلم عاد بأسوأ حال وشروان شاه المخلوع معهم فقال له مقدموا الكرك إننا لم نناق بسبيك خيرا ولا نؤاخذك بما كان منك فلا تقم ببلادنا ففارقهم وبقي متردداً لا يأوي إلى أحد واستقر ولده في الملك وأحسن إلى الجند والرعية وأعاد إلى الناس أملاكهم ومصادراتهم فاغتنبوا بولايته.

(ذكر ظفر المسلمين بالكرج أيضا) وفي هذه السنة أيضا سار جمع من الكرج من تفلين يقصدون أذربيجان والبلاد التي بيد أوزبك فنزلوا وراء مضيق في الجبال لا يسلك إلا للفارس معه الفرس فنزلوا آمنين من المسلمين استضعافا لهم واغترارا بحصانة موضعهم وأنه لا طريق إليهم وركب طائفة من العساكر الإسلامية وقصدوا الكرج فوصل إلى ذلك المضيق فجازوه مخاطرين فلم يشعر الكرج إلا وقد غشيه المسلمون ووضعوا فيهم السيف فقتلواهم كيف شاؤوا وولى الباقون منهزمين لا يلوى والد على ولده ولا أخ على أخيه وأسر منهم جمع كثير صالح فعظم الأمر عليهم وعزموا على الأخذ بثارهم والجد في قصد أذربيجان واستئصال المسلمين منه وأخذوا يتجهزون على قدر عزمهم فبينما هم في ذلك إذ وصل إليهم الخبر بوصول جلال الدين بن خوارزمشاه إلى مراغة على ما ذكره إن شاء الله فتركوا ذلك وأرسلوا إلى أوزبك صاحب أذربيجان يدعونه إلى الموافقة على رد جلال الدين وخوفوه منه إن لم تتفق نحن وأنت وإلا أخذك ثم أخذنا فعاجلهم جلال الدين قبل

اتفاقهم واجتماعهم فكان ما ذكره إن شاء الله تعالى .

(ذكر ملك جلال الدين أذربيجان) في هذه السنة استولى جلال الدين على أذربيجان وسبب ذلك أنه لما سار من دقوفا كما ذكرناه قصد مراغة فلما وصلها وأقام بها رشح في عمرة البلد فاستحسنه فلما وصل إليها أتاه الخبر أن الأمير أيغان طائيسى وهو خال أخيه غياث الدين قد قصد همذان قبل وصول جلال الدين بيومين وكان أيغان طائيسى بمذا قد جمع عسكرا يتجاوز خمسين ألف فارس ونهب كثيرا من أذربيجان وسار إلى البحر من بلد أران فشتى هنالك لقلة البرد ولما عاد إلى همذان نهب أذربيجان أيضا مرة ثانية وكان سبب مسيره إلى همذان أن الخليفة الناصر لدين الله راسله وأمره بقصد همذان وأقطعه إياها وغيرها فسار ليستولى عليها كما أمر فلما سمع جلال الدين بذلك سار جريدة إليه فوصل إلى أيغان طائيسى ليلا وكان إذا نزل جعل حول عسكره جميع ما غنموا من أذربيجان وأران من خيل وبغال وحمير وبقر وغنم فلما وصل جلال الدين أحاط بالجميع فلما أصبح عسكر أيغان طائيسى ورأى العسكر والجرتر الذي يكون على رأس السلطان علموا أنه جلال الدين فسقط في أيديهم لأنهم كانوا يظنون أنه عند دقوفا فأرسل أيغان طائيسى زوجته وهي أخت جلال الدين تطلب له الأمان فأمنه وأحضره عنده وانضاف عسكره إلى جلال الدين وبقي أيغان طائيسى وحده إلى أن أضاف إليه جلال الدين عسكرا غير عسكره وعاد إلى مراغة وأعجبه المقام بها وكان أوزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان وأران قد سار من تبريز إلى كنجة خوفا من جلال الدين وأرسل جلال الدين إلى من في تبريز من وال وأمير ورئيس يطلب منهم أن يتردد عسكره إليهم يمتارون فأجابوه إلى ذلك وأطاعوه فتردد العسكر إليها وباعوا واشتروا الأقوات والكسوات وغيرها ومدوا أيديهم إلى أموال الناس فكان أحدهم يأخذ الشيء ويعطى الثمن ما يريد فشكا بعض أهل تبريز إلى جلال الدين منهم فأرسل إليهم شحنة يكون عندهم وأمره أن يقيم بتبريز ويكتب أيدي الجند عن أهلها ومن تعدى على أحد منهم صلبه فأقام الشحنة ومنع الجند من التعدى على أحد من الناس وكانت زوجة أوزبك وهي ابنة السلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه مقيمة بتبريز وهي كانت الحاكمة في بلاد زوجها وهو مشغول بلذاته من أكل وشرب ولعب ثم إن أهل تبريز شكوا من الشحنة وقالوا إنه يكلفنا أكثر من طاقتنا فأمر جلال الدين إياه لا يعطى إلا ما يقيم به لا غير ففعلوا ذلك وسار جلال الدين إلى تبريز وحصرها خمسة أيام وقاتل أهلها قتالا شديدا وزحف إليها فوصل العسكر إلى السور فأذعن أهلها بالطاعة وأرسلوا يطلبون الأمان منه لأنه كان يذمهم ويقول قتلوا أصحابنا المسلمين وأرسلوا رؤسهم إلى التتر الكفار وقد تقدمت الحادثة سنة إحدى وعشرين وستمائة فخافوا منه لذلك فلما طلبوا الأمان ذكر لهم فعلهم بأصحاب أبيه وقتلهم فاعتذروا بأنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك وإنما فعله صاحبهم ولم يكن لهم من القدرة ما يمنعونه فمذرهم وأمرهم وطلبوا منه أن يؤمر زوجته أوزبك ولا يعارضها في الذي لها بأذربيجان ومدينة خوى وغيرها من ملك ومال وغيره فأجابهم إلى ذلك وملك البلد صابع عشر رجب من هذه السنة وسير زوجته أوزبك إلى خوى ومعها طائفة من العسكر مع رجل كبير القدر عظيم المنزلة وأمرهم بخدمةها فإذا وصلت إلى خوى عادوا عنها ولما رحل جلال الدين إلى تبريز أمر أن لا يمنعوا عنه أحدا من أهلها فأناه الناس مسامحين عليه فلم يجربوا عنه وأحسن إليهم وبث فيهم العدل ووعدهم بالإحسان والزيادة منه وقال لهم قد رأيتم ما فعلت بمراغة من الإحسان والعمارة بعد أن كانت خرابا وسترون كيف أصنع معكم من العدل فيكم

وعماره بلادكم وأقام إلى يوم الجمعة فحضر الجامع فلما خطب الخطيب ودعا للخليفة قام قائما ولم يزل كذلك حتى فرغ من الدعاء وجلس ودخل إلى كشك كان أوزبك قد عمره وأخرج عليه من الأموال كثيرا فهو في غاية الحسن مشرف على البساتين فلما طاف فيه خرج منه وقال وهذا مسكن الكسالى لا يصلح لنا وأقام أياما استولى فيها على غيرها من البلاد وسير الجيوش إلى بلاد الكرج .

(ذكر انهزام الكرج من جلال الدين) قد ذكرنا فيما تقدم من السنين ما كان الكرج يفعلونه في بلاد الإسلام خلاط وأعمالها وأذربيجان وأران وأرزن الروم ودر بند شروان وهذه ولايات تجاور بلادهم وما كانوا يسفكون من دماء المسلمين وينهبون من أموالهم ويملكون من بلادهم والمسلمون معهم في هذه البلاد تحت الذل والخزي كل يوم قد أغاروا وفتكوا فيهم وقاطعواهم على ماشاؤا من الأموال فكنا كلما سمعنا بشيء من ذلك سألنا الله تعالى نحن والمسلمون في أن ييسر للإسلام والمسلمين من يحميهم وينصرهم ويأخذ بثأرهم فإن أوزبك صاحب أذربيجان منعكف على شهوة بطنه وفرجه لا يفيق من سكره وإن أفاق فهو مشغول بالفتار بالبيض وهذا ما لم يسمع أن أحدا من الملوك فعله لا يتهدى لمصلحة ولا يغضب لنفسه بحيث إن بلاده مأخوذة وعساكره طاعة ورعيته قد قهرها وقد كان كل من أراد أن يجمع جمعا ويتغلب على بعض البلاد فعل كما ذكرناه من حال بغدى وأبيك الشامى وإيغان طائيسى فنظر الله تعالى إلى أهل هذه البلاد المساكين بعين الرحمة فرحمهم ويسر لهم جلال الدين هذا ففعل بالكرج ما تراه وانتقم للإسلام والمسلمين منهم فنقول في هذه السنة كان المصاف بين جلال الدين وبين الكرج في شهر شعبان فإن جلال الدين من حين قصد إلى هذه النواحي لا يزال يقول إننى أريد أقصد بلاد الكرج وأقاتلهم وأملك بلادهم فلما ملك أذربيجان أرسل إليهم يؤذهم فأجابوه بأننا قد قصدنا التتر الذين فعلوا بأبيك وهو أعظم منك ملكا وأكثر عسكرا وأقوى نفسا ما تعلمه وأخذوا بلادكم فلم نبال بهم وكان قصارهم السلامة منا وشرعوا يجمعون العساكر لجمعوا ما يزيد على سبعين ألف مقاتل . فسار إليهم فملك مدينة دوين وهى للكرج كانوا قد أخذوها من المسلمين كما ذكرناه وسار منها إليهم فلقوه وقاتلوه أشد قتال وأعظمه وصبر كل منهم لصاحبه فانهزم الكرج وأمر أن يقتلوا بكل طريق ولا يبقوا على أحد منهم فالذى تحققنا أنه قتل منهم عشرون ألفا وقيل أكثر من ذلك فقتل الكرج جميعهم قتلوا واقتروا وأسر كثير من أعيانهم من جملتهم شلوة فتمت الهزيمة عليهم ومضى إيوانى منهزما وهو المقدم على الكرج جميعهم ومرجعهم إليه ومعولم عليه وليس لهم ملك إنما الملك امرأة ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة فلما انهزم إيوانى أدركه الطلب فصعد قلعة لهم على طريقهم فاحتوى فيها وجعل جلال الدين عليها من يحصرها ويمنع من النزول وفرق عساكره في بلاد الكرج ينهبون ويقتلون ويسبون ويخربون البلاد فلولا ما أتاه من تبريز مما أوجب عوده لملك البلاد بغير تعب ولا مشقة لأن أهلها كانوا قد هلكوا فهم بين قتل وأسير وطريد .

(ذكر عود جلال الدين إلى تبريز وملكه مدينة كنجة ونكاحه زوجة أوزبك) لما فرغ جلال الدين من هزيمة الكرج ودخل البلاد وبث العساكر فيها أمرهم بالمقام بهامع أخيه غياث الدين وعاد إلى تبريز وسبب عوده أنه كان قد خلف وزيره شرف الملك في تبريز ليحفظ البلد وينظر في مصالح الرعية فبلغه عن رئيس تبريز وشمس الدين الطغرائى وهو المقدم على كل من فى البلد وعن غيرها من المقدمين أنهم قد اجتمعوا وتحالفوا

على الامتناع على جلال الدين وإعادة البلد إلى أوزبك وقالوا إن جلال الدين قد قصد بلاد الكرج فلا يقدر على المقام ويجتمع أوزبك والكرج ويقصدونه فينحل نظام أمره وتم عليه الهزيمة فبنوا أمرهم على إن جلال الدين يسير الهوينا إلى بلاد الكرج ويترث في الطريق احتياطا منهم فلما اتفقوا على ذلك أتى الخبر إلى الوزير فأرسل إلى جلال الدين يعرفه الحال فأناه الخبر وقد قارب بلاد الكرج فلم يظهر من ذلك شيئا وسار نحو الكرج مجدا فلقبهم وهزمهم فلما فرغ منهم قال لأمرأه عسكره إنني قد بلغني من الخبر كذا وكذا فتقيمون أنتم في البلاد على ما أنتم عليه من قتل من ظفرتم به وتخريب ما أمكنكم من بلادهم فإنني خفت أن أهرقكم قبل هزيمة الكرج لئلا يلحقكم وهن وخوف فأقاموا على حالهم وعاد هو إلى تبريز وقبض على الرئيس والطغرائي وغيرهما فأما الرئيس فأمر أن يطاف به على أهل البلد وكل من له عليه مظلمة فليأخذها منه وكان ظالما ففرح الناس بذلك ثم قتله وأما الباقر فحبسوا فلما فرغ منهم واستقام له أمر البلد تزوج زوجة أوزبك ابنة السلطان طغرل وإنما صح له نكاحها لأنه ثبت هن أوزبك أنه حلف بطلاقها أنه لا يقتل مملوكا له اسمه ثم قتله فلما وقع الطلاق بهذا اليمين نكحها جلال الدين وأقام بتبريز مدة وسير منها جيشا إلى مدينة كنجة فلكوها وفارقها أوزبك إلى قلعة كنجة فتحصن فيها فبلغني أن عساكر جلال الدين تعرضوا إلى أعمال هذه القلعة بالنهب والأخذ فأرسل أوزبك إلى جلال الدين يشكو ويقول كنت لأرضى بهذه الحال لبعض أصحابي فأنا أسأل أن تكف الأيدي المتطرفة إلى هذه الأعمال عنها فأرسل جلال الدين إليها من يحميها من التعرض لها من أصحابه وغيرهم .

(ذكر وفاة الخليفة الناصر لدين الله) في هذه السنة آخر ليلة من شهر رمضان توفي الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتدى لأمر الله أبي العباس محمد بن المقتدى بأمر الله أبي القاسم عبدالله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق أبي أحمد محمد بن جعفر المتوكل على الله ولم يكن الموفق خليفة وإنما كان ولي عهد أخيه المعتمد على الله فمات قبل المعتمد فصار ولده المعتضد بالله ولي عهد المعتمد على الله وكان المتوكل على الله بن المعتصم بالله أبي اسحق محمد بن هرون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبدالله أبي جعفر بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنهم .

نسب كأن عليه من شمس الضحى ه نورا ومن فلق الصباح هوذا

فكان في آبائه أربعة عشر خليفة وهم كل من له لقب والباقر وغير خلفاء وكان فيهم من ولي العهد محمد بن القائم والموفق بن المتوكل وأما باقي الخلفاء من بني العباس فلم يكونوا من آبائه فكان السفاح أبو العباس عبدالله أخا المنصور ولي قبله وكان موسى أخا الرشيد ولي قبله وكان محمد الأمين وعبدالله المأمون ابنا الرشيد أخوي المعتصم وليا قبله ، وكان محمد المنتصر بن المتوكل ولي بعد ، ثم ولي بعد المنتصر بالله المستعين بالله أبو العباس أحمد بن محمد ابن المعتصم وولي بعد المستعين المعتز بالله محمد وقيل طلحة وهو ابن المتوكل وولي بعد المعتز المهدي بالله محمد ابن الواثق ثم ولي بعده المعتمد على الله أحمد بن المتوكل فالمنتصر والمعتز والمعتمد أخوه الموفق والمهدي ابن عمه والموفق من أجداد الناصر لدين الله ، ثم ولي المعتضد بعد المعتمد وولي بعد المعتضد ابنه أبو محمد علي المكتفي بالله

وهو أخو المقتدر بالله وولى بعد المقتدر أخوه القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد وولى بعد القاهر الراضى بالله أبو العباس محمد بن المقتدر ثم ولى بعده المقتضى بالله أبو إسحق إبراهيم بن المقتدر ، ثم ولى بعده المكتفى بالله أبو القاسم عبد الله بن المكتفى بالله على بن المعتضد ، ثم ولى بعده المطيع لله أبو بكر عبد الكريم فالقاهر أخو المقتدر والراضى والمقتضى والمطيع بنوه والمستكنى ابن أخيه المكتفى ، ثم ولى بعد الطائع القادر بالله وهو من أجداد الناصر لدين الله ، ثم ولى بعد المستظهر بالله ، ثم ولى بعده ابنه المسترشد بالله أبو منصور وولى بعد المسترشد بالله ابنه الراشد أبو جعفر بالمسترشد أخو المقتضى والراشد ابن أخيه فجميع من ولى الخلافة ممن ليس فى سياق نسب الناصر تسعة عشر خليفة وكانت أم الناصر أم ولد تركيه اسمها زمرد وكانت خلافته ستا وأربعين سنة وعشرة أشهر وثمانية وعشرين يوما وكان عمره نحو سبعين سنة تقريبا فلم يلبس الخلافة أطول مدة منه إلا ما قيل عن المستنصر بالله العلوى صاحب مصر فإنه ولى ستين سنة ولا اعتبار به فإنه ولى له سبع سنين فلا تصح ولايته وبقي الناصر لدين الله ثلاث سنين عاطلا عن الحركة بالكلية وقد ذهبت إحدى عينيه والأخرى يبصر بها إبصارا ضعيفا وفى آخر الأمر أصابه دو سنطاريا عشرين يوما ومات ووزر له عدة وزراء وقد تقدم ذكرهم ولم يطلق فى طول مرضه شيئا كان أحدثه من الرسوم الجائرة وكان قبيح السيرة فى رعيته ظلما فخرّب فى أيامه العراق وتفرق أهله فى البلاد وأخذ أملاكهم وأموالهم وكان يفعل الشيء وضده فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها فى رمضان ، فبقيت مدة ثم قطع ذلك ثم عمل دور الضيافة للحجاج فبقيت مدة ثم أبطلها وأطلق بعض المكوس التى جردها ببغداد خاصة ثم أعادها وجعل جل همه فى رعى البندق والطيور المناسب وسراويلات الفتوة فبطل الفتوة فى البلاد جميعها إلا من يلبس منه سراويل يدعى إليه ويلبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة وكذلك أيضا منع الطيور المناسب لغيره إلا ما يؤخذ من طيوره ومنع الرمى بالبندق إلا من ينتمى إليه فأجابه الناس بالعراق وغيره إلى ذلك إلا إنسانا واحدا يقال له ابن السفت من بغداد فإنه هرب من العراق ولحق بالشام فأرسل إليه يرغبه فى المال الجليل ليرمى عنه وينسب فى الرمى إليه فلم يفعل فبلغنى أن بعض أصدقائه نكر عليه الامتناع من أخذ المال فقال يكفى فخرا إنه ليس فى الدنيا أحد إلا الرمى للخليفة إلا أما فكان غرام الخليفة بهذه الأشياء من أعجب الأمور وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحا من أنه هو الذى أطمع التتر فى البلاد وراسلهم فى ذلك فهو الطامة الكبرى التى يصغر عندها كل ذنب عظيم .

(ذكر خلافة الظاهر بأمر الله) قد ذكرنا سنة خمس وثمانين وخمسمائة الخطبة للأمير أبى نصر محمد بن الخليفة الناصر لدين الله بولاية العهد فى العراق وغيره من البلاد ثم بعد ذلك خلعه الخليفة من ولاية العهد ، وأرسل إلى البلاد فى نطق الخطبة له وإنما فعل ذلك لأنه كان يميل إلى ولده الصغير على فاتفق أن الولد الصغير توفى سنة اثنتى عشرة وستمائة ولم يكن للخليفة ولد غير ولى العهد فاضطر إلى إعادته إلا أنه تحت الاحتياط والحجر لا يتصرف فى شيء ، فلما توفى أبوه ولى الخلافة وأحضر الناس لأخذ البيعة وتلقب بالظاهر بأمر الله وعنى أن أباه وجميع أصحابه أرادوا صرف الأمر عنه ، فظهر وولى الخلافة بأمر الله لا يسعى من أحد ، ولما ولى الخلافة أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنة العمرين ، فلوقبل إله لم يلبس الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكأن القائل صادقا فإنه أعاد من الأموال المنصوبة فى أيام أبيه وقبله شيئا كثيرا وأطلق المكوس فى البلاد جميعها وأمر بإعادة الخراج القديم فى جميع العراق وأن يسقط جميع ما جرده أبوه وكان كثيرا لا يحصى فمن ذلك أن

قرية يعقوبا كان يحصل منها قديماً نحو عشرة آلاف دينار ، فلما تولى الناصر لدين الله كان يؤخذ منها كل سنة ثمانون ألف دينار فحضر أهلها واستغاثوا وذكروا أن أملاً بهم أخذت حتى صار يحصل منها هذا المبلغ فأمر أن يؤخذ الخراج الأول ؛ وهو عشرة آلاف دينار فقيل له إن هذا المبلغ يصل إلى المخزن فمن أين يكون العوض ، فأقام لهم العوض من جهات أخرى فإذا كان المطلق من جهة واحدة سبعين ألف دينار فما الظن بباقي البلاد ومن أفعاله الجميلة أنه أمر بأخذ الخراج الأول من باقي البلاد جميعها فحضر كثير من أهل العراق وذكروا أن الاملاك التي كان يؤخذ منها الخراج قديماً قديس أكثر أشجارها وخربت وهي طولبوا بالخراج الأول لا يني دخل الباقي بالخراج فأمر أن لا يؤخذ الخراج إلا من كل شجرة سليمة ، وأما الذهب فلا يؤخذ منه شيء وهذا عظيم جدا ، ومن ذلك أيضاً أن المخزن كان له صنجة الذهب تزيد على صنجة البلد نصف قيراط يقبضون بها المال ويعطون بالصنجة التي للبلد يتعامل بها الناس فسمع بذلك فخرج خطه إلى الوزير وأوله (ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أووزوهم يחסرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم) قد بلغنا أن الأمر كذا وكذا فتعاد صنجة المخزن إلى الصنجة التي يتعامل بها المسلمون واليهود والنصارى . فكتب بعض النواب إليه يقول : إن هذا مبلغ كثير وقد حسبناه فكان في السنة الماضية خمسة وثلاثين ألف دينار ، فأعاد الجواب ينكر على القائل ، ويقول لو أنه ثلثمائة ألف وخمسون ألف دينار يطلق وكذلك أيضاً فعل في إطلاق زيادة الصنجة التي للديوان وهي في كل دينار حبة وتقدم إلى القاضي أن كل من عرض عليه كتاباً صحيحاً بملك يعيده إليه من غير إذن وأقام رجلاً صالحاً في ولاية الحشرى وبيت المال وكان الرجل حنبلياً فقال إنني من مذهبي أن أورت ذوى الأرحام فإن أذن أمير المؤمنين أن أفعل ذلك وليت وإلا فلا ، فقال له أعط كل ذى حق حقه ، واتفقوا ولا تفتق سواه . ومنها أن العادة كانت ببغداد أن الحارس بكل درب يبكر ويكتب مطالعة إلى الخليفة بما تجدد في دربه من اجتماع بعض الأصدقاء ببعض ، على نزهة أو سماع أو غير ذلك ، ويكتب ما سوى ذلك من صغير وكبير فكان الناس من هذا في حجر عظيم ؛ فلما ولي هذا الخليفة جزاء الله خيراً أتته المطالعات على العادة فأمر بقطعها وقال أى عرض لنا في معرفة أحوال الناس في بيوتهم ، فلا يكتب أحد إلينا إلا ما يتعلق بمصالح دولتنا ، فقيل له : إن العامة تفسد بذلك ، ويعظم شرها فقال نحن ندعو الله في أن يصلحهم . ومنها أنه لما ولي الخلافة وصل صاحب الديوان من واسط وكان قد سار إليها أيام الناصر لتحصيل الأموال فأصعد معه من المال ما يزيد على مائة ألف دينار وكتب مطالعة تتضمن ذكر مامعه ويستخرج الأمر في حمله فأعاد الجواب بأن يعاد إلى أربابه فلا حاجة لنا إليه فأعيد عليهم ومنها أنه أخرج كل من كان في السجون وأمر بإعادة ما أخذ منهم وأرسل إلى القاضي عشرة آلاف دينار ليعطيها عن كل من هو محبوس في حبس الشرع وليس له مال ومن حسن نيته للناس أن الأسعار في الموصل وديار الجزيرة كانت غالية فرخصت الأسعار وأطلق حمل الأطنمة إليها وأن يبيع كل من أراد البيع للخلعة فحمل منها الكثير الذي لا يحصى فقيل له إن السعر قد غلا شيئاً والمصلحة منع حمله فقال أولئك مسلمون وهؤلاء مسلمون وكما يجب علينا النظر في أمر هؤلاء كذلك يجب علينا النظر لأولئك وأمر أن يباع من الأهرام التي له طعام أرخص مما يبيع غيره ففعلوا ذلك فرخصت الأسعار عندهم أيضاً أكثر مما كانت أولاً وكان السعر في الموصل لما ولي كل مكوين بدينار وثلاث قيراط فصار كل أربعة مكاكيك بدينار في أيام قليلة وكذلك

باقى الأشياء من التمر والدبس والأرز والسمسم وغيرها فآله تعالى يؤيده وينصره ويبقيه فإنه غريب فى هذا الزمان الفاسد ولقد سميت عنه كلمة أعجبتنى جدا وهى أنه قيل له فى الذى يخرجه ويطلقه من الأموال التى لا تسمح نفس ببعضها فقال لهم أنا فتحت الدكان بعد العصر فانكونى أعمل الخير فكم أعيش وتصدق ليله عيد الفطر من هذه السنة وفرق فى العلماء وأهل الدين مائة ألف دينار .

(ذكر ملك بدر الدين قلعي العمادية وهرور) فى هذه السنة ملك بدر الدين قلعة العمادية من أعمال الموصل وقد تقدم ذكر عصيان أهلها عليه سنة خمس عشرة وستائة وتسليمها إلى عماد الدين زنكى ثم عودهم إلى طاعة بدر الدين وخلافهم على عماد الدين فلما عادوا إلى بدر الدين أحسن إليهم وأعطاهم الأقطاع الكثير وملكهم القرى ووصلهم بالأموال الجزيلة والخلع السنية فبقوا كذلك مدة يديرة ثم شرعوا يرسلون عماد الدين زنكى ومظفر الدين صاحب إربل وشهاب الدين غازى بن العادل لما كان بخلاط ويعدون كلا منهم بالانحياز إليه والطاعة له وأظهروا من المخالفة لبدر الدين ما كانوا يظنون فكانوا يمكنون أن يقيم عندهم من أصحاب بدر الدين إلا من يريدونه ويمنعون من كرهوه فطال الأمر وهو يحتمل فعلهم ويداريهم وهم لا يزدادون إلا طمعا وخروجاً عن الطاعة وكانوا جماعة فاختلّفوا فقوى بعضهم وهم أولاد خواجه إبراهيم وأخوه ومن معهم على الباقين فأخرجوهم عن القلعة وغلبوا عليها وأصروا على ما كانوا عليه من النفاق فلما كان هذه السنة سار بدر الدين إليهم فى عساكره فأتاهم بغتة فحصرهم وضيق عليهم وقطع الميرة عنهم وأقام بنفسه عليهم وجعل قطعة من الجيش على قلعة هرور يحصرونها وهى من أمنع الحصون وأحصنها لا يوجد مثلها وكان أهلها أيضا قد سلكوا طريق أهل العمادية من عصيان وطاعة ومخادعة فأتاهم العسكر وحصرهم وهم فى قلعة من الذخيرة فحصرها أياما فبنى ما فى القلعة فاضطر أهلها إلى التسليم فسلبوها ونزلوا منها وعاد العسكر إلى العمادية فأقاموا عليها مع بدر الدين فبقى بدر الدين بعد أخذ هرور يسيرا وعاد إلى الموصل وترك العسكر بحاله مقبلا عليهم مع نائبه أمين الدين لؤلؤ فبقى الحصار إلى أول ذى القعدة فأرسلوا يدعون بالطاعة ويطلبون العوض عنها ليسلبوها فاستقرت القواعد على العوض من قلعة يحتمون فيها وأقطاع ومال وغير ذلك فأجابهم بدر الدين إلى ما طلبوا وحضر نوابهم ليحلفوا بدر الدين فينبأ هو يريد أن يحلف لهم وقد أحضر من يشهد اليمين إذ قد وصل طائر من العمادية وعلى جناحه رقعة من أمين الدين لؤلؤ يخبر أنه قد ملك العمادية قهرا وعنوة وأسر بنى خواجه الذين كانوا تغلبوا عليه فامتنع بدر الدين من اليمين وأما سبب غلبة أمين الدين عليها فإنه كان قد ولاه بدر الدين عليها فلما عاد أهلها إلى طاعته فبقى فيها مدة فأحسن إليهم وأحسن السيرة فيهم واستمال جماعة منهم ليتقوى بهم على الحزب الذين عصوا أولافنى الخبر إليهم فأساؤا مجاورته واستقالوا من ولايته عليهم ففارقهم إلى الموصل وكان أولئك الذين استمالهم يكتبونه ويرسلونه فلما حصرهم كانوا أيضا يكتبونه فى النشاب يخبرونه بكل ما يفعله أولاد خواجه من إنفاذ رسول وغير ذلك وبما عندهم من الذخائر إلا أنهم لم يكونوا فى الكثرة إلى أنهم يقهرون أولئك فلما كان الآن واستقرت القواعد من التسليم لم يذكر أولاد خواجه أحدا من جند القلعة فى نسخة اليمين بمال ولا غيره من إمام وأقطاع فسخطوا هذه الحال وقالوا لهم قد حلفتم لأنفسكم بالحصون والقرى والمال ونحن قد خربت بيوتنا لأجلكم فلم تذكرونا فأهانوهم ولم يفتوا إليهم فحضر عنده أمين الدين رجلان منهم ليلا وطلبوا منه أن يرسل إليهم جمعا يصعدونهم إلى القلعة ويثبون بأوثانك ويأخذونهم فامتنع

وقال أخاف أن لا يتم هذا الأمر وينفسد علينا كل ما فعلناه فقالوا نحن نقبض عليهم غدا بكرة وتكون أنت والعسكر على ظهر فإذا سمعتم النداء باسم بدر الدين وشعاره تصعدون إلينا فأجابه إلى ذلك وركب بكرة هو والعسكر على العادة وأما أولئك فانهم اجتمعوا وقبضوا على أولاد خواجه ومن معهم ونادوا بشعار بدر الدين فبينما العسكر قيام إذ الصوت من القلعة باسم بدر الدين فصعدوا إليها وملكوها وتسلم أمين الدين أولاد خواجه فحبسهم وكتب الرقعة على جناح الطائر بالحال وملكوا القلعة صفوا عنوا بغير عرض وكان يريد أن يغرم مالا جليلا وأقطعا كثيرة وحصنا منيعا فتوفر الجميع عليه وأخذ منهم كل ما احتبوه وأخروه وإذا أراد الله أمرا فلا مرد له .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة ليلة الأحد والعشرين من صفر زلزلت الأرض بالموصل وديار الجزيرة والعراق وغيرها زلزلة متوسطة وفيها اشتد الغلاء بالموصل وديار الجزيرة جميعها فأكل الناس الميتة والكلاب والسنانير فقل الكلاب والسنانير بعد أن كانوا كثيرا ولقد دخلت يوما إلى داري فرأيت الجوارى يقطعن اللحم ليطنخوه فرأيت سنانير استكثرتها فعددتها فكانت اثني عشر سنورا ورأيت اللحم في هذا الغلاء في الدار وليس عنده من يحفظه من السنانير لعدمها وليس بين المرتين كثير وغلام مع الطعام كل شيء فيبيع الرطل الشيرج بقيراطين بعد أن كان ينصف قيراط قبل الغلاء وأما قبل ذلك فكان كل ستين رطلا بدينار ومن العجب أن السلق والجزر والسلمج يبيع كل خمسة أرطال بدرهم وبيع النفسج كل ستة أرطال بدرهم وبيع في بعض الأوقات كل سبعة أرطال بدرهم وهذا مالم يسمع بمثله ولقد رأينا مالم نر ولا سمعنا بمثله فإن الدنيا مازالت قديما وحديثا إذا غلت الأسعار متى جاء المطر رخصت إلا هذه السنة فإن الأمطار مازالت متتابعة من أول الشتاء إلى آخر الربيع ، وكلما جاء المطر غلت الأسعار ، وهذا مالم يسمع بمثله ، فبلغت الحنطة مكوك وثلاث بديار وقيراط يكون وزنه خمسة وأربعين رطلا دقيقا بالبغدادى وكان الملح مكوك بدرهم فصار المكوك بعشرة دراهم ، وكان الأرز مكوك باثني عشر درهما فصار المكوك بخمسة درهما وكان النمر كل أربعة أرطال وخمسة أرطال بقيراط . فصار كل رطلين بقيراط . ومن عجيب ما يحكى أن السكر النادر الأسمر كان كل رطل بدرهم . وكان السكر الأبلوج المهرى النقى كل رطل بدرهمين فصار السكر الأسمر كل رطل بثلاثة دراهم ونصف والسكر الأبلوج كل رطل بثلاثة دراهم وربيع وسببه أن الأمراض لما كثرت واشتد الوباء قال النساء هذه الأمراض باردة والسكر الأسمر حار فينفع منها والأبلوج بارد يقويها وتبعهن الأطباء استمالة لقلوبهن ولجهلهن فعلا الأسمر بهذا السبب وهذا من الجهل المفرط وما زالت الأشياء هكذا إلى أول الصيف واشتد الوباء وكثر الموت والمرض في الناس فكان يحمل على النعش الواحد عدة من الموتى ، فمن مات فيه شيخنا عبد المحسن ابن عبدالله الخطيب الطوسى خطيب الموصل . وكان من صالحى المسلمين وعمره ثلاث وثمانون سنة وشهور وفيها انخسف القمر ليلة الثلاثاء خامس عشر صفر . وفيها هرب أمير حاج العراق وهو حسام الدين أبو فراس الحلبي الكردي الوارثى وهو ابن أخى الشيخ ورام كان عمه من صالحى المسلمين وخيارهم من أهل الحلة السيفية فارق الحاج بين مكة والمدينة وسار إلى مصر . حكى لي بعض أصدقائه أنه إنما حمله على الهرب كثرة الخرج في الطريق وقلة المعونة من الخليفة ولما فارق الحاج خافوا خوفا شديدا من العرب فأمن الله خوفهم ولم يرعهم ذاعر في جميع الطريق ووصلوا آمنين إلا أن كثيرا من الجمال هلك أصابها غدة عظيمة لم يسلم إلا القليل . وفيها في

آب جاء مطر شديد ورعد وبرق ودام حتى جرت الأودية وامتلأت الطرق بالوحد ثم جاء الخبر من العراق والشام والجزيرة ودبار بكر أنه كان عندهم مثله ولم يصل إلينا أحد إلا وأخبر أن المطر كان عندهم في ذلك التاريخ وفيها كان في الشتاء ثلج كثر ونزلت بالعراق فسمعت أنه نزل في جميع العراق حتى في البصرة أما إلى واسط فلا شك فيه وأما البصرة فإن الخبر لم يكثر عندنا بنزوله فيها . وفيها خرجت قلعة الزعفران من أعمال الموصل وهي حصن مشهور يعرف قديماً بدير الزعفران وهو على جبل عال قريب من فرشابور . وفيها أيضاً خربت القلعة الجديدة من بلد الهكارية من أعمال الموصل أيضاً وأضيف عملها وقرأها إلى الهادي . وفيها في ذى الحجة سار جلال الدين بن خوارزم شاه من تبريز إلى بلد الكرج قاصداً لأخذ بلادهم واستنصاهم وخرجت السنة ولم يبلغنا أنه فعل بهم شيئاً ونحن نذكر ما فعله بهم سنة ثلاث وعشرين وستمائة إن شاء الله . وفيها ثالث شباط سقط ببغداد ثلج وبرد الماء برداً شديداً وقوى البرد حتى مات به جماعة من الفقراء . وفيها في ربيع الأول زادت دجلة زيادة عظيمة واشتغل الناس بإصلاح سكر القورج وخافوا فبلغت الزيادة قريباً من الزيادة الأولى ثم نقص الماء واستبشر الناس . (١)

(١) وفيها توفي الفخر بن تيمية محمد بن أبي القاسم بن محمد الشيخ نثر الدين أبو عبدالله بن تيمية الحراني ، عالمها وخطيبها وواعظها ، اشتغل على مذهب الإمام أحمد وبرع فيه وبرز وحصل وجمع تفسيرا حافلا في مجلدات كثيرة وله الخطب المشهورة المنسوبة إليه ، وهم عم الشيخ مجد الدين صاحب المتقى في الأحكام ، قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي : سمعته يوم الجمعة بعد الصلاة وهو يعظ الناس ينشد :

أحبابنا قد ندرت مقلتي • ما لتقي بالنوم أو نلتقي

رفقاً بقلب مغرم وواعظوا • على سقام الجسد المحرق

كم تطلوني بلبالي اللقا • قد ذهب العمر ولم نلتقي

وقد ذكرنا أنه قدم بغداد حاجاً بعد وفاة شيخه أبي الفرج ابن الجوزي ووعظ بها في مكان وعظه . وتوفي أيضاً الوزير بن شكر صف الدين أبو محمد عبدالله بن علي بن عبد الخالق بن شكر ، ولد بالديار المصرية بدميرة بين مصر واسكندرية سنة أربعين وخمسمائة ، ودفن بتربته عند مدرسته بمصر ، وقد وزر الملك العادل وعمل أشياء في أيامه منها تبليط جامع دمشق وأحاط سور المصلى عليه ، وعمل الفوارة ومسجدها وعمارة جامع المزة ، وقد نكب وعزل سنة خمس عشرة وستمائة وبقي معزولاً إلى هذه السنة فكانت فيها وفاته ، وقد كان مشكور السيرة ومنهم من يقول كان ظالماً فانه أعلم . وفيها توفي أبو الفضل عبدالرحمن بن نصر الله بن علي بن منصور بن الكيال الواسطي من بيت الفقه والقضاء ، وكان أحد المعدلين ببغداد ومن شعره :

فتبا لدنيا لا يدوم نعيمها • تسري سيرا ثم تبدى المساوي

تريك رواء في القباب وزخرفا • وتسفر عن شواء طحياء عاميا

ومن ذلك قوله : إن كنت بعد الطاعتين تساحت • بالفحص أجفاني فما أجفاني

أو كنت من بعد الأجابة ناظرا • حسنا بانساني فما أنساني

الدهر مغمور له زلاته • إن عاد أوطاني على أوطاني

وفيها توفي أيضاً أبو علي الحسن بن علي ابن الحسن بن علي بن عمار بن فخر بن وقاح الياسري نسبة إلى عمار بن ياسر ، شيخ بغدادى فاضل ، له مصنفات في التفسير والفرائض ، وله خطب ورسائل وأشعار حسنة وكان مقبول الشهادة عند الحكام .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة ﴾

﴿ ذكر ملك جلال الدين تفلّيس ﴾ في هذه السنة ثامن ربيع الاول فتح جلال الدين بن خوارزمشاه مدينة تفلّيس من الكرج وسبب ذلك انما قد ذكرنا سنة اثنتين وعشرين وستمائة الحرب بينه وبينهم وانهم منهم وعوده إلى تبريز بسبب الخلف الواقع فيها فلما استقر الأمر في أذربيجان عاد إلى بلد الكرج في ذى الحجة من السنة وخرجت سنة اثنتين وعشرين وستمائة ودخلت هذه السنة فقصد بلادهم وقد عادوا وحشدوا وجمعوا من الأمم المجاورة لهم اللان واللكز وقفجاق وغيرهم فاجتمعوا في جمع كثير لا يحصى فطمعوا بذلك ومنهم أنفسهم الأباطيل ووعدهم الشيطان الظفر (وما يعدم الشيطان إلا غرورا) فلقبهم وجعل لهم السكين في عدة مواضع والتقوا واقتتلوا فولى الكرج منهزمين لا يلوى الأخ على أخيه ولا الوالد على ولده وكل منهم قد أهنته نفسه وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب فلم ينج منهم إلا اليسير الشاذ الذي لا يعبا به وأمر جلال الدين عسكره أن لا يبقوا على أحد وإن يقتلوا من وجدوا فتبعوا المنهزمين يقتلونهم وأشار عليه أصحابه بقصد تفلّيس دار ملكهم فقال لا حاجة لنا إلى أن نقتل رجالنا تحت الأسوار إنما إذا أفنيت الكرج أخذت البلاد صفوا عفوا ولم تزل العساكر تتبعهم وتستقصى في طلبهم إلى أن كادوا يفتنونهم فحينئذ قصد تفلّيس ونزل بالقرب منها وسار في بعض الأيام في طائفة من العسكر وقصدها لينظر اليها ويبصر مواضع النزول عليها وكيف يقاتلها فلما قاربها كمن أكثر العسكر الذي معه في عدة مواضع ثم تقدم اليها في نحو ثلاثة آلاف فارس فلما رآه من بها من الكرج طمعوها فيه لقلّة من معه ولم يعلموا ما معهم فظهروا إليه فقاتلوه فتأخر عنهم فقوى طمعهم فظنوه منهزما فتبعوه فلما توسطوا العساكر خرجوا عليهم ووضعوا السيف فيهم فقتل أكثرهم وانهمزم الباقون إلى المدينة فدخلوها وتبعهم المسلمون فلما وصلوا اليها نادى المسلمون من أهلها بشعار الإسلام وباسم جلال الدين فالتقى الكرج بأيديهم واستسلموا لأنهم كانوا قد قتل رجالهم في الوقعات المذكورة فقل عددهم وماتت قلوبهم خوفا ورعبا فملك المسلمون البلد عنزة وقهرا بغير أمان وقتل كل من فيه من الكرج ولم يبق على كبير ولا صغير إلا من أذعن بالإسلام وأقر بكلمتي الشهادة فإنهم أبقى عليهم وأمرهم فتختوا وتركهم ونهب المسلمون الأموال وسبوا النساء واسترقوا الأولاد وصل إلى المسلمين الذين بها بعض الأذى من قتل ونهب وغيره وهذه تفلّيس من أحسن البلاد وأمنعها وهي على جانبي نهر الكرج وهو نهر كبير ولقد جل هذا الفتح وعظم موقعه في بلاد الإسلام وعند المسلمين فإن الكرج كانوا قد استطالوا عليهم وفعلوا بهم ما أرادوا فكانوا يقصدون أي بلاد أذربيجان أرادوا فلا يمنعهم عنها مانع ولا يدفعهم عنها دافع وهكذا أرزن الروم حتى إن صاحبها لبس خلعة ملك الكرج ورفع على رأسه علما منه في أعلاه صليب وتنصر ولده رغبة في نكاح ملكة الكرج وخوفا منهم ليدفع الشر عنه وقد تقدمت القصة، وهكذا دربند شروان وعظم أمرهم إلى حد أن ركن الدين بن قلع أرسلان صاحب قونية واقصرا وملطية وسائر بلاد الروم التي للمسلمين جمع عساكره وحشد معها غيرها فاستكثر، وقصد أرزن الروم وهي لأخيه طغرل شاه بن قلع أرسلان، فأناه الكرج وهزموه وفعلوا به وبمسكره كل عظيم وكان أهل دربند شروان معهم في الضنك والشدة، وأما أرمينية فإن الكرج دخلوا مدينة أرجيش، وملكوا قرس وغيرها، وحصروا خلاط، فلولا أن الله سبحانه،

من على المسلمين بأسر إيواني مقدم عساكر الكرج لملكها ، فاضطر أهلها إلى أن بنوا لهم بيعة في القلعة ، يضرب فيها الناقوس ، فرحلوا عنهم ، وقد تقدم تفصيل هذه الجملة ، ولم يزل هذا الثغر من أعظم الثغور ضررا ، على المجاورين من الفرس قبل الإسلام وعلى المسلمين بعدهم من أول الإسلام إلى الآن ولم يقدم أحد عليهم هذا الإقدام ولا فعل بهم هذه الأفاعيل فإن الكرج ملكوا تفليس سنة خمس عشرة وخمسة مائة والسلطان حينئذ محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي وهو من أعظم السلاطين منزلة وأوسعهم مملكة وأكثرهم عساکره لم يقدر على منعهم عنها هذا مع سعة بلاده فإنه كان له الري وأعمالها وبلد الجبل وأصفهان وفارس وخوزستان والعراق وأذربيجان وأران وأرمينية وديار بكر والجزيرة والموصل والشام وغير ذلك وعمه السلطان سنجر له خراسان وما وراء النهر فكان أكثر بلاد الإسلام بأيديهم ومع هذا فإنه جمع عساکره سنة تسع عشرة وخمسة مائة وسار إليهم بعد أن ملكوها فلم يقدر عليهم ثم ملك بعده أخوه السلطان مسعود فكذلك وملك الذكر بلد الجبل والري وأذربيجان وأران وأطاعه صاحب خلاط وصاحب فارس وصاحب خوزستان وجمع وحشد لهم وكان قصاره أن يتخلص منهم ثم ابنه البهلوان بعده وكانت البلاد في أيام أولئك كثيرة الأموال والرجال فلم يحدثوا أنفسهم بالظفر بهؤلاء حتى جاء هذا السلطان والبلاد خراب قد أضعفها الكرج أولا ثم استأصلتها التتر لعنهم الله على ما ذكرنا ففعل بهم هذه الأفاعيل فبجحان من إذا أراد أمرا قال له كن فيكون .

(ذكر مسير مظفر الدين صاحب إربل إلى الموصل وعوده عنها) في هذه السنة في جمادى الآخرة سار مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل إلى أعمال الموصل قاصدا إليها وكان السبب في ذلك أنه استقرت القاعدة بينه وبين جلال الدين بن خوارزمشاه وبين الملك المعظم صاحب دمشق وبين صاحب آمد وبين ناصر الدين صاحب ماردين ليقتصدوا البلاد التي بيد الأشرف ويتغلبوا عليها ويكون لكل منهم نصيب ذكره واستقرت القواعد بينهم على ذلك فبادر مظفر الدين إلى الموصل وأما جلال الدين فإنه سار من تفليس يريد خلاط فأتاه الخبر أن نائبه بيلاد کرمان واسمه بلاق حاجب قد عصى عليه على ما ذكره فلما أتاه الخبر بذلك ترك خلاط ولم يقصدها إلا أن عسكره نهب بعض بلداتها وخرّبوا كثيرا منه وسار مجدا إلى کرمان فانفسخ جميع ما كانوا عزموا عليه إلا أن مظفر الدين سار من إربل ونزل على جانب الزاب ولم يمكنه العبور إلى بلد الموصل وكان بدر الدين قد أرسل من الموصل إلى الأشرف وهو بالرقه يستنجده ويطلب منه أن يحضر بنفسه الموصل ليدفعوا مظفر الدين فسار منها إلى حران ومن حران إلى دنيسر فخرب بلد ماردين وأهلكه تخريبا ونهبها وأما المعظم صاحب دمشق فإنه تصدّد بلد حمص وحماة وأرسل إلى أخيه الأشرف يقول إن رحلت عن ماردين وحلب وأنا عن حمص وحماة وأرسلت إلى مظفر الدين ليرجع عن بلد الموصل فرحل الأشرف عن ماردين وعاد كل منهم إلى بلده وخرّبت أعمال الموصل وأعمال ماردين بهذه الحركة فإنها كانت قد أجمعت بها تنابع الغلاء وطول مدته وجلاء أكثر أهلها فأتتها هذه الحادثة فازدادت خرابا .

(ذكر عصيان کرمان على جلال الدين ومسيره إليها) في هذه السنة في جمادى الآخرة وصل الخبر إلى جلال الدين أن نائبه بكرمان وهو أمير كبير اسمه بلاق حاجب قد عصى عليه وطمع في البلد أن يملكها ويستبد بها لعبد جلال الدين عنها واشتغاله بما ذكرناه من الكرج وغيرهم وأنه أرسل إلى التتر يعرفهم قوة جلال الدين وملكه كثيرا من البلاد وإن أخذ الباقي عظمت مملكته وكثرت عساکره وسار إليكم وأخذ

ما بأيديكم من البلاد فلما سمع جلال الدين ذلك وكان قد سار يريد خلاط فتركها وسار إلى كرمان يطوى المراحل أرسل بين يديه رسولا إلى صاحب كرمان ومعه الخلع ليظمن ويأتيه وهو غير محتاط ولا مستعد للامتناع منه فلما وصل الرسول علم أن ذلك مكيدة عليه لما يعرفه من عادته فأخذ ما يعز عليه وصعد إلى قلعة منيعة فتحصن بها وجعل من يثق إليه من أصحابه في الحصون يمتنعون بها وأرسل إلى جلال الدين يقول إنني أما العبد والمملوك ولما سمعت بمسيرك إلى هذه البلاد أخليت لك لأنها بلادك ولو علمت أنك تبقى على لحضرت بابك ولكني أخاف هذا جميعه والرسول يخالف له أن جلال الدين بتفليس وهو لا يلتفت إلى قوله فعاد الرسول فعلم جلال الدين أنه لا يمكنه أخذ ما بيده من الحصون لأنه يحتاج أن يحصر هامة طويلة فوقف بالقرب من أصفهان وأرسل إليه الخلع وأقره على ولايته فبيما الرسل تردد اذ وصل رسول من وزير جلال الدين إليه من تفليس يعرفه أن عسكر الملك الأشرف الذي بخلاط قد هزموا بعض عسكره وأوقعوا بهم ويحثه على العود إلى تفليس فعاد إليها مسرعا .

(ذكر الحرب بين عسكر الأشرف وعسكر جلال الدين) لما سار جلال الدين إلى كرمان ترك بمدينة تفليس عسكرا مع وزيره شرف الملك فقلت عليهم الميرة فساروا إلى أعمال أرزن الروم فوصلوا إليها ونهبوها وسبوا النساء وأخذوا من الغنائم شيئا كثيرا لا يحصر وعادوا فكان طريقهم على أطراف ولاية خلاط فسمع النائب من الأشرف بخلاط وهو الحاجب حسام الدين على الموصل فجمع العسكر وسار إليهم فأوقع بهم واستنقذ مامعهم من الغنائم وغنم كثيرا مما معهم وعاد هو وعساكره سالمين فلما فعل ذلك خاف وزير جلال الدين منهم فأرسل إلى صاحبه بكرمان يعرفه الحال ويحثه على الوصول إليه ويخوفه عاقبة التواني والإهمال فرجع فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

(ذكر وفاة الخليفة الظاهر بأمر الله) في هذه السنة في الرابع عشر من رجب توفي الإمام الظاهر بأمر الله أمير المؤمنين أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله وقد تقدم نسبه عند وفاة أبيه رضي الله عنهما فكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يوما وكان نعم الخليفة جمع الخشوع مع الخضوع لربه والعدل والإحسان إلى رعيته وقد تقدم عند ذكر ولايته الخلافة من أفعاله ما فيه كفاية ولم يزل كل يوم يزداد من الخير والإحسان إلى الرعية فرضى الله عنه وأرضاه وأحسن متقلبه ومشواه فلقد جدد من العدل ما كان دارسا وأذكر من الإحسان ما كان منسيا وكان قبل وفاته أخرج توقيعا إلى الوزير بخطه على أرباب الدولة وقال الرسول (أمير المؤمنين يقول ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم أو نفذ مثال ثم لا يبين له أثر بل أنتم إلى إمام فعال اخرج منكم إلى إمام قوال) فقرؤه فإذا في أوله بعد البسملة (اعدوا أنه ليس إمامنا إهمالا ولا إغضاؤا بإغفالا ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملا وقد عفونا لكم ما سلف من إخراج البلاد وتشريد الرعايا وتقبيح الشريعة وإظهار الباطل الجلي في صورة الحق الخفي حيلة ومكيدة وتسمية الاستئصال والاحتياج استيفاء واستدرا كالأغراض انتهزتم فرصها مختلسة من برائن ليت باسل وأنياب أسد مهيب تتفقون بألفاظ مختلفة على معنى وأنتم أمناؤه وثقائه فتميلون رأيه إلى هواكم وتمزجون باطلكم بحقه فيطيعكم وأنتم له عاصون ويوافقكم وأنتم له مخالفون والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنا وبفقركم غنى وبياطلكم حقا ورزقكم سلطانا يقبل العثرة ولا يؤاخذ إلا من أصر ولا ينتقم إلا من استمر بأمركم بالعدل وهو يريد منكم

وبينها كم عن الجور وهو يكرهه لكم يخاف الله تعالى فيخوفكم مكره ويرجو الله تعالى ويرغبكم في طاعته فإن
سلكتم مسالك نواب خلفاء الله في أرضه وأمانته على خلقه وإلا هلكتم والسلام) ولما توفي وجدوا في بيت في داره
الوف رقاع كلها مختومة لم يفتحها فقبل له ليفتحها فقال لا حاجة لنا فيها كلها سعابيات ولم أزل علم الله سبحانه
مذ ولي الخلافة أخاف عليه قصر المدة لحبث الزمان وفساد أهله وأقول لكثير من أصدقائنا وما أخوفنى أن
تقصر مدة خلافته لأن زماننا وأهله لا يستحقون خلافته فكان كذلك .

(ذكر خلافة ابنه المستنصر بالله) لما توفي الظاهر بأمر الله تولى بالخلافة ابنه الأكبر أبو جعفر المنصور
ولقب المستنصر بالله وسلك في الخير والإحسان إلى الناس سيرة أبيه رضى الله عنه وأمر فنودى ببغداد
بإفاضه العدل ولأن من كان له حاجة أو مظلمة يطالع بها تقضى حاجته وتكشف مظلمته فلما كان أول جمعة
أتت على خلافته أراد أن يصلى الجمعة في المقصورة التي كان يصلى فيها الخلفاء فقبل له إن المطبق الذي يسلك
فيه إليها خراب لا يمكن سلوكه فركب فرسا وسار إلى الجامع جامع القصر ظاهرا يراه الناس بقميص أبيض
وعمامة بيضاء بسكاكين حرير ولم يترك أحدا يمشی معه من أصحابه بالصلاة إلى الموضع الذي كان يصلى فيه
وسار هو ومعه خادمان وركابدار لا غير فصلى وعاد وكذلك الجمعة الثانية حتى أصح له المطبق وكان السمر
قد تحرك بعد وفاة الظاهر بأمر الله رضى الله عنه فبلغت الكارة ثمانية عشر قيراطا فأمر أن تباع الغلات
التي له كل كارة بثلاثة عشر قيراطا فرخصت الأسعار واستقامت الأمور .

(ذكر الحرب بين كيقباز وصاحب آمد) في هذه السنة في شعبان سار علاء الدين كيقباز بن كينخسرو بن
قلاج أرسلان ملك بلاد الروم إلى بلاد الملك المسعود صاحب آمد وملك عدة من حصونه وسبب ذلك ما ذكرناه
من اتفاق صاحب آمد مع جلال الدين خوارزمشاه والملك المعظم صاحب دمشق وغيرهما على خلاف الأشرف
فلما رأى الأشرف ذلك أرسل إلى كيقباز ملك الروم وكأما متفقين يطلب منه أن يقصد بلد صاحب آمد
ويجاريه وكان الأشرف حينئذ على ماردین فسار ملك الروم إلى ملطية وهي له فنزل عندها وسير العساكر
إلى ولاية صاحب آمد ففتحوا حصن منصور وحصن شمكا زاد وغيرها فلما رأى صاحب آمد ذلك راسل
الأشرف وعاد إلى موافقته فأرسل الأشرف إلى كيقباز يعرفه ذلك ويقول له ليعيد إلى صاحب آمد ما أخذ
منه فلم يفعل وقال لم أكن نائبا للأشرف بأمرني وبينما أنا فاتفق أن الأشرف سار إلى دمشق ليصلح أخاه الملك
المعظم وأمر العساكر التي له بديار الجزيرة بمساعدة صاحب آمد إن أصر ملك الروم على قصده فسارت
عساكر الأشرف إلى صاحب آمد وقد جمع عسكره ومن بيلاده بمن يصلح للحرب وسار إلى عسكر ملك
الروم وهم يحاصرون قلعة الكختا فالتقوا هناك في شوال فاهزم صاحب آمد ومن معه من العساكر هزيمة
عظيمة وجرح كثير وأسر كثير وملك عسكر كيقباز قلعة الكختا بعد الهزيمة وهي من أمنع الحصون والمعقل
فلما ملكوه عادوا إلى صاحبهم .

(ذكر حصر جلال الدين مدينتي آني وقرس) في هذه السنة في رمضان عاد جلال الدين من كرمان كما
ذكرناه إلى تفليس وسار منها إلى مدينة آني وهي للكرج وبها إيواني مقدم عساكر الكرج فيمن بقي معه من
أعيان الكرج فحصره وسير طائفة من العسكر إلى مدينة قرس وهي للكرج أيضا وكلاهما من أحسن البلاد
وأمنها فنازلها وحصرها وقاتل من بهما ونصب عليهما المجانيق وجد في القتال عليهما وحفظهما الكرج
(٤٧ - كامل - ٩)

وبالغوا في الحفظ والاحتياط لخوفهم منه أن يفعل بهم ما فعل بأشباعهم من قبل بمدينة تفليس وأقام عليهما إلى أن مضى بعض شوال ثم ترك العسكر عليهما محصرين ونهما وعاد إلى تفليس وسار من تفليس مجدا إلى بلاد انخاز وبقايا الكرج فأوقع بمن فيها فتهب وقتل وسبي وخرب البلاد وأحرقها وغنم عساكره ما فيها وعاد منها إلى تفليس .

(ذکر حصر جلال الدین خلط) قد ذكرنا أن جلال الدين عاد من مدينة آني إلى تفليس ودخل بلاد انخاز وكان رحيله مكيدة لأنه بلغه أن النائب عن الملك الأشرف وهو الحاجب حسام الدين علي بمدينة خلط قد احتاط واهتم بالأمر وحفظ البلد لقربه منه فعاد إلى تفليس ليطمئن أهل خلط وتركوا الاحتياط والاستظهار ثم بقصدهم بغتة فكانت غيبته ببلاد انخاز عشرة أيام وعاد وسار مجدا على عادته فلم يكن عنده من يرسل نواب الأشرف بالأخبار لفجأهم على غفلة منهم وإنما كان عنده بعض ثقافته يعرفهم أخباره وكتب اليهم يخبرهم فوصل الخبر اليهم قبل وصوله بيومين ووصل جلال الدين فنزل مدينة ملاز كرد يوم السبت ثالث عشر ذي القعدة ثم رحل عنها فنزل مدينة خلط يوم الاثنين خامس عشرة فلم ينزل حتى زحف إليها وقاتل أهلها قتالا شديدا فوصل عسكره سور البلد وقتل بينهم قتلى كثيرة ثم زحف إليها مرة ثانية وقاتل أهل البلد قتالا عظيما فعظمت نكابة العسكر في أهل خلط ووصلوا إلى سور البلد ودخلوا الرض الذي له ومدوا أيديهم في النهب وسبي الحریم فلما رأى أهل خلط ذلك تذا مروا وحرص بعضهم بعضا فعادوا إلى العسكر فقاتلهم فأخرجوهم من البلد وقتل بينهم خلق كثير وأسر العسكر الخوارزمي من أمراء خلط جماعة وقتل منهم كثير وترجل الحاجب علي ووقف في نحر العدو وأبلى بلاء عظيما ثم إن جلال الدين استراح عدة أيام وعادوا الزحف مثل أول يوم فقاتلوه حتى أبعدوا عسكره عن البلد وكان أهل خلط مجدين في القتال حريصين على المنع عن أنفسهم لما رأوا من سوء سيرة الخوارزميين ونهبهم البلاد وما فيهم من الفساد فهم يقاتلون قتال من يمنع عن نفسه وحریمه وماله ثم أقام عليها إلى أن اشتد البرد ونزل شيء من الثلج فرحل عنها يوم الثلاثاء لجمع بقين من ذي الحجة من السنة وكان سبب رحيله مع خوف الثلج ما بلغه عن التركان الإيوائية من الفساد ببلاد .

(ذکر إيقاع جلال الدین بالتركان الإيوائية) كان التركان الإيوائية قد تغلبوا على مدينة أشتروارمية من من نواحي أذربيجان وأخذوا الخراج من أهل خوى ليكفوا عنهم واغثروا باشتغال جلال الدين بالكرج وبعدهم بخلاط وازداد طمعهم وانبطوا بأذربيجان ينهبون ويقطعون الطريق والأخبار تأتي إلى خوارزمشاه جلال الدين وهو يتغافل عنهم لاشتغاله بما هو أهم عنده وبلغ من طمعهم أنهم قطعوا الطريق بالقرب من تبريز وأخذوا من تجار أهلها شيئا كثيرا ومن جملة ذلك أنهم اشتروا غنما من أرزن الروم وقصدوا بها تبريز فلقبهم الإيوائية قبل وصولهم إلى تبريز فأخذوا جميع ما معهم ومن جملة عشرون ألف رأس غنم فلما اشتد ذلك على الناس وعظم الشر أرسلت زوجة جلال الدين ابنة السلطان طغرل ونوابه في البلاد إليه يستغيثون ويعرفونه أن البلاد قد خربها الإيوائية ولئن لم يلحقها وإلا هلكت بالمرّة فاتفق هذا إلى خوف الثلج فرحل عن خلط وجد السير إلى الإيوائية وهم آمنون مطمئنون لعلهم أن خوارزمشاه على خلط وظنوا أنه لا يفارقها فلولا هذا الاعتقاد لصعدوا إلى جبال لهم منبعة شاهقة لا يرتقى إليها إلا بمشقة وعناء فإنهم كانوا إذا خافوا صعدوا

إليها وامتنعوا بها فلم يرعهم إلا والعساكر الجلالية قد أحاطت بهم وأخذهم السيف من كل جانب فأكثروا القتل فيهم والنهب والسبي واسترقوا الحرير والأولاد وأخذوا من عندهم مالا يدخل تحت الحصر فأوا كثيرا من الأمتة التي أخذوها من التجار بحالها في الشدوات لم تحمل هذا سوى ما كانوا قد حلوه وفصلوه فلما فرغ عاد إلى تبريز .

(ذكر الصلح بين المعظم والأشرف) نبدي بذكر سبب الاختلاف فنقول لما توفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب اتفق أولاده الملوك بعده اتفاقا حسنا وهم الملك الكامل محمد صاحب مصر والملك المعظم عيسى صاحب دمشق والبيت المقدس وما يجاورها من البلاد والملك الأشرف موسى وهو صاحب ديار الجزيرة وخراسان واجتمعت كلمتهم على دفع الفرنج عن الديار المصرية ولما رحل الكامل عن دمياط لما كان الفرنج يحصرونها صادفه أخوه المعظم من الغد وقويت نفسه وثبت قدمه ولولا ذلك لكان الأمر عظيما وقد ذكرنا ذلك مفصلا ثم إنه عاد من مصر وسار إلى أخيه الأشرف ببلاد الجزيرة مرتين يستنجده على الفرنج ويحثه على مساعدة أخيه الكامل ولم يزل به حتى أخذه وسار إلى مصر وأزالوا الفرنج عن الديار المصرية كما ذكرناه قبل فكان اتفاقهم سببا لحفظ بلاد الإسلام وسر الناس أجمعون بذلك فلما فارق الفرنج مصر وعاد كل من الملوك أولاد العادل إلى بلده بقوا كذلك يسيرا ثم سار الأشرف إلى أخيه الكامل بمصر فاجتاز بأخيه المعظم بدمشق فلم يستصحبه معه وأطال المقام بمصر فلا شك أن المعظم سار إلى مدينة حماة وحصرها وأرسل إليه أخواه من مصر ورحلاه عنها كارها فإزداد نفورا و قيل إنه نقل إليه عنهما أنهما اتفقا عليه والله أعلم بذلك ثم انضاف إلى ذلك أن الخليفة الناصر لدين الله رضى الله عنه كان قد استوحش من الكامل لما فعله ولده صاحب اليمن بمكة من الاستهانة بأمير الحاج العراقي فأعرض عنه وعن أخيه الأشرف لاتفاقهما وقاطعتهما وراسل مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على صاحب إربل لعله بانحرافه عن الأشرف واستماله واتفقا على مراسلة المعظم وتنظيم الأمر عليه فقال إليهما وانحرف عن أخويه ثم اتفق ظهور جلال الدين وكثرة ملكه فاشتد الأمر على الأشرف بمجاورة جلال الدين خوارزمشاه ولاية خراسان ولأن المعظم بدمشق يمنع عنه عساكر مصر أن تصل إليه وكذلك عساكر حلب وغيرها من الشام فرأى الأشرف أن يسير إلى أخيه المعظم بدمشق فسار إليه في شوال واستماله وأصلحه فلما سمع الكامل بذلك عظم عليه وظن أن اتفاقهما عليه ثم إنهما راسلاه وأعلماه بنزول جلال الدين على خراسان وعظما الأمر عليه وأعلماه أن هذه الحال تقتضى الاتفاق لعارة البيت العادل وانقضت السنة والأشرف بدمشق والناس على موضعهم ينتظرون خروج الشتاء ما يكون من الخوارزميين ومنذكر ما يكون سنة أربع وعشرين وستمائة إن شاء الله تعالى .

(ذكر الفتنة بين الفرنج والأرمن) في هذه السنة جمع البرنس الفرنجى صاحب أنطاكية جموعا كثيرة وقصد الأرمن الذين في الدروب من بلاد ابن ليون فكان بينهم حرب شديدة وسبب ذلك أن ابن ليون الأرمنى صاحب الدروب توفي قبل ولم يخلف ولدا ذكرا إنما خلف بنتا فلما علم الأرمن عليهم ثم علموا أن الملك لا يقوم بامرأة فزوجوها من ولد البرنس فتزوجها وانتقل إلى بلدهم واستقر في الملك نحو سنة ثم ندموا على ذلك وخافوا أن يستولى الفرنج على بلادهم فثاروا بابن البرنس فقبضوا عليه وسجنوه فأرسل أبوه يطلب أن يطلق ويعاد في الملك فلم يفعلوا فأرسل إلى بابا ملك الفرنج برومية الكبرى يستأذنه في قصد بلادهم وهذا

ملك رومية أمره هند الفرنج لا يخالف فتمنع عنهم وقال إنهم أهل ملتنا ولا يجوز قصد بلادهم فخالفه وأرسل إلى علاء الدين كيقباز ملك قونية وملطية وما بينهما من بلاد المسلمين وضالجه ووافق على قصد بلاد ابن ليون والاتفاق على قصدتها، فاتفقا على ذلك وجمع البرنس عما كره ليسير إلى بلاد الأرمن فخالف عليه الداوية والاستتار وهما جمة الفرنج فقالوا إن ملك رومية نهانا عن ذلك إلا أنه أطاعه غيرهم فدحل أطراف بلاد الأرمن وهي مضائق وجبال وعرة فلم يتمكن من فعل ما يريد، وأما كيقباز فإنه قصد بلاد الأرمن من جهته وهي أسهل مدخلا من جهة الشام فدخلها سنة اثنتين وعشرين وستمئة فنهبا وأحرقها وحصر عدة حصون ففتح أربعة حصون وأدركه الشتاء فعاد عنها فلما سمع بابا ملك الفرنج برومية أرسل إلى الفرنج بالشام يعلمهم أنه قد حرم البرنس فكان الداوية والاستتارية وكثير من الفرنج لا يحضرون معه ولا يسمعون قوله وكان أهل بلاده وهي أنطاكية وطرابلس إذا جاءهم عيد يخرج من عندهم، فإذا فرغوا من عيدهم دخل البلد، ثم إنه أرسل إلى ملك رومية يشكو من الأرمن وأنهم لم يطلقوا ولده فأرسل إلى الأرمن يأمرهم بإطلاق ابنه وإعادةه إلى الملك، فإن فعلوا وإلا فقد أذن له في قصد بلادهم، فلما بلغتهم الرسالة لم يطلقوا ولده، فجمع البرنس، وقصد بلاد الأرمن، فأرسل الأرمن إلى الأتابك شهاب الدين بحلب، يستنجذونه ويخوفونه من البرنس إن استولى على بلادهم لأنها تجاور أعمال حلب، فأمدتهم بجند وسلاح، فلما سمع البرنس ذلك، صم العزم على قصد بلادهم، فسار إليهم وحاربهم، فلم يحصل على غرض، فعاد عنهم حدثي بهذا رجل من عقلاء النصارى، من دخل تلك البلاد وعرف حالها وسألت غيره فعرف البعض وأنكر البعض.

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة انخسف القمر مرتين أولهما ليلة رابع عشر صفر. وفيها كانت أعجوبة بالقرب من الموصل حامة تعرف بعين القيارة شديدة الحرارة تسميها الناس عين ميمون ويخرج مع الماء قليل من القار فكان الناس يسبحون فيها دائما في الربيع والخريف لأنها تنفع من الأمراض الباردة كالغالج وغيره نفعا عظيما، فكان من يسبح فيها يجد الكرب الشديد من حرارة الماء، ففي هذه السنة برد الماء فيها حتى كان السابح فيها يجد البرد فتركوها وانتقلوا إلى غيرها. وفيها كثرت الذئب والنخازير والحيات، فقتل كثير. فلقد بلغني أن ذئبا دخل الموصل فقتل فيها. (وحدثني) صديق لنا له بستان بظاهر الموصل أنه قتل فيه في سنة اثنتين وعشرين وستمئة جميع الصيف حيتين. وقتل هذه السنة إلى أول حزيران سبع حيات لكثرتها وفيها انقطع المطر بالموصل وأكثر البلاد الجزرية من خامس شباط إلى ثاني عشرة نيسان ولم يجر شيء يعتد به لكنه سقط اليسير منه في بعض القرى لجأت الغلات قليلة. ثم خرج الجراد الكثير فازدادت الناس أذى وكانت الأسعار قد صلحت شيئا فعادت لكثرة الجراد غلت ونزل أيضا في كثير من القرى برد كبير أهلك زروع أهلها وأفسدها واختلقت أقاويل الناس في أكبره كان وزن بردة مائتي درهم وقيل رطل وقيل غير ذلك إلا أنه أهلك كثيرا من الحيوان وانقضت هذه السنة والغلاء باق واشتد بالموصل. وفيها اصطاد صديق لنا أرنباً فرآه وله اثنيان، وذكر وفرج أنثى، فلما شقوا بطنها رأوا فيها حريفين، سمعت هذا منه ومن جماعة كانوا معه. وقالوا مازلنا نسمع أن الأرنب يكون سنة ذكرا وسنة أنثى، ولا نصدق بذلك، فلما رأينا هذا علمنا أنه قباح وهو أنثى، وانقضت السنة فصار ذكرا. فإن كان كذلك فيكون في الأرناب كالحثي من بني آدم يكون لأحدهم فرج الرجل وفرج الأنثى. فإني كنت بالجزيرة ولنا جار له بنت اسمها صبية فبقيت كذلك

نحو خمس عشرة سنة ، وإذا قد طلع لها ذكر رجل ونبتت لحيتها فكان لها فرج امرأة وذكر رجل . وفيها ذبح إنسان عندنا رأس غنم فوجد لحمه مر أشد المرارة حتى رأسه وأكارعه ومغلاقه وجميع أجزائه وهذا ما لم يسمع بمثله . وفيها في يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذي القعدة ضحوة النهار زلزات الأرض بالموصل وكثير من البلاد العربية والعجمية ، وكان أكثرها بشهر زور فإنها خرب أكثرها لاسيما القلعة فإنها أجمعت بها وخرب من تلك الناحية ست قلاع وبيت الزلزلة تردد فيها نيفا وثلاثين يوما ، ثم كشفها الله عنهم ، وأما القرى بتلك الناحية فخرب أكثرها . وفيها في رجب توفي القاضي حجة الدين أبو منصور المظفر بن عبد القاهر ابن الحسن بن علي بن القاسم الشهرزوري قاضي الموصل بها وكان قد أضر قبل وفاته بنحو سنتين ، وكان عالما بالقضاء عفيفا نزها ذا رياسة كبيرة وله صلوات داراة للقيم والوارد رحمه الله ، فلقد كان من محاسن الدنيا ولم يخلف غير بنت توفيت بعده بثلاثة أشهر (١) .

(ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة)

(ذكر دخول الكرج مدينة تفليس وإحراقها) في هذه السنة في ربيع الأول وصل الكرج مدينة تفليس ولم يكن بها من العسكر الإسلامي من يقوم بحمايتها وسبب ذلك أن جلال الدين لما عاد من خلاط كما ذكرنا قبل ، وأوقع بالإيونية فرق عساكره إلى المواضع الحارة الكثيرة المرعى ليشتوا بها ، وكان عسكره قد أساوا السيرة في رعية تفليس وهم مسلمون وعسفوهم فدكاتبوا الكرج يستدعونهم إليهم ليلكوهم البلد فاغتم الكرج ذلك ليل أهل البلد إليهم وخلوه من العسكر فاجتمعوا وكانوا بمدينة قرس وآنى وغيرهما من الحصون وساروا إلى تفليس وكانت خالية كما ذكرناه ، ولأن جلال الدين استضعفه الكرج لكثرة من قتل منهم ولم يظن فيهم حركة فلكوا البلد ووضعوا السيف فيمن بقي من أهله وعلوه أنهم لا يقدر على حفظ البلد من جلال الدين فأحرقوها جميعها وأما جلال الدين فإنه لما بلغه الخبر سار فيمن عنده من العساكر ليدركهم فلم يبر منهم أحدا كانوا قد فارقوا تفليس لما أحرقوها .

(ذكر نهب جلال الدين بلد الإسماعيلية) في هذه السنة قتل الإسماعيلية أميرا كبيرا من أمراء جلال الدين وكان قد أقطعه جلال الدين مدينة كنجة وأعمالها وكان نعم الأمير كثير الخير حسن السيرة ينكر على جلال الدين ما يفعله عسكره من النهب وغيره من الشر فلما قتل ذلك الأمير عظم قتله على جلال الدين واشتد عليه

(١) وفيها توفي أبو محمد محمود بن محمود بن محمود البلدجى الحنفى الموصلى ، وله بها مدرسة تعرف به ، وكان من أبناء الترك ، وصار من مشايخ العلماء وله دين متين وشعر حسن جيد ، فنه قوله .

من ادعى أن له حالة . تخرجه عن منهج الشرع

فلا تكون له صاحباً . فانه خره بلا نفع

كانت وفاته بالموصل في السادس والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة ، وله نحو من ثمانين سنة . وفيها توفي ياقوت ويقال له يعقوب بن عبدالله نجيب الدين متولى الشيخ تاج الدين الكندى ، وقد وقف إليه الكتب التى بالخرزانة بالواوية الشرقية الشمالية من جامع دمشق ، وكانت سبعمائة وإحدى وستين مجلدا ، ثم على ولده من بعده ثم على العلماء فتممحت هذه الكتب وبيع أكثرها ، وقد كان ياقوت هذا لديه فضيلة وأدب وشعر جيد ، وكانت وفاته ببغداد في مستهل رجب ، ودفن بمقبرة الخيزران بالقرب من مشهد أبي حنيفة :

سار في عساكره إلى بلاد الإسماعيلية من حدود المدية إلى كردكوه بخراسان فحرب الجميع وقتل أهلها ونهب الأموال وسبي الحرير واسترق الأولاد وقتل الرجال وعمل بهم الأعمال العظيمة وانتقم منهم وكانوا قد عظم شرم وازداد ضررهم وطعموا مذخرج التتر إلى بلاد الإسلام إلى الآن فكف عاديتهم وقدمهم ولقاهم الله ما حملوا بالمسلمين .

(ذكر الحرب بين جلال الدين والتتر) لما فرغ جلال الدين من الإسماعيلية بلغه الخبر ان طائفة من التتر عظيمة قد بلغوا إلى دامغان بالقرب من الري عازمين على بلاد الإسلام فسار اليهم وحاربهم واشتد القتال بينهم فانهمزوا منه فأوسعهم قتلا وتبع المهزمين عدة أيام يقتل ويأسر فبينما هو كذلك قد أقام بنواحي الري خوفا من جمع آخر للتتر إذ اتاه الخبر بأن كثيرا منهم واصلون اليه فأقام ينتظرهم وسنذكر خبرهم سنة خمس وعشرين وستمائة .

(ذكر دخول العساكر الأشرقية إلى أذربيجان وملك بعضها) في هذه السنة في شعبان سار الحاجب علي حسام الدين وهو النائب عن الملك الأشرف بخلاط والمقدم على عساكرها إلى بلاد أذربيجان فيمن عنده من العساكر وسبب ذلك أن سيرة جلال الدين كانت جائزة وعساكره طامعة في الرعايا وكانت زوجته ابنة السلطان طغرل السلجوقي وهي التي كانت زوجة أوزبك بن البهلون صاحب أذربيجان فتزوجها جلال الدين كما ذكرناه قبل وكانت مع أوزبك تحكم في البلاد جميعها ليس له ولا لغيره معها حكم فلما تزوجها جلال الدين أهملها ولم يلتفت إليها فخافته مع حرمة من الحكم والأمر والنهي فأرسلت هي وأهل خوى إلى حسام الدين الحاجب يستدعونه ليدخلوا البلاد له فصار ودخل البلاد بلاد أذربيجان فملك مدينة خوى وما يجاورها من الحصون التي بيد امرأة جلال الدين وملك مرندو كاتبه أهل مدينة نقجوان ففضى اليهم فسلوها اليه وقويت شوكتهم بتلك البلاد ولو داموا لملكوها جميعها إنما عادوا إلى خلاط واستصحبوا معهم زوجة جلال الدين ابنة السلطان طغرل إلى خلاط وسنذكر باقي خبرهم سنة خمس وعشرين إن شاء الله تعالى .

(ذكر وفاة المعظم صاحب دمشق وملك ولده) في هذه السنة توفي الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق يوم الجمعة سلخ ذى القعدة وكان مرضه دوسنطاريا وكان ملكه لمدينة دمشق من حين وفاة والده الملك العادل عشر سنين وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوما وكان عالما بعدة علوم فاضلا فيها منها الفقه على مذهب أبي حنيفة فإنه كان قد اشتغل به كثيرا وصار من المتميزين فيه ومنها علم النحو فإنه اشتغل به أيضا اشتغالا زائدا وصار فيه فاضلا وكذلك اللغة وغيرها وكان قد أمر أن يجمع له كتاب في اللغة جامع كبير فيه كتاب الصحاح للجوهري ويضاف إليه ما فات الصحاح من التهذيب للأزهري والجمهرة لابن دريد وغيرهما وكذلك أيضا أمر بأن يرتب مسند أحمد بن حنبل على الأبواب ويرد كل حديث إلى الباب الذي يقتضيه معناه مثاله أن يجمع أحاديث الطهارة وكذلك يفعل في الصلاة وغيرها من الرقائق والتفسير والغزوات فيكون كتابا جامعا وكان قد سمع المسند من بعض أصحاب ابن الحصين ونفق الدلم في سوقه وقصده العلماء من الآفاق فأكرمهم وأجرى عليهم الجرايات الوافرة وقربهم وكان يجالسهم ويستفيد منهم ويفيدهم وكان يرجع إلى علم وصبر على سماع ما يكره لم يسمع أحد ممن يصحبه منه كلمة تسوءه وكان حسن الاعتقاد يقول كثيرا إن اعتقادي في الأصول ما سطره أبو جعفر الطحاوي ووصى عند موته بأن يكفن في البياض ولا يجعل في أكفانه ثوب فيه

ذهب وأن يدفن في لحد ولا يبنى عليه بناء بل يكون قبره في الصحراء تحت السماء ويقول في مرضه لي عند الله تعالى في أمر دمياط ما أرجو أن يرحمني به ولما توفي ولي بعده ابنه داود ويلقب الملك الناصر وكان عمره قد قارب عشرين سنة .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة دام الغلاء في ديار الجزيرة ودامت الأسعار تزيد قليلا وتنقص قليلا وانقطع المطر جميع شباط وعشرة أيام من أذار فازداد الغلاء فبلغت الخنطة كل مكوكين بالموصل بدينار وقيراطين بالموصل والشعير كل ثلاثة مكا كيك بالموصل بدينار وقيراطين أيضا وكل شيء بهذه النسبة في الغلاء وفيها في الربيع قل لحم الغنم بالموصل وغلا سعره حتى بيع كل رطل لحم بالبغدادى بحبتين بالصنجة وربما زاد في بعض الأيام على هذا الثمن وحكى لي من يتولى بيع الغنم بالموصل أنهم باعوا خروفا واحدا لا غير وفي بعضها خمسة رؤوس وفي بعضها ستة وأقل وأكثر وهذا ما لم يسمع بمثله ولا رأيناه في جميع أعمارنا ولا حكي لنا مثله لأن الربيع مظنة رخص اللحم لأن التركان والأكراد والكيلىكان ينتقلون من الأمانة التي شتوا بها إلى الزوزان فيبيعون الغنم رخيصا وكان اللحم كل سنة في هذا الفصل يكون سعره كل ستة أرطال وسبعة بقيراط صار هذه السنة الرطل بحبتين . وفيها عاشر أذار وهو العشرون من ربيع الأول سقط الثلج مرتين وهذا غريب جدا لم يسمع بمثله فأهلك الأزهار التي خرجت كزهر اللوز والمشمش والإجاص والسفرجل وغيرها ووصلت الأخبار من العراق جميعه مثل ذلك فهلكت به أزهار الثمار أيضا وهذا أعجب من حال ديار الجزيرة والشام فإنه أشد حرا من جميعها . وفيها ظفر جمع من التركان كانوا بأطراف أعمال حلب بفارس مشهور من الفرنج الداوية بأنطاكية فقتلوه فعلم الداوية بذلك فساروا وكبسوا التركان فقتلوا منهم وأسروا وغنموا من أموالهم فبلغ إلى أتابك شهاب الدين المتولى لأمور حلب فراسل الفرنج وتهدهم بقصد بلادهم واتفق أن عسكر حلب قتلوا فارسين كبيرين من الداوية أيضا فأذعوا بالصلح وردوا إلى التركان كثيرا من أموالهم وحرمتهم وأسراهم . وفيها في رجب اجتمع طائفة كثيرة من ديار بكر وأرادوا الإغارة على جزيرة ابن عمر ، وكان صاحب الجزيرة قد قتل فلما قصدوا بلد الجزيرة اجتمع أهل قرية كبيرة من بلد الجزيرة اسمها ملكون ولقوهم من ضحوة النهار إلى العصر وطال القتال بينهم ثم حمل أهل القرية على الأكراد فهزموهم وقتلوا فيهم ونهبوا ما معهم وعادوا سالمين .

(ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة)

(ذكر الخلف بين جلال الدين وأخيه) في هذه السنة خاف غياث الدين بن خوارزمشاه وهو أخو جلال الدين من أبيه أخاه وخافه معه جماعة من الأمراء واستشعروا منه وأرادوا الخلاص منه فلم يتمكنوا من ذلك إلى أن خرجت التمر واشتغل بهم جلال الدين فهزب غياث الدين ومن معه وقصدوا خوزستان وهي من بلاد الخليفة فلم يمكنهم النائب بها من الدخول إلى البلد خوفا أن تكون هذه مكيدة فبقى هناك فلما طال عليه الأمر فارق خوزستان وقصد بلاد الإسماعيلية فوصل إليهم واحتسب بهم واستجار بهم وكان جلال الدين قد فرغ من أمر التمر وعاد تبريز فأناه الخبر وهو بالميدان يلعب بالكرة أن أخاه قد قصد أصفهان فألقى الجوكان من يده وسار مجدا فسمع أن أخاه قصد الإسماعيلية ملتجئا إليهم ولم يقصد أصفهان فعاد إلى بلاد الإسماعيلية لينهب بلادهم

إن لم يسلوا إليه أخاه وأرسل يطلبه من مقدم الإسماعيلية فأعاد الجواب يقول إن أخاك قد قصدنا وهو سلطان ابن سلطان ولا يجوز لنا أن نسله لكن نحن نتركه عندنا ولا نمكنه أن يقصد شيئا من بلادك ونسألك أن تشفعنا فيه والضمان علينا بما قلنا ومتى كان منه ما نكره في بلادك فبلادنا حينئذ بين يديك تفعل فيها ما تختار فأجابهم إلى ذلك واستحلفهم على الوفاء بذلك وعاد منهم وقصد خلاط على ما نذره إن شاء الله تعالى .

(ذكر الحرب بين جلال الدين والتتر) في هذه السنة عاود التتر الخروج إلى الري وجرى بينهم وبين جلال الدين حروب كثيرة اختلف الناس علينا في عددها كان أكثرها عليه وفي الأخير كان الظفر له وكانت في أول حرب بينهم عجائب غريبة وكان هؤلاء التتر قد سخط ملكهم جنكزخان على مقدمهم وأبعده عنه وأخرجه من بلاده فقصد خراسان فرآها تخرابا فقصد الري لينقلب على تلك النواحي والبلاد فلقبه بها جلال الدين فاقتلوا أشد قتال ثم انهزم جلال الدين وعاود ثم انهزم وقصد أصفهان وأقام بينها وبين الري وجمع عساكره ومن في طاعته فكان فيمن أناه صاحب بلاد فارس وهو ابن أتبك سعد ملك بعد وفاة أبيه كاذرناه وعاد جلال الدين إلى التتر فلقبهم فينيهام مصطفىون كل طائفة مقابل الأخرى انفرد غياث الدين أخو جلال الدين فيمن وافقه من الأمراء على مفارقة جلال الدين واعتزلوا وقصدوا الجهة ساروا إليها فلما رأهم التتر قد فارقوا العسكر ظوهم يريدون أن يأتوهم من وراء ظهورهم ويقاتلوهم من جهتين فانهزم التتر لهذا الظن وتبعهم صاحب بلاد فارس وأما جلال الدين فإنه لما رأى مفارقه أخيه إياه ومن معه من الأمراء ظن أن التتر قد رجعوا خديعة ليستدرجوه فعاد منهزما ولم يجسر يدخل أصفهان لئلا يحصروه فضى إلى سميدم وأما صاحب فارس فلما أبعده في أثر التتر ولم يرجع جلال الدين ولا عسكره معه خاف التتر فعاد عنهم وأما التتر فلما لم يروا في آثارهم أحدا يطلبهم وقفوا ثم عادوا إلى أصفهان فلم يجدوا في طريقهم من يمنعهم فوصلوا إلى أصفهان فحاصروها وأهلها يظنون أن جلال الدين قد عدم فينيهام كذلك والتتر يحصرونهم إذ وصل قاصد من جلال الدين إليهم يعرفهم سلامته ويقول إني متعوق أو يجتمع إلى من سلم من العسكر وأقصدكم ونفق أنا وأنتم على إزعاج التتر ونرحلهم عنكم فأرسلوا إليه يستدعونه إليهم ويعدونه البصرة والخروج معه إلى عدوه وفيهم شجاعة عظيمة فسار إليهم واجتمع بهم وخرج أهل أصفهان معه فقاتلوا التتر فانهزم التتر أصبح هزيمة وتبعهم جلال الدين إلى الري يقتل ويأسر فلما أبعدها عن الري أقام بها وأرسل إليه ابن جنكزخان يقول إن هؤلاء ليسوا من أصحابنا إنما نحن أبعدها عنا فلما أمن جانب جنكزخان أمن وعاد إلى أذربيجان .

(ذكر خروج الفرنج إلى الشام وعمارة صيدا) وفي هذه السنة خرج كثير من الفرنج من بلام التي هي في الغرب من صقلية وما وراءها من البلاد إلى بلادهم التي بالشام عكا وصور وغيرها من ساحل الشام فكثرت جمعهم وكان قد خرج قبل هؤلاء جمع آخر أيضا إلا أنهم لم تمكنهم الحركة والشروع في أمر الحرب لأجل أن ملكهم الذي هو المقدم عليهم هو ملك الألمان ولقبه إنبرور قيل معناه ملك الأمراء ولأن المعظم كان حيا وكان شهما شجاعا مقدما فلما توفي المعظم كاذرناه وولى بعده ابنه وملك دمشق طمع الفرنج وظهروا من عكا وصور وبيروت إلى مدينة صيدا وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين وسورها خراب فعمروها واستولوا عليها وأزالوا عنها حكم المسلمين وإنما لم ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها تبين وهونين وغيرها وقد تقدم ذكر ذلك قبل مستقصى فمظمت شوكة الفرنج وقوى طمعهم واستولى في طريقه على جزيرة قبرس

وملكها وسار منها إلى عكافارتاع المسلمون لذلك واقه تعالى بخذله وينصر المسلمين بمحمد وآله ثم إن ملكهم إنبرور وصل إلى الشام .

(ذكر ملك كيقباز أرزنكان) وفي هذه السنة ملك علاء الدين كيقباز بن كينخسرو بن قلع أرسلان وهو صاحب قونية واقصرا ومطية وغيرها من بلاد الروم أرزنكان وسبب ملكه إياها أن صاحبها وبهرام شاه وكان قد طال ملكه لها وجاوز ستين سنة توفي ولم يزل في طاعة قلع أرسلان وأولاده بعده فلما توفي ملك بعده ولده علاء الدين داود شاه فأرسل إليه كيقباز يطلب منه عسكرا ليسير معه إلى مدينة أرزن الروم ليحصرها ويكون هو مع العسكر ففعل ذلك وسار في عسكره إليه فلما وصل قبض عليه وأخذ مدينة أرزنكان منه وله حصن من أمنع الحصون اسمه كاخ وفيه مستحفظ لداود شاه فأرسل إليه ملك الروم يحصره فلم يقدر العسكر على القرب منه لعلوه وارتفاعه وامتناعه فهدد داود شاه إن لم يسلم كاخ فأرسل إلى نائبه في التسليم فسلم القلعة إلى كيقباز. وأراد كيقباز المسير إلى أرزن الروم ليأخذها وبها صاحبها ابن عمه طغرل شاه بن قلع أرسلان فلما سمع صاحبها بذلك أرسل إلى الأمير حسام الدين علي النائب عن الملك الأشرف بخلاط يستنجده وأظهر طاعة الأشرف فسار حسام الدين فيمن عنده من العساكر وكان قد جمعها من الشام وديار الجزيرة خوفا من ملك الروم خافوا أنه إذا ملك أرزن الروم يتعدى أو يقصد خلاط فسار الحاجب حسام الدين إلى أرزن الروم ومنع عنها ولما سمع كيقباز بوصول العساكر إليهم لم يقدم علي قصدتها فسار من أرزنكان إلى بلاده وكان قد أتاه الخبر أن الروم الكفار المجاورين لبلاده قد ملكوا منه حصنا يسمى صنوب وهو من أحسن القلاع مطن على البحر بحر الخزر فلما وصل إلى بلاده سير العسكر إليه وحصره برا وبحرا فاستعاده من الروم وسار إلى أنطاكية ليشق بها على عادته .

(ذكر خروج الملك الكامل) في هذه السنة في شوال سار الملك الكامل محمد بن الملك العادل صاحب مصر إلى الشام فوصل إلى البيت المقدس حرسه الله تعالى وجعله دار الإسلام أبدا ثم سار عنه وولى بمدينة نابلس وشحن على تلك البلاد جميعها وكانت من أعمال دمشق وهو إلى الملك المعظم يخاف أن يقصده ويأخذ دمشق منه فأرسل إلى عمه الملك الأشرف يستنجده ويطلبه ليحضر عنده بدمشق فسار إليه جريدة فدخل دمشق فلما سمع الكامل بذلك لم يتقدم إليه لأن البلد منيع وقد صار به من يمنعه ويحميه وأرسل إليه الملك الأشرف يستعطفه ويعرفه أنه ما جاء إلى دمشق لإطاعة له وموافقة لأغراضه والاتفاق معه على منع الفرنج عن البلاد فأعاد الكامل الجواب يقول إنني ماجئت إلى هذه البلاد إلا بسبب الفرنج فانهم لم يكن في البلاد من يمنعهم عما يريدونه وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا وأنت تعلم أن عمنا السلطان صلاح الدين فتح البيت المقدس فصار لنا بذلك الذكر الجميل على تقضى الأعصار وتمر الأيام فإن أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر وقبح الأحداث ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي ادخره عمنا وأي وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى ثم إهم ما يقنعون حينئذ بما أخذوه ويتعدون إلى غيره وحيث قد حضرت أنت فأنا أعود إلى مصر واحفظ أنت البلاد ولست بالذي يقال عني أي قانتلت أخي أو حصرته حاشي لله تعالى وتأخر عن نابلس نحو الديار المصرية ونزل تل العجول يخاف الأشرف والناس قاطبة بالشام وعدوا أنه إن عاد استولى الفرنج على البيت المقدس وغيره مما يجاوره لآمانع دونه فترددت الرسل وسار الأشرف

بنفسه إلى الكامل أخيه فحضر عنده وكان وصوله ليلة عيد الأضحى ومنعه من العود إلى مصر فأقاما بمكانهما .
 (ذكر نهب جلال الدين بلاد أرمينية) في هذه السنة وصل جلال الدين خوارزم شاه إلى بلاد خلاط
 وتعدى خلاط إلى صحراء موش وجبل حور ونهب الجميع وسى الحرم واسترق الأولاد وقتل الرجال وخرب
 القرى وعاد إلى بلاده ولما وصل الخبر إلى البلاد الجزرية حران وسروج وغيرهما أنه قد جاز خلاط إلى
 جور وأنه قد قرب منهم خاف أهل البلاد أن يجيء إليهم لأن الزمان كان شتاء وظنوا أنه يقصد الجزيرة ليشق
 بها لأن البرد بها ليس بالشديد وعزموا على الانتقال من بلادهم إلى الشام ووصل بعض أهل سروج إلى منبج
 من أرض الشام فاتاهم الخبر أنه قد نهب البلاد وعاد فأقاموا وكان سبب عوده أن الثلج سقط ببلاد خلاط
 كثيرا لم يعهد مثله فأسرع العود .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة رخصت الأسعار بديار الجزيرة جميعها وجاءت الغلات لهم من
 الحنطة والشعير جيدا إلا أن الرخص لم يبلغ الأول الذي كان قبل الغلاء إنما صارت الحنطة كل خمس مكاكيك
 بدينار والشعير كل سبعة عشر مكوكا بالموصل بدينار (١)

(ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة)

(ذكر تسليم البيت المقدس إلى الفرنج) في هذه السنة أول ربيع الآخر تسلّم الفرنج لعنهم الله البيت المقدس
 صلحا أعاده الله إلى الإسلام سريعا وسبب ذلك ما ذكرناه سنة خمس وعشرين وستمائة من خروج الإنبرور
 وملك الفرنج من بلاد الفرنج داخل البحر إلى ساحل الشام وكانت عساكره قد سبقته ونزلوا بالساحل وأفسدوا
 من يجاورهم من بلاد المسلمين ومضى إليهم وهم بمدينة صور طائفة من المسلمين يسكنون الجبال المجاورة لمدينة
 صور وأطاعوهم وصاروا معهم وقوى طمع الفرنج بموت الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب
 صاحب دمشق ، ولما وصل الإنبرور إلى الساحل نزل بمدينة عكا وكان الملك الكامل صاحب مصر قد خرج
 من الديار المصرية يريد الشام بعد وفاة أخيه المعظم وهو نارل بتل العجول يريد أن يملك دمشق من صلاح الدين
 داود بن المعظم وهو صاحبها يومئذ ، وكان داود لما سمع بقصد عمه الملك الكامل له ، قد أرسل إلى عمه الملك
 الأشرف صاحب البلاد الجزرية يستنجده ويطلب منه المساعدة على دفع عمه عنه فسار إلى دمشق فترددت
 الرسل بينه وبين أخيه الملك الكامل في الصلح فاصطلحا واتفقا وسار الملك الأشرف إلى الملك الكامل واجتمع
 به فلما اجتمعا ترددت الرسل بينهما وبين الإنبرور ملك الفرنج دفعات كثيرة فاستقرت القاعدة على أن يسلبوا
 إليه البيت المقدس ومعه مواضع يسيرة من بلاده ويكون باقي البلاد مثل الخليل ونابلس والغور وطبرية وغير
 ذلك بيد المسلمين ولا يسلم إلى الفرنج إلا البيت المقدس والمواضع التي استقرت معه وكان سور البيت المقدس
 خرابا قد خربه الملك المعظم . وقد ذكرنا ذلك وتسلم الفرنج البيت المقدس واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه
 ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه . يسر الله فتحه . وعوده إلى المسلمين بمنه وكرمه . آمين .

(١) وفيها توفي أبو المعالي أسعد بن يحيى بن موسى بن منصور بن عبد العزيز بن وهب الفقيه الشافعي البخاري ،
 شيخ أديب فاضل خير ، له نظم وشر ظريف ، وله نوادر حسنة وجاوز التسعين . قد استوزره صاحب حماة في
 وقت . وفيها توفي أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن حمدان الطبي المعروف بالصائغ ، أحد المعيدين
 بالنظامية ، ودرس بالثقفة ، وكان عارفا بالمذهب والفرائض والحساب ، صنف شرحا للثبني . ذكره ابن الساعي .

(ذكر ملك الملك الأشرف مدينة دمشق) وفي هذه السنة يوم الاثنين ثاني شعبان ملك الملك الأشرف ابن الملك العادل مدينة دمشق من ابن أخيه صلاح الدين داود بن المعظم وسبب ذلك ما ذكرناه أن صاحب دمشق لما خان من همه الملك الكامل أرسل إلى عمه الأشرف يستنجده ويستعين به على دفع الكامل فسار إليه من البلاد الجزرية ودخل دمشق وفرح به صاحبها وأهل البلد وكانوا قد احتاطوا وهم يتجهزون للحصار فأمر بإزالة ذلك وترك ما عزموا عليه من الاحتياط وحلف لصاحبها على المساعدة والحفظ له ولبلاده عليه وراسل الملك الكامل واصطالحا وظن صاحب دمشق أنه معهما في الصلح وسار الأشرف إلى أخيه الكامل واجتمعما في ذي الحجة من سنة خمس وعشرين يوم العيد وسار صاحب دمشق إلى بيدان وأقام بها وعاد الملك الأشرف من عند أخيه واجتمع هو وصاحب دمشق ولم يكن الأشرف في كثرة من العسكر فبينما هما جالسان في خيمة لهما وإذا قد دخل عز الدين أيك بملوك المعظم الذي كان صاحب دمشق وهو أكبر أمير مع ولده فقال لصاحبه داود قم اخرج وإلا قبضت الساعة فأخرجه ولم يمكن الأشرف منعه لأن أيك كان قد أركب العسكر الذي له جميعه وكانوا أكثر من الذين مع الأشرف فخرج داود وسار هو وعسكره إلى دمشق وكان سبب ذلك أن أيك قبل له إن الأشرف يريد القبض على صاحبه وأخذ دمشق منه ففعل ذلك فلما عادوا وصلت العساكر من الكامل إلى الأشرف وسار فنازل دمشق وحصرها وأقام محاصرا لها إلى أن وصل إليه الملك الكامل فحينئذ اشتد الحصار وعظم الخطب على أهل البلد وبلغت القلوب الحناجر وكان من أشد الأمور على صاحبها أن المال عنده قليل لأن أمواله بالكرك ولو ثوقه بعمه الأشرف لم يحضر منها شيئا فاحتاج إلى أن باع حلى نسائه وملبوسهم وضاعت الأمور عليه فخرج إلى عمه الكامل وبذل له تسليم دمشق على أن يبقى عليه الكرك وقلعة الشويك والغور ونابلس وتلك الأعمال وأن يبقى على أيك قلعة صرخد وأعمالها وتسليم الكامل دمشق وجعل نائبه بالقلعة إلى أن سلم إليه أخوه الأشرف حران والرها والرقعة وسروج ورأس العين من الجزيرة فلما سلم ذلك سلم قلعة دمشق إلى أخيه الأشرف فدخلها وأقام بها وسار الكامل إلى الديار الجزرية فأقام بها إلى أن استدعى أخاه الأشرف بسبب حصر جلال الدين خوارزمشاه مدينة خلاط فلما حضر عنده بالرقعة عاد الكامل إلى ديار مصر وأما الأشرف فكان منه ما ذكره إن شاء الله تعالى .

(ذكر القبض على الحاجب علي وقتله) وفي هذه السنة أرسل الملك الأشرف بملوكه عز الدين أيك وهو أمير كبير في دولته إلى مدينة خلاط وأمره بالقبض على الحاجب حسام الدين علي بن حماد وهو المتولى لبلاد خلاط والحاكم فيها من قبل الأشرف ولم تعلم شيئا يوجب القبض عليه لأنه كان مشفقا عليه ناصحاله حافظا لبلاده حسن السيرة مع الرعية ولقد وقف هذه المدة الطويلة في وجه خوارزمشاه جلال الدين وحفظ خلاط حفظا يمجز غيره عنه وكان هتما بحفظ بلاده وذابا عنها ، وقد تقدم من ذكر قصده بلاد جلال الدين والاستيلاء على بعضها ما يدل على همة عالية وشجاعة تامة ، وصار لصاحبه به منزلة عظيمة فإن الناس يقولون بهض غلبان الملك الأشرف يقاوم خوارزمشاه وكان رحمه الله كثير الخير والإحسان لا يمكن أحدا من ظلم وعمل كثيرا من أعمال البر من الخانات في الطرق والمساجد في البلاد وبنى بخلاط بيهارستانا وجامعا وعمل كثيرا من الطرق وأصلحها كان يشق سلوكها ، فلما وصل أيك إلى خلاط قبض عليه ثم قتله غيلة لأنه كان هدوه ولما قتل ظهر أثر كفايته فإن جلال الدين حصر خلاط بعد قبضه وملكها على ما ذكره إن شاء الله ، ولم يمهل الله

أيك بل انتقم منه سريعا فإن جلال الدين أخذ أيك أسيرا لمنا ملك خلاط مع غيره من الأمراء ، فلما اصطلح الأشرف وجلال الدين أطلق الجميع وذكر أن أيك قتل وكان سبب قتله أن لوكا للحاجب على كان قد هرب إلى جلال الدين فلما أسر أيك طلبه ذلك المملوك من جلال الدين ليقتله بصاحبه الحاجب على نفسه إليه فقتله وبلغنى أن الملك الأشرف رأى فى المنام كأن الحاجب عليا قد دخل إلى مجلس فيه أيك فأخذ منديلا وجده فى رقبه أيك وأخذه وخرج فأصبح الملك الأشرف وقال قد مات أيك فإني رأيت فى المنام كذا وكذا .

(ذكر ملك الكامل مدينة حماة) وفى هذه السنة أواخر شهر رمضان ملك الملك الكامل مدينة حماة وسبب ذلك أن الملك المنصور محمد بن تقي الدين همر وهو صاحب حماة توفى على ما ذكره ، ولما حضرته الوفاة حلب الجند وأكابر البلد لولده الأكبر ويلقب بالملك المظفر وكان قد سيره أبوه إلى الملك الكامل صاحب مصر لأنه كان قد تزوج بابنته ، وكان لمحمد ولد آخر اسمه قليج أرسلان ولقبه صلاح الدين وهو بدمشق فحضر إلى مدينة حماة فسلبت إليه واستولى على المدينة وعلى قلعتها فأرسل الملك الكامل يأمره أن يسلم البلد إلى أخيه الأكبر فإن أباه أوصى له به ، فلم يفعل وترددت الرسل فى ذلك إلى الملك المعظم صاحب دمشق فلم تقع الإجابة ، فلما توفى المعظم وخرج الكامل إلى الشام وملك دمشق سير جيشا إلى حماة فحصرها ثلاث شهر رمضان . وكان المقدم على هذا الجيش أسد الدين شيركوه صاحب حمص وأمير كبير من عسكره يقال له نجر الدين عثمان ومعهما ولد محمد تقي الدين الذى كان عند الكامل فبقى الحصار على البلد عدة أيام وكان الملك الكامل قد سار عن دمشق ونزل على سلبية يريد العبور إلى البلاد الجزرية حران وغيرها ، فلما نازها صدده صاحب حماة صلاح الدين ونزل إليه من قلعه ولم يكن لذلك سبب إلا أمر الله تعالى . فإن صلاح الدين قال لأصحابه أريد النزول إلى الملك الكامل فقالوا له ليس بالشام أحصن من قلعتك وقد جمعت من الذخائر ما لا حد له . فلأى شيء تنزل إليه ليس هذا برأى فأصر على النزول وأصبروا على منعه ، فقال فى آخر الأمر أتركونى أنزل وإلا ألقيت نفعى من القلعة فحينئذ سكتوا عنه فنزل فى نفر يسير ووصل إلى الكامل فاعتقله إلى أن سلم مدينة حماة وقلعتها إلى أخيه الأكبر الملك المظفر وبقي بيده قلعة بارين حسب فإنها كانت له . وكان هو كالباحث بظلفه على حنقه .

(ذكر حصر جلال الدين خلاط وملكها) وفى هذه السنة أوائل شوال حصر جلال الدين خوارزمشاه مدينة خلاط وهى الملك الأشرف وبها عسكره فامتدوا بها وأعانهم أهل البلد خوفا من جلال الدين لسوء سيرته وأسرفوا فى الشتم والسفه فأخذ اللجاج معهم وأقام عليهم جميع الشتاء محاصرا وفرق كثيرا من عساكره فى القرى والبلاد القريبة من شدة البرد وكثرة الثلج فإن خلاط من أشد البلاد بردا وأكثرها ثلجا وأبان جلال الدين عن عزم قوى وصبر تحار العقول منه ونصب عليها عدة منجنيقات ولم يزل يرميها بالحجارة حتى خرب بعض سورها فأعاد أهل البلد عمارته ولم يزل مصايرهم وملازمهم إلى أواخر جمادى الأولى من سنة سبع وعشرين فزحف إليها زحفا متتابعا وملكها عنوة وقهرا يوم الأحد اثنامن والعشرين من جمادى الأولى سلمها إليه بعض الأمراء غدرا فلما ملك البلد سعد من فيه من الأمراء إلى القلعة التى لها وامتدوا بها وهو منازلهم ووضع السيف فى أهل البلد وقتل من وجد به منهم وكانوا قد قتلوا فإن بعضهم فارقوه خوفا وبعضهم خرج منه من شدة الجوع وبعضهم مات من القيلة وعدم القوت فإن الناس فى خلاط أكلوا الغنم ثم البقر ثم الجوايس ثم الخيل ثم الحمير ثم البغال والكلاب والسنانير وسمعنا أنهم كانوا يصطادون الفار ويأكلونه وصبروا صبورا لم

يلحقهم فيه احد ولم يملك من بلاد خلاط وغيرها وما سواها من البلاد لم يكونوا ملكوه وخربوا خلاط واكثروا القتل فيها ومن سلم هرب في البلاد وسبوا الحريم واترقوا الاولاد وباعوا الجميع فتمزقوا كل ممزق وتفرقوا الى البلاد ونهبوا الاموال وجرى على اهلها ما لم يسمع بمثله لاجرم لم يهمله الله تعالى وجرى عليه من الهزيمة بين المسلمين والتتر ما ذكره انشاء الله تعالى .

(ذكر عدة حوادث) في اواخر هذه السنة قصد الفرنج حصن بارين بالشام ونهبوا بلاده واعماله وامروا وسبوا ومن جملة من ظفروا به طائفة من التركمان كانوا نازلين في ولاية بارين فاخذوا الجميع ولم يسلم منهم الا النادر الشاذ والله اعلم .

(ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة)

(ذكر انهزام جلال الدين من كيقباز والاشرف) في هذه السنة يوم السبت الثامن والعشرين من رمضان انهزم جلال الدين خوارزم شاه من علاء الدين كيقباز بن كيخسرو بن قلع ارسلان صاحب بلاد الروم قونية واقصرا وسيواس وملطية وغيرها ومن الملك الاشرف صاحب دمشق وديار الجزيرة وخلاط وسبب ذلك ان جلال الدين كان قد اطاعه صاحب ارزن الروم وهو ابن عم علاء الدين ملك الروم وبينه وبين علاء الدين عداوة مستحكمة وحضر صاحب ارزن الروم عند جلال الدين على خلاط واعانه على حصرها فخافهما علاء الدين فارسل الى الملك الكامل وهو حينئذ بحران يطلب منه ان يحضر اخاه الاشرف من دمشق فانه كان مقبلا بها بعد ان ملكها وتابع علاء الدين الرسل بذلك خوفا من جلال الدين فاحضر الملك الكامل اخاه الاشرف من دمشق لحضر عنده ورسلا علاء الدين إليهما متتابعة يحث الاشرف على الحجى إليه والاجتماع به حتى قيل إنه في يوم واحد وصل إلى الكامل والاشرف من علاء الدين خمسة رسل ويطلب مع الجميع وصول الاشرف إليه ولو وحده فجمع عساكر الجزيرة والشام وسار إلى علاء الدين فاجتمعوا بسيواس وسارا نحو خلاط فسمع جلال الدين بهما فسار إليهما مجدا في السير فوصل إليهما بمكان يعرف بياسي حمار (٢) وهو من أعمال ارزنجان فالتقوا هناك وكان مع علاء الدين خلق كثير قيل كانوا عشرين ألف فارس وكان مع الاشرف نحو خمسة آلاف إلا أنهم من البسائر الجيدة الشبان لهم السلاح الكثير والدواب الفارسة من العربيات وكل منهم قد جرب الحرب وكان المقدم عليهم أمير من أمراء عساكر حلب يقال له عز الدين عمر ابن علي وهو من الأكراد الهكارية ومن الشجاعة في الدرجة الدنيا وله الأوصاف الجميلة والأخلاق الكريمة فلما التقوا بهت جلال الدين لما رأى من كثرة العساكر لاسيما لما رأى عساكر الشام فإنه شاهد من تجملهم وسلاحهم ودوابهم ماملأ صدره رعبا فانشب عز الدين بن علي القتال ومعه عساكر حلب لم يقم لهم جلال الدين ولا صبر ومعنى منهزما هو وعسكره لا يلوى الأخ على أخيه وتفرقت أصحابه وتمزقوا كل ممزق وعاد إلى خلاط فاستصحبوا معهم من فيها من أصحابهم وعادوا إلى أذربيجان فنزلوا عند مدينة خوى ولم يكرنوا قد استولوا على شيء من أعمال خلاط سوى خلاط. ووصل الملك الاشرف إلى خلاط. فرآها خاوية على عروشها خالية من الأهل والسكان قد جرى عليهم ما ذكرناه قبل .

(ذكر ملك علاء الدين أرزن الروم) قد ذكرنا أن صاحب أرزن الروم كان مع جلال الدين على خلاط. ولم يزل معه وشهد معه المصاف المذكور فلما انهزم جلال الدين أخذ صاحب أرزن الروم أسيرا فاحضر عند

علاء الدين كيقباز ابن عمه فأخذه وقصد أرزن الروم فسلبها صاحبها إليه هي وما يتبعها من القلاع والخزائن وغيرها فسكان كما قيل (خرجت النعمة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين) وهكذا هذا المسكين جاء إلى جلال الدين يطلب الزيادة فوعده بشيء من بلاد علاء الدين فأخذ ماله وما يديه من البلاد وبقى أسيرا . فسبحان من لا يزول ملكه (ذكر الصلح بين الأشرف وعلاء الدين وبين جلال الدين) لما عاد الأشرف إلى خلاط ومضى جلال الدين منهزما إلى خوى ترددت الرسل بينهما فاصطلحوا كل منهم على ما يديه واستقرت القواعد على ذلك وتحالفوا فلما استقر الصلح وجرت الأيمان عاد الأشرف إلى سنجار وسار منها إلى دمشق فأقام جلال الدين ييلاده من أذربيجان إلى أن خرج عليه التتر على ما ذكره إن شاء الله تعالى .

(ذكر ملك شهاب الدين غازي مدينة أرزن) كان حسام الدين صاحب مدينة أرزن من ديار بكر لم يزل مصاحبا للملك الأشرف مناصحا له مشاهدا جميع حروبه وخواتمه وينفق أمواله في طاعته ويذل نفسه وعساكره في مساعده فهو يعادى أعداءه ويوالي أوليائه ومن جملة موافقته أنه كان في خلاط لما حصرها جلال الدين ولقى من الشدة والخوف ما لقيه بها وصبر إلى أن ملكها جلال الدين فأسره جلال الدين وأراد أن يأخذ منه مدينة أرزن فقبل له إن هذا من بيت قديم عريق في الملك وأنه ورث هذه أرزن من أسلافه وكان لهم سواها من البلاد فخرج الجميع من أيديهم فعطف عليه ورق له وأبقى عليه مدينته وأخذ عليه العهد والمواثيق أنه لا يقاتله فعاد إلى بلده وأقام به فلما جاء الملك الأشرف وعلاء الدين محاربين لجلال الدين سار شهاب الدين غازي ابن الملك العادل وهو أخو الأشرف وله مدينة ميافارقين ومدينة حاني وهو بمدينة أرزن فحصره بها ثم ملكها صلحا وعوضه عنها بمدينة حاني من ديار بكر وحسام الدين هذا نعم الرجل حسن السيرة كريم جواد لا يخلو بابه من جماعة يريدون إليه يستمنحونه وسيرته جميلة في ولايته ورعيته وهو من بيت قديم يقال له بيت طغان أرسلان كان لهم مع أرزن بدليس ووسطان وغيرهما ويقال لهم بيت الأحذب وهذه البلاد منهم من أيام ملككشاه ابن ألب أرسلان السلجوقي فأخذ بكثر صاحب خلاط منهم بدليس أخذها من عم حسام الدين هذا لأنه كان موافقا لصلاح الدين يوسف بن أيوب فقصدته بكثر لذلك وبقيت أرزن بيد هذا إلى الآن فأخذت منه ولكل أول آخر . فسبحان من لا أول له ولا آخر لبقائه .

(ذكر ملك صونج قشبالوا قلعة رويندر) وفي هذه السنة ظهر أمير من أمراء التركان اسمه صونج ولقبه شمس الدين واسم قبيلته قشبالوا وقوى أمره وقطع الطريق وكثر جمعه وكان بين إربل وهمدان وهو ومن معه يقطعون الطريق ويفسدون في الأرض ثم إنه تعدى إلى قلعة منيعة اسمها سارو وهي لمظفر الدين وقتل عندها أميرا كبيرا من أمراء مظفر الدين يعرف بعز الدين الحميدي فجمع مظفر الدين وأراد استعادتها منه فلم يمكنه لحصانتها ولكثرة الجوع مع هذا الرجل فاصطلحا على ترك القلعة بيده وكان عسكر لجلال الدين خوارزمشاه يحصرون قلعة رويندر وهي من قلاع أذربيجان من أحسن القلاع وأمنها لا يوجد مثلها وقد طال الحصار على من بها فأذعنوا بالتسليم فأرسل جلال الدين بعض خواص أصحابه وثقاته ليتسلها وأرسل معه الخلع والمال لمن بها فلما صعد ذلك القاصد إلى القلعة وتسلمها أعطى بعض من بالقلعة ولم يعط البعض واستسلم وطمع فيهم حيث استولى على الحصن فلما رأى من لم يأخذ شيئا من الخلع والمال ما فعل بهم أرسلوا إلى صونج يطلبونه ليتسلوا إليه القلعة فسار إليهم في أصحابه فسلموها إليه ؛ فسبحان من إذا أراد أمرا سهل ؛ هذه قلعة

رويندز لم تزل تتقاصر عنها قدرة أكابر الملوك وعظماهم من قديم الزمان وحديثه وتضرب الامثال بحمائلها لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يملكها هذا الرجل الضعيف سهل له الامور فملكها بغير قتال ولا تعب وأزال عنها أصحاب مثل جلال الدين الذي كل ملوك الارض تهابه وتخافه وكان أصحاب جلال الدين كما قيل رب ساع لقاعد ، فلما ملكها صونج طمع في غيرها ، لاسيما مع اشتغال جلال الدين بما أصابه من الهزيمة ومجيء التتر فنزل من القلعة إلى مراغة وهي قريب منها فحصرها فأناه سهم غرب فقتله فلما قتل ملك رويندز أخوه ثم إن هذا الاخ الثاني نزل من القلعة وقصد أعمال تبريز ونهبها وعاد إلى القلعة ليجدل فيها من ذلك النهب والغنيمة ذخيرة خوفا من التتر وكاوا قد خرجوا فصادفه طائفة من التتر فقتلوه وأخذوا مائة من النهب ولما قتل ملك القلعة ابن أخت له وكان هذا جميعه في مدة سنتين ، فأف لدنيا لا تزال تتبع فرحة بفرحة وكل حسنة بسنة .

(ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة)

(ذكر خروج التتر إلى أذربيجان وما كان منهم) في أول هذه السنة وصل التتر من بلاد ما وراء النهر إلى أذربيجان وقد ذكر ما قبل كيف ملكوا ما وراء النهر وما صنعوه بخراسان وغيرها من البلاد من النهب والتخريب والقتل واستقر ملكهم بما وراء النهر وعادت بلاد ما وراء النهر انعمرت وعمرها مدينة تقارب مدينة خوارزم عظيمة وبقيت مدن خراسان خرابا لا يجسر أحد من المسلمين يسكنها ، وأما التتر فكأوا تغير كل قبيل طائفة منهم ينهبون ما يرونه بها ، فالبلاذ خاوية على عروشها ، فلم يزالوا كذلك ، إلى أن ظهر منهم طائفة سنة خمس وعشرين ، فكان بينهم وبين جلال الدين ما ذكرناه . وبقوا كذلك ، فلما كان الآن واهزم جلال الدين من علاء الدين كيقباز ، ومن الأشرف كما ذكرناه سنة سبع وعشرين أرسل مقدم الإسماعيلية الملاحدة إلى التتر يعرفهم ضعف جلال الدين بالهزيمة الكائنة عليه ، ويحثهم على قصده ، عقيب الضعف ويضمن لهم الظفر به للوهن ، الذي صاروا إليه ، وكان جلال الدين سيء السيرة ، قبيح التدبير ، لم يترك أحدا من الملوك المجاورين له إلا عاداه ، ونازعه الملك وأساء مجاورته ، فمن ذلك أنه أول ما ظهر في أصفهان ، وجمع العساكر قصد خوزستان ، فحصر مدينة ششرو وهي للخليفة ، فحصرها ، وسار إلى دقوقا فنهبا ، وقتل فيها فأكثروا وهي خليفة أيضا ، ثم ملك أذربيجان ، وهي لأوزبك ، فملكها ، وتصد الكرج وهزمهم ، وعاداهم ، ثم عادى الملك الأشرف ، صاحب خلاط ، ثم عادى علاء الدين صاحب بلاد الروم ، وعادى الإسماعيلية ، ونهب بلادهم وقتل فيهم ، فأكثر وقرر عليهم وظيفة من المال كل سنة ، وكذلك غيرهم ، فكل من الملوك تخلى عنه ، ولم يأخذ بيده فلما وصلت كتب مقدم الإسماعيلية إلى التتر يستدعيهم إلى قصد جلال الدين بادر طائفة منهم فدخلوا بلاده ، واستولوا على الري وهمذان وما بينهما من البلاد ، ثم قصدوا أذربيجان ؛ فغربوا ونهبوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها وجلال الدين لا يقدم على أن يلقاهم ولا يقدر على منعهم عن البلاد قدم على رعبا وخوفا وانضاف إلى ذلك أن عسكره اختلفوا عليه وخرج وزيره عن طاعته في طائفة كثيرة من العسكر وكان السبب أن غريبا أظهر من قلة قتل جلال الدين مالم يسمع بمثله وذلك أنه كان له خادم خصي وكان جلال الدين بهواه واسمه قلع فاتفق أن الخادم مات فأظهر من الهلع والجرع عليه مالم يسمع بمثله ولا لمجنون ليلي وأمر الجند والأمراء أن يمشوا في جنازته وجماله وكان موته بموضع بينه وبين تبريز عدة فراسخ فشى الناس رجالة ومشي

بعض الطريق راجلا فالزمه أمراؤه ووزيره بالركوب فلما وصل إلى تبريز أرسل إلى أهل البلد فأمرهم بالخروج من البلد لتأتي تابوت الخادم ففعلوا فأناكر عليهم حيث لم يبعدوا ولم يظهروا من الحزن والبكاء أكثر مما فعلوا وأراد معاقبتهم على ذلك فشفع فيهم أمراؤه فتركهم ثم لم يدفن ذلك الخصى وإنما كان يستصحبه معه أين ساروا وهو يلطم ويبكي فامتنع من الأكل والشراب وكان إذا قدم له طعام يقول أحلوا من هذا إلى قلع ولا يتجاسر أحد يقول إبه مات فإبه قتل له مرة إبه مات فقتل القاتل له ذلك إنما كانوا يحملون إليه الطعام ويعودون يقولون إبه يقبل الأرض ويقول إنني الآن أصلح مما كنت فلحق أمراءه من الغيظ والآنفة من هذه الحالة ما حملهم على مفارقة طاعته والانحياز عنه مع وزيره فبقى حيران لا يدري ما يصنع لاسيما لما خرج التتر حينئذ دفن الغلام الخصى وراسل الوزير واستماله وخذعه إلى أن حضر عنده فلما وصل إليه بقى أياما وقتله جلال الدين وهذه نادرة غريبة لم يسمع بمثلها .

(ذكر ملك التتر مراغة) وفي هذه السنة حصر التتر مراغة من أذربيجان فامتنع أهلها ثم أذن أهلها بالتسليم على أمان طلبوه فبدلوا لهم الأمان وتسلبوا البلد وقتلوا فيه إلا أنهم لم يكثروا القتل وجعلوا في البلد شحنة وعظم حينئذ شأن التتر واشتد خوف الناس منهم بأذربيجان فآله تعالى ينصر الإسلام والمسلمين نصرا من عنده فما نرى في ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد ولا في نصرة الدين بل كل منهم مقبل على لومه ولعبه وظلم رعيته وهذا أخوف عندي من العدو وقال الله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) .

(ذكر وصول جلال الدين إلى آمد وانزاهه عندها وما كان منه) لما رأى جلال الدين ما يفعله التتر في بلاد أذربيجان وأنهم مقيمون بها يقتلون وينهبون ويخربون السواد ويجبون الأموال وهم عازمون على قصده ورأى ما هو عليه من الوهن والضعف فارق أذربيجان إلى بلاد خلاط وأرسل إلى النائب بها من الملك الأشرف يقول له ماجئنا للحرب ولا للأذى إنما خوف هذا العدو حملنا على قصد بلادكم وكان عازما على أن يقصد ديار بكر والجزيرة ويقصد باب الخلافة يستنجد به جميع الملوك على التزويط لب منهم المساعدة على دفعهم ويحذرهم عاقبه إهمالهم فوصل إلى خلاط فبلغه أن التتر يطلبونه وهم مجدون في أثره فسار إلى آمد وجعل اليزك في عدة مواضع خوفا من البيات فجاءت طائفة من التتر يقصدون أثره فوصلوا إليه على غير الطريق الذي فيه اليزك فأوقعوا به ليلا وهو بظاهر مدينة آمد فمضى منهزما على وجهه وتفرق من معه من العسكر في كل وجه فقصد طائفة من عسكره حران فأوقع بهم الأمير صواب مقدم الملك الكامل بمران ومعه العسكر فأخذوا ما معهم من مال وسلاح ودواب وقصد طائفة منهم نصيبين والموصل وسنجار وإربل وغير ذلك من البلاد فتخطفهم الملوك والرعايا وطمع فيهم كل أحد حتى الفلاح والكردي والبدوي وغيرهم وانتقم منهم وجازاهم على سوء صنيعهم وقبيح فعلهم في خلاط وغيرها وبما سعوا في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين فازداد جلال الدين ضعفا إلى ضعفه ووهنا إلى وهنه بمن تفرق من عسكره وبما جرى عليهم فلما فعل التتر بهم ذلك ومضى منهزما منهم دخلوا ديار بكر في طلبه لأنهم لم يعلموا أين قصد ولا أي طريق سلك فسبحان من بدل أمنهم خوفا وعزم ذلا وكثرتهم قلة فتبارك الله رب العالمين الفعال لما يشاء .

(ذكر دخول التتر ديار بكر والجزيرة وما فعلوه في البلاد من الفساد) لما انهزم جلال الدين من التتر هل آمد نهب التتر سواد آمد وأرزن وميافارقين وقصدوا مدينة أسعد فقاتلهم أهلها فذل التتر الأمان

فوثقوا منهم واستسلموا فلما تمسكن التتر منهم بذلوا فيهم السيف وقتلوهم حتى كادوا يأنون عليهم فلم يسلم منهم إلا من اختفى وقليل مامم (حكى) لى بعض التجار وكان قد وصل آمد أنهم حزروا القتلى ما يزيد على خمسة عشر ألف قتيل، وكان مع هذا التاجر جارية من أسعد، فذكرت أن سيدها خرج ليقاتل وكان له أم فنعتة ولم يكن لها ولد سواه فلم يصغ إلى قولها فشئت معه فقتلا جميعا وورثها ابن الأخ للأم فباعها من هذا التاجر وذكرت من كثرة القتلى أمرا عظيما، وأن مدة الحصار كانت خمسة أيام ثم ساروا منها إلى مدينة طنزة ففعلوا فيها كذلك وساروا من طنزة إلى واد بالقرب من طنزة يقال له وادى القريشية فيه طائفة من الأكراد يقال لهم القريشية وفيه مياه جارية وبساتين كثيرة والطريق إليه ضيق فقاتلهم القريشية فنعموهم منه وامتنعوا عليهم وقتل منهم كثير فعاد التتر ولم يبلغوا منهم غرضا، وساروا في البلاد لا مانع يمنعهم، ولا أحديقف بين أيديهم فوصلوا إلى ماردين، فمها ما وجدوا من بلدها واحتفى صاحب ماردين وأهل دنيسر بقلعة ماردين وغيرهم من جاور القلعة، احتفى بها أيضا، ثم وصلوا إلى نصيبين الجزيرة فأقاموا عليها بعض نهار ونهبوا سوادها وقتلوا من ظفروا به، وغلقت أبوابها، فعادوا عنها، وعضوا إلى بلد سنجار، ووصلوا إلى الجبال، من أعمال سنجار فمها، ودخلوا إلى الخابور، فوصلوا إلى عرابان، فمها، وقتلوا، وعادوا، ومضى طائفة منهم على طريق الموصل فوصلوا إلى قرية تسمى المؤنسة وهي على مرحلة من نصيبين بينها وبين الموصل فمها واحتفى أهلها وغيرهم بخان فيها فقتلوا كل من فيه. (وحكى) لى عن رجل منهم أنه قال اختفيت منهم بيت فيه تبن فلم يظفروا به، وكنت أراهم من نافذة في البيت، فكانوا إذا أرادوا قتل إنسان فيقول لا بالله فيقتلونه فلما فرغوا من القرية، ونهبوا ما فيها، وسبوا الحرير، رأيتهم وهم يلعبون على الخيل، ويضحكون ويغنون بلغتهم بقول (لا بالله) ومضى طائفة منهم إلى نصيبين الروم وهي على الفرات وهي من أعمال آمد فمها وقتلوا فيها ثم عادوا إلى آمد ثم إلى بلد بدليس فتحصن أهلها بالقلعة وبالجبال فقتلوا فيها يسيرا وأحرقوا المدينة (وحكى) إنسان من أهلها قال لو كان عندنا خمسمائة فارس لم يسلم من التتر أحد لأن الطريق ضيق بين الجبال والقليل يقدر على منع الكثير ثم ساروا من بدليس إلى خلاط فحصرها. مدينة من أعمال خلاط يقال لها باكرى وهي من أحسن البلاد فملكوها عنوة وقتلوا كل من بها وقصدوا مدينة أرجيش من أعمال خلاط وهي مدينة كبيرة عظيمة ففعلوا كذلك وكان هذا في ذى الحجة ولقد حكى لى عنهم حكايات يكاد سماعها يكذب بها من الخوف الذى ألقاه الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس منهم حتى قيل إن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحدا بعد واحد لا يتجاسر أحد بمد يده إلى ذلك الفارس ولقد بلغنى أن إنسانا منهم أخذ رجلا ولم يكن مع التترى ما يقتله به فقال له ضع رأسك على الأرض ولا تبرح فوضع رأسه على الأرض ومضى التترى أحضر سيفا فقتله به (وحكى) لى رجل قال كنت أما ومعى سبعة عشر رجلا في طريق جأما فارس من التتر وقال لنا حتى يكتف بعضنا فشرع أصحابي يفعلون ما أمرهم فقلت لهم هذا واحدا فلم لا تقتله ونهرب فقالوا نخاف فقلت هذا يريد قتلكم الساعة فنحن نقتله فلعل الله يخلصنا فوالله ما جسر أحد يفعل ذلك فأخذت سكيننا وقتلته وهرينا فنجونا وأمثال هذا كثير.

(ذكر وصول طائفة من التتر إلى إربل ودفوقا) في هذه السنة في ذى الحجة وصل طائفة من التتر من أذربيجان إلى أعمال إربل فقتلوا من على طريقهم من التتر الإيرانية والأكراد الجوزقان وغيرهم إلى أن دخلوا بلد

إربل قهيو القرى وقتلوا من ظفروا به أهل تلك الأعمال وعلوا الأعمال الشنيعة التي لم يسمع بمثها من غيرهم وبرز مظفر الدين صاحب إربل في عساكره واستمد عساكر الموصل فساروا إليه فلما بلغه عود التتر إلى أذربيجان أقام في بلاده ولم يتبعهم فوصلوا إلى بلد الكرخيني وبلد دقوفا وغير ذلك وعادوا سالمين لم يذعرهم أحد ولا وقف في وجوههم فارس وهذه مصائب وحوادث لم ير الناس من قديم الزمان وحديثه ما يقارنها فانه سبحانه وتعالى يلفظ بالمسلمين ويرحمهم ويرد هذا العدو عنهم وخرجت هذه السنة ولم تتحقق لجلال الدين خبرا ولا نعلم هل قتل أو اختفى لم يظهر نفسه خوفا من التتر أو فارق البلاد إلى غيرها والله أعلم .

(ذكر طاعة أهل أذربيجان للتر) في أول هذه السنة أطاع أهل بلاد أذربيجان جميعها للتر وحملوا اليهم الأموال والثياب الخطائى والخوي والعتابي وغير ذلك وسبب طاعتهم أن جلال الدين لما انهزم على آمد من التتر وتفرقت عساكره ونمزقوا كل مرق ونخطفهم الناس وفعل التتر بديار بكر والجزيرة وإربل وخلط ما فعلوا ولم يمنعم أحد ولا وقف في وجوههم فارس وملوك الإسلام منحجرون في الأتقاب وانضاف إلى هذا انقطاع أخبار جلال الدين فإنه لم يظهر له خبر ولا عملوا له حالا سقط في أيديهم وأذعنوا للتر بالطاعة وحملوا اليهم ما طلبوا منهم من الأموال والثياب من ذلك مدينة تبريز التي هي أصل بلاد أذربيجان ومرجع الجميع إليها وإلى من بها فإن ملك التتر نزل في عساكره بالقرب منها وأرسل إلى أهلها يدعوهم إلى طاعته ويهددهم إن امتنعوا عليه فأرسلوا إليه المال الكثير والتحف من أنواع الثياب الإبريسم وغيرها وكل شيء حتى الخمر وبدلوا له الطاعة فأعاد الجواب يشكرهم ويطلب منهم أن يحضر مقدوم عنده فقصد قاضي البلد ورئيسه وجماعة من أعيان أهله وتخلف عنهم شمس الدين الطغرائى وهو الذى يرجع الجميع إليه إلا أنه لا يظهر شيئا من ذلك فلما حضروا عنده سألم عن امتناع الطغرائى فقالوا إنه رجل منقطع ماله بالملوك تعلق ونحن الأصل فسكت ثم طلب أن يحضروا عنده من صاع الثياب الخطائى وغيرها ليستعمل لملكهم الأعظم فإن هذا هو من أتباع ذلك الملك فأحضروا الصنائع فاستعملهم فى الذى أرادوا ووزن أهل تبريز الثمن وطنب منهم خراكة لملكهم أيضا فعملوا له خراكة لم يعمل مثاها وعملوا غشاءها من الأطلس الجيد المرر كس وعملوا من داخلها السمور والقندر فجاءت عليهم بجملة كثيرة وقرر عليهم من المال كل سنة شيئا كثيرا ومن الثياب كذلك وترددت رسلهم إلى ديوان الخلافة وإلى جماعة من الملوك يطلبون منهم أنهم لا ينصرون خوارزمشاه ولقد وقفت على كتاب وصل من تاجر من أهل الري كان قد انقل إلى الموصل وأقام بها هو ورفقاء له ثم سافر إلى الري فى العام الماضى قبل خروج التتر فلما وصل التتر إلى الري وأطاعهم أهلها وساروا إلى أذربيجان سار هو معهم إلى تبريز فكتب إلى أصحابه بالموصل يقول إن السكان لعنه الله ما تقدر نصفه ولا كثرة جموعه حتى لا تنقطع قلوب المسلمين إن الأمر عظيم ولا تظنوا أن هذه الطائفة التي وصلت إلى نصيبين والخابور والطائفة الأخرى التي وصلت إلى إربل ودقوفا كان قصدهم النهب إنما أرادوا أن يعلموا هل فى البلاد من يردم أم لا فلما عادوا أخبروا ملكهم بخلا البلاد من مانع ومدافع وإن البلاد خالية من ملك وعساكر فقوى طمعهم وهم فى الربيع يقصدونكم وما يبقى عندكم مقام إلا إن كان فى بلد الغرب فإن عزمهم على قصد البلاد جميعها فانظروا لأنفسكم هذا مضمون الكتاب فان الله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وأما جلال الدين فإلى آخر سنة ثمان وعشرين لم يظهر له خبر وكذلك إلى صلخ صفر سنة تسع لم تقف له

على حال، والله المستعان .

(ذكر عدة حوادث) في هذه السنة قلت الأمطار بديار الجزيرة والشام لاسيما حلب وأعمالها فإنها كانت قليلة بالمرّة وغلت الأسفار بالبلاد . وكان أشد ما غلاء حلب إلا أنه لم يكن بالشديد مثل ما تقدم في السنين الماضية ، فأخرج أتاك شهاب الدين ، وهو والى الأمر بحلب والمرجع إلى أمره ونهيه ، وهو المدير لدولة ساطانها الملك العزيز ابن الملك الظاهر والمربي له من المال والغلات كثيرا وتصدق صدقات دارة وساس البلاد سياسة حسنة بحيث لم يظهر للغلاء أثر فجاءه الله خيرا ، وفيها نبى أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة قلعة عند سلمية وسماها سميس ، وكان الملك الكامل لما خرج من مصر إلى الشام قد خدمه أسد الدين ونصح له وله أثر عظيم في طاعته والمقاتلة بين يديه فأقطعه مدينة سلمية ، فبنى هذه القلعة بالقرب من سلمية وهي على تل عال . وفيها قصد الفرنج الذين بالشام مدينة جبلة وهي بين جملة المدن المغنونة إلى حلب ودخلوا إليها وأخذوا منها غنيمة وأسرى فسير أتاك شهاب الدين إليهم العساكر مع أمير كان أقطعها فقاتل الفرنج وقتل منهم كثيرا واسترد الأسرى والغنيمة ؛ وفيها توفى القاضي ابن غنائم بن العديم الحلبي الشيخ الصالح ، وكان من المجتهدين في العبادة والرياضة والعاملين بعلومهم ؛ فلو قال قائل إنه لم يكن في زمانه أعبد منه لكان صادقا فرضى الله عنه وأرضاه ، فإنه من جملة شيوخنا ؛ سمنا عليه الحديث ، وانتفعنا برؤيته وكلامه ، وفيها أيضا في الثاني عشر من ربيع الأول ، توفى صديقنا أبو القاسم عبد المجيد بن العجمي الحلبي ، وهو وأهل بيته مقدمو السنة بحلب وكان رجلا ذا مروءة غزيرة ؛ وخلق حسن ، وحلم وافر ، ورياسة كثيرة ، يحب إطعام الطعام ، وأحب الناس إليه من يأكل طعامه ، ويقبل بره ، وكان يلقي أضيافه بوجه منبسط ، ولا يقعد عن إيصال راحة ، وقضاء حاجة ؛ فرحمه الله رحمة واسعة .

(ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة)

(تم بعون الله تعالى الجزء التاسع من كتاب الكامل في التاريخ . وبه تم الكتاب)

(والحمد لله أولا وآخرا)

فهرست الجزء التاسع
من كتاب الكامل في التاريخ

صفحة	صفحة	صفحة
حصن العزيمة الخلف بين السلطان مسعود وجماعة من الأمراء	١٢ سنة إحدى وأربعين وخمسمائة . ملك الفرنج طرابلس الغرب .	٢ سنة ست وثلاثين وخمسمائة . انهزام السلطان سنجر من الأتراك الخطا وملسكهم ماوراء النهر
٢٢ انهزام الفرنج بيغرى . ملك للغورية غزنة وعودهم عنها	١٣ قتل أنابك عماد الدين زنكي وشيء من سيرته ملك ولديه سيف الدين غازى ونور الدين محمود	٤ مافله خوارزم شاه بخراسان . عدة حوادث . سنة سبع وثلاثين وخمسمائة . ملك عماد الدين أنابك زنكي قلعة أشب وغيرها من الهكارية
٢٣ ملك الفرنج مدنا من الأندلس . عدة حوادث . سنة أربع وأربعين وخمسمائة . وفاة سيف الدين غازى بن أنابك زنكي	١٤ عصيان الرها لما قتل أنابك . استيلاء عبد المؤمن على جزيرة الأندلس	٦ حصر فرنج طرابلس الغرب . عدة حوادث . سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة . صلح الشهيد السلطان مسعود وأنابك زنكي
٢٤ استيلاء نور الدين على سنجار . وفاة المحافظ وولاية الظافر ووزارة ابن السلار	١٥ قتل عبد الرحمن طغايك وعباس صاحب الرى . عدة حوادث . سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة .	٧ ملك أنابك بعض ديار بكر . أمر العيارين ببغداد . حصر سنجر خوارزم وصلحه مع خوارزم شاه . عدة حوادث
٢٥ عودة جماعة من الأمراء إلى العراق . قتل البرنس صاحب أنطاكية وهزيمة الفرنج	١٦ قتل بوزابه . طاعة أهل قابس للفرنج وغلبة المسلمين عليها	٨ سنة تسع وثلاثين وخمسمائة . فتح الرها وغيرها من البلاد الجزرية
٢٦ الخلف بين صاحب صقلية وملك الروم . عدة حوادث	١٧ حادثة ينبغي للعامل أن يحتاط من مثلها . ملك الفرنج المرية وغيرها من الأندلس . ملك نور الدين محمود بن زنكي عدة مواضع من بلاد الفرنج أخذ الحلة من على بن ديبس وعوده إليها . عدة حوادث	٩ قتل نصير الدين جفر وولاية زين الدين على جو كج قلعة الموصل
٢٧ سنة خمس وأربعين وخمسمائة . أخذ العرب الحجاج . فتح حصن قامية	١٨ سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة . ملك الفرنج مدينة للمهدي بأفريقية	١٠ عدة حوادث . سنة أربعين وخمسمائة . اتفاق بوزابه وعباس على منازعة السلطان
٢٨ حصر الفرنج قرطبة ورحيلهم عنها ملك الغورية هراة . عدة حوادث	٢١ ملك نور الدين محمود بن زنكي	١١ استيلاء على بن ديبس بن صدقة على الحلة . عدة حوادث
٢٩ سنة ست وأربعين وخمسمائة . انهزام نور الدين من جوسلين وأسر جوسلين بعد ذلك		

صفحة	صفحة	صفحة
بولاية عهد أبيه استعمال عبد المؤمن أولاده على البلاد	الحرب بين العرب وعساكر عبد المؤمن	۳۰ حصر غرناطة والريّة من بلاد الأندلس عدة حوادث . سنة
۵۱ حصر الساطان محمد بغداد	۴۲ ملك الفرنج مدينة بونة وموت رجار وملك ابنه غليالم . وفاة	سبع وأربعين وخمسة . ملك عبد المؤمن بجاية وملك بنى حماد
۵۲ عدة حوادث	۳۳ ارام شاه صاحب غزنة . ملك الفرنج مدينة عسقلان . حصر	۳۱ ظفر عبد المؤمن بصنهاجة . وفاة السلطان مسعود وملك ملكشاه
۵۳ سنة اثنتين وخمسين وخمسة . الزلازل بالشام . ملك نور الدين حصن شيزر	عسكر الخليفة تكريت وعودهم عنها	محمد بن محمود
۵۵ وفاة الديسي صاحب جزيرة ابن عمر واستيلاء قطب الدين مورد على الجزيرة وفاة السلطان سنجر . ملك المسلمين مدينة للرية	۴۳ عدة حوادث سنة تسع وأربعين وخمسة . قتل الظافر وولاية ابنه الفائز	۳۲ الحرب بين نور الدين محمود وبين الفرنج
۵۶ غزو صاحب طبرستان الاسماعيلية . أخذ حجاج خراسان . الحرب بين المؤيد والأمير ابي ق . الحرب بين المؤيد وسنقر العزيزي	۴۴ وزارة الملك الصالح بن رزيك . حصر تكريت ووقعة بكمرا	۳۳ الحرب بين سنجر والغورية ۳۴ ملك غياث الدين وشهاب الدين الغوريين . ملك غياث الدين غزنة وما جاورها من البلاد . ملك شهاب الدين لهاور .
۵۷ ملك نور الدين بعلبك . عدة حوادث . سنة ثلاث وخمسين وخمسة . الحرب بين سنقر وأرغش	۴۵ ملك نور الدين محمود مدينة دمشق	۳۵ اقراض دولة سبكتكين . الخطبة لغياث الدين بالسلطنة . ملك غياث الدين هراة وغيرها من خراسان
۵۸ الحرب بين شملة وقايمار السلطاني . معاودة الغز الفتنه بخراسان	۴۶ قصد الاسماعيلية خراسان والظفر بهم ملك نور الدين تل باشر . عدة حوادث	۳۶ ذكر ملك شهاب الدين مدينة آجرة من بلاد الهند . ظفر الهند على المسلمين . ظفر المسلمين بالهند
۵۹ أسر المؤيد وخلاصه . اجماع السلطان محمود مع الغز وعودهم إلى نيسابور	۴۷ سنه خمسين وخمسة سنة احدى وخمسين وخمسة . هصيان الجزائر وأفريقية على ملك الفرنج بصقلية وما كان منهم	۳۷ عدة حوادث . سنة ثمان وأربعين وخمسة . ذكر انهزام سنجر من الغز ونهبهم خراسان وما كان منهم
۶۰ حصر صاحب حنلان ترمذ وعوده وموته . عود المؤيد إلى نيسابور وتخریب ما بقى منها .	۴۸ القبض على سليمان شاه وحبسه بالموصل	۴۰ ملك المؤيد نيسابور وغيرها ۴۱ ملك ايتاخ الرى . قتل ابن السلار وزير الظافر ووزارة عباس .
	۴۹ حصر نور الدين قلعة حارم ۵۰ وفاة خوارزم شاه ااز وغيره من المنوك حرب السلطان سنجر من الغز . البيعة لمحمد بن عبد المؤمن	

صفحة	صفحة	صفحة
وزارة الضرغام بعده . وفاة	٧٢ سنة ست وخمسين وخمسمائة :	ملك ملكشاه خوزستان
عبد المؤمن وولاية ابنه يوسف	الفتنة ببغداد . قتل ترشك . قتل	٦١ الحرب بين التركاني والاسماعيلية
٨٢ ملك المماليك أعمال قومس والخطبة	سليمان شاه والخطبة لأرسلان	بخراسان . عدة حوادث
للسلطان ارسلان بخراسان :	٧٣ الحرب بين ابن آق سنقروء - مكر	٦٣ سنة أربع وخمسين وخمسمائة .
قتل الغز ملك الغور	ايلد كز . الحرب بين ايلد كز	ملك عبد المؤمن مدينة المهديّة من
انهزام نور الدين محمود من الفرنج	واينانج	الفرنج وملكه جميع أفريقية
٨٣ إجلاء بني أسد من العراق	٧٤ وفاة ملك الغور وملك ابنه محمد .	٦٥ ايقاع عبد المؤمن بالعرب . غرق
٨٤ عدة حوادث . سنة تسع وخمسين	الفتنة بنيسابور وتخريبها . خلع	بغداد
وخمسمائة . مسير شيركوه	السلطان محمود ونهب طوس	٦٦ عود سنقر الهمداني إلى الحف
وعساكر نور الدين إلى ديار	وغيرها من خراسان	وانهزامه . الفتنة بين عامة استراباذ
مصر وعودهم عنها	٧٥ عمارة شاذياخ بنيسابور . قتل	وفاة الملك محمد بن محمود بن محمد
٨٦ هزيمة الفرنج وفتح حارم	الصالح بن رزيك ووزارة ابنه	ابن ملكشاه
٨٧ ملك نور الدين قلعة بانياس من	رزيك	٦٧ أخذ حران من نور الدين
الفرنج أيضا . أخذ الأتراك غزنة	٧٦ الحرب بين العرب وعسكر بغداد .	وعوّدها إليه عدة حوادث
من ملكشاه وعوده إليها . وفاة	حصار المؤيد شارستان	٦٨ سنة خمس وخمسين وخمسمائة .
جمال الدين الوزير وشيء	٧٧ ملك الكرج مدينة آني . ولاية	مسير سليمان شاه إلى همدان .
من سيرته	عيسى مكة حرسها الله تعالى .	وفاة الفاتر وولاية العاضد العلويين .
٨٩ إجلاء القارغلية من وراء النهر .	عدة حوادث	وفاة الخليفة المقتفي لأمر الله وشيء
استيلاء سنقر على الطالقان	٧٨ سنة سبع وخمسين وخمسمائة . فتح	من سيرته : خلافة المستنجد بالله
وغرستان	المؤيد طوس وغيرها . أخذ ابن	٦٩ الحرب بين عسكر خوارزم شاه
٩٠ قتل صاحب هراة . ملك شاه	مردنيش غرناطة من عبد المؤمن	والأتراك البرزية أحوال المؤيد
مازندران قومس وبسطام .	وعوّدها إليه	بخراسان هذه السنة
عصيان غمارة بالمغرب . عدة	٧٩ حصار نور الدين حارم . ملك	٧٠ الحرب بين شاه مازندران
حوادث . سنة ستين وخمسمائة .	الخليفة قلعة الماهكي . الحرب	وبغمرخان . وفاة خسرو شاه
وفاة شاه مازندران وملك ابنه	بين المسلمين والكرج	صاحب غزنة وملك ابنه بعده .
بعده	٨٠ عدة حوادث	الحرب بين ايثاق وبغرامكين
٩١ حصار عسكر المؤيد نسا ورجيلهم	٨١ سنة ثمان وخمسين وخمسمائة .	٧١ وفاة ملكشاه بن محمود . عدة
عنها . استيلاء المؤيد على هراة	وزارة شاور للعاقد بمصر ثم	حوادث

صفحة	صفحة	صفحة
١١٣	١٠٥	٩٢
غزوة إلى الفرنج بالشام	ملك إبلد كز الرى . عدة	الحرب بين قليج أرسلان وبين
١١٤	حوادث	ابن الدانشمند الفتنة بين نور
وفاة ابن مردنيش وملك	سنة خمس وستين وخمسمائة .	الدين وقلج أرسلان
يوسف بن عبد المؤمن بلاده .	حصار الفرنج دمياط	عدة حوادث
عبور الخطا جيحون والحرب	١٠٦	٩٤
بينهم وبين حوارزم شاه . عدة	حصار نور الدين الكرك .	سنة إحدى وستين وخمسمائة .
حوادث . سنة ثمان وستين	غزوة لسرية نورية . الزلزلة	فتح المنيطرة من الفرنج . قتل
وخمسمائة . وفاة خوارزم شاه	وما فعلته بالشام . وفاة قطب	خطو برص مقطع واسط . عدة
ابن أرسلان . وملك ولده	الدين مودود بن زكي وملك	حوادث . سنة اثنتين وستين
سلطان شاه وبعده واده الآخر	ابنه سيف الدين غازي	وخمسمائة . عود أسد الدين
تسكش وقتل المؤيد وملك ابنه	١٠٧	شيركوه
غارة الفرنج على بلد حوران	حالة ينبغي الملوك أن يحترزوا	٩٥
١١٨	من مثلها	ملك أسد الدين الاسكندرية
وغارة المسلمين على بلد الفرنج .	١٠٨	وعوده إلى الشام
مسير شمس الدولة إلى بلد النوبة	الحرب بين عساكر ابن	٩٦
١١٩	عبد المؤمن وابن مردنيش .	ملك نور الدين صافينا وعريمة .
ظفر مليح بن ليون بالروم .	وفاة صاحب كرمان والخلف	قصد ابن شنكا البصرة قصد
وفاة إبلد كز . وصول الترك	بين أولاده . عدة حوادث .	شملة العراق
إلى أفريقية وملكهم طرابلس	سنة ست وستين وخمسمائة	٩٧
وغيرها . غزو ابن عبد المؤمن	وفاة المستنجد بالله	عدة حوادث . سنة ثلاث وستين
الفرنج بالأندلس	١٠٩	وخمسمائة . فران زين الدين
١٢٠	ملك نور الدين الموصل وإقرار	الموصل وتحكم قطب الدين في
نهب نهاوند . قصد نور الدين	سيف الدين عليها	البلاد الحرب بين البهلوان
بلاد قليج أرسلان . رحيل	١١٠	وصاحب مراغة
صلاح الدين من مصر إلى	غزوة صلاح الدين بلاد الفرنج	٩٨
السكرع وعوده عنها	وفتح أيلة . ما اعتمده صلاح	عدة حوادث سنة أربع وستين
١٢١	الدين بمصر هذه السنة . عدة	وخمسمائة . ملك نور الدين قلعة
عدة حوادث	حوادث	جعب
١٢٢	١١١	٩٩
سنة تسع وستين وخمسمائة .	سنة سبع وستين وخمسمائة .	ملك أسد الدين مصر وقتل شاور
ملك شمس الدولة زبيد وغيرها	إقامة الخطبة العباسية بمصر	١٠١
من بلاد اليمن	وانقراض الدولة العلوية	وفاة أسد الدين شيركوه
١٠٣	١١٢	١٠٢
قتل جماعة من المصريين أرادوا	الوحشة بين نور الدين وصلاح	ملك صلاح الدين مصر
الوثوب بصلاح الدين	الدين باطنا	١٠٣
		وقعة السودان بمصر
		١٠٤
		ملك شملة فارس وإخراجه عنها .

صفحة	صفحة	صفحة
تخریب الحصن الذي بناه الفرنج عند مخاضة الأحزان	الكسرة من بلاد الصالح بن نور الدين	۱۲۴ وفاة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله
الحرب بين عسكر صلاح الدين وعسكر قلعج أرسلان . وفاة الاستقضى . بأمر الله وخلافة الناصر لدين الله	۱۲۷ حصر صلاح الدين مدينة حلب والصلح عليها . الفتنة بمكة وعزل أميرها وإقامة غيره عدة حوادث	۱۲۶ ملك ولده الملك الصالح
عدة حوادث	۱۳۸ سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .	۱۲۷ ملك سيف الدين البلاد الجزرية حصر الفرنج بانياس وعودهم عنها عدة حوادث .
سنة ست وسبعين وخمسمائة .	۱۳۹ نهب صلاح الدين بلد الاسماعيلية . ظفر للمسلمين بالفرنج وللفرنج بالمسلمين .	۱۲۸ خلاف الكنز بصعيد مصر .
وفاة سيف الدين صاحب اللوصل وولاية أخيه عز الدين بعده .	۱۴۰ عصيان صاحب شهرزور على سيف الدين وعوده إلى طاعته .	۱۲۹ ملك صلاح الدين دمشق
مسير صلاح الدين لحرب قلعج أرسلان	فرج بعد شدة يتعلق بالتاريخ نهب البندنجيين . هذه حوادث . سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة . انهزام صلاح الدين بالرملة	۱۳۰ ملك صلاح الدين مدینتی حصن وحماء
قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الأرمی . ملك يوسف ابن عبد المؤمن مدينة قفصة بعد خلاف صاحبها عليه	۱۴۱ حصر الفرنج مدينة حماة . قتل كشتكيين، وحصر الفرنج حارم عدة حوادث	۱۳۱ حصر صلاح الدين حلب وعوده عنها وملك قلعة حصن وبعليک
عدة حوادث . سنة سبع وسبعين وخمسمائة . غزاة إلى بلاد الكرك من الشام	۱۴۲ سنة أربع وسبعين وخمسمائة . قصد الفرنج مدينة حماة أيضا عصيان ابن المقدم على صلاح الدين وحصر بعليک وأخذ البلاد منه الغلاء والوباء العام غارات الفرنج على بلاد المسلمين عدة حوادث	۱۳۲ حصر سيف الدين أخاه عماد الدين بسنجار انهزام سيف الدين من صلاح الدين وحصره مدينة حلب . ملك صلاح الدين قلعة بعرين
تليس ينبغي أن يحتاط من مثله . إرسال صلاح الدين العساكر إلى اليمن وفاة للملك الصالح وملك ابن عمه عز الدين مسعود مدينة حلب	۱۴۳ سنة خمس وسبعين وخمسمائة . غارات الفرنج على بلاد المسلمين سنة خمس وسبعين وخمسمائة .	۱۳۳ حصر سيف الدين أخاه عماد الدين من صلاح الدين وحصره مدينة حلب . ملك صلاح الدين قلعة بعرين
تسليم حلب إلى عماد الدين وأخذ سنجار عوضا عنها حصر صاحب ماردين قلعة البيرة	۱۴۴ سنة خمس وسبعين وخمسمائة .	۱۳۴ ملك البهلوان مدينة تبريز . وفاة شملة . هرب قطب الدين قايماز من بغداد
	۱۴۵ حصر صلاح الدين مدينة حلب . ملك صلاح الدين قلعة بعرين	۱۳۵ حصر سيف الدين من صلاح الدين ماملکه صلاح الدين بعد

صفحة	صفحة	صفحة
من حلب والملك العزيز إلى مصر وإخراج الأفضل من مصر إلى دمشق وإقطاعه إياها	القبض على مجاهد الدين وما حصل من الضرر بذلك	ومسير صاحبها مع صلاح الدين . عدة حوادث
١٧٣ وفاة البهلوان وملك أخيه قزل	١٦٤ غزو ييسان . غزو الكرك وملك العادل حلب . عدة حوادث.	١٥٥ سنة ثمان وسبعين وخمسمائة .
١٧٤ اختلاف الفرنج بالشام وانحياز القمص صاحب طرابلس إلى صلاح الدين . غدر البرنس ارباط . عدة حوادث	١٦٥ سنة ثمان وخمسمائة إطلاق مجاهد الدين من الحبس وانضمام إليه جم وفاء يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه يعقوب . غزو صلاح الدين الكرك	مسير صلاح الدين إلى الشام وإغارتة على الفرنج . ملك السفين شقيفا من الفرنج . إرسال سيف الإسلام إلى اليمن وتقلبه عليه
١٧٥ سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة . حصر صلاح الدين الكرك الغارة على بلد عكا . عود صلاح الدين إلى عسكره ودخوله إلى الفرنج . فتح صلاح الدين طبرية	١٦٦ ملك المثلثين بجاية وعودها إلى أولاد عبد المؤمن وفاء صاحب ماردين وملك ولده	١٥٦ إغارة صلاح الدين على انقور وغيره من بلاد الفرنج وأعمالها . حصر بيروت عبور صلاح الدين الثقات وملكه ديار الجزيرة
١٧٧ انهزام الفرنج بحطين	١٦٧ عدة حوادث . سنة إحدى وثمانين وخمسمائة . حصر صلاح الدين الموصل ورجيله عنها لوفاة شاه أرمن	١٥٧ حصر صلاح الدين للوصل ١٥٨ ملكه مدينة سنجار
١٧٩ عود صلاح الدين إلى طبرية وملك قلعها مع المدينة . فتح مدينة عكا . فتح عدة حصون	١٦٩ وفاة نور الدين صاحب الحصن . ملك صلاح الدين مياقارقين	١٥٩ عود صلاح الدين إلى حران اجتماع عز الدين وشاه أرمن . الظفر بالفرنج في بحر عذاب
١٨٠ فتح باقا فتح تيزين وصيدا وجيل وبيروت	١٧٠ عود صلاح الدين إلى بلد الموصل والصلح بينه وبين أتاكك عز الدين . الفتنة بين التركمان والأكراد بديار الجزيرة والموصل	١٦٠ عدة حوادث
١٨١ خروج الركبش إلى صور . فتح عسقلان وما يجاورها	١٧١ ملك المثلثين والعرب أفريقية وعودها إلى الموحدين	١٦١ سنة تسع وسبعين وخمسمائة . ملك صلاح الدين آمدوتسليمها إلى صاحب الحصن ملك صلاح الدين قل خالد وعينتاب من أعمال الشام
١٨٢ فتح البلاد والحصون المجاورة لعسقلان فتح البيت المقدس	١٧٢ عدة حوادث . سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة قتل العادل	١٦٢ وقعتين مع الفرنج في البحر والشام . ملك صلاح الدين حلب
١٨٦ رحيل صلاح الدين إلى صور ومحاصرتها	١٨٧ الرحيل عن صور إلى عكا	١٦٣ فتح صلاح الدين حارم .

صفحة	صفحة	صفحة
٢١٢	٢٠٠	١٨٨
عبر قتي الدين الفرات وملكه	وقعة ثانية للغزاة المتطوعة .	وتفريق العساكر . فتح هونين
حران وغيرها من البلاد الجزرية	وقعة ثالثة . مسير الفرنج إلى	حصر صفد وكوكب .
ومسيره إلى خلاط وموته	عكا ومحاصرتها	والسكرك الفتنة بعرفات وقتل
٢١٣	٢٠٢	ابن المقدم
وصول الفرنج من الغرب في	وقعة أخرى ووقعة العرب .	١٨٩
البحر إلى عكا	الوقعة الكبرى على عكا	قوة السلطان طغرل على قزل
٢١٤	٢٠٤	١٨٩
ملك الفرنج عكا	رحيل صلاح الدين عن الفرنج	ملك شرسني من الهند وانهمزام
٢١٥	٢٠٥	المسلمين بعدها . عدة حوادث
رحيل الفرنج إلى ناحية	وتمكنهم من حصر عكا .	١٩٠
عسقلان وتخريبها	وصول عسكر مصر والأسطول	سنة أربع وثمانين وخمسمائة .
٢١٦	٢٠٦	حصر صلاح الدين كوكب .
رحيل الفرنج إلى نظرون	المصري في البحر . عدة	رحيل صلاح الدين إلى بلد
٢١٧	٢٠٧	الفرنج . فتح جبلة
مسير صلاح الدين إلى القدس .	حوادث	١٩١
٢١٨	٢٠٨	فتح لا ذقية . حال أسطول
عود الفرنج إلى الرملة	سنة ست وثمانين وخمسمائة .	صقلية
قتل قزل أرسلان . عدة	وقعة الفرنج والبيزك وعود	١٩٢
حوادث . سنة ثمان وثمانين	صلاح الدين إلى منازلة الفرنج .	فتح صهيون وعدة من الحصون .
وخمسمائة . عمارة الفرنج .	إحراق الأبراج ووقعة الأسطول	فتح حصن بكاس والشفر .
٢١٩	٢٠٩	١٩٣
قتل المركيس ومات	وصول ملك الألمان إلى	فتح سمرينية . فتح برزية
الكندهرى . نهب بنى عامر	النشام وموته	١٩٤
البصرة . ما كان من ملك	٢٠٨	فتح درب ساك
انكلتار	وقعة للمسلمين والفرنج على عكا	١٩٥
٢٢٠	٢٠٩	فتح بفراس . الهدنة بين
استيلاء الفرنج على عسكر	خروج الفرنج من خنادقهم	المسلمين وصاحب انطاكية
للمسلمين وقتل . سير الأفضل	٢٠٩	١٩٦
والعادل إلى بلاد الجزيرة	تسيير البديل إلى عكا والتفريط	فتح السكرك وما يجاوره . فتح
٢٢١	٢١٠	قلعة صفد . فتح كوكب
عود الفرنج إلى عكا . ملك	فيه حتى أخذت . وفاة	١٩٧
صلاح الدين ياقا . الهدنة مع	زين الدين يوسف صاحب إربل	ظهور طائفة من الشيعة بمصر .
الفرنج وعود صلاح الدين	ومسير أخيه مظفر الدين إليها	انهزام عسكر الخليفة من
إلى دمشق	ملك الفرنج مدينة شلب وعودها	السلطان طغرل
٢٢٢	٢١١	١٩٨
وفاة قلع أرسلان	إلى المسلمين الحرب بين غياث	عدة حوادث
٢٢٣	٢١٢	١٩٩
ملك شهاب الدين أجهيز وغيرها	الدين وسلطان شاه بخراسان .	سنة خمس وثمانين وخمسمائة .
من الهند	عدة حوادث . سنة سبع وثمانين	فتح شقيق أرنوم . وقعة البيزك
	وخمسمائة . حصر عز الدين	مع الفرنج
	صاحب الموصل الجزيرة	

صفحة	صفحة	صفحة
٢٤٥ وفاة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وولايته ابنه محمد .	٢٣٥ عدة حوادث . سنة اثنتين وتسعين وخمسة . ملك شهاب الدين بهنكر وغيرها من بلاد الهند . ملك العادل مدينة دمشق من الأفضل	٢٢٤ عدة حوادث
٢٤٦ رحيل عسكر الملك العادل عن ماردين	٢٣٦ عدة حوادث	٢٢٥ سنة تسع وثمانين وخمسة . وفاة صلاح الدين وبعض سيرته
٢٤٧ الفتنة بفيروز كوه من خراسان	٢٣٧ سنة ثلاث وتسعين وخمسة . إرسال الأمير أبي الهيجاء إلى همدان وما فعله . ملك العادل باقا من الفرنج وملك الفرنج بيروت من المسلمين وحصر الفرنج تبنين ورحيلهم عنها	٢٢٦ حال أهله وأولاده بعده
٢٤٨ مسير خوارزمشاه إلى الري . عدة حوادث	٢٣٨ وفاة سيف الإسلام وملك ولده	٢٢٧ ذكر مسير أتابك عز الدين إلى بلاد العادل وعوده بسبب مرضه
٢٤٩ سنة ست وتسعين وخمسة . ملك العادل الديار المصرية	٢٣٩ عدة حوادث . سنة أربع وتسعين وخمسة . وفاة عماد الدين وملك ولده قطب الدين محمد	٢٢٨ وفاة أتابك عز الدين وشيء من سيرته . قتل بكتمر صاحب خلاط
٢٥٠ وفاة خوارزمشاه . عدة حوادث	٢٤٠ ملك نور الدين نصيبين . ملك الغورية مدينة بلخ من الخطا الكافرة	٢٢٩ عدة حوادث . سنة تسعين وخمسة . الحرب بين شهاب الدين وملك ينارس الهندي
٢٥١ سنة سبع وتسعين وخمسة . ملك الملك الظاهر صاحب حلب متبج وغيرها من الشام وحصره هو وأخوه الأفضل مدينة دمشق وعودها عنها	٢٤١ انهزام الخطا من الغورية . ملك خوارزمشاه مدينة بخارا	٢٣٠ قتل السلطان طغرل وملك خوارزمشاه الري ووفاته أخيه سلطانشاه
٢٥٢ ملك غياث الدين وأخيه ما كان لخوارزمشاه بخراسان	٢٤٢ عدة حوادث	٢٢١ مسير وزير الخليفة إلى خوزستان وملكها . حضر العزيز مدينة دمشق . عدة حوادث . سنة إحدى وتسعين وخمسة . ملك وزير الخليفة همدان وغيرها من بلاد العميم
٢٥٤ قصد نور الدين بلاد العادل والصلح بينهما	٢٤٣ سنة خمس وتسعين وخمسة . وفاة الملك العزيز وملك أخيه الأفضل ديار مصر	٣:٢ غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالأندلس
٢٥٥ ملك شهاب الدين نهر واله . ملك ركن الدين ملطية من أخيه وارزن الروم وفاة سقمان صاحب آمد وملك أخيه محمود . عدة حوادث	٢٤٤ حصر الأفضل مدينة دمشق وعوده عنها	٢٢٢ ما فعله للثم بأفريقية
٢٥٦ سنة ثمان وتسعين وخمسة . ملك خوارزمشاه ما كان		٢٢٤ ملك عسكر الخليفة أعفهان . ابتداء حال كوكجه وملكه بلد الري وهمدان وغيرها . حصر العزيز دمشق ثانية وانهزامه عنها

صفحة	صفحة	صفحة
دمياط وعودها إلى المسلمين	٣٠٥ عدة حوادث . سنة ثمان	٢٩٣ ماقعه خوارزمشاه بخراسان
٣١٥ حصر الفرنج قلعه الطور	وستائة . استيلاء منكلى على	٢٩٤ قتل غياث الدين محمود . عود
وتخريبها . حصر الفرنج دمياط	بلاد الجبل وأصفهان وغيرها	خوارزمشاه إلى الخطا . غدر
إلى أن ملكوها	وهرب ايتغمش نهب الحاج	صاحب سمرقند بالخوارزميين
٣١٧ ملك المسلمين دمياط من الفرنج	بمضى	٢٩٥ الوقعة التي أفنت الخطا
٣١٨ عدة حوادث	٣٠٦ عدة حوادث سنة تسع	٢٩٦ ملك نجم الدين بن لثك العادل
٣١٩ سنة خمس عشرة وستائة . وفاة	وستائة . قدوم ابن منكلى	خلاط
الملك القاهر وولايه ابنه	بغداد	٢٩٧ غارات الفرنج بالشام الفتنة
نور الدين وما كان من الفتن	٣٠٧ عدة حوادث . سنة عشر	بمخلاط وقتل كثير من أهلها .
بسبب موته إلى أن استقرت	وستائة . قتل ايتغمش عدة	ملك أبي بكر بن البهلوان
الأمور	حوادث	مراغه . عزل نصير الدين
٣٢٠ ملك عماد الدين زنكى قلاع	٣٠٨ سنة إحدى عشرة وستائة .	وزير الخليفة
المكارية والزوزان	ملك خوارزمشاه علاه الدين	٢٩٨ عدة حوادث . سنة خمس
٣٢١ اتفاق بدر الدين مع الملك	كرمان ومكران والسند عدة	وستائة . ملك الكرج أزجيش
الأشرف . انهزام عماد الدين	حوادث	وعودهم عنها
زنكى من العسكر البدرى .	٣٠٩ سنة اثنتى عشرة وستائة قتل	٢٩٩ قتل سنجرشاه وملك ابنه محمود
وفاة نور الدين صاحب الموصل	منكلى وولاية أغلش ما كان	٣٠٠ عدة حوادث
وملك أخيه	بيده من الممالك وفاة ابن الخليفة	٣٠١ سنة ست وستائة . ملك العادل
٣٢٢ انهزام بدر الدين من مظفر	٣١٠ ملك خوارزمشاه غزنة وأعمالها .	الخابور ونصيبين وحصر سنجار
الدين . ملك عماد الدين قلعة	استيلاء الدز على لهاوور وقتله	وعوده عنها واتفاق نور الدين
كواشى وملك بدر الدين قلعة	٣١١ عدة حوادث	أرسلان شاه ومظفر الدين
وملك الملك الأشرف سنجار	٣١٢ سنة ثلاث عشرة وستائة وفاة	٣٠٢ عدة حوادث . سنة سبع
٣٢٤ وصول الأشرف إلى الموصل	الملك الظاهر . عدة حوادث .	وستائة . عصيان سنجر مملوك
والصلح مع مظفر الدين . عود	سنة أربع عشرة وستائة . ملك	الخليفة بخوزستان ومسير
قلاع المكارية والزوزان إلى	خوارزمشاه بلد الجبل	الصاكر إليه
بدر الدين	٣١٤ ماجرى لأتابك سعد مع أولاده	٣٠٣ وفاة نور الدين أرسلان شاه
٣٢٥ قصد كيكارص ولاية حلب	ظهور الفرنج إلى الشام ومسيرهم	وشىء من سيرته
وطاعة صاحبها للأشرف	إلى ديار مصر وملككم مدينه	٣٠٤ ولاية ابنه الملك القاهر

صفحة	صفحة	صفحة
خاله حادثة غريبة لم يوجد مثلها	وصولهم إلى دربند شروان	وانهزام كيكافوس
۲۵۲ عدة حوادث . سنة إحدى	وما فعلوه	۳۲۶ وفاة الملك العادل وملك أولاده
وعشرين وستائة . عود طائفة	۳۲۰ مافعلوه باللان وقفجاق . مافعله	بعده
من التتر الى الري وهمذان	التتر بقفجاق والروس	۳۲۷ عدة حوادث . سنة ست عشرة
وغيرها	۳۴۱ عود التتر من بلاد الروس	وستائة . وفاة كيكافوس وملك
۲۵۳ ملك غياث الدين بلاد فارس .	وقفجاق إلى ملكهم . مافعله	كيفباز أخيه
عصيان شهاب الدين غازي على	التتر بما وراء النهر بعد بخارا	۳۲۸ موت صاحب سنجار وملك
أخيه الملك الأشرف وأخذها	وممر قند ملك التتر خراسان	ابنه ثم قتل ابنه وملك أخيه .
خلاط منه .	۳۴۳ ملكهم خوارزم وتخريبها .	إجلاء بني معروف عن البطائح
۲۵۴ حصار صاحب إربل الموصل .	ملك التتر غزته وبلاد الغور	وقتلهم . عدة حوادث
عدة حوادث	۳۰۴ تسليم الأشرف خلاط إلى أخيه	۳۲۹ سنة سبع عشرة وستائة . خروج
۲۵۵ سنة اثنتين وعشرين وستائة .	شهاب الدين غازي	التتر إلى بلاد الإسلام
حصار الكرج مدينة كنجة .	۳۴۵ عدة حوادث . سنة ثمان عشرة	۳۳۰ خروج التتر إلى تركستان
وصول جلال الدين بن	وستائة وفاة قتادة أمير مكة	وما وراء النهر وما فعلوه
خوارزمشاه إلى خوزستان	وملك ابنه الحسن وقتل	۳۳۳ مسير التتر إلى خوارزمشاه
والعراق	أمير الحاج	وانهزامه وموته
۳۰۶ وفاة الملك الأفضل وغيره	۳۰۶ عدة حوادث	۳۳۴ صفة خوارزمشاه وشيء من
من الملوك	۳۴۸ سنة تسع عشرة وستائة . خروج	سيرته
۲۵۷ خلع شروان شاه وظفر المسلمين	طائفة من قفجاق إلى اذربيجان	۳۳۵ استيلاء التتر الغربية على
بالكرج ظفر المسلمين بالكرج	وما فعلوه بالكرج وما كان	مازندران . وصول التتر إلى
أيضا	منهم	الري وهمذان . وصول
۳۵۸ ملك جلال الدين أذربيجان	۳۴۹ نهب الكرج بيلقان . ملك	التتر إلى اذربيجان
۳۵۹ انهزام الكرج من جلال الدين .	بدر الدين قلعة شوش	۳۳۷ ملك التتر مراغة
عود جلال الدين إلى تبريز	۳۵۰ عدة حوادث . سنة عشرين	۲۳۸ ملك التتر همذان وقتل أهلها
وملكه مدينة كنجة ونسكاحه	وستائة . ملك صاحب اليمن	۲۳۹ مسير التتر إلى اذربيجان
زوجة أوزبك	مكة حرسها الله تعالى . حرب	وملكهم أردوبل وغيرها .
۳۶۰ وفاة الخليفة الناصر لدين الله	بين المسلمين والكرج بأرمينية	وصول التتر إلى بلاد الكرج .
۳۶۱ خلافة الظاهر بأمر الله	۳۵۱ الحرب بين غياث الدين وبين	

صفحة	صفحة	صفحة
وملكها	دخول الكرج مدينة تفليس	۳۶۳ ملك بدر الدين قلعي العمادية
۳۸۱ عدة حوادث	وإحراقها - نهب جلال الدين	وهروور
سنة سبع وعشرين وستائة	بلد الإنمائية	۳۶۴ عدة حوادث
انهزام جلال الدين من كيقباز	الحرب بين جلال الدين والتتر-	۳۶۶ سنة ثلاث وعشرين وستائة .
والأشرف	دخول العساكر الأشرفية إلى	ملك جلال الدين تفليس
ملك علاء الدين أرزن الروم	أذربيجان وملك بعضها - وفاة	۳۶۷ مسير مظفر الدين صاحب إربل
۳۸۲ الصلح بين الأشرف وعلاء	المعظم صاحب دمشق وملك ولده	إذ الموصل وعوده عنها . عصيان
الدين وبين جلال الدين	۳۷۵ عدة حوادث . سنة خمس	كرمان على جلال الدين
ملك شهاب الدين غازي	وعشرين وستائة . الخلف بين	ومسيره إليها
مدينة أرزن	جلال الدين وأخيه	۳۶۸ الحرب بين عسكر الأشرف
ملك صونج قشالواقلعة رويندرز	الحرب بين جلال الدين والتتر-	وعسكر جلال الدين . وفاة
۳۸۳ سنة ثمان وعشرين وستائة	خروج الفرنج إلى الشام وعمارة	الخليفة الظاهر بأمر الله
خروج التترالي أذربيجان	صيدا	۳۶۹ خلافة ابنه المستنصر بالله .
وما كان منهم	۳۷۷ ملك كيقباز أرزنكان	الحرب بين كيقباز وصاحب
۳۸۴ ملك الترمراغة	خروج الملك الكامل	آمد حصر جلال الدين مدينتي
وصول جلال الدين إلى آمد	۳۷۸ نهب جلال الدين بلاد أرمينية	آني وقرص
وانهزامه عندها وما كان منه	عدة حوادث	۳۷۰ حصر جلال الدين خلاط .
دخول التردبار بكر والجزيرة	سنة ست وعشرين وستائة	إيقاع جلال الدين بالتركان
وما فعلوه في البلاد من الفساد	تسليم البيت المقدس إلى الفرنج	الإبوائية
۳۸۵ وصول طائفة من التترالي أربل	ملك الملك الأشرف مدينة دمشق	۳۷۱ الصلح بين المعظم والأشرف .
ودقوقا	۳۷۹ القبض على الحاجب على وقتله	الفتنة بين الفرنج والأرمن
۳۸۶ طاعة أهل أذربيجان للتتر	۳۸۰ ملك الكامل مدينة حماة	۳۷۲ عدة حوادث
۳۸۷ عدة حوادث	حصر جلال الدين خلاط	۳۷۳ سنة أربع وعشرين وستائة .

